

حياة المسيح

كتاب في ٧ أجزاء
الدكتور جورج فورد
الكتاب الأول: ولادته وصبوته

All Rights Reserved

جميع الحقوق محفوظة

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف ولا يجوز نشر أو إعادة نشر أو طبع هذا الكتاب بأي طريقة طباعية أو إلكترونية بهدف بيعها أو المتاجرة بها أو وضعها على شبكة الإنترنت إلا بإذن من الخدمة العربية للكراسة بالإنجيل. يمكنك أن تحتفظ بالكتب والمقالات للإستخدام الشخصي، كما يمكنك أن تنسخها لأجل توزيعها مجاناً لتعم الفائدة.

الكتاب الأول: ولادته وصبوته

الحاجة إلى المسيح

وصف شخصية المسيح

مصادر حياة المسيح

نسب يسوع المسيح البشري

جبرائيل يبشّر زكريا

جبرائيل يبشّر مريم

ولادة المسيح

زيارة المجوس ليسوع الطفل

صُبوّة المسيح

يوحنا المعمدان يجهز الطريق

مسابقة الكتاب

الكتاب الثاني: تجربته وبداية خدمته

إبليس يجرب المسيح

المسيح يختار تلاميذه الأولين

أولى معجزات المسيح

المسيح يطهر الهيكل

نيقوديموس يزور المسيح

المسيح يلتقي بالسامرية

المسيح الطبيب المعلم

المسيح يدعو أربعة تلاميذ

المسيح يخرج الشياطين

شفاء كثيرين في كفرناحوم

مسابقة الكتاب

الكتاب الثالث: سلطانه وتعليمه

شفاء أبرص

معجزتان في كفرناحوم

المسيح يدعو متى

شفاء مريض بركة بيت حسدا

تعليم المسيح عن الصوم

تعليم المسيح عن السبت

المسيح يختار تلاميذه

الموعظة على الجبل

شفاء خادم قائد المئة

المسيح يقيم شاباً من الموت

مسابقة الكتاب

الكتاب الرابع: معجزاته العظيمة

المعمدان يشك في المسيح

المسيح يزور فريسيّاً

أقرباء المسيح الحقيقيين

المسيح يعلم بأمثال

المسيح يهدئ العاصفة

المسيح يشفي لجئون

المسيح يقيم ابنة يائرس من الموت

المسيح يرسل الإثني عشر للكراسة

المسيح يشبع خمسة آلاف

المسيح يمشي على الماء

طهارة القلب وطهارة الطقس

المسيح يبشر الوثنيين

مسابقة الكتاب

الكتاب الخامس: جوهره واتباعه

من هو المسيح وماذا سيفعل؟

المسيح على جبل التجلي

المسيح يشفي مسكوناً بروح نجس

المسيح يعلم عن العظمة الحقيقية

شروط اتباع المسيح

من هو قريبي؟

المسيح يفتح عيني مولود أعمى

المسيح الراعي الصالح

من تعاليم المسيح

تعليم عن الصلاة

مسابقة الكتاب

الكتاب السادس: دخوله أورشليم

المسيح يبحث عن الضال

المسيح يروي مثلين

مثل الوكيل الظالم

المسيح يُقيم لعازر من الموت
لقاءات وأحاديث للمسيح
شفاء عشرة بُرص
المسيح الملك يدخل أورشليم
المسيح يطهر الهيكل
المسيح يلعن التينة غير المثمرة
المسيح يجاوب على أسئلة شيوخ اليهود ثم يسألهم
المسيح يعلن أموراً آتية
المسيح يرسم فريضة العشاء الرباني
خطاب المسيح في العلية
مسابقة الكتاب
الكتاب السابع: موته وقيامته
القبض على المسيح في بستان جثسيماني
شيوخ اليهود يحاكمون المسيح
الوالي الروماني يحاكم المسيح
المسيح يموت مصلوباً
المسيح في القبر
المسيح قام بالحقيقة قام
المسيح يظهر بعد القيامة
ظهوره لتلميذي عمواس
المسيح يصعد للسماء
مسابقة الكتاب

الحاجة إلى المسيح

مرت السنين والإنسان يزداد ظلماً وتعاسة، بسبب زيادة بُعده عن الكمال. وقد عجزت الفلسفة البشرية عن بلوغ الكمال وإصلاح الحال. ويظهر هذا مما قاله سقراط، الحكيم اليوناني الشهير، لتلميذه ألسبيداس: "يا عزيزي ألسبيداس، إني لا أستطيع أن أبين لك كيف تحصل على الخير الأعظم، لأنني لا أعلم. لكنني موقن أن الخالق مُحسن. وأنه بناء على إحسانه سيرسل في الوقت المناسب معلماً يعلم الإنسان كيف يحصل على ذلك الخير".

علم الإختبار هذا الفيلسوف أن الناس الفاسدين بطبيعتهم ليسوا أهلاً لإصلاح ما هو فاسد، وقد قال الشاعر العربي:

هل يُرْتَجَى الإصلاح من فاسد

فالشهد لا يُجَنَى من الحنظل

قد وضع قادة الأمم شرائع لإصلاح الحال، كما نقرأ عن عصر حمورابي وفلاسفة اليونان وحكماء مصر ومشتري الرومان ومجوس فارس وبراهمة الهند وغيرهم. لكن حكمة هؤلاء كلهم لم تبلغ المطلوب. ومع أن شريعة موسى شريعة إلهية، إلا أنها كانت قاصرة عن الإصلاح الكامل، لأن القصد منها كان تعريف الإنسان بخطئه، وحثه على طلب الكمال، وإرشاده إلى مصدر الإصلاح، فلم يبقَ هناك إلا الوساطة الوحيدة التي عيَّنَها الله لبلوغ الإنسان درجة الكمال، وهي إرسال المعلم السماوي، ابن محبته، يسوع المسيح، الذي جاء بما لا يستطيع أن يأتي مثله حكيمٌ بشري. فإنه فضلاً عن جلال شريعته وكمالها، لم يرتكب - بفكر أو قول أو عمل - أمراً مخالفاً لنقطة واحدة مما أوجب على الناس حفظه. وهذا ما قصر عنه كل مصلح سواه.

حاجتنا العظمى إذاً ليست إلى من يعلمنا طريق الكمال، بل إلى من يسير أمامنا في تلك الطريق، لنحتذي مثاله ونقتفي آثاره. ولم تطأ أرض البشر قدوس كامل غير يسوع ابن مريم، الكامل في ذاته وصفاته. وشتان ما بين تأثير علم الكلام وعلم المثال، لأن علم الكلام نظري شفهي، أما علم المثال فحسي عملي، ولذلك أصبح المسيح مطمح أبصار العالم الفاسد بأسره، ليمنحه الصلاح والسعادة وبلوغ درجة الكمال. فالأمر الهام هو معرفة ما عمله المسيح لأجلنا، وما علمه. وبعبارة أجلى درس حياة المسيح لنرى فيها طريق الإصلاح والسعادة. إن كل شيء تقريباً يحتمل المبالغة إلا الكلام عن المسيح، فإن بلاغة كل بليغ تصغر عن وصف تلك الحياة السامية الكاملة. وأعظم مكافأة يتوقعها إنسان هي أن يكون وسيلة لاقتياد الناس إلى المسيح راعي نفوسهم وأسقفها، ورسول المحبة السماوية،

لننال به الكمال الحقيقي والخلاص المجاني، ونتمتع معه بالحياة الأبدية المقدسة في الأمجاد السماوية. وقد وصف أحد المرنمين السيد المسيح بالقول:

قُمْ وَنَعَمْ يَا مَرْتَمَ بِاسْمِ فَادِينَا الْحَبِيبِ

برخيم اللحن عَظَّمْ ذَلِكَ الشَّخْصَ الْعَجِيبَ

ذلك السامي السجايا صاحب المجد الرفيع

خالق كل البرايا لطفه محيي الجميع

أبدِيّ أزلِي كان من قبل الجبال

وهو قدوس زكي لا بسُّ ثوب الجلال

شمسُ برِّ ذو جمال كوكب الصبح المنير

وحده حاوي الكمال ما له أصلاً نظير

وقد قرأ المسيح نبوةً من سفر إشعياء، جاءت عنه قبل مجيئه للعالم بسبعمئة سنة، تقول: "رُوحُ السَّيِّدِ الرَّبِّ عَلَيَّ، لِأَنَّ الرَّبَّ مَسَحَنِي لِأُبَشِّرَ الْمَسَاكِينَ، أَرْسَلَنِي لِأَعْصِبَ مُنْكَسِرِي الْقُلُوبِ، لِأُنَادِيَ لِلْمَسْتَبِينَ بِالْعِثْقِ، وَلِلْمَأْسُورِينَ بِالْإِطْلَاقِ. لِأُنَادِيَ بِسَنَةِ مَقْبُولَةٍ لِلرَّبِّ، وَبِیَوْمِ انْتِقَامٍ لِإِلَهِنَا. لِأُعْزِّي كُلَّ النَّائِحِينَ" (إشعياء ٦١: ١ و ٢).

وقال الإنجيل عن المسيح:

"نَظَرِينَ إِلَى رَئِيسِ الْإِيمَانِ وَمُكَمِّلِهِ يَسُوعَ، الَّذِي مِنْ أَجْلِ السُّرُورِ الْمَوْضُوعِ أَمَامَهُ اخْتَمَلَ الصَّلِيبَ مُسْتَهِيناً بِالْخِزْيِ، فَجَلَسَ فِي يَمِينِ عَرْشِ اللَّهِ. فَتَفَكَّرُوا فِي الَّذِي اخْتَمَلَ مِنَ الْخُطَاةِ مَقَاوِمَةً لِنَفْسِهِ مِثْلَ هَذِهِ لِنَلَّا تَكَلُّوا وَتَخُورُوا فِي نَفُوسِكُمْ" (عبرانيين ١٢: ٢ و ٣).

"تَارِكاً لَنَا مِثَالاً لِكَيْ تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِهِ" (١ بطرس ٢: ٢١).

ولهذا نقول إننا محتاجون للمسيح للأسباب الخمسة التالية:

لأن المسيح هو القائد الديني الذي امتاز بحبه للبشر. ونجاح رسالته اليوم في العالم هي نتيجة حبه المتفاني وحضوره الحقيقي الدائم مع أبناء شعبه.

لأن المسيح هو موضوع الإنجيل الذي هو أعظم بشارة سمعتها آذان البشرية، لأنها بشارة اهتمام الله بخير الجنس البشري زمنياً وأبدياً.

لأن المسيح هو المخلص الذي لبس طبيعتنا البشرية اختياريًا، ليتقرب من الناس، وليتمكن من إنجاز وظيفته كمخلص الجميع، لأنه يحب كل بني آدم الساقطين.

لأن المسيح هو الذي عيّنه الله منذ الأزل، والذي أرسله في ملء الزمان، ليعلن للبشر محبة الله التي لا تُحد ولا تُوصف، وليتمم عمل الفداء.

لأن المسيح هو كلمة الله المتجسد، المولود الوحيد الذي لا يكون إلا على صورة المولود منه، الذي وصفه الإنجيل بأنه "محبة". في شخص يسوع المسيح أظهر الله لنا المحبة الإلهية المتفانية، دون تمييز مذهبي - ليس نحو محبيه فقط - بل نحو مبغضيه وصاليبيه أيضاً، وأورث البشر بعده مبدأ المحبة للجميع حتى الأعداء، وأدرج ذلك في تعاليمه، وأيده في سلوكه، فأعلن أن المحبة هي تكميل الشريعة.

تضع بعض المذاهب الدينية التنبير على قدرة الإله الذي يعبدونه، وبعضها على قداسته، وغيرهم على حكمته، وآخرون على رحمته. وأما المسيحية، فمع مجاهرتها بهذه كلها، تخصّص فوقها وتقدّم عليها ما أتى يسوع المسيح ليعلنه جلياً، وهو محبة الله الأبوية التي تعمُّ البشر والتي تسعى لتردّهم جميعاً حتى أشرّهم عن الضلال، وتخلصهم من الهلاك (يوحنا ١٦: ٣).

ولا يحقُّ لأحد أن يُسمّى مسيحياً ما لم يكن على مبدأ المحبة لجميع الناس حتى الأشرار والأعداء، للخدمة والتضحية في سبيل الخير الحقيقي للآخرين.

وصف شخصية المسيح

كلما كان ادعاء الإنسان كبيراً صعبَ عليه أن يبرهنه، وسهّلَ على الغير إثبات خطئه، لذلك يتجنّب كلُّ عاقلٍ الادعاء الكاذب، خشية الفشل، وتعرّض زعيمه للاحتقار.

والمسيحية أصعب المذاهب في ما تدّعيه لزعيمها. فإنَّ صحَّ هذا الادعاء أصبحت سيّدة المذاهب، وزعيمها سيد الزعماء. أما إثبات ما تتطلبه المسيحية فيتوقف على مطالعة تاريخ حياة المسيح الذي قال: "مِنْ ثَمَارِهِمْ تَعْرِفُونَهُمْ" (متى ١٦: ٧). فعلى أقوال السيد المسيح وأفعاله ونتائج ما قال وفعل، يُبنى الحكمُ في مقدار عظمتة الحقيقية - وليس على ما ينعته به المحبون، أو يطعنه به المخالفون.

يوم كان المسيح معلماً جليلياً فقيراً أوثقه خصومه، رؤساء اليهود، وأحضره مخفوراً مكتوفاً إلى الوالي الروماني الصارم بيلاطس البنطي، طالبين الحكم عليه بالصّليب. وبعد المحاكمة صرّح بيلاطس ببراءة المسيح، وقال للشاكين: "أنا لستُ أجد فيه علّة واحدة". فألحوا عليه أكثر حتى جدّد المحاكمة ثم قال: "وَمَا أَنَا قَدْ فَحَصْتُ قُدَّامَكُمْ وَلَمْ أَجِدْ فِي هَذَا الْإِنْسَانِ عِلَّةً مِمَّا تَشْتَكُونَ بِهِ عَلَيْهِ. وَلَا هِيرُودُسُ (الملك) أَيْضاً، لِأَنِّي أَرْسَلْتُكُمْ إِلَيْهِ" (لوقا ١٣: ٢٣-١٥). ثم أوصت زوجة بيلاطس بالمسيح بسبب حُلمِ الْمَهَا، وسمّته "ذَلِكَ الْبَارَّ" (متى ٢٧: ١٩). ثم بعد ذلك قال بيلاطس ثالثة: "إِنِّي لَمْ أَجِدْ فِيهِ عِلَّةً لِلْمَوْتِ" (لوقا ٢٣: ٢٢). ولما رضح أخيراً لطلب اليهود بغير رضى وسلّم المسيح للصّليب، لم يفعل إلا بعد محاولة أخرى لتهدئة ضميره الثائر، إذ أخذ ماء وغسل يديه قدام الجميع قائلاً: "إِنِّي بَرِيءٌ مِنْ دَمِ هَذَا الْبَارِّ. أَبْصِرُوا أَنْتُمْ" (متى ٢٧: ٢٤).

فحص بيلاطس وكانت نتيجة فحصه أنه وجد المسيح باراً، وهذه النتيجة التي وصل إليها بيلاطس في نهاية حياة المسيح الأرضية هي مفتاحٌ ضروري في معرفة الشخص الذي سمّاه هذا الوالي الروماني وامراته "ذلك البار". ومعلومٌ أن العالم الراقي بأسره يؤيدهما في حكمهما في صلاح يسوع المسمّى المسيح. وشهادات اليهودي والمسلم والوثني والكافر مجمعة على هذا القرار.

فأين الحل المعقول للمشكل الدائم المتعلّق بهذا الشخص، وهو التوفيق بين حكم العالم بأسره بصدق المسيح وقداسته، وبين كل ما (أ) ادّعه لنفسه مما لا يجوز لمجرد بشر أن يدّعيه، و (ب) كل ما فعله ممّا لا يستطيع أن يفعله مجرد بشر، و (ج) كل ما قيل أن يقوله فيه الآخرون أو يفعلوه له، مما لا يجوز أن يُقال في مجرد بشر أو يُفعل لهم؟

لا يختلف اثنان على أن ادعاء الإنسان بأكثر مما له، أو بغير ما له، يكون خداعاً أو غباوة أو اختلالاً عقلياً. وبالطبع لا يخطر ببال أحد أن يتهم يسوع المسيح بشيء من هذه، فكراً أو قولاً أو فعلاً.

ولا يخفى أن الرسل والأنبياء: كلما تقدموا في الصلاح، زاد تواضعهم وانكسار الروح فيهم بسبب زلاتهم أو تقصيراتهم، لأن التواضع من أسمى الفضائل، والاعتراف بالخطأ من أول الواجبات. والصلاح يولد الشعور الدقيق في الضمير. فكما يشمئز المتمدن من أقدار لا يبالى بها المتوحش، هكذا يستغفر الصالح على أمور تُعتبر طفيفة عند الأقل صلاحاً، وتكون عند الأشرار موضع الافتخار. ففي سيرة أعظم الأنبياء والرسل الذين ورد خبرهم في كتاب الوحي، نظير موسى وداود ودانيال وبطرس وبولس، ترى اعترافات مؤثرة جداً، واسترحاماً كثيراً - وذلك يزيد اليقين بصلاحهم الحقيقي، لأن ليس بينهم من ادعى لنفسه الكمال. ولكن المسيح يختلف في هذا عن جميع الصالحين، وهذا الاختلاف يتطلب تفسيراً مقنعاً، وإجابة للسؤال: من هو يسوع هذا؟

ولا يغيب عن البال أن الذين وصفوا المسيح بالكمال، هم الذين لازموا نهاراً وليلاً، صيفاً وشتاءً، زهاء ثلاث سنين، فتيسر لهم أن يعرفوا بواطنه وظواهره. ولم يكونوا من المتساهلين الذين يسدلون الستار على التقصيرات والهفوات أو يسكتون عنها، بل هم الذين بينما يشرحون سيرة المسيح، ويؤيدون سمو كماله، كانوا يذكرون سقطاتهم وتقصيراتهم. وفي هذا دلالة كافية على إخلاصهم وحكمتهم واستقامتهم، ومستند كافٍ لوضع شهاداتهم عن المسيح محل اليقين والاحترام.

من غرائب التاريخ أن الدين المسيحي دام واستمر ونجح، رغم أنه قاسى في كل ماضيه، ولا يزال يقاسى، أمرّ المقاومات وأشدّها من خصومة الأقوياء، الذين قصدوا أن يحرقوه ويضعفوه، بل ويلاشوه، لأنه منذ يوم حاول هيرودس الملك قتل الطفل يسوع في بيت لحم إلى يومنا هذا، لم ينفك أعداء المسيحية العديدون المقتدرون، عن محاربة الكنيسة المسيحية وتعاليمها بذات القصد الذي ساق هيرودس إلى ما فعل.

ولا يخفى على كل مطلع مفكر أن جميع أبواب الاعتراض على التعاليم والعقائد المسيحية فُتحت قديماً في العصر الرسولي. وكانت تنام وتستيقظ جيلاً بعد جيل، وبعضها يموت لسخافته عند بيان ما يدحضه تماماً. وكان أنصار هذه الاعتراضات الكفرية وزعماء هذه المقاومات يزعمون ثم يفتخرون بأنهم قد هدموا أركان المسيحية حتى أصبحت ملاشاتها أكيدة، مدّعين أن كل احترام لكتابتها المقدس قد زال، وأن أهل العالم قد رفضوا أهم القضايا المدرجة فيه. ولكن تعليم الإنجيل عن شخص المسيح اجتاز كل امتحان وثبت.

وقد قال المسيح في صلاته: "أَيُّهَا الْأَبُّ، هَذِهِ هِيَ الْحَيَاةُ الْأَبَدِيَّةُ: أَنْ يَعْرِفُوكَ أَنْتَ الْإِلَهَ الْحَقِيقِيَّ وَحَدَّكَ وَيَسُوعَ الْمَسِيحَ الَّذِي أَرْسَلْتَهُ" (يوحنا ١٧: ٣). وقال الرسول بولس إنه يحسب كل ما في الدنيا نفاية لكي يعرف المسيح حق المعرفة (فيلبي ٣: ٨).

ويوحنا الرسول، الذي صوّر بقلمه أجمل الصور الأربع للمسيح، يقول في آخر كلامه: "وَأَمَّا هَذِهِ فَقَدْ كُتِبَتْ لِتُؤْمِنُوا أَنَّ يَسُوعَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ، وَلِكَيْ تَكُونَ لَكُمْ إِذَا آمَنْتُمْ حَيَاةً بِاسْمِهِ" (يوحنا ٣١: ٢٠).

فحبذا إن توصّل كل إنسان إلى الإيمان الشخصي الحي بهذا المخلص المنفرد عن البشر، مع كونه أيضاً شريكاً للبشر في طبيعة بشرية حقيقية، لأن هذا الإيمان يضمن لصاحبه الحياة الأبدية، باسم المسيح الذي كتب فيه الرسول بولس أن الله "رَفَعَهُ وَأَعْطَاهُ اسْماً فَوْقَ كُلِّ اسْمٍ لِكَيْ تَجْتَنُوا بِاسْمِ يَسُوعَ كُلُّ رُكْبَةٍ مِمَّنْ فِي السَّمَاءِ وَمَنْ عَلَى الْأَرْضِ وَمَنْ تَحْتَ الْأَرْضِ، وَيَعْتَرَفَ كُلُّ لِسَانٍ أَنَّ يَسُوعَ الْمَسِيحَ هُوَ رَبُّ لِمَجْدِ اللَّهِ الْأَبِ" (فيلبي ٩: ٢-١١).

مصادر حياة المسيح

وصلتنا الأخبار الحقيقية عن يسوع المسيح من أربعة مصادر تُسمَّى أناجيل أو بشائر لمتى ومرقس ولوقا ويوحنا.

وكلمة "الإنجيل" لفظة يونانية معرَّبة، ومعناها "البشرى" أو "الخبر المفرح" وأول ما استُعملت له هو بشرى الخلاص الذي جاء المسيح به - بمعنى التعاليم التي تحتوي حقائق تلك البشرى، ثم سيرة المسيح التي جسَّدت تلك البشرى.

وكلمة الإنجيل بهذا المعنى، لم تُعنِ بالأصل أي كتاب، بل هي البشرى نفسها ونُقلها. وقبل تدوين الإنجيل كتابة كان الإنجيل الشفهي - أي نقل البشرى شفهاً على لسان الرسل وتلاميذهم وكان قد انتشر في الإمبراطورية الرومانية كلها. لم يكتب السيد المسيح إنجيلاً ولم يطلب من تلاميذه أن يكتبوا، فوحي المسيحية ليس في الدرجة الأولى وحي كتاب يُنزل حروفاً وكلمات، بل وحي شخص حي، هو المسيح نفسه. ويقول الرسول بولس إن الله الذي كلَّم الآباء، قديماً بواسطة الأنبياء مراراً كثيرة وبطرق شتى، كلمنا نحن أخيراً بمن هو نفسه كلمة الله. ويقول الرسول يوحنا في مطلع رسالته الأولى غن الذي سمعه الرسل ورأوه بعيونهم وتأمّلوه ولمسته أيديهم، بشروا به العالم، ناقلين إليه الإنجيل، أي بشرى الرجاء والخلاص.

ولكن قادة المسيحية شعروا بضرورة تدوين أخبار حياة المسيح لتبقى مرجعاً وثيقاً للجماعات المسيحية، بعيدة عن كل شبهة أو تلاعب أو تحريف. وكان لا بد من العمل في زمن رسل المسيح أنفسهم، وهم الذين تلقوا البشرى وعاشوها قبل أن ينقلوها لغيرهم، فعمد البعض بوحي من الروح القدس إلى تدوين الإنجيل كتابة، فكانت الروايات الأربع التي نسميها الأناجيل الأربعة، الموجودة هنا اليوم بالكتاب المقدس - فليس في المسيحية إلا إنجيل واحد - أي البشرى التي حملها المسيح لنا، وجسَّدها في حياته، ولقَّنها في تعليمه. وبهذا المعنى لم يرد لفظ الإنجيل إلا مفرداً في العهد الجديد، بمختلف أسفاره. إلا أن نقل تلك البشرى إلينا وصل في روايات أربع تتفق جوهرها وموضوعاً. الإنجيل البشرى واحدٌ إذاً. أما مدونوه فأربعة: متى ومرقس ولوقا ويوحنا - متى ويوحنا من تلاميذ المسيح الإثني عشر. مرقس تلميذ الرسول بطرس، ولوقا تلميذ الرسول بولس - وقد كتب مرقس ولوقا تحت إشراف الرسولين بطرس وبولس.

كتب متى قصة البشرى لبني قومه من اليهود، وهذا واضح من اهتمامه بنبوات التوراة عن السيد المسيح، وكيف تحققت كلها بمجيء المسيح. أما مرقس فقد دوّن قصة البشرى عندما كان في روما عاصمة الإمبراطورية الرومانية، ووجَّهها للمسيحيين الذين جاءوا من خلفية رومانية. ولذلك فإن مرقس ينبّر على ما يستدعي انتباه الرومان من مظاهر قوة المسيح

وعظمته. ودوّن لوقا البشرى للمسيحيين الذين جاءوا من خلفية يونانية، ولذلك تراه يشدد على الإرادة والقلب اللذين بدونهما لا يكتمل الإنسان، واللذين بهما ظهرت محبة الله للبشر، حتى سُمّي إنجيل لوقا بإنجيل الرحمة. أما يوحنا فقد كتب البشرى بعد انتشار المسيحية، فكتب لتوضيح بعض الأمور، وللرد على بعض الأفكار التي دخلت إلى التعليم المسيحي.

بشارة متى

"كِتَابُ مِيلَادِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ ابْنِ دَاوُدَ ابْنِ إِبْرَاهِيمَ" (متى ١: ١).

كتب متى بشارته للمؤمنين من اليهود، وهو يصوّر لنا حياة المسيح، لا كحادثة مستقلة بذاتها، بل كإتمام لسلسلة تاريخية ونبوية بدأت من قديم الزمان، وعلى هذا فهو كتاب ميلاد يسوع المسيح ابن داود ابن إبراهيم جدّ اليهود. ويشير متى دوماً إلى أسفار التوراة ليظهر كيف تمت النبوات في المسيح، فصار المسيح "مكمل كل بر" أي مكمل كتابات موسى والأنبياء. وقد اقتبس متى من العهد القديم ٧٥ آية توضح أن المسيح تتميم البركة الموعودة لإبراهيم ونسله، وأنه جاء ليؤسس ملكوت السموات ليصحح خطأ اليهود الذين ظنوا المسيا الآتي سيؤسس مملكة سياسية مركزها أورشليم. ومتّى واحد من تلاميذ المسيح الإثني عشر.

بشارة مرقس

"بَدْءُ إِنْجِيلِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ ابْنِ اللَّهِ" (مرقس ١: ١).

لم يكن مرقس من رسل المسيح، ولم يُذكر اسمه مطلقاً في البشائر الأربع. كان اسمه العبراني يوحنا، واسمه اليوناني (المتفق مع الروماني) مرقس. وقد ورد ذكر هذا الكاتب أول مرة بعد صعود المسيح ببضع سنين. وكان ابن امرأة مؤمنة بالمسيح اسمها مريم، أخت برنابا اللاوي القبرصي الذي اشتهر كثيراً في التبشير. ويقول الرسول بطرس عن مرقس إنه ابنه، وهي تسمية حُبّية تدل على أن مرقس اهتدى إلى الإيمان بواسطة بطرس. وقد اتفقت كتابات الآباء المسيحيين على أن مرقس كان تلميذاً لبطرس، وأنه كتب بشارته بتوجيهه، وهذا هو السبب في عدم كتابة بطرس بشارته باسمه.

أما مقدمة مرقس فتقول: "بدء إنجيل يسوع المسيح ابن الله". ومنها نتبين أن سيرة المسيح هي إنجيل، أي بشارة مفرحة مثلثة، ظاهرة في الاسم المثلث الوارد في هذه المقدمة أي: يسوع، ومسيح، وابن الله.

يسوع: وقد أطلق على المسيح اسم يسوع (أي مخلص) بأمر الملاك الذي كرر هذا الاسم عندما بشرَ بقرْب ولادته. وفسَّر تخصيص هذا الاسم لهذا المولود بقوله: "لأنَّه يُخَلِّصُ شَعْبَهُ مِنْ خَطَايَاهُمْ" (متى ١: ٢١) فيكون خلاصه خلاصاً أبدياً.

المسيح: ويُسمَّى "المسيح" لأنه ابن داود، الموعود به من زمن آدم فما بعده، إذ قد مسحه الله نبياً وكاهناً وملكاً. وأرسله إلى العالم حسب تلك النبوات الثمينة التي قدمها للآباء والأنبياء، في سلسلة متواصلة كريمة، جيلاً بعد جيل.

ابن الله: ويُسمَّى ابن الله بحق، لأنه لم يأخذ هذا الاسم الجليل من بشر، بل بإعلان إلهي ورد على لسان الملاك الذي بشر العذراء الطاهرة بأنها ستلد ابناً يكون عظيماً "وَابْنُ الْعَلِيِّ يُدْعَى" (لوقا ١: ٣٢). ولما طلبت إيضاح هذا الأمر المستحيل عندها، حقَّقه لها جبرائيل بالتكرار، لأنه كان من الضروري إعلان مقامه الإلهي الحقيقي قبل مجيئه، فليس بين كل أخبار التاريخ البشري خبر يستحق أن يُسمَّى إنجيلاً كخبر المسيح، فهو حقاً بشاراً. ولا عجب أن النبي الإنجيلي إشعياء السابق للمسيح بنحو سبعمائة سنة قال فيه: "رُوحُ السَّيِّدِ الرَّبِّ عَلَيَّ، لِأَنَّ الرَّبَّ مَسَحَنِي لِأُبَشِّرَ الْمَسَاكِينَ" (إشعياء ٦١: ١) ولا عجب أن الملاك لما أخبر رعاة بيت لحم بولادته قال: "أُبَشِّرُكُمْ بِفَرَحٍ عَظِيمٍ" (لوقا ١٠: ٢). ففاتحة مرقس هذه المكوَّنة من ست كلمات، تلخص ما هو ضروري أن نعرفه عن يسوع المسيح.

بشارة لوقا

"إِذْ كَانَ كَثِيرُونَ قَدْ أَخَذُوا بِتَأْلِيلِ قِصَّةٍ فِي الْأُمُورِ الْمُتَيَقَّنَةِ عِنْدَنَا، كَمَا سَلَّمَهَا إِلَيْنَا الَّذِينَ كَانُوا مُنْذُ الْبَدْءِ مُعَايِنِينَ وَخُدَّاماً لِلْكَلِمَةِ، رَأَيْتُ أَنَا أَيْضاً إِذْ قَدْ تَتَبَّعْتُ كُلَّ شَيْءٍ مِنَ الْأَوَّلِ بِتَدْقِيقٍ، أَنَّ أَكْتُبَ عَلَى التَّوَالِي إِلَيْكَ أَيُّهَا الْعَزِيزُ ثَاوُفِيلُسُ، لِتَعْرِفَ صِحَّةَ الْكَلَامِ الَّذِي عَلِّمْتَ بِهِ" (لوقا ١: ١-٤).

ولوقا مثل مرقس، غير مذكور في البشائر الأربع، لكن لنا لمحات عن حياته في سفره الثاني (أي سفر أعمال الرسل) تُبين أنه رافق الرسول بولس في أسفاره التبشيرية. ثم نعلم من إحدى الرسائل أنه كان طبيباً محبوباً (كولوسي ٤: ١٤). والظاهر أنه كان من أهل العلم، لأن لغة كتابته في اليونانية تمتاز بالفصاحة.

ومقدمة بشارته رسالة وجيزة إلى صديقه اليوناني صاحب السمو ثاوفيلس. المؤمن بالمسيح، بيَّن فيها لوقا أنه قصد من كتابتها إفادة ثاوفيلس وتثبيتته في إيمانه الجديد، فأكد له أنه اجتهد ليقف على الأخبار الراهنة عن المسيح، فقال: "تَتَبَّعْتُ كُلَّ شَيْءٍ مِنَ الْأَوَّلِ بِتَدْقِيقٍ، أَنَّ أَكْتُبَ عَلَى التَّوَالِي إِلَيْكَ أَيُّهَا الْعَزِيزُ ثَاوُفِيلُسُ، لِتَعْرِفَ صِحَّةَ الْكَلَامِ الَّذِي عَلِّمْتَ بِهِ" (لوقا ١: ١-٤).

بشارة يوحنا

"فِي الْبَدْءِ كَانَ الْكَلِمَةُ، وَالْكَلِمَةُ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ، وَكَانَ الْكَلِمَةُ اللَّهُ. هَذَا كَانَ فِي الْبَدْءِ عِنْدَ اللَّهِ. كُلُّ شَيْءٍ بِهِ كَانَ، وَبِغَيْرِهِ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِمَّا كَانَ. فِيهِ كَانَتِ الْحَيَاةُ، وَالْحَيَاةُ كَانَتْ نُورَ النَّاسِ" (يوحنا ١: ٤).

والبشير الرابع هو يوحنا الرسول، الذي كان من تلاميذ يوحنا المعمدان سابقاً، وأحد الشخصين اللذين سبقا الجميع في التتلمذ للمسيح. وهو الذي نال لقب "التلميذ الذي كان يسوع يحبه" (يوحنا ١٣: ٢٣). ومع أنه صياد سمك، إلا أنه لم يكن من الفقراء، إذ كان لأبيه زبدي سفن وعمّال. وكانت أمه سالومة ترافق المسيح ورسله لكي تعولهم من مالها، وقد خصّ المسيح يوحنا بالكثير، فهو الذي اتكأ على صدره في العشاء الأخير (يوحنا ١٣: ٢٣)، وله سلّم أمه وهو على الصليب ليعتني بها (يوحنا ١٩: ٢٧). وتفوح بشارة يوحنا برائحة المحبة واللفظ.

كتب يوحنا بعد زملائه الثلاثة بعشرين أو ثلاثين سنة، بعد أن كان اليقين بناسوت يسوع الحقيقي قد رسخ، وساد في أفكار المؤمنين، وزال الخوف من أن يتزعزع. لكن لما كان التطرّف دأب البشر في أكثر الأمور، ولا سيما في الدين، فقد تحول كثيرون من المسيحيين من المجاهرة بناسوت المسيح إلى إنكار لاهوته، لذلك رأى يوحنا من الضروري أن يُضمّن بشارته كثيراً من الكلام في لاهوت يسوع، إصلاحاً للخطأ الذي كان قد تسلّل إلى الكنيسة.

وفاتحة بشارة يوحنا تُعدّ من أفخر أقوال الإنجيل وأشهرها، ولها وقع عظيم في نفس كل محب للدين، وفيها يتذكر الكاتب الموحى إليه، بدء الخليقة. وفاتحة كتاب الوحي تقول: "فِي الْبَدْءِ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ" (تكوين ١: ١). ولكن يوحنا يصوّر لنا بدءاً سابقاً لذلك البدء، إذ يقول: "فِي الْبَدْءِ كَانَ الْكَلِمَةُ، وَالْكَلِمَةُ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ، وَكَانَ الْكَلِمَةُ اللَّهُ. كُلُّ شَيْءٍ بِهِ كَانَ، وَبِغَيْرِهِ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِمَّا كَانَ" (يوحنا ١: ١-٣).

نسب يسوع المسيح البشري

يلاحظ القارئ المتعجل فرقا بين سلسلة نسب المسيح في بشارة متى وبشارة لوقا. أما بشارة يوحنا فيظن أنها تغفل سلسلة النسب تماماً. والواقع أن يوحنا لم يغفل نسب المسيح، بل عاد به إلى أصله الأزلي، كما أنه لا خلاف حقيقي بين سلسلتي نسب متى ولوقا، كما سنرى هنا.

سلسلة نسب بشارة يوحنا

والحقيقة هي أن يوحنا لم يغفل نسب المسيح، فقد أتى بلقب جديد ليسوع، لم يستعمله غيره من كتبة الإنجيل، إذ سماه "الكلمة". وهو لقب مناسب جداً، لأن الكلمة تعلن فكر المتكلم الذي لا يظهر بدونها. وهكذا يعلن يسوع الظاهر في الجسد "الإله الذي يرى ولا يُرى". وقد أعلن المسيح بتصرفاته قولاً وفعلاً صفات الله، كقدرته وحكمته وجودته وقداسته، فصَحَّ أن يكون من جملة أسمائه الوصفية اسم "الكلمة"، وهو القائل: "الَّذِي رَأَيْتُ فَقَدْ رَأَيْتُ الْآبَ" (يوحنا ١٤: ٩).

كنا نظن أن يكون اللقب "الكلمة" في صيغة المؤنث، لكن من الفعل المذكر والضمير المذكر، ومن القول إن "الكلمة صار جسداً وحلَّ بيننا، ورأينا مجده مجدداً كما لوحيد من الآب" نرى أن يوحنا قد حوّل اسم الكلمة عن المعنى المألوف، وجعله يعني شخصاً حقيقياً هو يسوع المسيح.

وختم يوحنا مقدمة إنجيله مؤكداً أن الله روح لا يرى قط، لكن هذا الكلمة، الابن الوحيد من الآب، قد أعلنه، وهو أهلٌ لذلك، لأنه ساكن في حضن الآب فيعرفه حق المعرفة. ولكي يعلنه للبشر "صَارَ جَسَداً وَحَلَّ بَيْنَنَا" (يوحنا ١٤: ١) وهذا الحلول يُسمَّى التجسد أو التأنس.

سلسلة نسب بشارة متى

"كِتَابُ مِيلَادِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ ابْنِ دَاوُدَ ابْنِ إِبْرَاهِيمَ. إِبْرَاهِيمُ وَلَدَ إِسْحَاقَ. وَإِسْحَاقُ وَلَدَ يَعْقُوبَ. وَيَعْقُوبُ وَلَدَ يَهُوذَا وَإِخْوَتَهُ. وَيَهُوذَا وَلَدَ فَارِصَ وَزَارَحَ مِنْ ثَامَارَ. وَفَارِصُ وَلَدَ حَصْرُونَ. وَحَصْرُونَ وَلَدَ أَرَامَ. وَأَرَامُ وَلَدَ عَمِينَادَابَ. وَعَمِينَادَابُ وَلَدَ نَحْشُونَ. وَنَحْشُونَ وَلَدَ سَلْمُونَ. وَسَلْمُونَ وَلَدَ بُوعَزَ مِنْ رَاحَابَ. وَبُوعَزُ وَلَدَ عُوبِيدَ مِنْ رَاعُوثَ. وَعُوبِيدُ وَلَدَ يَسَى. وَيَسَى وَلَدَ دَاوُدَ الْمَلِكِ. وَدَاوُدُ الْمَلِكُ وَلَدَ سُلَيْمَانَ مِنَ الْتِي لِأُورِيَا. وَسُلَيْمَانُ وَلَدَ رَحْبَعَامَ. وَرَحْبَعَامُ وَلَدَ أَبِيَا. وَأَبِيَا وَلَدَ آسَا. وَآسَا وَلَدَ يَهُوشَافَاطَ. وَيَهُوشَافَاطُ وَلَدَ يُورَامَ. وَيُورَامُ وَلَدَ عَزْرِيَا. وَعَزْرِيَا وَلَدَ يُوثَامَ. وَيُوثَامُ وَلَدَ أَحَازَ. وَأَحَازُ وَلَدَ حَزَقِيَا. وَحَزَقِيَا وَلَدَ مَنَسَّى. وَمَنَسَّى وَلَدَ أَمُونَ. وَأَمُونَ وَلَدَ يُوشِيَا. وَيُوشِيَا وَلَدَ يَكُنْيَا وَإِخْوَتَهُ عِنْدَ سَبْيِ بَابِلَ. وَبَعْدَ سَبْيِ بَابِلَ يَكُنْيَا وَلَدَ شَالْتَيْئِيلَ. وَشَالْتَيْئِيلُ وَلَدَ زَرْبَابِيلَ. وَزَرْبَابِيلُ وَلَدَ أَبِيهُودَ. وَأَبِيهُودُ وَلَدَ أَلِيَاقِيمَ. وَأَلِيَاقِيمُ وَلَدَ عَازُورَ. وَعَازُورُ وَلَدَ صَادُوقَ. وَصَادُوقُ وَلَدَ أَخِيمَ. وَأَخِيمُ وَلَدَ أَلْيُودَ. وَأَلْيُودُ وَلَدَ أَلِيْعَازَرَ.

وَأَلِيعَازَرُ وَلَدَ مَتَّانَ. وَمَتَّانُ وَلَدَ يَعْقُوبَ. وَيَعْقُوبُ وَلَدَ يُوسُفَ رَجُلَ مَرْيَمَ الَّتِي وُلِدَ مِنْهَا يَسُوعُ الَّذِي يُدْعَى الْمَسِيحَ. فَجَمِيعُ الْأَجْيَالِ مِنْ إِبْرَاهِيمَ إِلَى دَاوُدَ أَرْبَعَةٌ عَشَرَ جِيلًا، وَمِنْ دَاوُدَ إِلَى سَبْيِ بَابِلَ أَرْبَعَةٌ عَشَرَ جِيلًا، وَمِنْ سَبْيِ بَابِلَ إِلَى الْمَسِيحِ أَرْبَعَةٌ عَشَرَ جِيلًا" (متى ١: ١-١٧).

أما متى، كاتب سلسلة نسب المسيح، فقد كان في الأصل عشاراً يهودياً، اسمه العبراني لاوي، واسمه اليوناني متى، واسم أبيه حلفى، وكان عمله في خدمة الحكومة الرومانية يستلزم أن يكون صاحب معرفة، ولا سيما في الأمور المالية والتجارية، كما كان من ذوي اليُسْر المالي.

وتبدأ مقدمة بشارة متى بالقول: "كتاب ميلاد يسوع المسيح ابن داود بن إبراهيم. إبراهيم ولد إسحق، وإسحق ولد يعقوب، ويعقوب ولد يهوذا وإخوته". ثم يذكر أربعين شخصاً من رجال ونساء آخرهم "يوسف رجل مريم التي وُلِدَ منها يسوع الذي يُدْعَى المسيح". وواضح أن متى يتابع سلسلة نسب المسيح من يوسف، خطيب العذراء مريم. بينما يملُ القارئ المتعجل من مطالعة هذا الجدول، يدرك العاقل أهميته الفائقة، لأن فيه إيضاحات مهمة للأصل البشري، الذي منه تسلسل هذا الشخص العجيب الذي "صار جسداً وحلَّ بيننا". ويسوع هو الإنسان الوحيد في التاريخ البشري الذي حُفِظَ قِيدَ تسلسله من أب البشر آدم. وهو الوحيد الذي - بالإضافة إلى جوهره الأسمى - تتوقف قيمته الإنسانية على سلسلة أجداده، لأن منها نعرف أنه ابن داود، المخلص المنتظر.

سلسلة نسب لوقا

"وَلَمَّا ابْتَدَأَ يَسُوعُ كَانَ لَهُ نَحْوُ ثَلَاثِينَ سَنَةً، وَهُوَ عَلَى مَا كَانَ يُظَنُّ ابْنُ يُوسُفَ بْنِ هَالِي، بْنِ مَتَّثَاثَ بْنِ لَأَوِي بْنِ مَلَكِي بْنِ يَتَّا بْنِ يُوسُفَ، بْنِ مَتَّائِيَا بْنِ عَامُوصَ بْنِ نَاحُومَ بْنِ حَسَلِي بْنِ نَجَّايَ، بْنِ مَاتَّ بْنِ مَتَّائِيَا بْنِ شِمْعِي بْنِ يُوسُفَ بْنِ يَهُودَا، بْنِ يُوَحَنَّا بْنِ رِيسَا بْنِ زَرْبَابِلَ بْنِ شَالْتَيْئِيلَ بْنِ نِيرِي، بْنِ مَلَكِي بْنِ أَدِّي بْنِ قُصَمَ بْنِ أَلْمُودَامَ بْنِ عِيرَ، بْنِ يُوسِي بْنِ أَلِيعَازَرَ بْنِ يُوْرِيمَ بْنِ مَتَّثَاثَ بْنِ لَأَوِي، بْنِ شِمْعُونَ بْنِ يَهُودَا بْنِ يُوسُفَ بْنِ يُونَانَ بْنِ أَلِيَاقِيمَ، بْنِ مَلِيَا بْنِ مَيْنَانَ بْنِ مَتَّاثَا بْنِ نَاتَّانَ بْنِ دَاوُدَ، بْنِ يَسَى بْنِ عُوْبِيدَ بْنِ بُوْعَزَ بْنِ سَلْمُونَ بْنِ نَحْشُونَ، بْنِ عَمِينَادَابَ بْنِ أَرَامَ بْنِ حَصْرُونَ بْنِ قَارِصَ بْنِ يَهُودَا، بْنِ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ تَارَحَ بْنِ نَاحُورَ، بْنِ سَرُوجَ بْنِ رَعُو بْنِ قَالَجَ بْنِ عَابِرَ بْنِ شَالِحَ، بْنِ قَيْنَانَ بْنِ أَرْكَشَادَ بْنِ سَامَ بْنِ نُوحَ بْنِ لَامَكَ، بْنِ مَتُوشَالِحَ بْنِ أَخْنُوحَ بْنِ يَارِدَ بْنِ مَهْلَلِيْلَ بْنِ قَيْنَانَ، بْنِ أَنْوَشَ بْنِ شَيْبَ، بْنِ آدَمَ، ابْنِ اللَّهِ" (لوقا ٣: ٢٣-٣٨).

وقد أورد لوقا في بشارته جدولاً آخر لنسب المسيح يختلف بعض الاختلاف عن الذي أوردته متى. ولكننا نقول إن الجدولين متفقان في أن يوسف رجل مريم أم يسوع هو الحلقة

الأخيرة فيهما. ويتفقان أيضاً في حلقات النسب بين إبراهيم وداود. ويتفقان في اسمي شألتنيل وزربابل في وقت سبي بابل، لكنهما يختلفان اختلافاً فرح له المنتقدون. من هذا الاختلاف أن متى يقدم أسماء الأجيال من يسوع راجعاً إلى إبراهيم، وأما لوقا فإلى آدم. ويتبع متى سلسلة سليمان بن داود، أما لوقا فيتبع سلسلة ناثان بن داود. ويذكر متى أن يوسف (خطيب مريم) ابن يعقوب، أما لوقا فيجعله ابن هالي والد مريم، وكان اليهود أحياناً ينسبون الرجل لوالد زوجته (قارن ما حدث مع عائلة برزلاي عزرا ٢:٦١ ونحميا ٧:٦٣). والحلقات في متى بين داود ويوسف تنقص كثيراً عنها في لوقا. فالأمر ظاهر أن بعض الحلقات متروكة، لأن كلمة "ابن" وكلمة "وَلَدَ" تردان أحياناً في هاتين السلسلتين بالمعنى الواسع، مثل القول إن يسوع ابن داود ابن إبراهيم، لأن متى يذكر أربع حلقات فقط في أيام القضاة بين راحاب وداود، مع أن المدة ٤٥٠ سنة. كما أن جدول لوقا يختص بمريم، والآخر في متى يختص بيوسف، لأن بيان تسلسل الاثنين ضروري.

على أن البشيرين متى ولوقا يوضحان أصل المسيح الإلهي، فمتى بعد أن يقول في كل الحلقات السابقة "فلان ولد فلان" لا يقول - كما كان يُنتظر - يوسف ولد يسوع، بل "يوسف رجل مريم التي وُلد منها يسوع الذي يدعى المسيح" ولوقا يقول: "وهو على ما كان يُظنُّ: ابن يوسف".

ولو كان بالجدولين ما يستحق الهجوم والمعارضة لفعل قادة اليهود ذلك من البدء، خصوصاً وأن تسلسل النسب يبرهن أن يسوع هو ابن داود المخلص الآتي. وصمّت اليهود عن مهاجمة سلسلتي متى ولوقا دليل على صحتها.

دروس من سلسلة النسب

يُستخلص من جدولي متى ولوقا من ذكر اسم راعوث الموابية أن للفقراء وللأغراب عن الجنس الإسرائيلي نصيب في لائحة الشرف الملكي المسيحي. وأيضاً من اسم راحاب التي كانت قبلاً زانية، واسم ثامار وبثشبع أن للأشرار التائبين توبة حقيقية محلاً في هذه القائمة الشريفة، مهما كان ماضيهم معيباً. فقد اعتنى المسيح بضعفاء القوم، وغفر لكثيرين من البعيدين عن الصلاح، وقال: "لَا يَحْتَاجُ الْأَصِحَّاءُ إِلَى طَبِيبٍ بَلِ الْمَرْضَى" (متى ٩:١٢) و "ابْنُ الْإِنْسَانِ قَدْ جَاءَ لِكَيْ يَطْلُبَ وَيُخَلِّصَ مَا قَدْ هَلَكَ" (لوقا ١٩:١٠).

ونجد محور الإنجيل كله في العبارة الجوهرية التي أوردها يوحنا في مقدمته "كان الكلمة الله. والكلمة صار جسداً وحلَّ بيننا".

وبما أن المصدر الوحيد لأخبار المسيح هو الإنجيل، وبما أن كتبة الإنجيل جميعاً متفقون على القول بلاهوته، يستلزم الإنصاف أن تُفسَّر حوادث حياته وفقاً للقول بلاهوته.

جبرائيل يبشّر زكريا

"كَانَ فِي أَيَّامِ هِيرُودُسَ مَلِكِ الْيَهُودِيَّةِ كَاهِنٌ اسْمُهُ زَكَرِيَّا مِنْ فِرْقَةِ أَبِييَا، وَامْرَأَتُهُ مِنْ بَنَاتِ هَارُونَ وَاسْمُهَا أَلِيصَابَاتُ. وَكَانَا كِلَاهُمَا بَارَيْنِ أَمَامَ اللَّهِ، سَالِكَيْنِ فِي جَمِيعِ وَصَايَا الرَّبِّ وَأَحْكَامِهِ بِلاَ لَوْمٍ. وَلَمْ يَكُنْ لَهُمَا وَلَدٌ، إِذْ كَانَتْ أَلِيصَابَاتُ عَاقِرًا. وَكَانَا كِلَاهُمَا مُتَقَدِّمَيْنِ فِي أَيَّامِهِمَا.

فَبَيْنَمَا هُوَ يَكْهَنُ فِي نُوبَةِ فِرْقَتِهِ أَمَامَ اللَّهِ، حَسَبَ عَادَةِ الْكَهَنُوتِ، أَصَابَتْهُ الْقُرْعَةُ أَنْ يَدْخُلَ إِلَى هَيْكَلِ الرَّبِّ وَيُبَخِّرَ. وَكَانَ كُلُّ جُمْهُورِ الشَّعْبِ يُصَلُّونَ خَارِجًا وَفَتْ الْبُحُورِ. فَظَهَرَ لَهُ مَلَاكُ الرَّبِّ وَاقِفًا عَنْ يَمِينِ مَذْبَحِ الْبُحُورِ. فَلَمَّا رَأَهُ زَكَرِيَّا اضْطَرَبَ وَوَقَعَ عَلَيْهِ خَوْفٌ. فَقَالَ لَهُ الْمَلَاكُ: "لَا تَخَفْ يَا زَكَرِيَّا، لِأَنَّ طَلِبَتَكَ قَدْ سُمِعَتْ، وَامْرَأَتُكَ أَلِيصَابَاتُ سَتِلِدُ لَكَ ابْنًا وَتُسَمِّيهِ يُوَحْنَا. وَيَكُونُ لَكَ فَرْحٌ وَابْتِهَاجٌ، وَكَثِيرُونَ سَيَفْرَحُونَ بِوِلَادَتِهِ، لِأَنَّهُ يَكُونُ عَظِيمًا أَمَامَ الرَّبِّ، وَخَمْرًا وَمُسْكِرًا لَا يَشْرَبُ، وَمِنْ بَطْنِ أُمِّهِ يَمْتَلِئُ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ. وَيَرُدُّ كَثِيرِينَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَى الرَّبِّ إِلَهُهُمْ. وَيَتَقَدَّمُ أَمَامَهُ بِرُوحِ إِبِلِيَا وَقُوَّتِهِ، لِيَرُدَّ قُلُوبَ الْأَبَاءِ إِلَى الْأَبْنَاءِ، وَالْعَصَاةَ إِلَى فِكْرِ الْأَبْرَارِ، لِكَيْ يُهَيِّئَ لِلرَّبِّ شَعْبًا مُسْتَعِدًّا". فَقَالَ زَكَرِيَّا لِلْمَلَاكِ: "كَيْفَ أَعْلَمُ هَذَا، لِأَنِّي أَنَا شَيْخٌ وَامْرَأَتِي مُتَقَدِّمَةٌ فِي أَيَّامِهَا؟" فَأَجَابَ الْمَلَاكُ: "أَنَا جِبْرَائِيلُ الْوَاقِفُ قُدَّامَ اللَّهِ، وَأَرْسَلْتُ لَأَكَلِمَكَ وَأَبَشِّرَكَ بِهَذَا. وَهَا أَنْتَ تَكُونُ صَامِتًا وَلَا تَقْدِرُ أَنْ تَتَكَلَّمَ، إِلَى الْيَوْمِ الَّذِي يَكُونُ فِيهِ هَذَا، لِأَنَّكَ لَمْ تُصَدِّقْ كَلَامِي الَّذِي سَيَتِمُّ فِي وَقْتِهِ".

وَكَانَ الشَّعْبُ مُنْتَظِرِينَ زَكَرِيَّا وَمُتَعَجِّبِينَ مِنْ إِبْطَائِهِ فِي الْهَيْكَلِ. فَلَمَّا خَرَجَ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُكَلِّمَهُمْ، فَفَهِمُوا أَنَّهُ قَدْ رَأَى رُؤْيَا فِي الْهَيْكَلِ. فَكَانَ يَوْمُئِذٍ إِلَيْهِمْ وَبَقِيَ صَامِتًا.

وَلَمَّا كَمِلَتْ أَيَّامُ خِدْمَتِهِ مَضَى إِلَى بَيْتِهِ. وَبَعْدَ تِلْكَ الْأَيَّامِ حَبِلَتْ أَلِيصَابَاتُ امْرَأَتُهُ، وَأَخْفَتْ نَفْسَهَا خَمْسَةَ أَشْهُرٍ قَائِلَةً: "هَكَذَا قَدْ فَعَلَ بِي الرَّبُّ فِي الْأَيَّامِ الَّتِي فِيهَا نَظَرْتُ إِلَيْ، لِيُنْزِعَ عَارِي بَيْنَ النَّاسِ" (لوقا ١: ٢٥).

نُفَاجًا بِشُرُوقِ النُّجُومِ دُونَ عِلَامَاتٍ سَابِقَةٍ بِخِلَافِ شُرُوقِ الشَّمْسِ مَلَكَةُ الْأَنْوَارِ، فَإِنْ طَلَّاعَ الْفَجْرِ تَتَقَدَّمُهُ. هَكَذَا فَاجَأَ ظُهُورُ الْأَنْبِيَاءِ الْعِظَامِ جَوَّ التَّارِيخِ الْبَشَرِيِّ، فَلَمْ يَرُدْ خَبْرٌ سَابِقٌ لظُهُورِ إِبْرَاهِيمَ أَوْ مُوسَى أَوْ دَاوُدَ أَوْ إِبِلِيَا (بِاسْتِثْنَاءِ يُوَحْنَا الْمَعْمَدَانِ). لَكِنْ ظُهُورُ الْمَسِيحِ سَيِّدِهِمْ - الَّذِي مِنْ جَمَلَةِ أَلْقَابِهِ الْعَدِيدَةِ لَقِبَ "شَمْسِ الْبَرِّ" - لَمْ يَكُنْ فَجَائِيًّا، لِأَنَّ النُّبُوءَاتِ الْعَدِيدَةَ الْمُتَوَاصِلَةَ كَوْنَتْ فَجْرًا عَجِيبًا سَابِقًا لِمَجِيئِهِ. وَفِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ، وَخَارِجًا عَنْ دَائِرَةِ هَذَا الْفَجْرِ، كَانَ الظَّلَامُ الْأَخْلَاقِي وَالرُّوحِي قَدْ بَلَغَ أَشَدَّهُ قَبِيلَ مَجِيئِهِ. فَجَاءَ هَذَا النُّورُ السَّمَاوِي الْفَائِقُ فِي وَقْتِ شِدَّةِ احْتِيَاجِ الْعَالَمِ وَشَوْقِ اتِّقْيَائِهِ إِلَيْهِ.

وتستحق المقدمات النبوية القديمة السابقة لظهور المسيح أن نراجعها بكل عناية، لكن ضيق المقام يضطرنا أن نكتفي بالنبوات والأدلة التي منها عُرف أن المسيح المنتظر صار على الباب.

كانت رسل السماء الملائكية قد احتجبت تماماً عن الظهور للبشر مدة خمسمئة سنة، لكن لما قُرب تأتس المسيح تواردت بعددٍ أوفر ومجدٍ أبهى مما حدث في كل الأزمنة، منذ الخلق إلى الآن، لكي تُنبئ بقُرب مجيء ملك الملوك ورب الأرباب إلى مقاطعته الأرضية، ظاهراً بهيئة بشرية. وفي ذلك يقول الإنجيل: "مَتَى أَدْخَلَ الْبُكْرَ إِلَى الْعَالَمِ يَقُولُ: "وَلْتَسْجُدْ لَهُ كُلُّ مَلَائِكَةِ اللَّهِ" (عبرانيين ١: ٦) هذا هو الذي قال عنه نبي التوراة دانيال: "سُلْطَانُهُ سُلْطَانُ أَبَدِيٍّ مَا لَنْ يَزُولَ، وَمَلَكُوتُهُ مَا لَا يَنْقَرِضُ" (دانيال ٧: ١٤). فلاق أن يتقدم هذا الملك رسل من أمام عرشه السماوي، يبشرون أهل العالم بقدومه القريب. وملاً صوت هذه البشري السماء، واهتز له الجند العلوي قبلما سُمع في الأرض أو رنَّ في آذان بني آدم.

أصابته القرعة زكريا أن يحرق البخور العطر على المذبح الذهبي في هيكل أورشليم فدخل خلف الستار الثقيل الذي حجبته عن أبصار الساجدين، ووقف أمام مذبح البخور يصلي، ودخان البخور ورائحته الزكية يصعدان نحو السماء. فرأى بغتة رئيس الملائكة جبرائيل العظيم، واقفاً عن يمين مذبح البخور، فاضطرب ووقع عليه خوف، لأن اضطراب الإنسان عندما يرى ملاكاً من السماء أمر طبيعي، مهما كانت درجة تقواه وصلاحه. فليس صالح إلا ويعرف ذاته خاطئاً، والضمير الحي يجعل صاحبه جباناً في حضرة الأطهار، إذ يبكته على أقل الهفوات، وعلى التقصير عن الكمال التام، ويجعله يقشعر عند مفاجأة الملاك له. لنلا يكون جاءه ليطالبه بحقوق الله عليه، أو ليجازيه على ذنوبه.

وكان آخر ظهور ملائكي قبيل هذا، ظهور جبرائيل ذاته منذ نحو خمسمئة سنة، وبذات غرضه الحالي - وذلك لدانيال، آخر الأنبياء العظام قبل المسيح. ظهر كرجل "لَا بِسَاءَ كِتَانًا، وَحَقَوَاهُ مُتَنَطِّقَانِ بِذَهَبٍ أَوْفَارَ، وَجِسْمُهُ كَالزَّبَرَجَدِ، وَوَجْهُهُ كَمَنْظَرِ الْبَرْقِ، وَعَيْنَاهُ كَمِصْبَاحِي نَارٍ، وَذِرَاعَاهُ وَرِجْلَاهُ كَعَيْنِ النَّحَاسِ الْمَصْفُوقِ، وَصَوْتُ كَلَامِهِ كَصَوْتِ جُمُهورٍ" (دانيال ١٠: ٥ و٦).

انتدب الله جبرائيل ليكلم زكريا لذات الغرض. وفي هذا دليل واضح على اهتمام السماء بمجيء المسيح إلى العالم. وحالما رأى زكريا جبرائيل، خاف فأسرع الملاك لتسكين روعه وقال له: "لا تخف". ثم أعلمه بأن صلاته وصلاة زوجته أليصابات لأجل النسل قد استُجيبَت، مع أن سنهما يجعل هذه الاستجابة مستحيلة في أعين البشر وأعينهما.

ثم أعطى جبرائيل لزكريا الاسم الذي يجب أن يطلقه على ولده. وأعلن له عن مستقبل ابنه أنه لا يسبب فرحاً وابتهاجاً لوالديه فقط، بل أيضاً لكثيرين غيرهما. وأنه يكون عظيماً، ليس

في أعين الناس فقط بل أمام الله، إذ يمتلئ من الروح القدس الإلهي من أول أيام وجوده، ويكون للرب نذيراً عفيفاً طوال حياته. وينجح نجاحاً باهراً في العمل الوحيد الذي هو محور الاهتمام الإلهي في العالم، أي ردّ كثيرين إلى الرب إلههم.

وزاد جبرائيل لزكريا ما هو أعظم من ذلك، إذ قال له إن هذا الصبي الموعود به يكون المبشّر بظهور المسيح الآتي، فيتقدم أمامه متمماً النبوة التي كان يتمسك بها كل يهودي تمسكاً شديداً، بأن إيليا يأتي قدام المسيح ويهيء للرب شعباً مستعداً. قد بشر ملاك في القديم أكثر من مرة أحد الأبوين بولد سيولد لهما، لكن أمامنا المرة الوحيدة التي فيها بُشِّر أبٌ بولد تكون وظيفته أن يبشر بقدوم آخر أعظم منه جداً (الذي هو المسيح) وهذا دليلٌ على تفوّق المسيح على كل البشر.

ولم يصدق زكريا هذه البشارة، مع أنه سمعها من جبرائيل رئيس الملائكة الواقف قدام الله، والمرسل منه لهذا الغرض الخصوصي، لأن الموانع الطبيعية كانت عظيمة جداً. لكننا نلوم زكريا لأنه يعلم جيداً ببشارة نظيرها جاءت للشيخين إبراهيم وسارة، وآمن إبراهيم أب المؤمنين بتلك البشارة. ولما لم يصدق زكريا، ضرب الله لسانه بالخرس، وتحدّدت مدة قصاصه هذا بتسعة أشهر، إلى أن ينظر بعينه ويسمع بأذنيه البرهان الحسي الذي كان يطلبه على صدق قول الملاك.

وبسبب هذه المقابلة الغريبة بين الملاك وزكريا، طال انحجاب الكاهن عن الجمهور المصلّي خارجاً، والذي كان ينتظر الانصراف عند خروج الكاهن من وراء الستار ليعطيهم البركة "فتعجبوا من إبطائه". لكن زاد عجبهم لما خرج إليهم عاجزاً عن النطق بالبركة المفروضة عليه، أو عن إخبارهم بسبب إبطائه، فجعل يشير لهم ويومئ بقدر ما أمكنه "ففهموا أنه قد رأى رؤيا".

ولما كان زكريا أميناً لخدمته لم يعتذر عن إكمالها بسبب ما جرى له، أو بسبب شوقه إلى أن يخبر امرأته في البيت، بل بقي حتى كملت أيام خدمته، وبعدها رجع إلى بيته.

ونتصور انزعاج أليصابات العجوز الصالحة لما استقبلت زوجها زكريا في البيت عند رجوعه فاقداً قوتي النطق والسمع، ثم دهشتها عندما كتب أمامها ما أعلنه له الملاك جبرائيل. ولا بد أنه أُنذرها أيضاً كتابةً أن لا تشك في هذا الكلام لئلا يقع عليها العقاب الذي وقع عليه هو.

انشغل فكر زكريا وأليصابات بكلام البشارة عن مجيء المسيح، الذي يبشر به ابنهما يوحنا، ويجهز الطريق له، والذي سمّاه الملاك "الرب" - ولا بدّ أنهما تساءلا: متى يظهر

وأين وكيف؟ عن قريب سيأخذان العلم بذلك، ليس من الملاك جبرائيل، بل من نسيبةٍ لهما، سوف تصبح أشهر نساء التاريخ البشري وأسعدهن.

لا يسلّم العقل أن المعجزة الفائقة التي هي تأنس المسيح الابن الأزلي تحدث دون أن تحوطها معجزات أخرى ترافقها وتثبتها، فمعجزة البشارة لزكريا ثم قصاصه، وحبلُ أليصابات العجيب، هي مقدمة المعجزات التي أحاطت بولادة المسيح ابن مريم.

وهذه كلها تسهّل تصديق تلك المعجزة الأعظم التي تتبعها قريباً - وهي ولادة المسيح من عذراء، فنتحقّق فيه النبوات القديمة العديدة، وتتم الرموز الكثيرة الدقيقة. وليس في التاريخ البشري شخصٌ غيره تنطبق عليه تلك النبوات أو تلائمه تلك الرموز. كذلك حقّ الحكم بأن يسوع الناصري هو المخلص الذي تنبأ أنبياء التوراة بمجيئه. ويتّضح لكل من يراجع تورااة اليهود بإمعان، أن المسيح الموعود به في ذلك الكتاب الموحى به ليس كأحد الأنبياء، مجرد بشر، بل هو شخص إلهي.

جبرائيل يبشر مريم

"وَفِي الشَّهْرِ السَّادِسِ أُرْسِلَ جِبْرَائِيلُ الْمَلَاكُ مِنَ اللَّهِ إِلَى مَدِينَةٍ مِنَ الْجَلِيلِ اسْمُهَا نَاصِرَةُ، إِلَى عَذْرَاءَ مَخْطُوبَةٍ لِرَجُلٍ مِنْ بَيْتِ دَاوُدَ اسْمُهُ يُوسُفُ. وَاسْمُ الْعَذْرَاءِ مَرْيَمُ. فَدَخَلَ إِلَيْهَا الْمَلَاكُ وَقَالَ: "سَلَامٌ لَكَ أَيَّتُهَا الْمُنْعَمُ عَلَيْهَا! الرَّبُّ مَعَكَ. مُبَارَكَةٌ أَنْتِ فِي النِّسَاءِ". فَلَمَّا رَأَتْهُ اضْطَرَبَتْ مِنْ كَلَامِهِ، وَفَكَّرَتْ مَا عَسَى أَنْ تَكُونَ هَذِهِ التَّحِيَّةُ! فَقَالَ لَهَا الْمَلَاكُ: "لَا تَخَافِي يَا مَرْيَمُ، لِأَنَّكَ قَدْ وَجَدْتَ نِعْمَةً عِنْدَ اللَّهِ. وَهَا أَنْتِ سَتَحْبِلِينَ وَتَلِدِينَ ابْنًا وَتُسَمِّيَنَّهُ يَسُوعَ. هَذَا يَكُونُ عَظِيمًا، وَابْنُ الْعَلِيِّ يُدْعَى، وَيُعْطِيهِ الرَّبُّ الْإِلَهَ كُرْسِيَّ دَاوُدَ أَبِيهِ، وَيَمْلِكُ عَلَى بَيْتِ يَعْقُوبَ إِلَى الْأَبَدِ، وَلَا يَكُونُ لِمُلْكِهِ نِهَايَةٌ".

فَقَالَتْ مَرْيَمُ لِلْمَلَاكِ: "كَيْفَ يَكُونُ هَذَا وَأَنَا لَسْتُ أَعْرِفُ رَجُلًا؟" فَأَجَابَ الْمَلَاكُ وَقَالَ لَهَا: "الرُّوحُ الْقُدُسُ يَجِلُّ عَلَيْكَ، وَقُوَّةُ الْعَلِيِّ تَطْلُلُكَ، فَلِذَلِكَ أَيْضًا الْقُدُّوسُ الْمَوْלוُدُ مِنْكَ يُدْعَى ابْنُ اللَّهِ. وَهُوَذَا أَلْيَصَابَاتُ نَسَبِيَّتِكَ هِيَ أَيْضًا حُبْلَى بِابْنٍ فِي شَيْخُوخَتِهَا، وَهَذَا هُوَ الشَّهْرُ السَّادِسُ لِتِلْكَ الْمَدْعُورَةِ عَاقِرًا، لِأَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ غَيْرُ مُمَكِّنٍ لَدَى اللَّهِ". فَقَالَتْ مَرْيَمُ: "هُوَذَا أَنَا أَمَةٌ الرَّبِّ. لِيَكُنْ لِي كَقَوْلِكَ". فَمَضَى مِنْ عِنْدَهَا الْمَلَاكُ" (لوقا ١: ٢٦-٣٨).

زار رئيس الملائكة جبرائيل الكاهن الجليل زكريا، وبشّره بولادة يوحنا من زوجته العاقر أليصابات. وكان زكريا باراً ومكرماً ورئيساً بين قومه. فأبى عظيم أعظم من هذا الكاهن يزوره جبرائيل بعد ذلك؟ هل يزور أحد الملوك والأمراء، أو شهيراً من الرؤساء، أو حكيماً من العلماء أو عظيمًا من الأغنياء؟ كلا! بل زار فتاة عذراء من بيت جماعة فقراء، لا أهمية سابقة لها عند قومها فوق سائر عذارى البلاد، ولا ذِكر لها قبل زيارة جبرائيل، ولا أهمية لها مطلقاً لولا هذه الزيارة. أرسل إليها ليبشرها أن الله قد اصطفاها في قضائه الأزلي ليدخل مخلص العالم الوحيد إلى العالم بواسطتها.

أنعم الله على هذه العذراء بأن ألبسها أعظم شرفٍ نالته امرأة في الزمان، وهو شرف لا تساويه ألقاب الأمراء وأوسمتهم ولا تيجان الملوك وعظمتهم. لذلك هنا جبرائيل بقوله: "سَلَامٌ لَكَ أَيَّتُهَا الْمُنْعَمُ عَلَيْهَا" (لوقا ١: ٢٨). قدم الله باختياره مريم برهاناً للجنس البشري بأن العظمة الحقيقية لا تنشأ عن المركز والبيئة، ولا عن الأصل والأجسام، ولا حتى من العقول السامية، بل من النفوس الطاهرة.

أغلب الظن أن مريم كانت وحدها في بيت أبيها لما فاجأها الملاك وألقى عليها السلام. وربما كانت هذه التقية تصلي في تلك الساعة، لأن اليهودي التقى كان يختلي ثلاث مرات في النهار للصلاة. فكانت تحية جبرائيل لهذه الصبية الفقيرة أبلغ من تحيته للكاهن الموقر زكريا، إذ قال له: "لا تخف يا زكريا". أما لمريم فقال: "سَلَامٌ لَكَ أَيَّتُهَا الْمُنْعَمُ عَلَيْهَا".

مباركة أنت في النساء". وفي الوقت ذاته ظهر في كلامه أن الامتياز الذي نالته فوق سائر النساء كان إنعاماً لا استحقاقاً.

اضطربت هذه العذراء الطاهرة لرؤية الملاك، وتحيرت لتحيته، فطمأنها حالاً كما فعل مع زكريا بقوله لها: "لا تخافي" ثم ناداها باسمها "يا مريم". وكرر تهنئتها، ثم أضاف خبراً لم تتصوره ولا حُلّت به قبلاً، وهو أنها ستحمل حبلاً أعجب من حمل نسيبتها أليصابات، وتلد ابناً بقوة الروح القدس وهي عذراء. وهذا الابن لا يكون فقط عظيماً كابن أليصابات بل "يُدعى ابن الله" (لوقا ٣: ٣٢) ولأنها من نسل داود سيكون ابنها الخلف الأعظم لداود كملكٍ مُلكه أبدي.

ربما شاركت مريم سائر النساء من نسل داود في شيء من الآمال بأنها ستلد المسيح. ولا سيما أنها مخطوبة لرجل صالح هو أيضاً من نسل داود، فيأتيها هذا الإمتياز المشتبه بطريقة طبيعية بعد زواجها من خطيبها يوسف. فلما أعلن لها الملاك بأن حملها يكون في الحال، وقبل أن تتزوج، اضطربت، وكان اضطرابها طبيعياً وشريفاً، إذ رأت أن عليها أن تدافع عن عفتها، وتستوضح من الملاك كيف يمكن تصديق قوله، فكانت حشمتها إكليل فضائلها، وتواضعها تاج جمالها.

لقد اصطفى الله مريم من بين كل عذاري شعبها بعد أن أسس في روحها الاستعداد لهذا المقام الجديد الذي تفوق رفعتُه الوصف، ثم حدّد لها إنعامه لتكون الأم للطبيعة البشرية في المسيح الذي هو أيضاً ابن العلي. والله دوماً يؤهل الذين ينتقيهم لما ينتدبهم إليه، فأسبغ على مريم بغزارة إنعاماته المتواصلة، ليتمكنها من القيام بما يُطلب منها في أحوالها الجديدة.

وقد جاب جواب جبرائيل مريم بأن الروح القدس يحلّ عليها، وأن قوة العلي تظلّلها فتلد ابن الله.. ولم يخفّ جواب الملاك شيئاً من غرابة بشارته، ولم يقرب التصديق للعقل البشري، واكتفى بأن أكّد لها أن حملها يكون بفعل الروح الخالق عز وجل، وعلى صورة استثنائية لا مثيل لها من قبل أو من بعد. وقال لها ثانية إن الذي تلده سيُدعى "ابن الله". لكن لئلا يؤخذ هذا الاسم العظيم بالمعنى المجازي الذي يسوغ استعماله لمجرد بشر، ولأنه يولد من الروح القدس سمّاه "القدوس" وهو اسمٌ لا يُعطى مطلقاً لبشر أو لملاك.

وهنا كان ردُّ فعل مريم لكلام الملاك مختلفاً عن ردِّ فعل زكريا، فقد شكّ زكريا في بشارة الملاك له، لكن مريم طلبت إيضاح طريقة إتمام الوعد الإلهي فقط، فأعطاه الملاك علامة مفرحة، هي خبر المعجزة التي حصلت لأليصابات البعيدة عنها في جانب البلاد الآخر. ثم ختم جبرائيل خطابه بتذكير مريم أن ليس شيءٌ غير ممكن لدى الله. وهل يعسر على من أوجد الكون من العدم أن يوجد ابناً لمريم دون أب بشري؟ ومع أن كلام الملاك لمريم لم يتضمن شيئاً يسهّل عليها التصديق إلا أنها سلّمت تماماً وصدقت يقيناً، إذ قالت والملاك

منصرف: "هوذا أنا أمة الرب. ليكن لي كقولك". سلّمت تسليماً أعمى لله. وهذا عين الحكمة وكمال الفخر، بينما التسليم الأعمى للبشر يكون جهالة وذللاً.

فما أعظم ابتهاج هذه العذراء الطاهرة في هذه الساعة المباركة. ها المسيح رجاؤها ورجاء شعبها ورجاء العالم على الباب. فكيف لا تبتهج، وقد اختارها الله من بين جميع المؤمنات الإسرائيليات في نسل داود لتلد المسيح؟ فهل لا ابتهاجها حدّ؟

لكن ليس في الدنيا فرح كامل. فلا بد من امتزاج بعض الخوف مع الابتهاج في صدرها الطاهر. إنها تخاف غضب خطيبها وانفصاله عنها متى ظهر سرّها. وليس لديها من وسيلة لإثبات الحقيقة التي لا يمكن أن يصدقها أحدٌ على الإطلاق!

ثم أن صلاحها الممتاز يضيف خوفاً آخر شريفاً. لأنها رأت نفسها غير مستحقة لهذا الامتياز الفائق، فخافت أن تعجز عن القيام بما يستدعيه مقامها الجديد كوالدة المسيح. ولا ريب أنها ضاعفت التجاءها إلى المراحم الإلهية ليفعل لها ربّها في مشكلتها الجديدة ما ليس في استطاعتها أو استطاعة غيرها من البشر.

حيرة يوسف

"أَمَّا وَلَدَةُ يَسُوعَ الْمَسِيحِ فَكَانَتْ هَكَذَا: لَمَّا كَانَتْ مَرْيَمُ أُمُّهُ مَخْطُوبَةً لِيُوسُفَ، قَبْلَ أَنْ يَجْتَمَعَا، وَجَدَتْ حُبْلَى مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ. فَيُوسُفُ رَجُلُهَا إِذْ كَانَ بَارًّا، وَلَمْ يَشَأْ أَنْ يُشْهِرَهَا، أَرَادَ تَحْلِيَّتَهَا سِرًّا. وَلَكِنْ فِيمَا هُوَ مُتَفَكِّرٌ فِي هَذِهِ الْأُمُورِ، إِذَا مَلَاكُ الرَّبِّ قَدْ ظَهَرَ لَهُ فِي حُلْمٍ قَائِلًا: "يَا يُوسُفُ ابْنُ دَاوُدَ، لَا تَخَفْ أَنْ تَأْخُذَ مَرْيَمَ امْرَأَتَكَ، لِأَنَّ الَّذِي حُبِلَ بِهِ فِيهَا هُوَ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ. فَسَتَلِدُ ابْنًا وَتَدْعُو اسْمَهُ يَسُوعَ، لِأَنَّهُ يُخَلِّصُ شَعْبَهُ مِنْ خَطَايَاهُمْ". وَهَذَا كُلُّهُ كَانَ لِكَيْ يَتِمَّ مَا قِيلَ مِنَ الرَّبِّ بِالنَّبِيِّ: "هُوَذَا الْعَذْرَاءُ تَحْبِلُ وَتَلِدُ ابْنًا، وَيَدْعُونَ اسْمَهُ عِمَّا نُوِيلَ" (الَّذِي تَفْسِيرُهُ: أَلَلَّهُ مَعَنَا). فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ يُوسُفُ مِنَ النَّوْمِ فَعَلَ كَمَا أَمَرَهُ مَلَاكُ الرَّبِّ، وَأَخَذَ امْرَأَتَهُ. وَلَمْ يَعْرِفْهَا حَتَّى وَلَدَتْ ابْنَهَا الْبَكْرَ. وَدَعَا اسْمَهُ يَسُوعَ" (متى ١: ١٨-٢٥).

ماذا كان تفكير يوسف خطيب مريم، بعد أن عرف أن خطيبته حامل؟

لسنا نعرف كيف عرف يوسف سرّ خطيبته مريم، ولكننا نعلم أنه وقع كما وقعت هي في خوف عظيم بسبب خطورة كلا الأمرين اللذين اضطرّ أن يختار بينهما.

في حبه الصادق يودّ من كل قلبه تصديق رواية مريم عن بشارة الملاك، لولا الصعوبة الكلية في ذلك. واختباره صفاتها الممتازة يجعله لا يظن فيها السوء.

ولأنها خطيبته يجب أن يحميها بكل قوته من كل كدر وضرر. فلو وَقَّع عليها أخف درجات القصاص بتركها جهاراً، وكانت روايتها صادقة، فإنه بذلك يظلمها ظلماً فاحشاً. ثم أيُّ شرفٍ يكون له أن يولد المسيح العظيم في بيته؟

ومن الوجه الآخر لأنه "رجل بار" يحافظ فوق كل شيء على احترام الناموس الإلهي والوصايا المقدسة، والشرف والصيت الحسن، يكون عليه أن يوقَّع على مريم عقاباً بحسب نصوص الشريعة، فما أعظم حيرة يوسف واضطرابه. إلا أنه بعد التروّي الكافي ساقه حبه وشهامته إلى اختيار ألطف درجات القصاص، إذ قيل إنه "أراد تخليتها سراً".

وهنا تدخلت عناية الله الذي لا يغفل عن أصغر الأمور وأحقرها في عالمه الواسع. مرة أخرى نرى اهتمام السماء بأهل الإيمان على الأرض، فقد صدر الأمر الإلهي لأحد الملائكة (لعله جبرائيل) أن يزور يوسف ليلاً، فظهر له في حلم وأعلن له أن الذي حُبِلَ به في مريم هو من الروح القدس، ولذلك فالاقتران بها أوجب من الاقتراق عنها. إذاً ما كان يحسبه للآن عاراً عليهما، هو بالحقبة أعظم فخر لهما. ومثل ذلك كثير من العار الذي يتحملة رجال الله، من الذين يجهلون الحقائق.

وكرر الملاك ليوسف ما أوصى به مريم: أن يعطي ابنها، متى وُلِدَ، اسم "يسوع" لأن الحق الأول في تسمية المولود يكون للرجل، فيجب أن يعرف يوسف أيضاً إرادة الله بخصوص هذا الاسم، لكي تتحقق تسمية الصبي بالاسم الذي يعلن وظيفته الخصوصية ويوافقها.

واسم يسوع ويشوع اسم واحد، وهو اسم قديم من أكرم الأسماء عند اليهود، ومعناه مخلص. فهو أسمى الأسماء البشرية، لأنه يدل على أسمى عمل يُعمل على الأرض وهو تخليص البشر من خطاياهم. فالذي اسمه يسوع (أي مخلص) هو الطبيب الشافي الذي يخلص من داء الخطية الوبائي القتال المستولي على جميع بني البشر.

كان اليهود يحدثون أطفالهم بمسيح يأتي من سبط يهوذا ومن بيت داود ليخلصهم من مصائب هذا الدهر، كال فقر والمرض والتعب والذل، ومن سلطة الأعداء. وكان ينتظارهم هذا سبب ثورات دموية أثارها مسحاء كذبة بدافع التهؤس الوهمي والطموح الشخصي أو الطمع المادي. وكانت هذه الثورات تأتي عليهم دائماً بالوبال. وقد نفى كلام الملاك هذه التخيلات الذميمة، وأعلن حقيقة وظيفة المسيح الموعود به وعمله. وذلك أعظم جداً من كل ما كانوا يتصورونه، وهكذا تحققت نبوة إشعياء النبي بأن المسيح سيولد من عذراء، وأنه بسبب طبيعته العجيبة يُسمّى "عمانوئيل" ومعناه "الله معنا" (إشعياء ٧: ١٤).

وأطاع يوسف أمر ملاك الرب وأخذ امرأته ولم يعرفها حتى ولدت ابنها البكر. فبناء عليه عرف الجميع أن يسوع هو ابن يوسف كما أنه ابن مريم، وبهذا صان شرفه وشرف مريم

ومولودها، كل مدة سكنهم في الناصرة. فما أعظم الجائزة التي نالها يوسف البار بسبب اختياره خطيئة ذات خُلُق، على رغم فقرها المادي، ثم بسبب طاعته للأمر الإلهي - على رغم صعوبة هذه الطاعة دون برهان حسي - آمن بالله كما آمن جده إبراهيم فحُسب له برّاً.

مريم تزور أليصابات

"فَقَامَتْ مَرْيَمُ فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ وَذَهَبَتْ بِسُرْعَةٍ إِلَى الْجِبَالِ إِلَى مَدِينَةِ يَهُودَا، وَدَخَلَتْ بَيْتَ زَكَرِيَّا وَسَلَّمَتْ عَلَى أَلِيسَابَابَاتٍ. فَلَمَّا سَمِعَتْ أَلِيسَابَابَاتُ سَلَامَ مَرْيَمَ ارْتَكُضَ الْجَنِينُ فِي بَطْنِهَا، وَامْتَلَأَتْ أَلِيسَابَابَاتُ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ، وَصَرَخَتْ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ وَقَالَتْ: "مُبَارَكَةٌ أَنْتِ فِي النِّسَاءِ وَمُبَارَكَةٌ هِيَ ثَمَرَةُ بَطْنِكَ! فَمِنْ أَيْنَ لِي هَذَا أَنْ تَأْتِيَ أُمُّ رَبِّي إِلَيَّ؟ فَهُوَذَا حِينَ صَارَ صَوْتُ سَلَامِكَ فِي أُذُنِي ارْتَكُضَ الْجَنِينُ بِابْتِهَاجٍ فِي بَطْنِي. فَطُوبَى لِلَّتِي آمَنَتْ أَنْ يَتِمَّ مَا قِيلَ لَهَا مِنْ قِبَلِ الرَّبِّ" (لوقا ٣٩: ١-٤٥).

ذهبت مريم في تلك الأيام لزيارة أليصابات، لتري بعينها صحة خبر الملاك عن حملها العجيب في شيخوختها. فإن صحة قول جبرائيل لزكريا يزيد يقينها بأن قوله لها صحيح. فضلاً عن ذلك، فهي ترغب في تهنئة أليصابات والاشتراك معها في أفراحها الجديدة، بسبب حظها الممتاز. ثم أنها تغتنم هذه الفرصة الحسنة للاستفادة من نسيبتها بعد أن تكشف لها سرّها العميق.

استغرقت الرحلة من الناصرة إلى مدينة يهوذا خمسة أيام، وهناك وجدت مريم أليصابات في الشهر السادس من حملها العجيب. وقد اشتهر أمرها الآن بين قومها فزال عنها عار العُقم. وبسبب المعجزة السارة التي حدثت معها، نالت كرامة عظيمة، كأحد القديسين المختارين من الله، وامتلات ابتهاجاً جديداً نتيجة لآمالها الجديدة. ولما ألقت مريم سلامها على أليصابات وهنأتها لما نالته من الالتفات الإلهي، تحرّك في رحم أليصابات الطفل الذي لم يولد بعد. فأتخذت ذلك دليلاً على أن هذه الزيارة غير المنتظرة هي ممن سوف تكون والدة المسيح المنتظر، لأن الروح القدس حلّ عليها بقوة وأُثار عقلها وأطلق لسانها، فهتفت بصوت عظيم، وكررت حرفياً تهنئة الملاك السابقة لمريم في بيتها في الناصرة. وأضافت القول: "ومباركة ثمرة بطنك". ثم طوّبت مريم على الإيمان الذي أظهرته عندما بشرها الملاك.

نرى في تهنئة أليصابات لمريم تواضعاً جميلاً، وإلهاماً روحياً سامياً، لأنها قالت: "من أين لي أن تأتي أُمُّ رَبِّي إِلَيَّ؟". فقد انعكست آية الاحترام. أليصابات في مقامها كامراً كاهن جليل، وفي سنّ الشيخوخة، وفي منزلة الإكرام الإلهي الفائق، تقدّم الآن احتراماً كاملاً لفتاة فقيرة لم يعرف لها أحدٌ بعد امتيازاً إلا في حسن الصفات! ومن قولها: "أُمُّ رَبِّي" عرفنا أن هذا الاحترام لم يكن لاستحقاق في مريم، بل إكراماً للذي سوف تلده، واعترافاً بمقامه

الإلهي. وهذا قول كبير جداً من فم امرأة يهودية فهيمة تقية مثل أليصابات، لا يمكن أن تقوله إلا لأن الروح القدس الحال فيها قد ألهمها به.

"فَقَالَتْ مَرْيَمُ: "تُعَظِّمُ نَفْسِي الرَّبَّ، وَتَبْتَهِجُ رُوحِي بِاللَّهِ مُخَلِّصِي، لِأَنَّهُ نَظَرَ إِلَى اتِّضَاعِ أُمَّتِي. فَهُوَذَا مُنْذُ الْآنَ جَمِيعُ الْأَجْيَالِ تُطَوِّبُنِي، لِأَنَّ الْقَدِيرَ صَنَعَ بِي عَظَائِمَ، وَاسْمُهُ قُدُّوسٌ، وَرَحْمَتُهُ إِلَى جِيلِ الْأَجْيَالِ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَهُ. صَنَعَ قُوَّةً بِذِرَاعِهِ. شَتَّتَ الْمُسْتَكْبِرِينَ بِفِكْرِ قُلُوبِهِمْ. أَنْزَلَ الْأَعْزَاءَ عَنِ الْكُرَاسِيِّ وَرَفَعَ الْمُتَضْعِعِينَ. أَشْبَعَ الْجِيَاعَ خَيْرَاتٍ وَصَرَفَ الْأَغْنِيَاءَ فَارِغِينَ. عَصَدَ إِسْرَائِيلَ فَتَاهُ لِيَذْكُرَ رَحْمَةً، كَمَا كَلَّمَ آبَاءَنَا. لِإِبْرَاهِيمَ وَنَسَلِهِ إِلَى الْأَبَدِ" (لوقا ١: ٤٦-٥٥).

وبعد أن أكملت أليصابات تسبيحتها حلَّ الروح القدس على مريم أيضاً، فترنَّمت بنشيد ارتجالي، يُعَدُّ بين أشعار الإنجيل القليلة، أجملها وأسمائها، إذ تضاهي هذه الترتيلة أوفر مزامير دَّها داود، كما أنها تبين ما جمَّله الله به من الذكاء العقلي والشعور الروحي. في هذا النشيد تذكّرنا بمریم أخت موسى التي ترنَّمت بعد عبور بني إسرائيل البحر الأحمر. ولهجة مريم العذراء في هذه الترنيمة بعيدة عن التعظيم وعامرة بالتواضع. فهي تشعر الآن بصغرها أكثر من قبل، وتبين أن ليس هي بل الرب هو الذي تعظم بهذا العمل. تعترف في فاتحة ترنيمتها بأنها كغيرها تحتاج إلى مخلص، وأنها قد لجأت إلى الله لأجل خلاصها الشخصي. فلا ينتظر منها أن تخلّص الآخرين.

قالت مريم: "تعظم نفسي الرب" فهي تشعر بعدم استحقاقها لهذا الإنعام الإلهي، فقد اختارها الرب رغم وضاعة منزلتها، ورفعها إلى أوج العظمة بإنعامه الإلهي. وهي أول من شعر واعترف بهذا الإنعام، فقالت: "إن الرب نظر إلى اتضاع أمّته، لأن القدير صنع بي عظيمات".

ولقد برهنت هذه الكلمات على عظمة مريم، لأنها لم تصنع معجزة كالرسل والأنبياء وغيرهم من القديسين، ولم يُذكر لها كلام ذو شأن بعد هذا الحادث، ولا قُدِّم لها إكرام خصوصي. وبعد قيامة المسيح سكنت الوحي عنها تماماً، إلا في ذكرٍ بسيطٍ ساواها بغيرها، أنها كانت ضمن ١٢٠ تلميذاً اجتمعوا لأجل الصلاة في العلية.

يجب أن نتعلم من مثال إنكار الذات في مريم التقية. حتى في ساعة أعظم ارتفاعها، قالت: "واسمه قدوس" فقد كان كل افتكارها في الرب، ابتهاجاً بما صنع. لقد أعلنت أن الله لا يحابي بالوجوه، ويعمل بفكره الإلهي الذي يخالف أفكار البشر "يُنْزِلُ الْأَعْزَاءَ عَنِ الْكُرَاسِيِّ وَيُرفَعُ الْمُتَضْعِعِينَ". يُغْنِي الْفُقَرَاءَ وَيُفْقِرُ الْإِغْنِيَاءَ. يرفض الذين يظنون أنهم يستحقون التفاته الخصوصي، ويقبل الذين يُحسَبون غير مستحقين. "هو إلهٌ يحفظ العهد والرحمة إلى جيلٍ

الأجيال للذين يتقونه". فيحقُّ للكنيسة المسيحية أن تفتخر بتسبحة مريم هذه، وتحسبها أنفس
الترنيمات الإنجيلية

ولادة المسيح

"وَفِي تِلْكَ الْأَيَّامِ صَدَرَ أَمْرٌ مِنْ أَوْغُسْطُسَ قَيْصَرَ بِأَنْ يُكْتَتَبَ كُلُّ الْمَسْكُونَةِ. وَهَذَا الْاِكْتِتَابُ الْأَوَّلُ جَرَى إِذْ كَانَ كِيرِينْيُوسُ وَالْيَ سُوْرِيَّةَ. فَذَهَبَ الْجَمِيعُ لِيُكْتَتَبُوا، كُلُّ وَاحِدٍ إِلَى مَدِينَتِهِ. فَصَعِدَ يُوسُفُ أَيْضاً مِنَ الْجَلِيلِ مِنْ مَدِينَةِ النَّاصِرَةِ إِلَى الْيَهُودِيَّةِ، إِلَى مَدِينَةِ دَاوُدَ الَّتِي تُدْعَى بَيْتَ لَحْمٍ، لِكُونِهِ مِنْ بَيْتِ دَاوُدَ وَعَشِيرَتِهِ، لِيُكْتَتَبَ مَعَ مَرْيَمَ امْرَأَتِهِ الْمَخْطُوبَةِ وَهِيَ حُبْلَى. وَبَيْنَمَا هُمَا هُنَاكَ تَمَّتْ أَيَّامُهَا لِتَلِدَ. فَوَلَدَتْ ابْنَهَا الْبُكَرَ وَقَمَطَتْهُ وَأَضْجَعَتْهُ فِي الْمِدْوَدِ، إِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُمَا مَوْضِعٌ فِي الْمَنْزِلِ" (لوقا ١: ٢-٧).

كانت مريم في بيت يوسف مدة أشهر الحمل. وقربت أيامها لتلد وهما في وطنهما الناصرة، لكن نبوة كتبها ميخا النبي قبل هذا الوقت بنحو سبعماية سنة قالت إن المسيح يولد في بيت لحم (ميخا ٥: ٢)، وهي بعيدة عن الناصرة.

يقول المسيح إن السماء والأرض تزولان، ونقطة واحدة من قول الله لا تزول (متى ٢٤: ٣٥). وقال النبي إشعياء: "فَنَسُوا فِي سِفْرِ الرَّبِّ وَافْرَأُوا. وَاحِدَةً مِنْ هَذِهِ لَا تُفْقَدُ. لِأَنَّ فَمَهُ هُوَ قَدْ أَمَرَ، وَرُوحَهُ هُوَ جَمَعَهَا" (إشعياء ٤٠: ٦).

فأئذ دافع يكفي ليسوق يوسف ومريم من الناصرة إلى بيت لحم محتملين مشقة سفر أربعة أو خمسة أيام في أول فصل الشتاء، ومريم على وشك الولادة؟

أن الله يستخدم لإتمام مشيئته - ليس الملائكة فقط - بل الملوك أيضاً. ألم يقل الحكيم: "قَلْبُ الْمَلِكِ فِي يَدِ الرَّبِّ كَجَدَاوِلِ مِيَاهٍ، حَيْثُمَا شَاءَ يُمِيلُهُ"؟ (أمثال ٢١: ١) فسخر الله أعظم ملوك الأرض لِيَتِمَّ النبوة المتعلقة بمحل ولادة المسيح، وكلف أوغسطس قيصر الإمبراطور الروماني أن يأمر بإحصاء عمومي لرعاياه. ومراعاة لمطالب الشعب اليهودي سمح بأن يؤخذ الإحصاء عندهم في الوطن الأصلي لكل سبط وعائلة، حفظاً للأنساب في محل سكنهم، بغض النظر عن موطنهم الأصلي. وبما أن يوسف ومريم كانا من نسل داود، لذلك اضطرا أن يذهبا للإحصاء الجديد في بيت لحم، مدينة داود.

الولادة في بيت لحم

في مدة الألف سنة، منذ عهد داود تفرع وتفرق في أنحاء العالم عددٌ غفير من سلالة داود الملكية، وازدحمت بيت لحم بعودة الكثيرين منهم في وقت واحد لأجل الإحصاء، فلم يجد يوسف ومريم مكاناً لهما في الفندق العمومي، ولم يقبلهما أحد في بيته، لأن فقرهما الظاهر حال دون ذلك. وزد على ذلك أن أهل اليهودية كانوا يزددون بالجليليين الذين كان يوسف ومريم منهم، فبات يوسف ومريم في إسطبل الفندق.

وبينما هما في الإصطبل تمت أيام مريم لتلد. فولدت ابنها البكر وقمطته بالقليل المتيسر لديها، وأضجته في المذود لعدم وجود سرير تضعه فيه.. فأئى فقر أعظم من هذا؟ لكن هذا يوافق القصد الإلهي في التأنس لأجل إثبات الحب العجيب الذي تنازل إلى هذه الدرجة بقصد تخليص الخطاة.

لم يشعر أحدٌ بولادة هذا الطفل سوى مريم ويوسف، بينما شعر الجميع بالمنشور القيصري الذي ساق هذا الجمهور إلى بيت لحم، فاهتم جميع الناس به وتحدثوا عنه من كبيرهم إلى صغيرهم. أما اليوم فالأمر بالعكس. لقد نسي الناس منشور القيصر تماماً، لولا اقتترانه بولادة هذا الطفل، وصار سؤال البشر جميعاً لا عن ذلك المنشور، بل عن هذا المولود ومنزله الوضيع. ويتقاطر اليوم جميع المتمدنين، لا إلى قصر أو غسطس، بل إلى مذود المسيح.

فلنتأمل في هذا المذود ونسأل: هل ذلك الفقير هو ذات الشخص الذي نراه الآن بعد ألفي سنة، موضوع عبادة أعظم ملوك الأرض وأغنى سكانها وأشهر علمائها؟ إنهم يفتخرون أن يسجدوا أمام صليبه، وأن ينتسبوا إليه، وأن يخضعوا لتعاليمه. والحق يُقال إننا نرى فيه وهو ابن يوم واحد موضوعاً لمزيد الاحترام الحبي، لأنه آدم الثاني داخلاً إلى العالم كأدم الأول دون أب بشري، ودون خطية أو شبه خطية، لكي يُصلح ما أفسده آدم الأول بسقوطه، ويجدد نسلًا روحياً، ويُعيد الفردوس أخيراً إلى عالمنا الحزين.

الملائكة يعلنون الخبر للرعاة

"وَكَانَ فِي تِلْكَ الْكُورَةِ رُعَاةٌ مُتَبَدِّينَ يَحْرُسُونَ حِرَاسَاتِ اللَّيْلِ عَلَى رَعِيَّتِهِمْ، وَإِذَا مَلَائِكُ الرَّبِّ وَقَفَ بِهِمْ، وَمَجَّدَ الرَّبُّ أَضَاءَ حَوْلَهُمْ، فَخَافُوا خَوْفًا عَظِيمًا. فَقَالَ لَهُمُ الْمَلَائِكُ: "لَا تَخَافُوا. فَهَذَا أَنَا أَبَشِّرُكُمْ بِفَرَحٍ عَظِيمٍ يَكُونُ لِجَمِيعِ الشَّعْبِ: أَنَّهُ وُلِدَ لَكُمْ الْيَوْمَ فِي مَدِينَةِ دَاوُدَ مُخَلِّصٌ هُوَ الْمَسِيحُ الرَّبُّ. وَهَذِهِ لَكُمْ الْعَلَامَةُ: تَجِدُونَ طِفْلاً مَقْمَطاً مُضْجِعاً فِي مَذُودٍ".

وظَهَرَ بَعَثَةٌ مَعَ الْمَلَائِكِ جُمُهورٍ مِنَ الْجُنْدِ السَّمَاوِيِّ مُسَبِّحِينَ اللَّهَ وَقَائِلِينَ: "الْمَجْدُ لِلَّهِ فِي الْأَعَالِي، وَعَلَى الْأَرْضِ السَّلَامُ، وَبِالنَّاسِ الْمَسْرَّةُ".

وَلَمَّا مَضَتْ عَنْهُمْ الْمَلَائِكَةُ إِلَى السَّمَاءِ، قَالَ الرُّعَاةُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: "لِنَذْهَبِ الْآنَ إِلَى بَيْتِ لَحْمٍ وَنَنْظُرَ هَذَا الْأَمْرَ الْوَاقِعَ الَّذِي أَعْلَمْنَا بِهِ الرَّبُّ". فَجَاءُوا مُسْرِعِينَ، وَوَجَدُوا مَرْيَمَ وَيُوسُفَ وَالطِّفْلَ مُضْجِعاً فِي الْمَذُودِ. فَلَمَّا رَأَوْهُ أَخْبَرُوا بِالْكَلَامِ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ عَنْ هَذَا الصَّبِيِّ. وَكُلُّ الَّذِينَ سَمِعُوا تَعَجَّبُوا مِمَّا قِيلَ لَهُمْ مِنَ الرُّعَاةِ. وَأَمَّا مَرْيَمُ فَكَانَتْ تَحْفَظُ جَمِيعَ هَذَا الْكَلَامِ مُتَفَكِّرةً بِهِ فِي قَلْبِهَا. ثُمَّ رَجَعَ الرُّعَاةُ وَهُمْ يُمَجِّدُونَ اللَّهَ وَيُسَبِّحُونَهُ عَلَى كُلِّ مَا سَمِعُوهُ وَرَأَوْهُ كَمَا قِيلَ لَهُمْ" (لوقا ٨: ٢٠-٢١).

صاحب ميلاد المسيح العديّد من الحوادث السماوية، فقد جرت في السماء أعظم حركة.

لقد سبق بيان اهتمام أهل السماء بحوادث الأرض، وتكرر مجيء كبير الملائكة ليبشر بقرّب هذه الولادة العجيبة. لكن هذه هي المرة الوحيدة التي أرسل فيها الله إلى العالم جمهوراً من الملائكة، وسُمع على الأرض ترنيم ألحان السماء.

فمن هم الذين نالوا هذا الحظ الفريد، وبهرت أبصارهم رؤية هذا الجمهور، وشنّفت أسماعهم هذه الترنيمة الوحيدة السماوية التي بلغت آذان البشر؟ ليسوا أكابر القوم ولا علماءهم ولا رؤساء الدين المنزل. لم يحظ بذلك هيرودس الملك في قصره المجاور، ولا رئيس الكهنة في الهيكل القريب الباهر، بل قد جاء هذا الشرف وهذا السرور لأشخاص تشابه أحوالهم الخارجية أحوال هذا المولود، لكي تتم هيئة الاتضاع التي تمثّل تنازل الإله لأجل خلاص الإنسان.

لما تأسست الأرض وُضع حجر زاويتها، ترنمت كواكب الصبح معاً وهتف جميع بني الله، لكن هذا الهتاف والترنيم لم يطرقا آذاناً بشرية. إنما لما تأسس الفداء، وُضع حجر زاوية الخلاص للبشر الخطاة بتأنس الابن الأزلي، سُمع فوق سهول بيت لحم هتاف ملائكة الله في آذان رعاة متبذّين يحرسون حراسات الليل على رعيتهم.

وبينما كان هؤلاء الرعاة ساهرين على أغنامهم وقف بهم ملاك الرب، وأضاء حولهم مجد الرب. فيحقّ لهم أكثر من مريم وزكريا أن يخافوا خوفاً عظيماً. لكن الملاك قال لهم كما قال للمذكورين: "لا تخافوا" ثم قال: "ها أنا أبشركم بفرح عظيم". بشر جبرائيل زكريا ثم مريم بأمرٍ مفرح جداً سيكون قريباً. لكن هذه البشارة أعجب، لأن موضوعها أمر. وأخبرهم أن هذا الفرّح يشمل جميع شعب الله الذين يفرحون بهذه الولادة.

كرر الملاك الكلمة الجوهرية التي أعلنها لزكريا عندما سمّى هذا الطفل "قرن خلاص" والتي قالها لمريم ثم ليوسف لما سمّاه "مخلصاً" وقال الآن للرعاة: "وُلد لكم اليوم مخلص". وأفهم الرعاة أن هذا المخلص من مدينة داود، فهو إذاً من نسله. وأنه "المسيح" - إذاً هو الموعود به من قديم، وأنه "الرب" - إذاً ليس هو مجرد بشر. ثم أعطاهم علامة دون سؤال منهم، وهي الهيئة التي يرونها عندما يجدون هذا المخلص.

وحالما أكمل الملاك هذا الموضوع الخطير، ظهر بغتة جمهور من الجند السماوي، لا ليعلنوا إعلاناً جديداً، بل ليثبتوا الإعلان الأول. ظهوراً مسبّحين الله.. إن تسبيح الله هو عملهم الخصوصي في السماء، ولما جاءوا إلى الأرض كان هذا أيضاً عملهم، فقالوا: "المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام وبالناس المسرة".

وهذه العبارة الوجيزة تتفق مع قول بولس الرسول إن "مَلَكُوثُ اللَّهِ بَرٌّ وَسَلَامٌ وَفَرَحٌ" (رومية ١٧: ١٤). لأن مجد الله برُّه أي قداسته، وثمر البر هو السلام والسرور.

ليس للملائكة أن يمكثوا مع البشر مهما اشتى البشر رفقتهم، فرجعوا إلى السماء. وكان تأثير زيارتهم أن الرعاة أسرعوا إلى البلد، حسب إشارة الملاك ليمتّعوا أعينهم بهذا المنظر الذي جمع بين المجد والتواضع، فصاروا شهوداً للزيارة الملائكية، ثم للإعلان المثبت لحقيقة هذا الطفل غير الظاهرة في شيء من أحواله الخارجية. فلو ولد هذا الطفل في قصر ملكي، يناسب مقامه الحقيقي، لما سمح أحدٌ لهؤلاء الرعاة في ملابسهم الفقيرة وهيئتهم الخشنة أن يدخلوا لينظروهم-ولكن مَنْ يمنعهم عن زيارة الإصطبل؟ جاءوا مسرعين فرأوا ما أخبرهم به الملاك تماماً، وحكوا لمريم ويوسف وغيرهم ممّن صادفهم خبر ما حدث لهم في ذلك الليل في البرية. فتعجب كل الذين سمعوا مما قيل لهم من الرعاة. أما مريم، الوالدة السعيدة فكان لها هذا الخبر في المنزل الأولى من الأهمية لإثبات صحة بشارة الملاك لها بخصوص مولودها.

ثم رجع الرعاة إلى قطعانهم وهم يمجّدون الله ويسبحونه، كما فعل الملائكة في مسامعهم، فكانوا أول من بشر بمجيء راعي النفوس ورأس الكنيسة العظيم.

نتصوّر هؤلاء الرعاة من الأتقياء رغماً عن فقرهم واضطرابهم أن يهملوا كثيراً من طقوس الدين العديدة والثقيلة. لا بل يجوز الظن أيضاً بأن الأغنام التي كانوا يرعونها هي المخصّصة لخدمة الهيكل، المُعدّة للتقديم على المذبح المقدس. وهنا نرى علاقة لطيفة بين هذه الأغنام المعدة للذبح في الهيكل، وهذا الطفل الذي سماه المعمدان "حَمَلُ اللَّهِ" وسماه يوحنا الرسول "الحمل المذبح" (يوحنا ١: ٢٩، رؤيا ٥: ٦).

ختان الطفل

"وَلَمَّا تَمَّتْ ثَمَانِيَةُ أَيَّامٍ لِيُخْتَنُوا الصَّبِيُّ سُمِّيَ يَسُوعَ، كَمَا تَسَمَّى مِنَ الْمَلَائِكَةِ قَبْلَ أَنْ حُبِلَ بِهِ فِي الْبَطْنِ" (لوقا ٢: ٢١).

في اليوم الثامن بعد ولادة هذا الطفل، أُجري له فرض الختان الذي جعله الله لإبراهيم علامةً لإفراز شعبه من الأمم الوثنيين حولهم. هذه هي المرة الأولى من مرات عديدة فيها خضع مؤسس العهد الجديد لفرائض العهد القديم. وهذا لكي يربط في شخصه العهدين، كما تتحد في شخصه أيضاً طبيعتا الخالق والمخلوق.

زيارة الطفل للهيكل

"وَلَمَّا تَمَّتْ أَيَّامُ تَطْهِيرِهَا، حَسَبَ شَرِيعَةَ مُوسَى، صَعِدُوا بِهِ إِلَى أُورُشَلِيمَ لِيَقْدِّمُوهُ لِلرَّبِّ، كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ فِي نَامُوسِ الرَّبِّ: أَنْ كُلَّ ذَكَرٍ فَاتِحٍ رَحِمٍ يُدْعَى قُدُّوساً لِلرَّبِّ. وَلَكِنِّي يُقَدِّمُوا ذَبِيحَةً كَمَا قِيلَ فِي نَامُوسِ الرَّبِّ، زَوْجَ يَمَامٍ أَوْ فَرْخِي حَمَامٍ. وَكَانَ رَجُلٌ فِي أُورُشَلِيمَ اسْمُهُ سِمْعَانُ، كَانَ بَاراً تَقِيّاً يَنْتَظِرُ تَعْزِيَةَ إِسْرَائِيلَ، وَالرُّوحُ الْقُدُسُ كَانَ عَلَيْهِ. وَكَانَ قَدْ أُوحِيَ إِلَيْهِ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ أَنَّهُ لَا يَرَى الْمَوْتَ قَبْلَ أَنْ يَرَى مَسِيحَ الرَّبِّ. فَأَتَى بِالرُّوحِ إِلَى الْهَيْكَلِ. وَعِنْدَمَا دَخَلَ بِالصَّبِيِّ يَسُوعَ أَبَوَاهُ، لِيَصْنَعَا لَهُ حَسَبَ عَادَةِ النَّامُوسِ، أَخَذَهُ عَلَى ذِرَاعَيْهِ وَبَارَكَ اللَّهَ وَقَالَ: "الآن تَطْلُقُ عَبْدَكَ يَا سَيِّدُ حَسَبَ قَوْلِكَ بِسَلَامٍ، لِأَنَّ عَيْنَيَّ قَدْ أَبْصَرْتَا خَلَاصَكَ، الَّذِي أَعَدَدْتَهُ قُدَّامَ وَجْهِ جَمِيعِ الشُّعُوبِ. نُورَ إِعْلَانٍ لِلْأُمَمِ، وَمَجْداً لِشَعْبِكَ إِسْرَائِيلَ".

وَكَانَ يُوسُفُ وَأُمُّهُ يَتَعَجَّبَانِ مِمَّا قِيلَ فِيهِ. وَبَارَكَهُمَا سِمْعَانُ، وَقَالَ لِمَرْيَمَ أُمِّهِ: "هَا إِنَّ هَذَا قَدْ وُضِعَ لِسُقُوطٍ وَقِيَامِ كَثِيرِينَ فِي إِسْرَائِيلَ، وَلِعَلَّامَةٍ تُقَاوَمُ. وَأَنْتِ أَيْضاً يَجُوزُ فِي نَفْسِكَ سَيْفٌ، لِنُحْلُلِ أَفْكَارُ مِنْ قُلُوبٍ كَثِيرَةٍ" (لوقا ٢٢: ٣٥).

أخذ يوسف ومريم المسيح إلى الهيكل في اورشليم لإداء الطقوس الدينية المطلوبة. ولم تنته هذه الزيارة الأولى من رب الهيكل إلى هيكل الرب دون حوادث فوق العادة تناسب وتؤيد ما سبقها من معجزات. فقد التقى سمعان الشيخ بيوسف ومريم، وهو رجل بار تقي كان الروح القدس عليه، وينتظر مجيء المسيح الموعود به. وكان قد أوحى لسمعان الشيخ بالروح القدس أنه يرى قبل موته مسيح الرب. ف شعر في ذلك النهار أن هذا الروح يجذبه إلى الهيكل، ثم يهديه إلى هذا الطفل. فأخذ الصبي وحمله على ذراعيه كأنه يقدمه للرب، وبارك الرب وقال: "الآن تطلق عبدك يا سيد حسب قولك بسلام لأن عيني قد أبصرتا خلاصك". ثم في خاتمة تسبيحته المختصرة أوضح عمومية هذا الخلاص، إذ قال: "نور إعلان للأمم".

ولما أظهر يوسف ومريم التعجب من مضمون هذه التسبيحة، ومن معرفة سمعان لمقام هذا الطفل ومستقبله باركهما سمعان كما يبارك الكبير الصغير، ثم كشف لمريم بكلام خصوصي سراً عميقاً ومهماً جداً متعلقاً بشخص المسيح وعمله، وهو: كما أن المخلص يُقيم كثيرين، فهو أيضاً يُسقط كثيرين، وأنه سيكون موضوع أشد المقاومة والاضطهاد، ويسبب كشف كثير من مكنونات القلب، وأن مريم أمه ستشارك في آلامه حتى كأن سيفاً يخرق قلبها.

"وَكَانَتْ نَبِيَّةً، حَنَّةٌ بِنْتُ فَنُؤِيلَ مِنْ سِبْطِ أَشِيرَ، وَهِيَ مُتَقَدِّمَةٌ فِي أَيَّامٍ كَثِيرَةٍ، قَدْ عَاشَتْ مَعَ زَوْجٍ سَبْعَ سِنِينَ بَعْدَ بُكُورِيَّتِهَا. وَهِيَ أَرْمَلَةٌ نَحْوَ أَرْبَعِ وَثَمَانِينَ سَنَةً، لَا تُفَارِقُ الْهَيْكَلَ، عَابِدَةً

بِأَصْوَامٍ وَطِلْبَاتٍ لَّيلاً وَنَهَاراً. فَهِيَ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ وَقَفَتْ تُسَبِّحُ الرَّبَّ، وَتَكَلَّمَتْ عَنْهُ مَعَ جَمِيعِ الْمُنتَظِرِينَ فِدَاءً فِي أُورُشَلِيمَ" (لوقا ٣٦: ٢-٣٨).

وبعد هذا الحادث تقدمت نبيه اسمها حنة بنت فنوئيل من سبط أشير كانت طاعنة في السن، وقد ترمّلت قبل هذا بنحو أربع وثمانين سنة، صرفتها في التعبد لله. ولما رأت الطفل مع أبويه وسمعت كلام سمعان الشيخ وقفت تسبح الرب، وتكلمت عنه مع جميع المنتظرين فداء في أورشليم. وبهذا الحادث أصبحت حنة بكر المؤمنات بالمسيح بعد ولادته، وباكورة جيش النساء الفاضلات اللواتي خدمته في كل العصور.

وبعد هذه الزيارة للهيكل في أورشليم عاد يوسف ومريم والطفل يسوع إلى مدينة أجدادهم بيت لحم. وبزوال الازدحام الوقتي، تيسر لهذه العائلة المباركة مقرّ هناك غير الإصطبل

زيارة المجوس ليسوع الطفل

"وَلَمَّا وُلِدَ يَسُوعُ فِي بَيْتِ لَحْمِ الْيَهُودِيَّةِ، فِي أَيَّامِ هِيرُودُسَ الْمَلِكِ، إِذَا مَجُوسٌ مِنَ الْمَشْرِقِ قَدَّ جَاءُوا إِلَى أُورُشَلِيمَ قَائِلِينَ: "أَيْنَ هُوَ الْمَوْلُودُ مَلِكُ الْيَهُودِ؟ فَإِنَّا رَأَيْنَا نَجْمَهُ فِي الْمَشْرِقِ وَأَتَيْنَا لِنَسْجُدَ لَهُ". فَلَمَّا سَمِعَ هِيرُودُسُ الْمَلِكُ اضْطَرَبَ وَجَمِيعُ أُورُشَلِيمَ مَعَهُ. فَجَمَعَ كُلَّ رُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ وَكَتَبَةِ الشَّعْبِ، وَسَأَلَهُمْ: "أَيْنَ يُولَدُ الْمَسِيحُ؟" فَقَالُوا لَهُ: "فِي بَيْتِ لَحْمِ الْيَهُودِيَّةِ، لِأَنَّهُ هَكَذَا مَكْتُوبٌ بِالنَّبِيِّ: وَأَنْتِ يَا بَيْتَ لَحْمِ أَرْضِ يَهُودَا لَسْتَ الصُّغْرَى بَيْنَ رُؤَسَاءِ يَهُودَا، لِأَنَّ مِنْكَ يَخْرُجُ مُدَبِّرٌ يَرْعَى شَعْبِي إِسْرَائِيلَ".

حِينَئِذٍ دَعَا هِيرُودُسُ الْمَجُوسَ سِرًّا، وَتَحَقَّقَ مِنْهُمْ زَمَانَ النَّجْمِ الَّذِي ظَهَرَ. ثُمَّ أَرْسَلَهُمْ إِلَى بَيْتِ لَحْمٍ وَقَالَ: "اذْهَبُوا وَافْحَصُوا بِالتَّحْقِيقِ عَنِ الصَّبِيِّ، وَمَتَى وَجَدْتُمُوهُ فَأَخْبِرُونِي، لِكَيْ أَتِي أَنَا أَيْضًا وَاسْجُدَ لَهُ". فَلَمَّا سَمِعُوا مِنَ الْمَلِكِ ذَهَبُوا. وَإِذَا النَّجْمُ الَّذِي رَأَوْهُ فِي الْمَشْرِقِ يَتَقَدَّمُهُمْ حَتَّى جَاءَ وَوَقَفَ فَوْقَ، حَيْثُ كَانَ الصَّبِيُّ. فَلَمَّا رَأَوْا النَّجْمَ فَرَحُوا فَرَحًا عَظِيمًا جِدًّا، وَأَتَوْا إِلَى الْبَيْتِ، وَرَأَوْا الصَّبِيَّ مَعَ مَرْيَمَ أُمِّهِ، فَخَرُّوا وَسَجَدُوا لَهُ، ثُمَّ فَتَحُوا كُنُوزَهُمْ وَقَدَّمُوا لَهُ هَدَايَا: ذَهَبًا وَلُبَانًا وَمَرًّا. ثُمَّ إِذْ أُوحِيَ إِلَيْهِمْ فِي حُلُمٍ أَنْ لَا يَرْجِعُوا إِلَى هِيرُودُسَ، انْصَرَفُوا فِي طَرِيقٍ أُخْرَى إِلَى كُورَتِهِمْ" (متى ٢: ١-١٢).

في فجر التاريخ البشري لم يطق إبليس أن يرى أبونا الأولين طاهرين سعيدين في جنة عدن، فاحتال عليهما وأسقطهما مع نسلهما جميعاً تحت عبودية الخطية. فهل يمكن أن يسكت لولادة المسيح، آدم الثاني، الأعظم من الأول بما لا يُقاس؟ أوليس هذا عدوه المقتدر الذي قال عنه الرسول: "لَأَجْلِ هَذَا أُظْهِرَ ابْنُ اللَّهِ لِكَيْ يَنْقُضَ أَعْمَالَ إِبْلِيسَ"؟ (١ يوحنا ٣: ٨). حقاً إن سكوت إبليس في هذا الوقت مستحيل، فلا بد من هيجانٍ جديد في دوائر الجحيم.

ولا يحتاج هذا الرئيس إلى رسل من عالم الأرواح لإجراء مشيئته في إهلاك هذا الطفل الفريد، لأن عظماء القوم في البلاد هم في قبضة يده يستخدمهم كما يشاء في إتمام مقاصده المهلكة. ومن هو أقدر على الإعدام من الملوك؟ أوليس ملك البلاد هيرودس الكبير الشرير الظالم الدموي طائعاً تماماً لمشية ملك الشياطين؟ فما حاجة إبليس إلى غير عبده هذا الملكي الذي يفخر ويكتفي به ليُجري له مرامه الآن؟ وبما أن أجل هذا الملك الشرير اقترب، فلذلك لا يتباطأ إبليس في استخدامه.

وفي ذات يومٍ في أواخر أشهر الشتاء وقع اضطراب عظيم في أورشليم وفي قصر الملك، بسبب ظهور قوم غرباء في أورشليم آتين من المشرق، كانوا على ما يرجح من أهل العلم والرُتب الرفيعة اسمهم المجوس. ولا يقال من أي مشرق أتوا: أمن بلاد فارس أم الهند أم بلاد العرب؟ ولا يُقال كم كان عددهم: هل اثنا عشر حسب بعض التواريخ، أو ثلاثة حسب

الرأي الغالب. والذين يصرون على أنهم ثلاثة يبنون حكمهم على أن تقدماتهم كانت من ثلاثة أنواع. ويحسبون أنهم مثلوا أقسام البشر الثلاثة: أي بني سام وبني حام وبني يافث، كما مثلوا أقسام العمر الثلاثة أي: الشباب والرجولة والكهولة.

يُرجَّح أنهم كانوا من المهتمين، كسائر علماء عصرهم، بدرس علم الفلك ومراقبة الأجرام السماوية. وقد يكونون من الذين سمعوا من اليهود المتغربين في بلادهم عن المسيح العظيم المنتظر، وأنهم من أمثلة الوثنيين الذين يقول فيهم كُتَبَةُ اليهود والرومان إنهم كانوا يتوقعون ظهور شخص عظيم في بلاد اليهود.

أما أهل أورشليم فقد اعتادوا مجيء الزائرين من كل بلدان العالم حيثما كان الشعب اليهودي مشتتاً، لأن شهرة مدينتهم جعلتها مطمح أبصار الكثيرين من غير اليهود، الذين يريدون التفرج والاتجار. لكن قدوم هؤلاء المجوس أوقع اضطراباً عاماً بسبب السؤال الذي سألوه وغرضهم من هذه الزيارة. كان سؤالهم: "أين هو المولود ملك اليهود؟ لأننا رأينا نجمة في المشرق وأتينا لنسجد له".

أثار هذا السؤال خوفاً عظيماً في قلوب الذين سمعوه، بسبب ما توقعوا أن يفعله الملك الشرير هيرودس متى سمع بملك جديد غيره. لا بد أن فنون جنونه تتجدد بذلك. ولا يعلم أحد على من تقع ضرباته البربرية المهلكة. كان جواسيسه المأجورون يبلغونه حالاً بكل ما يمسُّه أو يهتُّه، فلما بلغه خبر مجيء المجوس وسؤالهم، هاج خوفاً على عرشه وعلى حياته، فجمع حالاً كل رؤساء الكهنة وكتبة الشعب ليعرف منهم إن كان في كتب الأنبياء إشارة إلى مكان مولد المسيح. وإطاعة لأمره سردوا له قول النبي ميخا: "أَمَّا أَنْتِ يَا بَيْتَ لَحْمٍ أَفْرَاتَةَ، وَأَنْتِ صَغِيرَةٌ أَنْ تَكُونِي بَيْنَ أُلُوفٍ يَهُودًا، فَمِنْكَ يَخْرُجُ لِي الَّذِي يَكُونُ مُتَسَلِّطاً عَلَى إِسْرَائِيلَ، وَمَخَارِجُهُ مُنْذُ الْقَدِيمِ مُنْذُ أَيَّامِ الْأَزَلِ" (ميخا ٥: ٢).

ولا بد أن هيرودس دعا المجوس إلى قصره وأكرمهم - رغم شدة هيجان حنقه الداخلي عليهم - ليعرف منهم موعد ظهور النجم. ونعتقد أنه كان يهينهم ويعذبهم ويهلكهم لولا مكره الذي أوعز إليه أن يستخدمهم لإهلاك المولود الجديد الذي يهدد عرشه، فأخفى عنهم غيظه وأرسلهم إلى بيت لحم، ثم بمزيد الخبث والمكر أوصاهم: "أن يفحصوا بالتدقيق عن الصبي" وبمنتهى الرياء قال: "ومتى وجدتموه فأخبروني لكي آتي وأسجد له" فقدّر لنفسه يوماً قريباً فيه يأخذ من المجوس الخبر الذي طلبه منهم، فيذهب بنفسه متظاهراً بقصد السجود، ليقول الصبي، وربما المجوس أيضاً الذين أزعجوه.

كنا نود أن نعرف أفكار المجوس لما وصلوا إلى العاصمة اليهودية، ووجدوا أن لا علم لأحد بميلاد الملك الجديد، من سكان القصر الملكي إلى أحقر رجل في الشارع. لماذا لم يأسفوا على سياحتهم ومشاقها ويعودوا على أعقابهم إلى بلادهم خجلين؟ لماذا لم يفكروا أن

نجمهم أضلّهم فيندمون على ما فعلوا؟ ربما استأنسوا بقول هيرودس إنه يريد هو أيضاً أن يسجد لهذا المولود، فتجددت آمالهم بعد أن علموا أن الملك هيرودس نفسه يريد أن يأتي ويسجد له. فذهبوا مستعدين أن يفعلوا ما أوصاهم، وشكروه على التسهيلات التي قدمها لهم.

وفي طريقهم إلى بيت لحم عاد النجم الذي رأوه في المشرق إلى الظهور، وتقدّمهم "حتى جاء ووقف حيث كان الصبي. ففرحوا فرحاً عظيماً جداً" ولا بد أنهم استدّلوا من النجم، لما رأوه في بلادهم، أن وجهتهم يجب أن تكون أورشليم، وأن النجم لم يرافقهم إليها. رأوه في المشرق وودّعهم هناك، ولذلك سرّهم جداً ظهوره الآن بعد انجابه.

وبما أن ليس في أحوال العائلة المقدسة الخارجية، ولا في منظر الصبي، ما يؤيد أصله العجيب ومقامه السماوي، نرجح أن "أبيه" لم يكونا قد أظهرنا هذه الأسرار لأهل بيت لحم، وأنه لا يمكن أن يهتدي المجوس إلى مكان المسيح بدون هداية النجم. فإلى أي طفل من جميع أطفال بيت لحم ينبغي أن يسجدوا؟ لذلك ظهر لهم النجم من جديد ليثبّت إيمانهم، وليدّلهم على البيت الذي يجب أن يزوروه. فلم يكن النجم مجرد أعجوبة، بل كان وسيلة ضرورية للوصول إلى نتيجة مهمة.

ونلاحظ أنهم لما دخلوا البيت الذي هداهم النجم إليه لم يسجدوا إلا للطفل، وقدموا له وحده الهدايا، فقدّموا مراً ناسب مقام هذا الطفل النبوي، ولبناناً وافق مقامه الكهنوتي، وذهباً لائم مقامه الملكي.

وقد بحث العلماء كثيراً في موضوع هذا النجم العجيب، ودقّق الفلكيون في حساب الظهورات الجوية النادرة، ليروا أيّها يجوز اتخاذه تفسيراً لهذا الظهور. وعُلم أن في نحو ذلك التاريخ حدث اقتران في النجوم السيارة، لا يحدث إلا مرة بين مئات السنين. وظن بعضهم أن هذا الاقتران كان دليل المجوس. وعُلم أيضاً أن نجماً خارقاً في لمعانه ظهر في نحو ذلك الزمان، وبقي وقتاً وجيزاً ثم اختفى، فظنّه آخرون أنه نجم المجوس، وزعم غيرهم أنه كان من نوات الأذنان التي لم يرد خبر ظهور بعضها في التاريخ إلا مرة، خلافاً للبعض الآخر التي لضيق حلقة دورانها، تعود إلى الظهور في فلكننا في مواقيت معلومة. ولكن لا يعرف أحد بالتأكيد شيئاً كافياً عن هذا النجم.

كم فرح المجوس برؤية هذا الطفل الذي رأوا نجمه أولاً في مشرقهم البعيد. لقد حصلوا على نور جديد يفوق كثيراً الأجرام السماوية التي كانوا يراقبونها. وهذه نتيجة اهتمامهم بالدين، لذلك أوحى إليهم في حلم أن لا يرجعوا إلى هيرودس، فانصرفوا في طريق أخرى إلى كورثهم. ولا نعرف كيف ودّع المجوس الأغنياء العائلة المقدسة الفقيرة.

"وَبَعْدَمَا انْصَرَفُوا، إِذَا مَلَاكُ الرَّبِّ قَدْ ظَهَرَ لِيُوسُفَ فِي حُلْمٍ قَائِلاً: "قُمْ وَخُذِ الصَّبِيَّ وَأُمَّهُ وَاهْرُبْ إِلَى مِصْرَ، وَكُنْ هُنَاكَ حَتَّى أَقُولَ لَكَ. لِأَنَّ هِيرُودُسَ مُزْمِعٌ أَنْ يَطْلُبَ الصَّبِيَّ لِيُهْلِكَهُ". فَقَامَ وَأَخَذَ الصَّبِيَّ وَأُمَّهُ لَيْلاً وَانْصَرَفَ إِلَى مِصْرَ، وَكَانَ هُنَاكَ إِلَى وَفَاةِ هِيرُودُسَ، لِكَيْ يَتِمَّ مَا قِيلَ مِنَ الرَّبِّ بِالنَّبِيِّ: "مِنْ مِصْرَ دَعَوْتُ ابْنِي" (متى ١٣: ٢-١٥).

حال انصراف المجوس ظهر ملاك الرب ليوسف في حلم ثانٍ، كما ظهر قبل هذا في الناصرة، وأمره بالذهاب إلى مصر، وأعلن له سبب ذلك، فلم يتباطأ يوسف في طاعة الأمر الإلهي.

لا بد أن مجيء المجوس وما فعلوه أثار في جميع سكان بيت لحم، وزاد احترامهم لعائلة ربما كانوا قبلاً يحتقرونها، ولا سيما للطفل الذي اعتبره المجوس ملك إسرائيل الجديد، فسجدوا له وأتحفوه بهدايا ذات قيمة مهمة.

ولولا هدايا المجوس الثمينة ما كان يوسف يقدر أن يقوم بنفقات هذا السفر البعيد والتغرب في مصر. فجاءت هذه الهدايا شاهداً جليلاً لتدبير العناية الإلهية العجيبة متى مست الحاجة لإتمام مشيئته المقدسة.

قتل أطفال بيت لحم

"حِينَئِذٍ لَمَّا رَأَى هِيرُودُسُ أَنَّ الْمَجُوسَ سَخَرُوا بِهِ غَضِبَ جَدًّا، فَأَرْسَلَ وَقَتَلَ جَمِيعَ الصَّبْيَانِ الَّذِينَ فِي بَيْتِ لَحْمٍ وَفِي كُلِّ ثُخُومِهَا، مِنْ ابْنِ سَنَتَيْنِ فَمَا دُونَ، بِحَسَبِ الزَّمَانِ الَّذِي تَحَقَّقَهُ مِنَ الْمَجُوسِ. حِينَئِذٍ تَمَّ مَا قِيلَ بِإِرْمِيَا النَّبِيِّ: "صَوْتُ سُمْعٍ فِي الرَّامَةِ، نَوْحٌ وَبُكَاءٌ وَعَوِيلٌ كَثِيرٌ. رَا حِيلُ تَبْكِي عَلَى أَوْلَادِهَا وَلَا تُرِيدُ أَنْ تَتَعَرَّى، لِأَنَّهُمْ لَيْسُوا بِمَوْجُودِينَ" (متى ١٦: ٢-١٨).

ماذا جرى في قصر هيرودس بعد أن ترك المجوس بيت لحم، وماذا فعل يوسف ومريم؟ لنعدُّ بالفكر إلى القصر الملكي في أورشليم، فنرى هيرودس منتظراً بفروغ صبر عودة المجوس، ليعرف ماذا يعمل لكي يهلك المولود ملك اليهود. ولما انتهت المدة المتفق عليها بينه وبينهم لم يعودوا إليه، يرجَّح أنه أرسل إلى بيت لحم يسأل عنهم. ولما أخبره رسوله أنهم انصرفوا على غير طريق أورشليم، أدرك أن المجوس خدعوه، فاغتاظ جداً لأن هذا أضعاف فرصته لمعرفة أي صبي في بيت لحم يجب أن يُقتل.

ولا شك أن هيرودس سعى ليعرف من أهل بيت لحم البيت الذي زاره المجوس. ولما أخبر أنهم كانوا غرباء من الجليل، وأنهم سافروا ليلاً إلى جهة مجهولة، لم يصدق ذلك، بل نسب إليهم الخداع، حسب عاداته المشهورة في التطرُّف في إساءة الظن، واعتبر أن هذه الإجابة محافظة على أحد أولادهم، فحمي غضبه أكثر، وقصد أولاً أن يتأكد من قتل الطفل يسوع. وثانياً أن ينتقم من أهل بيت لحم بعد أن ظن أنهم قاوموه بالخداع، وقبلوا سخرية المجوس

به، وهو الملك العظيم. فأرسل رجاله ليقتلوا جميع الصبيان الذين في بيت لحم والذين في كل تخومها (لئلا يكون قد تحذّر أحد فهرب إلى خارج) من ابن سنتين فما دون، بحسب الزمان الذي تحققه من المجوس.

يرى البشير متى في هذا الحادث المريع وهذه الفظاعة الهيرودية، إتماماً ثانياً لقول إرميا: "صَوْتُ سُمِعَ فِي الرَّامَةِ، نَوْحٌ بُكَاءٌ مُرٌّ. رَاحِيلُ تَبْكِي عَلَى أَوْلَادِهَا وَتَأْبَى أَنْ تَتَعَزَّى عَنْ أَوْلَادِهَا لِأَنَّهُمْ لَيْسُوا بِمَوْجُودِينَ" (إرميا ١٥: ٣١) وقد حسبهم البعض باكورة الشهداء المسيحيين لأنهم دُبحوا في سبيل المسيح.

عودة إلى الناصرة

"فَلَمَّا مَاتَ هِيرُودُسُ، إِذَا مَلَاكُ الرَّبِّ قَدْ ظَهَرَ فِي حُلْمٍ لِيُوسُفَ فِي مِصْرَ قَائِلًا: "قُمْ وَخُذِ الصَّبِيَّ وَأُمَّهُ وَاهْبِ إِلَى أَرْضِ إِسْرَائِيلَ، لِأَنَّهُ قَدْ مَاتَ الَّذِينَ كَانُوا يَطْلُبُونَ نَفْسَ الصَّبِيِّ". فَقَامَ وَأَخَذَ الصَّبِيَّ وَأُمَّهُ وَجَاءَ إِلَى أَرْضِ إِسْرَائِيلَ. وَلَكِنْ لَمَّا سَمِعَ أَنَّ أَرْخِيْلَاوُسَ يَمْلِكُ عَلَى الْيَهُودِيَّةِ عَوَضًا عَنْ هِيرُودُسَ أَبِيهِ، خَافَ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى هُنَاكَ. وَإِذْ أُوحِيَ إِلَيْهِ فِي حُلْمٍ، انْصَرَفَ إِلَى نَوَاحِي الْجَلِيلِ. وَآتَى وَسَكَنَ فِي مَدِينَةٍ يُقَالُ لَهَا نَاصِرَةُ، لِكَيْ يَتِمَّ مَا قِيلَ بِالْأَنْبِيَاءِ: "إِنَّهُ سَيُدْعَى نَاصِرِيًّا" (متى ١٩: ٢-٢٣).

لم يطل الوقت إلا ونال هيرودس الظالم الدموي الشرير عقابه الذي يستحقه، لأنه مات موتاً مخيفاً في قصره في مدينة أريحا، معذباً عذابات لا توصف من خارج ومن داخل. فمن يقدر أن يتصور لساعات ضمير الشرير في ساعات الموت، وخصوصاً متى طالت هذه الساعات، وكانت علته لا ترحمه؟ ظن هيرودس لما قتل أطفال بيت لحم أنه يعيش وأن الصبي الذي خشي أن يهدد عرشه قد قُتل. لكن بعد أيام قليلة كان هيرودس في قبره، بينما كان الصبي يسوع حياً محروساً، قد عظم شأنه حسب ما نراه في هذا اليوم.

ولم يطل تغرّب العائلة المقدسة، فقد جاء ليوسف في مصر ملاكٌ قال له في حلم: "قم وخذ الصبي وأمه" لكنه لم يقل: "اهرب" بل "اذهب". وأمره بالرجوع إلى أرض إسرائيل باطمئنان، لأن الذي أراد أن يقتل الصبي قد مات، فسمع يوسف وأطاع.

ونعتقد أن يوسف ومريم أرادا أن يستوطنا في بيت لحم، مدينة أجدادهم، مدينة داود الجميلة المكرمة، الواقعة على حدود المدينة المقدسة أورشليم، وبقرب هيكل الله العظيم، وبجانب المدارس العالية التي يلزم أن يتخرج فيها كل من قصد التقدّم في المراتب الدينية، فقد كان تقدّم المسيح مطمح أبصارهما، وهذه هي المدينة التي وضع الله اسمه فيها منذ أيام داود الملك والنبي العظيم، أفلا يوافق أن يتربى فيها أو في جوارها وارث داود الأعظم؟ ولكن بما أن ملك اليهود الجديد أرخيلائوس بن هيرودس الذي قام في أول ملكه بأعمال كثيرة

حسنة، ليؤيد سلطته ويحفظ عرشه، تغيّر سريعاً، وأظهر من القساوة ما مائل تصرفات أبيه، خاف يوسف أن يستوطن تحت ظله.

ويظهر أن يوسف كان في حيرته يلتجئ إلى الصلاة طلباً لإرشاد الله، فكان الله يجيبه وينيره بواسطة أحلامه. وقد شعر الآن بعظمة المسؤولية التي عليه للمحافظة على يسوع وحسن تربيته. وفي هذه الحيرة أتاه الإرشاد الإلهي في حلم، فرجعوا إلى وطنهم الأول في الناصرة وسكنوا هناك. ويقول متى البشير إن الإقامة في الناصرة حققت قول أحد الأنبياء إن المسيح سيُدعى ناصرياً (متى ٢٣: ٢).

طفولة فريدة

تتضح طفولية يسوع الفريدة عن كل طفولية سواها في التاريخ لمن يتتبع قراءتها بإمعان، فمنها الكلام العجيب الذي جاء أولاً في النبوات القديمة التي تحققت بصورة مذهشة في تفاصيل هذه الطفولية، ثم جاء في النبوات الجديدة من ملائكة وبشر قبل ولادته مباشرة، ثم في الأناشيد الممتازة لأليصابات وزكريا ومريم.

ومنها الحوادث العجيبة التي ابتدأت بظهور الملاك لزكريا وعقابه بالخرس لعدم إيمانه، ثم تلا ذلك حبل أليصابات العجيب، وشفاء زكريا من خرسه، وظهور الملاك لمريم وحبلها العجيب، والتعليمات الضرورية الصادقة التي وردت ليوسف في الأحلام، والأمر الإمبراطوري بالإحصاء وحفظ القيود النسيبية اليهودية، وظهور الملائكة للرعاة، وحوادث التقديم في الهيكل، وزيارة مجوس المشرق، ومنها التنوع العجيب في الاحتفاء بولادة هذا الطفل: أولاً اشتراك الملائكة ممثلي أهل السماء، ثم الكاهن ممثل رجال الدين، ثم الرعاة ممثلي فقراء العالم. ثم مريم وأليصابات ممثلي الشابات والعجائز ثم المجوس ممثلي الأغنياء والعلماء والأشراف، وممثلي الأمم الوثنية، ثم سمعان الشيخ ممثل الإسرائيليين الأتقياء، وحنة ممثلة الأنبياء، والنجم ممثل الطبيعة غير العاقلة.

يُضاف إلى هذا مناسبة الوقت الذي جاء فيه هذا المولود، ليس فقط أنه الوقت الذي اتفق مع النبوات الصريحة المختصة بالمسيح الموعود به، بل أن المناسبة ظهرت من أوجه أخرى عديدة، أوضحها الرسول بولس بعد ذلك في قوله: "لَمَّا جَاءَ مِلْءُ الزَّمَانِ، أَرْسَلَ اللَّهُ ابْنَهُ مَوْلُوداً مِنْ امْرَأَةٍ، مَوْلُوداً تَحْتَ النَّامُوسِ" (غلاطية ٤: ٤).

جاء المسيح رئيس السلام في وقت سلام عمّ الأرض نادر الوقوع. وجاء في وقت توطّد فيه الأمن العام، وتوفّرت المواصلات في الداخل والخارج تسهيلاً لأسفار رسله والمبشرين بإنجيله، وذلك بواسطة امتداد لا مثيل له في التاريخ لسطوة سياسية موحّدة منظمة شاملة،

هي سطوة الإمبراطورية الرومانية في عِزِّها. ومن محاسن هذا الحكم إطلاق الحرية التامة الدينية.

وكانت اللغة اليونانية، أفضل اللغات القديمة، منتشرةً مع فلسفتها البليغة في البلدان المختلفة، تسهياً لتوزيع إنجيل المسيح والتبشير به، ولا سيما أن اليهود كان لهم في الشتات ترجمة توراتهم العبرانية إلى اللغة اليونانية.

جاء المسيح في وقت تفاقم فيه الشر في العالم لتتضح شدة احتياجه إلى مخلص مقدر يقدم فداءً كافياً، ويظهر سلطةً وافية ليكون مخلص البشر أجمع.

جاء المسيح في وقت تمت فيه الوسائل الأخرى التي استخدمها الإله سبحانه لردِّ البشر عن شرورهم. وكانت هذه الشرور تزداد، فامتألت صدور الأتقياء القليلي العدد يأساً، جعلهم يتوقعون بفروغ صبر المسيح المخلص.

جاء المسيح في وقت تشبَّت فيه الشعب اليهودي في كل المعمور، وهو شعب متمسك بالتوحيد الإلهي، يكره العبادة الصنمية. وباعتبار التوراة الكتاب المنزل كان رسل المسيح يبدأون باليهود في التبشير بمجيء مسيحهم، ويستعينون بمن يؤمن منهم لنشر البشارة بين الأكثرية الوثنية. وفي ذات الوقت كان الحكم الروماني العادل الصارم حاجزاً منيعاً أوقف رؤساء اليهود الذين أرادوا أن يخنقوا المسيحية في مهدها وأن يطفئوا ذكر المسيح.

فبناءً على الأمور المار ذكرها وأمثالها، هل من عجب أن افتتح البشير مرقس تاريخ حياة هذا المولود بقوله: "بدء إنجيل يسوع المسيح ابن الله؟".

صُبُوَّةُ الْمَسِيحِ

بعد أن ذكر الإنجيل حوادث ميلاد المسيح ذكر حادثة ذهاب المسيح إلى هيكل أورشليم، وله من العمر اثنتي عشرة سنة، ثم صمت الإنجيل تماماً عن ذكر أي شيء من حياة المسيح حتى بلغ الثلاثين من عمره وبدأ خدمته الجهارية بين الناس، يشفي المرضى ويقوم الموتى ويعلم الناس.

ويتوقع كل إنسان إلى أن يرى عملاً ولو واحداً، وأن يسمع قولاً ولو كلمة، عن مرحلة طفولة المسيح وصُبُوَّتِهِ. لكن ليس للعالم شيء من ذلك قبل بلوغ المسيح سن الإثنتي عشرة، لأن الوحي أسدل ستاراً حجب عن العالم ما افكره المسيح وقاله وفعله في تلك المدة كلها.

ويجوز أن نخمّن بعض أمور أهمل ذكرها، منها التحاقه في سن السادسة بالمدرسة كسائر أولاد اليهود، مراعاة لقانون الدين، الذي جعل تعليم الأولاد إلزامياً، فأصبح يسوع شريكاً لجمهور الأولاد في المدارس، ونموذجاً لهم في الدروس والسلوك، يعرف تجاربهم ويشعر معهم فيها، لأنه تجرّب مثلهم فيرثي لهم. ومنها أيضاً امتيازه بين زملائه علمياً وأخلاقياً.

في عمر الثانية عشرة

ولما بلغ يسوع الثانية عشرة من عمره ذهب مع مريم ويوسف إلى هيكل أورشليم، ثم مرّ على هذا الحادث نحو ثماني عشرة سنة، سكّت الوحي تماماً عن أخبارها. ولم نُقَلْ "سكّت البشّرون" لأن سكوتهم لم يكن طبيعياً. ولا يفسره إلا أنهم كانوا منقادين بروح الوحي إلى هذا السكوت. وأما الكتبة الغير الموحى إليهم، الذين كتبوا بعدهم، فاتّبّعوا النسق الطبيعي، ولقّقوا أخباراً عديدة تتعلق حسب قولهم بتلك السنين.

ولم يرَضَ مسيحيو الأجيال المظلمة عن هذا السكوت، فلّقّقوا أخباراً مفصّلة مطوّلة، وكتبوا أناجيل ورسائل تحتوي قصصاً خرافية عن طفولية يسوع، تورد أقوالاً وأفعالاً تلائم تصوّراتهم السخيفة، المضادة لنصوص الإنجيل الحقيقي، فقد ظنوا أن المعجزات التي اخترعوها تزيد من أمجاد المسيح، لكنها في الواقع تشهد بسخافة تلك القصص.

ولكننا نتساءل: لماذا سكّت الوحي عن أخبار هذه السنين، مع أن الوسائل لمعرفة حوادثها كانت متوفرة؟ وجواباً لذلك نقول إن حوادث طفولية يسوع أظهرت ملامح طبيعته الإلهية الضرورية لأجل صلاحيته كمخلّص، فصار من الضروري أن تتحجب هذه الملامح مدة كافية لأجل إيضاح إنسانيته الحقيقية. لذلك انْحَجَبَ لاهوته عن عشرين سنوات استعداده الثلاثين، إلى أن برز للخدمة، فتجددت براهين لاهوته الحقيقي، في ما بقي من حياته بين الناس.

وهذا السكوت من أهم براهين خطأ الذين يزعمون أن عمل يسوع الأعظم والأهم كان تقديمه قدوة للناس يتمثلون بها، فلو أن هذا كان صحيحاً لكان من الواجب إعلان ما قاله المسيح وفعله في السنين التي قضاها في العيشة العادية كأحد العامة، يمارس مهنته كنجار في الناصرة.

ولم يقصد البشرون تدوين حوادث حياة المسيح تاريخياً، بل قصدوا أن يبينوا أنه المصلح والمخلص. لذلك اكتفوا بالتاريخ الذي ابتدأ عند مباشرته أعماله علانية ورسمياً، بعد بلوغه سن الثلاثين، مع أن الأخبار التي أهملوها كانت تفيد وتلد العالم كثيراً لو أنها سُجِّلت.

ومع أن الناصرة مدينة حقيرة بالنسبة إلى كثير من مدن البلاد، إلا أنها كانت تناسب من أوجه عديدة تربية الصبي ثم الشاب يسوع فيها، فقد كانت زُمر الكهنة تجتمع فيها من مساكنهم المتفرقة، عندما يأتي دورهم ليعلموا في هيكل أورشليم، ومنها يذهبون معاً لأورشليم. والذين يتعدّر عليهم الذهاب إلى أورشليم كانوا يقضون أسبوع خدمتهم في أداء الفروض الدينية في الناصرة، على إحدى الطرق الرئيسية الموصلة بين المناطق الداخلية وشاطئ البحر الأبيض المتوسط، فكانت تمر فيها القوافل المسافرة إلى البلاد الفينيقية وإلى مصر، فيرى يسوع من الحركات العمرانية ما يفقهه في أحوال البشر الزمنية. وقد أدى سكنه في قرية حقيرة في أطراف البلاد إلى نموه في التواضع وفي البساطة الدينية، لبُعده عن مركز اليهود الديني حيث كان الفساد مستفحلاً، لأن الادعاءات الرئاسية، والخطورة الرئائية، والسفسطة التقليدية، والتفنيات الطقسية، كانت قد استولت على قادة الأمة في عاصمة دينهم، فخنقت التقوى الحقيقية، وضاع من بينهم روح الدين بسبب استعبادهم للحرف، وقد أوضح يسوع أفكاره في هذا كله يوم زار أورشليم، ودان أولئك الرؤساء على ذلك بكلام قارص جداً.

ويظهر أن أصل يسوع السماوي كاد يبرح من أفكار مريم ويوسف في سني حياته. ولا عجب، لأن حياته كانت تسير على أسلوب اعتيادي، ما خلا تفوقه في الصلاح، فاعتاد أهله النظر إليه كإنسان فقط. وكان في هذا الإغفال خير، إذ أدى إلى أنه اختبر أحوال البشر المتنوعة، عندما اختلط بقومه في أطوار حياته التي تدرّج فيها. ونتيجة لذلك تجرب في كل شيء مثلنا. فلو كان أبواه يفتنان في كثير من الأوقات إلى حقيقة طبيعته لأصبحا في ارتباك دائم في معاملته، ولكانا يحسبان أنه يجب عليهما الخضوع له في الرأي، وأن يقدمَا له الطاعة، وليس بالعكس. وكان إذ ذاك قد تربى تربية أبعدته عن سائر البشر، وأفقده الاشتراك التام في الشعور مع الأولاد والشبان والرجال.

ولا نشك أن يسوع كان في حياته في الناصرة متقدماً حرارة وغيره وإشفاقاً لرؤيته مصائب الناس وآلامهم، ولذلك نُدهش أكثر لصبره العجيب، وامتلاكه عواطفه تلك السنين كلها التي

كان فيها محتجباً في الناصرة، ومؤجلاً عمله الخطير الذي نزل من السماء لأجله، والذي شغل كل أفكاره.

كان عليه أن يمارس يومياً حرفة النجارة ليكسب رزقه، حتى أطلق اليهود عليه لقب "النجار ابن مريم". وتعلّم القناعة بحالته الفقيرة، والخضوع للأكثر منه سناً. ومما يؤيد استنتاجنا أن حياته كانت اعتيادية تماماً، أن إخوته لم يؤمنوا به، كما أن صيته لم يمتد في البلاد المجاورة، لأن نثنائيل في قانا الجليل على بُعد ساعات قليلة، لم يكن قد سمع به كل تلك السنين، ولا أهل كفر ناحوم وبيت صيدا الأبعد قليلاً بالنسبة إلى قانا. وقد تلخّص تاريخ حياته في قول البشير لوقا: "وَكَانَ الصَّبِيُّ يَنْمُو وَيَتَقَوَّى بِالرُّوحِ، مُمْتَلِئاً حِكْمَةً، وَكَانَتْ نِعْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ". وقوله: "وَأَمَّا يَسُوعُ فَكَانَ يَتَقَدَّمُ فِي الْحِكْمَةِ (في عقله) وَالْقَامَةِ (في جسمه) وَالنِّعْمَةِ (في روحه)، عِنْدَ اللَّهِ وَالنَّاسِ" (لوقا ٢: ٤٠ و ٥٢). وهذا الكلام يدل على أن المسيح تدرج في ذلك تدرجاً طبيعياً. وبذلك كان حائزاً - ليس فقط على الرضى الإلهي - بل على الإستحسان البشري أيضاً.. وكأنسان نتصوره في كل تلك المدة يحبه جميع الناس، مستعداً لخدمتهم في كل أمر حسن، يبتعد عن كل ما يكرههم، ويصبر على هفواتهم، ويعاملهم باللطف في سيئاتهم. لم تأت ساعته بعد، التي تطلب منه مقاومة الشر جهاراً، فتثير عليه حنق الأشرار، ولم يزل بعد الشهرة والأهمية التي تهيج عليه حسد الكبار.

زيارة هيكل أورشليم

"وَكَانَ أَبَوَاهُ يَذْهَبَانِ كُلَّ سَنَةٍ إِلَى أُورُشَلِيمَ فِي عِيدِ الْفِصْحِ. وَلَمَّا كَانَتْ لَهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ سَنَةً صَعِدُوا إِلَى أُورُشَلِيمَ كَعَادَةِ الْعِيدِ. وَبَعْدَمَا اكْتَمَلُوا الْأَيَّامَ بَقِيَ عِنْدَ رُجُوعِهِمَا الصَّبِيُّ يَسُوعُ فِي أُورُشَلِيمَ، وَيُوسُفُ وَأُمُّهُ لَمْ يَعْلَمَا. وَإِذْ ظَنَّاهُ بَيْنَ الرُّفَقَةِ، ذَهَبًا مَسِيرَةَ يَوْمٍ، وَكَانَا يَطْلُبَانِهِ بَيْنَ الْأَقْرَبَاءِ وَالْمَعَارِفِ. وَلَمَّا لَمْ يَجِدَاهُ رَجَعَا إِلَى أُورُشَلِيمَ يَطْلُبَانِهِ. وَبَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ وَجَدَاهُ فِي الْهَيْكَلِ، جَالِساً فِي وَسْطِ الْمُعَلِّمِينَ، يَسْمَعُهُمْ وَيَسْأَلُهُمْ. وَكُلُّ الَّذِينَ سَمِعُوهُ بُهِتُوا مِنْ فَهْمِهِ وَأَجْوَبَتِهِ. فَلَمَّا أَبْصَرَاهُ انْدَهَشَا. وَقَالَتْ لَهُ أُمُّهُ: "يَا بُنَيَّ، لِمَ أَفَعَلْتَ بِنَا هكَذَا؟ هُوَذَا أَبُوكَ وَأَنَا كُنَّا نَطْلُبُكَ مُعَذِّبِينَ!" فَقَالَ لَهُمَا: "لِمَاذَا كُنْتُمَا تَطْلُبَانِنِي؟ أَلَمْ تَعْلَمَا أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ أَكُونَ فِي مَا لِأَبِي؟". فَلَمْ يَفْهَمَا الْكَلَامَ الَّذِي قَالَ لَهُمَا.

ثُمَّ نَزَلَ مَعَهُمَا وَجَاءَ إِلَى النَّاصِرَةِ وَكَانَ خَاضِعاً لَهُمَا. وَكَانَتْ أُمُّهُ تَحْفَظُ جَمِيعَ هَذِهِ الْأُمُورِ فِي قَلْبِهَا. وَأَمَّا يَسُوعُ فَكَانَ يَتَقَدَّمُ فِي الْحِكْمَةِ وَالْقَامَةِ وَالنِّعْمَةِ، عِنْدَ اللَّهِ وَالنَّاسِ" (لوقا ٢: ٤١-٥٢).

في عمر الثانية عشرة سافر يسوع من الناصرة إلى هيكل أورشليم. وكان يوسف - رأس هذه الأسرة الناصرية الصغيرة - مكلفاً رسمياً أن يصعد إلى أورشليم سنوياً في الأعياد المهمة، وعلى الأخص في عيد الفصح، أكبر الأعياد، ولم تكن مريم مكلفة بذلك، شأنها

شأن سائر النساء، كما كان الصبيان غير مكلفين قبل أن يدخلوا تحت "نير الناموس" في سن الإثنتي عشرة.

وفي تلك السنة وقع عيد الفصح في ٨ نيسان. إلى هذا العيد إذاً صعد به "أبواه" أول مرة. نحب أن نتصور اهتمام الثلاثة بالاستعداد لهذه الزيارة الأولى - زيارة هذا الولد العجيب - إلى المقام الديني الموقر. ثم نتصور رحلتهم برفقة القافلة المؤلفة من الجيران، مع كثيرين من بلاد أبعد وراء الناصرة.

وكان على هذه القافلة أن تختار إما الطريق الأقصر الذي يمر في بلاد السامريين المكروهين، وذلك يعرضهم للإهانة والمضايقة، التي كان يتعرض لها اليهود الصاعدون بزيارات دينية إلى مدينة أورشليم من أهل السامرة. أو أن تفعل فعل اليهود المتدينين، وتختار المرور على الطريق الأبعد الواقع شرقي الأردن، فتضطر أن تعبر هذا النهر مرتين. وفي الحالتين يشرف هذا الجمهور على أورشليم في اليوم الرابع أو الخامس.

ولا بد أن يسوع فرح وهو يرى الهيكل الفخم الجميل، والعابدين القادمين من مختلف بلاد العالم، ويسمع فرق الترتيل تعزف بالآلات الموسيقية وترنم بألحان مطربة مرّدة مزامير جدّه داود. هنا يشاهد خدمة صفوف الكهنة، ولا سيما رئيسهم الأعظم، وهم مخصصون لخدمة الله، وخدمة الشعب في الأمور الروحية، وعليهم دون غيرهم تتوقف المصالح الدينية في البلاد. وكل فرد يطلب المصالحة مع الله وغفراناً لخطاياها كان مضطراً أن يقدم بواسطة هؤلاء الكهنة فقط الذبائح المفروضة عليه لينال هذه البركات.

كان يوسف ومريم ويسوع يقضون أيامهم في المدينة مع المعيّدين، ويحرصون بكل تدقيق على مواقيت الصلاة القانونية في الهيكل، مع سائر الفرائض المذهبية العديدة المتعلقة بهذا العيد، ولا سيما التقدّمات والذبائح. ولا بد أن رغبة هذا الصبي الذكي التقى اتجهت بالأكثر إلى السبب الخصوصي من هذه الزيارة، وهو فريضة الفصح المقدسة. ولا بد أنه كان يعلم أنه هو حمل الفصح الحقيقي، وأن كل تفاصيل هذا الاحتفال بالفصح ترمز إليه، وأن فيه تنتهي هذه السنّة القديمة التي مارسها شعب الله بكل تمسك مدة ألف وخمسمائة سنة. فكيف لا تكون عواطفه الدينية عامرة ابتهاجاً واشتياقاً إلى الاشتراك لأول مرة في فروض هذا العيد العظيم؟

لكن ما كان أبعد كل أفكار الجمهور الذي اختلط به هذا الصبي من التصرّو بأن هذا هو مسيحهم الموعود به والمنتظر. وكان من الواجب ألا يعرفوا ذلك الآن، لأنهم لو عرفوا لما سمحوا له أن يعود ويكمل مدته المعينة لاستعداده الكافي لعمله المقبل.

يظهر أنه كان ينفرد عن "أبويه" في النهار، وهما لا يهتمان لذلك، لعلمهما بصفاته وثقتهم التامة فيه، فلم يلاحظا كم كان يقضي أوقاتاً في عُرف التدريس الديني الملاصقة للهيكل، حيث كان أعظم علمائهم يعطون ويدرسون. وهو الآن يهتم فوق كل شيء بالاستفادة، فلا بد أنه رأى لأول وهلة الفرق الكلي بين أفكاره وأفكارهم، وكشف سطحية ديانة هؤلاء المعلمين، ف شعر بالحاجة إلى تعاليم روحية جديدة، على نسق جديد، وإلى بيان العلاقة الجوهرية بين التقوى وصلاح السيرة.

وأخيراً انتهت أيام العيد، وتمّ الاستعداد للرجوع للناصرية، وسافروا صباحاً جمهوراً ليس بقليل، فلم يلاحظ أحدهم - حتى ولا "أبواه" - أن الصبي لم ينضم إليهم، ولا علم أحدهم أنه كان قد ذهب إلى الهيكل "ليسمع المعلمين ويسألهم". ولكن لما لم يجدوه مساءً، بعد التفتيش عنه بين جميع الأقرباء والمعارف، رجع "أبواه" إلى المدينة منزعجين. وهناك لم يجدها في كل الأماكن التي تصوّرا أنه يتردد إليها، حتى بعد مواصلة التفتيش الجدي عنه يومين. إلى أن وجداه في اليوم الثالث في دائرة الهيكل جالسا بين علماء أمتهم وقد حصل على احترامهم وتعجبهم. كانت أفكاره متّقة بالمواضيع الدينية الجوهرية، يسأل العلماء بشغف، ويجيب على أسئلتهم بحكمة فائقة. فلما دخل "أبواه" إلى ذلك المكان الموقر لم تمتلك مريم نفسها، بل أسرعّت إلى توبيخه، قائلة: "يا بُنيّ، لماذا فعلت بنا هكذا؟ هوذا أبوك وأنا كنا نطلبك معذبين".

لا نلوم أمّا احتدت على ابنها في أحوال كهذه، إلا إذا كان ابنها يسوع، لأن معرفتها سموّه العقلي والأدبي، كان يجب أن توقّفها عن توبيخه. ومن جوابه عرفنا أنها ملومة، لأن جوابه لم يكن اعتذاراً عمّا فعل أو حُجّة لترضى بأن يبقى في أورشليم، إذ رجع حالاً معهما وكان خاضعاً لهما. بل كان من باب التوبيخ اللطيف، إشعاراً لهما أنه مع صِغر سنّه يقدر إرادة الله على إرادة الأهل، وأنه لا يعتبر يوسف أباً حقيقياً له، بل أن أباه هو ذلك الذي وُلد من روحه. وجّه لهما اللوم بأنه مع علمهما أن يوسف ليس أباه، نسيا أنه ينبغي أن يكون في ما لله أبيه الحقيقي، وليس في ما ليوسف أبيه المجازي، فلو كان يوسف أباه لقال: "ما لأبي السماوي" تمييزاً.

ولا بد من القول إنه لو كان يسوع مجرد بشر، مولوداً من أب وأم بشريين، لاستحق اللوم على ما فعل وعلى ما قال، إذ لا يحقّ لابن الإثنتي عشرة أن يستقل عن والديه في العُربة ويسبّب لهما عذاباً كهذا، ولا أن يكتّم عنهما رغبته في أن ينفصل عنهما ويبقى في المدينة. ولا يحقّ له أن يجيب أمه كما أجاب يسوع مريم بعد أن وجدته في الهيكل، لأنه بكتّها على إتمامها أقدس واجباتها الوالدية والدينية - أي الاعتناء بولدها والتفتيش عنه، ونسب إليها الجهالة في قوله: "ألستما تعلمان؟". فكأحد أولاد البشر، كان يجب أن يندم على ما سبّبه

لهما من التعب والهم، وأن يُظهر لهما إكراماً لائقاً، ولا سيما بالنظر إلى حالة والدته، والمحنة الشديدة التي حصلت لها بسببه.

إن مريم هي المصدر الوحيد لحفظ هذا الخبر ونشره. وقيل عنها في الوقت ذاته إنها لم تفهم كلامه. لكنها كانت تحفظ جميع هذه الأمور في قلبها. فلماذا تخبر بما يخلجها؟ ولماذا اهتَمَّ البشير والوحي الإلهي بإيراد هذا الخبر الذي يُرينا ولداً لم يَقم تماماً بمقتضيات الإحترام نحو والدته؟

إذا اعتبرنا هذا الصبي كما صوّره لنا البشيريون في أخبار طفوليته أنه ليس مجرد بشر، تنحل هذه العقدة، لأن الطبيعة الإلهية فيه توجب عليه أن يذكّر أمه ويوسف أيضاً عند قولها: "أبوك وأنا"، أن يوسف ليس أباه، وأنه ليس تحت سيطرتهم كغيره من الأولاد مع والديهم، ولذلك يجب على مريم، ثم على البشير أن يخبرا بما جرى، مما ينبّه الأفكار إلى أصله الإلهي، وأنه حقاً نزل من السماء ليولد من مريم. ويؤخذ من قوله لأمه: "ألستما تعلمان؟" أن السر الجوهري المتعلّق بأصله السماوي كان معلوماً عنده، فهل كان يا ترى معروفاً عند "والديه"؟

يجب أن نهتم كثيراً بهذه الألفاظ الوجيزة من فم يسوع، لأنها أول ما حُفظ لنا من كلامه. ويُلاحظ أن قوله: "ينبغي أن أكون فيما لأبي" هو فاتحة تناسب كل حياته فيما بعد، وهو القانون الذي اتخذه لنفسه، ولم يحد عنه مطلقاً في كل الزمان، من أول سني إدراكه، إلى أن اختفى من أبصار تلاميذه متمماً إرساليته بصعوده إلى السماء.

يوحنا المعمدان يجهز الطريق

"وَفِي تِلْكَ الْأَيَّامِ جَاءَ يُوحَنَّا الْمَعْمَدَانُ يَكْرُرُ فِي بَرِّيَّةِ الْيَهُودِيَّةِ قَائِلًا: "تُوبُوا، لِأَنَّهُ قَدْ اقْتَرَبَ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ. فَإِنَّ هَذَا هُوَ الَّذِي قِيلَ عَنْهُ بِإِسْعِيَاءَ النَّبِيِّ: صَوْتُ صَارِخٍ فِي الْبَرِّيَّةِ: أَعِدُّوا طَرِيقَ الرَّبِّ. اصْنَعُوا سُبُلَهُ مُسْتَقِيمَةً". وَيُوحَنَّا هَذَا كَانَ لِبَاسُهُ مِنْ وَبَرِ الْإِبِلِ، وَعَلَى حَقْوِيهِ مِنْطَقَةٌ مِنْ جِلْدٍ. وَكَانَ طَعَامُهُ جَرَادًا وَعَسَلًا بَرِّيًّا. حِينَئِذٍ خَرَجَ إِلَيْهِ أُورُشَلِيمُ وَكُلُّ الْيَهُودِيَّةِ وَجَمِيعِ الْكُورَةِ الْمُحِيطَةِ بِالْأُرْدُنِّ، وَاعْتَمَدُوا مِنْهُ فِي الْأُرْدُنِّ، مُعْتَرِفِينَ بِخَطَايَاهُمْ.

فَلَمَّا رَأَى كَثِيرِينَ مِنَ الْفَرِيسِيِّينَ وَالصَّدُوقِيِّينَ يَأْتُونَ إِلَى مَعْمُودِيَّتِهِ، قَالَ لَهُمْ: "يَا أَوْلَادَ الْإِنْسَانِ، مَنْ أَرَأَيْتُمْ أَنْ تَهْرُبُوا مِنَ الْعُصْبِ الْآتِي؟ فَاصْنَعُوا أَثْمَارًا تَلِيْقُ بِالتَّوْبَةِ. وَلَا تَفْتَكِرُوا أَنْ تَقُولُوا فِي أَنْفُسِكُمْ: لَنَا إِبْرَاهِيمُ أَبًا. لِأَنِّي أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ أَنْ يُقِيمَ مِنْ هَذِهِ الْحَجَارَةِ أَوْلَادًا لِإِبْرَاهِيمَ. وَالْآنَ قَدْ وُضِعَتِ الْفَأْسُ عَلَى أَصْلِ الشَّجَرِ، فَكُلُّ شَجَرَةٍ لَا تَصْنَعُ ثَمَرًا جَيِّدًا تُقَطَّعُ وَتُلْقَى فِي النَّارِ. أَنَا أَعْمِدُكُمْ بِمَاءٍ لِلتَّوْبَةِ، وَلَكِنَّ الَّذِي يَأْتِي بَعْدِي هُوَ أَقْوَى مِنِّي، الَّذِي لَسْتُ أَهْلًا أَنْ أَحْمِلَ حِدَاءَهُ. هُوَ سَيُعَمِّدُكُمْ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ وَنَارٍ. الَّذِي رَفُسُهُ فِي يَدِهِ، وَسَيُنْقِي بَيَدْرَهُ، وَيَجْمَعُ قَمْحَهُ إِلَى الْمَخْزَنِ، وَأَمَّا التِّبْنُ فَيُحْرَقُهُ بِنَارٍ لَا تُطْفَأُ" (متى ٣: ١-١٢).

قبلما بزغ نور المسيح العظيم، الذي قال عن نفسه: "أَنَا هُوَ نُورُ الْعَالَمِ" (يوحنا ١: ٩) لاح فجره في شخص نسيبه يوحنا المعمدان، الذي كان مثله-ولو أنه أقل منه كثيرًا، وقال عن نفسه: "لَسْتُ أَهْلًا أَنْ أُنْحَنِيَ وَأَحْلَ سُبُورَ حِدَائِهِ" (مرقس ١: ٧). سمّاه يسوع: "السِّرَاجُ الْمُوقَدَ الْمُنِيرَ" (يوحنا ١: ٩). وقال فيه الرسول يوحنا إنه "إِنْسَانٌ مُرْسَلٌ مِنَ اللَّهِ. لَمْ يَكُنْ هُوَ النُّورُ، بَلْ لِيَشْهَدَ لِلنُّورِ. لِكَيْ يُؤْمِنَ الْكُلُّ بِوَاسِطَتِهِ" (يوحنا ١: ٨).

كان هذا الفجر المبشّر به منتظرًا، بسبب النبؤات التي سبقت ظهوره. والمعمدان هو الوحيد غير المسيح الذي جاءت عنه نبؤات قبل ظهوره بمئات السنين. أشار البشّرون إلى نبؤة منها وردت في كتابة إشعياء، أعظم الأنبياء الذين كتبوا بعد موسى وأشاروا أيضاً إلى كلام نبي ثانٍ بعده بثلاثمائة سنة. وهو ملاخي، آخر الأنبياء الذين كتبوا بالوحي. ونبؤته هي الحلقة الموصلة بين العهد القديم وأسفاره والعهد الجديد وأسفاره (إشعياء ٤٠: ٣ ، ملاخي ٣: ١ ، ٤: ٥).

تقرّر مقام المعمدان أولاً بواسطة هذه النبؤات، وتقرّر أيضاً بواسطة سلسلة المعجزات الممتازة التي رافقت ولادته. ثم بواسطة القوة الفائقة التي ظهرت فيه حتى جذب الجماهير إلى وعظه ومعموديته، لأنه تسلط تسلطاً روحياً وأدبياً على الشعب وعلى رؤسائهم، حتى على ملكهم الشرير هيرودس أنتيباس. فصار اليهود يتساءلون قائلين: "أَلْعَلَّ هَذَا هُوَ الْمَسِيحُ؟" ونال هذه المكانة، دون شيء من الظواهر المجيدة التي كان اليهود يصوّرونها لمسيحهم متى جاء، ودون أن يفعل معجزة واحدة في زمانه.

أما الذي أيدَّ عظمة مقام المعمدان تأييداً صريحاً كاملاً، فهو شهادات المسيح له، فقد قال عنه للشعب: "مَاذَا خَرَجْتُمْ إِلَى الْبَرِّيَّةِ لَتَنْتَظِرُوا؟ أَنْبِيَاءُ؟ نَعَمْ أَقُولُ لَكُمْ، وَأَفْضَلُ مِنْ نَبِيِّ... الْحَقِّ أَقُولُ لَكُمْ: لَمْ يَقُمْ بَيْنَ الْمُؤَلُودِينَ مِنَ النِّسَاءِ أَعْظَمُ مِنْ يُوْحَنَّا الْمَعْمَدَانِ!" (متى ١١: ٧-١١) كانت عظمته من النوع المُشار إليه في قول دانيال النبي: "وَالْفَاهِمُونَ يَضِيُّونَ كَضِيَاءِ الْجَلْدِ، وَالَّذِينَ رَدُّوا كَثِيرِينَ إِلَى الْبَرِّ كَالْكَوَاكِبِ إِلَى أَبَدِ الدُّهُورِ" (دانيال ١٢: ٣).

يتقدم يوحنا المعمدان بروح إيليا ونشاطه، أمام ملك إسرائيل الحقيقي، حباً واحتراماً، عند قدومه إلى مملكته الأرضية، وكان غرض يوحنا كغرض إيليا: تبييت شعب الله على حيدانهم عن شرائعه تعالى، وعلى انقيادهم إلى العادات الفاسدة التي اقتبسوها من الأمم حولهم.

يسوق الضمير البشر ليُصغوا إلى الواعظ الذي يأتيهم بروح الأنبياء العظماء، مثل موسى الذي "قِيلَ أَقْوَالاً حَيَّةً لِيُعْطِنَا إِيَّاهَا" (أعمال ٧: ٣٨). وبروح الرسول بطرس الذي كتب: "إِنْ كَانَ يَتَكَلَّمُ أَحَدٌ فَكَأَقْوَالِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ يَخْدُمُ أَحَدٌ فَكَأَنَّهُ مِنْ قُوَّةٍ يَمْنَحُهَا اللَّهُ، لِكَيْ يَتَمَجَّدَ اللَّهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ بِبِسُوءِ الْمَسِيحِ، الَّذِي لَهُ الْمَجْدُ وَالسُّلْطَانُ إِلَى أَبَدِ الْأَبَدِينَ" (١ بطرس ٤: ١١).

الواعظ المملوء من الروح القدس - نظير المعمدان - لا يفتقر إلى سامعين، لأنه لا يشغل نفسه بالمقالات الفلسفية، ولا يتكلم من نفسه، ولا يعظ لأن الوعظ حرفته التي يرتزق منها ويُرضي الناس بها، بل يعظ كمن يسمع كلام الله الذي يقول له: "فَالآنَ أَذْهَبُ وَأَنَا أَكُونُ مَعَ فَمِكَ وَأَعْلَمُكَ مَا تَتَكَلَّمُ بِهِ" (خروج ١٢: ٤) وكمن يشعر مع بولس لما كتب: "وَيْلٌ لِي إِنْ كُنْتُ لَا أَبْشِرُ" (١ كو ٩: ١٦).

تبيّن المعمدان صغيراً، وليس له إخوة ولا أخوات. ولما بلغ سنّ الرشد لم يتبع أباه في رتبة الكهنوت، لأنه علم أنه نذير الله، فاتخذ البرية مسكنه، والجراد والعسل البري طعامه، وثوباً من وبر الإبل لباسه، والجلد حزاماً لوسطه، والزهد في الدنيا طباعه، فاختلف في ذلك عن المسيح الذي قضى سنيه كلها بين إخوته وأخواته ومواطنيه في الناصرة، يمارس صناعته بينهم، ويختلط بهم كأحدهم، ثم يتجول في المدن والقرى بين الجماهير في أنحاء البلاد. ويلاحظ أن قصة المعمدان كقصة المسيح تخلو من الأخبار بين طفوليته وسن الثلاثين، فالقول الوحيد الذي ورد عن المعمدان في هذه المدة كلها هو: "وَكَاثَتْ يَدُ الرَّبِّ مَعَهُ. أَمَّا الصَّبِيُّ فَكَانَ يَنْمُو وَيَتَقَوَّى بِالرُّوحِ، وَكَانَ فِي الْبَرَارِيِّ إِلَى يَوْمِ ظُهُورِهِ لِإِسْرَائِيلَ" (لوقا ١: ٦٦ و ٨٠).

ومع أن المعمدان لم يماثل المسيح في معيشته الخارجية، إلا أنه ماثله في التمسك التام بالأمور الروحية، والاهتمام بخير الناس، والغيرة على إصلاحهم، والجرأة في الانتصار

للق والبر، ومحاربة الشر على أنواعه بين كل طبقات البشر. وكان نصير المساواة بين الناس، يحطّ المترفع منهم، وينهض المتواضع، ويقوم المعوج، ويمهّد الطريق إلى الصلاح، ثم إلى السماء. وكان نصير السلام، يردّ القلوب المتباعدة بعضها إلى بعض. وفي كل هذا أنتم النبوات التي وردت بشأنه، ومنها أنه يجهز الطريق لمجيء المخلص الذي هو المسيح الرب. وقد قرن يوحنا المعمدان في معموديته الغفران بالتوبة، فليس الغفران أمراً مؤجلاً يناله الخاطي عند موته، أو في المستقبل بعد أن يُظهر حقيقة توبته بالأفعال الصالحة، بل هو هبة إلهية تُعطى حالما تتولّد في قلب الخاطي ندامة صادقة مخلصه تقود النادم للالتجاء إلى الله.

ولا بد أن الفكر المنتشر في البلاد وقتها بأن ظهور المسيح قريب كان من أسباب ازدحام الجمهور حول المعمدان. ولما قال علانية إن المسيح قد جاء، زاد الحماس الديني في أفكار الناس، فتقاطروا إلى هذا المبشر أكثر فأكثر. لكنه لم يدار خاطراً ولم يراع مقاماً في توبيخاته القوية الصريحة على الشرور المتنوعة، فبرهن بجرأته وعدالته أهليته للوظيفة النبوية. وفي إنكار ذاتٍ أعلن أنه ليس أكثر من "صوت صارخ في البرية" ينطق بأوامر إلهية تسلمها ليسلمها للشعب، كما صرّح عنه في النبوة القديمة المشيرة إليه. ونبّههم إلى أن الوقت قد حان لوضع الفأس على أصل الشجرة التي لا تثمر أثماراً صالحة، وأن بيد مسيحهم القادم رفشاً لتنقية بيده، وإحراق البطالين بنار لا تُطفأ، بعد جمع الصالحين إلى مخزنه (متى ٣: ١٢).

صوت المعمدان هذا هو الصوت الصارخ في البرية، وهو صدى الرعود على جبل سيناء عند إنزال الشريعة الطاهرة على موسى، فحرك الناس ليفتكروا بالنجاة. ولما رآهم المعمدان مرتعبين سألهم مؤثّباً: "من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي؟". وأعلن أن النجاة لن تكون بالهروب، بل بإصلاح سيرتهم، وأكد لهم أن مجرد تسلسلهم من إبراهيم لا يخوّلهم البركات التي وعد الله نسل إبراهيم بها، لأن الله قادر أن يقيم من الحجارة أولاداً لإبراهيم. ولكن لا يمكنه أن يحسب نسلًا لإبراهيم أناساً يخالفون إبراهيم وصلاحه. فظهر تأثير وعظه في المسائل التي تقدمت له لإجل الإرشاد الديني من صفوف الناس المختلفة، وظهرت حكمته في أجوبته.

ولم يكن كل وعظ يوحنا إرهاباً، فقد بشرّ الناس بالعمل الفائق الذي يقوم به المسيح متى ظهر. وأنه هو يقدر أن يعمدهم بماءٍ للتوبة، لكن معمودية الماء ليست إلا رمزاً وتمهيداً للمعمودية التي يفتقر إليها كل خاطي لأجل الخلاص، وهي معمودية الروح القدس، التي يستحيل على أعظم الرسل والأنبياء أن يعمد بها، لأنها عمل الإله وحده، فلما قال يوحنا إن المسيح يعمد بالروح القدس أعلن للناس أن يسوع المسيح حقاً هو الإله المتأنس، ولما قال إن المسيح الذي يأتي بعده كان قبله، قدّم برهاناً آخر بأن يسوع لم يكن مجرد بشر.

لا شك أن المعمدان مهّد طريق المسيح كثيراً، لأن تأثير وعظه خلق استعداداً داخلياً في كثيرين لسماع تعاليم المسيح وقبوله فيما بعد. وكان وعظه بأن ملكوت الله قد اقترب ذات الوعظ الذي افتتح به المسيح خدمته.

اختار الله المعمدان من النسل الكهنوتي ليهيئ طريق المسيح المخلص، ويوصل بين العهدين القديم والجديد، فأقامه نبياً لا كاهناً، وجعله الأخير في سلسلة الأنبياء، والأول في سلسلة المبشرين الجديدة. اختاره من أنساب يسوع في الجسد، تكريماً وتعزيزاً للعلاقات العائلية بين البشر، فالعائلة هي أساس المجتمع الإنساني، وأقدس فروعها، وهي أساس في الدين أيضاً. فرأس كل عائلة هو كاهنها ورئيسها الديني لا الزمني فقط. فالدين في المدارس حتى في المعابد أيضاً تابع للدين في العائلة.

رَنَ صوت المعمدان الصارخ في البرية، فملاً البلاد إلى أقاصيها، فجعله صيته مهوباً عند الجميع، من الملك هيرودس أنتيباس إلى رجل الشارع. وفي ذات يوم أتاه المسيح إلى بيت عبرة على ضفة الأردن من الناصرة على بعد سفر يوم - وكان قد أكمل السنين الثلاثين الإستعدادية. طال انحجاب حقيقة أمره عن أبصار العالم، وعن ذويه في وطنه فلم يعرفوا عظمة عمله المقبل، وهكذا يطول انحجاب البذرة في الأرض بحسب أهمية الشجرة التي ستكون منها.

المسيح يطلب من يوحنا أن يعمده

"جِيئَنِي جَاءَ يَسُوعُ مِنَ الْجَلِيلِ إِلَى الْأُرْدُنِّ إِلَى يُوْحَنَّا لِيَعْتَمِدَ مِنْهُ. وَلَكِنْ يُوْحَنَّا مَنَعَهُ قَائِلاً: "أَنَا مُحْتَاجٌ أَنْ أَعْتَمِدَ مِنْكَ، وَأَنْتَ تَأْتِي إِلَيَّ!" فَقَالَ يَسُوعُ لَهُ: "اسْمَحْ الْآنَ، لِأَنَّهُ هَكَذَا يَلِيْقُ بِنَا أَنْ نُكْمِلَ كُلَّ بَرٍّ". جِيئَنِي سَمَحَ لَهُ. فَلَمَّا اعْتَمَدَ يَسُوعُ صَعِدَ لِلْوَقْتِ مِنَ الْمَاءِ، وَإِذَا السَّمَاوَاتُ قَدْ انْفَتَحَتْ لَهُ، فَرَأَى رُوحَ اللَّهِ نَازِلاً مِثْلَ حَمَامَةٍ وَآتِياً عَلَيْهِ، وَصَوْتُ مِنَ السَّمَاوَاتِ قَائِلاً: "هَذَا هُوَ ابْنِي الْحَبِيبُ الَّذِي بِهِ سُرَرْتُ" (متى ١٣: ١٧).

حان زمان ظهور المسيح ليباشر عمله الخلاصي، فامتزج مع الجمهور الفقير الكبير المحيط بالمعمدان في البرية. نظرهم يتقدمون ويعترفون للمعمدان بخطاياهم، وينالون منه المعمودية بالماء إشارة إلى المغفرة، ثم النصائح المناسبة لكل واحد. رأى رهبة هذا النبي الجديد واحترام الجموع وخضوعهم له، وسمع لهجة سلطته الروحية في كلامه، فتقدم المسيح إليه ليرسله أن يعمده، لكنه لم يقدم شرط المعمودية أي الاعتراف والتوبة. فكيف يعمده المعمدان؟ لاحظ المعمدان أن يسوع مزيّن بهيبة القداسة، فبدلاً من أن يطالبه بالتوبة، اعتبره أعظم منه وأطهر، ورفض أن يعمده وقال: "أَنَا مُحْتَاجٌ أَنْ أَعْتَمِدَ مِنْكَ، وَأَنْتَ تَأْتِي إِلَيَّ!" (متى ١٤: ٣).

كان يوحنا ذا مقام رفيع، لأنه من السلالة الكهنوتية الممتازة، ومن منطقة اليهودية أشرف أقسام الأرض المقدسة. ومع ذلك لا تتعجب من كلامه هذا، لأنه علم أن الذي يخاطبه هو المسيح الذي طالما نادى بقرب مجيئه، وأطنب في وصفه، وتشوّق إلى رؤياه. لكن اعتراف المعمدان الصريح بأنه لم يكن يعرفه يجعلنا نَعْجب أنه وجّه كلاماً كهذا إلى نجّار مجهول من وطن حقير. لم يتذلل المعمدان أمام رؤساء البلاد، حتى ولا أمام الملك ذاته. قد سمعنا صوته بالأمس للرؤساء بين الجمهور قائلاً: "يا أولاد الأفاعي، من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي؟" فكيف يتذلل الآن أمام النجار الناصري، ويقول لهذا الشاب الغريب: "أنا محتاج أن أعتمد منك؟".

في قوله هذا أظهر أنه مع كل تقواه وغيرته ونجاحه في خدمة الدين وانتصاره للصلاح، وحياته التقشفية يشعر أنه خاطئ، ويفتقر إلى من يعمده هو بمعمودية التوبة. برهن تواضعه على عظّمته، فإن التفوق في الشعور بالخطية يرافق دائماً التفوّق في الصلاح. وكان جواب المسيح على اعتراض المعمدان بالرزانة والحكمة، كأنه معلم يخاطب تلميذاً له. قال: "اسْمَحْ الآنَ، لِأَنَّهُ هَكَذَا يَلِيْقُ بِنَا أَنْ نُكَمِّلَ كُلَّ بَرٍّ" (متى ١٥: ٣).

لا بد من الوقوف تجاه هذه العبارة، لأنها أول كلام حُفظ لنا من كلام المسيح عندما بلغ سن الرجولية، وهي القول الثاني فقط المدوّن من فمه العزيز. من قوله: "هكذا يليق" نعرف أن المسيح اعتمد لياقة لا وجوباً، واختياراً لا اضطراراً. فلم يقل كما قال المعمدان: "أنا محتاج أن أعتمد منك". ولكنه طلب المعمودية ليشجع خدمة المعمدان، ويزيد تأثيره الحسن بين الناس، ويقوّي بقوته تيار القادمين إليه ليسمعوا وعظه ويطلبوا معموديته، فيمكّنه بذلك أن يتمّ هذا القسم من رسالته، وهو تهيئة طريق المسيح.

كان في معمودية يوحنا معنيان (أ) أصغرهما يشير إلى التطهير من الخطية. وثانيهما وأكبرهما (ب) يشير إلى التخصيص لخدمة الملكوت الجديد الذي سوف يقيمه المسيح، وإلى حياة جديدة يحياها المعتمد.

بالمعنى الأول، معنى التطهير من الخطية، يعتمد المسيح لا شخصياً بل نيابياً ورمزياً، فقد أخذ المسيح محل الخاطئ بعد أن اتخذ شبه جسد الخطية... عند اليهود كان الطاهر يتنجس إن لمس ميتاً. ولما لمس يسوع جنسنا الخاطئ اعتُبر خاطئاً لأنه حسب كلام النبوة "أُخْصِيَ مَعَ أَثْمَةٍ" (إشعياء ٥٣: ١٢) وهكذا اشترك في معمودية التوبة نائباً عنا. وبهذا المعنى قال الرسول بولس إن الله: "جَعَلَ الَّذِي لَمْ يَعْرِفْ خَطِيئَةً، خَطِيئَةً لِأَجْلِنَا" (٢ كورنثوس ٥: ٢١).

ولكن بالمعنى الثاني، معنى التخصيص لخدمة الملكوت الجديد، يعتمد المسيح جدياً وشخصياً، لأنه يدخل الآن في خدمته الجهارية الخلاصية في إنشاء هذا الملكوت والترأس فيه. كان غيره من المعتمدين يدخل على حياة جديدة بواسطة ما يناله، إلا أن حياة المسيح

الجديدة تقوم بما ينيله للناس. وفي المعموديته أخذ المسحة القانونية التي تتطلبها وظائفه الثلاث: كنيي وكاهن وملك.

عمد يوحنا يسوع بالماء، وصعد يسوع للوقت من الماء عالماً بما لهذه الساعة من الأهمية الفائقة في مستقبل حياته الأرضية، ومستقبل تاريخ البشر. أما معظم أفكاره فكانت متجهة إلى غير هذه المعمودية. كان كائن الإنسان يعرف حاجته إلى المعمودية الروح القدس كشرط ضروري في كل معمودية مسيحية ثابتة، فشعر في هذه الساعة بقرب الآب منه ورضاه التام عنه. ولذلك كان أمراً طبيعياً أن يصلي وهو صاعد من الماء بعد العماد.

ومن الاستجابة التي نالها عرفنا أن صلاته كانت لأجل حلول الروح القدس عليه.

لما قرع باب السماء بصلاته انشقت وانفتحت له. وحلَّ عليه الروح القدس حسب طلبه.

ويظهر أن يوحنا كان موعوداً بعلامة بها يعرف المسيح، لأنه قال: "الَّذِي أَرْسَلَنِي لِأَعْمَدَ بِالْمَاءِ، ذَاكَ قَالَ لِي: الَّذِي تَرَى الرُّوحَ نَازِلاً وَمُسْتَقَرّاً عَلَيْهِ، فَهَذَا هُوَ الَّذِي يُعَمِّدُ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ. وَأَنَا قَدْ رَأَيْتُ وَشَهِدْتُ أَنَّ هَذَا هُوَ ابْنُ اللَّهِ" (يوحنا ١: ٣٣ و ٣٤). هذا الوعد كان سبباً كافياً لاتخاذ الروح القدس هيئة جسمية، لأن المعمدان حالما شاهد ذلك عرف دون أدنى ريب أن هذا هو الذي قال عنه سابقاً إنه يأتي بعده، الذي كان قبله، الذي يعمد بالروح القدس.

ومع حلول الروح القدس على الابن الأزلي المتأنس، سمع حالاً صوت الآب مستحسناً: "هَذَا هُوَ ابْنِي الْحَبِيبُ الَّذِي بِهِ سُرَرْتُ" (متى ١٧: ٣). ثم تحقيقاً لإيمان المعمدان كان هذا الصوت ضرورياً لتحقيق الرؤيا وتفسيرها. وهذه هي أولى المرات الثلاث في تاريخ المسيح التي فيها سُمع صوت الله من السماء.

بمجيء هذا الصوت اجتمعت الأقانيم الثلاثة في الإله الواحد، على صورة جلية ومؤثرة للغاية، عند تكريس المخلص. وبناء على هذا الظهور في اعتماده، نرى يسوع يوصي تلاميذه أن يعمّدوا كل من يؤمن به "بِاسْمِ الْآبِ وَالابْنِ وَالرُّوحِ الْقُدُسِ" (متى ٢٨: ١٩). ولم يقل "بأسماء" الآب والابن والروح القدس.

مسابقة الكتاب

عزيزي القارئ،

إن أرسلت إلينا إجابة صحيحة على عشرين سؤالاً من الأسئلة الخمسة والعشرين التالية، نرسل لك كتاباً جائزة من كتبنا المختلفة. نرجو أن ترسل مع الإجابة اسمك وعنوانك واضحين داخل المظروف وليس على غلافه فقط، لنرسل لك الجائزة.

- ١ لماذا كانت شريعة موسى قاصرة عن الإصلاح الكامل؟
- ٢ اذكر سببين يجعلاننا محتاجين إلى المسيح.
- ٣ اذكر شهادة قالها بيلاطس الوالي الروماني عن كمال المسيح.
- ٤ أطلق مرقس البشير في فاتحة إنجيله ثلاثة ألقاب على السيد المسيح. ما هي - وما معنى كل منها؟
- ٥ ماذا كانت وظيفة البشير لوقا، ولمن كتب إنجيله؟
- ٦ لماذا كان لقب « الكلمة » مناسباً للسيد المسيح؟
- ٧ لماذا أصاب الخرس زكريا؟
- ٨ لماذا لا يستجيب الله لكل صلاة؟
- ٩ ما هي مقدمة المعجزات التي رافقت تأسس السيد المسيح؟
- ١٠ كيف حبلت مريم بالمسيح وهي عذراء؟
- ١١ ماذا فكر يوسف خطيب مريم أن يفعل لما عرف أنها حامل؟
- ١٢ كيف أوضح الله الموقف ليوسف؟
- ١٣ ماذا حدث لجنين أليصابات عندما زارتها مريم، وما معنى هذا؟
- ١٤ اذكر فكرة من النشيد الذي رتلته مريم العذراء في بيت أليصابات.
- ١٥ ما الذي جعل يوسف ومريم ينتقلان من الناصرة إلى بيت لحم قبل ولادة المسيح، وما معنى هذا؟

- ١٦ لماذا ظهر الملاكنة للرعاة أولاً؟
- ١٧ ماذا قال سمعان الشيخ إنه سيحدث لمريم العذراء؟
- ١٨ اكتب النبوة التي أوردت مكان ميلاد المسيح، مع شاهدها الكتابي.
- ١٩ ما هو تأثير زيارة المجوس على (أ) هيرودس الملك - (ب) أهل بيت لحم - (ج) يوسف ومريم؟
- ٢٠ لماذا سكنت الوحي عن أخبار حياة المسيح من عمر ١٢ سنة إلى عمر ٣٠ سنة؟
- ٢١ في ماذا فكر المسيح عندما رأى الذبائح في هيكل أورشليم؟
- ٢٢ ماذا تفهم من قول المسيح: «ينبغي أن أكون في ما لأبي»؟
- ٢٣ اذكر حقيقة قالها المسيح عن يوحنا المعمدان.
- ٢٤ ماذا نتعلم من قول السيد المسيح للمعمدان: «هكذا يليق بنا أن نكمل كل بر»؟
- ٢٥ كيف ترى الثالوث الأقدس وقت المعمودية المسيح؟
- أرسل الإجابة فقط بدون تعليقات أخرى لئلا تُهمل. ونحن بانتظار إجابتك.

الدكتور جورج فورد

الكتاب الثاني: تجربته وبداية خدمته

إبليس يجرب المسيح

رأينا في أخبار طفولة يسوع شيئاً من أعمال إبليس التي ظهرت في تصرّفات هيرودس الملك. لكننا لم نعثر إلى الآن في تاريخ يسوع على ذكر إسم إبليس، ولا على أخبار صريحة عنه. أما الآن فقد وصلنا في درسنا إلى رؤية صورته بجلاء، إذ تُذكر أسماؤه الثلاثة «المجرب» و «إبليس» (أي: المشتكي) و «الشيطان» (أي: العدو). (ويصوّره الإنجيل يهاجم يسوع ويريد أن يجعله يخطئ. ويروي لنا قصة تجريب إبليس للمسيح في إنجيل متى ١: ٤-١١، ولوقا ٤: ١-١٣).

يتبيّن من الكتاب المقدس أن الشيطان شخص حقيقي روحي، مجرد من المادة وشرير جداً، وأنه رئيس ملائكة الشر الذين أشار إليهم المسيح في كلامه عن «النّار الأبديّة المُعدّة لإبليس وَمَلَائِكَتِهِ» (متى ٢٥: ٤١). (قيل «إن الله لم يشفق عليهم لأنهم أخطأوا وَلَمْ يَحْفَظُوا رِيَاسَتَهُمْ، بَلْ تَرَكُوا مَسْكَنَهُمْ. ففي سلاسل الظلام طرحهم في جهنم، وسَلَّمَهُمْ محروسين للقضاء، وَحَفَظَهُمْ إِلَى دَيْئُونَةِ الْيَوْمِ الْعَظِيمِ بِقِيُودِ أَبَدِيَّةٍ تَحْتَ الظَّلَامِ» (يهوذا ٦) ويُسمى أيضاً «رئيس هذا العالم» (يوحنا ١٦: ١١) و«إله هذا الدهر» (٢ كورنثوس ٤: ٤). و«رئيس سلطان الهواء» (أفسس 2: 2) لأنه بذكائه الفائق، يتسلط على البشر تسلطاً عظيماً وغريباً جداً. وأهم البراهين على أنه شخص حقيقي مهم ومقتدر أمر يسوع لتابعيه أن يذكره في صلاتهم مهما اختصروها، ويقولوا: «نَجِّنَا مِنَ الشَّرِّيرِ» (متى ٦: ١٣) ليس من الشر ولا من الأشرار، بل «من الشرير».

ويتضح أيضاً من الكتاب المقدس أن هذا التسلط مقيدٌ بالسماح الإلهي، وأن إبليس يعترف بذلك، ويطلب هذا السماح ويُعطاه أحياناً. إنما القصد الإلهي في هذا السماح هو حبّي محض نحو الذين يُجربون، لأن المنتصرين منهم ينالون التزكية والتقوية والتمجيد. والذي يدفع كل ريب في مزية الحب الخالص في هذا السماح هو تجربة المسيح، لأن الروح القدس هو الذي أصعده إلى البرية ليجربه إبليس.

التجربة الأولى: إبليس يطلب أن يحول المسيح الحجارة إلى خبز

(تجربة الجوع)

«ثُمَّ أَصْعَدَ يَسُوعُ إِلَى الْبَرِّيَّةِ مِنَ الرُّوحِ لِيُجَرَّبَ مِنْ إِبْلِيسَ. فَبَعْدَ مَا صَامَ أَرْبَعِينَ نَهَاراً وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً، جَاعَ أَخِيراً. فَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ الْمَجْرَبُ وَقَالَ لَهُ: «إِنْ كُنْتَ ابْنُ اللَّهِ فَقُلْ أَنْ تَصِيرَ هَذِهِ

الْجَارَةُ خُبْرًا». فَأَجَابَ: «مَكْتُوبٌ: لَيْسَ بِالْخُبْرِ وَحْدَهُ يَحْيَا الْإِنْسَانُ، بَلْ بِكُلِّ كَلِمَةٍ تَخْرُجُ مِنْ فَمِ اللَّهِ» (متى ١: ٤-٤).

ولا يخفى الفرق العظيم بين نوعي التجربة. هناك تجربة الألم لأجل الإمتحان الخيري بقصد التزكية والتقوية والتمجيد، مثل ما فعل الله بإبراهيم. وفيه يجد الرسول يعقوب سبباً عظيماً للفرح (يعقوب ١: ٢) والثاني تجربة الشر لأجل إغواء الإنسان. وفي هذا قال الرسول ذاته: «لَا يَقُلْ أَحَدٌ إِذَا جُرِّبَ إِنِّي أُجَرَّبُ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ، لِأَنَّ اللَّهَ غَيْرُ مُجَرَّبٍ بِالشَّرِّ وَهُوَ لَا يُجَرَّبُ أَحَدًا (بالشرور)» (يعقوب ١: ١٣).

وتجربة المسيح أصعب حوادث حياته تفسيراً. ومن جملة المصاعب: التوفيق بين طهارته التامة والقول بأنه «تَجَرَّبَ في كل شيء مثلاً» (عبرانيين ٤: ١٥) فأين تجربة القدوس من تجربة الأثيم؟ إن ما ننتيقنه تماماً من سمّ صفات المسيح لا يدع مجالاً للظن بأن تجربته كانت وهمية أو صورية. وقد أورد خبرها على الصورة الموجودة في الإنجيل المسيح وحده، إذ ليس آخر يعرف هذا الأمر ليخبر عنه. ولما كان المسيح يترفع كثيراً عن تصوير الوهم كأنه حقيقة، وعن إفادتنا بمحادثة لم تقع ومع شخص لا وجود له، كما يترفع رسله عن اختلاق خبر سري مهم كهذا عن معلّمهم وسيدهم وربهم - فلا بد أن قصة التجربة حقيقية وليست وهماً.

يكشف المسيح بيده في خبر تجربته الستار عن سرٍ عميق من أسرار اختباره الروحية، والمحنة الشديدة التي اجتازها منفرداً تماماً عن سائر البشر. وهذا الخبر هو الوحيد بين أخبار الإنجيل الذي يتوقف كشفه على المسيح وحده، فبناءً عليه يجب على المفسّر أن يتحفّظ من الجزم في شيء يتعلق بتجربة المسيح إلا ما ذكر صريحاً، وأن يلتزم أيضاً مزيد الوقار.

يريد البعض أن يعتبروا أن الشيطان ليس إلا خيالاً يُستخدَم للتعبير عن الشر الداخلي الذي يقود الناس إلى الخطيئة، وأن القول باستقلاله الشخصي، هو من الخرافات التي لا تخلو من فائدة. لكن خبر تجربة المسيح يعارض هذا الرأي تماماً، لأن خلوّ قلب المسيح وأفكاره التامة من كل فساد، يؤكد أن التجربة للخطيئة لا يمكن أن تأتيه من داخل، فباب التجربة في قلبه لا يمكن فتحه إلا من خارج. وهذا يعني أن الذي جرّبه شخص شيطاني خارج عنه.

أشرف المسيح بانتهاء سني الاستعداد على بدء خدمته الجهارية. لكن عليه أن يمرّ أولاً في أتون التجربة ليثبت أهليته ليكون المخلص، فيصارع قائد قوات الشر ويقهره، لتتم أول النبوات التي أعطيت للبشر، لما قال الله في جنة عدن لأبونا الأولين إن نسل المرأة سيسحق رأس الحية (تكوين ٣: ١٥). فعليه أن يقهر إبليس، هذا العاتي الذي لم يقهره بشرٌ بعد، لكي يفتح لغيره باب الفوز الوحيد بهذا الخصم الجبار، لأن غلبة كل من يسلم من

مخالبه المهلكة لا تكون إلا باسم المسيح، وبقوة الروح القدس الذي أصعده إلى برية التجربة، ثم كَلَّه بالنصر .

خضع المسيح كابن الإنسان لقوانين الحياة الأرضية التي هي من وضعه أصلاً. منها أن وراء كل جبل مرتفع وادياً منخفضاً، وبعد كل ابتهاج عظيم انزعاج يضارعه. فارتفاع المسيح وابتهاجه في معموديته بالأمس، أُبدلاً سريعاً بأتضاعه وانزعاجه في برية التجربة. وينبئنا التاريخ المقدس بأن الشيطان يترقب زمن ارتفاع الإنسان لئسقطه، وبذلك يتضاعف أذى الساقط مع افتخار الذي أسقطه. يكفينا شاهداً على ذلك موسى وإيليا وبطرس ويهوذا الإسخريوطي. لأن إبليس أسقط موسى في خطية الغضب التي حرّمته من دخول أرض الميعاد بعد عناء أربعين سنة، وأفقدته نيل أمانى حياته الطويلة، وكان ذلك عند بلوغه أوج عظّمته الفائقة (العدد ١٢: ٣ ، ١٣: ٨-٢٠). وإيليا نال انتصاره الباهر على المملكة وملكها وكهنة أوثانها على جبل الكرمل، ولم يمرّ عليه أكثر من يومٍ إلا ورماه إبليس في خطية اليأس، فهرب مخذولاً إلى برية سيناء بعيداً عن محل مأموريته، وطلب الموت لنفسه (١ ملوك ١٨: ٣٠-٤٠ ، ١٩: ٩).

وبطرس ارتفع إلى السماء عندما مدحه يسوع بكلام بليغ، فحالاً أسقطه هذا العدو الروحي في خطية الكبرياء، وجعله ينتهر المسيح ليمنعه من طريق الصليب، محاولاً أن يفسد عمله الخلاصي، لذلك عَنّفه المسيح تعنيفاً لم يعامل غيره به قائلاً له: «اذهبْ عَنِّي يَا شَيْطَانُ. أَنْتَ مَعْتَرِةٌ لِي» (متى ١٦: ١٣-٢٣). ويهوذا الإسخريوطي لما استكمل سني تمثّعه بالوسائل الممتازة لترقيته الروحية، بمرافقته الدائمة للمسيح ثلاث سنين ونصفاً، أسقطه هذا المجرب المقتدر في خطيئة الطمع الفاحش، الذي أغرقه في الهوة العميقة التي جعلت اسمه إلى آخر الزمان مثال قساوة القلب الفائقة البربرية، والخيانة الشنيعة الدنيئة (أعمال ١: ١٥-٢٠).

وقد اتخذ إبليس الطاغية هذه الخطة عينها مع المسيح. رآه ممجّداً للغاية وقت المعمودية، ومبتهجاً بحلول الروح القدس عليه، وبرضى الأب الممتاز المعلن بصوته من السماء، فأسرع إلى الهجوم عليه بأقوى تجاربه مدة أربعين يوماً، ليسقطه في خطيئة من الخطايا العديدة. فإنه أسقط قبل هذا الوقت نسل آدم جميعاً دون استثناء. والآن يتوقع أن يفوز على ابن مريم. ويرى أن أحوال المسيح الخارجية تسهّل له ذلك .

بين تجربة آدم وتجربة المسيح

عندما هجم إبليس على آدم الأول وأسقطه أول مرة، كان في جنة فاخرة، حاوية كل أسباب السرور، وكان محيطه خالياً من كل شر أو فساد، حتى أن الحيوانات على أنواعها كانت أليفة وطوع أمره. ولم يكن يعرف من الأتعاب ولا الأوجاع ولا الأحزان ولا الأسقام شيئاً،

وهو عالمٌ أن ليس أمامه غير دوام هذا الرغد، ما دام باقياً على الوضع الإلهي الذي أوجده الله فيه .

أما الآن فإن الشيطان يجد المسيح، آدم الثاني، في برية مقفرة، خالية ليس فقط من أسباب الراحة، بل من الطعام الضروري أيضاً، تحيط به الوحوش الضارية . وحياته السابقة كانت بين جماعة كلهم خطاة، وأعظم من ذلك أنه عالمٌ بأنه إن لم يرجع عن قصده فليس أمامه سوى سنوات التعب والشقاء والإهانة والآلام المبرحة ثم موت الصليب . فكيف لا يكون إسقاطه سهلاً ومكفولاً؟

كانت الوحوش الضارية رفيقة المسيح في هذه البرية . ونستنتج من الكتاب أن آدم الأول كان قبل سقوطه متسلطاً عليها، وليس على الحيوانات الأليفة فقط، وأن عداوة الوحوش لبني آدم هي إحدى نتائج سقوطه . فلما نقرأ أن المسيح كان مع الوحوش، نتصوره يستعيد تلك السلطة، مُحاطاً بها مثل دانيال في جب الأسود (دانيال ٦) تحفظه هيئته المقدسة من أنيابها المسنونة . أوليس من شأن إزالة الخطيئة إعادة تلك السلطة المفقودة؟ أوليس الرفق بالحيوانات من مقتضيات الدين والأدب؟ .

لم يكن المسيح قد أكل شيئاً مدة الأربعين يوماً والأربعين ليلة التي قضاها في البرية، فاغتنم المجرب فرصة إعيائه الجسدي ليفرغ قواه في ثلاث تجارب قوية . كان صوم المسيح هذا أمراً عرضياً طبيعياً، أولاً لأن البرية لا تقدم له بسهولة طعاماً، وثانياً لأنه مشغول عن التفكير عن الطعام بانصرافه إلى الأمور الروحية، ولا يرضى أن يترك البرية في طلب الطعام إلا بإرشاد الروح الإلهي الذي أصعده إليها . فلم يشعر كثيراً بالجوع، إلا عند نهاية هذه المدة الطويلة .

في إغواء حواء، اتخذ إبليس صورة حيوان، إذ لم يكن لديه إنسان يستخدمه، لكن حالما تسلط عليها ترك الحية، واستخدم حواء في إغواء زوجها . ومن ذلك الحين يستغني إبليس عن الحيوانات، لأن الآلات البشرية متوفرة لديه . وللتجربة بواسطة المقربين مفعولٌ مضاعف . ولما قصد إبليس أن يحول المسيح عن التكفير بموته عن خطايا العالم، استخدم رسول المسيح الممتاز: سمعان بطرس (مرقس ٨: ٣٣) .

قد سكت الوحي تماماً عن بيان الصورة التي ظهر فيها إبليس للمسيح لما حاوره، إلا أن العقل يحكم بأنه لم يظهر في هيئة شيطانية، لأن ذلك يحذر المسيح للكُرهِ والمقاومة، ويعطّل سعي إبليس . والأغلب أن إبليس ظهر شخصياً للمسيح، فليس في المسيح أساس داخلي للشر حتى تأتية التجربة من قلبه، ويحتمل أن إبليس ظهر أولاً بهيئة شخص اعتيادي أقبل على المسيح في البرية . فإن صحَّ هذا الفرض يكون إبليس قد أظهر تعجُّبه من جوع المسيح الناتج عن قيادة الروح الإلهي له إلى هذا القفر، ثم تركه بدون القوت الضروري الذي هو

من حاجات الإنسان الأولية. ثم من باب التوؤد، ذكر للمسيح أن قوّته كابن الله تجعل سدّ هذه الحاجة أمراً سهلاً عليه جداً، لأن الذي خلق الحجارة في الأصل لا يعسر عليه تحويلها كيف شاء. وإن لم يفعل ذلك فإنه يزرع الشك في أنه حقاً ابن الله. وبما أن الآب قد أهمله ولم يعطه خبزاً، فلماذا ينتظر أمره؟ يحقُّ له إذاً أن يشك في محبة الآب، وأن يتذمر على تدبير العناية الإلهية .

ونحن نسأل اليوم: ما المانع من إجابة اقتراح هذا المجرب بأن يحوّل المسيح الحجارة إلى خبز ليسدّ جوعه؟ وما هي الخطيئة أو الخطايا التي قصد إبليس أن يولّدها في قلب المسيح؟ لا يصحّ القول إن المسيح رفض هذا الاقتراح لمجرد أنه صدر من الشيطان، لأن المسيح لم يعترض في جوابه على المصدر، بل على الاقتراح، بغضّ النظر عن مصدره. فلا تُعرّف ماهية التجارب التي ذُكرت في هذا الحادث إلا من شكل اعتراض المسيح وأجوبته على اقتراحات المجرب، لأن المسيح أخذ أجوبته من الكتاب المقدس وعليه بنى أحكامه .

ولما كانت إجابة المسيح الأولى «مكتوب» فقد أعلن لمجربيه وللعالم أنه قدّم ذاته للتجربة لا كصاحب سلطان، بل كبشر تحت القانون والطاعة، وكخاضع مثل سائر البشر لأقوال الكتاب. وفي الوقت ذاته أظهر باستناده على أقوال الكتاب ما هو المرجع الحقيقي في أمور الدين. ومع أنه أقدر الناس على إفحام المجرب بالحُجج الفلسفية، أثبت بجوابه «مكتوب» أن قوة الاحتجاج الديني توجد في ما هو مكتوب في كتاب الله، لا فيما يُستنبط من الفلسفة البشرية، لأن سيف الروح الماضي ذا الحدين الذي به وحده يقهر الإنسان عدوّ الشيطان هو كلام الله. وقد استخدم المسيح هذا السلاح المُتاح لكل إنسان، وبه نال فوزه على إبليس .

تمسك المجرب بأن المسيح ابن الله، لأن افتخاره يزداد كثيراً إن تغلب على ابن الله لكنه رغم ذكائه الفائق نسي أن ابن الله لا يجوع ولا يأكل خبزاً، ولا يمكن أن يُجرب. فأصلح المسيح وهَمَّ إبليس لما أوضح له أنه يقابله، لا كابن الله، بل كابن الإنسان. لم يهتم المسيح كثيراً في كل حياته بتذكير الناس أنه ابن الله. فبينما يشير إلى ذاته في الإنجيل كابن الله أقل من عشر مرات، يشير نحو خمسين مرة إلى كونه ابن الإنسان. فلو أسندت طبيعته الإلهية طبيعته البشرية وقت التجربة، لكان ذلك بمثابة اعتراف منه أن الطبيعة البشرية عاجزة عن التغلب عليها، ولما صحّ القول أنه تجرب مثلنا، ولا أن يكون مثلاً للناس. فهو لا يفعل في ساعة التجربة ما يعجز تابعه عن أن يفعلوه. وهذا سبب كافٍ لعدم تحويله الحجارة خبزاً. فضلاً عن أنه يريد أن يذوق بنفسه مصيبة الجوع الشديد، لأن هذا نصيب كثيرين من بني البشر .

هذه التجربة الأولى هي الحيلة التي نجح إبليس بواسطتها لمّا استخدمها في دفع حواء للتذمّر على الله والاستقلال عنه، لحرمانه إياها الأكل من شجرة معرفة الخير والشر

(تكوين ٣:٣). وفي دفع بني إسرائيل للتذمُّر عليه والاستقلال عنه بحجة الطعام والشراب (خروج ١٦:٣). لكن المسيح أظهر لإبليس أنه لا يتذمر على الآب بسبب جوعه، لأنَّ عنده كلامه، وهذا أهمُّ جداً عنده من الطعام الجسدي، وأنه لا يستقل عن الآب في التدبير، ولا يسعى للتخلُّص من الجوع إلاَّ بأمره. وقد ظهرت أفكاره من هذا القبيل في غير هذا الوقت لما قال: «طَعَامِي أَنْ أَعْمَلَ مَشِيئَةَ الَّذِي أَرْسَلَنِي» (يوحنا ٤:٣٤).

وقد قصد المجرب في هذه التجربة أيضاً أن يُغري المسيح على الاهتمام أولاً بخدمة ذاته. فإنَّ أقنعه أن يفعل معجزته الأولى لمنفعته الشخصية، يُعدُّ ذلك نجاحاً عظيماً له، لأنَّه يعطل عمل المسيح الخلاصي، إذ يصير المسيح من الذين يعيشون لذواتهم. لكن المسيح جعل هدف كل معجزاته خدمة الآخرين، حتى أعداءه، كما في حادث شفاء أذن ملخس (لوقا ٢٢:٥١) ولم يفعل لمنفعته الخصوصية ولا معجزة واحدة، وقد صدق فيه قول الرسول بولس: «لأنَّ الْمَسِيحَ أَيْضاً لَمْ يُرْضْ نَفْسَهُ» (رومية 15:3) وصَحَّ فيه تعبير مبغضيه وهو على الصليب: «خَلَّصَ آخَرِينَ وَأَمَّا نَفْسُهُ فَمَا يَقْدِرُ أَنْ يَخْلِّصَهَا» (مرقس ١٥:٣١). فصار هذا المبدأ قانونياً لتابعيه الذين وضع لهم شرطاً أولياً هو إنكار الذات. ومن أهم وصاياهم «اطُّبُّوا أَوَّلًا مَلَكُوتَ اللَّهِ» (مت ٦:٣٣). وفي أقواله كما في أفعاله حدَّرنَا بقوة من الأنانية.

ثم أن لهذه التجربة معنى يتعلق بعمل المسيح بين الناس كمخلَّص ومُصلح. أراد المجرب أن يغريه على تقديم الأمور الجسدية على الروحية، مراعاةً لمزاج عامة الناس، فينضم كثيرون إليه لهذا السبب، ويكون نجاحه في الظاهر سريعاً. فرفض المسيح هذه الحيلة، لأنَّ مبدأه «اعْمَلُوا لَا لِلطَّعَامِ الْبَائِدِ، بَلْ لِلطَّعَامِ الْبَاقِي لِلْحَيَاةِ الْأَبَدِيَّةِ» (يوحنا ٦:٢٧). وبجوابه علَّم البشر في كل مكان وزمان أن خدمة الأرواح تُقدِّم على خدمة الأجساد. وأن الإحسان الحقيقي هو ما ينفع النفوس قبل الأجساد. وأن الإحسان إلى الجسم الفاني يُقصد به أولاً أن يصير مقدمة ووسيلة للإحسان إلى النفس الخالدة.

ذاك الذي تجرب مثلنا ولأجلنا وانتصر، حاضرٌ معنا في كل معركة يثيرها علينا إبليس، فإنَّ انتبهنا لحضوره حالاً في ساعات التجربة، يعطينا نصراً كانتصاره على عدوِّنا وعدوه، فنتهّل مع الرسول مرنمين: «شُكْرًا لِلَّهِ الَّذِي يُعْطِينَا الْغَلَبَةَ بِرَبَّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ» (١ كورنثوس ١٥:٥٧).

وهكذا انتصر المسيح على إبليس في أول تجربة جرَّبه بها، ورفض أن يحوّل الحجارة إلى خبز ليشبع جوعه. انتصر عندما قال: «ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بكل كلمة تخرج من فم الله».

التجربة الثانية: إبليس يطلب من المسيح أن يطرح نفسه إلى أسفل

(تجربة حب الظهور)

«ثُمَّ أَخَذَهُ إِبْلِيسُ إِلَى الْمَدِينَةِ الْمُقَدَّسَةِ، وَأَوْقَفَهُ عَلَى جَنَاحِ الْهَيْكَلِ، وَقَالَ لَهُ: «إِنْ كُنْتَ ابْنُ اللَّهِ فَاطْرَحْ نَفْسَكَ إِلَى أَسْفَلٍ، لِأَنَّهُ مَكْتُوبٌ: أَنَّهُ يُوصِي مَلَائِكَتَهُ بِكَ، فَعَلَى أَيْدِيهِمْ يَحْمِلُونَكَ لِكَيْ لَا تَصْدَمَ بِحَجَرٍ رِجْلُكَ». قَالَ لَهُ يَسُوعُ: «مَكْتُوبٌ أَيْضاً: لَا تُجَرِّبَ الرَّبَّ إِلَهَكَ» (متى ٥: ٤-٧).

أسفرت التجربة الأولى عن انكسار إبليس أمام المسيح. لكن إبليس لا ينثني بسهولة عن مشروعه الخبيث، إنما لفرط ذكائه يجدد الهجوم على صورة تخالف الأولى على خطٍ مستقيم، فقد ترك خطة البساطة وأبدلها بخطة الاحتيال، لأنه يعلم أن كل انتصار يفتح الباب لغيره، فيتظاهر بالرضى التام عن تصريح المسيح أنه تحت حكم ما هو مكتوب، وسلم أيضاً بمبدأ أن المسيح لا ينفصل عن الآب، فطلب منه أن يتمسك بهذا الارتباط ويبرهن على ذلك. وتظاهر أنه سلم للمسيح بأفضلية الأمور الروحية على الجسدية، فطلب منه عملاً خطيراً خالياً من المنافع الجسدية، لكن فيه تعريض الجسد لخطرٍ عظيم.. طلب من المسيح عملاً يكون له تأثير ديني عظيم، فيه إنكار للنفس وتمسك بخدمة الآخرين، ليظهر لشعب الله المجتمع في الهيكل من رئيس الكهنة فما دون، أنه حقاً ابن الله ليؤمنوا به. والنقطة الوحيدة في تجربته الأولى التي تكررت في التجربة الثانية هي قوله: «إِنْ كُنْتَ ابْنُ اللَّهِ.»

يقول الإنجيل إن إبليس جاء بالمسيح إلى المدينة المقدسة أورشليم، وأوقفه على جناح الهيكل، وقال له: «إِنْ كُنْتَ ابْنُ اللَّهِ فَاطْرَحْ نَفْسَكَ مِنْ هُنَا إِلَى أَسْفَلٍ، لِأَنَّهُ مَكْتُوبٌ أَنَّهُ يُوصِي مَلَائِكَتَهُ بِكَ لِكَيْ يَحْفَظُوكَ، وَأَنَّهُمْ عَلَى أَيْدِيهِمْ يَحْمِلُونَكَ لِكَيْ لَا تَصْدَمَ بِحَجَرٍ رِجْلُكَ.»

نظن أن الشيطان أخذ في هذه التجربة صورة ملاك نور، وأن بولس يشير إلى ذلك بقوله: «لِأَنَّ الشَّيْطَانَ نَفْسَهُ يُغَيِّرُ شَكْلَهُ إِلَى شِبْهِ مَلَائِكَةِ نُورٍ» (٢ كورنثوس ١١: ١٤) وأنه ظهر كأحد الملائكة المشار إليهم في كلام المزمور، المكلفين أن يحملوه على أيديهم، لئلا تصدم بحجر رجله. وهو هنا كأنه يضمن للمسيح أن يصونه من الأذى في كل الأحوال، حتى ولو رمى بنفسه من هذا المرتفع، ولا سيما لأنه بذلك يقدم للجمهور وللعالَم برهان نزوله من السماء من عند الله.

من جواب المسيح على هذه التجربة نستخلص ماهيتها. أجاب: «مَكْتُوبٌ أَيْضاً لَا تُجَرِّبَ الرَّبَّ إِلَهَكَ». إذاً ما كُتِبَ في مكان من الكتاب يُفسَّر وفقاً لما كُتِبَ في باقي الكتاب، إذ يجب أن نفسر كلام الوحي بمثله، فيكون مفتاح التفسير الصائب لكل آيات الكتاب ما ورد في الموضوع ذاته من الآيات الأخرى، مع مراعاة روح الكتاب إجمالاً. ويدل الاختبار على أن

إفراد بعض الآيات المقدسة، والتشبُّث بظاهر معناها فقط، قد أدى ويؤدي إلى ضلالات كثيرة ومضرة .

دعا إبليس المسيح في هذه التجربة ليفتخر بالقوة التي له، فيظهرها أمام الجمهور. لكن روح الكتاب وفحوى آياته هي أساسٌ كافٍ للقول إن الله لا يسمح للإنسان أن يقتحم المخاطر دون داعٍ يوجب ذلك، لأن الإتكال على حمايته في ذلك الاقتحام، يكون تجاسراً مُنكراً. فهل يليق أن يطلب إنسان من الرب أن يحفظه من أضرار تعرّض لها تطفلاً أو افتخاراً أو امتحاناً؟ لقد تجنّب المسيح في كل حياته المخاطر، إلى أن أتت الساعة التي وجب أن يقدم حياته ذبيحة إثم .

ثم أن الوجه الآخر في هذه التجربة هو دعوة إبليس للمسيح ليتخذ سياسة الإدهاش العقلي وسيلةً بها يجعل الناس يؤمنون به، فيعتمد على قوة المعجزة لا على قوة الحق وعلى الإقناع الفكري لا على الشعور القلبي، وعلى الإدهاش لا التعليم. ولو نجح إبليس في تحويل المسيح عن الاهتمام بالتأثير الروحي في القلوب، يكون إبليس قد حفظ سلطته على الناس، ولو شاهدوا من المسيح مدهشات كثيرة .

لم يسقط المسيح في هذه الحفرة التي حفرها له المجرب. ومع أنه مزعم أن يصنع معجزات كثيرة فيما بعد، فإنه لا يصنعها لأجل الإدهاش، ولا كوسيلةٍ لجذب الناس إلى الإيمان به، بل سيصنعها تثبيتاً للذين قد آمنوا. فلا يُبنى إيمان الناس به على قوته بل على قوة الحق، وعلى أساس صفاته المقدسة، وعلى أساس المحبة له. لأن مركز الدين هو القلب لا الرأس. وعبثاً يستتير إن لم يُمسّ القلب أيضاً. لذلك رفض المسيح كثيراً طلب اليهود أن يريهم آيات السماء .

التجربة الثالثة: إبليس يطلب من المسيح أن يسجد له

(تجربة الشرك بالله)

«ثُمَّ أَخَذَهُ أَيْضاً إِبْلِيسُ إِلَى جَبَلٍ عَالٍ جَدًّا، وَأَرَاهُ جَمِيعَ مَمَالِكِ الْعَالَمِ وَمَجْدَهَا، وَقَالَ لَهُ: «أَعْطِيكَ هَذِهِ جَمِيعَهَا إِنْ خَرَرْتَ وَسَجَدْتَ لِي». حِينَئِذٍ قَالَ لَهُ يَسُوعُ: «أَذْهَبْ يَا شَيْطَانُ! لِأَنَّهُ مَكْتُوبٌ: لِلرَّبِّ إِلَهِكَ تَسْجُدُ وَإِيَّاهُ وَحْدَهُ تَعْبُدُ». ثُمَّ تَرَكَهُ إِبْلِيسُ، وَإِذَا مَلَائِكَةٌ قَدْ جَاءَتْ فَصَارَتْ تَحْدِمْهُ» (متى ٤: ٨-١١).

بعد فشل إبليس في خطة البساطة ثم الاحتيال، لجأ إلى خطة الوقاحة، فنراه يغيّر نوع الطلب ويدعو المسيح إلى أمر منكر، هو السجود له، ويقدم مقابل ذلك شيئاً لا تُقدّر قيمته. لأنه على كيفية نجهلها أصدده إلى جبل عالٍ جدًّا، وأراه جميع ممالك المسكونة ومجدها في

لحظة من الزمان وقال له: «لك أعطي هذا السلطان كله، وهذه جميعها ومجدهنَّ، لأنه إليَّ دُفع، وأنا أعطيه لمن أريد. فإن خُررتَ وسجدتَ لي يكون لك الجميع.»

ليس في جواب المسيح على هذه التجربة أقل إشارة إلى أن اقتراح إبليس كاذب ومواعيده فارغة، مع أن باستطاعة المسيح أن يرغم إبليس على القيام بما وعد، إن شاء ذلك. بل بنى رفضه على نوعية ما كلفه إبليس به، وهو أن يقدم السجود لغير الله، أو أن يقدم هذا السجود من باب النفاق لشخص لا يسجد له قلبياً. وأن يتخذ لأجل غاية حسنة وسيلة سيئة، متساهلاً مع الشر القليل لأجل الخير الجليل. وهذه على الدوام خدعة شيطانية تضيق على المتساهل كل ما يريده من الخير، وتجلب على رأسه ويلاً وبيلاً عقاباً على تساهله، فالغاية لا تبرّر الوسيلة أبداً.

كانت هذه التجربة الشيطانية الثالثة تطلب من المسيح أن يتبنّى خطة المجد العالمي في أمور الدين، كما يفعل رجال الدين جميعاً، حتى رسله، ويوحنا المعمدان، الذين كانوا يشتهون ويتوقَّعون ملكوتاً زمناً مجيداً يقيمه المسيح متى جاء. وتعهّد إبليس للمسيح أن يسهّل له إتمام هذه الرغائب اليهودية السائدة عند الجميع. وفي الوقت ذاته يغنيه عن الأتعاب والإهانات والآلام والصلب، وعن الصبر طويلاً مئات السنين لتأييد سلطته على البشر مكان سلطة إبليس. فينال المسيح غايته السامية بسرعة وسهولة.

ولا يُستبعد أن هيئة إبليس في هذه التجربة أيضاً لم تكن شيطانية ظاهرة تولّد النفور منه مباشرة والاشمئزاز من تقديم السجود له. لكن وقاحة اقتراحه في طلبه من المسيح الطاهر أن يفعل أمراً منكراً في الدين، تكفي لتكشف عن حقيقة شخصه. لذلك قابله المسيح بالرفض القوي، وانتهره بقوله: «اذهب يا شيطان». ومع ذلك لم يمسك عنه قوة البرهان، بل سرد له عبارة من نفس خطاب موسى الذي اقتبس منه سابقاً: «مَكْتُوبٌ: لِلرَّبِّ إِلَهِكَ تَسْجُدُ وَإِيَّاهُ وَحْدَهُ تَعْبُدُ» (تنثية 6:13 ، 10:20).

لما أمر المسيح إبليس بالذهاب، ولّى مخذولاً. ولكنه فارقه إلى حين فقط. وحالما تقرر فوز زعيم البر على زعيم الإثم وهرب إبليس خاسراً، ظهرت مراقبة أهل السماء لهذا العراك الفاصل الخطير. لأنه يُقال: «وإذا ملائكة قد جاءت فصارت تخدمه.» «كأنها تنقل إليه التهاني السماوية على فوزه، وبشائر الرضى الإلهي الممتاز، لأن الملائكة هم «أَرْوَاحُ خَادِمَةٍ مُرْسَلَةٌ لِلْخِدْمَةِ لِأَجْلِ الْعَتِيدِينَ أَنْ يَرِثُوا الْخَلَاصَ» (عبرانيين ١٤: ١). فكم يكون فرحهم وافتخارهم أن يخدموا الآن - ليس ورثة الخلاص - بل رئيس الخلاص ورئيس الإيمان ومكمّله.

في هذه البرية هاجمت المسيح أنواع التجربة الثلاثة «شهوة الجسد، وشهوة العيون، وتَعْظُمُ الْمَعِيشَةِ» (١ يوحنا ٢: ١٦) تجربة للجسد في أمر الطعام، وتجربة للعقل في أمر إعجاب

الناس، وتجربة للنفس في أمر المجد العالمي. وفي هذه كلها تجرّب مثلنا لكي يرثي لضعفاتها. وبها تزكّى وتقوى وتمجد، وشهد له إبليس شهادة ضمنية قوية، لأنه لم يقدم له أول الأمر تجربة في أمر شرير رديء، لكنه أتاه أولاً بتجارب ظاهرها شريف، حتى إذا سقط فيها يجذبه تدريجياً إلى ما وراءها من المنكرات .

وتعتبر تجربة المسيح في البرية المعمودية المسيح الثالثة، وهي المعموديته بالنار، بعد أن تعمد بالماء ثم بالروح القدس. وبقيت عليه المعمودية رابعة هي المعمودية بالدم على الصليب .

في آدم الأول تمثّل الجنس البشري كله، فلما تجرب وسقط، هوى مع كل نسله إلى الجحيم، فهبطوا جميعاً من الجنة وصاروا بعضهم لبعض عدو. وفي آدم الثاني (المسيح) تمثّل الجنس البشري مرة ثانية، فلما تجرب ثبت ليصعد جنسُه معه إلى النعيم. بسقوط آدم الأول تحولت جنة عدن إلى برية، وبثبات آدم الثاني تتحول البرية جنة، فإذا برية الشر تصبح جنة البر، وبرية الخصام جنة السلام، وبرية السخط الإلهي والدينونة الأبدية جنة الرضى الإلهي والرحمة والحياة الأبدية، وبرية العداوة لله جنة البنوة لله، وبرية اليأس والهلاك جنة الرجاء والخلص .

المسيح يختار تلاميذه الأولين

«وَفِي الْغَدِ أَيْضاً كَانَ يُوحَنَّا واقِفاً هُوَ وَاثْنَانِ مِنْ تَلَامِيذِهِ، فَنَظَرَ إِلَى يَسُوعَ مَاثِيًا، فَقَالَ: «هُوَذَا حَمَلُ اللَّهِ». فَسَمِعَهُ التِّلْمِيذَانِ يَتَكَلَّمُ، فَتَبِعَا يَسُوعَ. فَالْتَفَتَ يَسُوعُ وَنَظَرَ هُمَا يَتَّبِعَانِ، فَقَالَ لَهُمَا: «مَاذَا تَطْلُبَانِ؟» فَقَالَ: «رَبِّي، (الَّذِي تَفْسِيرُهُ: يَا مُعَلِّمُ) أَيْنَ تَمَكُّتُ؟» فَقَالَ لَهُمَا: «تَعَالِيَا وَانْظُرَا». فَأَتِيَا وَنَظَرَا أَيْنَ كَانَ يَمَكُّتُ، وَمَكَّنَا عِنْدَهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ. وَكَانَ نَحْوُ السَّاعَةِ الْعَاشِرَةِ. كَانَ أَنْدَرَاوُسُ أَخُو سِمْعَانَ بُطْرُسَ وَاحِداً مِنَ الْاِثْنَيْنِ اللَّذَيْنِ سَمِعَا يُوحَنَّا وَتَبِعَاهُ. هَذَا وَجَدَ أَوَّلًا أَخَاهُ سِمْعَانَ، فَقَالَ لَهُ: «قَدْ وَجَدْنَا مَسِيحًا» (الَّذِي تَفْسِيرُهُ: الْمَسِيحُ). فَجَاءَ بِهِ إِلَى يَسُوعَ. فَنَظَرَ إِلَيْهِ يَسُوعُ وَقَالَ: «أَنْتَ سِمْعَانُ بْنُ يُونَا. أَنْتَ تُدْعَى صَفَا» (الَّذِي تَفْسِيرُهُ: بُطْرُسُ)» (يوحنا ١: ٣)

42).

كان يوحنا المعمدان واقفاً مع اثنين من تلاميذه، عندما رأى المسيح مقبلاً، فقال عنه: «هوذا حمل الله». وكان أحد هذين التلميذين أندراوس من مدينة بيت صيدا الواقعة على رأس بحيرة طبرية الشمالي في منطقة الجليل، فيكون قد أتى من محلٍ بعيد ليتتلمذ للمعمدان. أما الثاني يوحنا بن زبدي، فهو أيضاً من بيت صيدا. ولا نعلم كل ما سمعاه سابقاً من معلمهما المعمدان عن المسيح، لكنهما سمعاه يقول إنه حمل الله (يوحنا ١: ٢٩ ، ٣٦). ويؤيد هذه التسمية قول إشعياء النبي: «تَدَلَّلَ وَلَمْ يَفْتَحْ فَاهُ، كَشَاةٍ تُسَاقُ إِلَى الذَّبْحِ، وَكَنْعَجَةٍ صَامِتَةٍ أَمَامَ جَارِيهَا فَلَمْ يَفْتَحْ فَاهُ» (إشعياء ٥٣: ٧).

كان يوحنا المعمدان ابن كاهن. وعمل الكاهن الخصوصي هو ذبح الحملان في الهيكل، والشرط في الذبيحة أن تكون سالمة من كل عيب. فيوحنا وهو يطلق على المسيح لقب حمل الله يشهد بسلامة المسيح من كل عيب .

وبما أن هذا الناسك والواعظ القدير مملوء من الروح القدس، فقد علم جيداً أن الذبائح الحيوانية في الهيكل لم تكن إلا رمزاً للذبيحة الحقيقية الأصلية الوحيدة، التي هي «حمل الله» المذبح حسب القصد الإلهي، من قبل تأسيس العالم، وأن الذبائح الحيوانية لا تصلح لرفع الخطايا، لأن هذا هو فعل ذبيحة حمل الله .

ظهر تأثير شهادة المعمدان عن المسيح في أن أندراوس ويوحنا تبعوا المسيح فوراً بكل احترام، دون أن يقولوا شيئاً، إلى أن شعر المسيح بمرافقتهم له، فسألهم: «مَاذَا تَطْلُبَانِ؟» (يوحنا ١: ٣٨). والمسيح عادة يسأل كل شخص يتظاهر باتّباعه: «ماذا تطلب؟» لأن

مطالب تابعية تختلف كثيراً، وعليه تختلف أيضاً معاملته لهم، وقد قال لبعضهم: «أَنْتُمْ تَطْلُبُونَنِي... لِأَنَّكُمْ أَكَلْتُمْ مِنَ الْخُبْزِ فَشَبِعْتُمْ» فلم يقبلهم تلاميذ له (يوحنا ٦: ٢٦). (يوحنا ٦: ٢٦).

كانت إجابة أندراوس ويوحنا على سؤال المسيح باحترام وتحفظ، كأنهما يريدان في وقت آخر مناسب أن يأتيا ليسمعا كلامه ويتعلما منه، فقالا: «يا معلم، أين تمكث؟» فلم يرض أن يخبرهما، لأنه أراد أن يعلمهما أن المطلوب من كل واحد أن يتبعه حالاً، فهو يرفض دائماً الذين يؤجلون اتباعه، ويلزمهم أن يتبعوه عاجلاً، وإلا فإنه لا يقبلهم، فقال لأندراوس ويوحنا: «تعاليا وانظرا». ولما أطاعاه أبقاهما عنده ذلك اليوم. ولا زال هذا هو الترتيب الإلهي - فالإنسان يتخذ الدين لا لأن غيره شهد له، بل لأنه هو اختبره شخصياً - فعليه أن يأتي وينظر حسب قول داود: «ذُوقُوا وَانْظُرُوا مَا أَطْيَبَ الرَّبُّ!» (مزمور ٨: ٣٤).

تغيرت حياة أندراوس ويوحنا تماماً بعد أن التقيا بالمسيح، ولو أن أندراوس لم يشتهر كثيراً فيما بعد، بل كان أعظم أعماله ما فعله في ذلك الوقت، إذ أتى بأخيه سمعان إلى المسيح. ويظهر أن سمعان كان تلميذاً معه للمعمدان، ففتش عنه حتى وجده، وأخبره عن كنز لا يُثَمَّنْ قد اهتدى إليه مع رفيقه يوحنا، إذ قال: «وَجَدْنَا مَسِيحًا» (يوحنا ١: ٤١).

تتضمن هاتان الكلمتان طريق الخلاص كله. من وجد المسيح شخصياً فقد وجد كل شيء، ولا يحتاج إلى غيره، فهو الذي قال عنه النبي داود: «الرَّبُّ رَاعِيٌّ فَلَا يُعْزِرُنِي شَيْءٌ» (مزمور ١٢٣: ١). هو «الطَّرِيقُ وَالْحَقُّ وَالْحَيَاةُ» (يوحنا ١٤: ٦). فمن وجد هذه الثلاثة وجد الكل. ولم يكتفِ أندراوس بالكلام، بل أردفه بالفعل، فجاء بأخيه إلى المسيح. وكل من وجد المسيح حقاً يسرع في دعوة الآخرين والإتيان بهم إليه، مبتدئاً بالأقربين، كما جاء أندراوس بأخيه سمعان.

وعرف المسيح سمعان حالما رآه، لا بل قبلما رآه، وعلم مزاياه ومواهبه ومستقبله، فأعطاه في هذه المقابلة الأولى اسماً جديداً: بطرس (في اليوناني) أو صفا (في الأرامي) وكلاهما معناه «صخرة». وهذا اسم لم يستحقه إلا بعد أن حلَّ عليه الروح القدس، فظهرت فيه المواهب التي أهَّلَتْهُ لهذا الاسم.

«فِي الْعَدِ ارَادَ يَسُوعُ أَنْ يَخْرُجَ إِلَى الْجَلِيلِ، فَوَجَدَ فِيلُبُّسَ فَقَالَ لَهُ: «اتَّبِعْنِي». وَكَانَ فِيلُبُّسُ مِنْ بَيْتِ صَيْدَا، مِنْ مَدِينَةِ أَنْدَرَاوَسَ وَبَطْرُسَ. فِيلُبُّسُ وَجَدَ نَتْنَائِيلَ وَقَالَ لَهُ: «وَجَدْنَا الَّذِي كَتَبَ عَنْهُ مُوسَى فِي النَّامُوسِ وَالْأَنْبِيَاءُ: يَسُوعُ ابْنُ يُوسُفَ الَّذِي مِنَ النَّاصِرَةِ». فَقَالَ لَهُ نَتْنَائِيلُ: «أَمِنْ النَّاصِرَةِ يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ شَيْءٌ صَالِحٌ؟» قَالَ لَهُ فِيلُبُّسُ: «تَعَالِ وَانْظُرْ.»

وَرَأَى يَسُوعُ نَتْنَائِيلَ مُقْبِلًا إِلَيْهِ، فَقَالَ عَنْهُ: «هُوَذَا إِسْرَائِيلِيُّ حَقًّا لَا غِشٍّ فِيهِ». قَالَ لَهُ نَتْنَائِيلُ: «مِنْ أَيْنَ تَعْرِفُنِي؟» أَجَابَ يَسُوعُ: «قَبْلَ أَنْ دَعَاكَ فِيلُبُّسُ وَأَنْتَ تَحْتَ التِّينَةِ،

رَأَيْتُكَ». فَقَالَ نَنْثَائِيلُ: «يَا مُعَلِّمُ، أَنْتَ ابْنُ اللَّهِ! أَنْتَ مَلِكُ إِسْرَائِيلَ!» أَجَابَ يَسُوعُ: «هَلْ آمَنْتَ لِأَنِّي قُلْتُ لَكَ إِنِّي رَأَيْتُكَ تَحْتَ التِّينَةِ؟ سَوْفَ تَرَى أَعْظَمَ مِنْ هَذَا!» وَقَالَ لَهُ: «الْحَقُّ الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ: مِنَ الْآنَ تَرَوْنَ السَّمَاءَ مَفْتُوحَةً، وَمَلَائِكَةُ اللَّهِ يَصْعَدُونَ وَيُنْزِلُونَ عَلَى ابْنِ الْإِنْسَانِ» (يوحنا ١: ٤٣-٥١).

انضم سمعان حالاً إلى أندراوس ويوحنا. فضمَّ المسيح هؤلاء الثلاثة إليه كتلاميذ، وبذلك تم قصده من زيارته لبيت عبرة. واستعد ليذهب في اليوم التالي إلى وطنه الجليل. ولكن قبل سفره اتَّخَذَ تلميذاً رابعاً اسمه فيلبس، وهو أيضاً من بيت صيدا، وجده المسيح ودعاه قائلاً: «اتَّبِعْنِي» (يوحنا ١: ٤٣). فَإِنَّ القَاعَةَ العمومية في الدين هي «أَطْلُبُوا تَجِدُوا» (متى ٧: ٧) «وَتَطْلُبُونَنِي فَتَجِدُونَنِي إِذْ تَطْلُبُونَنِي بِكُلِّ قَلْبِكُمْ» (إرميا ٢٩: ١٣). لكن لهذه القاعدة شواذ، وكان فيلبس، مثل متى، من هذا الشواذ، فصَحَّ فيهما قول النبي: «وُجِدْتُ مِنَ الَّذِينَ لَمْ يَطْلُبُونِي» (إشعيا ٦٥: ١).

ظهرت الغيرة لربح النفوس للمسيح في أندراوس، ثم ظهرت حالاً في فيلبس، لأنه وجد صديقاً خاصاً له اسمه نثنائيل من قانا الجليل، فأخبره عن المسيح، وقال له إنه هو الذي أخبر عنه موسى في أسفار شريعته، وكتب عنه الأنبياء بعد موسى، وإنه ابن يوسف من الناصرة (يوحنا ١: ٤٥) ولم يصدق نثنائيل هذا الخبر، فقد ظن أن المسيح لا يمكن أن يجيء من الناصرة، إما لحقارتها، أو لأن صيتها كان رديئاً بسبب شرور أهلها. فاعترض نثنائيل على فيلبس بقوله: «أَمِنْ النَّاصِرَةِ يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ شَيْءٌ صَالِحٌ؟» (يوحنا ١: ٤٦). فلم يشأ أن يحاجَّه في الأمر. لأنه كان يعلم أن مقابلة المسيح تفوق كل برهان آخر، وتُغني عن ذلك. وكثيراً ما يكون الجدل في المعتقدات الدينية فارغاً، وأحياناً مُضراً. أما أفضل برهان في فم المؤمن فهو جواب فيلبس لنثنائيل: «تعال وانظر». لقد تكلم الروح القدس في المسيح لما قال للتلميذين: «تعاليا وانظرا» وتكلم مرة أخرى في فيلبس بذات اللفظ، فافتتحت نثنائيل بهذه الدعوة ولم يطالب ببراهين تسندها، بل وضع ثقته في مدارك فيلبس واستقامته، وقبل أن يأتي ليقابل المسيح بنفسه.

كان المسيح يعلم خفايا تاريخ نثنائيل وصفاته، دون سابق مقابلة بينهما أو سماع خبر عنه من إنسان، فبينما نثنائيل أت مع فيلبس لمقابلة المسيح قال للذين معه: «هوذا إسرائيلي حقاً لا غش فيه». ولما تعجب نثنائيل من هذه الشهادة الممتازة من غريب سأل: «من أين تعرفني؟» فأظهر له المسيح أنه كان يراه ببصر غير طبيعي قبل أن دعاه فيلبس وهو جالس تحت التينة، مشغولاً بالصلاة والتأملات الروحية، بعيداً عن مراقبة الناس، وهو يظن أن لا أحد يدري به. أدرك نثنائيل أن المسيح يعرف الغيب، وبنى نثنائيل حالاً على كلام فيلبس له، فأمن فوراً إيماناً كاملاً وقال للمسيح: «يَا مُعَلِّمُ، أَنْتَ ابْنُ اللَّهِ! أَنْتَ مَلِكُ إِسْرَائِيلَ». قد يكون أن نثنائيل سمع من قبل بنفسه أو من آخرين شهادة المعمدان للمسيح

أنه ابن الله، فأعاد شهادة معلّمه الأول. أما تسميته للمسيح بلقب «ملك إسرائيل» فهو أول من لفظ بها (يوحنا ١: ٤٩).

أجاب المسيح على شهادة نثنائيل بقوله: «سوف ترى أعظم من هذا». سوف ترى أنت وغيرك من الآن أن السماء قد فُتحت للبشر، بعد أن كانت الخطيئة قد أغلقتها في وجوههم، وترون أنني أنا كابن الإنسان أوصل بين الأرض والسماء. وأرسل الملائكة من السماء لخدمة البشر، فتحمل الملائكة إلى السماء صلاة المؤمنين، ثم أرواحهم متى انتهت حياتهم على الأرض. وتأتي لخدمتي كابن الإنسان أيضاً عند الاقتضاء (يوحنا ١: ٥٠ و ٥١).

لنا من الصوت السماوي وقت معمودية المسيح، ثم من فم المعمدان، ثم من فم نثنائيل شهادة مثلثة أن المسيح هو ابن الله. أما الآن فلنا لأول مرة شهادة من فم المسيح ذاته بأنه ابن الإنسان أي «ابن آدم». وهذا الاسم ليس مقصوراً على المسيح، بل تلقّب به أنبياء قبله ولا سيما حزقيال (حزقيال ١: ٢). لكن المسيح لم يستصغره على ذاته بل افتخر به. ومع ذلك مدح نثنائيل لأنه آمن به أنه «ابن الله وملك إسرائيل». فهل يمدحه على كذب أو خرافة أو وهم أو مبالغة، ويقبل كلاماً هو كُفر، ما لم يكن صدقاً؟ وكيف يقبل لقب ملك إسرائيل، إن كان مجرد بشر، ابن مريم؟

في كلام المسيح لنثنائيل نجد شهادته الأولى لنفسه، بكلام لا يجوز لنبي أو رسول أو بشر آخر أن يقوله عن نفسه، لأن ما يقوله إنسان فهيم ومستقيم عن نفسه مهم جداً لمعرفة حقيقة شخصه. ولهذا قال المسيح: «وَإِنْ كُنْتُ أَشْهَدُ لِنَفْسِي فَشَهَادَتِي حَقٌّ، لِأَنِّي أَعْلَمُ مَنْ أَيْنَ أَتَيْتُ وَإِلَى أَيْنَ أَذْهَبُ» (يوحنا ٨: ١٤). فلا يمكن أن إنساناً مثل المسيح يشهد لنفسه شهادة غير صحيحة، لأن استقامته تحميه من استعمال الخداع، وفهمه يحميه من الإنقياد للأوهام. وكل من يقول عن نفسه قولاً غير حقيقي، إمّا أن يكون قاصراً في مداركه، أو مختلاً في آدابه، لأن الشريف يأبى أن ينسب الآخرين إليه فوق ما يحق له من الفضيلة أو المقدرة أو المقام. فكم بالحري إذاً يأبى كلياً أن يدّعي لنفسه ما يخالف الحقيقة؟

علم رؤساء اليهود أهمية ما يقوله الرجل المستقيم عن نفسه، فأرسلوا المعمدان يسألونه: «مَنْ أَنْتَ؟ مَاذَا تَقُولُ عَنْ نَفْسِكَ؟» (يوحنا ١: ٢٢) فقال عن نفسه أقل ما يحق له من المقام والفضيلة والمقدرة، ولا يعتبر أحد أن المعمدان أصلح أو أفهم أو أصدق من المسيح، الذي قاد جميع الناس في الذكاء والصدق والتواضع، وأقواله أصحّ الأقوال في العالم، ولذلك نعلّق أهمية عظيمة على ما يقوله المسيح عن نفسه.

والأمر واضح أنه لو قال غير المسيح ما قاله المسيح عن نفسه، لما نال من أذكى البشر وأتقيائهم سوى التقدير والتحقيق. قال أحد الملحنين استخفافاً في حديث مع الكاتب

الإنجليزي الشهير كارليل: «أستطيع أن أقول عن نفسي ما قاله يسوع عن نفسه: أنا والآب واحد». فأجابه كارليل: «نعم، لكن العالم صدّق يسوع في قوله، أما أنت فمن يصدقك؟»

أولى معجزات المسيح

«وَفِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ كَانَ عُرْسٌ فِي قَانَا الْجَلِيلِ، وَكَانَتْ أُمُّ يَسُوعَ هُنَاكَ. وَدُعِيَ أَيْضاً يَسُوعُ وَتَلَامِيذُهُ إِلَى الْعُرْسِ. وَلَمَّا فَرَغَتْ الْخَمْرُ قَالَتْ أُمُّ يَسُوعَ لَهُ: «لَيْسَ لَهُمْ خَمْرٌ». قَالَ لَهَا يَسُوعُ: «مَا لِي وَلَكَ يَا امْرَأَةُ! لَمْ تَأْتِ سَاعَتِي بَعْدُ». قَالَتْ أُمُّهُ لِلْخُدَّامِ: «مَهْمَا قَالَ لَكُمْ فَافْعَلُوهُ». وَكَانَتْ سِتَّةَ أَجْرَانِ مِنْ حِجَارَةٍ مَوْضُوعَةً هُنَاكَ، حَسَبَ تَطْهِيرِ الْيَهُودِ، يَسَعُ كُلُّ وَاحِدٍ مِطْرَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً. قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «امْلَأُوا الْأَجْرَانَ مَاءً». فَمَلَأُوهَا إِلَى فَوْقِ. ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: «اسْتَقُوا الْآنَ وَقَدِّمُوا إِلَى رَبِّيسِ الْمُتَّكَ». فَقَدَّمُوا. فَلَمَّا ذَاقَ رَبِّيسُ الْمُتَّكَ الْمَاءَ الْمُتَحَوِّلاً خَمْراً، وَلَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ هِيَ - لَكِنِ الْخُدَّامُ الَّذِينَ كَانُوا قَدْ اسْتَقُوا الْمَاءَ عَلِمُوا - دَعَا رَبِّيسُ الْمُتَّكَ الْعَرِيسَ وَقَالَ لَهُ: «كُلُّ إِنْسَانٍ إِنَّمَا يَضَعُ الْخَمْرَ الْجَيِّدَةَ أَوَّلًا، وَمَتَى سَكَّرُوا فَحِينَئِذٍ الدُّونَ. أَمَّا أَنْتَ فَقَدْ أَبْقَيْتَ الْخَمْرَ الْجَيِّدَةَ إِلَى الْآنَ». هَذِهِ بَدَايَةُ الْآيَاتِ فَعَلَهَا يَسُوعُ فِي قَانَا الْجَلِيلِ، وَأَظْهَرَ مَجْدَهُ فَأَمَنَ بِهِ تَلَامِيذُهُ» «يوحنا ١: ٢-١١».

نحن من الذين يتمسكون بأنه لا يجوز أن يسمّى حادثٌ ما معجزة، طالما يمكن أن يكون له تفسير طبيعي. إلا أن تصديق حدوث المعجزات قد زاد احتمالاً بسبب ما توصل إليه الإنسان في هذا الزمان من التسلُّط على قوانين الطبيعة، لكي يستخدمها لأجل نتائج مذهشة جداً. فقد تفوَّق علماء هذا العصر على رجال العصور الماضية، في إحداث غرائب كانت تُعدّ معجزات - كالطيران والسفر إلى القمر. فإذا كان المخلوق يصنع أحياناً ما يفوق العقل، فهل يُستصعب أن يفعل الخالق ما يشاء بالقوانين التي سنّها؟ فالالاكتشافات والاختراعات التي تتجدّد وتزداد حيناً بعد آخر تؤكد إمكان حدوث المعجزات الإلهية وتجعلها معقولة، بل وضرورية أيضاً، لأنها برهانٌ ناطقٌ حسي لوجود خالق متسلط على خليقته. وللبرهان الحسي أهمية كبرى. والمعجزات ضرورية أيضاً لأنها من أفعال الوسائل التي بها يعلن الإله للإنسان ما يريد أن يعرفه الإنسان عن ذات الله وإرادته.

ولا نقول إن تدوين معجزات المسيح ضروري لتأييد عظّمته. ولم ينسب البشّرون إليه فعل المعجزات في كل سني حياته السابقة لخدمته التبشيرية عند بلوغه سن الثلاثين، وفي ذلك دليل مهمٌّ على صدق أخبارهم. لكن إذا صدّقنا حدوث معجزات فعلها أنبياء ورسلاً بقوة إلهية مُنحت لهم، نصدق بالأحرى أن صاحب القوة الأصلي، أي الإله المتأنس متى ظهر بين الناس يفعل معجزات بقوته الذاتية، يمتاز فيها على كل من فعلها سواه.

كانت معجزات المسيح معجزات رحمة لا معجزات نقمة. ولم يفعل سوى معجزتين نتج عنهما أذى وخسارة مادية، وذلك بقصد تعليمنا درساً روحياً. ولم يفعل معجزة مطلقاً لأجل منفعته الذاتية، ولا لأجل إثارة الدهشة، ولا لأجل جذب الناس إلى الإيمان به، بل لأجل تثبيت الذين آمنوا، لأنه كان يرفض طلب اليهود بأن يريهم آيات لكي يؤمنوا. وفي عمل معجزته الأولى أظهر مجده فأمن به تلاميذه. وفي كل معجزاته معنى عميق وهدف روحي فبواسطتها كان يعلن أفكاره ومبادئه وتعاليمه السامية، وصفاته الفائقة جمالاً وقداًسة .

ثم أن كثيراً من تحرُّكات المسيح وأسفاره ما كان ليُعرف لولا خبر معجزاته. من أمثلة ذلك سفره إلى نواحي صور وصيدا الذي ورد في قصة معجزته هناك، ومقدار حنّوه نحو الناس جميعاً، الواضح في معجزات الشفاء وإشباع الألفوف. وسلطانه على مغفرة الخطايا الذي ظهر في معجزة شفاء المفلوج في كفر ناحوم، ونحو ذلك. فلو حُذف من أخبار المسيح قسم المعجزات والأمور المتعلقة بها، لضاع القسم الأكبر من أخبار إنجيله، ولتعتّلت سائر الأخبار لعدم معرفتنا صادقها من كاذبها. فضلاً عن ذلك فإن معجزاته أثبتت صدق دعواه أنه نزل من السماء. وقد شعر المُخلصون بذلك في زمانه كما شعر بها خصومه من رؤساء اليهود .

تحويل الماء إلى خمر

من المعجزات التي ليس لها تفسير طبيعي معجزة المسيح الأولى التي حدثت في قرية قانا الجليل، بلد تلميذه الجديد نثنائيل، الذي فاق كل زملائه في صراحة شهادته للمسيح وقوتها. ونستنتج أن هذا التلميذ في غيرته الجديدة، دعا سيده الجديد ورفقائه في الإيمان ليكونوا ضيوفاً عليه كما فعل متى لما آمن (لوقا ١٩: ٥-٣٩)، وكما فعلت ليديّة في أيام الرسل (أعمال ١٥: ١٦).

وفي أثناء زيارة المسيح لقانا، حدث فيها عرس دُعي إليه هو وأمه وإخوته وتلاميذه من مدينة الناصرة، على بُعد نحو ساعتين سيراً على الأقدام. ولا يُستبعد أن تلاميذ المسيح توقعوا أن يرفض المسيح قبول هذه الدعوة، فقد حسبوه مثل معلمهم الأول المعمدان. وتصوّروا أن يتبع المسيح خطة المعمدان وسلّفه العظيم إيليا، ويتنحى عن الأفراح العالمية، ملتزماً طريقة النُسك والتقشف. ولربما يفكرون أن رجلاً كبيراً من رجال الدين، مثل المسيح يترفع عن الامتزاج مع المحتفلين في العرس، لأن في أيام العرس السبعة لا بد أن يتغلّب مهرجان الأفراح على الصبغة الدينية التي ألبسوها للأفراح، والتي جعلتهم يفرضون على العروسين قضاء اليوم السابق للعرس في الصلاة والصوم والاعتراف بخطاياهما، وكان يُطلب من العروس أن تحضر كَفَنَيْن تهدي منهما كَفَناً لعريسها، فيرتديان هذا الرداء سنوياً في عيدي رأس السنة والكفارة .

لكن لا يصح لمخلص البشر جميعاً أن يتبع خطة سلفه المعمدان، من هذا القبيل فيقدم من الدين الوجه الغضوب العابس وينادي بالوعيد للخطاة، لكن يُنتظر منه أن يشارك كل البشر في أحوالهم المختلفة، في أتراحهم وفي أفراحهم، لأنه أتى ليُظهر محبة الله لجميع الناس. فعليه أن يمثل الوجه الرضيّ البشوش منادياً بالسعادة، وهو صاحب البشارة المفرحة وموضوعها، وعليه أن يكمل صورة الدين بتأييد مبدأ صاحب البشارة والمؤانسة والأفراح الجسدية الشريفة، رمز الفرح الروحي الذي هو من أركان ملكوته .

مثّل المعمدان الصرامة الدينية، ومثّل المسيح بالأكثر اللطف الديني .ساق المعمدان الناس إلى التوبة، ودعاهم المسيح إليها. أتى المعمدان لا يؤاكل الناس ولا يشاربهم، وأتى المسيح يأكل ويشرب ويقبل الدعوات للولائم، وأن تُقام له الولائم الخصوصية. لبس المعمدان الجلد ووبر الإبل، ولبس المسيح أثواباً كانت موضوع طمع العسكر الروماني الذي صلبه. قال المعمدان في مقدّمة وعظه: «يَا أَوْلَادَ الْأَقَاعِي، مَنْ أَرَاكُمْ أَنْ تَهْرُبُوا مِنَ الْعُضْبِ الْآتِي؟» (متى ٣: ٧). (وابتداً المسيح وعظه بقوله: «طُوبَى لِلْمَسَاكِينِ بِالرُّوحِ، لِأَنَّ لَهُمْ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ» (متى ٥: ٣). فأخذ تلاميذ المسيح القدوة من معلمهم الجديد لما لبّى الدعوة إلى العرس في قانا .

وفي أثناء العرس فرغت الخمر، فعلمت مريم العذراء بذلك بسبب معرفتها القريبة بأهل العرس، لكن المدعوّين لم يعلموا، فقالت أمه: «ليس لهم خمر» وذلك إمّا لأن آمالها به تجددت بواسطة الأخبار الجديدة عمّا حدث له على ضفة الأردن، فقصدت أن تدعوه ليرى الناس مقدرةً تليق بما تعلمه هي عن أصله ومقامه، أو لأنها حسبت مجيئه مع زمرة تلاميذه كان سبب فروغ الخمر، أو لأن روح افتخار الأمومة الطبيعي، جعلها تحسب أن تعظيم ابنها يُنبئها هي أيضاً عظمة، أو بدافع آخر نجهله نحن .

ومن إجابة المسيح عليها يتّضح أنها تدخلت تدخلاً في غير محله، إذ قال لها: «مالي ولك يا امرأة. لم تأتِ ساعتى بعد». ولا بد أن المسيح علم أنها تحتاج إلى تعليقٍ يحتوي شيئاً من القساوة، حتى تفهم جيداً شأنه الجديد، واختباراته الجديدة، والتغيير الكليّ في علاقاته العائلية. فكان كلامه بمثابة فاصل جديد بينه وبينها. كما ويبين لها في قوله «مالي ولك» أنها لم تغدُ أمه كما كانت في الماضي، وليست إرادتها قانونه. إيضاحاً لذلك قال لها: «يا امرأة بدلاً من «يا أمي». قبل هذا الوقت كان يجوز أن يتعلم منها ويأتمر بأمرها، لكن الآن عليها أن تتعلم هي منه، وأن تأخذ كل الحذر من أن تلمح أقل تلميح بأنه يفتقر إلى إرشاد بشري، كأنه قاصر في معرفة الواجب، أو مقصّر في إيفائه. وقد قبلت مريم التوبيخ اللطيف من ابنها وتسليمها له بكل رزانة، واحترامها إياه الذي ظهر عندما أمرت الخدام: «مهما قال لكم فافعلوه.»

علم المسيح أن وقته قد جاء ليُجري المعجزات، فيظهر للجماهير ببراكين حسية إرسلته السماوية وسلطته الإلهية، فيعرف الكل ولا سيما تلاميذه - أن اتضاعه اختياري لا اضطراري، ويثبت إيمان الذين اتبعوه حديثاً، ويربي شهرة تكفي لجذب الجماهير إليه ليسمعوا تعاليمه، أما ساعته لأجل فعل المعجزة فلا تأتي إلا بعد ظهور العجز البشري الذي يبدأ عنده العون الإلهي .

كان في دار أهل هذا العرس ستة أجران حجرية، يتسع كل منها لنحو ثمانين جرار ماء. وبسبب عدد المدعوين الذين تمموا الغسلات اليهودية المطلوبة، فرغت تلك الأجران أو كادت أن تفرغ من مائها. ولما أتت ساعة المسيح ليصنع معجزته الأولى أمر الخدام أن يملأوا هذه الأجران ماء، فملأوها حسب أمره «إلى فوق». ثم أمر أن يستقوا منها، ويقدموا لرئيس المتكافأطاعوا. ولما ذاقها الرئيس، شهد للجودة الممتازة في هذه الخمر المقدمة أخيراً، وأدى شهادته جهاراً، بعد أن نادى العريس وشكره لأنه قدم خمرأ أجود مما شربوا أولاً .

كان قصد المسيح أن يخلص أصحاب العرس في ساعة أفراحهم من العار، بسبب فروغ الخمر أثناء الوليمة، وأن يفعل ذلك بمعجزة واضحة لا تقبل الشك والتأويل، إذ قصد أن يقدم خمرأ، فاختار أنية ماء لا أنية خمر، دفعأ للشك بأن آثار خمر سابقة تكون قد حلت الماء بتأثير طبيعي، أو منحت الماء قليلاً من طعم الخمر. واختارها فارغة ليتحقق الجميع أن ما فيها هو ماء صرف. واختارها كبيرة حذرأ من الظن أنه يمكن استحضرار خمر من الخارج يكفي لملئها. وأمر أن يملأها خدام العريس وليس أتباعه هو، دفعأ لكل ظن بأن أعوانه استعملوا حيلة ومكرأ ليعظموه. وأمر أن يملأوها إلى فوق لكي لا يبقى محل للقول إن خمرأ أضيفت إلى الماء بعد أن وضعه الخدام .

وهكذا شهد لحقيقة المعجزة عدد كاف من أهل القرية، هم الخدام، الذين لم يعرفوه قبلاً، وليسوا من أتباعه أو أنسبائه، فلا يظن أنهم يتواطئون معه في خدعة. بقي أن يشهد مسؤول لجودة الخمر، لكي لا يقال إن التصور ولد التصديق، وإن ما شربوه لم يكن خمرأ حقيقية. وقد أدى هذه الشهادة أفضل شاهد، وهو رئيس المتكافأ، إذ نبه بكلامه جمهور الحاضرين. فلما تناقلت الألسن شهادة الخدام عن مصدر هذه الخمر الجديدة، عرف الجميع المعجزة الحقيقية التي صنعها المسيح. وبذلك «أظهر مجده فأمن به تلاميذه .»

والذي أخبر بهذه المعجزة هو يوحنا الذي قال في المسيح: «كُلُّ شَيْءٍ بِهِ كَانَ، وَبِغَيْرِهِ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِمَّا كَانَ» (يوحنا ١: ٣). (فلا عجب إذا كان المسيح الذي يحول الماء إلى خمر بأسلوب طبيعي في عروق الكرمة، ثم في الأوعية المعهودة، يكون له الحق والمقدرة أن يفعل الأمر نفسه، لكن على كيفية جديدة خارقة للعادة .

بشهادة ثلاث حواس، أي البصر والذوق والشم، ثبت صدق هذه المعجزة الأولى. ولا سبيل لغير الحواس في تحقيق أي معجزة كانت. ويمثل تحويل المسيح الماء خمرًا أعماله الدائمة، فهو الذي يحول الحسن إلى أحسن والتمين إلى أثن. حوّل عهد الناموس القديم إلى عهد النعمة الجديد، وحوّل الرموز الوقتية إلى الحقائق الأصلية، كما يحوّل المعمودية بالماء إلى المعمودية بالروح القدس، ويحوّل كلمة الإرشاد الديني البسيطة إلى كأس الخلاص الأبدي في قلوب سامعيها.

ومن جملة الأمور التي تبين لنا أن المسيح قدوة للبشر: موافقته على استعمال الخمر وتقديمه للمحتفلين بالعرس. لأنه يعلم الخفايا، وعمله قدوة لكل من يعلم علمه، فليس المقصود هنا السكر بالخمر، لأن السكر يؤدي الإنسان، وما نعلمه عن المسيح وعن مبادئه وتصرفاته يجعلنا نجزم بأنه لو كان في استعمال الخمر التي صنعها ضرر في حينه، لكان مستحيلًا أن يصنعها لهم. ولو تحوّل التلذذ بما هو جائز، إلى عثرة للآخرين يصير هذا التلذذ محرّمًا. ونحن نعلم أن شرب الخمر خطأ، لو ألجأ إلى السكر، أو لو أعرّض الآخرين.

كانت أولى معجزات المسيح في حفل عرس، وبهذا قدّس وتوّج بالرضى سنّة الزيجة، التي هي أقدم الأنظمة البشرية، وهو الذي سنّها في جنة عدن، حين كان أبوانا الأولان في حالة القداسة التامة - وكل نظام سواه سنّ بعد سقوطهما. ولأسباب غنية عن البيان لم يدخل هو في رباط الزواج الشريف، لذلك كان تكريمه الزواج بحضوره هذا الحفل، ذا أهمية مضاعفة. إذ أثبت فعلاً في قانا الجليل ما قاله رسوله: «لِيَكُنِ الزَّوْجُ مُكْرَمًا عِنْدَ كُلِّ وَاحِدٍ» (عبرانيين ٤: ١٣). وبذلك حذّر الناس سلفاً من الوهم المضر المستولي على الكثيرين، بأن الزواج هو من باب التساهل مع الضعف البشري، وقد سنّ لأجل ردع الناس عن الرذيلة، وأن الامتناع عن الزواج فضيلة، فنتج عنه هذا الظن الفاسد تحقير الزواج وتكريم التبتّل. واحتفال المسيح بالعرس يدحض هذا الظن، كما يدحضه قول الله لأدم وحواء قبل السقوط: «أَثْمَرُوا وَاكْثُرُوا وَاَمْلَأُوا الْأَرْضَ» (تكوين ١: ٢٨).

كان حضور المسيح هذا العرس مقدمة جميلة لحضوره كل عرس يُقام بين المؤمنين، لأنهم يذكرون قول الإنجيل إن الزواج ينبغي أن يكون في الرب. وسوف يُحتفل في آخر الأيام بعرس المسيح العظيم: الذي حوّل الماء خمرًا في عرس قانا الجليل، عندما يجلس هذا العريس السماوي على عرشه الملكي، وتكون العروس هي كل جماعة المؤمنين الذين يؤثفون كنيسته المحبوبة المختارة. ولا يدوم هذا العرس الروحي سبعة أيام فقط بل إلى ما لا نهاية. فطوبى للمدعوين إلى عشاء عرس الحمل (رؤيا ١٩: ١-١٠).

وإكرام الزواج يتبعه إكرام العلاقات العائلية. فالأسباب في أحوال المسيح وتلاميذه التي اضطرتهم إلى بعض الإهمال في علاقاتهم العائلية، جعلت المسيح يُظهر اعتباره إياها في

فاتحة خدمته، لئلا يظن التلاميذ أو غيرهم أنه لا يهتم بها، لأنها غير مهمة. ويؤيد المسيح المقام الرفيع لهذه العلاقات العائلية، وفي الوقت ذاته يقدم عليها العلاقات الروحية الأولية الأسمى والأقدس والأهم التي تربط النفوس بإلهها، وبالمسيح مخلصها، وبأولاد الله الروحيين .

المسيح يظهر الهيكل

«وَبَعْدَ هَذَا انْحَدَرَ إِلَى كَفَرْنَاهُومَ، هُوَ وَأُمُّهُ وَإِخْوَتُهُ وَتَلَامِيذُهُ، وَأَقَامُوا هُنَاكَ أَيَّاماً لَيْسَتْ كَثِيرَةً وَكَانَ فِصْحُ الْيَهُودِ قَرِيباً، فَصَعِدَ يَسُوعُ إِلَى أُورُشَلِيمَ، وَوَجَدَ فِي الْهَيْكَلِ الَّذِينَ كَانُوا يَبِيعُونَ بَقْراً وَغَنَماً وَحَمَاماً، وَالصَّيَّارِفَ جُلُوساً. فَصَنَعَ سَوِطاً مِنْ حَبَالٍ وَطَرَدَ الْجَمِيعَ مِنَ الْهَيْكَلِ، أَلْغَمَ وَالْبَقَرَ، وَكَبَّ دَرَاهِمَ الصَّيَّارِفِ وَقَلَّبَ مَوَائِدَهُمْ. وَقَالَ لِبَاعَةِ الْحَمَامِ: «ارْفَعُوا هَذِهِ مِنْ هَهُنَا. لَا تَجْعَلُوا بَيْتَ أَبِي بَيْتَ تِجَارَةٍ». فَتَذَكَّرَ تَلَامِيذُهُ أَنَّهُ مَكْتُوبٌ: «غَيْرَةُ بَيْتِكَ أَكَلَتْني». فَسَأَلَهُ الْيَهُودُ: «أَيَّةُ آيَةٍ تُرِينَا حَتَّى تَفْعَلَ هَذَا؟» أَجَابَ يَسُوعُ: «انْفُضُوا هَذَا الْهَيْكَلُ وَفِي ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ أُقِيمُهُ». فَقَالَ الْيَهُودُ: «فِي سِتٍّ وَأَرْبَعِينَ سَنَةً بُنِيَ هَذَا الْهَيْكَلُ، أَفَأَنْتَ فِي ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ تُقِيمُهُ؟» وَأَمَّا هُوَ فَكَانَ يَقُولُ عَنْ هَيْكَلِ جَسَدِهِ. فَلَمَّا قَامَ مِنَ الْأَمْوَاتِ، تَذَكَّرَ تَلَامِيذُهُ أَنَّهُ قَالَ هَذَا، فَآمَنُوا بِالْكِتَابِ وَالْكَلَامِ الَّذِي قَالَهُ يَسُوعُ. وَلَمَّا كَانَ فِي أُورُشَلِيمَ فِي عِيدِ الْفِصْحِ، آمَنَ كَثِيرُونَ بِاسْمِهِ، إِذْ رَأَوْا الْآيَاتِ الَّتِي صَنَعَ. لَكِنْ يَسُوعُ لَمْ يَأْتِمْنَهُمْ عَلَى نَفْسِهِ، لِأَنَّهُ كَانَ يَعْرِفُ الْجَمِيعَ. وَلِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مُحْتَاجاً أَنْ يَشْهَدَ أَحَدٌ عَنِ الْإِنْسَانِ، لِأَنَّهُ عَلِمَ مَا كَانَ فِي الْإِنْسَانِ» (يوحنا ٢: ١٢-٢٥).

غضب السيد المسيح على كهنة اليهود الذين جعلوا بيت العبادة مغارة لصوص، وفي غضبه طهر الهيكل رمزاً لاستعداده أن يطهر هياكل الله التي هي قلوب البشر. أتى مستعداً ولم يبطئ في عمله، وصنع سوطاً من حبال وطرده من الهيكل كل ما لا يجب أن يكون هناك، لم يستعمل العنف مع الباعة والصيارفة أو يطردوهم، لأنه أرادهم أن يعرفوا أن غضبه ليس موجّهاً ضد أشخاصهم، بل ضد أعمالهم الخاطئة. طرد المواشي وقلب موائد الصيارفة، لأن ليس من يد تفعل ذلك غير يده، لكنه لم يفلت الحمام الذي إذا طار لا يعود، بل قال لأصحابها: «ارفعوا هذه من ههنا». ثم خاطب الجميع قائلاً: «لا تجعلوا بيت أبي بيت تجارة.»

فَمَنْ هَذَا الذي يفرز ذاته عن شعب الله جميعاً ويقول: «بيت أبي؟». وهل تكلم هكذا في أي زمان نبيٍّ أو رسول أو ملاك من السماء؟ ومن هذا الذي يقف أمام الجمع الغفير الذي غصّت به دور الهيكل، يغيّر العوائد التي ألفوها، وينكر على العابدين تلك التسهيلات التي طالما استعانوا بها في «دار الأمم» لوجود حاجاتهم فيها، ويضطرهم إلى الخروج إلى شوارع المدينة ليشتروها؟ ومن هذا الذي يقاوم رؤساء الدين في الدائرة المخصصة لسلطتهم، وينقض عقود الإيجار التي أبرموها مع الباعة والصيارفة؟ بأي حق يطرد بعنف أبقار هؤلاء وأغنامهم، ويشوّش حساباتهم وترتيب دراهمهم؟ وكيف يخسرهم الأرباح التي أباحها الرؤساء لهم في هذا الموسم؟ ولماذا يستهين بالرياسة المؤيَّدة من الأمة اليهودية

بأسرها والحكومة الرومانية بعظمتها؟ وكيف يستطيع أن يقوم بعمل كهذا، بينما الكهنة واللاويون، وهم عصابة قوية، يحومون بالمئات يمارسون خدمتهم بملابسهم الرسمية؟ ألم يعط رئيسهم الأعظم هؤلاء المطرودين حق هذا الاتجار الذي عطله المسيح؟ فضلاً عما تحت طلب هذا الرئيس من جنود الرومان المخصّصين لتأييد تلك السلطة، وحفظ نظام الهيكل. فكيف يجسر المسيح أن يُقدّم على عمل كهذا؟ بل كيف يفلح فيه إن أقدم عليه؟

الجواب أن ضمائهم القوم تعينه على الفلاح، لأن الخاطئ جبان تجاه الناس وتجاه ضميره، بينما البار جريء. قال الحكيم: «الشِّرِيرُ يَهْرُبُ وَلَا طَارِدَ، أَمَّا الصِّدِّيقُونَ فَكَشِبِلٌ ثَبِيتٌ» (أمثال ٢٨: ١) فضمير رؤساء الهيكل وتجارهم كان نصيراً لعمله، وقيدهم، فلما انتهرهم كأمر ذي سلطان قائلاً: «ارفعوا هذه من ههنا. لا تجعلوا بيت أبي بيت تجارة» ذلّوا أمامه. وقد أعانت المسيح في طرد الباعة شهادة المعمدان التي تقدمت للرؤساء بواسطة الوفد الذي أرسلوه إليه، ولربما بلغهم خبر المعجزات في قانا، التي تؤيد تلك الشهادة، ثم أن اليقظة الجديدة القوية التي نتجت عن خدمة المعمدان أعدت أفكار كثيرين للأعمال الإصلاحية، فانتظر أن الرؤساء يحسبون حساباً للأتقياء بين شعبهم، وإن كانوا قليلين .

مهّدت أسباب كهذه، السبيل للسبب الأعظم الذي يرجع إليه نجاح المسيح في مقاومته الأولى لفساد الرؤساء. وهذا السبب هو هيئة القداسة فيه، المقرونة بإظهاره تفرّده عن جميع البشر في علاقته مع الله، لما قال لهم «بيت أبي». وإن لبسالة القداسة هيئة لا تُقدّر .

اكتفى الرؤساء في هذا الوقت أن يقاوموا بالكلام، فقالوا إنه لا يحقّ له أن يعارضهم في سلطانهم على الهيكل ومتعلقاته، ما لم يكن نبياً أو مرسلًا من الله. وإن كان كذلك فعليه أن يثبت رسالته الإلهية بمعجزة خاصة جديدة أمامهم، تضطرهم إلى الاعتراف بسلطانه الديني .

ولم يرضخ المسيح لطلب هؤلاء الأشرار بأن يمنحهم حقّ الحكم فيما إذا كان له حقّ أن يفعل ذلك. غير أنه لم يترك لهم حُجةً بسكوته، فأعطاهم جواباً عميقاً حيّرهم وضاعف غيظهم عليه، إذ أجابهم بلغزٍ معناه أن شخصه معجزة كافية وأعظم المعجزات. وإن أرادوا أن يعرفوا ذلك فليقتلوه، وهو يقوم من الموت بعد ثلاثة أيام، قال: «انقضوا هذا الهيكل وفي ثلاثة أيام أقيمه .»

ولولا غلاظة قلوب هؤلاء البارعين في درس كلام أنبيائهم، لفطنوا لما كتبه إشعياء: «أَيَّنَ الْبَيْتُ الَّذِي تَبْنُونَ لِي، وَأَيَّنَ مَكَانُ رَاحَتِي؟... وَإِلَى هَذَا أَنْظُرُ: إِلَى الْمُسْكِينِ وَالْمُنْسَحِقِ الرُّوحِ وَالْمُرْتَعِدِ مِنْ كَلَامِي» (إشعياء ٦٦: ١ و٢). وقد فسّر استفانوس هذا الكلام بقوله: «الْعَلِيِّ لَا يَسْكُنُ فِي هَيْكَلٍ مَصْنُوعَةٍ بِالْأَيْدِي» (أعمال 7: 48) فهاجوا عند الجواب الذي لم يفهموه، إذ حسب الرؤساء قوله: «انقضوا هذا الهيكل» تجاسراً كُفرياً، فكيف يدعوهم

هذا المعلم الجديد - وهو يهودي - لينقضوا هيكل الله المقدس الذي هو فخر الأمة الأعظم؟ ومن هو هذا الذي يدّعي بأنه قادر أن يبني مثله في ثلاثة أيام إن نقضوه؟ بينما هيرودس الملك مع كل غناه وسطوته واجتهاده الزائد لأجل ترميمه وتحسينه فقط، وبعد عمل متواصل مدة ست وأربعين سنة، لم يقدر أن يكمل ذلك. فكيف يقدر هذا الشاب الفقير الجليلي أن يقيمه جديداً في ثلاثة أيام؟

كان كلام المسيح هذا غامضاً على تلاميذه فلم يفهموا قصده، إلا بعد أن نقض اليهود هيكل جسده، بصلبه، وأقامه هو في اليوم الثالث - حينئذ ثبت إيمانهم بسيدهم الذي كانت أمتهم قد رفضته، وعلّموا أن جرأته في مقاومة رؤساء الأمة أتت إتماماً للقول النبوي: «لَأَنَّ غَيْرَةَ بَيْتِكَ أَكَلَّتْنِي، وَتَغْيِيرَاتِ مُعَيَّرِكَ وَقَعَتْ عَلَيَّ» (مزمور ٦٩: ٩).

وقد دام تأثير جواب المسيح في الرؤساء طويلاً، حتى جعلوه بعد سنين حُجَّة شكواهم عليه، لكي يميته، ولما تم انتقامهم ورأوه معلّقاً على الصليب عيروه به، ولما طلبوا من الوالي حرساً يُوضع على قبره ليمنع قيامته، بنوا طلبهم على هذا الكلام الذي أوقد في صدورهم نار البغضة المميته التي التهمت أخيراً بتعليقه على الصليب. وبذلك صحّ أن غيرته على بيت أبيه أكلته. وكان المسيح يعلم أن تأثير هذا التطهير سيزول قريباً، وترجع الأمور إلى مجراها القديم، ونراه مضطراً إلى تكرار هذا التطهير في مثل هذا العيد بعد ثلاث سنين. لكن لم يوقفه ذلك العلم عن العمل المطلوب، لأن اختفاء تأثير العمل الحسن لا يعطل حسنه ولا يضيّع أجره.

ولما كان هذا الحادث هو الأول الذي أظهر فيه المسيح غضباً، يحقُّ لنا أن نسأل عن اتفاق هذا الغضب مع القول بكمال المسيح. والجواب أن الغضب قد يكون فضيلة كما قد يكون اللطف رذيلة، إذ يُشترط في الغضب الفاضل أن يخلو من كل غاية أنانية، ومن كل حركة مستقبحة. ويُشترط في اللطف الفاضل أن يخلو من الجبن والمحابة. لقد رأينا المسيح يحتدم غضباً على تدنيس الأقداس، التي تمثل أمور الإله القدوس للحواس البشرية، فاسم الله وبيته ويومه وكلامه ورجاله هي أقداس، وتُحترم إكراماً للقدوس الذي تمثله. وكل من يستخف بشيء منها يحلُّ عليه غضب الحمل، كما حلَّ على الذين استباحوا لأنفسهم تدنيس الهيكل. وقد أوضح الرسول بولس فكرة الغضب المقدس في قوله: «اغضبُوا وَلَا تُخْطِئُوا. لَا تَغْرِبِ الشَّمْسُ عَلَى غَيْظِكُمْ، وَلَا تَعْطُوا إِبْلِيسَ مَكَاناً» (أفسس ٤: ٢٦ و ٢٧).

واحتدَّ غيظ المسيح أيضاً على حب المال، الذي هو حسب قول الإنجيل أصل لكل الشرور (١ تيموثاوس ٦: ١٠) وفي قول المسيح: «لا تجعلوا بيت أبي بيت تجارة» أوضح أن الربح التجاري كان قد حلَّ في قلوبهم محل الحب الإلهي، كأنه يقول لهم: «لَا تَقْدِرُونَ أَنْ تَخْدُمُوا اللَّهَ وَالْمَالَ» (متى ٦: ٢٤). إن فعلكم يبرهن أنكم تخدمون المال لا الله. وشر أثمار حب

المال هو تدنيس الأقداس، وتسخير الدين لأجل الأرباح التجارية. فالتجارة التي قضى عليها المسيح هي في حدّ ذاتها جائزة، لا بل وأيضاً واجبة. والمال في حد ذاته صالح، لكن تفضيل المال على الواجب الديني يحوّل حب المال إلى عبادة الأوثان .

انتصر المسيح في هذه المعركة على رؤساء اليهود، وعلى إبليس الطاغى الخفي الذي تُعزى إليه كل الشرور. ومع أنه رفض أن يصنع المعجزة التي طلبوها، لكنه باشر في أورشليم معجزاته الخيرية، فأمن كثيرون باسمه. كنا نفرح لهذا الإيمان لولا قول البشير: «لَكِنَّ يَسُوعَ لَمْ يَأْتِمْنَهُمْ عَلَى نَفْسِهِ، لِأَنَّهُ كَانَ يَعْرِفُ الْجَمِيعَ» (يوحنا ٢: ٢٤). ومن هذا ظهر أن إيمانهم كان عقلياً فقط لا روحياً قلبياً. فهُم كالأرض الخفيفة غير العميقة التي لا يدوم فيها الزرع كثيراً، فإذا اشتدّت عليه حرارة شمس الاضطهاد، وطال الزمان، يجف ويبيس. فبعض هؤلاء الذين آمنوا سیرتدّون متى اضطهدهم قومهم لأجل إيمانهم، أو متى تيقنوا أن ليس لتابعي المسيح منافع زمنية، وليس من غرضه إنشاء ملكوت يهودي سياسي. ويقدم الإنجيل شهادة للمسيح لم تُعطَ إلا له، ولا تصحّ في غيره من البشر، لما قال: «لَمْ يَكُنْ مُحْتَاجاً أَنْ يَشْهَدَ أَحَدٌ عَنِ الْإِنْسَانِ، لِأَنَّهُ عَلِمَ مَا كَانَ فِي الْإِنْسَانِ» (يوحنا ٢: ٢٥) وهذا القول لم يرد مثله في نبي أو رسول .

ومن هذا نفهم جيداً أن اقتران الطبيعة الإلهية بالطبيعة الإنسانية في المسيح زاد إدراكه كثيراً. وهو تفسير كافٍ لمعرفته قلوب الجميع وخفياتهم. وسنرى خيراً عظيماً حصل من معرفته أسرار القلوب .

نيقوديموس يزور المسيح

«كَانَ إِنْسَانٌ مِنَ الْفَرِّسِيِّينَ اسْمُهُ نِيقُودِيمُوسٌ، رَئِيسٌ لِلْيَهُودِ. هَذَا جَاءَ إِلَى يَسُوعَ لَيْلًا وَقَالَ لَهُ: «يَا مُعَلِّمُ، نَعْلَمُ أَنَّكَ قَدْ أَتَيْتَ مِنَ اللَّهِ مُعَلِّمًا، لِأَنَّ لَيْسَ أَحَدٌ يَقْدِرُ أَنْ يَعْمَلَ هَذِهِ الْآيَاتِ الَّتِي أَنْتَ تَعْمَلُ إِنْ لَمْ يَكُنِ اللَّهُ مَعَهُ». فَقَالَ يَسُوعُ: «الْحَقُّ الْحَقُّ أَقُولُ لَكَ: إِنْ كَانَ أَحَدٌ لَا يُوَلَدُ مِنْ فَوْقَ لَا يَقْدِرُ أَنْ يَرَى مَلَكُوتَ اللَّهِ». قَالَ لَهُ نِيقُودِيمُوسُ: «كَيْفَ يُمَكِّنُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُوَلَدَ وَهُوَ شَيْخٌ؟ أَلَعَلَّهُ يَقْدِرُ أَنْ يَدْخُلَ بَطْنِ أُمِّهِ ثَانِيَةً وَيُوَلَدَ؟» أَجَابَ يَسُوعُ: «الْحَقُّ الْحَقُّ أَقُولُ لَكَ: إِنْ كَانَ أَحَدٌ لَا يُوَلَدُ مِنَ الْمَاءِ وَالرُّوحِ لَا يَقْدِرُ أَنْ يَدْخُلَ مَلَكُوتَ اللَّهِ. الْمَوْلُودُ مِنَ الْجَسَدِ جَسَدٌ هُوَ، وَالْمَوْلُودُ مِنَ الرُّوحِ هُوَ رُوحٌ. لَا تَتَعَجَّبْ أَنِّي قُلْتُ لَكَ: يَنْبَغِي أَنْ تُوَلَدُوا مِنْ فَوْقَ. الرِّيحُ تَهْبُ حَيْثُ تَشَاءُ، وَتَسْمَعُ صَوْتَهَا، لَكِنَّكَ لَا تَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ تَأْتِي وَلَا إِلَى أَيْنَ تَذْهَبُ. هَكَذَا كُلُّ مَنْ وُلِدَ مِنَ الرُّوحِ». فَسَأَلَهُ نِيقُودِيمُوسُ: «كَيْفَ يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ هَذَا؟» أَجَابَ يَسُوعُ: «أَنْتَ مُعَلِّمُ إِسْرَائِيلَ وَلَسْتَ تَعْلَمُ هَذَا! الْحَقُّ الْحَقُّ أَقُولُ لَكَ: إِنَّمَا نَتَكَلَّمُ بِمَا نَعْلَمُ وَنَشْهَدُ بِمَا رَأَيْنَا، وَلَسْتُمْ تَقْبَلُونَ شَهَادَتَنَا. إِنْ كُنْتُ قُلْتُ لَكُمْ الْأَرْضِيَّاتِ وَلَسْتُمْ تُؤْمِنُونَ، فَكَيْفَ تُؤْمِنُونَ إِنْ قُلْتُ لَكُمْ السَّمَاوِيَّاتِ؟ وَلَيْسَ أَحَدٌ صَعِدَ إِلَى السَّمَاءِ إِلَّا الَّذِي نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ، ابْنُ الْإِنْسَانِ الَّذِي هُوَ فِي السَّمَاءِ .

«وَكَمَا رَفَعَ مُوسَى الْحَيَّةَ فِي الْبَرِّيَّةِ هَكَذَا يَنْبَغِي أَنْ يُرْفَعَ ابْنُ الْإِنْسَانِ، لِكَيْ لَا يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ بَلْ تَكُونُ لَهُ الْحَيَاةُ الْأَبَدِيَّةُ. لِأَنَّهُ هَكَذَا أَحَبَّ اللَّهُ الْعَالَمَ حَتَّى بَذَلَ ابْنَهُ الْوَحِيدَ، لِكَيْ لَا يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ بَلْ تَكُونُ لَهُ الْحَيَاةُ الْأَبَدِيَّةُ. لِأَنَّهُ لَمْ يُرْسِلِ اللَّهُ ابْنَهُ إِلَى الْعَالَمِ لِيُدِينَ الْعَالَمَ، بَلْ لِيُخَلِّصَ بِهِ الْعَالَمَ. الَّذِي يُؤْمِنُ بِهِ لَا يَدَانُ، وَالَّذِي لَا يُؤْمِنُ قَدْ دِينَ، لِأَنَّهُ لَمْ يُؤْمِنْ بِاسْمِ ابْنِ اللَّهِ الْوَحِيدِ. وَهَذِهِ هِيَ الدِّينُونَةُ: إِنْ النُّورَ قَدْ جَاءَ إِلَى الْعَالَمِ، وَأَحَبَّ النَّاسُ الظُّلْمَةَ أَكْثَرَ مِنَ النُّورِ، لِأَنَّ أَعْمَالَهُمْ كَانَتْ شَرِيرَةً. لِأَنَّ كُلَّ مَنْ يَعْمَلُ السَّيِّئَاتِ يُبْغِضُ النُّورَ، وَلَا يَأْتِي إِلَى النُّورِ لِيَلَّا تُوَبَّخَ أَعْمَالُهُ. وَأَمَّا مَنْ يَفْعَلُ الْحَقَّ فَيُقْبَلُ إِلَى النُّورِ، لِكَيْ تَظْهَرَ أَعْمَالُهُ أَنَّهَا بِاللَّهِ مَعْمُولَةٌ» (يوحنا ١: ٣-٢١).

في ليلة هادئة جاء يهودي عظيم في قومه، اسمه نيقوديموس ليزور المسيح. كان لقبه «معلم في إسرائيل» و «رئيس اليهود» و «مشير» أي عضو في السنهدريم، مجلس اليهود الملي الكبير المكوّن من سبعين عالماً .

ونيقوديموس شخص مهم في سيرة حياة المسيح، لأنه أول قادة اليهود الذين أثار فيهم تعليم المسيح الديني، وكعالم سبب بزيارته خطاب المسيح الديني الأول. ولا بد أن يكون موضوع هذا الخطاب مبدأ أولياً في الدين .

نتصوّر المسيح وتلاميذه الذين أتوا معه من كفرناحوم، في جلسة مسائية مع أهل البيت الذي كانوا فيه ضيوفاً، ثم الحركة القوية بينهم عندما دخل هذا الرئيس بغتة بهيئته العظيمة وبملابسه الفاخرة، لأنه كفريسي يكون من الذين يعرّضون عصائبهم ويعظمون أهداب ثيابهم، وكان يُقابل أينما مرّ في شوارع المدينة ودور الهيكل حتى وفي الدوائر الحكومية بالإكرام الممتاز، لأنه يجمع في شخصه الغنى والعلم والرتبة والقيادة والصلاح والشيخوخة. فكيف لا يُحتفى به وقد شرف هذا المحل البسيط في ساعة لا يُنتظر من مثله زيارة؟ ولكن مجيئه لا يخلو من الإرهاب لأنه فريسي وعضو في المجلس الأعلى، وقد فاجأ المسيح وجماعته على أثر تطهيره الهيكل وإغاضته الرؤساء بذلك .

نتصور وقوف الجميع احتراماً عند دخول الرئيس. وانتظر المسيح ورفقاؤه أن يفتح الزائر الكريم الحديث، ويعلن القصد من زيارته. فلما تكلم نيقوديموس أظهر أولاً احترامه الشخصي للمسيح، واستهلّ كلامه بقوله: «يا معلم» (ربي) الذي هو أعلى لقب ديني عند اليهود، ولا يُعطى إلا لخريجي مدارسهم العالية اللاهوتية. ولم يكن منتظراً أن يطلق نيقوديموس هذا اللقب الشريف على شاب لم يتخرج من تلك المدارس، لا بل لم يدخلها. وتلا ذلك اعتراف نيقوديموس: «نعلم أنك قد أتيت من الله معلماً.» وفي هذا الاعتراف رفع المسيح كثيراً فوق الربيين بين قومه، الذين لم يأتوا من الله، بل أخذوا تلك الرتبة من الرؤساء ومدارسهم. ثم دعم يقينه بالبرهان، لأنه كعالم لا يسلم إلا لحجة قوية، إذ قال: «لأن ليس أحدٌ يقدر أن يعمل هذه الآيات التي أنت تعمل إن لم يكن الله معه.» كان نيقوديموس مثل سمعان الشيخ «باراً تقياً، ينتظر تعزية إسرائيل.» (أي مجيء المسيح). ولذلك جاء ليتحقق هل هذا المعلم الجديد هو المسيح أم لا؟ ومن جواب المسيح نرى أن نيقوديموس كان معتدّاً بنفسه، ومتكلاً على صلاحه لأجل الخلاص، لأنه ابن إبراهيم ومن أفراد الشعب المختار، وقد تمّم فرائض النظام الموسوي بكل تدقيق، فصار غنياً، ليس في المال فقط، بل في الأعمال الصالحة أيضاً. وكضليع في الشرائع الإلهية والمباحث الدينية ينتظر أن يسبق الجميع إلى ملكوت السماوات، وإذ تكون رفعة مقامه، وكرامته بين شعبه، مقدمة لمقام سامٍ في مجلس القديسين في السماء. فما أكثر الذين يشبهون نيقوديموس في اتكالهم على المعرفة الدينية والفرائض المذهبية والحسنات الخارجية لأجل الخلاص .

نرجّح أن نيقوديموس ظنّ أنه أكرم المسيح كثيراً بكلامه، وانتظر منه شكراً واعترافاً بذلك. ولا شك أن تلاميذ المسيح افتخروا واستبشروا بهذه الشهادة. لكن المسيح-كطبيب روحي أمين فكّر في المرض الروحي المستشري في قلب زائره، فقصد أن يجرحه لكي يستخرج الأوهام، ويضع في الجرح الدواء المناسب. والخطوة الأولى في تخليص النفوس دائماً هي هدم الأركان الباطلة التي يُبنى عليها رجاء الخلاص. وقد مرّق المسيح دفعة واحدة بسيف فمه كل الغلافات التي غلّف بها نيقوديموس رجاءه الوهمي بالخلاص. ولم يكثرث بإكرامه

إياه، بل أجابه: «الحق أقول لك: إن كان أحدٌ لا يولد من فوق، لا يقدر أن يرى ملكوت الله». كأنه يقول له: «لأنك لم تولد من فوق، فأنت لا تقدر أن ترى ملكوت الله». لم يكن نيقوديموس يجهل موضوع الولادة الثانية لأنه موجود في التوراة. لكن اليهود فسّروه بأنه يختص بالوثنيين الذين لا يخلصون إن لم يتهودوا ويختتنوا ويحفظوا سائر الفرائض اليهودية. وبما أن كل يهودي حاصل على ذلك، فلا يحتاج إلى الولادة الثانية. لذلك حار نيقوديموس في أمره، وأجاب بكلام ظهر منه ليس فقط الشك الشديد بصدق كلام المسيح، بل أنه أخذ الكلام أيضاً في الولادة بالمعنى الجسدي .

تنبأ إشعياء عن المسيح أنه: «قَصَبَةً مَرْضُوضَةً لَا يَقْصِفُ، وَفَتِيلَةً خَامِدَةً لَا يُطْفِئُ» (إشعياء ٤٢: ٣) تحققت هذه النبوة في عناية المسيح بأن ينمي في نيقوديموس إيمانه الجديد، فلم يوبخه على غلاظة قلبه وتفسيره الحرفي للتعليم الروحي. بل أيد كلامه الأول بالتكرار، وأدخل مع الإعادة شيئاً من التفسير، مبيناً أن الولادة من فوق هي ولادة من الماء والروح. وهو يشير بالماء إلى التوبة التي كان ماء المعمودية رمزاً إليها وختماً لها، ويعني بالروح: الروح القدس الذي هو الفاعل في «الميلاد الثاني».. فعل الروح القدس في التطهير الداخلي، وعلامته في التطهير الخارجي بماء المعمودية، وهذا ثمر ما يُسمّى بالموت للخطية، والحياة الجديدة للبر. ولا يرث ملكوت السموات إلا أولاد الله. ولا سبيل للنبوة لله إلا بالولادة منه. والولادة منه لا تكون إلا روحية. لأن «المولود من الجسد جسد هو، والمولود من الروح هو روح.»

كان المسيح يعلم أن الفلسفة العقلية لا تقبل هذا القول، لأنها لا تدركه. فلم يلوم نيقوديموس لعدم إدراكه حقيقة الولادة الثانية التي هي سرٌ روحي، لكنه طلب منه أن يقبل ويسلم بأمور روحية لا يدركها. أتاه شاهداً على ذلك بالريح التي تهبُّ حيث تشاء وتسمع صوتها، ولكنك لا تعلم من أين تأتي ولا إلى أين تذهب. وختم بقوله: «هكذا كل من وُلد من الروح.»

وإذ لم تنقش بهذا الكلام غيومُ الشكوك عن أفكار نيقوديموس سأل: «كيف يمكن أن يكون هذا؟» إنه كرجل علم يطلب زيادة الإيضاح. فحوّل المسيح شكوكه إلى بركة فائقة للعالم على الدوام، إذ أشعره أولاً بقصوره بتوبيخ لطيف، عندما قال له: «أنت معلم إسرائيل ولست تعلم هذا؟» ثم ألقى عليه وعلى السامعين ذلك الخطاب الذي لا يُنمّن، الذي من ضمنه الآية الذهبية التي اتفق العالم أنها أهم آيات الإنجيل وأجملها، وهي «لأنَّه هَكَذَا أَحَبَّ اللَّهُ الْعَالَمَ حَتَّى بَذَلَ ابْنَهُ الْوَحِيدَ، لِكَيْ لَا يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ بَلْ تَكُونَ لَهُ الْحَيَاةُ الْأَبَدِيَّةُ» (يوحنا ٣: ١٦).

في أول الخطاب يثبت المسيح حقه أنه يتكلم بسلطان في الأمور السماوية، لأنه يتكلم بما يعلم ويشهد بما رأى. «وليس أحد صعد إلى السماء، إلا الذي نزل من السماء، ابن الإنسان

الذي هو في السماء». إذاً كلامه في وجوب الولادة من فوق يجب تصديقه مهما كان غامضاً لأنه جوهري، وأساسه أن قلب الإنسان الخاطئ الطبيعي ميت في الذنوب والخطايا. وهذا موت روحي حقيقي. أما أهل السماء فأحياء روحياً، ولا محل للأموات بين الأحياء، ولا تناسب بين الطبيعة الساقطة والسماء الطاهرة، ولو فرض دخول صاحب الطبيعة الساقطة إلى السماء فلن يرضى بذلك أهل السماء الذين يكرهون الطبيعة الفاسدة كرهاً أشد من كره الأحياء للجثث البالية .

الدين حسب تعليم المسيح هو داخلي لا خارجي. هو عطية الحياة من الله أولاً، ثم بعد ذلك تظهر الأثمار الناتجة عن هذه العطية. والانتقال من حال الطبيعة الجسدية إلى حال النعمة هو وحده الذي يفتح الباب للانتقال من حال النعمة إلى المجد الأبدي. لذلك يجب أن تتغير عقولنا بالاستنارة. وعواطفنا بالتقديس، وإرادتنا بالتجديد، وسيرتنا بالصلاح، وإلا فلا نرى المنازل السماوية .

هذا التغيير هو الذي يجعل المتجدد يقول مع بولس: «أَسْتَطِيعُ كُلَّ شَيْءٍ فِي الْمَسِيحِ الَّذِي يُقَوِّينِي» (فيلبي ١٣: ٤) إذ بالتجديد يقدر أن يفعل ما كان قبلاً يعجز عن فعله. من هذه المستحيلات محبة العدو، وتكريس الذات لخدمة الآخرين، وبذل الحياة لأجل الغرباء، والتلذذ الداخلي بالصلاة الإنفرادية والمواضيع الروحية .

ثم أعلن المسيح أن النور الذي أتى به للناس ليس مقبولاً عندهم إجمالاً. وسبب هذه الغرابة هو أن أعمالهم أعمال ظلام، لا تقدر أن تظهر في النور، بينما فاعلو الصلاح يحبون النور، لا يخشون نتيجة كشف النقاب عن أعمالهم، لتظهر أعمالهم أنها بالله معمولة .

في هذه المحاورة الدينية الأولى المسجلة مع نيقوديموس، نجد تصريحاً كافياً لأعظم أركان الدين المسيحي. فيه نرى المسيح ابن الإنسان وفي الوقت ذاته ابن الله الوحيد. ونرى ذكراً للأقانيم الثلاثة في الإله الواحد تأييداً لحقيقة التثليث في الله مع التوحيد. كما نرى إعلان عمل المسيح النبوي والكهنوتي والملكي .

يحتاج البشر إلى أنبياء لأجل الإنباء والتفسير، وإلى كهنة لأجل الإنابة والتكفير، ثم إلى ملوك لأجل الحكم والتدبير. وهذه الوظائف الثلاث تفي بالحاجات البشرية والدينية كافة، وقد جمعها المسيح في شخصه الواحد. ولم يشغلها شخص واحد في التاريخ الإسرائيلي، لأن الأنبياء والكهنة والملوك كانوا جميعاً يرمزون إليه، وكانوا يخصّصونهم بعلامة المسحة المقدسة، ويسمّونهم أحياناً «مُسحاء». فجاء المسيح، الله، متمماً إلى آخر الزمان ما كان يُطلب من هؤلاء قبل مجيئه .

فهو النبي الذي يخبر بالسماويات، ويكشف عن الصفات والمشئنة الإلهية وتفسيرها وعن خفيات القلب البشري. ولا يزال هو المعلم الذي بروحه يعلم البشر كل الأمور الضرورية لخيرهم .

وهو الذي ينوب عن البشر ككاهن، إذ قدم نفسه ذبيحة إثم بدلاً عنهم وكفر عن خطاياهم كحمل الله، لكي لا يهلك كل من يؤمن به. فعل ذلك برفعه على الصليب كما رفع موسى الحية في البرية. ويصرّح بالغفران الكامل الحالي المجاني لكل نفس بمفردها إذ تتوب. ويقدم كشفيع عند الأب السماوي طلبات المؤمنين مشفوعة بواسطته .

وهو يتسلط حياً كملك على قلوب المؤمنين، ويدبر أمورهم ويقهر أعداءهم ويورثهم معه ملكوتاً روحياً أبدياً. فلو لم يكن هو الملك لأنه ابن الله، لما طلب أن يؤمن الناس به للخلاص، بل طلب كالأنبياء أن يؤمن الناس بالله. وفي مقامه هذا النبوي الكهنوتي الملوكي يجري الآن في العالم معجزاته المادية (كالتى فعلها وهو ظاهر بين الناس) ومعجزات جديدة روحية أعظم جداً من تلك

المسيح يلتقي بالسامرية

«تَرَكَ الْيَهُودِيَّةَ وَمَضَى أَيْضاً إِلَى الْجَلِيلِ. وَكَانَ لَا بُدَّ لَهُ أَنْ يَجْتَازَ السَّامِرَةَ. ه، فَأَتَى إِلَى مَدِينَةٍ مِنَ السَّامِرَةِ يُقَالُ لَهَا سُوخَارُ، بِقُرْبِ الضَّيْعَةِ الَّتِي وَهَبَهَا يَعْقُوبُ لِيُوسُفَ ابْنِهِ. وَكَانَتْ هُنَاكَ بئرٌ يَعْقُوبُ. فَإِذْ كَانَ يَسُوعُ قَدْ تَعَبَ مِنَ السَّفَرِ، جَلَسَ هَكَذَا عَلَى الْبئرِ، وَكَانَ نَحْوَ السَّاعَةِ السَّادِسَةِ. فَجَاءَتْ امْرَأَةٌ مِنَ السَّامِرَةِ لَتَسْتَقِي مَاءً، فَقَالَ لَهَا يَسُوعُ: «أَعْطِينِي لِأَشْرَبَ» - لِأَنَّ تَلَامِيذَهُ كَانُوا قَدْ مَضَوْا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيَبْتَاعُوا طَعَاماً. فَقَالَتْ لَهَا الْمَرْأَةُ السَّامِرِيَّةُ: «كَيْفَ تَطْلُبُ مِنِّي لِتَشْرَبَ، وَأَنْتَ يَهُودِيٌّ وَأَنَا امْرَأَةٌ سَامِرِيَّةٌ؟» لِأَنَّ الْيَهُودَ لَا يُعَامِلُونَ السَّامِرِيِّينَ. أَجَابَ يَسُوعُ: «لَوْ كُنْتَ تَعْلَمِينَ عَطِيَّةَ اللَّهِ، وَمَنْ هُوَ الَّذِي يَقُولُ لَكَ أَعْطِينِي لِأَشْرَبَ، لَطَلَبْتَ أَنْتِ مِنْهُ فَأَعْطَاكَ مَاءً حَيًّا». قَالَتْ لَهَا الْمَرْأَةُ: «يَا سَيِّدُ، لَا دَلْوَ لَكَ وَالْبئرُ عَمِيقَةٌ. فَمِنْ أَيْنَ لَكَ الْمَاءُ الْحَيُّ؟ أَلَعَلَّكَ أَعْظَمُ مِنْ أَبِيْنَا يَعْقُوبَ، الَّذِي أَعْطَانَا الْبئرَ، وَشَرَبَ مِنْهَا هُوَ وَبَنُوهُ وَمَوَاشِيهِ؟» أَجَابَ يَسُوعُ: «كُلُّ مَنْ يَشْرَبُ مِنْ هَذَا الْمَاءِ يَعْطَشُ أَيْضاً. وَلَكِنْ مَنْ يَشْرَبُ مِنَ الْمَاءِ الَّذِي أُعْطِيهِ أَنَا فَلَنْ يَعْطَشَ إِلَى الْأَبَدِ، بَلِ الْمَاءُ الَّذِي أُعْطِيهِ يَصِيرُ فِيهِ يَنْبُوعُ مَاءٍ يَنْبَعُ إِلَى حَيَاةٍ أَبَدِيَّةٍ». قَالَتْ لَهَا الْمَرْأَةُ: «يَا سَيِّدُ أَعْطِنِي هَذَا الْمَاءَ، لِكَيْ لَا أَعْطَشَ وَلَا آتِيَ إِلَى هُنَا لِأَسْتَقِي». قَالَ لَهَا يَسُوعُ: «ادْهَبِي وَادْعِي زَوْجَكَ وَتَعَالِي إِلَى هُنَا» أَجَابَتِ الْمَرْأَةُ: «لَيْسَ لِي زَوْجٌ». قَالَ لَهَا يَسُوعُ: «حَسَنًا قُلْتَ لَيْسَ لِي زَوْجٌ، لِأَنَّهُ كَانَ لَكَ خَمْسَةُ أَزْوَاجَ، وَالَّذِي لَكَ الْآنَ لَيْسَ هُوَ زَوْجَكَ. هَذَا قُلْتَ بِالصِّدْقِ». قَالَتْ لَهَا الْمَرْأَةُ: «يَا سَيِّدُ، أَرَى أَنَّكَ نَبِيٌّ! أَبَاؤُنَا سَجَدُوا فِي هَذَا الْجَبَلِ، وَأَنْتُمْ تَقُولُونَ إِنَّ فِي أُورُشَلِيمَ الْمَوْضِعَ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يُسَجَدَ فِيهِ». قَالَ لَهَا يَسُوعُ: «يَا امْرَأَةُ، صَدِّقِينِي أَنَّهُ تَأْتِي سَاعَةٌ، لَا فِي هَذَا الْجَبَلِ، وَلَا فِي أُورُشَلِيمَ تَسْجُدُونَ لِلْأَبِ. أَنْتُمْ تَسْجُدُونَ لِمَا لَسْتُمْ تَعْلَمُونَ، أَمَّا نَحْنُ فَتَسْجُدُ لِمَا نَعْلَمُ - لِأَنَّ الْخَلَاصَ هُوَ مِنَ الْيَهُودِ. وَلَكِنْ تَأْتِي سَاعَةٌ، وَهِيَ الْآنَ، حِينَ السَّاجِدُونَ الْحَقِيقِيُّونَ يَسْجُدُونَ لِلْأَبِ بِالرُّوحِ وَالْحَقِّ، لِأَنَّ الْأَبَ طَالِبٌ مِثْلَ هَؤُلَاءِ السَّاجِدِينَ لَهُ. اللَّهُ رُوحٌ. وَالَّذِينَ يَسْجُدُونَ لَهُ فَبِالرُّوحِ وَالْحَقِّ يَنْبَغِي أَنْ يَسْجُدُوا». قَالَتْ لَهَا الْمَرْأَةُ: «أَنَا أَعْلَمُ أَنَّ مَسِيًّا، الَّذِي يُقَالُ لَهُ الْمَسِيحُ، يَأْتِي. فَمَتَى جَاءَ ذَلِكَ يُخْبِرُنَا بِكُلِّ شَيْءٍ». قَالَ لَهَا يَسُوعُ: «أَنَا الَّذِي أَكَلِمُكَ هُوَ» (يوحنا ٤: ٢٦-٢٧).

أراد المسيح أن يهدم في تلاميذه التعصب العنصري العرقي، وأن يلاشي منهم التزمّت المذهبي، وأن يقنعهم أن ملكوت الله ليس محصوراً في نسل إبراهيم ولا قاصراً عليهم.

كان المسيح مسافراً من اليهودية إلى الجليل، وكانت الطريق الأسهل والأقرب الموصلة بين اليهودية في الجنوب وعاصمتها أورشليم، وبين الجليل وطن المسيح في الشمال، هي الطريق الغربية التي تمر في السامرة الفاصلة بين اليهودية والجليل، فاختارها المسيح لأنه «كان لا بدّ له أن يجتاز السامرة.»

وكان البُغض المتبادل بين اليهود والسامريين قد ازداد بسبب العلاقات الطبيعية التي تربطهما، لأن عداوة الأنسباء أمرٌ العداوات. فكان اليهود يتنجسون من السامريين، باعتبار أنهم وثنيون، فلا يجالسونهم، ولا يكالمونهم، ولا يمرّون في بلادهم إلا مضطرين. وكانت المنازعات التخريبية بين الشعبين كثيرة الوقوع حتى صار اسم «سامري» عند اليهود شتيمة يُعيّرون بها. وإذا أراد المسيح أن ينزع هذا الروح من قلوب تلاميذه، ويلقي في طريقه بذراً روحياً بين الغرباء عن شعب إسرائيل، قرر أن يجتاز في السامرة، وسافر على الطريق الرئيسية التي تمر في مدينة شكيم (نابلس) في الوادي، بين جبلي عيبال وجرزيم.

وكان على الطريق العام في هذا الوادي وجنوبي هذه المدينة بئر يعقوب التي اشتهرت بسبب ما حدث هناك عند مرور المسيح عليها، فإنه وصل في رحلته إليها نحو الظهر، وكان شهر ديسمبر (كانون الأول) على ما يُرجّح. وإذا كان متعباً جلس على خرزة البئر، بينما أرسل تلاميذه إلى سوخار ليبتاعوا طعاماً له ولهم. ونستنتج من هذا أن المسيح مع فقره وفقر رفقاءه لم يعتمد على الضيافات ولا على الاستعطاء لأجل المعيشة، بل اعتمد على الشراء بالمال الذي كان يقدمه له مريدوه حباً وإكراماً. وكان يسلم المالية لأحد تلاميذه.

وفي هذه الساعة نراه يختبر الإعياء والجوع والعطش، ليمائتنا في هذه الضيقات، فيقدر أن يرثي للمصابين بها. ورُبّ سائل يقول: لماذا لم يخلق طعاماً له ولهم بمعجزة؟ فنجيب أنه حيث تكون الوسائط الطبيعية كافية فلا لزوم لمعجزة. كما أن المسيح لم يفعل قط معجزة لأجل إعالة ذاته أو منفعته الشخصية، فلما جاع في برية التجربة، ولم يكن من وسائط طبيعية لسدّ جوعه، لم يصنع معجزة، لكن الملائكة جاءت وخدمته.

وبينما كان ينتظر عودة تلاميذه، جاءت امرأة سامرية من المدينة المجاورة لتملأ جرتها من هذه البئر، إمّا لأنها اعتبرت ماءها مقدساً ففضلته على الماء الأقرب، أو لأنها مكروهة عند أهل بلدها بسبب صفاتها السيئة، فضلت الابتعاد عن الناس. ولا ريب أنها اشمأزت لما رأت عند البئر يهودياً، لا سيما وأن هيئته ولباسه يدلّان على أنه معلّم دين. وأمثاله هم المتطرفون في كره السامريين واحتقارهم.

كانت هناك فواصل مهمة بين المسيح وبين هذه المرأة تستدعي النظر :

هي امرأة سامرية، وهو معلم ديني يهودي. شعبها مزيج من اليهود والوثنيين، وأشدُّ نزاعٍ في العالم بين الشعوب هو النزاع الديني، وأقربها بعضاً لبعض نسباً هي أبعداً أدياً عند وقوع النزاع .

كان اليهود قد رفضوا اشتراك السامريين معهم عند ترميم الهيكل بعد رجوعهم من سبي بابل، وعاملوهم بالخشونة. فانتقاماً منهم دنّس السامريون الهيكل بعظام الموتى، فاتّسع الخلاف بين الشعبين كثيراً، ورفض اليهود دخول السامريين هيكل أورشليم. فاختار السامريون موقعاً لعبادتهم على قمة جبل جرزيم، قالوا إنه أقدس من هيكل أورشليم لأنه أقدم في التاريخ المقدس، واستندوا في قولهم على آيات من التوراة، وزادوا على ذلك أن إبراهيم أتى بإسحق إلى هذا الجبل ليقدمه ذبيحة للرب .

الفصل الثاني أنها امرأة، وهي تعلم كم يحتقر رجال اليهود، لا سيما معلّمو الدين بينهم، جنس النساء. إذ كانوا يأنفون أن يكلموا امرأة أمام أعين الناس، ولو كانت زوجة أو أختاً. وكان من جملة صلاتهم شكر العزة الإلهية لأنهم ولدوا ذكوراً لا أنثاءً، فكم يكون احتقارهم لنساء السامريين خصومهم !

الفصل الثالث أنها امرأة ساقطة، فأى شيء يقدر أن يوفق بين المعلم اليهودي الجليل المهورب الصالح، وهذه التعيسة التي قضت حياتها في الآثام، ولا تزال مقيّدة بها؟

بسبب هذه الفواصل الثلاثة يصحُّ القول إن السامرية اشمأزت لما رأت المسيح جالساً على البئر التي قصدتها من محلها البعيد. ولم تتصور مطلقاً أن يكلمها، كما وأنها لا تريد أن تكلمه. لكن المسيح ينظر إلى نفس السامري بذات المحبة التي ينظر بها إلى نفس اليهودي، لأنه هو خالق ومخلّص وديّان الجميع. والسامري المتجدد لا تنقص فائدته في العالم عن فائدة اليهودي المتجدد، فلا فرق عند المسيح بين محب ومبغض، لأنه يرغب أن يُخلّص نفوس الجميع، ولذلك فهو لا يشارك اليهود في احتقار النساء، لأن احترام النساء من الفضائل المهمة ولأنه يولّد الفضيلة، فالرذيلة هي بنت احتقار النساء، إذ يؤدي هذا الاحتقار إلى الفساد. إذاً فالمطلوب هو الدين في القلوب، والشرعية في العقول، والتهديب في العادات .

يطلب المسيح المخلّص جميع البشر، النساء كما الرجال. ولهذا لا يمكنه أن يصرف نظره عن هذه السامرية لأنها امرأة. إنه ليس كالمعمدان الناسك، مقيّداً بكثير من تقاليد شعبه، فيأنف مقابلة النساء، فقد سمح لهن أن يتبعنه ويكرمنه ويقدمن له من أموالهن. وقد أظهر المسيح في لقائه مع السامرية اهتمامه بالهدى الديني بين النساء. وكما أسرع إبليس في إسقاط حواء في بداءة التاريخ البشري، أسرع المسيح في بدء خدمته في إنهاض بناتها .

ومن امتيازات التعليم المسيحي تأثيره في ترقية النساء مادياً وأدبياً وروحياً، فإنه بواسطة ولادة المسيح من مريم امّحى العار الذي لصق بجنس النساء بسبب سقوط حواء أولاً قبل آدم في جنة عدن. وفي كل سني خدمة المسيح وعند صليبه كما عند قيامته أكرم المسيح النساء، وقد ثبت أنهن سبقن الرجال في الغيرة الدينية والأمانة نحو المخلص .

قلنا إن هذه السامرية امرأة ساقطة، فكيف رضي المسيح أن يجالسها أو يباحثها أو يعيرها أقل التفات؟ تسأل الرسول بولس: «أَيَّةُ خَلْطَةٍ لِلْبَرِّ وَالْإِثْمِ؟ وَأَيَّةُ شَرَكَةٍ لِلنُّورِ مَعَ الظُّلُمَةِ؟ وَأَيُّ اتِّفَاقٍ لِلْمَسِيحِ مَعَ بَلِيلَعَالٍ أَيْةُ خَلْطَةٍ لِلْبَرِّ وَالْإِثْمِ؟» (٢ كورنثوس ٦: ١٤ و١٥). لكننا نعلم مبدأ المسيح من كلامه في قوله: «أَنَّهُ جَاءَ لِكَيْ يَطْلُبَ وَيُخَلِّصَ مَا قَدْ هَلَكَ» (لوقا ١٩: ١٠). وقال أيضاً في بيت متى العشار: «لَمْ آتِ لَأَدْعُو أَبْرَاراً بَلْ حُطَاءً إِلَى التَّوْبَةِ» (لوقا ١٥: ٣٢) فحُجَّةُ الذي يحضر أمام الطبيب مرضه لا صحته. واهتمام الطبيب ينصرف إلى المرضى لا إلى الأصحاء، ثم إلى أصحاب العلل المميّنة قبل البسيطة .

أظهر المسيح اهتمامه بخلاص الشبان والفقراء والبسطاء في زمرة الذين دعاهم للتلمذة فتبعوه، ثم اهتم بعد ذلك بخلاص شيخ غني صالح هو نيقوديموس. وهؤلاء جميعاً من شعب إسرائيل. فبقي عليه أن يظهر اهتمامه بخلاص شخص يمثل النساء وأسافل القوم، والذين ليسوا من شعب إسرائيل. فبواسطة هذه السامرية أعلن قيمة النفس الخالدة حتى بعد توغّلها بالآثام، وأنه قادر أن يخلص إلى التمام حتى أشرّ الخطة .

لم يبال المسيح بهذه الفواصل، بل فتح الحديث مع السامرية بطلبه منها أن تسقيه. والذي ساقه إلى هذا الطلب ليس عطشه إلى الماء، بل عطشه إلى تخليص هذه النفس الهالكة. وهذا الطلب من معلم يهودي فيه التنازل والإكرام لها، كأنه يفتقر إلى ما تستطيع هي أن تعطيه، فأعطى بذلك نموذجاً في كيفية صيد النفوس. أما هي فأجابت بشيء من الخشونة، كما يُنتظر من امرأة مثلها وقالت: «كَيْفَ تَطْلُبُ مِنِّي لَتَشْرَبَ، وَأَنْتِ يَهُودِي وَأَنَا امْرَأَةٌ سَامِرِيَّةٌ؟». عند ذلك غيّر لهجته ليُشعرها بمقامه الحقيقي، وأنه ليس مفتقراً إليها، بل هي مفتقرة إليه، لأنه يعطيها «عطية الله» إن طلبت منه. هذه العطية أشبه بالماء الحي (أي ماء النبع الجاري). ولما أظهرت مع التعجب عدم إدراك معناه، زاد على قوله إن هذا الماء يختلف عن الماء الذي تطلبه من بئر يعقوب، لأن الماء الحي يروي إرواءً أبدياً، وينبع إلى حياة أبدية. فكانت نتيجة هذا التشويق أنها طلبت من الذي قال لها أولاً «اسقيني» أن يسقيها هو من هذا الماء العجيب .

من الشروط الأولى لخلاص النفس إيقاظ الضمير، ليُشعر الخاطئ باحتياجه إلى مخلص، ويقدم توبة صادقة. لذلك نرى هذا الطبيب يجرحها تمهيداً للشفاء، وقد ظهرت مهارة الطبيب من كيفية الجرح الذي أجراه، لينقّي الجسد الذي أفسده الداء، فطلب المسيح منها أن

تدعو زوجها، ولما اعترفت أن ليس لها زوج، كشف لها المسيح أنه يعرف سيرتها المعيبة الماضية، وحالتها الأليمة الحاضرة، فلم يكن لطفه ناتجاً عن جهله بحالتها الفاسدة. وهذا مثلاً قدّمه المسيح في كيفية صيد النفوس، وإن كانت النفوس لا تُصاد غالباً بالهجوم المُرّ على عيوبها. لكن إبليس عدوّ الأنفس سهران دائماً، فلما رآها ابتدأت تستسلم لهذا المخلص لجأ إلى إحدى حيله الشهيرة، وقصد أن يلهيها بالجدال المذهبي القائم بين اليهود والسامريين في أمر مكان العبادة. فقادها إلى الحُجّة التي خدعت وتخدع الملايين، وهي تسلسل اليقين الديني من السلف إلى الخلف. وبموجب هذه الحجة يكتفي الإنسان بما كان عليه أسلافه من أمر الدين. لكن الإيمان تولّد في قلب السامرية بعد إيقاظ ضميرها. فرأت في هذا الغريب اليهودي نبياً، قالت له: «أرى أنك نبي» وبهذا فتحت باباً جديداً للمسيح ليكشف لها حقائق الدين .

من على هذا المنبر - أي حافة بئر في البرية - وأمام شخص واحد فقط، هو امرأة ذات تاريخ قبيح، وهي نصف وثنية، ألقى المسيح عظة من أشهر عظاته، يعادل سموها اختصارها، إذ أعلن فيها أن القداسة ليست في المعابد وما فيها من الآنية المكرسة، بل في القلوب. وأن بمجيئه قد زال الزمان الذي فيه تنحصر عبادة الله في أماكن خاصة يتوجّب على الناس أن يحجّوا إليها من بعيد، ليقدموا فيها ذبائحهم وتقدماتهم، فإن الآلهة الوثنية الكاذبة مقيّدة في أماكن محددة لكن الإله الوحيد الحقيقي روح، يقبل الذين يسجدون له بالروح والحق، في أي مكان كان، ولا يقبل غير هؤلاء ولو سجدوا في أقدس الأماكن، فقد جاء الزمان الذي تنبأ عنه ملاخي لما قال: «فِي كُلِّ مَكَانٍ يُقَرَّبُ لِاسْمِي بِخُورٍ وَتَقْدِمَةٍ طَاهِرَةٍ، لِأَنَّ اسْمِي عَظِيمٌ بَيْنَ الْأُمَمِ» (ملاخي ١: ١١).

ومع أن هذا لا ينفي تخصيص أماكن العبادة، وتوقيرها اللائق، لأن هذا واجب ديني، لكنه ينفي التطرف في نسبة القداسة إلى هذه الأماكن، وينفي العقائد الخرافية التي تجعل الناس يستمدّون البركة من مصادر مادية نظير آثار القديسين، والمواد في أسرار الكنيسة، وملامسة الأشخاص والأبنية الممتازة في الدين .

فلما جرد المسيح هذه القداسة الخصوصية الممتازة عن أورشليم، نفاها طبعاً عن كل مكان سواها، لأن دين الإله الذي هو روح لا يكون إلا روحياً، فلا يتألف بالدرجة الأولى من فرائض خارجية بل من عواطف داخلية .

أوضح المسيح للسامرية بهذا التصريح أن باب القبول عند الله مفتوح لكل من يسجد له بالروح والحق، وهذا القبول يتناول المرفوضين من هيكل أورشليم، لأنهم ليسوا يهوداً. والذين كانت سيرتهم الماضية معيبة. فالتغيير الذي حصل في قلبها جعلها تشتتهي مجيء المسيح ليخبر بكل ما يقتضي أن يعرفه الناس من أمر الدين. فلما فتحت قلبها لنور الحق.

زادها الله نوراً في الحال، وشرفها بإعلان لم يمنحه للرؤساء، ولا لنيقوديموس الموالي له، ولا لرفقائه التلاميذ. وبناءً على طلبها قال لها: «أنا الذي أكلمك هو». ولم يقل يسوع قبل الآن لأحد إنه المسيح. أما لهذه السامرية فيحقق أنه المسيح، لأنها اعترفت أنه نبي، والنبي الحقيقي لا يكون إلا صادقاً.

«وَعِنْدَ ذَلِكَ جَاءَ تَلَامِيذُهُ، وَكَانُوا يَتَعَجَّبُونَ أَنَّهُ يَتَكَلَّمُ مَعَ امْرَأَةٍ. وَلَكِنْ لَمْ يَقُلْ أَحَدٌ: مَاذَا تَطْلُبُ أَوْ لِمَاذَا تَتَكَلَّمُ مَعَهَا. فَتَرَكَّتِ الْمَرْأَةُ جَرَّتَهَا وَمَضَتْ إِلَى الْمَدِينَةِ وَقَالَتْ لِلنَّاسِ: «هَلُمُّوا انظُرُوا إِنْسَانًا قَالَ لِي كُلَّ مَا فَعَلْتُ. أَلَعَلَّ هَذَا هُوَ الْمَسِيحُ؟». فَخَرَجُوا مِنَ الْمَدِينَةِ وَأَتَوْا إِلَيْهِ.

وَفِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ سَأَلَهُ تَلَامِيذُهُ: «يَا مُعَلِّمُ، كُلُّ» فَقَالَ لَهُمْ: «أَنَا لِي طَعَامٌ لِأَكُلَ لَسْتُمْ تَعْرِفُونَهُ أَنْتُمْ». فَقَالَ التَّلَامِيذُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: «أَلَعَلَّ أَحَدًا أَتَاهُ بِشَيْءٍ لِيَأْكُلَ؟» قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «طَعَامِي أَنْ أَعْمَلَ مَشِيئَةَ الَّذِي أَرْسَلَنِي وَأَتَمِّمَ عَمَلَهُ. أَمَا تَقُولُونَ إِنَّهُ يَكُونُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ثُمَّ يَأْتِي الْحَصَادُ؟ هَا أَنَا أَقُولُ لَكُمْ: ارْفَعُوا أَعْيُنَكُمْ وَاَنْظُرُوا الْخُفُولَ إِنَّهَا قَدْ ابْيَضَّتْ لِلْحَصَادِ. وَالْحَاصِدُ يَأْخُذُ أَجْرَةً وَيَجْمَعُ ثَمَرًا لِلْحَيَاةِ الْأَبَدِيَّةِ، لِكَيْ يَفْرَحَ الزَّارِعُ وَالْحَاصِدُ مَعًا. لِأَنَّهُ فِي هَذَا يَصْدُقُ الْقَوْلُ: إِنَّ وَاحِدًا يَزْرَعُ وَآخَرُ يَحْصُدُ. أَنَا أَرْسَلْتُكُمْ لِتَحْصُدُوا مَا لَمْ تَتَّعَبُوا فِيهِ. آخَرُونَ تَعْبُوا وَأَنْتُمْ قَدْ دَخَلْتُمْ عَلَى تَعَبِهِمْ.»

فَأَمَّنَ بِهِ مِنْ تِلْكَ الْمَدِينَةِ كَثِيرُونَ مِنَ السَّامِرِيِّينَ بِسَبَبِ كَلَامِ الْمَرْأَةِ الَّتِي كَانَتْ تَشْهَدُ أَنَّهُ: «قَالَ لِي كُلَّ مَا فَعَلْتُ». فَلَمَّا جَاءَ إِلَيْهِ السَّامِرِيُّونَ سَأَلُوهُ أَنْ يَمْكُثَ عِنْدَهُمْ، فَمَكَثَ هُنَاكَ يَوْمَيْنِ. فَأَمَّنَ بِهِ أَكْثَرُ جَدًّا بِسَبَبِ كَلَامِهِ. وَقَالُوا لِلْمَرْأَةِ: «إِنَّا لَسْنَا بَعْدُ بِسَبَبِ كَلَامِكَ نُؤْمِنُ، لِأَنَّا نَحْنُ قَدْ سَمِعْنَا وَنَعْلَمُ أَنَّ هَذَا هُوَ بِالْحَقِيقَةِ الْمَسِيحُ مُخْلِصُ الْعَالَمِ» (يوحنا ٤: ٢٧-٤٢).

لم يكن أحد من تلاميذ المسيح حاضراً أثناء المحادثة بينه وبين السامرية، فلا بد أن يكون البشير يوحنا قد سمع بالخبر إما من المسيح أو من المرأة. ولكنه يخبر عن تعجبه وتعجب رفقائه لما عادوا من سوخار بالطعام الذي مضوا ليبتاعوه. تعجبوا لأنهم رأوا معلمهم يحدث امرأة غريبة سامرية حديثاً جدياً. ورأوا انفعالها الشديد لما تركت جرتها وأسرعت إلى المدينة كأنه لغرض مهم جداً. فلا نستغرب تعجب التلاميذ بل نمدحهم لأنهم حافظوا على اللياقة والاحترام، ولم يقل أحدهم: «ماذا تطلب أو لماذا تتكلم معها؟». ولما بسطوا الطعام الذي أتوا به، ولم يُقدِّم المسيح عليه كما انتظروا، قالوا له: «يا معلم كُلْ». وكما تعجبوا من حديثه مع المرأة، تعجبوا أيضاً لأنه لم يأكل، وزاد عجبهم عند جوابه: «لي طعام لأكل لستم تعرفونه أنتم.»

كلم المسيح نيقوديموس عن الحياة الجديدة بالولادة من فوق فلم يفهم. وكلم السامرية عن الماء الحي المحيي فلم تفهم. والآن كلم تلاميذه عن الطعام الخفي المشبع فلم يفهموا، بل سألوا بعضهم بعضاً: «ألعَلَّ أَحَدًا أَتَاهُ بِطَعَامٍ فِي غِيَابِهِمْ؟ هل هذه السامرية؟». فأسرع

المسيح يزيل حيرتهم، وأفهمهم أنه لا يشبع من الخبز البائد بل من عمل مشيئة الآب الذي أرسله .

ومن شدة ابتهاج السامرية بأنها قد رأت المسيح وسمعت كلامه وآمنت به، تركت جرتها عند البئر، وأسرعت إلى سوخار لتبشّر مواطنيها. ولكن من يبالي بكلام امرأة ساقطة مثلها؟ هل يمكن أن يظهر المسيح ذاته لمثلها أولاً؟ مع ذلك نرى فعلاً أن لكلامها تأثيراً، نستنتج منه أن التغيير في قلبها ظهر في تغيير هيئتها ولهجتها وحركاتها، فاحترموا شهادتها لما قالت لأهل المدينة: «هلموا انظروا إنساناً قال لي كل ما فعلت. ألع هذا هو المسيح؟» فهي تطلب منهم أن يحكموا في الأمر بعد أن يروه ويسمعوه. لقد أدت شهادتها وتركت النتيجة لأفكار السامعين وضمايرهم. وبذلك قدمت نموذجاً مفيداً في الإرشاد الديني .

إن قوة التبشير الديني هي بالأكثر في الشهادة لا في النصيحة . والمبشر الفهيم يقول كما قال صاحب المزمور: «دُوفُوا وَانْظُرُوا مَا أَطْيَبَ الرَّبُّ!» (مزمور ٣٤: ٨).

لما ودع المسيح رسله عند صعوده أوضح لهم أن وظيفتهم الخصوصية هي: «تَكُونُونَ لِي شُهُوداً إِلَى أَقْصَى الْأَرْضِ» (أعمال ١: ٨). وقد نتج التأثير العجيب الذي رافق تبشيرهم عن حفظهم هذه الوصية واهتمامهم بهذه الشهادة. وكل عاقل يستخرج من الشهادة التي يُعْطَاهَا النصيحة التي تحويها، فتأتيه النصيحة قوية. لكن النصيحة بدون الشهادة تكون ضعيفة. ولهذا زال افتخار السامرية ببئر يعقوب في وجه اهتمامها بماء الحياة الذي ابتدأت تعرف قيمته، وصار فيها ينبوعاً ينبع إلى حياة أبدية ليروي الآخرين أيضاً .

أثر كلام المرأة في أهالي سوخار فخرجوا من المدينة وأتوا إليه . وبينما هم قادمون رآهم المسيح عن بُعد، فخاطب تلاميذه بكلام آخر مجازي. قال إنه يرى الحقول قد ابيضت للحصاد، مع أنه كان باقياً للحصاد المألوف أربعة أشهر. وقصد بقوله هذا السامريين القادمين المستعدين لقبول بشارة الخلاص، فهم تلك الحقول المبيضة. فرح بهم لأنهم باكورة الحصاد الأكبر الذي بين الأمم، ولأنهم أتوا لا بجاذبية معجزات الشفاء، ولا لمنافع أخرى سطحية أو زمنية، بل لكي يروا المسيح ويسمعوا تعاليمه، ولأنهم ثمر تعب في هداية المرأة التي أتت بها إلى الخلاص بالتوبة والإيمان .

«فأمن به من تلك المدينة كثيرون من السامريين بسبب كلام المرأة .» وآمن به عدد أكثر جداً بسبب كلامه بعد حضورهم إليه، فسألوه أن يمكث عندهم. فصَحَّ بذلك قول النبي: «أَصْغَيْتُ إِلَى الَّذِينَ لَمْ يَسْأَلُوا. وَجِدْتُ مِنَ الَّذِينَ لَمْ يَطْلُبُونِي. قُلْتُ: «هَنْدَا هَنْدَا» لِلْأُمَّةِ لَمْ تُسَمَّ بِاسْمِي» (إشعياء ٦٥: ١) فخالف المسيح تقاليد أمته واضطر تلاميذه أن يفعلوا مثل ما فعل، ومكث عند أهل السامرة يومين. وكان هذا الحصاد مقدمة لحصاد آخر عظيم في تلك البلاد في زمان الرسل .

وما أجمل شهادة أهل السامرة للمسيح، فقد قالوا عنه إنه بالحقيقة المسيح مخلص العالم - فكانت رؤيتهم له شاملة كاملة .

فما أكرم تلك البئر التي أُتيح لها أن تريح الجسم البشري الذي حلَّ فيه الأقنوم الثاني، الابن الأزلي، الذي هو في حضن الأب. وما أعذبها أيضاً لأن هذه المرأة الهالكة التي لم تعرف الماء الحي قصدتها طالبة إرواء عطشها الجسدي مؤقتاً فوجدت هناك «مسيا» الذي أعطاه ماءً حياً ينبع إلى حياة أبدية .

المسيح الطبيب المعلم

لم يفتح المسيح خدمته في الجليل بالمعجزات، بل كان يركز في مجامعهم بالخبر السار، بشارة ملكوت الله. ولم تكن لهجة كرازته لهجة التخويف والتأنيب، بل لهجة المخلص المحب الذي أتى من السماء ليعلن محبة الله للخطاة، ويؤسس ملكوت البر والسلام والفرح، فمجده الجميع رغم علمهم بأصله الفقير .

وقد وعظ المسيح عن «اكتمال الزمان» إشارة إلى النبوات القديمة التي تختص بظهوره. وهو «ملء الزمان» الذي ذكره الرسول بولس (غلاطية ٤: ٤). ولذلك اتفق وعظه مع وعظ المعمدان. «قد اقترب ملكوت السموات. فتوبوا وآمنوا بالإنجيل». أي بالبشارة بمجيء المسيح ملك هذا الملكوت .

شفاء ابن خادم الملك

«فَجَاءَ يَسُوعُ أَيْضاً إِلَى قَانَا الْجَلِيلِ، حَيْثُ صَنَعَ الْمَاءَ خَمْراً. وَكَانَ خَادِمٌ لِلْمَلِكِ ابْنُهُ مَرِيضٌ فِي كَفَرْنَاهُومَ. هَذَا إِذْ سَمِعَ أَنَّ يَسُوعَ قَدْ جَاءَ مِنَ الْيَهُودِيَّةِ إِلَى الْجَلِيلِ، انْطَلَقَ إِلَيْهِ وَسَأَلَهُ أَنْ يَنْزِلَ وَيَشْفِيَ ابْنَهُ لِأَنَّهُ كَانَ مُشْرِفاً عَلَى الْمَوْتِ. فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: «لَا تَوْمَنُونَ إِنْ لَمْ تَرَوْا آيَاتٍ وَعَجَائِبَ!» قَالَ لَهُ خَادِمُ الْمَلِكِ: «يَا سَيِّدُ، انْزِلْ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ ابْنِي». قَالَ لَهُ يَسُوعُ: «اذْهَبْ. ابْنُكَ حَيٌّ». فَأَمَّنَ الرَّجُلُ بِالْكَلِمَةِ الَّتِي قَالَهَا لَهُ يَسُوعُ، وَذَهَبَ. وَفِيمَا هُوَ نَازِلٌ اسْتَقْبَلَهُ عَمِيْدُهُ وَأَخْبَرُوهُ قَائِلِينَ: «إِنَّ ابْنَكَ حَيٌّ». فَاسْتَحْبَرَهُمْ عَنِ السَّاعَةِ الَّتِي فِيهَا أَخَذَ يَتَعَاثَى، فَقَالُوا لَهُ: «أَمْسِ فِي السَّاعَةِ السَّابِعَةِ تَرَكَتُهُ الْحُمَى». فَقَهَمَ الْأَبُ أَنَّهُ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ الَّتِي قَالَ لَهُ فِيهَا يَسُوعُ إِنَّ ابْنَكَ حَيٌّ. فَأَمَّنَ هُوَ وَبَيْتُهُ كُلُّهُ. هَذِهِ أَيْضاً آيَةٌ ثَانِيَةٌ صَنَعَهَا يَسُوعُ لَمَّا جَاءَ مِنَ الْيَهُودِيَّةِ إِلَى الْجَلِيلِ» (يوحنا ٤: ٤٦). 54)

وبعد سنة كرّر المسيح زيارته لقانا الجليل محل معجزته الأولى، حيث صنع معجزته الثانية. نقول إنه أجرى المعجزة الثانية في قانا، ولكن الذي نال الشفاء لم يكن في قانا، فإن المسيح وهو في قانا شفى إنساناً في كفر ناحوم على بُعد يوم كامل. فقد جاء إلى المسيح ذات يوم إلى قانا أحد رجال بلاط الملك هيرودس أنتيباس وكان يسكن في كفر ناحوم التي تبعد ساعات قليلة عن العاصمة طبرية. ومع أن المسيح لم يكن قد صنع بعد معجزة شفاء في الجليل، إلا أنه لما اشتدّ مرض ابن هذا الرجل، وأشرف على الموت، وفرغت كل الوسائل لشفائه، افتكر في المسيح، واستعلم عن محل وجوده، فلما عرف أنه في قانا صعد إليه، وطلب منه أن ينزل معه إلى كفر ناحوم ليشفي ابنه .

وبما أن رجل البلاط الملكي يكون مرعي الجانب، معتاداً أن يحصل على مطالبه بسهولة، تصوّر أن المسيح سيلبّي طلبه حالاً بكل احترام، ويحسبه شرفاً عظيماً أن يدعو رجل مثله ليشفي ابنه، وظن أن المسيح يتمنّى فرصة كهذه ليُظهر فيها قوته العجيبة. أما أفكار المسيح فليست هكذا، فقد قاد الرجل إلى التذلل وانكسار القلب لأجل الخير، لأن البركات الإلهية هي للمتواضعين. وقصد أيضاً أن يعزّز مكانه كممثل الإله العظيم، وإن كانت أحواله الخارجية خالية من إمارات العظمة، فقال للرجل: «لا تؤمنون إن لم تروا آيات وعجائب». أي أنه لا يريد الإيمان الناتج عن رؤية العجائب، بل الذي يأتي نتيجة ما يرونه فيه ويسمعونه من التعليم والصفات والأعمال الحسنة الطبيعية.

أما رجل البلاط فلم يأتيه صبرٌ على هذا الكلام، لأن ابنه كان مشرفاً على الموت، فألحَّ عليه قائلاً: «يا سيد، انزل قبل أن يموت ابني». فاستجاب المسيح جوهر طلبه لا حرفيته، لم ينزل معه لكنه شفى ابنه. وبدلاً من الذهاب معه قال له «اذهب، ابنك حي». فأمن الأب إيماناً عجيباً بأن المسيح يقدر أن يشفي شخصاً عن بُعد، دون أن يلمسه أو يكلمه أو يراه، فاتّجه إلى بيته. وبينما هو في الطريق لاقاه عبده المسرعون إليه إلى قانا، وبشّروه بشفاء ابنه الفجائي في كفر ناحوم. ولما دقّق الأب في معرفة موعد شفاء ولده، اتّضح له أن ابنه شُفي «في تلك الساعة التي قال له فيها يسوع إن ابنك حي». فزاد إيمانه، وشاركه كل أهل بيته في إيمانه الجديد، لأن التأثير الديني عندما يكون قوياً لا بد أن يتجاوز من المؤمن إلى أعضاء أسرته.

تحوّلت مصيبة هذا الرجل في مرض ابنه الشديد إلى بركة روحية عظيمة جداً. ومن قلب مصيبته خرج خلاص أبدي له ولأهل بيته، لأن الأب السماوي في حكمته وحبّه يريد أن تأتي كل المصائب بالبركات.

تعليم في الناصرة

«وَجَاءَ إِلَى النَّاصِرَةِ حَيْثُ كَانَ قَدْ تَرَبَّى. وَدَخَلَ الْمَجْمَعُ حَسَبَ عَادَتِهِ يَوْمَ السَّبْتِ وَقَامَ لِيَقْرَأَ، فَدَفَعَ إِلَيْهِ سِفْرُ إِشْعْيَاءِ النَّبِيِّ. وَلَمَّا فَتَحَ السِّفْرَ وَجَدَ الْمَوْضِعَ الَّذِي كَانَ مَكْتُوباً فِيهِ: «رُوحُ الرَّبِّ عَلَيَّ، لِأَنَّهُ مَسَحَنِي لِأُبَشِّرَ الْمَسَاكِينَ، أَرْسَلَنِي لِأَشْفِيَ الْمُنْكَسِرِي الْقُلُوبِ، لِأُنَادِيَ لِلْمَاسْأُورِينَ بِالْإِطْلَاقِ وَلِلْعُمَى بِالْبَصَرِ، وَأَرْسَلَ الْمُنْسَجِّقِينَ فِي الْخَرِيَّةِ، وَأَكْرَزَ بِسَنَةِ الرَّبِّ الْمَقْبُولَةِ». ثُمَّ طَوَى السِّفْرَ وَسَلَّمَهُ إِلَى الْخَادِمِ وَجَلَسَ. وَجَمِيعُ الَّذِينَ فِي الْمَجْمَعِ كَانَتْ عُيُونُهُمْ شَاخِصَةً إِلَيْهِ. فَابْتَدَأَ يَقُولُ لَهُمْ: «إِنَّهُ الْيَوْمَ قَدْ تَمَّ هَذَا الْمَكْتُوبُ فِي مَسَامِعِكُمْ». وَكَانَ الْجَمِيعُ يَشْهَدُونَ لَهُ وَيَتَعَجَّبُونَ مِنْ كَلِمَاتِ النِّعْمَةِ الْخَارِجَةِ مِنْ فَمِهِ، وَيَقُولُونَ: «أَلَيْسَ هَذَا ابْنُ يَوْسُفَ؟» فَقَالَ لَهُمْ: «عَلَى كُلِّ حَالٍ تَقُولُونَ لِي هَذَا الْمَثَلُ: أَيُّهَا الطَّبِيبُ اشْفِ نَفْسَكَ. كَمْ سَمِعْنَا أَنَّهُ جَرَى فِي كَفَرْنَاحُومَ، فافْعَلْ ذَلِكَ هُنَا أَيْضاً فِي وَطَنِكَ، وَقَالَ: «الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ إِنَّهُ

لَيْسَ نَبِيٌّ مَقْبُولاً فِي وَطَنِهِ. وَبِالْحَقِّ أَقُولُ لَكُمْ إِنَّ أَرَامِلَ كَثِيرَةً كُنَّ فِي إِسْرَائِيلَ فِي أَيَّامِ إِيلِيَّا حِينَ أُغْلِقَتِ السَّمَاءُ مُدَّةَ ثَلَاثِ سِنِينَ وَسِتَّةِ أَشْهُرٍ، لَمَّا كَانَ جُوعٌ عَظِيمٌ فِي الْأَرْضِ كُلِّهَا، وَلَمْ يُرْسَلِ إِيلِيَّا إِلَى وَاحِدَةٍ مِنْهَا، إِلَّا إِلَى أَرْمَلَةٍ، إِلَى صِرْفَةِ صَيِّدَاءَ. وَبُرْصٌ كَثِيرُونَ كَانُوا فِي إِسْرَائِيلَ فِي زَمَانِ أَلِيشَعَ النَّبِيِّ، وَلَمْ يُطَهَّرْ وَاحِدٌ مِنْهُمْ إِلَّا نُعْمَانُ السُّرْيَانِيُّ. «فَامْتَلَأَ غَضَباً جَمِيعُ الَّذِينَ فِي الْمَجْمَعِ حِينَ سَمِعُوا هَذَا، فَقَامُوا وَأَخْرَجُوهُ خَارِجَ الْمَدِينَةِ، وَجَاءُوا بِهِ إِلَى حَافَةِ الْجَبَلِ الَّذِي كَانَتْ مَدِينَتُهُمْ مَبْنِيَّةً عَلَيْهِ حَتَّى يَطْرَحُوهُ إِلَى أَسْفَلِ. أَمَّا هُوَ فَجَارَ فِي وَسْطِهِمْ وَمَضَى» (لوقا ١٦: ٤-٣٠).

عاد المسيح من قانا إلى الناصرة، بعد غيابه عنها نحو سنة وربع. وقد جرت خلال هذه الأشهر حوادث غيّرت هيئته وحركاته تغييراً ظاهراً، فرآه مواطنوه كأنه شخص جديد. ولأنهم قد سمعوا خبر معجزاته في بلاد أخرى، توقّعوا أن يفعل مثلاً، وأكثر منها في بلده وبين الأقرباء والأصدقاء. أما هو فما كان يهتم بالمعجزات بل بالتعليم، فقدّم عظته الأولى أمام جمهور في مجمعهم في يوم سبت. قال البشير إنه: «دخل المجمع حسب عادته». لأن زيارته في المجمع في بلده مدة نحو ثلاثين سنة نُعِدُّ بالألوف. ولما دخل المجمع رأى الهيئة المألوفة وسمع الصلاة القانونية. لكن لما جاء وقت القراءة من الأسفار النبوية، وقف إعلاناً لاستعداده أن يقرأ، إن سمح له رئيس المجمع. وقد كان، فأعطوه الدَّرَجَ المقدس الذي فيه سفر إشعياء النبي... نرَجِّح أن الجزء الذي فتحه وقرأه هو الذي كان معيّناً لذلك اليوم، وأن ملائمة هذا الجزء لمقصده كان من تدبير العناية الإلهية. دارت نبوة هذا الجزء عن غرض مجيء المسيح وعن طبيعة ملكوته الذي نادى باقترابه منهم. وأشار أولاً إلى المسحة التي تعطيه لقب المسيح، لأن الله مسحه نبياً وكاهناً وملكاً، فوظيفته كالمسيح هي أن يبشر المساكين ببشارة مضمونها شفاء منكسري القلوب، وإطلاق المأسورين، وتفتيح أعين العمي، وتحرير المنسحقين، والكراسة «بسنة الرب المقبولة».

أما «سنة الرب المقبولة» فهي سنة اليوبيل التي تجيء مرة كل خمسين سنة، وربما اتفق وقوعها في تلك السنة. وقد ظنَّ سامعوه أن إطلاق المأسورين وتحرير المنسحقين هو التخلُّص من النير الروماني والعبودية لملك وثني، أما عند المسيح فسنة الرب المقبولة ليست سنة واحدة من كل خمسين سنة، بل هي تشمل كل السنين.

ولم يكن النير الذي أتى المسيح ليخلص الناس منه نيراً سياسياً زمنياً، بل نير إبليس الذي بسببه وقع عليهم نير الرومان. لأن عبيد إبليس لا يمكن أن يَسْلَمُوا من العبودية الجسدية، إذ هي نتيجة العبودية الروحية لإبليس. فإن أنقذهم مسيحهم من نير جسدي يعرفونه، فلا بد أن يقعوا تحت نير آخر أكبر منه. وإذ كان المسيح يعلم هذا جيداً فقد جاء ليخلصهم من نير إبليس أولاً، فإن قبلوه يخلصهم أيضاً من نير الرومان، ومن كل نير إلا نيره الهين، ومن كل حمل إلا حمله الخفيف.

كانت العادة عند اليهود أن القارئ الذي يريد أن يشرح الجزء الذي قرأه يعلن ذلك بجلوسه أمام الجمهور، عند انتهائه من القراءة. فلما طوى المسيح السفر وسلّمه للخادم، جلس. فتحولت إليه أبصار الجمهور، لأنهم كانوا يعرفون ابن بلدتهم شخصياً. وقد زاد احترامهم له بسبب سماعهم عنه الأمور الكثيرة العظيمة مدة غيابه، فابتدأ وعظه بقوله: «اليوم قد تمّ هذا المكتوب في مسامعكم». بهذا الكلام قدّم ذاته لهم كمسيحهم، وفي الوقت ذاته لاشئ كل آمالهم الزمنية إن قبلوه كمسيح. ثم تابع كلامه المؤثر. وكان الجميع يشهدون له ويتعجبون من كلمات النعمة الخارجة من فمه، ويقولون: «أليس هذا ابن يوسف؟».

من القول «كلمات النعمة» عرفنا نسق وعظه، فقد كان تعليمه كالماء البارد للظمآن، لأنه اهتم أن يعظ بالبشارة بملكوت جديد روحي جاء هو ليعلنه - وهو يعلم أن أفكار الجمهور لا تزال بعيدة عن أفكاره، وأن شهادتهم لكلمة النعمة من فمه شهادة سطحية، وأنهم يريدون الملكوت الزمني والمنافع المادية والمجد العالمي والاندهاش بمعجزاته، فأثامهم أولاً بمثلين من الأمثال الدارجة بياناً لمعرفته أفكارهم، إذ قال: «على كل حال تقولون لي هذا المثل: أيها الطبيب اشف نفسك». يعني أن وطنك الناصرة أحق من قانا الجليل ومن كفر ناحوم، فلماذا لا يتمتع بمعجزاتك المدهشة والخير الناتج عنها؟ لكن إلى الآن لم نر منك معجزة. ثم أشار إلى المثل الثاني: «ليس نبي مقبولاً في وطنه». يعني خذ وعظك للذين يجهلون أصلك الحقير، ولا تنتظر منا خضوعاً لتعاليمك الجديدة .

وغضب أهل الناصرة على المسيح، فأخذوه إلى حافة الجبل الذي بُنيت عليه مدينتهم ليطرحوه إلى أسفل، فترك مدينته الناصرة، واتّجه إلى كفر ناحوم .

ولا بد أن المسيح حزن على أهل بلده، لأنهم لم يقبلوا بشارة النعمة ورفضوا مخلصهم الوحيد. تُرى هل بكى على الناصرة وهو يتركها كما بكى على أورشليم؟ وكيف لا يحزن وهو يترك وطنه تركاً نهائياً، بعد كل أتعابه فيه، وبعد تأثير قدوته وكلامه بين قومه؟.. لم يأخذ تلميذاً واحداً من الناصرة، حتى ولا من إخوته .

المسيح يدعو أربعة تلاميذ

«وَفِيمَا هُوَ يَمْشِي عِنْدَ بَحْرِ الْجَلِيلِ أَبْصَرَ سَمْعَانَ وَأَنْدَرَاوُسَ أَخَاهُ يُلْقِيَانِ شَبَكَةً فِي الْبَحْرِ، فَأَيْنَهُمَا كَانَا صَيَّادَيْنِ. فَقَالَ لَهُمَا يَسُوعُ: «هَلُمَّ وَرَائِي فَأَجْعَلُكُمْ تَصِيرَانِ صَيَّادِي النَّاسِ». فَلِلْوَقْتِ تَرَكََا شِبَاكَهُمَا وَتَبِعَاهُ. ثُمَّ اجْتَاَزَ مِنْ هُنَاكَ قَلِيلاً فَرَأَى يَعْقُوبَ بْنَ زَبْدِي وَيُوحَنَّا أَخَاهُ، وَهُمَا فِي السَّفِينَةِ يُصْلِحَانِ الشِّبَاكَ. فَدَعَاهُمَا لِلْوَقْتِ. فَتَرَكََا أَبَاهُمَا زَبْدِي فِي السَّفِينَةِ مَعَ الْأَجْرَى وَذَهَبَا وَرَاءَهُ» (مرقس ١: ١٦-٢٠).

كان المسيح ذات يوم يمشي على شاطئ بحيرة طبرية عندما رأى تلاميذه الأربعة الأولين، أندراوس وأخاه سمعان بطرس، ويعقوب ويوحنا أخاه، يشتغلون في صيد السمك، وكان الأخوان الأولان يطرحان شبكة في البحر، من سفينتهما أو من على الشاطئ. وكان الأخوان الآخرون مع أبيهما زبدي وعمّالهم في سفينتهما يصلحان الشباك بعد الصيد. فأتى إلى الأولين ودعاهما ليعلمهما صيداً أفضل وأكثر ضرورة، وهو صيد الناس بشباك الإنجيل لتخليصهم من بحر الهلاك، وتوصيلهم إلى شاطئ السلام. ثم مشى إلى الأخوين الآخرين وقدم لهما الدعوة ذاتها. فلَبُّوا حالاً جميعاً هذه الدعوة وتبعوه فوراً، تاركين الأب والعمال والسفينتين والشباك والمهنة وكل شيء. كانوا قد تبعوه سابقاً بالقلب والإيمان، ورافقوه في بعض رحلاته، لكن من الآن فصاعداً أصبحوا ملازمين له. وكان قد قدّم في اليهودية والسامرة أمثلة في اصطيد النفوس. لكنه قصد الآن أن يحولهم عن أشغالهم الزمنية ليتمكن من تعليمهم وتدريبهم في المهنة الجديدة أكثر فأكثر.

ترك ابنا زبدي أباهما في السفينة وتبعوا المسيح، فصارا أول سلسلة الذين أطاعوا ويطيعون أمر المسيح، فيتركون الأهل عند الاقتضاء لكي يتبعوه. ولكن لا يحق دينياً ولا أدبياً لإنسان، هو مجرد بشر، أن يطلب من الناس أن يفضلوه على أهلهم، الذين تربطهم بهم العلاقات المتينة، التي هي وضع إلهي. ولو كان المسيح مجرد إنسان، لَمَا كان يحق له أن يعطل الوصية الخامسة التي تأمر بإكرام الوالدين، ولَمَا طلب من ابني زبدي أن يتركا أباهما لأجله، ولم يخالف ابنا زبدي هذه الوصية، إلا ليقينهما أن للمسيح حقاً إلهية تسبق الحقوق البشرية كافة حتى أقدمها. وبما أنه واضع هذا الناموس فإنه يقدر أن يحوره كما يشاء.

ترك إبراهيم خليل الله وطنه الأصلي في أور الكلدانيين إجابة للدعوة الإلهية، فتولّد من صلبه شعب الله المختار إسرائيل، ولذلك سُمّي أب المؤمنين، إذ قال له الله: «تَنْبَارُكَ فِيكَ جَمِيعُ قَبَائِلِ الْأَرْضِ» (تكوين ١٨: ٢٢).

وإجابةً لدعوة الله ترك موسى قصور الفراعنة والبنوة الملكية والراحة والرفاهية والعلوم والغنى والمجد، ليقود هذا الشعب وينظمه ويستلم الشريعة الإلهية الطاهرة التي منها النظام الشهير والعهد القديم الذي هو أساس الدين .

وعلى مثال إبراهيم وموسى ترك هؤلاء التلاميذ الأربعة مهنتهم وبيوتهم وأهلهم ليتبعوا هذا المعلم الفقير المحتقر آنئذٍ، فتأسست منهم ومن رفقاءهم القليلين الضعفاء الكنيسة المسيحية، والنظام المسيحي الجديد الروحي، الذي غير هيئة العالم .

جاء في التوراة أن الله اختار داود عبده وأخذه من حظائر الغنم، وأتى به ليرعى شعبه. والآن نرى المسيح يختار أندراوس وسمعان ويعقوب ويوحنا من بين صيادي السمك ليرقيهم إلى درجة الرسولية، ويجري معجزات عديدة في حياتهم، ويجري بهم معجزات روحية عامة أكثر وأعظم منها جداً، هي نتيجة الإنجيل الذي كتبوه .

وبعد أن دعا المسيح تلاميذه الأربعة الأولين تبعوه إلى المدينة بصفة جديدة كمعلم دين يلزمه أشخاص من أتباعه، يؤلفون وإياه عائلة جديدة يرأسها هو، ويباشر تدريبهم... حتى وهو يعظ ويعلم الناس في السبوت كان هدفه الأساسي تعليمهم أولاً .

وبُهِت الذين حضروا وعظه في مجمع كفر ناحوم... ومع أنهم سمعوا وعظاً كثيرين وشهيرين قبلاً، كان هؤلاء جميعاً يُسندون أقوالهم إلى أقوال العظماء من أسلافهم، ويمتازون بحسن الذاكرة والاعتناء في حفظ كلام أئمتهم الأقدمين عن ظهر قلب، فكانوا يكثر من سرده على مسامع الجمهور، وعلى هذا بنى الجمهور افتخاره بهم ومدحه إياهم .

أما الآن فقد ظهر واعظ جديد لا يبالي بالعلوم المألوفة، ولا الفلسفة ولا أقوال أولئك المشاهير، وبدلاً من أن يقول: «قال الربُّ الفلاني» كان يقول: «الحق الحق أقول لكم» وإن أعاد كلاماً قديماً كان يصيِّره جديداً في معناه وتأثيره. وفي تفسير التوراة كان يُريهم روح التعليم وليس حرفه فقط.

المسيح يخرج الشياطين

«وَأَنحَدَرَ إِلَى كَفَرْنَاهُومَ، مَدِينَةٍ مِنَ الْجَلِيلِ، وَكَانَ يُعَلِّمُهُمْ فِي السَّبُوتِ. فَبَهَتْوَا مِنْ تَعْلِيمِهِ، لِأَنَّ كَلَامَهُ كَانَ بِسُلْطَانٍ. وَكَانَ فِي الْمَجْمَعِ رَجُلٌ بِهِ رُوحٌ شَيْطَانٍ نَجِسٍ، فَصَرَخَ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ: «أَهَ مَا لَنَا وَلَكَ يَا يَسُوعُ النَّاصِرِيُّ! أَتَيْتَ لِتُهْلِكََنَا! أَنَا أَعْرِفُكَ مَنْ أَنْتَ: قُدُّوسُ اللَّهِ». فَأَنْتَهَرَهُ يَسُوعُ قَائِلًا: «أَخْرَسْ وَاخْرُجْ مِنْهُ». فَصَرَعهُ الشَّيْطَانُ فِي الْوَسْطِ وَخَرَجَ مِنْهُ وَلَمْ يَضُرَّهُ شَيْئًا. فَوَقَعَتْ دَهْشَةٌ عَلَى الْجَمِيعِ، وَكَانُوا يُخَاطِبُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا قَائِلِينَ: «مَا هَذِهِ الْكَلِمَةُ! لِأَنَّهُ بِسُلْطَانٍ وَقُوَّةٍ يَأْمُرُ الْأَرْوَاحَ النَّجِسَةَ فَتَخْرُجُ». وَخَرَجَ صَيِّتٌ عَنْهُ إِلَى كُلِّ مَوْضِعٍ فِي الْكُورَةِ الْمُحِيطَةِ» (لوقا ٤: ٣١-٣٧).

عندما كان المسيح في كفر ناحوم ذهب إلى المجمع، وكان من جملة المجتمعين للعبادة في أحد أيام السبت شخص به روح نجس، كان مصاباً بالحلول الشيطاني فيه، جعله يصرخ بصوت عظيم قائلاً: «أه. ما لنا ولك يا يسوع الناصري. أتيت لتهلكنا. أنا أعرفك من أنت، قدوس الله». فظهر روح العداوة الشيطاني في قوله: «ما لنا ولك؟». ودلّ استعمال صيغة الجمع على أن في المتكلم شخصاً آخر يتكلم فيه. وفي القول: «أتيت لتهلكنا» اعتراف بسطوة المسيح عليه وعلى الشيطان الحال فيه. والقول الآخر: «أعرفك من أنت؟» يدلّ على معرفة عجيبة ليست لهذا الرجل البسيط، بل للشيطان الذي يفوق أكثر البشر في المعرفة العقلية.

هجم إبليس على المسيح في انفراده في البرية، وهاجمه أيضاً في تهييج أهالي الناصرة عليه، وبقي إبليس متخفياً. أما الآن فهجم على هذا المعلم الجديد هجومه الأول العلني. ولم يرُضَ أن يسكت بينما كان المسيح يُظهر الحقائق الروحية، ويشرح طريق الخلاص، وينادي بملكوت الله، ويوضح شروط الدخول فيه. علم إبليس أن المسيح قد جاء لكي يحاربه، وينقض أعماله ويدمر ملكوته الفاسد ويسحق رأسه، فكيف يمكنه أن يسكت؟

لربما نستغرب شهادة إبليس الصريحة للمسيح بأنه «قدوس الله». لعلها كانت النتيجة الأولى من سطوة المسيح عليه ثم طرده من هذا الرجل. وبما أن لشهادة العدو قيمة مضاعفة، أراد المسيح أن يعترف الجمهور أن الشيطان أيضاً مضطرب أن يشهد له. وهذه شهادة الشيطان الأولى للمسيح أمام الناس ولكنها ليست الأخيرة. حالما أدّى المصاب هذه الشهادة الواضحة، انتهر المسيح الشيطان قائلاً: «أخرس واخلج منه» فانتظر الجمهور كله ليرى ماذا يحدث. ففي الحال صرع الشيطان الرجل وصاح بصوت عظيم وخرج منه، ولم يضره شيئاً - فلا عجب إذ وقعت دهشة على الجميع وتحيروا كلهم. وظهرت في ذلك المجمع اليهودي حركة لم تحدث فيه قبلاً. وصاروا يتساءلون: من هو هذا الشخص المقتدر

الذي أتى ليسكن بينهم؟ وما هو هذا التعليم الجديد المقرون بمعجزات كهذه؟ ومن أين حصل ابن النجار على سلطةٍ تمكّنه من أن يجعل الأرواح الشريرة تطيعه؟

أثبت المسيح في معجزته الأولى (وهي تحويل الماء إلى خمر) سلطته على النواميس الطبيعية، وفي معجزته الثانية (وهي شفاء ابن خادم الملك) أظهر سلطته على الأمراض الجسدية، في هذه المعجزة الثالثة أعلن سلطته على القوات الشيطانية. وهذه المعجزات الثلاث في بداءة خدمته برهنت أهليّته لأن يكون مخلصاً للبشر بكل معاني الكلمة .

تطابير سريعاً هذا الخبر عن أول واقعة علنية حدثت بين «رئيس بيت داود» و«رئيس هذا العالم» فيها ذلّل المسيح إبليس وقهره. «فخرج صيت عنه للوقت في كل الكورة المحيطة بالجليل». في البرية دافع المسيح عن نفسه في محاربته إبليس، وفي كفر ناحوم دافع عن غيره وأبان لتلاميذه الجُدد، ولإبليس ذاته، ولسكان الجليل، ولكل أجيال البشر أنه قادر أن يقهر إبليس، ليس في صدره هو فقط، بل أيضاً في صدور الآخرين .

لا يسعنا السكوت تجاه هذا الحادث الغريب، دون طلب توضيح أمر السكن الشيطاني الذي يُذكر كثيراً في أيام المسيح وبعده، كأنه من أهم الأمور. والمرجّح أن الشيطان بمناسبة مجيء المسيح مخلصاً إلى العالم ضاعف قوته، وتسلط على البشر فوق المعتاد. ولم يكن ذلك إلا بسماح من الله. لتكون غلبة المسيح عليه أبهج، ونتيجتها أعظم. لما كان الشيطان يعرف قيمة قوة العقل في الإنسان، كان الجنون رقيقاً لاستيلاء الشيطان على البشر. وكثيراً ما كان المصاب يُسمّى مجنوناً فقط، فهل كان ما يسميه الإنجيل «الاحتلال الشيطاني» هو مجرد الاختلال العقلي الذي نسمّيه الآن «جنوناً»؟

كان يجوز هذا التفسير لو كان المسيح من الذين ينقادون إلى الخرافات الجارية، أو لو كان من الذين يتساهلون في الأوهام الدينية، ويستخدمونها لأغراض يعتبرونها حسنة.. فعندما نسمعه يخاطب الشيطان كشخص غير الشخص الذي يقف أمامه، ويقول: «أخرج منه أيها الروح النجس». «أخرس وأخرج منه» - نعلم أن المسيح العاقل المستقيم لا يمكن أن يقول ذلك لو كانت الإصابة هي مرض الجنون المعهود. ولو كان كلام الشخص الذي به شيطان كلام اختلال عقلي فقط، لما كان ينطق بشهادات عجيبة في مواضع لم يكن أحد يعرفها في ذلك الوقت، ولا يوجد في شفاء الجنون ما يشبه الصرع والآلام المرافقة لإخراج الشياطين .

ويلاحظ أيضاً أن إخراج الشياطين كان فرعاً خاصاً من أعمال المسيح ورساله، مستقلاً عن شفاء الأمراض. بناء على أسباب كهذه، نقول إن هذا النوع من الإصابات التي لا يسمّيها الإنجيل «شفاء» بل يسميها «إخراج شياطين» لا يجوز اعتباره مجرد مرض الجنون المألوف .

شفاء كثيرين في كفر ناحوم

«وَلَمَّا قَامَ مِنَ الْمَجْمَعِ دَخَلَ بَيْتَ سِمْعَانَ. وَكَانَتْ حَمَاهُ سِمْعَانَ قَدْ أَخَذَتْهَا حُمَى شَدِيدَةٌ. فَسَأَلُوهُ مِنْ أَجْلِهَا. فَوَقَفَ فَوْقَهَا وَانْتَهَرَ الْحُمَى فَتَرَكَتْهَا! وَفِي الْحَالِ قَامَتْ وَصَارَتْ تَخْدِمُهُمْ. وَعِنْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ، جَمِيعُ الَّذِينَ كَانُوا عَنْدهُمْ سَقَمَاءَ بِأَمْرَاضٍ مُخْتَلِفَةٍ قَدَّمُوهُمْ إِلَيْهِ، فَوَضَعَ يَدَيْهِ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ وَشَفَاهُمْ. وَكَانَتْ شَيَاطِينُ أَيْضاً تَخْرُجُ مِنْ كَثِيرِينَ وَهِيَ تَصْرُخُ وَتَقُولُ: «أَنْتَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ!» فَانْتَهَرَهُمْ وَلَمْ يَدَعْهُمْ يَتَكَلَّمُونَ، لِأَنَّهُمْ عَرَفُوهُ أَنَّهُ الْمَسِيحُ» (لوقا ٤: ٣٨-٤١).

ذهب المسيح ومن معه إلى بيت سمعان بطرس، إمّا لأن المسيح كان ساكناً هناك، أو لأن بطرس دعاه ليضيّقه، إظهاراً لامتنانه للشرف الذي منحه له بدعوته أن يصير صياد الناس وأن يلزمه كتلميذ دائم. وربما اشتركت مع عاطفة الشكر عاطفة الأمل أن معلّمه وسيده يُجري في بيته قوة الشفاء التي أظهرها في بيت خادم الملك، منذ عهد قريب في هذه المدينة، إذ كانت حماة بطرس مريضة في بيته، وقد أخذتها حمى شديدة. يظهر أن بطرس لم ير من اللياقة أن يكلف المسيح أن يشفيها، لكنه وجد من ينوب عنه. فأخبروه عنها وسألوه من أجلها. ولا نعلم بأي كلام انتهر المسيح الحمى، لكنه أقام حماة بطرس من فراشها ماسكاً بيدها فتركتها الحمى حالاً. وكان شفاؤها معجزة مزدوجة، لأن الضعف الكلي الذي يتولد من حمى شديدة زال بغتة، حتى أمكنها أن تمارس حالاً شغل البيت. وبذلك صارت أول النساء، اللواتي تطوعن لخدمة المسيح بعد بدء خدمته.

وانتشر سريعاً في كل البلد خبر ما فعله المسيح عند ضُحى ذلك السبت في شفاء حماة سمعان، بعد إخراج الشيطان من المسكون، فانتظر أهل المدينة إلى ما بعد غروب الشمس، احتراماً لنظام السبت، ثم أتوا بمرضاها طالبين الشفاء من هذا القادم العجيب الذي استوطن عندهم. وظاهر الخبر هو أنه لم يبق في كفر ناحوم عليل، لأن جميع الذين كان عندهم سقماء بأمراض مختلفة قدموهم إليه، فوضع يديه على كل واحد منهم وشفاهم. فما أعظم ذلك السبت إذ كانت المدينة كلها مجتمعة على باب بيت سمعان بن يونا الصياد.

يخصّ البشيريون في هذا الخبر، المصابين بالسكن الشيطاني الذين كان عددهم وافراً. ويظهر أنه لم يضع يده على هؤلاء كما فعل في سائر الأمراض، لأنه يقول إن الشياطين كانت تخرج بكلمة. في المجمع قال للشيطان: «إخرس» بعد أن شهد له أنه «قدوس الله». وفي المساء زادت شهادات الشياطين له قوة ووضوحاً، إذ أنهم كانوا يصرخون قائلين: «أنت المسيح ابن الله». فانتهرهم ولم يدعمهم يتكلمون لأنهم عرفوه. ترى هل شعر أهل المدينة بالخل عندما رأوا الشياطين تسميه المسيح وابن الله؟ هل يمكن أن الأبالسة تعظم كذباً الذي يطردها؟ أوليسوا هم كشعب الله أولى بتأدية شهادة كهذه؟

ما أجمل صورة المسيح، هذا المحسن، واقفاً عند باب البيت في أول ساعات الليل، يمدّ يده اللطيفة ليمسّ كل عليل يجيء إليه، فقد برهن بذلك اشتراكه القلبي في مصائب هؤلاء المساكين، وأبان لهم أن قوة الشفاء فيه، وأن فعلها يصل إليهم عن طريق أنامله، متحولاً في طريقه إلى أنواع الصحة المطلوبة على أشكالها، حسب الاقتضاء. وبهذا العمل أفهمهم (إن شاءوا أن يفهموا) أن أمراضهم الروحية قابلة أيضاً للشفاء، وأنه قادر على هذه كما على تلك، ومستعد لشفائها جميعاً إن طلبوا ذلك منه. حقاً قال عنه النبي إشعياء: «أَحْزَانُنَا حَمَلَهَا وَأَوْجَاعُنَا تَحَمَّلَهَا» (إشعياء ٥٣: ٤).

هذه بداءة اشتغال المسيح بخدمته الطويلة في شفاء الأمراض. ونؤكد أنه في كل أعماله الشفائية كان ينظر أولاً إلى علاقة الخطيئة بالأمراض، لأن الجنس واحد، فالمرض خلل في الأجسام، وإفساد للوضع الأصلي الإلهي الحسن. والخطيئة خلل في النفوس. وكان قصد المسيح أن يبين استعداده ومقدرته على منح الشفاء للنفوس من داء الخطيئة، لأنه أتى ليخلص شعبه من خطاياهم، وظهر كحمل الله الذي يرفع خطية العالم بعد أن نزل من السماء لينال كل من يؤمن به مغفرة الخطايا. ولما كانت الأمراض في أصلها نتيجة الخطيئة، صار من الضروري أن الذي يحارب الخطيئة يحارب نتائجها أيضاً، وأن لا يتغاضى عن الفرع في مطاردته الأصل. علم المسيح أن الناس يحتاجون إلى ما يشوقهم لطلب الشفاء الروحي، لأن الخطيئة تُميت الشعور الروحي، فقصد إيقاظ الناس بواسطة معجزات الشفاء.

وكل من فيه روح المسيح يهتم بتخفيف ويلات بني جنسه، ومن أعظمها الأمراض. والروح المسيحي يقود الأطباء إلى مخاطرات بحياتهم وتضحية بأوقاتهم وأموالهم لأجل اكتشاف أسباب الأمراض ثم معالجتها لأنهم يحسبون محاربة الأمراض مثل محاربة الخطيئة، ويعتبرون الاهتمام بخير البشر الجسدي عملاً ضرورياً، مع الاهتمام بخيرهم الروحي. ويقود روح المسيح الشعب المسيحي إلى إنشاء المستشفيات والملاجئ على أنواعها، التي لم يكن لها وجود في العالم القديم أو الحديث، إلا في البلاد التي أنشأ فيها المسيحيون أولاً فرع الإحسان هذا.

طبيبنا اليوم

«يَسُوعُ الْمَسِيحُ هُوَ هُوَ أَمْساً وَالْيَوْمَ وَإِلَى الْأَبَدِ» (عبرانيين ١٣: ٨). لذلك يهتم الآن بأمراض البشر، ويريد أن يخففها. وكما كان يشفي المرضى في أماكن لم يكن حاضراً فيها جسدياً، هكذا يفعل الآن. ويريد أن يأتيه كل مريض طالباً منه الشفاء، وأن يعتبر المريض طبيبه البشري مكلفاً من المسيح، والعلاج الذي يستعمله مرسلاً من الله. وأن يشكر الله على نيل الشفاء لأنه هو الطبيب الأصلي، ولأن الشفاء هبة منه. قال الرسول يعقوب:

«أَمْرِيضُ أَحَدٌ بَيْنَكُمْ؟ فَلْيَدْعُ شَيْوْخَ الْكَنِيسَةِ فَيُصَلُّوا عَلَيْهِ وَيَذْهَبُوا بِرَبِّي بِاسْمِ الرَّبِّ، وَصَلَاةُ الْإِيمَانِ تَشْفِي الْمَرِيضَ وَالرَّبُّ يُقِيمُهُ» (يعقوب ٥: ١٤ و ١٥).

يحسب المؤمن أن المسيح هو الطبيب الماهر الشهير، وأن الطبيب البشري هو الممرّض الذي يأخذ تعليماته من الطبيب ويعامل العليل بموجبها. فمهما كان اتكالنا على الممرّض عظيمًا، وشكرنا له عند النهوض من المرض وافرًا، يكون الاتكال الأعظم والشكر الأوفر للطبيب الذي درّبه استجابة لاستغاثتنا به .

المسيح وخلوته مع الآب

«وَلَمَّا صَارَ النَّهَارُ خَرَجَ وَذَهَبَ إِلَى مَوْضِعٍ خَلَاءٍ، وَكَانَ الْجُمُوعُ يُفْتَشُونَ عَلَيْهِ. فَجَاءُوا إِلَيْهِ وَأَمْسَكُوهُ لئَلَّا يَذْهَبَ عَنْهُمْ. فَقَالَ لَهُمْ: «إِنَّهُ يَنْبَغِي لِي أَنْ أَبْشِرَ الْمُدْنَ الْأُخْرَى أَيْضًا بِمَلَكُوتِ اللَّهِ، لِأَنِّي لِهَذَا قَدْ أُرْسِلْتُ». فَكَانَ يَكْرُرُ فِي مَجَامِعِ الْجَلِيلِ» (لوقا ٤: ٤٢-٤٤).

رأينا المسيح محاطًا بالجماهير - إنما الازدحام الدائم لا يوافقه، فلا يستغني مطلقاً عن الاختلاء مع الآب السماوي. ولذلك «في الصباح باكراً جداً، لما صار النهار، قام وخرج ومضى إلى موضع خلاء وكان يصلي هناك». كانت خدمته للناس تسوقه إلى الصلاة لله، لأنه بواسطة الاختلاء مع الآب يتأهل لعمله اليومي الخطير بين الناس. كانت صلاته لله تقوده إلى خدمة الناس حباً لله، فيعود من صلاته إلى أعماله بنشاط جديد وفرح مضاعف. الحياة التي كلها صلاة تعطل خدمة المصلي. والحياة التي كلها خدمة تجعل الذي يخدم يفقد ما يحتاج إليه من الفوائد الروحية، التي بها يقدر أن يخدم الآخرين الخدمة العظمى والأسمى. فمع طهارة المسيح التامة وقوته الفائقة وكل كمالاته، كانت طبيعته البشرية تحتاج إلى الصلاة، وكانت هذه لذته العظمى، لا بل تنفسه الروحي الضروري الدائم. فمن أهم فروع الاستفادة من المسيح الاقتداء به في صلاته الانفرادية .

لكن لم يرَضَ الجمهور ولا تلاميذ المسيح الجدد، باختلائه هذا. فأخذ بطرس والذين معه يفتشون عنه، ولما وجدوه قالوا له: «إن الجميع يطلبونك». وأمسكوه لئلا يذهب عنهم أيضاً. أما هو فلم يسلم لإنسانٍ حقَّ الحكم في كيفية تحرُّكاته، بل كان يتبع دائماً هدى الروح الذي حلَّ عليه عند معموديته. فبينما يمثل لطلب الناس تلطفًا، يستقلُّ عنهم ويخالف طلبهم، ولهذا قال: «ينبغي أن أبشر المدن الأخرى بملكوت الله. لنذهب إلى القرى المجاورة لأكرز هناك أيضاً، لأنني لهذا قد أرسلت .»

فشرع من ذلك الوقت بخطة جديدة مختلفة عن غيره من معلمي الدين، الذين يتبعون خطة المعداد، إذ يتخذون مراكز يستقبلون الناس فيها. والذي لا يقصدهم لا يراهم ولا يسمعونهم.

أما خطة المسيح فكانت على قاعدة «ابن الإنسان قد جاء لِكَي يَطْلُبَ وَيُخَلِّصَ مَا قَدْ هَلَكَ» (لوقا ١٩: ١٠). وخصَّ مقاطعة الجليل وطنه أولاً في هذا .

وقد أشار البشير إلى أنواع عمله الثلاثة :

الكراسة ببشارة الملكوت، كما رأيناه يفعل في اليهودية .

محاربة إبليس وتحرير الناس من سكنه فيهم، كما فعل في مجمع كفر ناحوم صباح ذلك السبت الشهير .

شفاء كل مرض وكل ضعف في الشعب، كما فعل في مساء ذلك السبت عينه. وسنرى المسيح يقوم بهذه الخدمات الثلاث في الأجزاء الخمسة الباقية من كتابنا هذا .

مسابقة الكتاب

القراء الأعزاء

نرجو توجيه إجاباتكم على هذه المسابقات إلى (نداء الرجاء)

<http://www.call-of-hope.com>

على العنوان التالي:

Of Hope Call

P.O. Box 1018

Stuttgart 1, West Germany 7000

عزيزي القارئ،

إن أرسلت لنا إجابة صحيحة على ٢٠ سؤالاً من الأسئلة الخمسة والعشرين التالية نرسل لك كتاباً جائزة من كتبنا المختلفة. نرجو أن ترسل مع الإجابة اسمك وعنوانك واضحين لنرسل لك الجائزة .

1 ما هي ألقاب الشيطان الثلاثة، وما معنى كل منها؟

- 2 كيف سحق المسيح، نسل المرأة، رأس الحية؟ (تكوين ١٥: ٣).
- 3 ما هي الخطية التي وقع فيها كل من موسى وإيليا وبطرس ويهوذا الاسخريوطي؟
- 4 ما هي التجربة الأولى التي جرب إبليس المسيح بها - ماذا كان رد المسيح عليها؟
- 5 ما هي التجربة الثانية التي جرب إبليس المسيح بها - ماذا كان رد المسيح عليها؟
- 6 ما هي التجربة الثالثة التي جرب إبليس المسيح بها - ماذا كان رد المسيح عليها؟
- 7 اذكر أربع معموديات تعمد المسيح بها.
- 8 في قول يوحنا المعمدان عن المسيح إنه حمل الله تحقيق لنبوات التوراة - اذكر واحدة منها، وكيفية تحقيقها؟
- 9 ما هي أكبر خدمة قدمها أندراوس لأخيه سمعان؟
- 10 ماذا كان رد فيلبس على نثنائيل لما أنكر أن المسيح يمكن أن يجيء من الناصرة؟
- 11 اذكر ثلاث شهادات على أن المسيح هو ابن الله.
- 12 ما هو الهدف من إجراء المسيح المعجزات؟
- 13 لماذا حول المسيح الماء خمرًا في عرس قانا؟
- 14 ما معنى قول المسيح عن الهيكل «بيت أبي»؟
- 15 ماذا كان قصد المسيح بقوله «انقضوا هذا الهيكل وفي ثلاثة أيام أقيّمه»؟
- 16 متى يكون الغضب فضيلة واللفظ رذيلة؟

- 17 ما هو فعل الروح القدس في «الميلاد الثاني»؟
- 18 ما هو عمل المسيح كنبي؟
- 19 ما هو عمل المسيح ككاهن؟
- 20 ما هو عمل المسيح كملك؟
- 21 كيف جعل المسيح المرأة السامرية تعترف بخطيتها؟
- 22 ما هو الفرق بين ماء بئر سوخار وبين الماء الحي؟
- 23 كيف قاد المسيح خادم الملك إلى التذلل والانكسار؟
- 24 لماذا رفض أهل الناصرة المسيح؟
- 25 بماذا شهدت الشياطين عن المسيح؟
- أرسل الإجابة فقط بدون تعليقات أخرى لئلا تُهمل، ونحن بانتظار إجابتك.

سيرة المسيح
الكتاب الثالث: سلطانه وتعليمه
الدكتور جورج فورد

هذا الكتاب

يسر «نداء الرجاء» أن تصدر في اللغة العربية هذا الكتاب عن حياة السيد المسيح، في سبعة أجزاء .

وقد كتب هذا الكتاب في مجلد واحد باللغة العربية الدكتور جورج فورد، في أوائل العشرينات من هذا القرن، بعنوان «كتاب القول الصريح في سيرة يسوع المسيح .»

وقد قام محررو نداء الرجاء بإعادة كتابة الكتاب في الصورة التي تراها الآن .

ونحن نأمل أن يتعرف القارئ الكريم على المسيح بطريقة شخصية، وأن يكون شعاره «نحن نحبه لأنه هو أحبنا أولاً .»

أسرة نداء الرجاء

شفاء أبرص

«فَأَتَى إِلَيْهِ أْبْرَصُ يَطْلُبُ إِلَيْهِ جَائِئاً وَقَائِلاً لَهُ: «إِنْ أَرَدْتَ تَقْدِرُ أَنْ تُطَهِّرَنِي!» فَتَحَنَّنَ يَسُوعُ وَمَدَّ يَدَهُ وَلَمَسَهُ وَقَالَ لَهُ: «أُرِيدُ، فَاطْهَرْ». فَلِلْوَقْتِ وَهُوَ يَتَكَلَّمُ ذَهَبَ عَنْهُ الْبَرَصُ وَطَهَّرَ. فَأَنْتَهَرَهُ وَأَرْسَلَهُ لِلْوَقْتِ، وَقَالَ لَهُ: «انْظُرْ، لَا تَقُلْ لِأَحَدٍ شَيْئاً، بَلِ ادْهَبْ أَرِ نَفْسَكَ لِلكَاهِنِ وَقَدِّمْ عَنْ تَطْهِيرِكَ مَا أَمَرَ بِهِ مُوسَى، شَهَادَةً لَهُمْ». وَأَمَّا هُوَ فَخَرَجَ وَابْتَدَأَ يُنَادِي كَثِيراً وَيَذِيعُ الْخَبَرَ، حَتَّى لَمْ يَعُدْ يَقْدِرُ أَنْ يَدْخُلَ مَدِينَةً ظَاهِراً، بَلْ كَانَ خَارِجاً فِي مَوَاضِعٍ خَالِيَةٍ، وَكَانُوا يَأْتُونَ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ» (مرقس ١: ٤٠-٤٥).

بين كل أنواع المرض التي شفى المسيح منها، كان عدد الذين شفاهم من البرص - أي الجذام - أكبر من أي عدد آخر. وقد اعتُبر هذا المرض منذ القديم رمزاً للخطيئة ونجاستها، حتى سُمي الشفاء منه «تطهيراً». كما اعتبروه إعلان غضب الله على الخطاة. وبين كل ما ذُكر في كتب اليهود الطبية من أدوية ومعالجات للأمراض كافة، لا يُذكر علاج لمرض البرص، لأنهم تأكدوا أنه عديم الشفاء إلا بمعجزة إلهية. وظهر اعتقادهم هذا جلياً في جواب الملك يهورام زمن النبي أليشع في قصة نعمان السرياني (٢ ملوك ٥: ٧). لذلك كان هذا المرض هو الوحيد الذي يفرضون على المصاب به أن يعتزل عن جميع الناس، حتى عن أهل بيته، وإنْ دخل بلداً يُجَازَى بأربعين جلدة. وكانوا يعتبرون الأبرص كأنه ميت، يتنجس من يلمسه. وكان الأبرص مجبوراً أن يمارس فروض الحداد من تمزيق ثيابه، والكشف عن رأسه، وتغطية فمه، وترك الاغتسال، وما أشبه، وأن يُحذِر كل إنسان من الاقتراب منه بصراخه الدائم: «نجس! نجس!». والبرص هو المرض الوحيد الوراثي، الذي ينتقل من الوالدين إلى الأولاد. فإذا أُصيب إنسان بالبرص أو بما يُشْتَبه أنه برص، ثم تحققت سلامته منه فيما بعد، كان يتوجب عليه الحصول على شهادة كهنوتية بهذه السلامة.

كان المسيح يوماً يزور إحدى المدن عندما أتاه رجل مصاب بهذا المرض، بالرغم من الموانع الشرعية التي كانت تحول دون مجيئه. ولا بد أن يشئت مجيئه هذا جمهور الحاضرين حذراً من التنجس. كانت هيئته كئيبة ورأسه مخلوقاً مكشوفاً، وثيابه ممزقة، وصوته أجش من تأثير المرض في حنجرتة، وهو يصرخ تحذيراً للجميع: «نجس! نجس!». «وجهه بشع من اهتراء أنفه وأذنيه وشفتيه وجفنيه، لأنه كما يقول البشير: «مملوء برصاً». فلما رأى هذا الأبرص المسيح خرَّ على وجهه وسجد له.

يا أيها التعيس في الظاهر، أنت بالحق سعيد، لأن روح الله ألهمك أن تسجد لهذا الرجل الذي دعوته «يا سيد». لم يسبقك إلى هذا السجود، إلا المجوس الذين سجدوا له في مهده. أما بعدك فيقتدي بك ملايين البشر على اختلاف أجناسهم .

ولكن كيف قبلَ المسيحُ هذا السجود؟ لم يبرح بعد من آذاننا صوته الرهيب لما طرد إبليس من أمامه قائلاً: «مكتوب: للرب إلهك تسجد، وإياه وحده تعبد .» ورسله حتى وملائكته يوقفون سجود الناس لهم، لأنه لا يجوز. فهل هم أصلح من المسيح، وأكثر غيرة منه على حقوق الله الذي وحده يحقُّ له السجود؟ ألا يضطرُّنا الأمر أن نرى في قبول المسيح لهذا السجود الذي قُدِّمَ له دليلاً كافياً أنه يعلم أن له حقوقاً إلهية؟

يدهشنا إيمان هذا الأبرص اليائس، ونحار في أمره - كيف تولد فيه هذا الإيمان؟.. كان لسان المصابين الذين لجأوا إلى المسيح: «إِنْ كُنْتَ تَسْتَطِيعُ شَيْئاً فَتَحْنَنْ عَلَيْنَا» (مرقس ٩: ٢٢) مع أن عليهم لم تكن بعيدة عن الرجاء كعلة هذا الرجل الذي قال: «يا سيد، إن أردتَ تقدر أن تطهرني». في هذه الكلمات أعلن إيمانه بأن المسيح قادر على هذا العمل الذي لا يقدر عليه إلا الله، لكنه لتواضعه لم يجسر أن يحكم هل يشاء المسيح أن يشفيه أو لا يشاء. ومع شدة حاجته احترم حرية إرادة المسيح، فاستحق أن يكرمه المسيح على ذلك وأن يلتفت إليه .

وبناءً على ما ظهر لم ير المسيحُ موجباً لامتحانه بتأجيل الاستجابة إلى حين كما امتحن غيره، بل لاشئ شكوكه حالاً بخصوص إرادته أن يشفيه، فالمسيح لا يؤجل دقيقة واحدة طلب من يريد الشفاء من خطاياه والخلاص بمغفرتها. يهتُّنا أن نلاحظ أن ما دفع المسيح لتطهير هذا الأبرص لم يكن لحاجته (لأنه لم يكن لجوجاً)، ولا حب الافتخار وطلب الشهرة، (لأن المسيح أوصاه أن يكتُم خبر شفائه). لكن المسيح شفاه لأنه تحنن، وإظهاراً لحنانه «مدَّ يده ولمسه» تقرُّباً منه .

نرى في لمس المسيح الأبرص أموراً هامة، فقد كافأه المسيح على إيمانه العجيب، إذ طيَّب قلبه باقتربه ولمسه، بعد سني نفيه واجتتاب الجميع (حتى أهله له)، وبعد عذاباته المتنوعة من هذا المرض الشنيع. لقد اقترب المسيح من الأبرص ولمسه ليلخِّص عمله الفدائي، الذي استوجب أن يرسل الله ابنه في شبه جسد الخطيئة، ويجعل «الَّذِي لَمْ يَعْرِفْ خَطِيئَةً، خَطِيئَةً لِأَجْلِنَا، لِنَصِيرَ نَحْنُ بِرَّ اللَّهِ فِيهِ» (٢ كورنثوس ٥: ٢١).

وفي لمس المسيح للأبرص أعلن أن الله محبة، وأنه يضع المحبة قبل الطقوس، فقد قال: «إِنِّي أُرِيدُ رَحْمَةً لَا ذَبِيحَةً» (متى ١٢: ٧) فأبهج هذا الأبرص المسكين بلمسة منه، ثم زاده ابتهاجاً وملاً قلبه وفمه شكراً لما أزال شكوكه بخصوص إرادته أن يشفيه بقوله: «أريد فاطهر». هاتان الكلمتان صيرتا الأبرص إنساناً جديداً في الخارج وفي الداخل .

رأى المسيح أن في انتشار خبر شفاء الأبرص ضرراً، وأن الرجل متحمّس ابتهاجاً وراغباً في نشره، فأوصاه: «لا تقل لأحد شيئاً». لئلا يقول الناس إن المسيح قد تنجس بلمسه الأبرص، وهذا الخبر إن شاع يعطّل عمله كثيراً. والسبب الآخر هو قصد المسيح أن لا يزيد الازدحام الذي يقف في وجه عمله الأهم وهو الكرازة والتعليم. ويقول القديس يوحنا فم الذهب إن المسيح قصد أن يحضّ الذين شفاهم على التأمل بسكوت ووقار في مراحم الله الفائقة نحوهم، وأن يحميمهم من الكبرياء إذا أدهشوا الكثيرين بما حدث لهم، وحصلوا بذلك على شهرة .

من الواجب على هذا الرجل اليهودي أن يخضع دون تردد للنظام الموسوي. فآلح عليه المسيح أن يسرع بالذهاب إلى الكهنة في أورشليم، ليحصل على الشهادة التي تعلن براءته، وتعيد له كامل حقوقه بين شعبه. ومع أن هذا الأمر ليس سهلاً ولا بسيطاً فقد كان لا بد منه. وربما لم يرد المسيح من الرجل أن يعلن عن شفائه المعجزي لئلا يحرّمه كهنة أورشليم من الحصول على وثيقة الشفاء، بسبب كرههم للمسيح فقال له: «اذهب أر نفسك للكاهن .»

وقد سبّب عصيانُ هذا الأبرص لأمر المسيح انزعاجاً، لأنه سبّب ازدياد الازدحام. قال البشير: «خرج وابتدأ ينادي كثيراً ويذيع الخبر. فاجتمع جموع كثيرة حتى لم يعد المسيح يقدر أن يدخل مدينة ظاهراً، بل كان خارجاً في مواضع خالية يعتزل في البراري ويصلي» (لوقا ١٦: ٥).

لقد عصى هذا الرجل أمر المسيح له بالسكوت، بعد أن نال الشفاء، وكان الواجب أن يخضع. إن كنت قد نلت شفاءك من مرض الخطيئة بنعمة المسيح، فاعمل على أن تكون المؤمن الخاضع الممتثل لأمر المسيح .

معجزتان في كفر ناحوم

معجزة صيد السمك

«وَإِذْ كَانَ الْجَمْعُ يَزْدَجُمُ عَلَيْهِ لِيَسْمَعَ كَلِمَةَ اللَّهِ، كَانَ وَاقِفًا عِنْدَ بُحَيْرَةِ جَنِّيَسَارَتَ. فَرَأَى سَفِينَتَيْنِ وَاقِفَتَيْنِ عِنْدَ الْبُحَيْرَةِ، وَالصَّيَّادُونَ قَدْ خَرَجُوا مِنْهُمَا وَغَسَلُوا الشَّبَاكَ. فَدَخَلَ إِحْدَى السَّفِينَتَيْنِ الَّتِي كَانَتْ لِسِمْعَانَ، وَسَأَلَهُ أَنْ يُبْعِدَ قَلِيلًا عَنِ الْبَرِّ. ثُمَّ جَلَسَ وَصَارَ يُعَلِّمُ الْجُمُوعَ مِنَ السَّفِينَةِ. وَلَمَّا فَرَغَ مِنَ الْكَلَامِ قَالَ لِسِمْعَانَ: «ابْعُدْ إِلَى الْعُمُقِ وَأَلْقُوا شَبَاكَكُمْ لِلصَّيْدِ». فَأَجَابَ سِمْعَانُ: «يَا مُعَلِّمُ، قَدْ تَعَبْنَا اللَّيْلَ كُلَّهُ وَلَمْ نَأْخُذْ شَيْئًا. وَلَكِنْ عَلَى كَلِمَتِكَ أُلْقِي الشَّبَاكَ». وَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ أَمْسَكُوا سَمَكًا كَثِيرًا جِدًّا، فَصَارَتْ شَبَكَتُهُمْ تَنْحَرِّقُ. فَأَشَارُوا إِلَى شُرَكَائِهِمُ الَّذِينَ فِي السَّفِينَةِ الْأُخْرَى أَنْ يَأْتُوا وَيُسَاعِدُوهُمْ. فَأَتُوا وَمَلَأُوا السَّفِينَتَيْنِ حَتَّى أَخَذَتَا فِي الْغَرَقِ. فَلَمَّا رَأَى سِمْعَانُ بَطْرُسَ ذَلِكَ حَزَّ عِنْدَ رُكْبَتَيْ يَسُوعَ قَائِلًا: «اخْرُجْ مِنْ سَفِينَتِي يَا رَبُّ، لِأَتِي رَجُلٌ خَاطِيٌّ». إِذْ اعْتَرَتْهُ وَجَمِيعَ الَّذِينَ مَعَهُ دَهْشَةٌ عَلَى صَيْدِ السَّمَكِ الَّذِي أَخَذُوهُ. وَكَذَلِكَ أَيْضًا يَعْقُوبُ وَيُوحَنَّا ابْنَا زَبْدِي اللَّذَانِ كَانَا شَرِيكِي سِمْعَانَ. فَقَالَ يَسُوعُ لِسِمْعَانَ: «لَا تَخَفْ! مِنَ الْآنَ تَكُونُ تَصْطَادُ النَّاسِ!» وَلَمَّا جَاءُوا بِالسَّفِينَتَيْنِ إِلَى الْبَرِّ تَرَكَوا كُلَّ شَيْءٍ وَتَبِعُوهُ) «لوقا ٥: ١-١١».

في إحدى الليالي التي قضاها بطرس ويعقوب ويوحنا، وربما أندراوس أيضاً في الصيد، لم ينالوا إلا الفشل، فرجعوا صباحاً إلى الشاطئ خائبين وأرسوا سفينتهم، ثم غسلوا الشباك حسب عادتهم، وما لبثوا إلا قليلاً حتى حصل ازدحام حول معلمهم عند الشاطئ، لأن جمهوراً من الناس جاءوا ليسمعوا كلمة الله. وبعد أن ألقى المسيح عظته، أمر تلميذه بطرس أن يبعد إلى العمق ويجدد الصيد. وكان هذا صعباً على بطرس، لأنه غسل الشباك وأعدّها للصيد في الليلة التالية. فإن طرحها مرة أخرى دون أن يفلح، يتحمّل تعباً لا فائدة منه. ثم بما أنه صياد ماهر، والمسيح نجار، فتقيل على صياد أن يأخذ تعليمات للصيد من نجار، فالمعروف أن يكون الصيد ليلاً، ولَمَّا يُرْجَى خير من صيد النهار. وقد أكد اختبار بطرس في الليل الفائت أن الأسماك غير موجودة الآن في تلك البقعة. لذلك اعترض أولاً، ثم عاد فامتثل لأمر المسيح. فحصل حالاً على جزاء طاعته وتسليمه، فقد امتلأت سفينته وسفينة ابني زبدي بالسمك حتى أخذتا في الغرق. فاعترتهم دهشة لهذا الأمر العجيب. أما بطرس فلشدة انفعاله، سجد عند ركبتي سيده وقال: «اخرج من سفينتي يا رب لأنني رجل خاطي». نتصوره مدفوعاً إلى هذا الطلب الغريب لخلجه بسبب اعتراضه أولاً، ومن ارتعابه لوجود شخص في سفينته قادر أن يعرف جميع سيئاته ويجازيه عليها، كما دفعه

أيضاً التواضع ليحسب سفينته حقيرة عن أن تتشرف بشخص مثل المسيح. يرتعب الخاطي دائماً من رؤية القدوس. فلما رأى بطرس شيئاً جديداً من أمجاد المسيح القدوس ارتعب. لكن المسيح لم يوبخه على طلبه الغريب هذا، لأن طلبه كان مشفوعاً بسبب شريف جداً، وهو الشعور بالخطأ. فلم يكن بطرس يعرف المسيح بعد كما هو، وظن أنه يريد الابتعاد عن الخطاة. وإبليس عادة يزرع مثل هذا الوهم في عقول الخطاة ليحرمهم من الإقبال على المسيح.

لكن المسيح بحكمته ومحبته رفض طلب بطرس، وهذه خطته دائماً عندما يطلب منه المؤمنون في صلاتهم أموراً ليست للخير. فاستجاب طلب بطرس بعكسه، لأن بطرس طلب أن يبتعد المسيح عنه، فاقترب المسيح منه أكثر، لأنه نظر إلى الصواب في قلب بطرس، لا إلى الخطأ في كلامه، وطمأنه حالاً بقوله: «لا تخف». وأكد له تعيينه ليصيد الناس. وهذا شرف أعظم كثيراً من مهنته السابقة. وهذه هي المهنة التي يريد لها المسيح لكل فرد من تابعيه حسب قدرته واختلاف أحواله.

ولما جاءوا بالسفينتين إلى البر، ترك التلاميذ الأربعة كل شيء وتبعوه.

معجزة شفاء مشلول

«ثُمَّ دَخَلَ كَفَرَنَاحُومَ أَيْضاً بَعْدَ أَيَّامٍ، فَسَمِعَ أَنَّهُ فِي بَيْتٍ. وَلِلْوَقْتِ اجْتَمَعَ كَثِيرُونَ حَتَّى لَمْ يَعْذُ يَسْعُ وَلَا مَا حَوْلَ الْبَابِ. فَكَانَ يُخَاطِبُهُمْ بِالْكَلِمَةِ. وَجَاءُوا إِلَيْهِ مُقَدِّمِينَ مَقْلُوجاً يَحْمِلُهُ أَرْبَعَةٌ. وَإِذْ لَمْ يَقْدِرُوا أَنْ يَقْتَرِبُوا إِلَيْهِ مِنْ أَجْلِ الْجَمْعِ، كَشَفُوا السَّقْفَ حَيْثُ كَانَ. وَبَعْدَ مَا نَقَبُوهُ دَلُّوا السَّرِيرَ الَّذِي كَانَ الْمَقْلُوجُ مُضْطَجِعاً عَلَيْهِ. فَلَمَّا رَأَى يَسُوعُ إِيْمَانَهُمْ، قَالَ لِلْمَقْلُوجِ: «يَا بُنَيَّ، مَغْفُورَةٌ لَكَ خَطَايَاكَ». وَكَانَ قَوْمٌ مِنَ الْكُتَّابَةِ هُنَاكَ جَالِسِينَ يُفَكِّرُونَ فِي قُلُوبِهِمْ: «لِمَاذَا يَتَكَلَّمُ هَذَا هَكَذَا بِتَجَادِيفٍ؟ مَنْ يَقْدِرُ أَنْ يَغْفِرَ خَطَايَا إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ؟» فَلِلْوَقْتِ شَعَرَ يَسُوعُ بِرُوحِهِ أَنَّهُمْ يُفَكِّرُونَ هَكَذَا فِي أَنْفُسِهِمْ، فَقَالَ لَهُمْ: «لِمَاذَا تُفَكِّرُونَ بِهِذَا فِي قُلُوبِكُمْ؟ أَيَّمَا أَيْسَرُ: أَنْ يُقَالَ لِلْمَقْلُوجِ مَغْفُورَةٌ لَكَ خَطَايَاكَ، أَمْ أَنْ يُقَالَ: قُمْ وَاحْمِلْ سَرِيرَكَ وَامْشِ؟ وَلَكِنْ لِكَيْ تَعْلَمُوا أَنَّ لِبْنِ الْإِنْسَانِ سُلْطَانًا عَلَى الْأَرْضِ أَنْ يَغْفِرَ الْخَطَايَا - «قَالَ لِلْمَقْلُوجِ: «لَكَ أَقُولُ قُمْ وَاحْمِلْ سَرِيرَكَ وَادْهَبْ إِلَى بَيْتِكَ». فَقَامَ لِلْوَقْتِ وَحَمَلَ السَّرِيرَ وَخَرَجَ قُدَّامَ الْكُلِّ، حَتَّى بُهِتَ الْجَمِيعُ وَمَجَّدُوا اللَّهَ قَائِلِينَ: «مَا رَأَيْنَا مِثْلَ هَذَا قَطُّ!» (مرقس ١: ٢٠-١٢).

بعد هذا عاد المسيح من شاطئ البحر ودخل بيتاً وصار يعلم، كما علم سابقاً في الهيكل، وعلى البئر، وفي المجمع، وعلى ظهر السفينة، فكثر الازدحام حوله حتى لم يعد يسع ولا ما حول الباب، وكان يخاطبهم بالكلمة. وحضر بين هذا الجمع الغفير فريسيون ومعلمون للناموس من مدن وقرى عديدة في مقاطعتي اليهودية والجليل حتى ومن أورشليم، ليسمعوا

كلامه ويروا معجزاته. فنتصورهم جالسين في مقام الإكرام بجانب المعلم الشهير الذي أتوا إليه، لأن قوة الرب كانت لشفائهم .

ثم شعر الجمع بحركة غير اعتيادية أحدثها أربعة رجال يحملون مشلولاً على فراش يطلبون أن يصلوا إلى المسيح فلم يقدرُوا، لأن كثيرين كانوا قد أتوا قبلهم، ينتظرون فرصة ليصلوا إلى هذا الطبيب العجيب لينالوا الشفاء لهم أو لذويهم، فاستنبط حاملو المفلوج طريقة غريبة للوصول بمريضهم إلى المسيح، فقد استدلُّوا على مكان جلوس المسيح في البيت، ونقبوا السقف فوق رأسه ودلُّوا الفراش من بين الأجرِّ إلى الوسط قدامه. فبنا له من منظر مدهش يستلفت أبصار الجمع الغفير ويشغل أحاديثهم، ولا سيما هؤلاء الغرباء الأكابر! أمام المسيح وأمامهم الآن فراش نزل بينهم يحمل مشلولاً أخرسه الشلل دون أن يمسَّ سمعه. لا صوت ولا حركة ولا مطالب إلى حالته المحزنة .

انفرد المسيح عن سائر المعلمين في اهتمامه بأحوال الناس الداخلية قبل الخارجية. ولما كان يعلم الخفايا والأسرار، كان يمكنه أن يوفِّق كلامه وأعماله لمقتضيات هذه الأحوال الداخلية، فابتدأ مع هذا العليل بالشفاء الداخلي. إذ قال له: «ثق يا بني، مغفورة لك خطاياك» نستنتج من هذا أنه رأى في قلب هذا الشاب توبة عن خطايا كان يحسب مرضه بالشلل قصاصاً لها. فكان مهتماً غاية الاهتمام بغفرانها مع اهتمامه بالشفاء الجسدي. نتصوره من جملة الذين سمعوا تعليم المسيح سابقاً واستفادوا منه. فعند هذه المصيبة الكبيرة، تعلَّق قلبه بهذا المعلم أملاً بخلاص روحي وجسدي معاً .

وكان الإيمان القوي الذي أظهره حاملوه الأربعة سبباً عظيماً جعل المسيح يساعده، إذ نابوا بذلك عن المفلوج الذي منعه خرسه عن إعلان ما في قلبه من التوبة والإيمان، فامتلاً المفلوج، وهو بعد تحت سلطة الشلل، تعزية وفرحاً روحياً حالما سمع كلمة المسيح أن خطاياه مغفورة. فكانت نتيجة مصيبتة العظيمة أنها أتت به إلى المسيح الذي خلصه من المصيبة الأعظم جداً، أي حمل خطاياه .

يؤيد صحة كلامنا هذا أن المسيح لا يعلن الغفران إلا لمن هو أهلٌ له بسبب شعوره الروحي. ولا بد أن هذا المفلوج رثم في قلبه مع داود النبي: «طُوبَى لِلَّذِي غُفِرَ إِثْمُهُ وَسُتِّرَتْ خَطِيئَتُهُ. طُوبَى لِرَجُلٍ لَا يَحْسِبُ لَهُ الرَّبُّ خَطِيئَةً» (مزمور ٣٢: ١ و٢). طوبى له لأن الله يرافق غفرانه بسائر بركاته، وليس كالذي تبرَّئه المحاكم الدينية، فإن الله يعطي مع غفرانه مواعيد لا تُفَدَّر بثمن، ونعمةً فائضة، ثم المجد الأبدي .

أثبت المسيح حقَّه في منح الغفران، فأثبت لنفسه مقاماً فوق سائر البشر. وقد أثر هذا كثيراً في الذين رأوا وسمعوا ما حدث، فلم يئنس بطرس فيما بعد عمل المسيح الغفراني، إذ نسمعه

يصرّح أمام المجمع الكبير الذي اجتمع في أورشليم ليحاكمه بقوله: «هَذَا رَفَعَهُ اللَّهُ بِيَمِينِهِ رَئِيساً وَمُخْلِصاً، لِيُعْطِيَ إِسْرَائِيلَ التَّوْبَةَ وَغُفْرَانَ الْخَطَايَا» (أعمال ٥: ٣١).

كان شفاء هذا الرجل جسدياً يشبه شفاءه الروحي، في أن حَمْلَ السرير لم يكن شرطاً سابقاً لنيل الشفاء، بل نتيجة له. وليس الصلاح شرطاً سابقاً لنوال الغفران بل هو نتيجة للغفران المجاني وثمره .

وكان يشبهه أيضاً في أن شفاء النفس مُنح حالاً. وليس غفران الخطايا وعداً بأمر مؤجل، يحصل عليه الخاطئ عند موته أو بعده، أو بعد أن يظهر استحقاقه، لأن الله يعطي الغفران حالاً عند الطلب المخلص القلبي الحار من إنسان يفهم ماذا يطلب. يستطيع المخلص أن يفعل ذلك حالاً لأنه يعلم نيّة الإنسان الداخلية، فلا يحتاج كما يحتاج البشر إلى وقت ليتأكد من استعداد الخاطئ للغفران .

وكان يشبهه كذلك في أن المسيح لم يمنح المفلوج جزءاً فقط من الصحة، ثم يتركه ليسترجع العافية تدريجياً، ويطلب من الأربعة الذين أتوا به أن يحملوا له الفراش ليعود إلى بيته من حيث أتوا. لكنه أعطاه صحة كاملة، وأعطاه أيضاً غفراناً كاملاً لجميع خطاياهم دفعة واحدة. فكل ما يفعله المسيح يعمل كاملاً. لو بقي أقل شيء من الخطيئة بدون غفران لهلكت نفس الرجل، كما لو بقيت الخطيئة كلها. تماماً كما لا يمكن لصاحب سفينة اخترقتها ثقب عديدة أن يصلح بعضها ويترك ولو واحداً منها، لأن ثقباً واحداً يُغرق السفينة نظير المئة. ولذلك يغفر الله غفراناً كاملاً ..

أما الرؤساء الزائرون الجالسون مع المسيح فلم يعترفوا له إلا بالحقوق التي لمعلم بشري، وليس بينها حق مغفرة الخطايا. فاعتبروا المسيح مجدفاً لأنه أخذ لنفسه حقوقاً إلهية، ولذلك حكموا في أفكارهم على المسيح أنه مجدف، وعليه يكون أشر الناس، ويستحق عقاب الرجم حسب شريعتهم .

اهتم المسيح أن يقدم لهم براهين أنه أكثر من معلم بشري، وإذ ذاك لا يكون منحه الغفران تجديفاً. وأول برهان قدمه على ذلك أنه أعلن لهم ما هي أفكارهم التي لم يظهروها لأحد. وبذلك أتم نبوة إشعياء عنه «وَيَجِلُّ عَلَيْهِ رُوحُ الرَّبِّ، رُوحُ الْحِكْمَةِ وَالْفَهْمِ... فَلَا يَقْضِي بِحَسَبِ نَظَرِ عَيْنَيْهِ، وَلَا يَحْكُمُ بِحَسَبِ سَمْعِ أُذُنَيْهِ» (إشعياء ١١: ٢ و ٣).

ثم أشار المسيح إلى برهان آخر تكلم عنه لكي يتأملوا فيه قبل أن يقدمه لهم فعلاً، أي القوة لشفاء هذا المفلوج، لأن الفالج متى رسخ وطال يكون غير قابل للشفاء. لكن إن شُفي وظهرت النتيجة حالاً، لا يقدر إنسان أن يتهم المسيح بالكذب. لذلك قال للمفلوج: «قم احمل سريرك وامش». أما القول: «مغفورة لك خطاياك» فمن السهل أن يقوله أي كذاب شاء،

لأنه لا توجد واسطة ظاهرة لتكذيبه، ولهذا السبب يكون القول: «مغفورة لك خطاياك» أسهل من القول: «قم احمل سريرك وامش». فالذي يأمر بالشفاء وَيَصْنُقُ فيه، لا يمكن أن يقول بغفران الخطية إلا صدقاً. كان هذا دفاع المسيح عن نفسه، فأظهر لهم أن سلطانه على غفران الخطايا هو حقّه على الأرض كابن الإنسان، لأنه ابن الله أيضاً. ثم ليثبت قوله بفعله قال للمفلوج: «قم احمل سريرك واذهب إلى بيتك.»

وحالاً قام المفلوج صحيحاً، فالذين لم يفسحوا لحامله الطريق في دخوله، تسابقوا الآن للتفسيح في خروجه. والسريّر الذي حمله وهو داخل، وكان دليل سقمه، صار يحمله وهو خارج دليل شفائه التام. فما أقوى العبارة التي وُضعت لبيان شفائه: في الحال قام أمامهم، وحمل ما كان مضطجعا عليه، وخرج قدام الكل، ومضى إلى بيته وهو يمجّد الله.

المسيح يدعو متى

«ثُمَّ خَرَجَ أَيْضاً إِلَى الْبَحْرِ، وَاتَى إِلَيْهِ كُلُّ الْجَمْعِ فَعَلَّمَهُمْ. وَفِيمَا هُوَ مُجْتَازٌ رَأَى لَأوِي بْنَ حَلْفَى جَالِساً عِنْدَ مَكَانِ الْجَبَايَةِ، فَقَالَ لَهُ: «اتَّبَعْنِي». فَقَامَ وَتَبِعَهُ. وَفِيمَا هُوَ مُنْكَئٌ فِي بَيْتِهِ كَانَ كَثِيرُونَ مِنَ الْعَشَّارِينَ وَالْخُطَاةِ يَتَكَيُّونَ مَعَ يَسُوعَ وَتَلَامِيذِهِ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا كَثِيرِينَ وَتَبِعُوهُ. وَأَمَّا الْكَتَبَةُ وَالْفَرِّيسِيُّونَ فَلَمَّا رَأَوْهُ يَأْكُلُ مَعَ الْعَشَّارِينَ وَالْخُطَاةِ، قَالُوا لِتَلَامِيذِهِ: «مَا بَالُهُ يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ مَعَ الْعَشَّارِينَ وَالْخُطَاةِ؟» فَلَمَّا سَمِعَ يَسُوعُ قَالَ لَهُمْ: «لَا يَحْتَاجُ الْأَصِحَّاءُ إِلَى طَبِيبٍ بَلِ الْمَرْضَى. لَمْ آتِ لِأَدْعُو أَبْرَاراً بَلْ خُطَاةً إِلَى التَّوْبَةِ» (مرقس ١٣: ١٢-١٧).

يوجه إليك السيد المسيح الآن دعوة لتتبعه.. تماماً كما سبق أن وجّه الدعوة لأحد جُباة الضرائب واسمه «متى». لما وصل المسيح إلى محل الجباية حيث يحصل مأمور الحكومة الرومانية الضرائب على البضاعة المنقولة من بلاد إلى بلاد، وقف مقابل أحد هؤلاء الرجال، وبعد السلام ناداه: «اتبعني.»

لم يكن باطن هذا الأمر بسيطاً كظاهره، لأنه كان في ظروف هذا المدعو الجديد ما ينفر منه جميع الذين مع المسيح. ومع أنه ابن بلدهم كفر ناحوم، واسمه متى أي «عطية الله». واسمه العبراني لاوي يعلن أنه من العائلة الكهنوتية الشريفة. ومع أنه من أصحاب المعارف، ومن أهل اليسر المالي، لكنه كان من جباة الضرائب المرذولين المحتقرين. وهذا يكفي لاشمئزاز كل محب، ولشماتة كل مبغضي المسيح، إن لبّى متى العشار دعوة المسيح وانضم إلى تلاميذه.

لنا في دعوة المسيح لمتى شاهد جديد على عظمة المسيح المبنية على استقلاله عن الآراء السائدة عند الجميع في أيامه. وهذا الشاهد يتفق اتفاقاً جميلاً مع القول بلاهوته، لأن البشر يُجَارون المجتمع في أفكارهم. ألم يقل الرب لشعبه: «أَفْكَارِي لَيْسَتْ أَفْكَارَكُمْ، وَلَا طُرُقُكُمْ طُرُقِي يَقُولُ الرَّبُّ» (إشعياء ٥٥: ٨). فمخالفة أفكار المسيح ومبادئه لأفكار معاصريه ومبادئهم، دليل على أنه ليس من الأرض، فقد كان الرؤساء والمتقدمون بين اليهود يكرهون جابي الضرائب ويحرمونه من الحقوق المدنية، ولا يقبلون شهادته في المحاكم، وكانوا يعتبرونه من المرابين والمقامرين واللصوص والقتلة والزناة والوثنيين، فلا يطلبون منه إحساناً، ولا يخالطونه خصوصاً وقت الطعام، وكانوا يشبهون العشارين بين سكان المدن بالوحوش الضارية بين الحيوانات. فنتيجة لهذا حدث أن الذين لدناءتهم كانوا يقبلون هذه

الوظيفة ازدادوا بفعلها دناءة شيئاً فشيئاً، حتى صار تحقيرهم حكماً عادلاً إلا في ما ندر. كيف إذا يدعو المسيح عشاراً ليكون تلميذاً ملازماً ثم رسولاً عنده؟

لم يكن ممكناً أن يكون المسيح مثل الرؤساء والمتدينين في إغضائهم عن العدد الكبير من اليهود الذين دخلوا بالاختيار وبالتسلسل في صفّ العشارين. لا بل إن روح المروءة جعلت المسيح يمنح هؤلاء المحقرين التفاتاً خاصاً.. وهذا ما فعله لما دعا متى العشار ليتبعه.

رأى المسيح زلات معلمي الدين تفوق كثيراً زلات العشارين في الجسامة وفي استحقاقها الدينونة، فصرّح مراراً وجهاً بهذا الحكم العادل. ولو أدرك الفريسيون هذا، لسلموا من دينونته المخيفة، فإن الخطاة الذين يشعرون بخطاياهم ويعترفون بها له، هم أقرب إلى ملكوت الله من المتظاهرين رياءً بالتدين، لذلك تنسّم المسيح الخير الأعظم من العشارين المرفوضين.

أدرك المسيح شخصاً من الطبقة السفلى، لما بشر السامرية وقادها إلى التوبة والإيمان، وها هو يدعو متى ليُدخله إلى ملكوته الروحي. فأوضح أن رداة العشارين هي حُجَّتُهم لينالوا منه التفاتاً ممتازاً، لأنه كطبيب لا يطلب الأصحاء بل المرضى. ومخلص الفريسيين هو أيضاً مخلص العشارين، حتى أنه قال مرة لرؤساء الكهنة وشيوخ الشعب: «الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ إِنَّ الْعَشَّارِينَ وَالزَّوَانِيَ يَسْبِقُونَكُمْ إِلَى مَلَكُوتِ اللَّهِ، لِأَنَّ يُوْحَنَّا جَاءَكُمْ فِي طَرِيقِ الْحَقِّ فَلَمْ تُؤْمِنُوا بِهِ، وَأَمَّا الْعَشَّارُونَ وَالزَّوَانِيَ فَأَمَّنُوا بِهِ» (متى ٢١: ٣١، ٣٢). بهذا الكلام أظهر المسيح أن نصيب المعمدان كان نصيبه هو أيضاً، إذ رفضه الرؤساء غير التائبين، بينما تمسك به الأشرار التائبون.

لا نظن أن هذه بداءة معرفة متى بن حلفى للمسيح. نرجّح أنه كان قد سمع وعظه تكررًا ومال إلى تعاليمه، وأنه رأى معجزاته وآمن به إيماناً بسيطاً نظير كثيرين غيره. ونعتقد أنه ابتداء يكره وظيفته الدنيئة ويشتهي أن يتركها. وأن المسيح نظر إلى هذا الاستعداد السابق، فعرف متى أهلاً لهذه الدعوة، فدعاه حتى ترك كل شيء وقام وتبعه حتى الآن، وظهر عمل النعمة فيه، فتحولت ميوله عن حب المال إلى حب التضحية بالمال بل وبكل شيء، لأجل المسيح.

لم يكتف متى بترك وظيفته وأرباحها لأجل المسيح، بل أضاف على ذلك أنه صنع ضيافةً في بيته للمسيح، دعا إليها معه زملاءه العشارين والخطاة، لأن غيرهم لا يلبّون دعوة عشار. لا بد أنه قصد بذلك أن يفتح الباب لهم ليستنبروا كما استنار هو، وهذا دأب كل مستنير. ومتى هو الوحيد بين الرسل الذي ذُكر له عمل كهذا، أظهر به امتنانه الزائد للمسيح الذي تنازل ودعاه ليكون تلميذاً ملازماً له بعد أن خلّصه من ورطة الآثام. قدّر متى هذه الدعوة حقّ قدرها، فإن الخسارة التي تحمّلها في تركه كل شيء، لا تُقاس بما ربحه

عوضاً عن تلك الخسارة. فضلاً عن الكرامة التي منحها الله له على مرّ السنين، إذ صارت بشارته فاتحة الإنجيل وخُلِدَ اسمه فوق أسماء معاصريه من ملوك وعلماء وأغنياء، وريح بواسطة إنجيله نفوساً بلا عدد، كان هو هاديتهم إلى الملكوت السماوي. هذا وكل من يترك منكرات هذا العالم، حتى وخيراته وملاذاته، لأجل اتّباع هذا المعلم السماوي وخدمته، لا بد أن ينال ربهاً جزيلاً .

أظهر متى صدق تقواه الجديدة في أنه بدأ يفكر في ماذا يعطي، لا ماذا يأخذ. نرى البعض يميلون إلى اعتبار ذواتهم متفضّلين على الكنيسة في انضمامهم إليها، ويطلبون مقابل ذلك منافع زمنية، يماثلون بطرس الذي في إحدى سقطاته الكثيرة سأل المسيح: «هَآ تَحْنُ قَدْ تَرَكْنَا كُلَّ شَيْءٍ وَتَبِعْنَاكَ. فَمَاذَا يَكُونُ لَنَا؟» (متى ١٩: ٢٧). بينما يجب أن يعتبروا الكنيسة مفضّلة عليهم بقبولها لهم، ويقدمون للكنيسة قسماً مهماً من خيراتهم الزمنية إظهاراً لشكرهم .

يذكر متى في بشارته دعوة المسيح له، لكنه أظهر تواضعه بعدم ذكره أنه ترك كل شيء وتبعه، وأنه صنع ضيافة كبيرة له. لوقا فقط يخبر بذلك. ثم بينما مرقس في قائمة الرسل، ولوقا في قائمته، يتحقّظان ولا يسمّيان «متى العشار»، يطلق هو قائمته هذا اللقب على نفسه، فيعطي نفسه الاسم المحترق، كأنه يتعمّد أن ينسب الفخر للمسيح الذي تنازل وضمّ عشاراً إلى رسله .

يقول المثل الدارج في كل لغات الشرق والغرب «إن الطيور على أشكالها تقع». وقد نظر الفريسون إلى المسيح بعين الاحتقار، لاختياره مخالطة الأدياء ومجالسهم ومؤاكلتهم. لكن هذا المثل يصحّ فقط في من يتلذذ بمعاشرة الأشرار، لارتباطه معهم في المبادئ. ومثل هذا لا حقّ له أن يتستّر وراء قدوة المسيح الذي عاشر الخطاة المختلفين عن ميوله ومبادئه، ليغيّرهم ويهديهم إلى النور السماوي .

قبل المسيح دعوة متى للضيافة في بيته، وبذلك هدم جداراً فاصلاً بين رتب الناس وطبقاتهم، وأعلن بأن الله لا يفضل أحداً على أحد «بَلْ فِي كُلِّ أُمَّةٍ الَّذِي يَتَّقِيهِ وَيَصْنَعُ الْبِرَّ مَقْبُولٌ عِنْدَهُ» (أعمال ١٠: ٣٥). وكان مبدأ المساواة في الحقوق والكرامة عند الله بين غني وفقير، وعالم وبسيط وملك وعبد، غير معروف في ذلك الزمان، بل صرّح به المسيح أولاً، وأورثه للعالم أثمن كنز .

من يمعن النظر في هذا الاجتماع الغريب يرى طرفي النقيض في بيت متى . على الجانب الواحد نرى المسيح الذي سُمّي «القدوس» (مرقس ١: ٢٤). وهو الكامل الذي يكره حتى أقل درجات الدنس والشر والخطيئة على أنواعها كرهاً لا يوصف. ثم الجانب الآخر نرى

زمرة العشارين والخطاة. فكيف يمتزج الفريقان؟ لنا الجواب في كلام المسيح الذي قاله بمناسبة هذه الضيافة، فإنه قد جاء ليدعو الخطاة للتوبة .

تذمر الكتبة والفريسيون لأن المسيح قبل دعوة متى واشترك في وليمته . لا مانع عندهم من أن يجلس عشارون على مائدة عشار، لكنهم عيَّروا المسيح على ذلك واشمأزوا من امتزاجه مع هذا الجمهور المحتقر .

لما شفى المسيح المفلوج في بيت آخر في هذه المدينة، بكَّتهم المسيح وأبكمهم على اعتراضهم الفكري، لذلك لم يجسروا أن يعلنوا أفكارهم ويهاجموه باعتراضاتهم الآن، خوفاً من ربه عليهم رداً أقوى من الرد الأول، فصوَّبوا هجومهم ضد التلاميذ وقالوا لهم: «ما بال معلمكم يأكل ويشرب مع العشارين والخطاة؟». ثم «لماذا أنتم تأكلون وتشربون مع العشارين والخطاة؟».

لم يصبر المسيح على تلاميذه ليجابوا، بل أسرع هو بالجواب، فلم يكن التلاميذ مستعدين بعد ليقدموا جواباً كافياً في أمر عظيم الأهمية كهذا، لأنه يتعلق بقصد المسيح الرئيسي في تركه السماء وظهوره متأنساً في العالم. ففي جوابه أعلن وظيفته الروحية التي كانت أعماله الظاهرة رمزاً وإيضاحاً لها. كان يشفي الأجسام ليوضح للناس أنه طبيب الأنفس. فكما أنهم رأوا اهتمامه بالسُّقماء في معجزات الشفاء، وَجَبَ أن يعرفوا اهتمامه بالخطاة لأجل شفاء أنفسهم من الخطيئة. في هذا الكلام يعلن لأول مرة أنه هو طبيب الأرواح. فكما يعلمون أن الطبيب لا يقدم خدمته للأصحاء بل للمرضى، يجب أن يعلموا أيضاً أن المخلص يقدم خدمته للخطاة وليس للأبرار. لا يعالج طبيب سقيماً يدَّعي السلامة من المرض، وكذلك لا يخلص المخلص خاطئاً يدَّعي السلامة من الخطيئة. وهذا ما كان يدَّعيه هؤلاء المتدينون ظاهراً، والمفتخرون بأنهم معلِّمو الدين. لو كانوا حقاً أبراراً كما يدَّعون، لفرحوا بأن يروا من المسيح اهتماماً بالضالين ليهديهم إلى الصراط المستقيم، ولكانوا يدركون أن امتزاج الطبيب مع السُّقماء فخر له لا عيب، وليس فيه دليل على أن الطبيب مثل مريضه، أو شريكه في السقام .

أظهر المسيح بقوله: «لم آت لأدعو أبراراً بل خطاة إلى التوبة» أهمية التوبة .

وما هي هذه التوبة التي يدعو إليها؟ أولاً: هي شعور الإنسان بفضاعة الخطيئة وبأنه خاطئ. ثانياً: الأسف الشديد على ما مضى من خطاياهم. ثالثاً: العزم الحقيقي بتركها في المستقبل. رابعاً: الالتجاء إلى مانح الغفران الإلهي في روح التوبة، والاستعانة بنعمته للثبات فيها

شفاء مريض بركة بيت حسدا

«وَبَعْدَ هَذَا كَانَ عِيدٌ لِلْيَهُودِ، فَصَعِدَ يَسُوعُ إِلَى أُورُشَلِيمَ. وَفِي أُورُشَلِيمَ عِنْدَ بَابِ الضَّانِ بَرَكَةٌ يُقَالُ لَهَا بِالْعِبْرَانِيَّةِ «بَيْتُ حَسَدَا» لَهَا خَمْسَةُ أَرْوَاقٍ. فِي هَذِهِ كَانَ مُضْطَجِعاً جُمْهُورٌ كَثِيرٌ مِنْ مَرْضَى وَعُمِي وَعُرْجٌ وَعُسَمٌ، يَتَوَقَّعُونَ تَحْرِيكَ الْمَاءِ. لِأَنَّ مَلَكَاً كَانَ يَنْزِلُ أحياناً فِي الْبَرَكَةِ وَيُحَرِّكُ الْمَاءَ. فَمَنْ نَزَلَ أَوَّلًا بَعْدَ تَحْرِيكِ الْمَاءِ كَانَ يَبْرَأُ مِنْ أَيِّ مَرَضٍ اعْتَرَاهُ. وَكَانَ هُنَاكَ إِنْسَانٌ بِهِ مَرَضٌ مُنْذُ ثَمَانٍ وَثَلَاثِينَ سَنَةً. هَذَا رَأَى يَسُوعَ مُضْطَجِعاً، وَعَلِمَ أَنَّ لَهُ زَمَاناً كَثِيراً، فَقَالَ لَهُ: «أَتُرِيدُ أَنْ تَبْرَأَ؟» أَجَابَهُ الْمَرِيضُ: «يَا سَيِّدُ، لَيْسَ لِي إِنْسَانٌ يُلْقِينِي فِي الْبَرَكَةِ مَتَى تَحَرَّكَ الْمَاءُ. بَلْ بَيْنَمَا أَنَا آتٍ يَنْزِلُ قُدَّامِي آخَرُ». قَالَ لَهُ يَسُوعُ: «قُمْ. احْمِلْ سَرِيرَكَ وَامْشِ». فَحَالاً بَرَأَ الْإِنْسَانُ وَحَمَلَ سَرِيرَهُ وَمَشَى. وَكَانَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ سَبْتُ» (يوحنا ٥: ٩-١).

يروى البشير يوحنا في الأصحاح الخامس من بشارته قصة شفاء رجل مريض منذ ٣٨ سنة، كان يقيم عند بركة اسمها بركة بيت حسدا، فيها نبعٌ فوار بجوار المدينة المقدسة، يفور فينسب الناس إلى مياهه الفائرة فاعلية شفائية. وقد تردّد الناس على هذه البركة بكثرة لينالوا الشفاء، مما دعا إلى بناء خمسة أروقة (عنابر) حول هذه البركة ليأوي إليها الذين يطلبون الاستفادة من هذه المياه عند فورانها .

جاء المسيح في يوم سبت إلى هذه الأروقة ورأى فيها جمهوراً كثيراً من مرضى وعمي وعُرْجٌ وَعُسَمٌ مضطجعين يتوقعون تحريك الماء. من بين هذا الجمهور التعييس المحزن اختار المسيح شخصاً واحداً متقدماً في السن ليشفيه، فيتبارك السبت المقدس بفعل الرحمة فيه. فلماذا اختار المسيح هذا المريض بالذات ليشفيه؟ هل لصعوبة أمره لكبر سنّه، ولمرور ثمان وثلاثين سنة على مرضه؟ لا شك أنه كان أطول المرضى إقامة عند البركة. نستنتج أيضاً أن المسيح رآه مناسباً ليمنحه الشفاء، لأنه علم أن مرضه هذا أتاح نتيجة آثام كان قد ارتكبها، فيسهل منحه شفاء روحياً أيضاً مع شفائه الجسدي. كما رأى فيه الشرط ليمدّ له يد المساعدة، وهو اليأس. إن لم ييأس الإنسان من أمره، وعلى الأخص من أمر خلاص نفسه، بدون المسيح، لا يمكن أن يمدّ له المسيح يد المساعدة أو يخلصه .

وقف المسيح عند هذا الرجل على فراشه، وتفرّس فيه، وسأله سؤالاً ظاهراً بسيطاً، يبيّن اهتمام هذا المعلم الغريب القادم من الجليل بخبر هذا العليل الذي يجهله. قال له: «أتريد أن تبرأ؟» كان يمكن أن يستخفّ هذا الرجل بهذا السؤال الفضولي من غريب، لكنه احترّم المسيح وكشف له أمره. لا بد أنه تأثر من هيئة المسيح، كما تأثر من صوته، فاحترمه وأجابه: «يا سيد، ليس لي إنسان يلقيني في البركة متى تحرك الماء، بل بينما أنا آتٍ، ينزل

قداامي آخر». علّق المسيح أمر الشفاء على إرادة هذا العليل. والمسيح يوقف دائماً وأبداً أمر خلاص النفس على إرادة الخاطئ.. يسأله: «أتريد أن تخلص؟» لقد أعلن الله صريحاً أنه هو يريد خلاص الجميع، ومع ذلك يبقى على الخاطئ أن يريد، وإلا فالخلاص لا يتم .

من جواب المقعد على سؤال المسيح نرى أن مرضه ثقيل لدرجة أنه في هذه السنين كلها لم يمكنه أن يسبق الآخرين في النزول من الرواق إلى البركة عند تحريك الماء. كما نرى أيضاً أنه وحيد، ليس له معين يقدم له هذه الخدمة الضرورية. لو عرف هذا المسكين أن المسيح قصده لأنه ليس إنسان، وأن افتقاره هذا هو حُجَّتُه عند المخلص، لتغيّرت لهجته من اليأس إلى الرجاء. ولا يزال هذا المخلص يطلب ويخلص من يشعر ويعترف أن ليس له إنسان آخر، كما قال صاحب المزامير: «لَا تَتَكَلَّمُوا عَلَى ابْنِ آدَمَ، حَيْثُ لَا خَلَاصَ عِنْدَهُ» (مزمور ١٤٦: ٣).

لكن وجود هذا المريض عند البركة في بيت حسدا يدلّ على أنه يطلب الشفاء. فلماذا يسأله المسيح «أتريد؟» والإجابة: كانت إرادة المريض قد صارت سقيمة كجسمه بسبب تكرار الفشل ومرور السنين. وكان لا بد من إنهاض قوة الإرادة لتتشارك مع قوة المسيح الشافي، فينفض المريض من خموله المعتاد. ويصدق هذا أيضاً على الخاطئ الذي يلزم فروض الدين الخارجية، فيظهر بذلك أنه من طالبي الخلاص من الخطيئة. لكنه يخشى أن يتكرر فشله في مقاومته للخطيئة بسبب سلطتها عليه، سنوات طويلة بدون تغيير فيصيب الخمول إرادته، ويفتر في طلب الخلاص من الخطيئة. لذلك سأله المسيح: «أتريد؟».

سؤال المسيح هذا في محله أيضاً، نظراً لكثرة الذين لا يريدون هذا الخلاص. وهو لا يمكن أن يمنحه إلا لمن يريد من كل قلبه هذه الهبة التي لا تُثَمَّن .

كان هذا الرجل قد حدّد لنفسه كيفية الشفاء الذي يطلبه، فأتاه الشفاء على صورة تخالف تصوّراته المتعلقة بالشفاء. ومنه نتعلم أن نأخذ المعرفة اللازمة للخلاص من تعاليم المسيح، وليس من تصوّراتنا السابقة ولا من غيرنا من البشر .

لما كان الشفاء من الأمراض رمزاً للخلاص من الخطيئة، لم يؤجل المسيح شفاء هذا الرجل مع أن ذلك اليوم كان سبتاً. فالخلاص أيضاً لا يؤجل. واليوم المقدس هو أفضل يوم لإتمامه. وفي قول المسيح للرجل: «قم» يقول: «افعل ما تستطيع أن تفعله، وإلا فلا شفاء لك». وهو يقول مثل ذلك للخاطئ: «تبيّن أن الذي يأمرك أن تأتي إليه يعطيك القوة الكافية لذلك. أنت تستطيع أن تدرس الكتاب الإلهي، وتستطيع أن تجثو مصلياً. تستطيع أن تواظب على الاجتماعات في المعبد. تستطيع أن تسترشد من الذين تعتبرهم مرشدين. فقم. تحرك روحياً».

أحيا المسيح بروحه رجاءً في هذا اليائس، فشعر المريض بنشاط جديد في عضلاته عندما تحرك، وحالاً برئ وحمل سريريه ومشى. وعندما أمر المسيح الرجل أن يحمل سريريه أوجب عليه أن يبرهن شفاؤه السريع المجاني الكامل بعملٍ ظاهرٍ يمجّد شافيّه، فأمره أن يهجر مرقده الذي ألفه هذه السنين الطوال، ولا يترك باباً مفتوحاً للعودة إليه، كأنه يشكُّ في حقيقة شفاؤه ودوامه. وكأن المسيح يأمره أن يخرج ليمارس الأعمال المفيدة له ولغيره. وهذا ما يقوله المخلص دائماً للخاطئ: «امحُ ما تستطيع من آثار خطاياك بعد نيلك الغفران الحالي المجاني الكامل، واخرج بعد حصولك على الخلاص لتمارس الأعمال الروحية المفيدة لك ولغيرك. بدلاً من أن يحملوك احمل. بدلاً من يخدموك اخدم. قدّم بعملك برهان خلاصك. اعلن عزمك التام أن لا تعود إلى حياتك القديمة الأثيمة.»

ومن قول المسيح للرجل: «امش» يبيّن له أنه لا يكفي مجرد الشفاء، بل عليه أن يترك صُحبه السقماء، ويقصد صحبة الأصحاء وأعمالهم، عليه أن يخرج بين الناس ويُريهم ما عمل به المسيح. على الخاطئ الذي يخلّصه المسيح أن يترك عشرته القديمة الفاسدة أولاً، ويطلب عشرة الاتقياء ليتقوى في الإيمان. عليه أيضاً أن يُظهر للجميع بكلامه وأفعاله التغيير المهم الذي حصل فيه، ويمجد بذلك مخلصه. لقد حوّل صوت المسيح محل صلاة التوبة إلى محل الخلاص.

«فَقَالَ الْيَهُودُ لِلَّذِي شَفِيَ: «إِنَّهُ سَبَتَ! لَا يَحِلُّ لَكَ أَنْ تَحْمِلَ سَرِيرَكَ». أَجَابَهُمْ: «إِنَّ الَّذِي أَبْرَأَنِي هُوَ قَالَ لِي احْمِلْ سَرِيرَكَ وَامش». فَسَأَلُوهُ: «مَنْ هُوَ الْإِنْسَانُ الَّذِي قَالَ لَكَ احْمِلْ سَرِيرَكَ وَامش؟». أَمَّا الَّذِي شَفِيَ فَلَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ مَنْ هُوَ، لِأَنَّ يَسُوعَ اعْتَرَلَ، إِذْ كَانَ فِي الْمَوْضِعِ جَمْعٌ. بَعْدَ ذَلِكَ وَجَدَهُ يَسُوعُ فِي الْهَيْكَلِ وَقَالَ لَهُ: «هَا أَنْتَ قَدْ بَرِئْتَ، فَلَا تَخْطِئْ أَيْضاً، لِئَلَّا يَكُونَ لَكَ أَشْرٌ». فَمَضَى الْإِنْسَانُ وَأَخْبَرَ الْيَهُودَ أَنَّ يَسُوعَ هُوَ الَّذِي أَبْرَأَهُ. وَلِهَذَا كَانَ الْيَهُودُ يَطْرُدُونَ يَسُوعَ، وَيَطْلُبُونَ أَنْ يَقْتُلُوهُ لِأَنَّهُ عَمِلَ هَذَا فِي سَبْتٍ. فَأَجَابَهُمْ يَسُوعُ: «أَبِي يَعْمَلُ حَتَّى الْآنَ وَأَنَا أَعْمَلُ». فَمِنْ أَجْلِ هَذَا كَانَ الْيَهُودُ يَطْلُبُونَ أَكْثَرَ أَنْ يَقْتُلُوهُ، لِأَنَّهُ لَمْ يَنْقُضِ السَّبْتَ فَقَطْ، بَلْ قَالَ أَيْضاً إِنَّ اللَّهَ أَبُوهُ، مُعَادِلاً نَفْسَهُ بِاللَّهِ» (يوحنا ١٠: ١٨-٥).

أطاع المريض أمر المسيح الذي شفاه، فحمل فراشه وسار وسط الناس، وكان ذلك يوم سبت، فانتقده رؤساء الدين اليهود. ولما سألوه عن الذي أمره أن يحمل فراشه لم يعرف. وكم من أشخاص يكتفون بما عمله المسيح لأجلهم، ولا يهتمون بمعرفة شخصه ليقدموا له الشكر الواجب على خلاصهم.

كان التعصّب الأعمى قد ملأ نفوس شيوخ اليهود، فأرادوا أن يهلكوا المسيح لأنه أمر المريض أن يحمل فراشه في يوم سبت. لم يهتموا أن يسألوا الرجل: من هو الإنسان الذي شفاك، بل فقط: «من هو الإنسان الذي قال لك احمل سريرك وامش؟»

ولما لم يحصلوا على جواب منه لجهله من هو الذي شفاه، تركوه. لكن المسيح لم يتركه، فقد وجده في الهيكل وقال له: «ها أنت قد برئت، فلا تخطئ أيضاً لئلا يكون لك أشد». إن كل العذاب الذي يجوز فيه الإنسان لا يجلب التوبة ولا يطفئ فيه الميول الشريرة، فعذاب هذا الرجل كل هذه السنين لا يضمن أنه سيبتعد عن الخطيئة فيما بعد. ولذلك نصحه المسيح أن يتحذر من الرجوع إلى الخطيئة.

وما أن عرف الرجل اسم شافيه حتى أخبر رؤساء اليهود، فأرادوا أن يقتلوا المسيح. فقال لهم: «أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل». وفي هذا القول نلاحظ إفرازة ذاته في قوله «أبي» بصيغة المفرد، معلناً جلياً أنه ابن الله الوحيد. ويعلق البشير على هذا بقوله: «من أجل هذا كان اليهود يطلبون أكثر أن يقتلوه، لأنه لم ينقض السبت فقط، بل قال أيضاً إن الله أبوه معادلاً نفسه بالله». وردت تكراراً تسميه البشر أبناء الله، ولكن لم ترد مطلقاً على صورة تتطلب معادلتهم بالله، لذلك اعتبر شيوخ اليهود كلام المسيح تجديفاً وفكروا في إعدامه كمجذف.

نحن مدينون لهذه المقاومة مع أنها عدائية، لأنها جعلت المسيح يُلقى خطاباً من أهم خطبه، أعلن فيه جهاراً لأول مرة أمام الجمهور، حقيقة طبيعته الإلهية وعلاقته مع الآب.

«فَقَالَ يَسُوعُ لَهُمْ: «الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: لَا يَقْدِرُ الْإِبْنُ أَنْ يَعْمَلَ مِنْ نَفْسِهِ شَيْئاً إِلَّا مَا يَنْظُرُ الْآبَ يَعْمَلُ. لِأَنَّ مَهْمَا عَمِلَ ذَلِكَ فَهَذَا يَعْمَلُهُ الْإِبْنُ كَذَلِكَ. لِأَنَّ الْآبَ يُحِبُّ الْإِبْنَ وَيُرِيهِ جَمِيعَ مَا هُوَ يَعْمَلُهُ، وَسِرِّيهِ أَعْمَالاً أَعْظَمَ مِنْ هَذِهِ لِتَتَعَجَّبُوا أَنْتُمْ. لِأَنَّهُ كَمَا أَنَّ الْآبَ يُقِيمُ الْأَمْوَاتَ وَيُحْيِي، كَذَلِكَ الْإِبْنُ أَيْضاً يُحْيِي مَنْ يَشَاءُ. لِأَنَّ الْآبَ لَا يَدِينُ أَحَدًا، بَلْ قَدْ أُعْطِيَ كُلُّ الدَّيْنُونَةِ لِلْإِبْنِ، لِكَيْ يُكْرِمَ الْجَمِيعُ الْإِبْنَ كَمَا يُكْرِمُونَ الْآبَ. مَنْ لَا يُكْرِمُ الْإِبْنَ لَا يُكْرِمُ الْآبَ الَّذِي أَرْسَلَهُ. «الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنْ مَنْ يَسْمَعُ كَلَامِي وَيُؤْمِنُ بِالَّذِي أَرْسَلَنِي فَلَهُ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ، وَلَا يَأْتِي إِلَى دَيْنُونَةٍ، بَلْ قَدْ انْتَقَلَ مِنَ الْمَوْتِ إِلَى الْحَيَاةِ. الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُ تَأْتِي سَاعَةٌ وَهِيَ الْآنَ، حِينَ يَسْمَعُ الْأَمْوَاتُ صَوْتَ ابْنِ اللَّهِ، وَالسَّامِعُونَ يَحْيَوْنَ. لِأَنَّهُ كَمَا أَنَّ الْآبَ لَهُ حَيَاةٌ فِي ذَاتِهِ، كَذَلِكَ أُعْطِيَ الْإِبْنَ أَيْضاً أَنْ تَكُونَ لَهُ حَيَاةٌ فِي ذَاتِهِ، وَأَعْطَاهُ سُلْطَانًا أَنْ يَدِينَ أَيْضاً، لِأَنَّهُ ابْنُ الْإِنْسَانِ. لَا تَتَعَجَّبُوا مِنْ هَذَا، فَإِنَّهُ تَأْتِي سَاعَةٌ فِيهَا يَسْمَعُ جَمِيعُ الَّذِينَ فِي الْقُبُورِ صَوْتَهُ، فَيَخْرُجُ الَّذِينَ فَعَلُوا الصَّالِحَاتِ إِلَى قِيَامَةِ الْحَيَاةِ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَى قِيَامَةِ الدَّيْنُونَةِ. أَنَا لَا أَقْدِرُ أَنْ أَفْعَلَ مِنْ نَفْسِي شَيْئاً. كَمَا أَسْمَعُ أَدِينُ، وَدَيْنُونَتِي عَادِلَةٌ، لِأَنِّي لَا أَطْلُبُ مَشِيئَتِي بَلْ مَشِيئَةَ الْآبِ الَّذِي أَرْسَلَنِي» (يوحنا. 5:19-30)

لم يرفض المسيح تهمة أن الله أبوه، وأنه معادل لله، بل أنه لم يرض السكوت عنها، لئلا يعتبر سكوته تسليماً وتصديقاً على اعتراضهم. بالعكس، لقد أيدَّ التهمة ولم ينكرها، وزاد كثيراً على كلامه بهذا الخصوص، فقال: «لأن مهما عمل الآب يعملها الابن كذلك. لأن

الآب يحب الابن ويريه جميع ما هو يعلمه. وكما أن الآب يقيم الأموات ويحيي، كذلك يحب الابن أيضاً يحيي من يشاء. لأن الآب قد أعطى كل الدينونة للابن، لكي يكرم الجميع الابن كما يكرمون الآب. من لا يكرم الابن لا يكرم الآب الذي أرسله. وكما أن الآب له حياة في ذاته، كذلك أعطى الابن أيضاً أن تكون له حياة في ذاته، وأعطاه سلطاناً أن يدين أيضاً.»

«إِنْ كُنْتُ أَشْهَدُ لِنَفْسِي فَشَهَادَتِي لَيْسَتْ حَقًّا. الَّذِي يَشْهَدُ لِي هُوَ آخَرُ، وَأَنَا أَعْلَمُ أَنَّ شَهَادَتَهُ الَّتِي يَشْهَدُهَا لِي هِيَ حَقٌّ. أَنْتُمْ أَرْسَلْتُمْ إِلَيَّ يُوَحْنًا فَشَهِدَ لِلْحَقِّ. وَأَنَا لَا أَقْبَلُ شَهَادَةً مِنْ إِنْسَانٍ، وَلَكِنِّي أَقُولُ هَذَا لِتَخْلُسُوا أَنْتُمْ. كَانَ هُوَ السِّرَّاجُ الْمَوْقَدَ الْمُنِيرَ، وَأَنْتُمْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَبْتَهَجُوا بِنُورِهِ سَاعَةً. وَأَمَّا أَنَا فَلِي شَهَادَةٌ أَعْظَمُ مِنْ يُوَحْنًا، لِأَنَّ الْأَعْمَالَ الَّتِي أَعْطَانِي الْآبُ لِأَكْمَلَهَا، هَذِهِ الْأَعْمَالُ بِعَيْنِهَا الَّتِي أَنَا أَعْمَلُهَا هِيَ تَشْهَدُ لِي أَنَّ الْآبَ قَدْ أَرْسَلَنِي. وَالْآبُ نَفْسُهُ الَّذِي أَرْسَلَنِي يَشْهَدُ لِي. لَمْ تَسْمَعُوا صَوْتَهُ قَطُّ، وَلَا أَبْصَرْتُمْ هَيْئَتَهُ، وَلَيْسَتْ لَكُمْ كَلِمَتُهُ ثَابِتَةً فِيكُمْ، لِأَنَّ الَّذِي أَرْسَلَهُ هُوَ لَسْتُمْ أَنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِهِ. فَتَشَّوْا الْكُتُبَ لِأَنَّكُمْ تَظُنُّونَ أَنَّ لَكُمْ فِيهَا حَيَاةً أَبَدِيَّةً. وَهِيَ الَّتِي تَشْهَدُ لِي. وَلَا تُرِيدُونَ أَنْ تَأْتُوا إِلَيَّ لِتَكُونَ لَكُمْ حَيَاةٌ». مَجْدًا مِنَ النَّاسِ لَسْتُ أَقْبَلُ، وَلَكِنِّي قَدْ عَرَفْتُكُمْ أَنَّ لَيْسَتْ لَكُمْ مَحَبَّةُ اللَّهِ فِي أَنْفُسِكُمْ. أَنَا قَدْ أَتَيْتُ بِاسْمِ أَبِي وَلَسْتُمْ تَقْبَلُونَنِي. إِنْ أَتَى آخَرُ بِاسْمِ نَفْسِهِ فَذَلِكَ تَقْبَلُونَهُ. كَيْفَ تَقْدِرُونَ أَنْ تُؤْمِنُوا وَأَنْتُمْ تَقْبَلُونَ مَجْدًا بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ؟ وَالْمَجْدُ الَّذِي مِنَ الْإِلَهِ الْوَاحِدِ لَسْتُمْ تَطْلُبُونَهُ؟ «لَا تَظُنُّوا أَنِّي أَشْكُوكُمْ إِلَى الْآبِ. يُوجَدُ الَّذِي يَشْكُوكُمْ وَهُوَ مُوسَى، الَّذِي عَلَيْهِ رَجَاؤُكُمْ. لِأَنَّكُمْ لَوْ كُنْتُمْ تُصَدِّقُونَ مُوسَى لَكُنْتُمْ تُصَدِّقُونَنِي، لِأَنَّهُ هُوَ كَتَبَ عَنِّي. فَإِنْ كُنْتُمْ لَسْتُمْ تُصَدِّقُونَ كُتُبَ ذَاكَ، فَكَيْفَ تُصَدِّقُونَ كَلَامِي» (يوحنا ٤٧: ٥-٣١).

يستشهد المسيح بخمسة شهود على أنه ابن الله الوحيد :

يستشهد بالمعمدان الذي يرجح أنهم كانوا قد سمعوا شهادته أن يسوع ابن الله، لأنهم لا يستطيعون الشك بصدق شهادته، ولا الرد على كلامه، فذكرها تسهلاً لإيمانهم .

استشهد بأعماله .

ثم استشهد بمن لا تقابل عظمتهم مع عظمة غيره، وهو الآب ذاته. فهم لتوغلهم في الشرور لم يسمعوا صوته، ولا أبصروا هيئته، كما سمع المسيح وأبصر .

ثم أتاهم بشاهدٍ رابع هو كتبهم المقدسة قال: «فَتَشَّوْا الْكُتُبَ لِأَنَّكُمْ تَظُنُّونَ أَنَّ لَكُمْ فِيهَا حَيَاةً أَبَدِيَّةً، وَهِيَ الَّتِي تَشْهَدُ لِي.»

ثم أتاهم بشاهد خامس هو زعيمهم موسى، قال: «لو كنتم تصدقون موسى لكنتم تصدقونني لأنه هو كتب عني. لستم تصدقون موسى فكيف تصدقون كلامي؟». «

وفي هذا الخطاب ذكر المسيح عمله المزدوج الموكول إليه من قبل الآب: أي الإحياء والإهلاك، فصرّح بأن الهلاك نتيجة إرادة الإنسان «لا تريدون أن تأتوا إليّ لتكون لكم حياة». لكن لئلا يظن سامعوه أنه يدّعي بالطبيعة الإلهية فقط (كما كان يفعل لو كان خادعاً ومخدوعاً) فهو يعلن ناسوته أيضاً في قوله: «أعطاه الآب سلطاناً أن يدين أيضاً لأنه ابن الإنسان». وفي آخر خطابه يبيّتهم المسيح على عدم اكترائهم للمجد الذي يأتي من الله للمستحقين ذلك، وعلى اهتمامهم بالمجد العالي الذي يأتيهم من الناس دون نظرٍ إلى الاستحقاق.

عزيزي القارئ، ماذا تقول أنت في المسيح؟ هل تؤمن بما شهد الإنجيل عنه؟

تعليم المسيح عن الصوم

«وَكَانَ تَلَامِيذُ يُوَحْنَا وَالْفَرِيسِيِّينَ يَصُومُونَ، فَجَاءُوا وَقَالُوا لَهُ: «لِمَاذَا يَصُومُ تَلَامِيذُ يُوَحْنَا وَالْفَرِيسِيِّينَ، وَأَمَّا تَلَامِيذُكَ فَلَا يَصُومُونَ؟» فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «هَلْ يَسْتَطِيعُ بَنُو الْعُرْسِ أَنْ يَصُومُوا وَالْعَرِيسُ مَعَهُمْ؟ مَا دَامَ الْعَرِيسُ مَعَهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَصُومُوا. وَلَكِنْ سَتَأْتِي أَيَّامٌ حِينَ يُرْفَعُ الْعَرِيسُ عَنْهُمْ، فَحِينَئِذٍ يَصُومُونَ فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ. لَيْسَ أَحَدٌ يَخِيطُ رُفْعَةً مِنْ قِطْعَةٍ جَدِيدَةٍ عَلَى ثَوْبٍ عَتِيقٍ، وَإِلَّا فَالْمِلءُ الْجَدِيدُ يَأْخُذُ مِنَ الْعَتِيقِ فَيَصِيرُ الْخَرَقُ أَرْدَاً. وَلَيْسَ أَحَدٌ يَجْعَلُ خَمِراً جَدِيداً فِي زِقَاقٍ عَتِيقٍ، لِئَلَّا تَشَقَّ الْخَمَرُ الْجَدِيدَةُ الزِّقَاقَ، فَالْخَمَرُ تَنْصَبُ وَالزِّقَاقُ تَتَلَفُ. بَلْ يَجْعَلُونَ خَمِراً جَدِيداً فِي زِقَاقٍ جَدِيدٍ» (مرقس ٢: ١٨-٢٢).

يبدو أن تلاميذ يوحنا المعمدان كانوا يصومون حسب النظام اليهودي، بينما لم يكن المسيح ولا تلاميذه يراعون فروض الصوم. وعندما دعا المسيح متى العشار ليلتبعه أقام متى له وليمة ولتلاميذه ليتناولوا الطعام في بيته، فأثار هذا انتقاد قادة اليهود للمسيح.

كان الصوم أمراً عظيماً عند اليهود، كما هو الآن عند كثيرين غيرهم. طلب منهم النظام المنزل أن يصوموا يوماً واحداً في السنة، وهو يوم الكفارة. ولكنهم توهموا أن مجرد الصوم يُرضي الله، فزادوا أصواماً جديدة سنوية عديدة، مبتدئين بذلك في سبي بابل. ووصل بهم الأمر أن فرضوا على أنفسهم صوم يومين في كل أسبوع على مدار السنة. ونستنتج من جواب المسيح على سؤال اليهود أن الله ترك أمر الصوم اختيارياً، وتابعاً للظروف التي تقضي به، فلا محل للصوم إلا في الأحوال الملائمة. وهذا يعني أنه لا يجب تحديد أصوام في أوقات معينة تُحفظ على سبيل الفرض، سواء كانت الظروف تدعو إلى الصوم أم لا. كثيراً ما كانت أصوام شعب الله قديماً مكرهة لله، فقد قال الله على فم إشعياء: «يَقُولُونَ: «لِمَاذَا صُمْنَا وَلَمْ نَنْظُرْ، دَلَّلْنَا أَنْفُسَنَا وَلَمْ نُلَاحِظْ؟» هَا إِنَّكُمْ فِي يَوْمِ صَوْمِكُمْ تُوَجِدُونَ مَسَرَّةً، وَبِكُلِّ أَشْغَالِكُمْ تُسَخَّرُونَ. هَا إِنَّكُمْ لِلْخُصُومَةِ وَالزِّرَاعِ تَصُومُونَ، وَلَتَضْرِبُوا بِلُكْمَةِ الشَّرِّ. لَسْتُمْ تَصُومُونَ كَمَا الْيَوْمَ لِتَسْمِعَ صَوْتَكُمْ فِي الْعَلَاءِ. أَمِثْلُ هَذَا يَكُونُ صَوْمٌ اخْتَارُهُ؟ يَوْمًا يَذِلُّ الْإِنْسَانُ فِيهِ نَفْسَهُ، يُخْنِي كَالْأَسَلَةِ رَأْسَهُ، وَيَفْرَشُ تَحْتَهُ مِسْحاً وَرَمَاداً. هَلْ تُسَمِّي هَذَا صَوْمًا وَيَوْمًا مَقْبُولًا لِلرَّبِّ؟ أَلَيْسَ هَذَا صَوْمًا اخْتَارَهُ: حَلَّ قُبُودِ الشَّرِّ. فَكَّ عُقْدَ النَّيْرِ، وَإِطْلَاقَ الْمَسْحُوقِينَ أَحْرَاراً، وَقَطَعَ كُلَّ نِيرٍ. أَلَيْسَ أَنْ تَكْسِرَ لِلْجَائِعِ خُبْزَكَ، وَأَنْ تُدْخِلَ الْمَسَاكِينَ التَّائِبِينَ إِلَى بَيْتِكَ؟ إِذَا رَأَيْتَ غُرْبَانًا أَنْ تَكْسُوهُ، وَأَنْ لَا تَتَغَاضَى عَنْ لَحْمِكَ» (إشعياء ٥٨: ٣-٧).

الصوم المقبول إذاً هو الصوم الطبيعي الناتج عن حزن حقيقي. نرى الحزين يهمل الطعام، لأن نفسه تنفر من التلذذ في حالة الحزن، لأن الجسم لانشغاله بانفعالات الحزن يكون غير مستعد للهضم الطبيعي. وكما أن الفرح يعين الهضم، فالحزن يعيقه. ولكن تذليل الجسم دون

تذلل الروح باطل. وقد حذر المسيح في الموعظة على الجبل من الصوم الافتخاري والتظاهر فيه، وبيّن أن الصوم الأكثر قبولاً لديه هو الذي لا يعلم به إلا الله والصائم (متى ١٦: ١٨).

في جواب المسيح على سؤال اليهود عن الصوم، يظهر أن لتلاميذ المعمدان ما يوجب الصوم، بما أن رئيسهم ومعلمهم قد أخذ منهم، وهو مطروح ظلاماً في سجن مظلم. لكن ليس عند تلاميذ المسيح هذا الموجب لأن رئيسهم معهم. في الوقت ذاته أشار المسيح إلى يومٍ مقبلٍ عليهم، حين يُرفع عنهم عريسهم (أي رئيسهم) - وقتها ينوحون ويصومون. نرى في هذا تلميحاً إلى عنف اليهود وقساوتهم في أخذ المسيح للصليب، كما أشار النبي في قوله: «مِنَ الضُّعْفَةِ وَمِنَ الدَّيْنُونَةِ اخَذَ» (إشعياء ٨: ٥٣). نعم إنه سلّم ذاته للصليب بإرادته الحرة، وبمشورة الله المحتومة وعلمه السابق، لكن ذلك لم يمنع ما أتى في تكلمة هذه الآية في وعظ بطرس، إذ قال لصالبي المسيح: «وَبِأَيْدِي أُنْمَةِ صَلَبْتُمُوهُ وَقَتَلْتُمُوهُ» (أعمال ٢: ٢٣).

في هذا الحديث عن الصوم يذكّر سامعيه من تلاميذ المعمدان أن معلّمهم شبّه نفسه بالعريس، وشبّه تلاميذه بأنهم «بنو العرس». فكيف يُنتظر من بني العرس أن ينوحوا ويصوموا؟ هذا أقوى كلام استخدمه للتعبير عن الاتحاد الكلي بين المسيح وشعبه المؤمن.

تشبه العلاقة بين المسيح وبين نفوس المؤمنين به علاقة العريس مع العروس، من أوجه عديدة. فالمسيح يحب المؤمنين به حباً شديداً حتى الموت، وإلى الأبد. وهذا الحب يوجد اتحاداً تاماً بينه وبينهم، فيصيرون معه واحداً، إذ هم في المسيح والمسيح فيهم. هم الجسد الذي هو رأسه، وهو يفي جميع ديونهم للعزة الإلهية، ويقوم بكافة احتياجاتهم اليومية. وهو يشترك معهم في كل مصائبهم، ويتحمل كل همومهم، ويرثي لكل ضعفاتهم، ويصبر على زلاتهم، ويطيّل أناته على كل إهانتهم، ولا يتركهم مطلقاً. هو يعتبر ما يفعله أحدٌ بهم من الخير والشر، كأنه فعله له. وهو مستعد أن يهبهم المجد الذي أعطاه له الأب قبل خلق العالم، وحيث يكون هو، يريد أن يكونوا هم أيضاً. هذه العلاقة الشريفة الفائقة هي النتيجة السعيدة للإيمان به، وثمر الانضمام إليه.

بعد أن أوضح المسيح أن علاقة المؤمنين به تشبه علاقة العريس بالعروس، أعلن رأيه في فريضة الصوم. لكنه لم يكتف بذلك، بل أوضح حقائق بخصوص سائر الفرائض الموسوية، فقدم لسامعيه مثلين آخرين يوضحان النسبة بين النظام اليهودي القديم، ونظامه هو الجديد. ويبدو أن المسيح كان يوجّه كلامه على الأخص إلى تلاميذ المعمدان الذين ظنّوا أن الجديد الذي أتى به المسيح يُضاف إلى القديم الذي أتى به موسى، ولكنه لا يحل محله، فيبقى القديم محفوظاً، الأمر الذي يعني أن المسيح وتلاميذه يجب أن يمارسوا كل الطقوس اليهودية. فأعلن المسيح أن الجديد القوي إن تعلّق على القديم البالي يتلفه، فلا يعود ينفع شيئاً، فقال:

«ليس أحدٌ يخيظ رقعة من قطعة جديدة، أو من ثوب جديد، على ثوب عتيق». فكل من عنده حكمة ولو بسيطة لا يفعل ذلك.. ولا يضع الفهم الخمر الجديدة في زقاق عتيقة، لأن نتيجة ذلك تكون إتلاف الغلاف والمغلف وضياع كل فائدة. الثوب غلاف يكتسي به الإنسان، والزقاق غلاف يغلف به الخمر. والمسيح يعلمنا هنا أن الغلاف متى خدم زمانه وعُتق، يكون الحكم فيه الإبدال لا الترفيع. هذا لا يعيب العتيق الذي يكون قد أتمَّ القصد من وضعه، فيشيخ كما تشيخ النبوة الصادقة عند إتمامها .

بهذا التشبيه اللطيف أوضح المسيح أن النظام الطقسي الموسوي كان قد خدم زمانه وعُتق، فلم يعد من الممكن إصلاحه، بل وجب إبداله بنظام جديد يخلفه، لأن فروض شريعة موسى فروض خارجية هي بمثابة غلاف الدين. وكما أن الإنسان الذي يريد أن يحضر عرساً، وكان ثوبه عتيقاً معيباً في شيء، لا يصلحه برقعة جديدة، بل يأتي بثوب جديد.. كذلك الأمر في حياتنا الدينية. فإن أراد أحد سامعي المسيح من تلاميذ المعمدان أو الفريسي، أن يتبع هذا العريس السماوي، عليه بثوب جديد، أي فرائض جديدة، كالمعمودية بدلاً من الختان، والعشاء الرباني بدلاً من عشاء الفصح، والقسوسية بدلاً من الكهنوت، وتقديس اليوم الأول بدلاً من السابع، والكنيسة بدلاً من الهيكل، ومنبر الوعظ بدلاً من مذبح المحرقة .

وفي المثل الثاني قال المسيح: الذي يقبل تعليمي الجديد عليه أن يقبله في قلب جديد، مولود ولادة جديدة من الروح الإلهي. وختم المسيح خطابه بقوله: «ليس أحدٌ إذا شرب العتيق يريد للوقت الجديد، لأنه يقول إن العتيق أطيب». هذا يعني أن القلب المتجدد هو الزقُّ الجديد الذي يقدر أن يحتل ضغط الخمر الجديدة، أي التعليم الجديد المسيحي القوي، وهذا تفسير القديس باسيليوس. ويفسر القديس أوغسطينوس أن هذا القول صدقَ بالأكثر في يوم الخمسين، لما حُلَّت الخمر الجديدة - أي انسكاب الروح القدس بقوة في الزقاق الجديدة، أي الرسل المتجددين بالولادة من فوق. وفسر بعضهم أن الزقاق العتيقة هي الفريسيون، والزقاق الجديدة هي الرسل .

كان تلاميذ يوحنا يتمسكون بالقديم، لأن هذه عادة البشر. ويحتاج الأمر إلى وقت للترويض والبحث ليقفوا على تفوق الجديد على العتيق. لنا هنا نموذج للتصرف مع الذين نقصد إنارتهم بنور جديد. يجب أن لا نستعمل القساوة والإلحاح الزائد، بل لنقدّر الصعوبات التي تعارض اقتناعهم بأفضلية الجديد .

تعليم المسيح عن السبت

«وَفِي السَّبْتِ الثَّانِي بَعْدَ الْأَوَّلِ اجْتَازَ بَيْنَ الزَّرُوعِ. وَكَانَ تَلَامِيذُهُ يَقْطِفُونَ السَّنَابِلَ وَيَأْكُلُونَ وَهُمْ يَفْرُكُونَهَا بِأَيْدِيهِمْ. فَقَالَ لَهُمْ قَوْمٌ مِنَ الْفَرِّسِيِّينَ: «لِمَاذَا تَفْعَلُونَ مَا لَا يَحِلُّ فِعْلُهُ فِي السَّبُوتِ؟» فَأَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُمْ: «أَمَا قَرَأْتُمْ وَلَا هَذَا الَّذِي فَعَلَهُ دَاوُدُ، حِينَ جَاعَ هُوَ وَالَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ، كَيْفَ دَخَلَ بَيْتَ اللَّهِ وَأَخَذَ خُبْزَ التَّقْدِيمَةِ وَأَكَلَ، وَأَعْطَى الَّذِينَ مَعَهُ أَيْضاً، الَّذِي لَا يَحِلُّ أَكْلُهُ إِلَّا لِلْكَهَنَةِ فَقَطُّ؟» وَقَالَ لَهُمْ: «إِنَّ ابْنَ الْإِنْسَانِ هُوَ رَبُّ السَّبْتِ أَيْضاً» (لوقا ١٣: ٥-٦).

كان المسيح وتلاميذه يسيرون بين الزروع، فأخذ التلاميذ يقطفون السنابل ويأكلون. لم يكن في هذا العمل خطأ، لأن شريعة موسى كانت تسمح به، إذ كانت تقول: «إِذَا دَخَلْتَ زَرْعَ صَاحِبِكَ فَأَقْطِفْ سَنَابِلَ بَيْدِكَ، وَلَكِنْ مِنْجَلًا لَا تَرْفَعْ عَلَى زَرْعِ صَاحِبِكَ» (تثنية ٢٥: ٢٣). ولكن لما قطف تلاميذ المسيح السنابل كان ذلك يوم سبت، فاعتبر رؤساء اليهود أن القطف نوع من الحصاد الممنوع في يوم السبت، وأن الفرق هو نوع من الدّراس ودارس الغلال في السبت ممنوع. لذلك اعتبروا هذا العمل مخالفاً لإحدى وصايا الله العشر التي كتبت بأصبع الله على لوح حجر في الجبل المقدس، ثم سُلمت لموسى كليم الله بين الرعود والبروق ودخان النار المخيفة بياناً لأهميتها، وتأكيداً لتوقيرها. ولما كانت وصية السبت هي الوحيدة بين العشر التي تختص بالطقوس الخارجية، فاق اعتناء الطقسيين بها على اعتنائهم بما بقي من الوصايا، وتوصلوا إلى مبالغات غريبة في النهي عن العمل في السبت، خرجت على كل ما ورد في الشريعة.

وانتقد الفريسيون عمل تلاميذ المسيح وقالوا له: «أنظر، لماذا يفعلون في السبت ما لا يحل؟».. وفي ردّ المسيح على رؤساء اليهود، اقتبس لهم ما ورد في التوراة التي كانوا يفتخرون كثيراً بمعرفتهم الدقيقة لنصوصها. فابتدأ بتأنيبهم لأنهم لم يتذكروا ما فعله داود نبيهم وملكهم وقائدهم الأعظم بعد موسى-فعندما جاع هو والرجال الذين معه، أكلوا طعاماً لم يكن يحلّ أكله إلا للكهنة فقط، وهكذا خالف داود شريعة الهيكل في استسلامه لشريعة الرحمة لما جاع هو والذين معه. فإن كان الرب لم ييكت داود على ذلك، فقد جاز لابن داود الأعظم أن يسمح لتابعيه أن يقطفوا فريكاً ويأكلوه في السبت.

ثم استشهد المسيح بحادث ثانٍ كان يتجدد كل سبت أمام عيونهم بأوامر إلهية، وليس كالأول بمجرد استحسان رجل من رجال الله، ولذلك فهو أقوى جداً. قال: «أَوْ مَا قَرَأْتُمْ فِي التَّوْرَةِ أَنَّ الْكَهَنَةَ فِي السَّبْتِ فِي الْهَيْكَلِ يَدْنُسُونَ السَّبْتَ وَهُمْ أَبْرِيَاءُ؟». يدنسون السبت أولاً بإيقاد النار لأجل الذبائح، وثانياً بمضاعفة أشغالهم يوم السبت. فإذاً العمل الذي هو خدمة دينية، لا يوافق فقط أن يمارس في السبوت، بل يُضاعف أيضاً.

ثم زاد المسيح على هذا أنه بيّن سلطته الدينية، لأنه أعظم من الهيكل، بل هو رب الهيكل. فإن كانت عظمة الهيكل تجيز تدنيس السبت بالأعمال في خدمته، فكم بالحري يحقّ لرب الهيكل أن يُجيز ذلك، لأن رب الهيكل يكون رب السبت أيضاً وهو ذاته الهيكل الذي «فيه يَحِلُّ كُلُّ مَلَأِ اللَّاهُوتِ جَسَدِيًّا» (كولوسي ٢:٩) وفيه تُقدّم العبادة الحقيقية لله، لأنه الوسيط بين الله والناس (1 تيموثاوس ٢:٥) فما دام الهيكل أعظم من السبت فكم بالحري رب الهيكل؟

ثم أضاف المسيح شرحاً آخر: «إنما جُعِلَ السبت لأجل الإنسان، لا الإنسان لأجل السبت». فالسبت والهيكل وُضعا لخدمة الإنسان ومنفعته. والمسيح رب السبت يكرمه ويثبته، وفي الوقت ذاته يوسعه ويحرره من القيود التي قيّده بها الفريسيون. فلو كان المسيح مجرد بشر، لما حقّ له أن يسمّي ذاته رب السبت .

نستنتج من عبارات عديدة في الإنجيل أن المسيح استعمل سلطانه كرب السبت ونقله من اليوم السابع في الأسبوع، إلى اليوم الأول الذي هو يوم الأحد، فسُمّي يوم الأحد يوم الرب. والمقصود هو تخصيص يوم الرب لأعمال الضرورة والرحمة والعبادة. وطالما نكرس لله يوماً من كل سبعة أيام تكريساً ممتازاً، تتمّ غاية الوصية الإلهية، فإبدال اليوم السابع بالأول، أجراه الرسل بإشارة من المسيح، وبإلهام من روحه القدس. ولا يخالف هذا الإبدال روح الوضع الإلهي وقصده، فنحسب أن الله وضع في عهده القديم اليوم السابع، حافظاً لعهد الجديد يوماً أشرف منه، هو الأحد، اليوم الأول في الأسبوع. وكما كان السبت اليهودي تذكيراً للعمل الإلهي في الخلق، ويُسَمّى في الكتاب «استراحة الخالق في اليوم السابع»، كذلك يكون السبت الجديد المسيحي، تحويل موضوع التذكار إلى ما هو أعظم من فعل الخلق، وهو عمل الفداء، الذي تمّ بقيامة الفادي في اليوم الأول، ولذلك تَسَمّى «يوم الرب». وهو تذكار أيضاً للعمل العظيم في يوم الخمسين لما تأسست الكنيسة المسيحية في يوم الرب، بواسطة انسكاب الروح القدس العجيب. ولا يقدر أحداً أن يصف أو يدرك مقدار فوائد السبت المسيحي في تاريخ تمدّن العالم، من زمن المسيح إلى الآن، وما أعظم الأضرار التي تنجم عن إهماله .

نتيجة تعليم المسيح في هذا الأمر هي أن الوصية الأولى والعظمة (وهي المحبة لله) لا يمكن أن تعارض الثانية التي هي مثلها (أي المحبة للناس). فلا يمكن أن يرضى الإله بحفظ سبته على صورة فيها قساوة نحو الناس، لذلك ذكّرهم بالقول النبوي القديم: «إِنِّي أريدُ رَحْمَةً لَا دَيْبِيحَةً، وَمَعْرِفَةَ اللَّهِ أَكْثَرَ مِنْ مُحَرَقَاتٍ» (هوشع ٦:٦). وقال لهم إنهم لو علموا معنى هذا القول لما حكموا على تلاميذه الأبرياء .

«وَفِي سَبْتٍ آخَرَ دَخَلَ الْمَجْمَعُ وَصَارَ يُعَلِّمُ. وَكَانَ هُنَاكَ رَجُلٌ يَدُهُ الْيُمْنَى يَابِسَةً، وَكَانَ الْكَتَبَةُ وَالْفَرِيسِيُّونَ يَرِاقِبُونَهُ: هَلْ يَشْفِي فِي السَّبْتِ، لَكِنِّي يَجِدُوا عَلَيْهِ شِكَايَةً. أَمَّا هُوَ فَعَلِمَ أَفْكَارَهُمْ، وَقَالَ لِلرَّجُلِ الَّذِي يَدُهُ يَابِسَةٌ: «قُمْ وَقِفْ فِي الْوَسْطِ». فَقَامَ وَوَقَفَ. ثُمَّ قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «أَسْأَلُكُمْ شَيْئاً: هَلْ يَحِلُّ فِي السَّبْتِ فِعْلُ الْخَيْرِ أَوْ فِعْلُ الشَّرِّ؟ تَخْلِيصُ نَفْسٍ أَوْ إِهْلَاكُهَا؟». ثُمَّ نَظَرَ حَوْلَهُ إِلَى جَمِيعِهِمْ وَقَالَ لِلرَّجُلِ: «مُدَّ يَدَكَ». فَفَعَلَ هَكَذَا. فَعَادَتْ يَدُهُ صَحِيحَةً كَالْآخَرَى. فَامْتَلَأُوا حُمَقاً وَصَارُوا يَتَكَاَلَمُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ: مَاذَا يَفْعَلُونَ بِيَسُوعِ؟» (لوقا ٦: ٦-١١).

لم يطل الوقت حتى أعطى المسيح الدرس الثالث في هذه السلسلة المتصلة بموضوع السبت، وكان ذلك أيضاً في يوم سبت. أعطى الدرس الأول في الهيكل، والثاني في الحقول، وهذا الدرس الثالث في مجمع. عُرف أنه لا يرى عيلاً إلا ويودُ شفاءه، ولا يراه عليل إلا ويطلب منه الشفاء.. في هذا السبت وهو يعلم في المجمع، لاحظ الكتبة والفريسيون الحاضرون إنساناً بين الجمع يده يابسة. وتوجَّهت أفكارهم حالاً نحو هذا الشخص، وأرادوا شفاءه، لا شفقةً عليه، بل ليجدوا علّة على المسيح تمكّنهم من تقديم شكاية رسمية عليه للمجلس الأعلى. وهكذا أظهروا اهتمامهم بالرجل المريض وسألوا المسيح: «هل يحلُّ الإبراء في السبت؟».

لم يحترم المسيح سؤالهم ليجيب عليه لأنهم غير مخلصين. لكنه بعد أن أوقف العليل في الوسط، ليظهر للجميع أنه لا يهاب مقاوميه، ولا يخشى مقاومتهم، وليبكم أعداءه، طرح عليهم سؤالاً: ماذا يوافق القصد الإلهي أكثر من يوم السبت: فعل الخير أو فعل الشر؟ تخليص هذا الرجل في يوم سبت، وهذا فعل خيري، بينما أنتم تقصدون قتلي في هذا اليوم، وهذا فعل شر. فأَيُّ منا يحفظ وصية السبت، وأَيُّنا يخالفها؟ ثم ذكّرهم أن ليس بينهم إنسان لا ينتشل في السبت خروفاً له سقط في حفرة، فكم بالحري يجب أن يُنتشل من هو أفضل جداً من الخروف؟ كان مقررّاً حتى عند الفريسيين أن من يهمل نفساً وهو قادر أن يخلصها يكون قد أهلكها. فدانهم المسيح بسؤاله هذا، دينونة لم يستطيعوا الاعتراض عليها.

وانتظر المسيح جوابهم، لكنهم سكتوا. وفي هذا السكوت بيان سطوته الأدبية. لكن ليس عندهم ضمير حي ينبّهم إلى غلطتهم، ويبكّتهم على غلاظة قلوبهم، ليعترفوا بذلك ويطلبوا الرحمة لصاحب اليد اليابسة. فحالتهم هذه تضطر المسيح كمصلح إلى الغضب، وتضطره كمخلص إلى الحزن «فنظر حوله إلى جميعهم بغضب، حزناً على غلاظة قلوبهم». الغضب في الحزن يسمو به، والحزن في الغضب يقدهس ويجعله فضيلة سامية. قال الرسول: «إِغْضَبُوا وَلَا تُخْطِئُوا» (أفسس ٤: ٢٦). كثيراً ما نقرأ في الكتاب عن الغضب الإلهي، وليس في الإله إلا ما هو فضيلة وكمال - وهذا حال غضب المسيح، فالغضب في محله فضيلة لا رذيلة. كان المسيح غاضباً على هؤلاء المعتزّين بكبريائهم، كما كان حناناً

على صاحب اليد اليابسة، فشفاه بكلمتين فقط. وبهذا الشفاء العجيب أثبت صحة ما قاله عن نفسه إنه رب السبت، فشفاه بقوله «مَدَّ يَدَكَ». كان يخشى أن يجيبه جواباً طبيعياً ويقول: «إني عاجز عن ذلك. فلو كنت قادراً على مَدِّ يدي لاستغنيت عن إحسانك». لكنه آمن، وإلا ما حاول المستحيل. لم يعطه المسيح شفاءً جزئياً بل كاملاً، فعادت يده صحيحة كالأخرى. ولا يعطي المسيح غفراناً جزئياً بل كاملاً لكل من يلتجئ إليه .

نرى في صاحب اليد اليابسة وفي شفائه مثلاً صادقاً للخاطئ والخالص. فلم يكن العمل الذي شفاه عمله، بل عمل المسيح. لكن عمل المسيح لا يشفيه ما لم يؤمن بذلك العامل وبعمله. وهكذا العمل الذي يخلص الخاطئ هو عمل المسيح لا عملنا. إنما نتوقف نتيجة عمل المسيح في خلاص الخاطئ على إيمان هذا الخاطئ يشخص هذا المخلص وخلاصه .

في هذه الحوادث الثلاث المتعلقة بالسبت، أوضح المسيح مبدأه الجوهري الذي أشار إليه بعدنذ في قوله: «الْكَلَامُ الَّذِي أَكَلَّمَكُم بِهِ هُوَ رُوحٌ وَحَيَاةٌ» (يوحنا ٦: ٦٣). والذي أوضحه رسوله في قوله: «لَأَنَّ الْحَرْفَ يَقْتُلُ وَلَكِنَّ الرُّوحَ يُحْيِي» (٢ كورنثوس ٣: ٦). وقد أغاظ هذا القول الكتبة والفريسيين، فيقول البشير إنهم «امتلاؤا حمقاً، وصاروا يتكالمون في ما بينهم ماذا يفعلون بالمسيح». لقد كانوا مستعدين بحجة المحافظة على وصية السبت أن يضحوا بالوصية السادسة القائلة: «لا تقتل». فشابهت أفكارهم ومعاملتهم للمسيح أفكار أهل العالم ومعاملاتهم في جميع الأجيال لرجال الله الممتازين. فالأنبياء والرسل والشهداء والمصلحون قد قاسوا جميعاً ما قاساه المسيح جزاء غيرتهم الوقادة وتقواهم الممتازة. ولا تخلو المراقبة العدائية من فائدة للصالحين، لأنها تزيدهم حرصاً على حسن السيرة والسريرة، وتزيد وضوح الشهادة بفضائلهم التي تظهر بهذه المراقبة الشديدة.

المسيح يختار تلاميذه

«وَفِي تِلْكَ الْأَيَّامِ خَرَجَ إِلَى الْجَبَلِ لِيُصَلِّيَ. وَقَضَى اللَّيْلَ كُلَّهُ فِي الصَّلَاةِ لِلَّهِ. وَلَمَّا كَانَ النَّهَارُ دَعَا تَلَامِيذَهُ، وَاخْتَارَ مِنْهُمْ اثْنَيْ عَشَرَ، الَّذِينَ سَمَّاهُمْ أَيْضاً «رُسُلًا»: سِمْعَانَ الَّذِي سَمَّاهُ أَيْضاً بُطْرُسَ وَأَنْدَرَاوَسَ أَخَاهُ. يَعْقُوبَ وَيُوحَنَّا. فِيلُبُّسَ وَبَرْثُولَمَاوُسَ. مَتَّى وَتُومَا. يَعْقُوبَ بَنَ حَلْفَى وَسِمْعَانَ الَّذِي يُدْعَى الْغُيُورَ. يَهُوذَا بَنَ يَعْقُوبَ، وَيَهُوذَا الْإِسْخَرْيُوطِيَّ الَّذِي صَارَ مُسَلِّماً أَيْضاً.

وَنَزَلَ مَعَهُمْ وَوَقَفَ فِي مَوْضِعٍ سَهْلٍ، هُوَ وَجَمْعٌ مِنْ تَلَامِيذِهِ، وَجُمُهُورٌ كَثِيرٌ مِنَ الشَّعْبِ، مِنْ جَمِيعِ الْيَهُودِيَّةِ وَأُورُشَلِيمَ وَسَاحِلِ صُورَ وَصَيْدَاءَ، الَّذِينَ جَاءُوا لِيَسْمَعُوهُ وَيُشْفَوْا مِنْ أَمْرَاضِهِمْ، وَالْمُعَذِّبُونَ مِنْ أَرْوَاحِ نَجِسَةٍ. وَكَانُوا يَبْرَأُونَ. وَكُلُّ الْجَمْعِ طَلَّبُوا أَنْ يَلْمَسُوهُ، لِأَنَّ قُوَّةً كَانَتْ تَخْرُجُ مِنْهُ وَتُشْفَى الْجَمِيعُ» (لوقا ١٢: ١-١٩).

اجتمع قادة اليهود على كراهية المسيح. وبالرغم من انقسامهم إلى أحزاب، اتفقوا على قتله. كان الفريسيون يكرهون ما اعتبروه كسر المسيح لوصية السبت، فقالوا عنه «إنه مفسد الأمة ومجدف ومضلّ وسامري فيه شيطان، وعشير الشياطين والخطاة، ناقض الهيكل والناموس». أما الهيروديسيون فقد خشوا من أنه سيأخذ العرش من الملك هيرودس.

ولما رأى المسيح هذا الاتفاق عليه، انصرف إلى شاطئ بحيرة طبرية ليقدم خدمته للجمهور المحتاج، وليختار جماعة من مريديه ليدرهم على الخدمة، لينشروا الرسالة من بعد أنه يقتله شيوخ اليهود. فالتفت الجموع الكثيرة حوله آتية من الجليل واليهودية، وأيضاً من أدومية وساحل صور وصيدا وعبر الأردن (أي بيرية) فشفاهم جميعاً.

في هذا التجمهر في موضع سهل، ظهر أن قسماً من الجمع أقبل على المسيح ليسمع تعليمه، ولو أن الكثيرين جاءوا لأجل الشفاء. وقد أخرج المسيح الشياطين من المعذبين بها. وقد عرفته الشياطين مكرهين على ذلك بقوة إلهية هي سطوة المسيح. كان الجمهور يتهاافت على المسيح ليلمسه، لأن قوة كانت تخرج منه وتشفى الجميع، حتى اضطر أن يأمر تلاميذه بأن تلازمه سفينة صغيرة لسبب الجمع، كي لا يزحموه. كانت القوة التي تخرج منه عند لمس المرضى له تكلفه جهداً.. كان يفتقر هو ليغني غيره ويتعب ويضعف ليربح ويقوي الآخرين.

نحول النظر الآن إلى اختيار المسيح لتلاميذه، الذين سيكون عملهم شفاء الأمراض وإخراج الشياطين باسمه، ونشر التعاليم الجديدة، وتنظيم المؤمنين الجدد وتدوين حقائق الدين لتوريثها للأجيال التي بعدهم.

لم يختار المسيح عظماء العالم لئلا ينسبوا إلى أنفسهم، وينسب العالم إليهم، القسم الأعظم من النجاح، فلا يتمجد الله كما يجب، وقد أصاب الرسول بولس في قوله «وَلَكِنْ لَنَا هَذَا الْكَثْرُ فِي أَوَانٍ خَزَفِيَّةٍ، لِيَكُونَ فَضْلُ الْقُوَّةِ لِلَّهِ لَا مِنَّا» (٢ كورنثوس ٤:٧). لذلك نرى المسيح يختار رجالاً من الضعفاء والجهلاء ويصيرهم أكفاء. وكانت النتيجة أنهم فاقوا سائر عظماء العالم في حسن تأثيرهم. اختارهم في أوائل سني خدمته ليتمكن من تدريبهم قبل صعوده .

وقد قضى بعض تلاميذه في رفقته وقتاً كافياً ليختبروه، فرسخ إيمانهم به، واختبروا محبته، واحتملوا المحن والصعوبات والمقاومات في سبيله. اختارهم اثني عشر تلميذاً بعدد أسباط بني إسرائيل، ليربط العهدين القديم والجديد. عرف أهمية اختيار التلاميذ وصعوبته فقضى الليل كله في الصلاة - كان هذا الليل المضني لقواه الجسدية كزرع ظهر حصاده في ثمار هؤلاء الرسل، في قدوتهم وأفعالهم وكتاباتهم التي ملأت الأرض. وهذا الحصاد يتجدد ويتزايد جيلاً بعد جيل لمجد الله ومسيحه وفخر الذين سمّاهم رسلاً .

قال البشير: «ولما كان النهار صعد إلى الجبل، ودعا تلاميذه الذين أرادهم فذهبوا إليه، واختار وأقام منهم اثني عشر ليكونوا معه، وليرسلهم ليكرزوا، ويكون لهم سلطان على شفاء الأمراض وإخراج الشياطين». سمّاهم «رسلاً» لأنه أرسلهم ليعملوا باسمه لا باسمهم، قال لهم بعدئذ «كَمَا أَرْسَلَنِي الْآبُ أَرْسَلُكُمْ أَنَا» (يوحنا ٢٠:٢١) أقامهم قبل صعوده بمدة كافية لينسيهم كثيراً مما تلقّوه في مدارسهم في الصغر، وما تعلموه من رؤسائهم في الكبر، من الآراء المضلّة والعوائد الذميمة، وليشبعهم من الغذاء الجديد الروحي الذي هو التعاليم الإلهية الصحيحة، ليفهمهم روح التعاليم القديمة الحقيقي .

نصحب المسيح بأفكارنا وهو ينظر حوله بعد جلوسه بنظرة الحب الممتاز والرضى، فليس حوله إلا الذين دعاهم. نصغي إلى هذا السيد الذي يزّين جلاله ثيابه، بينما يوضح لهؤلاء حقيقة مشروعه المهم، وسمو مقاصد محبته وعظمة مسؤوليته التي سيضعها على عاتق الذين سينتقيهم من بينهم. لكن ماذا تكون أفكار سامعيه؟ لا شك أن كل فردٍ منهم يشاق أن يكون من المختارين، لأن هذا برهان ثقة معلّمه به، وفرصته الذهبية ليصاحب معلمه ليحصل على إرشاداته الخصوصية، ثم على خدمة ممتازة. لا بد أن عواطفهم جاشت عندما ابتداء يسمى رسولاً بعد آخر، والتفت الجميع إلى الذي يُسمّى بنظرة التطويب، وربما بقليل من الحسد الطبيعي .

كان إقدام سمعان بن يونا ونشاطه وغيرته أسباباً كافية لتعطيهِ الاسم الأول في قوائم الرسل الأربع التي حُفظت لنا، فنستنتج أن المسيح دعاه أولاً في هذا الاختيار، وأنه دعاه باسمه الجديد «بطرس» الذي يدفع الالتباس بينه وبين سمعان الثاني بين الرسل. ثم تلا ذلك تسمية

أخيه أندراوس - أول من تبع المسيح بعد ظهوره - وأول مبشر مسيحي في التاريخ، لأنه هو الذي أتى بأخيه بطرس إلى المسيح، ولو أن الإنجيل لم يذكره كثيراً بعد هذا. ثم سَمَّى المسيح الأخوين يعقوب ويوحنا ابني زبدي شريكَي أندراوس وبطرس في الوطن والمهنة، نرى أكبرهما يعقوب مقدماً في الكنيسة بعد صعود المسيح، حتى أخذه هيرودس أغريباس بعد نحو خمس عشرة سنة أول ضحية يقدمها إرضاءً لكَيْد أعداء المسيحية رؤساء اليهود. وأما الأصغر يوحنا فعاش كثيراً، وخدم الكنائس خدمات جليلة طويلاً، بعد أن رقد كل زملائه في قبورهم .

أما سبب ذكر هؤلاء الرسل الأربعة أولاً فهو أن هؤلاء الأربعة كانوا باكورة الذين تبعوا المسيح يوم كان لا يزال مجهولاً بين الناس .

ثم اختار المسيح شخصين آخرين رفيقين لهؤلاء الأربعة في التلمُّذ له، وهما فيلبس وثنائيل، ولم يرَدْ ذَكَرُ فيلبس بعد اختياره إلا في بشارة يوحنا. أما ثنائيل فهو نفسه برثولماوس. بتسمية هؤلاء الستة تمَّ تنظيم نصف الهيئة الرسولية، وكلهم من تلاميذ المعمدان سابقاً، وكان التصاقهم بالمعمدان النبي المصلح، برهاناً كافياً على حسن استعدادهم الديني. فلا بد من أن اختيارهم جميعاً كان منتظراً ومُستصوباً من التلاميذ الآخرين الحاضرين .

أما الاسم السابع فموجبٌ لبعض الريب، لأنه العشار متى أو لاوي. فهل يصلح هذا الخاطئ رسولاً؟ بناء على مواهبة العقلية والروحية يصلح. وقد برهن اختيار المسيح له أن المرفوض من الناس يكون مكرماً عند الله، فاختياره مثال دائم لقوة النعمة التي تصيِّر عشاراً دنيئاً، رسولاً ممتازاً. أما رفيق متى في التسمية فهو توما، الذي لا نعرف عن ماضيه شيئاً، بخلاف السبعة الذين تعيَّنوا قبله .

يليه في التسمية يعقوب آخر. لقبوه بـ«يَعْقُوب الأصغر والصغير». ظنه البعض أخاً لمتى، لأن اسم أبي الاثنين حلفى. لكن ينفي هذا الظن عدمُ ضمِّ الاسمين كانضمام بطرس وأندراوس ويعقوب مع يوحنا .

ثم اختار المسيح رجلاً نستغرب تعيينه، بسببِ هو عكس سبب استغرابنا لتعيين متى. كان متى عبداً للرومان وواحداً من مأموريهم، ولذلك كان مكروهاً ومحتقراً من أمته. أما سمعان الغيور فكان عدو الرومان، وعضو جمعية غايتها قُلبُ حكومتهم، فلذلك كان مكرماً عند أمته. وقد استحسّن المسيح أن يضم إلى صف الرسل رجلاً من هذا الصنف أيضاً. ليتِمَّتْ في رسله طباعٌ ومقاطعاتٌ وجِرْفٌ مختلفة. أما الرسول الحادي عشر فله اسمان: «لباوس الملقب تداوس» وأيضاً «يهوذا أخا يعقوب بن حلفى .»

أما آخر الرسل فكان من مقاطعة اليهودية، بينما كان الآخرون من الجليل. اسمه يهوذا سمعان الإسخريوطي، لأن اسم بلده «قريوت». وكما أنه منفرد عن زملائه الأحد عشر في الوطن، فهو منفرد أيضاً في الخيانة، لأنه يوصف في كل القوائم بذكر جريمته الفائقة القباحة، إذ يُسمّى «يهوذا الإسخريوطي الذي أسلمه». لا نتجاسر أن نجزم بالأسباب التي دعت المسيح لاختار شخصاً عرف منذ البدء أنه سيخونه، وأن الجوهر الديني الذي يؤهله للرسولية ليس فيه. يجوز أن المسيح قصد إتمام النبوات، وتسهيل المقاصد الإلهية، فاختره. يجوز أيضاً أن يعطي مثلاً ليعلم الناس أن لا يهملوا خدمة الأشرار، لعلمهم يربحونهم للصالح، ومثلاً على أن أنجح الوسائل الروحية لا بد أن تفشل مع البعض. أو أنه اختاره كي يتضح له أنه بلا عذر في خيانتته الفظيعة، بعد الوسائط الفائقة التي تقدّمت له لأجل إصلاحه. ربما لم يكن يهوذا شريراً لما تبع المسيح، وعندما تعيّن رسولاً، فهو من الذين يبتدئون حسناً وبإخلاص، لكن لعدم اتكالهم على النعمة الإلهية التي وحدها تحفظ من السقوط، ينقادون بعد حين إلى الأهواء الشريرة. أما تسليم الصندوق لهذا اللص فقد يكون عمل التلاميذ الذي تركه المسيح لهم. وأنهم عيّنوه لمّا وجدوه صاحب إقدام على العمل وبراعة في الحساب .

بعد أن انتهى المسيح من اختيار تلاميذه، لا بد أنه سرح بنظره الثاقب إلى الأمام، ورأى بروح النبوة ما يكون من أمر هؤلاء الرسل. رأى ضعفاتهم وسقطاتهم، ورأى أيضاً غيرتهم ونشاطهم ونهوضهم من السقطات، وانتصارهم على الصعوبات والمقاومات، ورأى تأثير تبشيرهم في حياتهم، وتأثير كتاباتهم ومؤسساتهم بعد مماتهم. ثم رآهم مكللين بالمجد الفائق بين الشهداء عن يمين العرش الإلهي جالسين على «كراسي يدينون أسباط إسرائيل الإثني عشر» (متى ١٩: ٢٨).

الموعظة على الجبل

(متى ٥: ١-٢٨: ٧)

بعد أن اختار المسيح تلاميذه، ألقى عليهم عظة فريدة وافية شاملة أبدية، تُعتبر قاعدة المواعظ وخلاصة الدين، وتُسمى «الموعظة على الجبل». ألقاها المسيح في مكان مرتفع بقرب كفرناحوم، اتفق أكثر المفسرين على أنه المكان المعروف حالياً باسم «قرون حطين» وهو للجهة الشرقية الشمالية من مدينة طبرية. والموعظة على الجبل هي أهم وأكمل ما ورد من عظات المسيح، كما أنها الأكثر شهرة، والأقرب قبولاً عند أصدقاء المسيحية من سائر حُطَب المسيح .

هذه الموعظة دستور الملكوت الروحي الجديد الذي أنشأه المسيح على أساس النظام القديم الإلهي الذي أنزل على موسى والأنبياء، وجاء المسيح لا لينقضه بل ليكمّله. في هذا الملكوت نرى أن المسيح هو الملك الذي أنبأ الله عنه قبلاً بعم نبيّه داود: «أَمَّا أَنَا فَقَدْ مَسَحْتُ مَلِكِي عَلَى صِهْيُونَ جَبَلِ قُدْسِي» (مزمور ٢: ٦). فلا بدّ له من منشور خصوصي يسلمه لسفرائه الرسل معلناً فيه ما هو جديد في نظام هذا الملكوت، وما هو المعنى الجديد لما حفظ فيه من النظام القديم. فالملك الذي عيّن رسله، يؤيدهم بقوة خصوصية تمكّنهم من القيام بمهمتهم المتنوعة العجيبة .

قبل الإصغاء إلى كلام المسيح، لنقف قليلاً لنشرح الظروف الخارجية المتعلقة بهذه العظة، التي لم تُعطَ كما أُعطيت الشريعة القديمة، فقد أُعطيت شريعة موسى على جبل سيناء الأجرد، بصوت إله غير منظور، ومحوطة بالبروق والرعود والزلازل ولهيب النار المخيفة، بينما حُرّم على كل حي، سوى موسى الكليم، الدنو من هذا الجبل وإلا قُتل رجماً. أما الموعظة على الجبل فأُلقيت على جبل «قرون حطين» الأنيس، في وسط المروج الخضراء، وبين تغريد العصافير الأليفة، وأريج الأزهار الجميلة. والصوت صوت الإله متأنساً متسرّلاً بالطبيعة البشرية، محاطاً بتلاميذه، وراءهم جمهور من كل الأنحاء جاءوا لسماع كلامه .

قال اليهود في تقاليدهم إنه عندما يظهر المسيح فإنه يقف على شاطئ البحر عند مدينة يافا، ويأمر البحر أن يسلم ما فيه من الكنوز، فيقذف البحر أمام قدميه الجواهر الثمينة والكنوز التي دُفنت في قاعه، فيلبس المسيح تابعية الملابس الفاخرة والحجارة الكريمة، ويطعمهم مناً سماوياً يفوق حلاوة ولذة المن الذي أكله آباؤهم أربعين سنة في البرية. هذا تصوير وهمي لمجيء المسيح وهمي .

أفلم تكن الحقيقة التي نحن بصددھا أجمل وأكمل؟ هل من جواهر في قاع البحر تساوي جواهر التعليم الروحي الجوهري؟ هل من حُلل أفر من حلل الخصال الحميدة المذكورة في وعظه والظاهرة في مثاله؟ هل في الأمر للبحر أن يقدم ما فيه سطوة وهيبة كالتي في الأمر للشياطين أن تخرج من الناس، وللموتى أن تحيا، وفي الأمر الذي يمنح غفران الخطايا لتابعيه .

لا ريب في أن كل درر تعاليمه ليست جديدة في مسامع البشر. كان قد سبق عند اليهود كثير، وعند الأمم قليل من التعاليم المشابهة لها، لكن هذه السابقة كانت كجسم آدم الجميل، عندما جبله الرب من التراب قبل أن قام حياً، بينما تعاليم المسيح أشبه بجسم آدم بعد أن نفخ الخالق نسمة الحياة .

«وَلَمَّا رَأَى الْجُمُوعَ صَعِدَ إِلَى الْجَبَلِ، فَلَمَّا جَلَسَ تَقَدَّمَ إِلَيْهِ تَلَامِيذُهُ. فَعَلَّمَهُمْ قَائِلًا: «طُوبَى لِلْمَسَاكِينِ بِالرُّوحِ، لِأَنَّ لَهُمْ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ. طُوبَى لِلْحَزَانَى، لِأَنَّهُمْ يَتَعَزَّوْنَ. طُوبَى لِلْوُدَعَاءِ، لِأَنَّهُمْ يَرْتَوْنَ الْأَرْضَ. طُوبَى لِلْجِيَاعِ وَالْعَطَاشِ إِلَى الْمَرْ، لِأَنَّهُمْ يُشْبَعُونَ. طُوبَى لِلرَّحَمَاءِ، لِأَنَّهُمْ يُرَحَّمُونَ. طُوبَى لِلْأَنْقِيَاءِ الْقُلُوبِ، لِأَنَّهُمْ يُعَايِنُونَ اللَّهَ. طُوبَى لِصَانِعِي السَّلَامِ، لِأَنَّهُمْ أَبْنَاءُ اللَّهِ يُدْعَوْنَ. طُوبَى لِلْمَطْرُودِينَ مِنْ أَجْلِ الْمَرْ، لِأَنَّ لَهُمْ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ. طُوبَى لَكُمْ إِذَا عَيَّرُوكُمْ وَطَرَدُوكُمْ وَقَالُوا عَلَيْكُمْ كُلَّ كَلِمَةٍ شَرِيرَةٍ، مِنْ أَجْلِي، كَاذِبِينَ. اِفْرَحُوا وَتَهَلَّلُوا، لِأَنَّ أَجْرَكُمْ عَظِيمٌ فِي السَّمَاوَاتِ، فَإِنَّهُمْ هَكَذَا طَرَدُوا الْأَنْبِيَاءَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ» (متى ١٢: ٥-١).

بداية الموعظة: طوبى

صعد المسيح إلى الجبل. ولما جلس تقدم إليه تلاميذه، فعلمهم قائلاً: «طوبى». كان روح الشريعة القديمة ظاهراً في القول: «مَلْعُونٌ كُلُّ مَنْ لَا يَتَّبِعُنِي فِي جَمِيعِ مَا هُوَ مَكْتُوبٌ فِي كِتَابِ النَّامُوسِ لِيَعْمَلَ بِهِ» «غلاطية ٣: ١٠» وفي اللعنات المفصلة التي نودي بها على جبل عيبال. أما الشريعة الجديدة فقد أعلن المسيح روحها في الآية الشهيرة: «لَأَنَّهُ هَكَذَا أَحَبَّ اللَّهُ الْعَالَمَ حَتَّى بَذَلَ ابْنَهُ الْوَحِيدَ، لِكَيْ لَا يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ بَلْ تَكُونَ لَهُ الْحَيَاةُ الْأَبَدِيَّةُ» (يوحنا ٣: ١٦). استحسّن المسيح أن يكون استهلال شريعته كلمة «طوبى»، وهي الكلمة التي استهل بها جده داود بعض مزاميره الفائقة الشهرة والجمال .

افتتح المسيح وعظه، لا بالوصايا والوعيد، بل بالتهنئة، لأنه أتى من عند الأب لكي يردّ للبشر سعادة فقدوها بسبب الخطيئة، فجعل الفرح من أهم أركان ملكوته، وجمع في كلمة «طوبى» التهنئة والفرح والسعادة، لأنه يتكلم عن الطوبى الحقيقية لا الوهمية. ففي يومنا هذا نرى أن مبادئ ملكوته الجديد قد رسخت في العالم، وأنها تتسلط تدريجياً قرناً بعد قرن

من يوم ظهورها إلى الآن، فقد أجمع البشر وعلمائهم على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم، بأن شريعة المسيح أسمى كل ما ظهر في تاريخ الإيمان .

نرى في سلسلة التطويبات التي أتت في مقدمة هذه العظة أمراً يجب الانتباه الخصوصي إليه، وهو ما أتى قديماً في القول الإلهي: «لأن أفكارى ليست أفكاركم، ولا طرقكم طرقى يقول الرب» (إشعيا ٥٥: ٨). فمن أول أعمال المسيح أنه نقض الآراء الدينية الباطلة السائدة في ذلك الزمان، ونفى الخطأ في تعاليم رؤساء الدين اليهودي في زمانه .

طوبى للمساكين

الطوبى الأولى تقول: «طوبى للمساكين بالروح، لأن لهم ملكوت السماوات» وهي تتحدث عن أشخاص غير الذين ظنهم أهل ذلك الزمان أصحاب ملكوت السماوات، فهذه الحجة للتطويب لا يصدقها سامعوه، لأنهم يحسبون أن في مقدمة أصحاب السعادة رؤساء الدين من كهنة وكتبة وفريسيين (أي الأغنياء في المنصب الديني). لهؤلاء يكون القول الأول والمنفعة الكبرى في الملكوت الزمني المجيد الذي يقيمه المسيح متى جاء. لكن المسيح يرى أن ملكوت السماوات ليس لأولئك وأمثالهم، بل للمساكين بالروح، لأن هؤلاء هم الذين يملكون مع المسيح. كان المسيح قد استشهد في عظته الشهيرة المختصرة في الناصرة بالنبوة القائلة فيه: «الرب مَسَحَّنِي لِأُبَشِّرَ الْمَسَاكِينَ» (لوقا ٤: ١٨) ولهذا خصص تطويبه الأول للمساكين بالروح .

طوبى للحرانى

الطوبى الثانية أعطاها للذين يتمتعون بتعزيات الحياة في وسط مصائبها ويفرحون بعد البكاء. ولا خلاف بين المسيح وسامعيه في هذا القول، لكنهم يخصصون هذه التعزيات للأغنياء، الذين يدفعون عنهم المصائب بمعاونة ذويهم، ويتعزون بكثرة الأصدقاء. أما فهو فخصصها للباكين من الويل والشقاء. التعزية الإلهية هي للذين قد عُفِيَ عن إثمهم، وقد قبلوا من يد الرب ضعفين عن كل خطاياهم (إشعيا ٤٠: ٢).

وطوبى للودعاء

الطوبى الثالثة هي للذين يرثون الأرض. نعم ومن هم؟ حسب رأي سامعيه هم أصحاب النفوذ، الذين بدهائم يسيطرون على البشر، وبمهارتهم يوسعون أملاكهم ويزيدون ثروتهم. أليس هؤلاء هم الذين يرثون الأرض؟ أما المسيح فيرى أن الذين يرثون الأرض هم الودعاء. في ملكوت المسيح ليس المهبوب بل المحبوب هو الذي يرث الأرض. رأى هذه الحقيقة داود النبي فقال: «بَعْدَ قَلِيلٍ لَا يَكُونُ الشَّرِيرُ. تَطْلُعُ فِي مَكَانِهِ فَلَا يَكُونُ. أَمَّا الْوُدَعَاءُ فَيَرِثُونَ الْأَرْضَ، وَيَتَلَذَّذُونَ فِي كَثْرَةِ السَّلَامَةِ» (مزمور ٣٧: ١٠، ١١).

طوبى للجياع والعطاش

الطوبى الرابعة هي نصيب الشباعى. هنا أيضاً اتفاق بين المسيح وسامعيه. لكن من هم الشباعى؟ عند سامعيه هم الأغنياء في المال، الذين لا يشتهون أمراً إلا ويأتيهم المال به. هم الذين لا يعرفون من الجوع إلا اسمه. إنما حسب رأي المسيح، هم الذين لا يباليون بالغنى المادي، ولا يشتهون كثيراً خيرات هذا العالم، بل يجوعون ويعطشون إلى البر السماوي لأجل نفوسهم ولأجل من حولهم. في ملكوت المسيح هؤلاء هم الذين يشبعون. وقد قال نبي الله إشعياء: «هَكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: «هُوَذَا عِبِيدِي يَأْكُلُونَ وَأَنْتُمْ تَجُوعُونَ. هُوَذَا عِبِيدِي يَشْرَبُونَ وَأَنْتُمْ تَعْطَشُونَ» (إشعياء ٦٥: ١٣).

طوبى للرحماء

الطوبى الخامسة خصّها للرحومين، الذين ينالون من الله الرحمة ومن الناس المراعاة. لكن هل هم الأغنياء في السلطان، أي الملوك والحكام المرعيو الجانب، السالمون من المظالم؟ وهل هم الذين يرغمون الناس على مراعاتهم بسطوتهم؟ وبقوتهم يخدمون المصالح الدينية الخارجية، وبذلك يكسبون عند الله أيضاً المراعاة؟ يقول المسيح إن الذين يُرحمون هم اللطفاء لا المتجبرون. هم الذين يراعون الناس لا الذين يراعيهم الناس. هم الذين يخضعون للآخرين لا الذين يُخضعونهم. في ملكوته ينال الرحماء الرحمة لا العتاة. قال الحكيم سليمان: «الرَّجُلُ الرَّحِيمُ يُحْسِنُ إِلَى نَفْسِهِ» (أمثال ١١: ١٧). وقال أبوه داود لله: «مَعَ الرَّحِيمِ تَكُونُ رَحِيمًا» (مزمور ١٨: ٢٥).

طوبى للأنقياء القلب

السبب المعطى للطوبى السادسة هو أصعب الكل وأبعدها عن التصديق. قال: «طوبى للأنقياء القلب، لأنهم يعاينون الله.» أليس هذا مستحيلاً في هذه الدنيا؟ أليس هو العلي الذي يرى ولا يُرى؟ ألم يقل المسيح سابقاً: «اللَّهُ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ قَطُّ؟» (يوحنا ١: ١٨) مع كل ذلك نعلم أن اشتهاؤ الإنسان معاينة الله أمر فطري، وأشرف ما هو فطري في الإنسان.

حسب تصوّرات الذين خاطبهم المسيح إن الذين يعاينون الله في هذه الدنيا، أو في الآخرة هم الأغنياء في العلم، ولا سيما المتعمّقين في الدروس اللاهوتية، لأن لهم البصيرة الكافية ليروا من الأمور الإلهية ما لا يراه غيرهم. لكن المسيح يرى أن أنقياء القلب هم الذين يعاينون الله. لا أنقياء العين بل أنقياء القلب. العين التي تستطيع رؤية الله إذاً ليست عين العقل الذكي بل القلب النقي. قال داود النبي: «لَأَنَّ الرَّبَّ عَادِلٌ وَيُحِبُّ الْعَدْلَ. الْمُسْتَقِيمُ يُبْصِرُ وَجْهَهُ.. مَنْ يَصْعَدُ إِلَى جَبَلِ الرَّبِّ، وَمَنْ يَقُومُ فِي مَوْضِعِ قُدْسِهِ؟ الطَّاهِرُ الْيَدَيْنِ، وَالنَّقِيُّ الْقَلْبِ» (مزمور ١١: ٧ و ٢٤: ٤).

طوبى لصانعي السلام

الطوبى السابعة للذين يُدعون أبناء الله. حسب زعم سامعي المسيح هم أبناء إبراهيم، سلالة النسل المختار، الداخلون بالاختتان في عداد شعب الله من بني إسرائيل. هم الذين يقصدون إثارة الحرب على الرومان ليحرروا الأمة المقدسة من نيرهم، حتى لا يكون عليهم ملكٌ إلا الله. هم الذين يقصدون أيضاً محاربة الشعوب الأخرى لكي يُكرهوهم بالسيف على اتباع الدين الحق، وترك العبادات الوثنية، ويجعلونهم خُداماً عند شعب الله الخاص الأصلي. لكن المسيح يرى أبناء الله هم الذين يصنعون في العالم سلاماً لا حرباً، لأن السلام هو من أركان ملكوته الرئيسية. هم الذين يصنعون سلاماً مع الله بالطاعة. وسلاماً مع الناس بالمحبة. قيل في الإنجيل إن المسيح جاء ليخلق منّا إنساناً واحداً جديداً. صانعاً سلاماً (أفسس ٢: ١٥) «وَتَمَرُّ الْبِرُّ يُزْرَعُ فِي السَّلَامِ مِنَ الَّذِينَ يَفْعَلُونَ السَّلَامَ» (يعقوب ٣: ١٨).

طوبى للمطرودين

أخيراً يكرر المسيح الطوبى للذين لهم ملكوت السماوات. يظن سامعوه أن ملكوت السماوات، هو للأغنياء في التدبير الخارجي، الذين يكثر من الأصوام والصلوات ويقدمون الحسنات، على شرط أن يكونوا من الجنس المختار الإسرائيلي، الذين يعتقدون أن مسيحهم متى جاء يجعل الشخص الذي كان مجده كنور النجم يصبح كنور القمر، والذي كان مجده كنور القمر يصبح كنور الشمس. ويعود مجد الشعب الإسرائيلي إلى أضعاف ما كان عليه في أفخر أيام عزهم. هذا هو ملكوت السماوات الذي يحلمون به، وهؤلاء هم الذين لهم الملكوت ويستفيدون منه. لكن المسيح يرى أن ملكوت السماوات هو للمطرودين من أجل البر، الذين لأنهم مساكين بالروح، وحزاني، وودعاء، وجياع، وعطاش، ورقيقو الشعور، وأنقياء القلب، ومسالمون، لا يعتبرهم العالم، بل يحتقرهم ويجتنبهم ويخرجهم من دوائره، فيعوضهم الرب ملك الملكوت الجديد بإعطائهم إياهم ملكوت السماوات.

تعليق على التطويبات

هذه هي سلسلة التطويبات. لم نجد فيها حتى ولا حلقة واحدة من الثمانية تختص بالطقوس المذهبية، أو تتناول شيئاً من الفرائض الدينية الخارجية. وخلاصتها أن مسكين العالم هو غنيُّ الملكوت، والحزين هو المتعزي، والباكي هو الضاحك، والخاضع للناس هو الحاكم في الناس، والجوعان للبر هو الشبعان، والمعطي هو الذي يُعطى، والبسيط القلب هو الفهم، وصانع السلام لا صانع الحرب هو ابن الملك وهو المنصور، والمطروود من وطنه لأجل الله هو صاحب الوطن الثابت.

هذه التطويبات فأس، ضرب المسيح بها أصول شجرة الآمال العالمية عند اليهود، والمتعلقة بمجيء المسيا وملكوته المادي، فالطوبى الحقيقية الدائمة لا تتوقف على الأمور الخارجية الدينية، ولا على النجاح المادي والزمني، بل على الأمور الداخلية الروحية والنجاح الأبدي. لما كَلَّمَ المسيح نيقوديموس كان موضوع حديثه الولادة الروحية لدخول الملكوت الروحي، ولما كَلَّمَ المرأة السامرية كان موضوع حديثه روحانية الله وملكوته. وفي وعظه على الجبل لا يزال هذا الموضوع شاغله الأول. والحاجة إلى هذا التعليم ليست أقل في يومنا هذا مما كانت في تلك الأيام. ما أبعد هذا عما نشاهده اليوم في كل المذاهب من استيلاء المجد العالمي على أرباب الدين ومعلميه، ومن ترويج المقاييس المادية لا الروحية في الدوائر الدينية .

كانت هذه التطويبات مقدمة عمومية لخطاب في صيغة المخاطب، كَلَّمَ به المسيح الذين اختارهم ليكونوا رسلاً. وكأنه يقول لهم: لقد تولدت فيكم مبدئياً الصفات التي بنيت عليها التطويبات، وذلك يجعلكم ممقوتين من قومكم الذين تربيتهم بينهم. فأقول لكم طوباكم أنتم متى عاملوكم على الكيفية التي شرحتها الآن. فمتى طردوكم وأهانوكم وعيروكم وأفرزوكم من أجل البر، ومن أجل ابن الإنسان، لا تحزنوا ولا تتكذبوا، بل افرحوا وتهللوا. أولاً لأن أجركم في السماء لقاء ذلك يكون عظيماً، ثم لأنكم بذلك تماثلون الأنبياء الأقدمين، فتشتركون في شرفهم الدائم .

أنتم ملح.. أنتم نور

«أَنْتُمْ مِلْحُ الْأَرْضِ، وَلَكِنْ إِنْ فَسَدَ الْمِلْحُ فِيمَاذَا يُمْلَحُ؟ لَا يَصْلُحُ بَعْدُ لِشَيْءٍ، إِلَّا لِأَنْ يُطْرَحَ خَارِجاً وَيُدَاسَ مِنَ النَّاسِ. أَنْتُمْ نُورُ الْعَالَمِ. لَا يُمَكِّنُ أَنْ تُخْفَى مَدِينَةٌ مَوْضُوعَةٌ عَلَى جَبَلٍ، وَلَا يُوقِدُونَ سِرَاجاً وَيَضَعُونَهُ تَحْتَ الْمِكْيَالِ، بَلْ عَلَى الْمَنَارَةِ فَيُضِيءُ لَجَمِيعِ الَّذِينَ فِي الْبَيْتِ. فَلْيُضِيءِ نُورُكُمْ هَكَذَا فُدَامَ النَّاسِ، لِكَيْ يَرَوْا أَعْمَالَكُمْ الْحَسَنَةَ، وَيَمَجِّدُوا أَبَاكُمْ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ» (متى ١٣: ٥-١٦).

في هذه الكلمات يقول المسيح ربنا لنا: أنتم ملح الأرض وأنتم نور العالم. فإذا رفضكم العالم فإن رفضه لا يفسد ملوحتكم ولا يخفي نوركم. وكما يفعل الملح في الطعام تفعلون أنتم فعلاً إصلاحياً، وإن كان خفياً، حتى في القوم الذين يريدون أن يهلكوكم. وكما أن طبيعة النور هي الانتشار، هكذا لا بد أن تضئ فضائلكم التي هي ثمر الروح القدس فيكم، فيرى الناس أعمالكم الحسنة ولكن ليس لتمجيدكم أنتم، بل لتمجيد أبيكم الذي في السماوات. وكما أن السراج لا يوقد لكي ينظر الناس إليه، بل لكي ينظروا بواسطته شيئاً آخر أهم منه، هكذا تكونون أنتم. لأن لا قيمة للملح في حد ذاته بل في فعله، ولا قيمة للسراج إلا في نوره. ولا قيمة لكم كتلاميذي إلى بأن تصلحوا وتنبروا. قد أقمتكم لأجل هذا، ليس بين شعب إسرائيل

فقط، بل أنتم ملح الأرض بأسرها ونور العالم كله. في شخصكم قبل تعليمكم يظهر الملح والنور، لأن الشخص الحي يفعل ما لا يفعله مجرد التعليم .

يكمل القديم، لا ينقضه

«لَا تَطْنُوا أَنِّي جِئْتُ لِأَنْقُضَ النَّامُوسَ أَوْ الْأَنْبِيَاءَ. مَا جِئْتُ لِأَنْقُضَ بَلْ لِأَكْمِلَ. فَإِنِّي الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ: إِلَى أَنْ تَزُولَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ لَا يَزُولُ حَرْفٌ وَاحِدٌ أَوْ نُقْطَةٌ وَاحِدَةٌ مِنَ النَّامُوسِ حَتَّى يَكُونَ الْكُلُّ. فَمَنْ نَقَضَ إِحْدَى هَذِهِ الْوَصَايَا الصَّغْرَى وَعَلَّمَ النَّاسَ هَكَذَا، يُدْعَى أَصْغَرَ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ. وَأَمَّا مَنْ عَمِلَ وَعَلَّمَ، فَهَذَا يُدْعَى عَظِيماً فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ. فَإِنِّي أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّكُمْ إِنْ لَمْ يَزِدْ بَرُّكُمْ عَلَى الْكِتَابَةِ وَالْفَرِيسِيِّينَ لَنْ تَدْخُلُوا مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ» (متى ١٧: ٥-٢٠).

وهنا يقول لنا المسيح: لا تتوهّموا أن تعاليمي الجديدة تستخف بالكتاب الإلهي الذي بين أيديكم، لأن زوال السماء والأرض أيسر من زوال أدنى نقطة من نقطته، إلا بعد أن تتم. إنني أقصد إثبات الناموس المنزل على موسى والأنبياء لا إلغائه. أبدل منه ما هو وقتي بعد أن أكمله. أتيت لأنقض أعمال إبليس وليس ناموس الله وأقوال الأنبياء، فالناموس في يد الكتبة والفريسيين لا يثمر بالصلاح، فهو كبزر الفاكهة الذي لا يؤكل. وإن مطالب الناموس، جئت لأبين لهم عظمتها فوق ما كانوا يتصورون .

شريعة الصلح

«قَدْ سَمِعْتُمْ أَنَّهُ قِيلَ لِلْقَدَمَاءِ: لَا تَقْتُلْ، وَمَنْ قَتَلَ يَكُونُ مُسْتَوْجِبَ الْحُكْمِ. وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ كُلَّ مَنْ يَغْضَبُ عَلَى أَخِيهِ بَاطِلاً يَكُونُ مُسْتَوْجِبَ الْحُكْمِ، وَمَنْ قَالَ لِأَخِيهِ: رَقاً يَكُونُ مُسْتَوْجِبَ الْمَجْمَعِ، وَمَنْ قَالَ: يَا أَحْمَقُ يَكُونُ مُسْتَوْجِبَ نَارِ جَهَنَّمَ. فَإِنْ قَدِمْتَ قُرْبَانَكَ إِلَى الْمَذْبَحِ، وَهُنَاكَ تَذَكَّرْتَ أَنَّ لِأَخِيكَ شَيْئاً عَلَيْكَ، فَاتْرُكْ هُنَاكَ قُرْبَانَكَ قُدَّامَ الْمَذْبَحِ، وَادْهَبْ أَوَّلًا اصْطَلِحْ مَعَ أَخِيكَ، وَحِينَئِذٍ تَعَالَ وَقَدِّمْ قُرْبَانَكَ. كُنْ مُرَاضِياً لِحَصْنِكَ سَرِيعاً مَا دُمْتَ مَعَهُ فِي الطَّرِيقِ، لِئَلَّا يُسَلِّمَكَ الْخَصْمُ إِلَى الْقَاضِي، وَيُسَلِّمَكَ الْقَاضِي إِلَى الشَّرْطِيِّ، فَتُلْقَى فِي السِّجْنِ. الْحَقُّ أَقُولُ لَكَ: لَا تَخْرُجُ مِنْ هُنَاكَ حَتَّى تُوفِيَ الْفَلَسَ الْأَخِيرَ» (متى ٢١: ٥-٢٦).

يقول المسيح هنا: إن الوصية التي تنهى عن القتل تنهى أيضاً عن الغضب والنميمة والبغض. صلاتكم وقرابينكم لا تقبل بمجرد امتناعكم عن القتل، إذ يجب أن تمتنعوا عن البغض، فهذا روح الوصية قبل حروفها .

تعلمتم أن تتركوا ذبيحة الفصح قدام المذبح وتتوقّفوا عن تقديمها، لكي ترجعوا وتزعموا من بيوتكم خميراً غفلتم عنه. وأنا أعلمكم أن ترجعوا وتستغفروا الذي أسأتم إليه قبل تقديمكم الصلاة لله .

شريعة الطهارة

«قَدْ سَمِعْتُمْ أَنَّهُ قِيلَ لِلْقَدَمَاءِ: لَا تَزْنِ. وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ كُلَّ مَنْ يَنْظُرُ إِلَى امْرَأَةٍ لِيَشْتَهِيَهَا، فَقَدْ زَنَى بِهَا فِي قَلْبِهِ. فَإِنْ كَانَتْ عَيْنُكَ الْيُمْنَى تُعْثِرُكَ فَأَقْلَعْهَا وَأَلْقِهَا عَنْكَ، لِأَنَّهُ خَيْرٌ لَكَ أَنْ يَهْلِكَ أَحَدُ أَعْضَائِكَ وَلَا يُلْقَى جَسَدُكَ كُلُّهُ فِي جَهَنَّمَ. وَإِنْ كَانَتْ يَدُكَ الْيُمْنَى تُعْثِرُكَ فَأَقْطَعْهَا وَأَلْقِهَا عَنْكَ، لِأَنَّهُ خَيْرٌ لَكَ أَنْ يَهْلِكَ أَحَدُ أَعْضَائِكَ وَلَا يُلْقَى جَسَدُكَ كُلُّهُ فِي جَهَنَّمَ» (متى ٢٧: ٥-٣٠).

كم من أناس يعترفون بخطاياهم الفعلية ولا يحسبون حساباً لخطاياهم الفكرية، ناسين أن النظرة الشهوانية هي الزنى بعينه، لأنها سببه وأصله - إنني أشدد على استئصال جرثومة الخطأ من أسسها، ومن كل ما يؤدي إلى ارتكابها .

لا تنسوا أنه خيرٌ لكم أن تخسروا أثمن ما عندكم ولو كان أحد أعضاء جسدكم، حتى العين أجملها وأعزّها، من أن تخسروا الرضى الإلهي فهو حياتكم وسماؤكم، وأن تجلبوا عليكم الدينونة الإلهية التي هي موتكم وجحيمكم .

شريعة الطلاق

«وَقِيلَ: مَنْ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ فَلْيُعْطِهَا كِتَابَ طَلَاقٍ وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ مَنْ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ إِلَّا لِعِلَّةِ الزَّنى يَجْعَلُهَا زَّانِيَةً، وَمَنْ يَتَزَوَّجُ مُطَلَّقةً فَإِنَّهُ يَزْنِ» (متى ٣١: ٥، ٣٢).

أجاز موسى الطلاق بسبب ما كانت حال قومه من البداوة والقساوة، ولم يستحسن الله ذلك، لأنه يكره الطلاق. ولما كان يكرهه يكون ممنوعاً، ولذلك حُرِّم الطلاق في العصر المسيحي .

كان اليهودي يطلق زوجته لأتفه الأسباب، بمجرد صدور كلمة من فمه (تثنية ٢٤: ١)، فصعَّب موسى الطلاق وأوصى أن من أراد تطليق امرأته فلْيُعْطِهَا رغبته في الطلاق مكتوبة .

أما في العهد المسيحي فإني أظهر هذه الرابطة الزوجية لتثبت وتدوم. فالمرأة تبقى مرتبطة أمام الله بزوجها الأول .

شريعة الحق

«أَيْضاً سَمِعْتُمْ أَنَّهُ قِيلَ لِلْقَدَمَاءِ: لَا تَحْنُثْ، بَلْ أَوْفِ لِلرَّبِّ أَقْسَامَكَ. وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: لَا تَخْلِفُوا النِّبَّةَ، لَا بِالسَّمَاءِ لِأَنَّهَا كُرْسِيُّ اللَّهِ، وَلَا بِالْأَرْضِ لِأَنَّهَا مَوْطِئُ قَدَمَيْهِ، وَلَا بِأُورُشَلِيمَ لِأَنَّهَا مَدِينَةُ الْمَلِكِ الْعَظِيمِ. وَلَا تَخْلِفْ بِرَأْسِكَ، لِأَنَّكَ لَا تَقْدِرُ أَنْ تَجْعَلَ شَعْرَةً وَاحِدَةً بَيْضَاءَ أَوْ

سَوْدَاءَ. بَلْ لِيَكُنْ كَلَامُكُمْ: نَعَمْ نَعَمْ، لَا لَا. وَمَا زَادَ عَلَى ذَلِكَ فَهُوَ مِنَ الشَّرِيرِ» (متى ٥: ٢٣-٣٧).

عندكم الوصية التي توجب عليكم القيام بالقَسَمِ. أما أنا فأقول لكم: ليس فقط لا تحلفوا كذباً، بل أيضاً لا تحلفوا صدقاً. انزعوا من حديثكم كل يمين مهما كان بسيطاً وصادقاً. الحلف في الحديث لا محل له إلا ليبين أن بعض هذا الحديث صادق فيؤيد باليمين، وبعضه غير صادق فيترك دون يمين. أما الصادق الوقور فيكتفي بقوله: «نعم نعم ولا لا» «عالم أن ما زاد على ذلك فهو من الشرير.»

شريعة الحقوق

«سَمِعْتُمْ أَنَّهُ قِيلَ: عَيْنٌ بِعَيْنٍ وَسِنٌّ بِسِنٍّ. وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: لَا تُقَاوِمُوا الشَّرَّ، بَلْ مَنْ لَطَمَكَ عَلَى خَدِّكَ الْأَيْمَنِ فَحَوِّلْ لَهُ الْآخَرَ أَيْضاً. وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُخَاصِمَكَ وَيَأْخُذَ ثَوْبَكَ فَاتْرُكْ لَهُ الرِّدَاءَ أَيْضاً. وَمَنْ سَخَّرَكَ مِثْلًا وَاحِدًا فَادْهَبْ مَعَهُ اثْنَيْنِ» (متى ٥: ٣٨-٤٢).

أيضاً تعودتم تحليل الانتقام استناداً على النظام الموسوي الذي يقول: «عين بعين وسن بسن». لكن هذا القول قاعدة العلاقات الرسمية المدنية لا الشخصية.

أجعل لكم تعليماً جديداً، بأن أنزع روح الانتقام ممن يسيء إليكم. تمنع الأحكام المدنية الانتقامات الشخصية، وتوكل إلى الحكام معاقبة المذنبين لردعهم. فالأحكام الدينية تمنع الانتقام طاعة لقول الإنجيل: «لَا تَنْتَقِمُوا لِأَنْفُسِكُمْ أَيُّهَا الْأَحْبَاءُ، بَلْ أَعْطُوا مَكَانًا لِلْغَضَبِ، لِأَنَّهُ مَكْتُوبٌ: «لِي النِّقْمَةُ أَنَا أُجَازِي يَقُولُ الرَّبُّ» (رومية 12:19) فالتنازل عن حقوقكم الشخصية لمن يقصد أن يسلبها منكم أفضل من خصامكم لأجلها.

شريعة الحب

«سَمِعْتُمْ أَنَّهُ قِيلَ: تُحِبُّ قَرِيْبَكَ وَتُبْغِضُ عَدُوَّكَ. وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: أَحِبُّوا أَعْدَاءَكُمْ. بَارِكُوا لَا عَيْنِيَكُمْ. أَحْسِنُوا إِلَى مُبْغِضِيكُمْ، وَصَلُّوا لِأَجْلِ الَّذِينَ يُسِيئُونَ إِلَيْكُمْ وَيَطْرُدُونَكُمْ، لِكَيْ تَكُونُوا أَبْنَاءَ أَبِيكُمْ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ، فَإِنَّهُ يَشْرِقُ شَمْسَهُ عَلَى الْأَشْرَارِ وَالصَّالِحِينَ، وَيُمْطِرُ عَلَى الْأَبْرَارِ وَالظَّالِمِينَ. لِأَنَّهُ إِنْ أَحْبَبْتُمْ الَّذِينَ يُحِبُّونَكُمْ، فَأَيُّ أَجْرِ لَكُمْ؟ أَلَيْسَ الْعَشَّارُونَ أَيْضاً يَفْعَلُونَ ذَلِكَ؟ وَإِنْ سَلَّمْتُمْ عَلَى إِخْوَتِكُمْ فَقَطْ، فَأَيُّ فَضْلٍ تَصْنَعُونَ؟ أَلَيْسَ الْعَشَّارُونَ أَيْضاً يَفْعَلُونَ هَكَذَا؟ فَكُونُوا أَنْتُمْ كَامِلِينَ كَمَا أَنَّ أَبَاكُمْ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ هُوَ كَامِلٌ» (متى ٥: ٤٣-٤٨).

أنتم تظنون أنه جائز لكم أن تبغضوا الذي يبغضكم، وتعادوا الذي يعاديكم. لكن روح الناموس الداخلي هو روح واضع الناموس، الذي يشرق شمسهُ وينزل مطره على أعدائه

كما على أولاده. فإن عاديتم من عاداكم وأحسنتم إلى الذين يحسنون إليكم، لا تكونون أفضل من عبدة الأصنام والكفرة. فلا تقابلوا شراً بشر. إن أحسنتم إلى من يسيء إليكم، تخدمون جذوة العداوة، وتطفنون لهيب البغض. اتخذوا الكمالات الإلهية قاعدة لحياتكم فتكونون حقاً (ليس فقط اسماً) أولاد الأب السماوي. ولكن اعلّموا أن كل الوصايا تُحفظ حقاً في القلب حفظاً روحياً قبل حفظها حرفياً في الخارج. وإلا فحفظها الخارجي لا يُعتبر عند الله.

الصدقة والصوم

«اخْتَرُوا مِنْ أَنْ تَصْنَعُوا صَدَقَتَكُمْ قُدَّامَ النَّاسِ لِكَيْ يَنْظُرُوكُمْ، وَإِلَّا فَلَيْسَ لَكُمْ أَجْرٌ عِنْدَ أَبِيكُمْ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ. فَمَتَى صَنَعْتَ صَدَقَةً فَلَا تُصَوِّتْ قُدَّامَكَ بِالْبُوقِ، كَمَا يَفْعَلُ الْمُرَاوُونَ فِي الْمَجَامِعِ وَفِي الْأَرْقَةِ، لِكَيْ يُمَجِّدُوا مِنْ النَّاسِ. الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُمْ قَدْ اسْتَوْفَوْا أَجْرَهُمْ! وَأَمَّا أَنْتَ فَمَتَى صَنَعْتَ صَدَقَةً فَلَا تُعَرِّفْ شِمَالَكَ مَا تَفْعَلُ يَمِينُكَ، لِكَيْ تَكُونَ صَدَقَتُكَ فِي الْخَفَاءِ. فَأَبُوكَ الَّذِي يَرَى فِي الْخَفَاءِ هُوَ يُجَازِيكَ عِلَانِيَةً.»

«وَمَتَى صُمْتُمْ فَلَا تَكُونُوا عَابِسِينَ كَالْمُرَائِينَ، فَإِنَّهُمْ يُغَيِّرُونَ وُجُوهَهُمْ لِكَيْ يَظْهَرُوا لِلنَّاسِ صَائِمِينَ. الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُمْ قَدْ اسْتَوْفَوْا أَجْرَهُمْ. وَأَمَّا أَنْتَ فَمَتَى صُمْتَ فَادْخُلْ رَأْسَكَ وَاغْسِلْ وَجْهَكَ، لِكَيْ لَا تَظْهَرَ لِلنَّاسِ صَائِمًا، بَلْ لِأَبِيكَ الَّذِي فِي الْخَفَاءِ. فَأَبُوكَ الَّذِي يَرَى فِي الْخَفَاءِ يُجَازِيكَ عِلَانِيَةً» (متى ٦: ١-٤، ١٦-١٨).

نظام الملكوت الجديد الذي أدخلتكم فيه لا يلغي الفروض الدينية الموحى بها من الله، كالصدقة المتجهة نحو القريب، والصلاة المتجهة نحو الله، والصوم المتجه نحو الذات. لكن يُشترط في هذه الفرائض أن لا تُحفظ أمام الناس فقط، أو تؤخذ وسيلة لأجل الافتخار والتعظيم، وريح مدح الآخرين، وآلة للرياء الكريه. فإن كنتم لا تتصدقون وتصلون وتصومون في الخفاء، لا تُحسب صدقاتكم وصلواتكم وأصوامكم الجهارية عند الله، لأنكم إذ ذاك تكونون مرائين. لا تتشبهوا بمعلمي الدين ورؤسائه عندهم، لأنهم مراوون، واصطلاحاتهم في هذه الأمور مثل نواياهم، ومكروهة عند الله. لا تنقادوا إلى ضلالة الأمم كما انقاد رؤساؤكم فيتوهمون أن مجرد تكرار الصلاة تسرُّ الإله الذي يصلون إليه.

الصلاة

«وَمَتَى صَلَّيْتَ فَلَا تَكُنْ كَالْمُرَائِينَ، فَإِنَّهُمْ يُحْبُونَ أَنْ يُصَلُّوا قَائِمِينَ فِي الْمَجَامِعِ وَفِي زَوَايَا الشُّوَارِعِ، لِكَيْ يَظْهَرُوا لِلنَّاسِ. الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُمْ قَدْ اسْتَوْفَوْا أَجْرَهُمْ! وَأَمَّا أَنْتَ فَمَتَى صَلَّيْتَ فَادْخُلْ إِلَى مَخْدَعِكَ وَأَغْلِقْ بَابَكَ، وَصَلِّ إِلَى أَبِيكَ الَّذِي فِي الْخَفَاءِ. فَأَبُوكَ الَّذِي يَرَى فِي الْخَفَاءِ يُجَازِيكَ عِلَانِيَةً. وَحِينَمَا تُصَلُّونَ لَا تُكْرَرُوا الْكَلَامَ بَاطِلًا كَالْأُمَمِ، فَإِنَّهُمْ يَظُنُّونَ أَنَّهُ

بِكثَرَةٍ كَلَامِهِمْ يُسْتَجَابُ لَهُمْ. فَلَا تَتَشَبَّهُوا بِهِمْ. لِأَنَّ أَبَاكُمْ يَعْلَمُ مَا تَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ قَبْلَ أَنْ تَسْأَلُوهُ.»

ف«صَلُّوا أَنْتُمْ هَكَذَا: أَبَانَا الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ، لِيَتَقَدَّسَ اسْمُكَ. لِيَأْتِ مَلَكُوتُكَ. لِنَكُنْ مَشِييَتُكَ كَمَا فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ عَلَى الْأَرْضِ. خُبِّرْنَا كَفَافَنَا أَعْطِنَا الْيَوْمَ. وَاعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا كَمَا نَعْفِرُ نَحْنُ أَيْضاً لِلْمُذْنِبِينَ إِلَيْنَا. وَلَا تُدْخِلْنَا فِي تَجْرِبَةٍ، لَكِنْ نَجِّنَا مِنَ الشَّرِّيرِ. لِأَنَّ لَكَ الْمُلْكُ، وَالْقُوَّةُ، وَالْمَجْدُ، إِلَى الْأَبَدِ. آمِينَ.»

«فَإِنَّهُ إِنْ غَفَرْتُمْ لِلنَّاسِ زَلَّاتِهِمْ، يَغْفِرْ لَكُمْ أَيْضاً أَبُوكُمُ السَّمَاوِيُّ. وَإِنْ لَمْ تَغْفِرُوا لِلنَّاسِ زَلَّاتِهِمْ، لَا يَغْفِرْ لَكُمْ أَبُوكُمْ أَيْضاً زَلَّاتِكُمْ» (متى ٦: ١٥-١٥).

الصلاة هي أهم فرائض الدين، فلنكن نعرفوا روح الصلاة المقبولة ومضمونها ونسقتها، أعطيكم نموذجاً تقيسون به صلاتكم على الدوام .

إن أمعنتم النظر في هذه الصلاة النموذجية تلاحظون أن روح المصلي يكون روح النبوة لله، لأنه يخاطب الله كأب، ويعظم المحبة المتبادلة بين هذا الأب السماوي وأولاده، ويعظم أيضاً الطاعة له، والاعتماد عليه لأجل احتياجاته كلها. وهو يعظم العلاقة المتبادلة بين أولاده. حتى أن ما يريده المصلي لنفسه يريده للآخرين أيضاً، لأن روح النبوة لله يستلزم روح الأخوة للناس. فيصلي المسيحي لا «أبي» بل «أبانا». ولا يطلب غفران الأب لنفسه إلا ويقدم لإخوته غفرانه على سيئاتهم نحوه. فأقصد أن أعلمكم جيداً حقيقة أبوية الله للبشر وأخوة البشر لبعضهم البعض، لأن معلمي الدين قد أهملوا هذه الحقيقة الجوهرية ولم يوضحوها في الماضي كما يجب .

ترون في هذه الصلاة روح الدالة النبوية، وروح المحبة الأخوية، كما ترون روح العبادة والتقوية، لأن يوم الله وكتابه وبيته ورجاله (خدام الدين) وكنيسته كلها مقدسة، بسبب نسبتها إليه. وقد ذكرت لكم في هذه الصلاة طلب النجاة من الشرير. هذا الطلب هو اعتراف بقوة الشيطان العظيمة وخطوته على البشر، وبأن لا نجاة منه لأحد إلا بقوة إلهية تنفذهم. وأعلنت لكم جلياً في خاتمة هذه الصلاة، كما في فاتحتها، أن على المصلي أن يقدم أمور الله على أموره، لأن الله هو الكل وفي الكل، فله وحده الملك والقوة والمجد .

علّمتمكم في هذه الصلاة اختصار الصلاة وبساطتها، لأن روح النبوة والأخوة والعبادة فيها تقضي بذلك. وبما أنني لم أدخل بعد على وظيفتي الشفعية، فلم اضع اسمي فيها، مع أنه بعد صعودي تقدّمون صلاتكم إلى الأب باسمي. ولم أذكر فيها الروح القدس، لأنه لم يُعط بعد للناس على كيفية تستطيعون الآن أن تفهموا ما يُقال فيه .

المؤمن وحب المال

«لَا تَكْنِزُوا لَكُمْ كُنُوزاً عَلَى الْأَرْضِ حَيْثُ يَفْسِدُ السُّوسُ وَالصَّدَأُ، وَحَيْثُ يَنْقُبُ السَّارِقُونَ وَيَسْرِقُونَ. بَلْ اكْنِزُوا لَكُمْ كُنُوزاً فِي السَّمَاءِ، حَيْثُ لَا يَفْسِدُ سُوسٌ وَلَا صَدَأٌ، وَحَيْثُ لَا يَنْقُبُ سَارِقُونَ وَلَا يَسْرِقُونَ، لِأَنَّهُ حَيْثُ يَكُونُ كَنْزُكَ هُنَاكَ يَكُونُ قَلْبُكَ أَيْضاً. سِرَاجُ الْجَسَدِ هُوَ الْعَيْنُ، فَإِنْ كَانَتْ عَيْنُكَ بَسِيطَةً فَجَسَدُكَ كُلُّهُ يَكُونُ نِيرًا، وَإِنْ كَانَتْ عَيْنُكَ شَرِيرَةً فَجَسَدُكَ كُلُّهُ يَكُونُ مُظْلِمًا، فَإِنْ كَانَ النُّورُ الَّذِي فِيكَ ظُلَامًا فَالظُّلَامُ كَمْ يَكُونُ !

لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَخْدِمَ سَيِّدَيْنِ، لِأَنَّهُ إِمَّا أَنْ يُبْغِضَ الْوَاحِدَ وَيُحِبَّ الْآخَرَ، أَوْ يُلَازِمَ الْوَاحِدَ وَيَحْتَقِرَ الْآخَرَ. لَا تَقْدِرُونَ أَنْ تَخْدِمُوا اللَّهَ وَالْمَالَ» (متى. 6:19-24)

أحذركم كل التحذير من حب المال، وأذكركم أن كنوز العالم فانية، ولن تبقى إلا الكنوز السماوية. وما أسعد من تعلق قلبه بالسما لا بالأرض، فذلك يتسهل له الصلاح. وأما إن ساد في قلبه حب المال، فيستحيل عليه أن يحب الله كما يجب. والكنز في السماء هو ثمر ما يعمل الإنسان ويبذله في سبيل خير الناس، حباً بالله .

لأنكم نور العالم يستنير بكم غيركم من البشر، كما يستنير بواسطة العين الصحيحة. فإن فقدتم أنتم الصلاح، فكم بالحري يفقده الذين ليس لهم وسائل الصلاح مثلكم؟ ومن الأمور المطلوبة منكم لتنتيروا على الآخرين أن تتكلموا تماماً على الأب السماوي في أمر حاجاتكم الزمنية. إن عناية الله بمخلوقاته واضحة في طيور السماء التي ترفرف وتغرد فوق رؤوسكم، وفي الأزهار التي تزهر تحت أقدامكم. فكيف لا يعتني الله بالذين خلقهم على صورته، وهم أولاده؟ فإن كل ما في الجو من فوق، وكل ما على الأرض من أسفل، يشهد فعلاً لعنايته بما قد خلق. وما دام يعتني بأدناها، كيف يمكن أن يهمل أسماها؟ الذي وهب الجسد العجيب لا يبخل بالكساء الزهيد، والذي وهب الحياة الثمينة لا يتأخر عن تقديم القوات الرخيصة لأجل حفظها. صحيح أن الإنسان يجب أن يهتم بالحاجيات الجسدية، لكنه يجب أن يفعل ذلك وهو متكل على عناية الأب السماوي، وهكذا لا يكون نهياً للقلق، ويجيء اهتمامه بالماديات بعد اهتمامه بالأمور الروحية - لا قبلها ولا فوقها - فما هي فائدة الإنسان لو لم تساعد العناية الإلهية؟ فإذا ملجأكم في الدرجة الأولى هو هذه العناية لا اهتمامكم أنتم. وكيف تتفوقون على غير المؤمنين إن كنتم تهتمون بالدنيويات كما يهتم الوثنيون؟ أقدم لكم أعظم نصيحة عندي وأحلاها: «أطلبوا أولاً ملكوت الله وبره، وهذه كلها تزداد لكم.»

لا تدينوا

«لَا تَدِينُوا لِكَيِّ لَا تُدَانُوا، لِأَنَّكُمْ بِالدَّيْنُونَةِ الَّتِي بِهَا تَدِينُونَ تُدَانُونَ، وَبِالْكَيْلِ الَّذِي بِهِ تَكِيلُونَ يُكَالُ لَكُمْ. وَلِمَاذَا تَنْظُرُ الْقَدَى الَّذِي فِي عَيْنِ أَخِيكَ، وَأَمَّا الْخَشَبَةُ الَّتِي فِي عَيْنِكَ فَلَا تَقْطُنُ

لَهَا؟ أَمْ كَيْفَ تَقُولُ لِأَخِيكَ: دَعْنِي أُخْرِجَ الْقَذَى مِنْ عَيْنِكَ، وَهَذَا الْخَشَبَةُ فِي عَيْنِكَ. يَا مُرَائِي، أَخْرِجْ أَوَّلًا الْخَشَبَةَ مِنْ عَيْنِكَ، وَحِينَئِذٍ تُبْصِرُ جَيِّدًا أَنْ تُخْرِجَ الْقَذَى مِنْ عَيْنِ أَخِيكَ! لَا تُعْطُوا الْمُقَدَّسَ لِلْكَلَابِ، وَلَا تَطْرَحُوا دُرَّكُمْ قُدَّامَ الْخَنَازِيرِ، لِئَلَّا تَدُوسَهَا بِأَرْجُلِهَا وَتَلْتَفِتَ فَتَمَرِّقَكُمْ» (متى ٦: ٧-٦).

ثم أوصيكم أن لا تكونوا من الذين يدينون بعضهم بعضاً، فالحكمة تنتهي عن هذا، لأن الناس يعاملونك كما تعاملهم. فالذي يكشف عيوب الناس تكشف الناس عيوبه وهلم جرأ. الميال إلى دينونة الآخرين يكون مدفوعاً من الافتخار والانتقام، فيُذمُّ افتخاراً أو انتقاماً. والأغلب أنه ظالم في الحالتين، لأنه يرى عيوب الآخرين، لا كما هي، بل مكبرة. ويرى عيوبه هو لا كما هي، بل مصغرة. والمُخطئ لا يقدر أن يصلح الأقل عيباً منه، فيصح القول: «يا مرائي، أخرج أولاً الخشبة من عينك، وحينئذ تبصر جيداً أن تخرج القذى الذي في عين أخيك.»

أسألوا تعطوا

«إِسْأَلُوا تُعْطُوا. اُطْلُبُوا تَجِدُوا. اِفْرَعُوا يُفْتَحْ لَكُمْ. لِأَنَّ كُلَّ مَنْ يَسْأَلُ يَأْخُذُ، وَمَنْ يَطْلُبُ يَجِدُ، وَمَنْ يَفْرَعُ يُفْتَحْ لَهُ. أَمْ أَيُّ إِنْسَانٍ مِنْكُمْ إِذَا سَأَلَهُ ابْنُهُ خُبْزاً، يُعْطِيهِ حَجَراً؟ وَإِنْ سَأَلَهُ سَمَكَةً، يُعْطِيهِ حَيَّةً؟ فَإِنْ كُنْتُمْ وَأَنْتُمْ أَشْرَارٌ تَعْرِفُونَ أَنْ تُعْطُوا أَوْلَادَكُمْ عَطَايَا جَيِّدَةً، فَكَمْ بِالْحَرِيِّ أَبُوكُمْ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ، يَهَبُ خَيْرَاتٍ لِلَّذِينَ يَسْأَلُونَهُ. فَكُلُّ مَا تَرِيدُونَ أَنْ يَفْعَلَ النَّاسُ بِكُمْ افْعَلُوا هَكَذَا أَنْتُمْ أَيْضاً بِهِمْ، لِأَنَّ هَذَا هُوَ النَّامُوسُ وَالْأَنْبِيَاءُ» (متى ٧: ٧-١٢).

أوصيكم أن تكونوا حكماء مميّزين في أحاديثكم الدينية، لئلا تعرّضوا كلامكم للهزاء والاحتقار بغير فائدة، فتكونون كمن يعطي المقدس للكلاب ويطرح جواهره أمام الخنازير. لكل مقام مقال، فيجب أن يناسب التعليم المقام الذي يُقدّم فيه وأحوال السامعين. أؤكد لكم أن الأب السماوي مستعد لاستماع صلواتكم واستجابتها. إن كان الأب البشري وهو خاطئ لا يتأخر عن طلب أولاده، إن كان هذا خيراً لهم، ويُخلص في ما يمنحه، فكيف يمكن أن يتخلّى الأب السماوي الكامل عن تضرّعات طالبيه، أو يهبهم شيئاً ليس هو الخير الحقيقي؟ وأول ما يريد أن يهبه هو الروح القدس للذين يطلبونه.

وأسلمكم أيضاً القاعدة المسماة الذهبية، التي لا يمكن المبالغة في جمالها ومفعولها، فهي تحل المشكلات الأخلاقية للذين يمارسونها، وتُغني عن ألوف الوصايا المفضلة لأنها أفضل منها. هذه القاعدة هي: «كل ما تريدون أن يفعل الناس بكم، افعلوا هكذا أنتم أيضاً بهم. لأن هذا هو الناموس والأنبياء.» نعم قد ورد في أقوال القدماء ما يقارب هذا القول، ويظن البعض أن هذه القاعدة تكفي لتحيط بالواجب الديني تماماً. لربما كان زعمهم يصحّ لو أنه لا

يوجد إله. لكن بما أن الله موجود، لا يكون القيام بالواجب نحو الناس إلا القسم الأصغر في الدين، لأن القسم الأعظم هو القيام بالواجب من نحوه تعالى .

باب ضيق وباب واسع

«أَدْخُلُوا مِنَ الْبَابِ الضَّيِّقِ، لِأَنَّهُ وَاسِعُ الْبَابِ وَرَحْبُ الطَّرِيقِ الَّذِي يُؤَدِّي إِلَى الْهَلَاكِ، وَكَثِيرُونَ هُمُ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ مِنْهُ! مَا أَضْيَقُ الْبَابُ وَأَكْرَبُ الطَّرِيقُ الَّذِي يُؤَدِّي إِلَى الْحَيَاةِ، وَقَلِيلُونَ هُمُ الَّذِينَ يَجِدُونَهُ !

«اخْتَرُوا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ الْكَذِبَةِ الَّذِينَ يَأْتُونَكُمْ بِثِيَابِ الْحُمَلَانِ، وَلَكِنَّهُمْ مِنْ دَاخِلِ ذَنْبٍ خَاطِفَةٍ! مِنْ ثَمَارِهِمْ تَعْرِفُونَهُمْ. هَلْ يَجْتَنُونَ مِنَ الشَّوْكِ عِنَبًا، أَوْ مِنَ الْحَسَكِ تِينًا؟ هَكَذَا كُلُّ شَجَرَةٍ جَيِّدَةٍ تَصْنَعُ أَثْمَارًا جَيِّدَةً، وَأَمَّا الشَّجَرَةُ الرَّدِيَّةُ فَتَصْنَعُ أَثْمَارًا رَدِيَّةً، لَا تَقْدِرُ شَجَرَةٌ جَيِّدَةٌ أَنْ تَصْنَعَ أَثْمَارًا رَدِيَّةً وَلَا شَجَرَةٌ رَدِيَّةٌ أَنْ تَصْنَعَ أَثْمَارًا جَيِّدَةً. كُلُّ شَجَرَةٍ لَا تَصْنَعُ ثَمَرًا جَيِّدًا تُقَطَّعُ وَتُلْقَى فِي النَّارِ. فَإِذَا مِنْ ثَمَارِهِمْ تَعْرِفُونَهُمْ .

«لَيْسَ كُلُّ مَنْ يَقُولُ لِي: يَا رَبُّ يَا رَبُّ، يَدْخُلُ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ. بَلِ الَّذِي يَفْعَلُ إِرَادَةَ أَبِي الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ، كَثِيرُونَ سَيَقُولُونَ لِي فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ: يَا رَبُّ يَا رَبُّ، أَلَيْسَ بِاسْمِكَ تَنْبَأْنَا، وَبِاسْمِكَ أَخْرَجْنَا شَيَاطِينَ، وَبِاسْمِكَ صَنَعْنَا قُوَّاتٍ كَثِيرَةً؟ فَحِينَئِذٍ أُصْرِحُ لَهُمْ: إِنِّي لَمْ أَعْرِفْكُمْ قَطُّ! اذْهَبُوا عَنِّي يَا فَاعِلِي الْإِثْمِ» (متى ١٣: ٧-٢٣).

إني أضع أمامكم طريقين يسير جميع الناس في إحداهما. الأولى ضيقة في بدايتها رحبة في نهايتها، والثانية بالعكس، رحبة في بدايتها ثم ضيقة جداً في نهايتها، فأنصح لكم أن تختاروا الطريق الضيقة في هذه الدنيا والعامرة بالمجد في الآخرة. ولا تفتدوا - بأكثر البشر - لأنهم يفعلون بالعكس، إذ يختارون ما هو راحة حالية غاضين النظر عن العذاب الأبدي .

وأنبهكم إلى العلاقة بين الشجر والثمر، والتي تستلزم أن يكون الثمر من جنس الشجر، فأعمال الإنسان لا تكون إلا تابعة لحالة قلبه الداخلية. يجوز أن يدَّعي إنسان أنه نبي مرسل من الله، وأنه يتكلم بكلام الأنبياء، لكن بمرور الأيام لا بد أن تثمر طبيعته في أعماله. ولا بد أيضاً من القُطْع والإلقاء في النار لكل من يثمر ثمراً رديئاً. ولا يوقف هذا القُطْع احتجاج الذين يتسترون تحت ثوب الرياء، متظاهرين بالتدين، متكلمين على حسناتهم الخارجية، وهم يهملون الوصايا الإلهية التي لا تروق لهم، أو التي تخالف أغراضهم. قد يكونون من الذين تنبأوا باسمي، وصنعوا معجزات كثيرة حتى إخراج الشياطين باسمي، وهم يعترفون بي بأفواههم، وينادونني: «يا رب، يا رب». لكنهم لم يفعلوا إرادة أبي الذي في السموات. فسأجيب على استنجادهم في يوم الدين: «إني لم أعرفكم قط. اذهبوا عني يا فاعلي الإثم.»

العاقل والجاهل

«فَكُلُّ مَنْ يَسْمَعُ أَقْوَالِي هَذِهِ وَيَعْمَلُ بِهَا، أُشَبِّهُهُ بِرَجُلٍ عَاقِلٍ، بَنَى بَيْتَهُ عَلَى الصَّخْرِ. فَتَنَزَلَ الْمَطَرُ، وَجَاءَتِ الْأَنْهَارُ، وَهَبَّتِ الرِّيَّاحُ، وَوَقَعَتْ عَلَى ذَلِكَ الْبَيْتِ فَلَمْ يَسْقُطْ، لِأَنَّهُ كَانَ مُؤَسَّسًا عَلَى الصَّخْرِ. وَكُلُّ مَنْ يَسْمَعُ أَقْوَالِي هَذِهِ وَلَا يَعْمَلُ بِهَا، يُشَبِّهُهُ بِرَجُلٍ جَاهِلٍ، بَنَى بَيْتَهُ عَلَى الرَّمْلِ. فَتَنَزَلَ الْمَطَرُ، وَجَاءَتِ الْأَنْهَارُ، وَهَبَّتِ الرِّيَّاحُ، وَصَدَمَتْ ذَلِكَ الْبَيْتَ فَسَقَطَ، وَكَانَ سُقُوطُهُ عَظِيمًا!» (متى ٢٤: ٧-٢٧).

وفي الختام أقدم لكم تشبيهاً مفيداً جداً، لأن الذي يعرف مشيئة الله ويعملها يشبه الشخص الذي يضع أساس بيته على الصخرة. والذي يعرف ولا يعمل يشبه الذي يبني بيته على أساس رملي بجانب مجرى ماء، فما دام الجو صافياً والرياح ساكنة، يظهر أن الذي بنى على الرمل هو الحكيم، لأنه استراح من متاعب الحفر ونفقاته، فیهنئ نفسه ویهنئ الآخرون. ولكن صفاء الجو وسكون الريح لا يدومان إلى الأبد، فمتى جاء النوء يظهر جلياً من كان الحكيم الذي سلّم بناؤه. الذي يعرف ولا يعمل يتلذذ حالياً بملذات الدنيا، ويجتنب المصاعب في سبيل البر، لكن متى هبت رياح الدّين، ونزل مطر الغضب الإلهي، وجاءت أنهار عذاب الضمير، وحدث سيل إرسال الخطاة إلى مكانهم في الهلاك «وصدم» هذا الشخص، يسقط حالاً، ويكون خرابه عظيماً. بينما الأول لا يسقط ولا يتزعزع لأنه مؤسس على صخر .

«فَلَمَّا أَكْمَلَ يَسُوعُ هَذِهِ الْأَقْوَالَ بُهَّتَتِ الْجُمُوعُ مِنْ تَعْلِيمِهِ، لِأَنَّهُ كَانَ يُعَلِّمُهُمْ كَمَنْ لَهُ سُلْطَانٌ وَلَيْسَ كَالْكَتَبَةِ» (متى ٢٨: ٧ ، ٢٩).

كل من يتأمل بدقة وإخلاص في نظام الملكوت الروحي هذا، وفي قوة المطالبات الإلهية من الإنسان، ييأس من استطاعته أن يطيع هذه الوصايا. هذا اليأس هو الخطوة الأولى في الخلاص، لأنه يُبعد الإنسان عن الاتكال الباطل على الخلاص بالأعمال، ويقوده إلى المخلص الوحيد الذي جعل الإيمان الحي الحقيقي به شرط الخلاص الكافي والوحيد .

شفاء خادم قائد المئة

«وَلَمَّا دَخَلَ يَسُوعُ كَفَرْنَاحُومَ، جَاءَ إِلَيْهِ قَائِدُ مِئَةٍ يَطْلُبُ إِلَيْهِ وَيَقُولُ: «يَا سَيِّدُ، غُلَامِي مَطْرُوحٌ فِي الْبَيْتِ مَقْلُوجاً مُتَعَذِّباً جِداً». فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: «أَنَا آتِي وَأَشْفِيهِ». فَأَجَابَ قَائِدُ الْمِئَةِ: «يَا سَيِّدُ، لَسْتُ مُسْتَحِقّاً أَنْ تَدْخُلَ تَحْتَ سَقْفِي، لَكِنْ قُلْ كَلِمَةً فَقَطْ فَيَبْرَأَ غُلَامِي. لِأَنِّي أَنَا أَيْضاً إِنْسَانٌ تَحْتَ سُلْطَانٍ. لِي جُنْدٌ تَحْتَ يَدِي. أَقُولُ لِهَذَا: اذْهَبْ فَيَذْهَبُ، وَلَاخَرُ: ابْتَغِ يَا تِي، وَلِعَبْدِي: افْعَلْ هَذَا فَيَفْعَلْ». فَلَمَّا سَمِعَ يَسُوعُ تَعَجَّبَ، وَقَالَ لِلَّذِينَ يَتَّبِعُونَهُ: «أَلْحَقْ أَقُولُ لَكُمْ، لَمْ أَجِدْ وَلَا فِي إِسْرَائِيلَ إِيمَاناً بِمِقْدَارِ هَذَا. وَأَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ كَثِيرِينَ سَيَأْتُونَ مِنَ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ وَيَتَّكِنُونَ مَعَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ، وَأَمَّا بَنُو الْمَلَكُوتِ فَيُطْرَحُونَ إِلَى الظُّلُمَةِ الْخَارِجِيَّةِ. هُنَاكَ يَكُونُ الْبُكَاءُ وَالصَّرِيرُ الْأَسْنَانِ». ثُمَّ قَالَ يَسُوعُ لِقَائِدِ الْمِئَةِ: «اْذْهَبْ، وَكَمَا أَمَنْتَ لِيَكُنْ لَكَ». فَبَرَأَ غُلَامُهُ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ» (متى. 8:5-13)

قال السيد المسيح إنه جاء ليقدم الخدمة للناس، لا لِيُخَدَمَ. وهو الوحيد الذي لم يخالف فعله قوله مطلقاً. قال فيه سامعوه إنه تكلم كمن له سلطان، وفوق السلطان يتبعه فعل السلطان. لم ينته وعظه إلا وتجددت معجزاته. دخل مدينة كفر ناحوم ترافقه جموع كثيرة، فاستقبله وفد من قادة اليهود من أصحاب الوظائف الدينية يطلبون إليه باجتهاد، بالنيابة عن الحاكم العسكري الروماني أن يشفي عبده المريض بالشلل معذباً جداً ومشرفاً على الموت، وهو عزيز عنده. سمّاه «غلامه» وهي كلمة تُستعمل في اليونانية عن الابن أيضاً. من كلامه واهتمامه بعبده عرفنا مزايا هذا الجندي الشريف، لأن في ذلك كان العبد محتقراً مُهاناً إلى أقصى درجة عند أغلب الأسياد.

ظن هذا القائد الروماني أن المعلم اليهودي سينقاد إلى طلب رؤساء ملته في المدينة، فاستنجد بهم، وبذلك ظهر أن علاقة هؤلاء مع المسيح كانت لا تزال حسنة، بخلاف الأمر مع زملائهم في اليهودية. فوافق الرؤساء على طلب هذا القائد، بناءً على حسن علاقاتهم معه أيضاً. فتمكن من ملازمة غلامه في أشد ساعات الخطر. لما حضر وفد الرؤساء أمام المسيح قالوا إن القائد بنى لنا المجمع ويحببُ أمتنا، ويستحق أن يفعل له هذا. ولا نلوم هذا القائد الوثني على ظنه بأنه يحتاج إلى شفاء لدى المسيح ليحقق آماله، فلم يكن يعلم أن المسيح يعرفه أفضل من هؤلاء الشفعاء به، ولم يكن يعلم أن محبة هؤلاء له ليست إلا جزءاً لا يُذكر من محبة المسيح له. ولذلك لم يعلم أن تدخل هؤلاء الشفعاء كان فضولاً. وفي يومنا هذا ليس من ملاك أو قديس إن كان على الأرض أو في السماء أعرف بنا أو أقرب إلينا أو أحسن علينا، من المسيح ذاته لكي يصلح شفيحاً بدلاً من المسيح، أو لكي يعينه في الشفاعة بنا. ومنزلة السيد المسيح عند الأب السماوي، الذي عيّنه شفيحاً وحيداً وكافياً، لا تترك مجالاً لغيره ليجلس بجانبه أو يشاركه في الشفاعة، فإن شفاعة المسيح مبنية على أساس ما

انفرد به عن سائر الناس أو الملائكة في عمله الكفاري، كما يقول الإنجيل: «لَأَنَّهُ يُوجَدُ إِلَهُ وَاحِدٌ وَوَسِيطٌ وَاحِدٌ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ: الْإِنْسَانُ يَسُوعُ الْمَسِيحُ» (١ تيموثاوس ٥: ٢).

الذين يستشفعون ملائكة أو قديسين لا ينتبهون إلى أن ما في أقدم القديسين وأعظمهم، من اللطف والإشفاق وحب الإنسانية والعطف على البؤساء، ليس إلا قطرة فقط مما في المسيح من هذه العواطف الشريفة. فهم كالذين يطلبون أن يستضيئوا بسراج في رابعة النهار. إنهم لا ينتبهون إلى أن ليس قديس من القديسين قد أعطي برهاناً لحيه إياهم أو سؤاله عنهم، بينما المسيح قد جاء من السماء وتأنس وعلم وخدم وتألّم واحتمل ومات وقام وصعد إلى السماء وجلس عن يمين الله ليشفع في المؤمنين. وكل ذلك حباً لهم. إنهم كالولد الذي في الشدائد والمخاطر يحيد عن أم جمعت في شخصها كل الكمالات، واحتملت في تربيته أعظم المشقات، ليتمسك بخدمة البيت بدلاً عنها. ويجوز لنا أن نستشهد برفض المسيح لتداخل والدته وقت عرس قانا الجليل شاهداً مؤثراً لهذه الحقيقة المتعلقة باستشفاع القديسين في أمور الدين. وبذلك علم المسيح الناس في كل الأجيال أن لا محل ولا حاجة إلى هذا الاستشفاع.

كان المرضى يُحمَلون اعتيادياً إلى محل وجود المسيح. أما في هذا الحادث فقد وافق المسيح الناس على عاداتهم في تمييز كبار القوم، فرضي أن يعامل هذا القائد معاملة ممتازة، ولا سيما لأنه أجنبي، وتوجه إلى بيت المريض. ولما عرف قائد المئة أن المسيح آتٍ، كلّف بعض أصدقائه ليلاقوه ويظهروا له احتراماته القلبية وإيمانه بمقدرته، وأن ينوبوا عنه بالقول: «يا سيد لا تتعب، لأنني لست مستحقاً أن تدخل تحت سقفي. لذلك لم أحسب ذاتي أهلاً أن آتي إليك. لكن قل كلمة فقط فيبرأ غلامي». وقوله بتواضع وإخلاص: «لست أحسب نفسي أهلاً» هو أفضل برهان لأهليته، لأن الشعور بعدم الاستحقاق الذاتي هو المقدمة الضرورية لكل من يطلب معونة المسيح وخلصه.

يظهر أن هذا الرجل ظن أن المسيح يفعل معه كما فعل مع مواطنه خادم الملك منذ نحو سنة ونصف، فيشفي غلامه عن بُعد، بكلمة. وكان مؤمناً أن للمسيح ذات السلطة على الطبيعة والأمراض التي له هو على أنفار الجند والخدم الذين تحت أمره، والتي لرؤسائه عليه أيضاً، فاستعار هذا التشبيه الجميل الدال على حُسن تقييمه للموقف. فتعجب المسيح من عظمة الإيمان والحكمة والتواضع واللياقة في هذا الوثني، والتفت إلى الجمع الذي يتبعه وقال: «الحق أقول لكم: لم أجد ولا في إسرائيل إيماناً بمقدار هذا». ولم يبال بما قد يُحدثه هذا من استياء في سامعيه من اليهود. ثم صرح بأن القبول عند الله لا يتوقف على الأصل. قال: «أقول لكم إن كثيرين سيأتون من المشارق والمغارب ويتكئون مع إبراهيم وإسحق ويعقوب في ملكوت السماوات. وأما بنو الملكوت فيطرحون خارجاً إلى الظلمة الخارجية. هناك يكون البكاء وصرير الأسنان.»

في هذه المرة أيضاً أعطى المسيح برهاناً واضحاً على أنه ليس مولود عصره، ولا ثمر الجنس البشري المجرد، لأن أفكاره مستقلة تماماً عن الآراء السائدة بين قومه وفي زمانه، بل مضادة لها على خط مستقيم. وها هو ينفي كفاءة الأصل اليهودي حُجَّةً للقبول عند الله .

ثم أرسل المسيح جوابه للقائد أن يدخل بيته، قائلاً: «كما آمنتَ ليكن لك». فبرأ غلامه في تلك الساعة. ورجع المرسلون إلى البيت فوجدوا العبد المريض قد صحَّ. فرح المسيح عندما رأى في هذا الجندي الروماني باكورة الوثنيين الذين سوف يؤمنون به بعد أن رفضته أمته الخاصة - وليس أنها رفضته فقط زمان ظهوره في أراضيها، بل لا تزال مُصِرَّةً إلى الآن !

هل تشعر بعدم استحقاقك للحصول على غفران الله؟ طوبى لك. هذا بداية الطريق للحصول على الغفران. أطلب الغفران من الله، على أساس ما فعله المسيح لأجلك على الصليب. ولتكن مؤمناً بسلطان المسيح الكامل على الغفران والشفاء

المسيح يقيم شاباً من الموت

«وَفِي الْيَوْمِ التَّالِي دَهَبَ إِلَى مَدِينَةٍ تُدْعَى نَائِينَ، وَدَهَبَ مَعَهُ كَثِيرُونَ مِنْ تَلَامِيذِهِ وَجَمْعٌ كَثِيرٌ. فَلَمَّا اقْتَرَبَ إِلَى بَابِ الْمَدِينَةِ، إِذَا مَيِّتٌ مَحْمُولٌ ابْنٌ وَحِيدٌ لِأُمِّهِ، وَهِيَ أَرْمَلَةٌ وَمَعَهَا جَمْعٌ كَثِيرٌ مِنَ الْمَدِينَةِ. فَلَمَّا رَأَاهَا الرَّبُّ تَحَنَّنَ عَلَيْهَا وَقَالَ لَهَا: «لَا تَبْكِي». ثُمَّ تَقَدَّمَ وَلَمَسَ النَّعْشَ، فَوَقَفَ الْحَامِلُونَ. فَقَالَ: «أَيُّهَا الشَّابُّ، لَكَ أَقُولُ قُمْ». فَجَلَسَ الْمَيِّتُ وَابْتَدَأَ يَتَكَلَّمُ، فَدَفَعَهُ إِلَى أُمِّهِ. فَأَحْذَ الْأَجْمِيعَ خَوْفٌ، وَمَجَّدُوا اللَّهَ قَائِلِينَ: «قَدْ قَامَ فِينَا نَبِيٌّ عَظِيمٌ، وَافْتَقَدَ اللَّهُ شَعْبَهُ.» وَخَرَجَ هَذَا الْخَبَرُ عَنْهُ فِي كُلِّ الْيَهُودِيَّةِ وَفِي جَمِيعِ الْكُورَةِ الْمُحِيطَةِ» (لوقا ١١: ٧-١٧).

سافر المسيح من الناصرة إلى قرية نائين، وهي رحلة يوم كامل سيراً على الأقدام. والتقى رب الحياة والجمهور الذي يتبعه بملك الموت يقود جمهوراً يحمل على أكتافه جثة شاب وحيد لأمه، وهي أرملة.. وما أعظم حزن الأم! لذلك تحرك لحزنها كل سكان المدينة وخرجوا معها ليدفنوا وحيدها على رجاء القيامة. فالتقوا بالمسيح الذي هو القيامة والحياة، والذي من أمامه يهرب ليس الموت فقط، بل أيضاً الذي له سلطان الموت، أي إبليس .

يمكن أن نتخيل إبليس راكباً على النعش، وهو غير منظور، مفتخراً بانتصاره في اقتراسه هذا الشاب، وأن نتصور حمقه عند رؤيته من بعيد قدوم جمهور عظيم، يتبع عدوه المسيح، الذي انتصر عليه في كل عراك حتى الآن. ألم يصراً بأسنانه بغيطٍ عقيم في الماضي كلما طرد المسيح شيطاناً من مصاب؟ ولربما طمأن إبليس ذاته في هذا الموقف بالوهم أن المسيح لم يخطف منه إلى الآن فريسة الموت، فهو لا يزال منتصراً في هذا الميدان .

كانت المؤاساة في المآتم من أقدم الواجبات عند اليهود، وتُثيب من يمارسها. وحسب اصطلاح ذلك الوقت كان على المسيح والجمهور الذي معه أن يفسحوا الطريق لمرور موكب الدفن، ثم ينضمون إليه. وكانت العادة في الجليل أن النساء يمشين قدام النعش، لأن المرأة هي التي أدخلت إلى العالم الخطيئة التي نتيجتها الموت. لكن المسيح واجه الموكب وأوقفه. وبما أننا نعلم أن بكاء أهل الميت ومن معهم يتجدد ويقوى كلما التقوا بأشخاص آخرين، فبمُلتقى هذين الجمهورين يزيد الحزن ويعلو البكاء. فلما رأى المسيح الأرملة المسكينة تحزن عليها وقال لها: «لا تبكي». لم يطلب منها الكف عن البكاء كأمر ممنوع، لأن الدموع من العطايا الإلهية، وقد تكون بركة عظيمة لأنها تفرج ألم الأحران وتخمد نيرانها. وأي شيء أشرف من الدموع التي تسيل حباً للغير، وأي شيء أفضل من العبرات التي يذرفها الإنسان على معاصيه وذنوبه وزلاته. والحق أننا نبكي على الذي لا يبكي بكاء رزيناً معتدلاً عند وقوع ما يوجب البكاء. ولكن المسيح قصد أن يوقف بكاء هذه الأرملة،

وأعطاه سبباً كافياً لذلك. فتقدم ولمس النعش فوقف الحاملون. وامتلكت هيبة المسيح كبار هؤلاء القوم مع صغارهم، فخضعوا له، وأوقفوا الموكب بانتظار ما يريد هو .

كان صوت البوق قد أعلن موت هذا الشاب في نابيين. أما الآن وعلى هذا الطريق سيُسمع صوت الذي قال على مسمع من الرؤساء والجمهور في أورشليم: «الحق أقول لكم إنه تأتي ساعة وهي الآن حين يسمع الأموات صوت ابن الله والسمعون يحيون» (يوحنا ٥: ٢٥). الآن يُثبت قوله الغريب بفعله العجيب، فنأدى الميت بقوله: «أيها الشاب، لك أقول قم». ووقع هذا الصوت على السامعين كالصاعقة. نعم قد سمعوا هذا المعلم ينتهر الأرواح النجسة فتخضع لصوته، ورأوه عندما أمر الأمراض أن تولي فولّت، وسمعه تلاميذه ينتهر النوء فأطاع. لكنهم لم يتصوروا ولم يحلموا أن هذا الصوت يأمر أرواحاً انتقلت إلى الأبدية، فترجع إلى قيودها الجسدية بعد تحريرها منها، ويأمر جثة هامدة فتعود إلى الحياة. لقد قرأوا في التوراة عن أنبياء عظماء أقاموا موتى، ولكنهم فعلوا ذلك بعد مصارعة قوية بالصلاة لله، واستعمال وسائل دلت على صعوبة الأمر، وكانوا يُجْرُونَ ذلك في السر، كأنهم يخشون الفشل. ثم أن تسعمائة سنة قد مرّت دون حدوث قيامة ميت، فلا يخطر مطلقاً على بال الجمهور أن ذلك يُعاد أمام عيونهم. ولكن هنا إنسان يكلم الموت بصوت سلطان، ولا يستعطف كالأنبياء بصوت يستغيث، فأى تجاسر هذا؟

لكن الحكم يكون للنتيجة، فقد جلس الشاب وابتدأ يتكلم. ما أعظم دهشة هذا الشاب لما فتح عينيه ورأى ذاته على محمل، مُحاطاً بجمهور من النائحين، ورأى كآبة أمه التي هو وحدها، ولما طرق أذنيه صوت الرثاء والنحيب واسمه موضوع ذلك. ثم زاد عجبه لما رأى رجلاً غريباً واقفاً بجانبه يلمس نعشه، على مُحِيَّاه إمارات الذكاء المفرط، والرزانة النادرة، مع الطهارة السماوية، واللفظ المتدقّ .

لم يقصد المسيح إزالة الموت في العالم، فهذا الحكم الإلهي لا يُلغى ولو توقّف أحياناً. ولا قصد المسيح إدهاش القوم بإظهار سلطانه، بل دفعه حنانه على الأرملة المسكينة ليصنع هذه المعجزة. إن من أعمال إبليس العدائية إسقاط البشر تحت حكم الموت، ومن أعماله أيضاً تنشيف الحنان والإشفاق. فكانت رافة المسيح نحو هذه المسكينة نقضاً لأعمال إبليس. وحالما عاد ابنها إلى الحياة دفعه إلى أمه، كأنه يقول لها بهذا الفعل: «ترين الآن لماذا نهيتك عن البكاء». فاللفظ والإشفاق لا ينفصلان عند كل تلميذ حقيقي للمسيح، يقصد أن يسلك في خطواته، عملاً بالوصية: «فَرَحاً مَعَ الْفَرِحِينَ وَبُكَاءً مَعَ الْبَاكِين» (رومية ١٢: ١٥).

لا بد أن أرملة نابيين وابنها آمنة بالمسيح المخلص، بل نتصور أنهما أصبحا شاهدين أمينين له، وخميرة الإيمان في مدينة نابيين، التي على رغم حقارتها قد أصبحت شهيرة بسببهما.

وضاعف هذا الحادث الخطير صيت المسيح الطائر في البلاد. فكانت النتيجة حسب قول البشير أن «أخذ الجميع خوفً ومجدّوا الله قائلين: قد قام فينا نبيٌّ عظيم وافتقد الله شعبه، وخرج هذا الخبر في كل اليهودية وفي جميع الكورة المحيطة»

تري ماذا كان منظر المسيح لما رآه ابن أرملة نايين؟

خاض الكتبة الأقدمون في موضوع هيئة المسيح الخارجية، الذي لا سبيل للجزم القطعي فيه، واختلفوا في: هل كان ذا جمال جسدي؟ أما في النبّوات فتُوجد بعض آيات اتّخذها قومٌ دليلاً على أن المسيح اتّخذ لنفسه هيئة خارجية حقيرة تسبّب ازدراء الناس به، منها قول إشعياء: «كَانَ مَنْظَرُهُ كَذَا مُفْسِداً أَكْثَرَ مِنَ الرَّجُلِ، وَصُورَتُهُ أَكْثَرَ مِنْ بَنِي آدَمَ» (إشعياء ٥٢: ١٤). على أن هناك آيات أخرى تفيد عكس ذلك، منها قول صاحب المزامير: «أَنْتَ أَبرَغُ جَمالاً مِنْ بَنِي الْبَشَرِ» (مزمور ٤٥: ٢) وقول سليمان: «حَبِيبِي... مُعَلِّمٌ بَيْنَ رُبُوءٍ... كُلُّهُ مُسْتَنْهَيَاتٌ» (نشيد ٥: ١٠، ١٦).

أما نحن فنستصوب الشعار الموضوع في بعض الحوانيت والبيوت: «إن الله جميل يحب الجمال» وهذا يتفق مع قول داود النبي: «وَاحِدَةً سَأَلْتُ مِنَ الرَّبِّ وَإِيَّاهَا أَلْتَمِسُ: أَنْ أَسْكُنَ فِي بَيْتِ الرَّبِّ كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِي، لِكَيْ أَنْظُرَ إِلَى جَمالِ الرَّبِّ» (مزمور ٢٧: ٤) ولا ريب مطلقاً في أن جمال الهيئة هو الوضع الإلهي في الخلق، وأن ما يخالف الجمال هو نتيجة الخطيئة ويُعدُّ خللاً. والاهتمام بجمال الهيئة هو من الواجبات، وكل من يخدم الجمال في أعماله يقدم لجنسه خدمة تُذكر فنُشكر.

نعم قد تطرّف الأقدمون وأخصّهم اليونان في تمجيد الجمال الخارجي، فتوصلوا إلى عبادته عبادة دينية، وأدّى ذلك طبعاً إلى الفساد، نظير كل عبادة باطلة. لكن اهتمامهم بالجمال رَقاهم كثيراً وخلّد ذكرهم بين أفضل الأقباط التي قامت في التاريخ البشري.

فيحق لنا أن ننسب جمالاً في القامة والمُحيّا إلى الذي حُبِلَ به من الروح القدس في رحم عذراء طاهرة، اختارها الله من بين ألوف العذارى في إسرائيل، لتلد الهيكل الجسدي المعين منه ليتحد به اللاهوت المقدس. ويقوّي هذا الظن ما نعلمه عن الصِلّة بين النفس والجسد التي تجعلنا نتوقع ظهور جمال خارجي يقابل الجمال الداخلي في هذا الإنسان البريء من كل خطيئة، وهيئته الشخصية التي أثّرت في حوادث عديدة على الناس، حتى على أعدائه أيضاً. هذه تعضد الرأي بأن المسيح كان ذا جمالٍ جسدي.

مسابقة الكتاب

القراء الأعزاء

نرجو توجيه إجاباتكم على هذه المسابقات إلى (نداء الرجاء)

<http://www.call-of-hope.com>

على العنوان التالي:

Of Hope Call

P.O. Box 1018

Stuttgart 1, West Germany 7000

عزيزي القارئ،

إن أرسلت إلينا إجابة صحيحة على عشرين سؤالاً من الأسئلة الخمسة والعشرين التالية. نرسل لك كتاباً جائزة من كتبنا المختلفة. نرجو أن ترسل مع الإجابة اسمك وعنوانك واضحين لنرسل لك الجائزة .

- 1 ما معنى قبول المسيح سجود الأبرص له؟
- 2 لماذا لمس المسيح الأبرص؟
- 3 ما هو الضرر الذي نشأ عن عصيان الأبرص لأمر المسيح بعدم إذاعة خبر شفائه؟
- 4 لماذا رفض المسيح طلب بطرس أن يخرج من سفينته؟
- 5 ما هي الوظيفة الجديدة التي أعطاهها المسيح لبطرس؟
- 6 اذكر ثلاثة أشياء ساعد بها الرجال الأربعة صديقهم المفلوج.
- 7 غفر المسيح خطايا المفلوج - ما هو برهان هذا الغفران؟
- 8 اذكر ثلاثة دروس تتعلمها من دعوة المسيح لمتى العشار.
- 9 ما هو الإكرام الذي منحه المسيح لمتى بعدما تاب؟

- 10 اذكر خطوات التوبة الأربع.
 - 11 كيف يكون اليأس دافعاً نحو الله؟
 - 12 لماذا اختار المسيح المريض منذ ٣٨ سنة ليشفيه دون باقي مرضى بركة بيت حسدا؟
 - 13 لماذا سأل المسيح مريض البركة قائلاً: «أتريد أن تبرأ»؟
 - 14 من هم الشهود الخمسة على أن المسيح هو ابن الله؟
 - 15 من إشعياء ٥٨: ٧-٣ ما هو الصوم الذي يقبله الله؟
 - 16 ما هي حالة القلب الذي يقبل تعليم المسيح الجديد - وكيف تحصل عليه؟
 - 17 ماذا رأى المسيح في تلاميذه بعد أن اختارهم رسلاً له؟
 - 18 ما معنى كلمة «طوبى» - وما هي دلالة افتتاح المسيح موعظته على الجبل بهذه الكلمة؟
 - 19 طوبى المسيح ثمانية أنواع من الناس. اذكر الأنواع الثمانية.
 - 20 ما هي الحكمة من منع الحلفان بتاتاً؟
 - 21 لماذا افتتح المسيح الصلاة الربانية بالدعاء «أبانا»؟
 - 22 ما هي امتيازات وعيوب كل من الباب الضيق والواسع؟
 - 23 ما هي صفات الشخص الذي يسميه المسيح عاقلاً؟
 - 24 لماذا لا نحتاج إلى شفيع عندما نجىء إلى المسيح؟
 - 25 ماذا تتعلم من إقامة المسيح ابن أرملة نابيين من الموت؟
- أرسل الإجابة فقط بدون تعليقات أخرى لئلا تُهمل، ونحن بانتظار إجابتك.

سيرة المسيح

الدكتور جورج فورد

الكتاب الرابع: معجزاته العظيمة

المعمدان يشك في المسيح

«فَدَعَا يُوحَنَّا اثْنَيْنِ مِنْ تَلَامِيذِهِ، وَأَرْسَلَ إِلَى يَسُوعَ قَائِلًا: «أَنْتَ هُوَ الْآتِي أَمْ نَنْتَظِرُ آخَرَ؟» فَلَمَّا جَاءَ إِلَيْهِ الرَّجُلَانِ قَالَا: «يُوحَنَّا الْمَعْمَدَانُ قَدْ أَرْسَلَنَا إِلَيْكَ قَائِلًا: أَنْتَ هُوَ الْآتِي أَمْ نَنْتَظِرُ آخَرَ؟» وَفِي تِلْكَ السَّاعَةِ شَفَى كَثِيرِينَ مِنْ أَمْرَاضٍ وَأَدْوَاءٍ وَأَرْوَاحٍ شَرِّيرَةٍ، وَوَهَبَ الْبَصَرَ لِعُمَيَّانٍ كَثِيرِينَ. فَأَجَابَ يَسُوعُ: «أَذْهَبَا وَأَخْبِرَا يُوحَنَّا بِمَا رَأَيْتُمَا وَسَمِعْتُمَا: إِنَّ الْعُمَيَّ يُبْصِرُونَ، وَالْعُرْجَ يَمْشُونَ، وَالْبُرْصَ يُطَهَّرُونَ، وَالصَّمَّ يَسْمَعُونَ، وَالْمَوْتَى يَقُومُونَ، وَالْمَسَاكِينَ يُبَشِّرُونَ. وَطُوبَى لِمَنْ لَا يَعْثُرُ فِيَّ» (لوقا ١٩: ٧-٢٣).

وبخ يوحنا المعمدان الملك هيرودس لأن الملك اغتصب زوجة أخيه وأخذها، وغضب الملك وأمر بسجن المعمدان في قلعة مخيروس في بيرية حيث بقي أكثر من سنة. إلا أن سجنه لم يمنع تردد تلاميذه عليه، فأخبروه بمعجزات المسيح المتكاثرة، ولا سيما بأعجبها وهي إقامة الشاب الميت، ابن أرملة نايين. وأخبروه أيضاً كيف تتبع الجماهير المسيح وتُدْهَش لأقواله وأفعاله.

وكان المعمدان في الماضي قد أعلن اعتباره وشدة حبه للمسيح، وهو لا يرتاب في حب المسيح له - فكيف لا يسأل المسيح عنه في سجنه هذه الأشهر الطويلة؟ أليس هو المسيح الموعود به، نصير المظلوم؟ فأَيُّ ظلم أظلم من هذا الذي أصابه، بسبب صلاحه وغيرته على الصلاح؟ فكيف لا يمدُّ له المسيح نسيبُه وحبيبُه، يده القديرة لينتشلَه من هذا الضيق والخطر، ولو اقتضى الأمر إجراء معجزة؟ ولعل يوحنا كان ينتظر أن يكون ملكوت المسيح زمنياً، محاطاً بالمجد: أين هذا الملكوت الذي بشرتُ أنا باقترابه؟ وأين المحبة والرافة التي يُنتَظَر ظهورها في المسيح ملك هذا الملكوت؟ ولما كان المعمدان بشراً معرضاً للسقوط في الخطأ، فلا بد أن استولى عليه الشك والقنوط أحياناً في مرارة ظروفه المتغيرة، خصوصاً بعد كل ما كان له من الحرية والسطوة والعظمة. ويصعب جداً على رجل في عزِّ قوته أن يُقَيَّدَ بلا عمل، بعد سنتين كلها عمل بهمة ونشاط. ففي ذات يوم خار عزمه وفرغ صبره، فأرسل اثنين من تلاميذه الأمناء إلى المسيح ليسألاه إن كان هو حقاً المسيح الموعود به، أو أن المسيح الحقيقي سيأتي بعده.

والتقى تلميذا يوحنا بالسيد المسيح وسألاه: «أنت هو الآتي أم ننتظر آخر؟» فأجربى المسيح أمامهما معجزات، ثم قال: «طوبى لمن لا يعثر فيَّ». ونستنتج من إجابة المسيح على تلميذي يوحنا أن سؤال المعمدان نتج عن شكوك حقيقية، يُلام عليها، بعد كل ما قد رآه وسمعه وشهد به في برية الأردن. فتكون هذه زلة وإن كانت وحيدة، ذُكرت لرجل الله العظيم هذا، كما ذُكرت زلات لغيره من الأنبياء والرسل، وقد صلى نبي الله داود «السَّهَوَاتُ مَنْ يَشْعُرُ بِهَا! مِنَ الْخَطَايَا الْمُسْتَتِرَةِ أَبْرِئْنِي» (مزمور ١٢: ١٩) لكن «الصِّدِّيقَ يَسْقُطُ سَبْعَ مَرَّاتٍ وَيَقُومُ» (أمثال ١٦: ٢٤) وقد وجهت الشكوك المعمدان ليتوجه إلى المسيح، لا ليباعد عنه .

يتظاهر بعض الناس بالشكوك الدينية بدافع الادّعاء. أو لأجل غايات أنانية. مع أن المتظاهرين بها لا يعتقدون بصحة ذلك، ودينونة هؤلاء ظاهرة .

وهناك شكوك ناتجة عن تمسك أصحابها بخطايا معينة، ولا يمكن اهتداء هؤلاء إلى الحقيقة ما لم يتركوا أولاً تشبُّثهم بخطاياهم، سواء كانت علنية أو خفية .

أما الشكوك الناتجة عن قلة المعرفة فقط، فالأمل قوي بزوالها بواسطة الدرس والسؤال، وطلب الهداية الإلهية، وعمل الواجب الحاضر في حينه بكل أمانة وإخلاص .

ولما كان المعمدان مزيجاً من المحبة والغيرة والتواضع، مع شيء من الخوف والميل الطبيعي إلى القنوط، فلا بد أن تكون النتيجة أخيراً انقشاع غيوم الشكوك وبزوغ شمس اليقين التام، وهذا ما جرى معه .

زعم البعض أن المعمدان لم يشك، بل قصد أن يأخذ رسوله من المسيح جواباً مقنعاً لهما على هذا السؤال الجوهرى، يفيد سائر تلاميذه. فإن صدق هذا الفرض يكون المعمدان في آخر خدمته، قد سعى ليهدي الناس إلى المسيح الأعظم منه، الذي يأتي بعده والذي هو قبله .

شاء الأب في حكمته وحبه أن يموت المعمدان شهيداً ليحصل على مجد مضاعف في أبديته، وليعطينا نموذجاً مؤثراً للجرأة الدينية التي لا تهاب إنساناً في اتِّباع الأوامر الإلهية ولو كان ملكاً، ويكون مثلاً للمجاهرة بالدين الحق ومبادئه. ولهذا لم ينقذ المسيح المعمدان في ضيقه .

جواب عملي

فضّل المسيح أن يجيب على سؤال المعمدان بالأفعال قبل الأقوال «ففي تلك الساعة شفى كثيرين من أمراض وأدواء وأرواح شريرة، ووهب البصر لعميان كثيرين .» وبعد هذا البرهان النظري الوافي بأنه المسيح، أفهم الرسولين أن يبلغا مرسلهما الكريم خبر ما رأيا

وسمعا من معجزاته وتعاليمه، وخصَّ بالذكر علامة روحية، هي أن شخصاً قد أحرز شهرة وأظهر سلطاناً بهذا المقدار، ثم يعتني بتبشير المساكين، لا يمكن إلا أن يكون المسيح. ألم يعطِ النبي العظيم هذه العلامة في قوله: «يَزْدَادُ الْبَائِسُونَ فَرَحاً بِالرَّبِّ، وَيَهْتَفُ مَسَاكِينُ النَّاسِ بِقُدُّوسِ إِسْرَائِيلَ» (إشعيا ١٩: ٢٩) وأيضاً «الرَّبُّ مَسَحَنِي لِأُبَشِّرَ الْمَسَاكِينَ» (لوقا ٤: ١٨).

«فَلَمَّا مَضَى رَسُولًا يُوَحِّنًا، ابْتَدَأَ يَقُولُ لِلْجُمُوعِ عَنْ يُوَحِّنًا: «مَاذَا خَرَجْتُمْ إِلَى الْبَرِّيَّةِ لِنَنْتَظِرُوا؟ أَقَصَبَةً تَحْرِكُهَا الرِّيحُ؟ بَلْ مَاذَا خَرَجْتُمْ لِنَنْتَظِرُوا؟ أَنْسَانًا لَا يَسَاءُ ثِيَابًا نَاعِمَةً؟ هُوَذَا الَّذِينَ فِي اللَّبَاسِ الْفَاحِرِ وَالتَّنَعُّمِ هُمْ فِي قُصُورِ الْمُلُوكِ. بَلْ مَاذَا خَرَجْتُمْ لِنَنْتَظِرُوا؟ أَنْبِيَاءُ؟ نَعَمْ أَقُولُ لَكُمْ وَأَفْضَلُ مِنْ نَبِيِّ! هَذَا هُوَ الَّذِي كُتِبَ عَنْهُ: هَا أَنَا أُرْسِلُ أَمَامَ وَجْهِكَ مَلَكِي الَّذِي يَهَيِّئُ طَرِيقَكَ قُدَّامَكَ! لِأَنِّي أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُ بَيْنَ الْمُؤَلُودِينَ مِنَ النِّسَاءِ لَيْسَ نَبِيٌّ أَعْظَمَ مِنْ يُوَحِّنًا الْمَعْمَدَانِ، وَلَكِنَّ الْأَصْغَرَ فِي مَلَكُوتِ اللَّهِ أَعْظَمُ مِنْهُ». وَجَمِيعُ الشَّعْبِ إِذْ سَمِعُوا وَالْعَشَّارُونَ بَرَّرُوا اللَّهَ مُعْتَمِدِينَ بِمَعْمُودِيَّةِ يُوَحِّنًا. وَأَمَّا الْفَرِّيسِيُّونَ وَالنَّامُوسِيُّونَ فَرَفَضُوا مَشُورَةَ اللَّهِ مِنْ جِهَةِ أَنْفُسِهِمْ، غَيْرَ مُعْتَمِدِينَ مِنْهُ» (لوقا ٢٤: ٧-٣٠).

أعلن المسيح في جوابه على سؤال المعمدان أهمية العمل، برهاناً قاطعاً لمزايا الشخص. فإن كان هو المسيح حقاً، يتضح ذلك من أعماله أكثر من أقواله. ولكن لنأخذ سكوته، ثم كيفية جوابه، ثم تخلّيه عن إنقاذ المعمدان، دليلاً على عدم اهتمامه بالمعمدان الشهم الغيور المعتبر عند الشعب أنه من أنبياء الله، أسرع المسيح في مدحه حالما انصرف رسولاً المعمدان راجعاً إليه. لم يشأ أن يبلغ مديحه هذا آذان المعمدان، لئلا يظن أنه فقط من باب التعزية أو الترضية أو التمليق، ولأن المدح في غياب الممدوح تكون قيمته مضاعفة.

ذكر المسيح الجمهور بأيام نجاح المعمدان، حين كان بعض سامعيه بين الجماهير المتقاطرة إليه في البرية، تاركين الأوطان والأشغال، وطالبيين أن يسمعوه ويعتمدوا منه. سأل المسيح الجمهور: هل وجدوا المعمدان آنئذ رجلاً متقلباً تزعره المخاوف أو المطامع، فيشبهه قصباً تحركها الريح؟ أليس ثباته وعزمه وحزمه سبب وجوده في ذلك السجن المخيف؟ إذاً لا يجوز اتخاذ سؤاله بواسطة رسوليّه أساساً للحكم بأنه رجل ضعيف ومتقلب.

وسأل المسيح الجمهور أيضاً إن كانوا قد وجدوا المعمدان رجلاً محباً للذات يطلب التمتع والرفاهية، حتى يروا بين كلامه وسلوكه تناقضاً يمنع من اتباع إرشاداته. ألم يجدوا بخلاف ذلك أنه يسلك في منتهى إنكار الذات، ويعطي نفسه كلها لخدمة الله بواسطة خدمته للبشر؟

فإن اعتبروه نبياً فقد أصابوا العلم. لكنه أيضاً أعظم من نبي. لأن لا موسى بتسليمه الشريعة للشعب بعد إخراجهم من عبودية مصر، ولا إيليا بمقاومته عبادة الوثن وصنعه المعجزات المدهشة، ولا داود برعايته شعب إسرائيل كملاك مدة أربعين سنة وإعطائه العالم مزاميره

الشهيرة، قد خدموا العالم خدمةً جوهريّة مثل خدمة المعمدان، الذي هيّا الطريق للمسيح الموعود به، ثم دلّ الناس عليه .

إنّ صَحَّ من كتب: «الْخُلُق عيال الله، وأحبُّهم إليه أنفعهم لعياله» يكون المعمدان من أحب الناس إلى الله. وتؤيد ذلك شهادة المسيح عنه، إذ قال: «الحق أقول لكم إنه بين المولودين من النساء ليس نبي أعظم من يوحنا المعمدان». وهذا يعني أنه أعظم من كل نبي وُلد ولادةً طبيعيّة - فيُستثنى المسيح من ذلك - وقد فاق المعمدان كل الأنبياء في أنه أقربهم إلى المسيح. وأكمل المسيح كلامه هذا بالقول: «ولكن الأصغر في ملكوت السموات أعظم منه». وهذا يعني أن أدنى مركز في العهد الجديد هو حظُّ أعظم من أرفع مركز في العهد القديم، لأن مؤمن العهد الجديد يدرك أكثر من مؤمن العهد القديم أن ملكوت المسيح ملكوت روحي، وأنه قد جاء ليفدي شعبه بموته .

ثم وبخ المسيح رؤساء اليهود لأنهم من الناس الذين يصح فيهم القول إن «الأولين يكونون آخرين». فبدلاً من أن يكونوا في مقدمة المستفيدين من خدمة المعمدان في الوعظ والتعميد، بسبب معارفهم ووظيفتهم «رفضوا مشورة الله من جهة أنفسهم غير معتمدين منه». بينما العشارون المحتقرون «برروا الله معتمدين بمعمودية يوحنا» إذ أقروا بصلاح الله الذي ظهر في كرازة المعمدان. وقال المسيح إن رؤساء اليهود انتقدوا يوحنا المعمدان لابتعاده عن الناس، ولاختياره العيشة التقشفية قائلين إن به شيطاناً، فرفضوه. ثم انتقدوا المسيح لاقترابه من الناس، واختياره العيشة الطبيعية، مشتركاً معهم في أفراحهم وأتراحهم، فقالوا عنه: «هُوَ ذَا إِنْسَانٍ أَكُولٌ وَشَرِيبٌ خَمْرٌ مُحِبٌّ لِلْعَشَّارِينَ وَالْخُطَاةِ» (متى 11:19) فرفضوه أيضاً. وأثبتوا بذلك أنهم غير مخلصين في توجيه التهمتين. وأوضحوا أنه لا يؤمل ظهور الحكمة الحقيقية وتزكيتها إلا في أهلها الحقيقيين .

عزيزي القارئ، افتح قلبك لتقبل المسيح طريق الله الوحيد للخلاص، ولا تكن غير مؤمن بل مؤمناً .

المسيح يزور فريسياً

«وَسَأَلَهُ وَاحِدٌ مِنَ الْفَرِّسِيِّينَ أَنْ يَأْكُلَ مَعَهُ، فَدَخَلَ بَيْتَ الْفَرِّسِيِّ وَاتَّكَأ. وَإِذَا امْرَأَةً فِي الْمَدِينَةِ كَانَتْ خَاطِئَةً، إِذْ عَلِمَتْ أَنَّهُ مُتَكَيٌّ فِي بَيْتِ الْفَرِّسِيِّ، جَاءَتْ بِقَارُورَةِ طِيبٍ وَوَقَفَتْ عِنْدَ قَدَمَيْهِ مِنْ وَرَائِهِ بَاكِئَةً، وَابْتَدَأَتْ تَبْلُ قَدَمَيْهِ بِالدُّمُوعِ، وَكَانَتْ تَمْسَحُهُمَا بِشَعْرِ رَأْسِهَا، وَتُقَبِّلُ قَدَمَيْهِ وَتَذْهَنُهُمَا بِالطِّيبِ. فَلَمَّا رَأَى الْفَرِّسِيُّ الَّذِي دَعَاهُ ذَلِكَ، قَالَ فِي نَفْسِهِ: «لَوْ كَانَ هَذَا نَبِيًّا لَعَلِمَ مَنْ هَذِهِ الْمَرْأَةُ الَّتِي تَلْمِسُهُ وَمَا هِيَ! إِنَّهَا خَاطِئَةٌ!» (لوقا ٧: ٣٦-٣٩).

دعا فريسي اسمه سمعان للمسيح ليتناول الطعام على مائدته مع أناس آخرين، فلبى المسيح الدعوة. ونحن نجهل قصد سمعان من هذه الدعوة، لأننا نجهل صفاته. قد يكون قصده بسيطاً لكي يكرم إنساناً شهيراً ويرى أعماله ويسمع أقواله. وقد يكون قصده خبيثاً لكي يخدم أفكار زملائه فريسي اليهودية ويصطاد يسوع بكلمة. أما قصد المسيح في قبول الدعوة فواضح لأننا نعلم صفاته ومبادئه، فقد أحب خصومه مع أنهم قصدوا أن يهلكوه. وبرهن على غيرته أنه يغتنم كل فرصة ليصيد النفوس، سواء كانت من أدنياء القوم أو عظمائهم.

ومع أن سمعان كان يحترم المسيح، بسبب معجزاته وانتشار صيته كنبّي، إلا أنه كان يزدري به بعض الازدراء بالنظر إلى أصله الناصري، وإلى عدم تخرّجه من إحدى مدارسهم العالية، وإلى معيشتهم الفقيرة.

وكان يحتقره من الوجه الديني لعدم قيامه بالعوائد والتقاليد الفريسية. لذلك لم يقدم للمسيح الاحترام والخدمة حسب العادات الجارية في الضيافة. ويظهر أنه اعتبر مجرد دعوته شرفاً كافياً لهذا الناصري.

وانتشر في المدينة خبر قبول المسيح دعوة سمعان، وربما انتشر أيضاً خبر تقصير سمعان في إكرامه الواجب، فتحمست لذلك امرأة في المدينة كانت خاطئة، لم تتحمل معاملة التحقير لهذا المعلم والنبّي الفاضل، فقصدت أن تعوّض عن ذلك التقصير في إكرامه، فجاءت بقارورة طيب ووقفت عند قدميه، لأنها تعرف مقامها الدنيء في أعين المجتمعين، وتشعر بثقل خطاياها الماضية. فلم تجسر أن تتقدم لتسكب هذا الطيب الثمين على رأس المسيح، فاستبدلت رأسه بقدميه. ألا يحق لنا أن نعتبرها من المتعبين والثقيلي الأحمال، الذين سمعوا دعوته السامية منذ ساعات قليلة، وأنها قبلت الدعوة وأتت إليه بالتوبة والإيمان؟

نراها واقفة وراء تدهن قدميه بالطيب. لكن أطيب من الطيب دموع توبتها السخية التي تتساقط وتمتزج مع الطيب، لأن بعضها محزنة بسبب ماضيها المعيب وبعضها مفرحة بسبب شكرها لأجل الغفران الجديد الذي وجدت فيه راحة لنفسها. فعملها هذا الإكرامي مألوف عند الناظرين. لكن غير المألوف رؤية امرأة شريرة تذرف دموع التوبة أمام

عيونهم، مع الاحترام الذي جعلها تمسح قدمي هذا المعلم بأعز ما لديها أي شعرها. ولعلمهم نسبوا ما فعلته إلى أنها سكرى بالخمير. ولم يدركوا أنها فعلت فعل المستعصي المتذل، ثم الأخذ الشكور، فقبلت قدمي المسيح الذي قادها للتوبة والخلاص .

كان سمعان الفريسي يتحاشى العشارين والخطاة تماماً، فاستاء جداً من دخول المرأة الخاطئة بيته، ومن العمل الذي قامت به للمسيح - ولا بد أنه استغرب كيف يقبل المسيح ما عملته به هذه المرأة. ألا يعلم من تكون؟ إن كان المسيح يعلم فقد أخطأ بقبول لمساتها له. وإن لم يكن يعلم فهو ليس نبياً. دارت هذه الأفكار في عقل سمعان الفريسي - ولكنه لم يقل منها شيئاً. وعرف المسيح ما جال في فكر سمعان، فوجه إليه مثلاً، ثم سأله سؤالاً .

«فَقَالَ يَسُوعُ: «يَا سِمْعَانُ عِنْدِي شَيْءٌ أَقُولُهُ لَكَ. «فَقَالَ: «قُلْ يَا مُعَلِّمُ». «كَانَ لِمَدَايِينَ مَدْيُونَانِ. عَلَى الْوَاحِدِ خَمْسُ مِئَةِ دِينَارٍ وَعَلَى الْآخَرِ خَمْسُونَ. وَإِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُمَا مَا يُوفِيَانِ سَامَحَهُمَا جَمِيعاً. فَقُلْ: أَيُّهُمَا يَكُونُ أَكْثَرَ حُبًّا لَكَ؟» فَأَجَابَ سِمْعَانُ: «أَظُنُّ الَّذِي سَامَحَهُ بِالْأَكْثَرِ». فَقَالَ لَهُ: «بِالصَّوَابِ حَكَمْتَ». ثُمَّ انْتَقَتِ إِلَى الْمَرْأَةِ وَقَالَ لِسِمْعَانَ: «أَتَنْتَظِرُ هَذِهِ الْمَرْأَةَ؟ إِنِّي دَخَلْتُ بَيْتَكَ، وَمَاءً لِأَجْلِ رِجْلَيْ لَمْ تُعْطِ. وَأَمَّا هِيَ فَقَدْ غَسَلَتْ رِجْلَيْ بِالذَّمُوعِ وَمَسَحَتْهُمَا بِشَعْرِ رَأْسِهَا. قُبْلَةً لَمْ تُقْبَلْنِي، وَأَمَّا هِيَ فَمُنْذُ دَخَلْتُ لَمْ تَكُفَّ عَنِ تَقْيِيلِ رِجْلَيْ. بَزَيْتِ لَمْ تَذْهَبِي رَأْسِي، وَأَمَّا هِيَ فَقَدْ دَهَنَتْ بِالطِّيبِ رِجْلَيْ. مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَقُولُ لَكَ: قَدْ غُفِرَتْ خَطَايَاهَا الْكَثِيرَةُ لِأَنَّهَا أَحَبَّتْ كَثِيراً. وَالَّذِي يُغْفَرُ لَهُ قَلِيلٌ يُحِبُّ قَلِيلاً». ثُمَّ قَالَ لَهَا: «مَغْفُورَةٌ لَكَ خَطَايَاكَ». فَأَبْتَدَأَ الْمُتَكِبُونَ مَعَهُ يَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ: «مَنْ هَذَا الَّذِي يَغْفِرُ خَطَايَا أَيُّضاً؟». فَقَالَ لِلْمَرْأَةِ: «إِيمَانُكَ قَدْ خَلَّصَكَ! اذْهَبِي بِسَلَامٍ» (لوقا 7:40-50)

كان لمداين مديونان، واحد مديون بخمسين ديناراً، والآخر مديون بخمسمئة. وسامح المداين المديونين - فَمَنْ منهما يحبُّ المداين أكثر؟ فأجاب سمعان: «أظنُّ الذي سامحه بالأكثر .»

كان المسيح يريد أن يقول لسمعان إنه هو المديون بالقليل، أما المرأة الخاطئة فهي المديونة بالكثير. قارن المسيح دموعها التي سكبتها على رجليه ونشفتها بشعر رأسها بالماء الذي لم يقدمه سمعان لغسلها. وقارن تقبيلها لقدميه بالقُبْلَةَ التي لم يطبعها سمعان على وجنتيه. وقارن الطيب الثمين الذي سكبته، بالزيت الرخيص الذي بخل به سمعان عليه. وفسر قصدها الشريف بأنه طلب المغفرة منه على خطاياها الجسيمة، وأنه منحها الضمان بأنه قد استجاب هذا الطلب. فشكرها الحبي للذي منح الغفران جاء نتيجة لشعورها بعظم آثامها. وأما سمعان فلأنه لم يشعر بعظم آثامه، ولم يشعر أيضاً بالشكر الحبي نظيرها، فلم يفهم شعورها .

وقول المسيح: «قد غُفِرَتْ خَطَايَاهَا الْكَثِيرَةُ لِأَنَّهَا أَحَبَّتْ كَثِيراً» يؤخذ مع المَثَل الذي أوضح فيه المسيح لسمعان أن الخاطئ يحب كثيراً لأنه غُفِرَ له كثير. فلا يستنتج أن محبة الخاطئ

لله تسبق المغفرة وتكون سببها، بل عكس ذلك هو الصحيح. في القولين ليس المقصود أن الذي يحب كثيراً يُغفر له لأنه أحب، بل إن الذي يُغفر له كثيراً يحب كثيراً لأنه غُفر له الكثير .

ثم قال المسيح للمرأة: «مغفورة لك خطاياك». ولما عرف المسيح أن الحاضرين ينتقدونه، كما سبق أن انتقده أهل كفر ناحوم على غفرانه لخطايا المفلوج، قال للمرأة: «إيمانك قد خلّصك. إذهبي بسلام». وكل من يغفر الله له الكثير يجتهد ألا يعود إلى الخطية التي غفرها الله له .

ولا زال المسيح إلى يومنا، المخلص الذي يغفر للخطي ويردّه عن ضلال طريقه. هل وجدت هذا المخلص الذي ليس بأحدٍ غيره الخلاص؟

أقرباء المسيح الحقيقيون

شفاء مجنون أعمى أخرس

«حِينَئِذٍ أَحْضَرَ إِلَيْهِ مَجْنُونٌ أَعْمَى وَأَخْرَسٌ فَشَفَاهُ، حَتَّى إِنَّ الْأَعْمَى الْأَخْرَسَ تَكَلَّمَ وَأَبْصَرَ. فَبِهِتَ كُلُّ الْجُمُوعِ وَقَالُوا: «أَلَعَلَّ هَذَا هُوَ ابْنُ دَاوُدَ؟» أَمَّا الْفَرِّيسِيُّونَ فَلَمَّا سَمِعُوا قَالُوا: «هَذَا لَا يُخْرِجُ الشَّيَاطِينَ إِلَّا بِبَعْلَزَبُولَ رَئِيسِ الشَّيَاطِينِ». فَعَلِمَ يَسُوعُ أَفْكَارَهُمْ، وَقَالَ لَهُمْ: «كُلُّ مَمْلَكَةٍ مُنْقَسِمَةٍ عَلَى ذَاتِهَا تُخْرَبُ، وَكُلُّ مَدِينَةٍ أَوْ بَيْتٍ مُنْقَسِمٍ عَلَى ذَاتِهِ لَا يَثْبُتُ. فَإِنْ كَانَ الشَّيْطَانُ يُخْرِجُ الشَّيْطَانَ فَقَدْ انْقَسَمَ عَلَى ذَاتِهِ. فَكَيْفَ تَثْبُتُ مَمْلَكَتُهُ؟ وَإِنْ كُنْتُ أَنَا بِبَعْلَزَبُولَ أَخْرِجُ الشَّيَاطِينَ، فَأَبْنَاؤُكُمْ بِمَنْ يُخْرِجُونَ؟ لِذَلِكَ هُمْ يَكُونُونَ قُضَاتِكُمْ! وَلَكِنْ إِنْ كُنْتُ أَنَا بِرُوحِ اللَّهِ أَخْرِجُ الشَّيَاطِينَ، فَقَدْ أَقْبَلَ عَلَيْكُمْ مَلَكُوتُ اللَّهِ! أَمْ كَيْفَ يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَدْخُلَ بَيْتَ الْقَوِيِّ وَيَنْهَبَ أَمْتِعَتَهُ، إِنْ لَمْ يَرِبْطِ الْقَوِيُّ أَوَّلًا، وَحِينَئِذٍ يَنْهَبُ بَيْتَهُ؟» (متى ١٢: ٢٢-٢٩).

جاء الناس للمسيح بمرضى مصاب بثلاث علل: كان مجنوناً، أعمى وأخرس. فلما شفاه تماماً من العلل الثلاث، تهلل الجمهور متسائلاً إن كان هذا المحسن المقدر هو مسيحهم ابن داود. أما الفريسيون والكتبة الذين نزلوا من أورشليم ليراقبوه فلم يقدروا أن يسكتوا على عواطف الحب والاحترام التي بدأت تظهر في الجمهور، فاستعانوا بسطوتهم السياسية ليبعدوا الجمهور عنه، وقالوا إنه آله في يد «بعلزبول رئيس الشياطين». وأذاعوا هذا الحكم بين القوم على غير مسمع من المسيح. لكن المسيح عالم الخفايا، أدرك ما أذاعوه، وأوضح لهم مرة أخرى طبيعته السماوية في علمه الخفايا، دون أن يرى أو يسمع. فدعاهم إليه وابتدأ يفنّد حكمهم الشرير.

وقد دفع المسيح تهمة شيوخ اليهود له بدفاع مثلث:

لا يمكن أن إبليس يساعد المسيح الذي يقاومه ويخطف من يده فرائسه من البشر. لو أن الشيطان فعل ذلك لسقطت مملكته، لأن انقساماً حدث في بيته. ولا يمكن أن إبليس يخرج شيطاناً من إنسان، وإلا هلكت مملكته. والشيطان لا يفسد عمله في العالم عمداً.

أما الدفاع الذي دافع به المسيح، فهو أن بعض اليهود كانوا يدّعون أنهم يخرجون شياطين، فإذا صحّ الاتهام على المسيح أنه بقوة الشيطان يخرج الشياطين، يصح أيضاً على كل اليهود الذين يقولون أنهم يخرجون شياطين. وعندما يثبت أولئك كذب كلام شيوخ اليهود، فيكونون القضاة الذين يدينونهم. وعندما يعلن أولئك اليهود أنهم يطردون الشياطين بقوة الله يسكتون شيوخ اليهود.

3- ثم قال المسيح إن إخراج الشياطين هو من عمل روح الله، الذي يعلن قدوم ملكوت المسيح الجديد. فإن المسيح قد هاجم الشيطان القوي وقبّده وأخذ فرائسه من بين أسنانه. عندما أخرج المسيح الشياطين من المسكون برهن أنه المخلص القوي القادر أن يخلص إلى التمام. فكيف يكون المسيح شريك الشيطان وهو الذي قيده بسلسلة سلطانه؟

أليس غريباً أن الفريسيين رأوا في معجزات المسيح ناحية القوة فقط، ولم يروا فيها ناحية الرحمة؟ عند الشيطان قوة فائقة ولكن بلا رحمة، فكيف أغفل شيوخ اليهود عنصر الرحمة في معجزات المسيح، ولم يفتنوا إلى ما هو ظاهر كعين الشمس، وهو أن طبيعة الشيطان وكل أعماله منافية تماماً لأعمال الرحمة والخير؟ فما أعظم عماهم وهم ينسبون إلى الشيطان الأعمال الخيرية، التي لا يمكن أن يقوم بها إلا صانع الخيرات !

الحياد في الدين مستحيل

«مَنْ لَيْسَ مَعِيَ فَهُوَ عَلَيَّ، وَمَنْ لَا يَجْمَعُ مَعِيَ فَهُوَ يُفَرِّقُ» (متى ١٢: ٣٠).

بعد أن شرح المسيح أن معجزاته هي من عند الله، أثبت أننا لا يمكن أن نقف موقف الحياد في الدين، فكل إنسان يكون في صف المسيح أو ضده. إن الذي لا يعمل أعمال الله، فهو من إبليس. فهو لا يجمع معه بل يفرق، لأن الجميع أصلاً في خدمة عدوه إبليس، ولا يكونون قد تركوا خدمته الطبيعية فيهم إلا بانتقالهم عمداً إلى خدمة المسيح .

في العالم الروحي مملكتان فقط، والحرب بينهما لا تهدأ ولا تنتهي. لا صلح ولا هدنة بين هذين الضدين. مملكة الله (مملكة النور والحق والبر) ومملكة الشيطان (مملكة الظلمة والبطل والإثم). وموقف الحياد فيهما مستحيل على كل إنسان .

لم يفعل المسيح معجزاته إلا بقوة الروح القدس الذي لم يعط بالكيل بل بفيضان. وكان هذا الروح دائماً يقود الإنسان يسوع المسيح ويقويه. ولقد أهان شيوخ إسرائيل الروح القدس إذ نسبوا فعله إلى بعزلبول، فأدانهم المسيح بسبب إضلالهم للشعب. لقد سبق أن حكم الرؤساء على المسيح حكماً ظالماً لما قال للمفلوج: «مغفورة لك خطاياك» - وها هو المسيح الآن يثبت عليهم حكماً عادلاً بأنهم جدفوا في ما افتكروه وقالوه في أمر إخراج الشياطين .

في قلب حكم المسيح الصارم هذا على الرؤساء، أعلن أعظم تعزية لعالم الخطاة وهي أن الغفران الإلهي يشمل جميع الخطايا، مهما كان جرمها، متى تقدّم الخاطئ في توبة حقيقية مع إيمان. لم يبق لأعظم الخطاة عذر يعطلهم عن الخلاص من الخطايا ونتائجها، ولم يبق موجب لليأس لأي خاطئ تفاقت شروره وأحب أن يقدم التوبة ويطلب الغفران. ويؤيد كلام المسيح هذا قول الله على فم النبي إشعياء: «هَلُمَّ نَتَحَاجَّجْ، يَقُولُ الرَّبُّ. إِنَّ كَانَتْ خَطَايَاكُمْ كَالْقَرَمِزِ تَبْيَضُ كَالثَّلْجِ. إِنَّ كَانَتْ حُمْرَاءَ كَالدُّودِيِّ تَصِيرُ كَالصُّوفِ» (إشعياء 1: 18).

التجديف على الروح القدس

«لِذَلِكَ أَقُولُ لَكُمْ: كُلُّ خَطِيئَةٍ وَتَجْدِيفٍ يُغْفَرُ لِلنَّاسِ، وَأَمَّا التَّجْدِيفُ عَلَى الرُّوحِ فَلَنْ يُغْفَرَ لِلنَّاسِ. وَمَنْ قَالَ كَلِمَةً عَلَى ابْنِ الْإِنْسَانِ يُغْفَرُ لَهُ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ عَلَى الرُّوحِ الْقُدُسِ فَلَنْ يُغْفَرَ لَهُ، لَا فِي هَذَا الْعَالَمِ وَلَا فِي الْآتِي» (متى ٣١: ١٢، ٣٢).

أظهر المسيح لرؤساء اليهود وللعالم، نوعاً واحداً من الخطايا يُستثنى من رجاء الغفران، وهو التجديف على الروح القدس، ذلك أن التوبة الحقيقية هي بفعل هذا الروح القدس. فالذي يهين الروح القدس يمنع فعله فيه ويحرم نفسه الوسطة الوحيدة للتوبة والغفران الذي يتبع التوبة. وكل من يخاف التجديف على الروح القدس يبرهن برهاناً قاطعاً أنه لم يجدف، لأن الذي يجدف على الروح القدس يفقد تماماً كل شعور روحي، ويضيع منه كل رجاء بالغفران، لأن الرجاء بتوبته مفقود، لعدم مبالاته كلياً بهذه الأمور، إذ أن ضميره قد مات، فرفض التوبة عن عمد، وأصر أن يختار الظلمة، إلى أن تركه الروح الإلهي لقساوة قلبه. في كلام المسيح عن التجديف على الروح القدس، ودرجة شر ذلك، إثبات لحقيقة شخصية ذلك الروح، وإثبات لحقيقة التثليث في الله الواحد.

من فضلة القلب يتكلم الفم

«اجْعَلُوا الشَّجَرَةَ جَيِّدَةً وَثَمَرَهَا جَيِّدًا، أَوْ اجْعَلُوا الشَّجَرَةَ رَدِيئَةً وَثَمَرَهَا رَدِيئًا، لِأَنَّ مِنَ الثَّمَرِ تُعْرِفُ الشَّجَرَةَ. يَا أَوْلَادَ الْإِنْسَانِ! كَيْفَ تَقْدُرُونَ أَنْ تَتَكَلَّمُوا بِالصَّالِحَاتِ وَأَنْتُمْ أَشْرَارٌ؟ فَإِنَّهُ مِنْ فَضْلَةِ الْقَلْبِ يَتَكَلَّمُ الْفَمُ. الْإِنْسَانُ الصَّالِحُ مِنَ الْكَنْزِ الصَّالِحِ فِي الْقَلْبِ يُخْرِجُ الصَّالِحَاتِ، وَالْإِنْسَانُ الشَّرِيرُ مِنَ الْكَنْزِ الشَّرِيرِ يُخْرِجُ الشَّرُورَ. وَلَكِنْ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ كُلَّ كَلِمَةٍ بَطَالَةٍ يَتَكَلَّمُ بِهَا النَّاسُ سَوْفَ يُعْطَوْنَ عَنْهَا حِسَابًا يَوْمَ الدِّينِ. لِأَنَّكَ بِكَلامِكَ تَتَبَرَّرُ وَبِكَلامِكَ تُدَانُ» (متى 12:33-37).

نَبَّهَ المسيح أفكار سامعيه إلى أن الكلام ثمر الأفكار، ولا يصلح الكلام إلا إذا صلحت الأفكار أولاً. لا تقدر أفكار الرؤساء الشريرة الكاذبة أن تأتي بكلام صالح، ولذلك فإنهم يستحقون اللقب الذي رشقهم به المعمدان في أيام سطوته، وكرره المسيح بتسميتهم: «أولاد الأفاعي». كان سمُّهم موروثاً، فهو لهذا السبب أصعب وأردأ. في هذه القرينة لفظ المسيح بحكمة جوهرية ثمينة. قال: «من فضلة القلب يتكلم الفم». وعلم أنه حتى على الكلمة الواحدة البطالة يجري الحساب يوم الدين، لأنها تكفي للدلالة على حالة القلب الفاسدة، التي هي الأساس الحقيقي للدينونة.

اليهود يطلبون معجزة

«جَينِذِ قَالِ قَوْمٌ مِنَ الْكَتَبَةِ وَالْفَرِّيسِيِّينَ: يَا مُعَلِّمُ، نُرِيدُ أَنْ نَرَى مِنْكَ آيَةً». فَقَالَ لَهُمْ: «جِيلٌ شَرِيرٌ وَفَاسِقٌ يَطْلُبُ آيَةً، وَلَا تُعْطَى لَهُ آيَةٌ إِلَّا آيَةُ يُونَانَ النَّبِيِّ. لِأَنَّهُ كَمَا كَانَ يُونَانُ فِي بَطْنِ الْحُوتِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ وَثَلَاثَ لَيَالٍ، هَكَذَا يَكُونُ ابْنُ الْإِنْسَانِ فِي قَلْبِ الْأَرْضِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ وَثَلَاثَ لَيَالٍ. رَجَالُ نِينَوَى سَيَقُومُونَ فِي الدِّينِ مَعَ هَذَا الْجِيلِ وَيَدِينُونَهُ، لِأَنَّهُمْ تَابُوا بِمُنَادَاةِ يُونَانَ، وَهُوَذَا أَعْظَمُ مِنْ يُونَانَ هَهُنَا! مَلِكَةُ التَّيْمَنِ سَتَقُومُ فِي الدِّينِ مَعَ هَذَا الْجِيلِ وَتَدِينُهُ، لِأَنَّهَا أَتَتْ مِنَ أَقَاصِي الْأَرْضِ لِتَسْمَعَ حِكْمَةَ سُلَيْمَانَ، وَهُوَذَا أَعْظَمُ مِنْ سُلَيْمَانَ هَهُنَا! إِذَا خَرَجَ الرُّوحُ النَّجِسُ مِنَ الْإِنْسَانِ يَجْتَازُ فِي أَمَاكِنَ لَيْسَ فِيهَا مَاءٌ، يَطْلُبُ رَاحَةً وَلَا يَجِدُ. ثُمَّ يَقُولُ: أَرْجِعْ إِلَى بَيْتِي الَّذِي خَرَجْتُ مِنْهُ. فَيَأْتِي وَيَجِدُهُ قَارِعًا مَكْنُوسًا مُرَيِّنًا. ثُمَّ يَذْهَبُ وَيَأْخُذُ مَعَهُ سَبْعَةَ أَرْوَاحٍ أُخَرَ أَشَرَّ مِنْهُ، فَتَدْخُلُ وَتَسْكُنُ هُنَاكَ، فَتَصِيرُ أَوَاخِرُ ذَلِكَ الْإِنْسَانِ أَشَرَّ مِنْ أَوَائِلِهِ. هَكَذَا يَكُونُ أَيْضًا لِهَذَا الْجِيلِ الشَّرِيرِ» (متى ١٢: ٣٨-٤٥).

طلب شيوخ اليهود من المسيح آية يتفرجون عليها، فاستحقوا على عماهم الروحي هذا تأنيباً جديداً مُرّاً، إذ قال لهم: «جيل شرير وفاسق يطلب آية، ولا تُعْطَى لَهُ آيَةٌ إِلَّا آيَةُ يُونَانَ النَّبِيِّ». الجيل فاسق، لأن الفسق الحقيقي الأصلي هو الابتعاد القلبي عن حب الله، والتمسك بحب غيره. والفسق المتعارف بين الناس هو رمز لذلك. يتظاهرون كأنهم مستعدون أن يؤمنوا بالمسيح، إن هو أشبعهم بالآيات مع أن المعجزات التي شاهدوها تزيد عما يحتاجونه ليقتنعوا بأنه مسيحهم المنتظر، وكانت توجب عليهم الإيمان به. أمثالهم كثيرون في كل الأجيال. هؤلاء يعتذرون في رفضهم الدين، بما يسمونه النقص في البيئات، بينما الواقع هو أنهم لا يريدون أن يؤمنوا، ولا يؤمنون ولو زادت البراهين أضعافاً.

وقد أحالهم المسيح على آية يُونَانَ النَّبِيِّ المألوفة جيداً عندهم، لأن فيها إشارة نبوية إلى قصده أن يمكث في القبر ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ. وقد برهن اقتباس المسيح هذا صدق قصة يُونَانَ تاريخياً، فكل ما نعهده في المسيح يكذب الزعم أنه يتخذ خرافة يمثل بها عمله العظيم في موته الفدائي. إذاً قصة يُونَانَ والحوث ليست خرافة، لأن المسيح علّق عليها تعليقاً مهماً، فشرح أن الله سيفضّل في يوم الدين رجال نينوى الوثنيين، وملكة التيمن الوثنية، على هؤلاء المدّعين أنهم رجال الله، لأن أهل نينوى تابوا عند مناداة يُونَانَ، ولأن ملكة التيمن الوثنية آمنت بسليمان وقصدته من بعيد. بينما المسيح الذي هو أعظم جداً من يُونَانَ ومن سليمان، ظهر لهم وكلمهم بكلام الحكمة السماوية ولم يؤمنوا به.

شبهه المسيح ذلك «الجيل الشرير الفاسق» بـ «رجل خرج منه شيطان كان ساكناً فيه، ثم عاد إليه ترافقه سبعة أرواح أشر أكثر شراً منه، فهُم على زمان المَعْمَدَانِ ذهبوا إليه وقدموا توبة من خطاياهم وقبلوا معموديته، لكن لأنهم لم يؤمنوا بالمسيح، ولم يقبلوا روحه القدس

ليسكن فيهم، أبقوا قلوبهم فارغة، فعادت إليهم شرورهم القديمة متجددة أضعافاً. ثم أكد المسيح أن أواخر الجيل الشرير الذي كان يكلمه تصير شراً زمن الخراب الهائل والعذاب المخيف الذي سماه المسيح «ضيّقٌ عظيمٌ لم يكن مثله منذ ابتداء العالم إلى الآن، ولن يكون.»

أما الفائدة التي نتعلمها من هذا المثل، فهي أن مجرد ترك الشرور يكون عبثاً لو لم يملأ الإنسان مكانها بالخيرات، التي هي ضد تلك الشرور - وإلا فتعود الشرور القديمة ترافقها شرور جديدة إلى القلب الذي طردها، لأن فراغ القلب مستحيل. وما لم يحل روح الله ويسكن القلب الذي يخرج الشيطان منه، فإن الشيطان يرجع متنشطاً أكثر، ويمتلك القلب امتلاكاً مضاعفاً. والعودة إلى الخطيئة شرٌّ جداً من ارتكابها أولاً.

أقرباء المسيح الحقيقيون

«وَفِيمَا هُوَ يُكَلِّمُ الْجُمُوعَ إِذَا أُمُّهُ وَإِخْوَتُهُ قَدْ وَقَفُوا خَارِجاً طَالِبِينَ أَنْ يُكَلِّمُوهُ. فَقَالَ لَهُ وَاحِدٌ: «هُوَذَا أُمُّكَ وَإِخْوَتُكَ وَاقِفُونَ خَارِجاً طَالِبِينَ أَنْ يُكَلِّمُوكَ.» فَأَجَابَهُ: «مَنْ هِيَ أُمِّي وَمَنْ هُمْ إِخْوَتِي؟» ثُمَّ مَدَّ يَدَهُ نَحْوَ تَلَامِيذِهِ وَقَالَ: «هَآ أُمِّي وَإِخْوَتِي. لِأَنَّ مَنْ يَصْنَعُ مَشِيئَةَ أَبِي الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ هُوَ أَخِي وَأُخْتِي وَأُمِّي» (متى ١٢: ٤٦-٥٠).

لما سمع أقرباء المسيح أن الازدحام زاد عليه وعلى من معه، حتى أنهم لم يجدوا وقتاً للأكل، خرجوا ليمسكوه باعتبار أنه «مختل العقل» (مرقس ٣: ٢١) وكان الواجب أن يدركوا أن ليس الغيور في الدين هو المختل، بل الفاتر في الدين.

هل يمكن أن نقدر مرارة الحزن التي تولدت في قلب المسيح المحب، عندما جاءت أمه مع إخوته ليحجزوا عليه كمختل، لكنهم لم يقدروا أن يصلوا إليه لسبب الجمع المزدحم من حوله؟ أليس غريباً أن درجة الحماسة والتفاني التي يحسبها الناس نشاطاً، ويمدحونها كحكمة في جمع المال، أو مقاومة الخصوم، أو تحصيل العلوم، يعتبرونها جنوناً إن كانت في خدمة الدين والإصلاح؟ فلما منع الازدحام أقرباء المسيح من الوصول إليه كلّفوا بعض الواقفين أن يقولوا له: «هوذا أمك وإخوتك واقفون خارجاً يريدون أن يروك، طالبين أن يكلموك». وكانوا يأملون أن يخرج ليكلّمهم خارجاً، فيسهل لهم أخذه معهم ولو قسراً، ليستعملوا الوسائط اللازمة لشفائه من هذا الاختلال العقلي الذي اتّهموه به ظلماً وجهالة.

وانفتح للمسيح بهذا الطلب باب مناسب ليعلم أهله، ثم تلاميذه، ثم جمهور سامعيه، أموراً جوهرية، يأمل رسوخها في أذهانهم. علّمهم أنه ليس من هذا العالم، فهو لا يعتبر أحداً من البشر أمماً حقيقياً أو إخوة حقيقيين له، كغيره من البشر. فقد زالت العلاقة الوقتية الجسدية مع أهل بيته، وحلّت محلها العلاقة الدائمة الروحية، التي تربطه، مستقلة عن الروابط

الجسدية، مع كل الذين يتحدون به اتحاداً روحياً. أعلن كل هذا في سؤاله للذي كلمه: «من هي أمي، ومن هم إخوتي؟» ثم مدَّ يده نحو تلاميذه (من رجال ونساء) وقال: «ها أمي وإخوتي. أمي وإخوتي الذين يسمعون كلمة الله ويعملون بها. لأن من يصنع مشيئة أبي الذي في السماوات هو أخي وأختي وأمي.»

كانت محبة المسيح لأمه مريم العذراء واحترامه لها ومحبته لإخوته حسب الجسد أشد وأنقى من محبة أي إنسان كان لذويه، فالمسيح مثال الكمال في هذا الأمر، كما في غيره. لكن أمانته وحبه لأقربائه هؤلاء تخضع كل الخضوع لأمانته وحبه للآب الذي أرسله. كما تخضع أيضاً للمحبة الروحية التي تربط أولاد هذا الآب الروحيين معه كأخوة حقيقيين. ومن جواب المسيح هذا نرى أن كل الذين يعملون مشيئة الآب يكونون أقرب البشر إليه وأعزهم عنده .

وللقارئ العزيز أن يتخيل مقدار تعزية رسل المسيح من تأثير هذا الكلام في أيام الاضطهاد المرّ القادم عليهم، الذي سيقاسونه من مبغضيههم. فإن المسيح يكافئ كل من يصنع مع تلاميذه خيراً، ويعاقب كل من يصنع معهم شراً، حتى ومن يتغاضى عن فعل الخير لأجلهم. فيتحقق معهم قول النبي زكريا: «مَنْ يَمْسُكُكُمْ يَمْسُ حَذَقَةَ عَيْنِهِ» (زكريا ٨: ٢).

رفض المسيح أن ينقاد إلى أهله في حبهم البشري الطبيعي، الممتزج بقصر البصر الروحي، وخرج من البيت وجلس عند البحر، ليسرد سلسلة أمثال تبين ماهية ملكوت السماوات.

المسيح يعلم بأمثال

علم المسيح كثيراً بالأمثال. وأمثاله خالية من القصص الخيالية كنطق الحيوان وحركة الجماد، كما أنها اجتنبت كل إشارة هزلية، لأنها شرحت لسامعيه أسرار ملكوت السموات .

مثل الزارع

«هُؤذَا الزَّارِعُ قَدْ خَرَجَ لِيَزْرَعَ، وَفِيمَا هُوَ يَزْرَعُ سَقَطَ بَعْضُ عَلَى الطَّرِيقِ، فَجَاءَتِ الطُّيُورُ وَأَكَلَتْهُ. وَسَقَطَ آخَرُ عَلَى الْأَمَاكِنِ الْمُحْجَرَةِ، حَيْثُ لَمْ تَكُنْ لَهُ تُرْبَةٌ كَثِيرَةٌ، فَتَبَتَ حَالاً إِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُ عُمُقُ أَرْضٍ. وَلَكِنْ لَمَّا أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ اخْتَرَقَ، وَإِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَصْلٌ جَفَّ. وَسَقَطَ آخَرُ عَلَى الشَّوْكِ، فَطَلَعَ الشَّوْكُ وَخَنَقَهُ. وَسَقَطَ آخَرُ عَلَى الْأَرْضِ الْجَيِّدَةِ فَأَعْطَى ثَمَرًا، بَعْضُ مِئَةً وَآخَرُ سِتِّينَ وَآخَرُ ثَلَاثِينَ. مَنْ لَهُ أُذُنَانِ لِلسَّمْعِ فَلْيَسْمَعْ» (متى ١٣: ٩-١٣).

في المثل الأول المسمّى مثل الزارع، قسم المسيح سامعي كلام ملكوته إلى أربعة أقسام. قسم يسمعون بأذانهم فقط، ولا يفهمون بأذهانهم، وذلك إمّا لانشغالهم بأمور أخرى، أو لقساوة قلوبهم من جراء انصبابهم السابق على المعاصي. وهؤلاء يكونون كأنهم لم يسمعوا. وتظهر عدم استفادتهم سريعاً، لأنهم لم يذوقوا من لذة هذا الطعام الروحي شيئاً. شبّه المسيح هؤلاء ببذار يقع على الطريق فيُداس ويخطفه الطائر بأقرب وقت، فلا يأتي بثمر .

أما القسم الثاني من سامعي التعليم، فهم الذين يفهمونه ويقبلونه بفرح. لكن فرحهم سطحي ووقتي. هؤلاء لم يحسبوا حساب النفقة، ولم يستعدوا لاحتمال المقاومات الداخلية والخارجية التي تترصد كل محبي كلام الله. لذلك عند وقوع الضيقات يرتدّون عما كانوا أولاً يتباهون ويفرحون به. ويشبّه المسيح هؤلاء بالزرع الذي يقع على الأرض الخفيفة، التي قعرها صخر، هذا الزرع ينبت سريعاً لعدم عمق التربة، ثم يجف عند وقوع حرارة الشمس عليه، فلا يأتي بثمر .

القسم الثالث هم الذين يفهمون التعليم ويقبلونه بفرح، ويثبتون في وجه المقاومات غير متزعزعين من الاضطهادات والخسائر التي تنتج عنها. لكن ثباتهم هذا ناتج عن عنادهم الطبيعي، إذ يحسبون أنفسهم شهداء الدين، فلا يأتون بثمر - أي لا يمجّدون الله ولا يفيدون الناس - لأنهم منهمكون بأمور الدنيا.. إن كانوا من الفقراء فهمهم عوزهم، أو من الأغنياء فهمهم مقتنياتهم وأشغالهم الكثيرة. ويشبّههم المسيح بالزرع الذي ينمو جيداً وتظهر فيه للناظرين كل علامات الأثمار، ولا يُعرَف عدم إثمارهم إلا يوم الحصاد، إذ تكون السنابل فارغة، لأن الأشواك والأعشاب البرية تغلّبت على الزرع وخنقته، فلم يثمر .

القسم الرابع والأخير من سامعي التعليم الإلهي هم السالمون من العيوب التي مرّ ذكرها. هؤلاء يطلبون أولاً ملكوت الله وبرّه، فلا يلتفتون عنه بأمور العالم، أغنياء كانوا أم فقراء.

ولذلك لا يبالون بضيعاتهم (رومية ٥: ٣). وبالطبع يفهمون جيداً ما يسمعون، فيأتون بثمر كثير لمجد الله وخير الناس. أما أثمار هؤلاء فتكون على درجات متفاوتة، تتبع المواهب والفرص المتنوعة وموافقة الأحوال التي يوجدون فيها. فشبه المسيح هؤلاء بالزرع في الأرض الجيدة، الذي يثمر ثلاثين ضعفاً وبعضه ستين وغيره مئة. وفي تفسير هذا المثل أعطى المسيح مفتاحاً يساعد كثيراً على تفسير سائر الأمثال التي وردت بلا تفسير. لما ابتداء بالمثل نبّه السامعين بقوله: «اسمعوا، هوذا الزارع قد خرج ليزرع». ولما انتهى المثل نبّههم ثانية بنداؤه: «من له أذنان للسمع فليسمع.»

مثل زوان الحقل

«قَالَ لَهُمْ مَثَلًا آخَرَ: «يُشَبِّهُ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ إِنْسَانًا زَرَعَ زَرْعًا جَيِّدًا فِي حَقْلِهِ. وَفِيمَا النَّاسُ نِيَامٌ جَاءَ عَدُوُّهُ وَزَرَعَ زَوَانًا فِي وَسْطِ الْحِنْطَةِ وَمَضَى. فَلَمَّا طَلَعَ النَّبَاتُ وَصَنَعَ ثَمَرًا، حِينَئِذٍ ظَهَرَ الزَّوَانُ أَيْضًا. فَجَاءَ عَبِيدُ رَبِّ النَّبِيِّ وَقَالُوا لَهُ: يَا سَيِّدُ، أَلَيْسَ زَرْعًا جَيِّدًا زَرَعْتَ فِي حَقْلِكَ؟ فَمِنْ أَيْنَ لَهُ زَوَانٌ؟ فَقَالَ لَهُمْ: إِنْسَانٌ عَدُوٌّ فَعَلَ هَذَا فَقَالَ لَهُ الْعَبِيدُ: أَتُرِيدُ أَنْ نَذْهَبَ وَنَجْمَعَهُ؟ فَقَالَ: لَا! لِنَلَّا تَقْلَعُوا الْحِنْطَةَ مَعَ الزَّوَانِ وَأَنْتُمْ تَجْمَعُونَهُ. دَعُوهُمَا يَنْمِيَانِ كِلَاهُمَا مَعًا إِلَى الْحَصَادِ، وَفِي وَقْتِ الْحَصَادِ أَقُولُ لِلْحَصَادِيِّينَ: اجْمَعُوا أَوَّلًا الزَّوَانِ وَاحْزِمُوهُ حُزْمًا لِيُحْرَقَ، وَأَمَّا الْحِنْطَةُ فَاجْمَعُوهَا إِلَى مَخْرَنِي» (متى ٢٤: ١٣-٣٠).

المثل الثاني بناه المسيح على أن العدو إبليس يُدخل في ملكوت المسيح الخارجي (أي الكنيسة) أناساً ليسوا من شعب الله. وهؤلاء لا يعرفهم الناس في أول أمرهم. فلما تظهر عليهم تدريجياً دلائل حقيقتهم، يريد رجال الله أن يفرزهم ويخرجوهم من الكنيسة المسيحية. لكن هذا الإفراز محفوف بالخطر، لأن مدبري الكنيسة لا يعلمون ما في القلوب. فقد يُخرجون بطرساً تائباً هو تلميذ حقيقي، بينما هم يحاولون أن يخرجوا إسخريوطياً خائناً فاقد كل الصفات المسيحية. ولذلك يطلب الله من قادة شعبه التآني الكافي قبل طرد الضعفاء والساقطين، لئلا يخطئ حكمهم فيظلمون.

في مثل زوان الحقل يشبه المسيح نفسه بإنسان زرع في حقله زرعاً جيداً. ثم يشبه عدوه إبليس بإنسان آخر، زرع في ذات الحقل زواناً. ويشبه الملائكة بالحاصدين، ويوم الدين بيوم الحصاد. ويختتم تفسيره هذا المثل بقوله: «كما يُجمع الزوان ويُحرق بالنار، هكذا يكون في انقضاء العالم. يرسل ابن الإنسان ملائكته فيجمعون من ملكوته جميع المعاثرة وفاعلي الإثم، ويطرحونهم في أتون النار. هناك يكون البكاء وصرير الأسنان. حينئذ يضيء الأبرار كالشمس في ملكوت أبيهم، من له أذنان للسمع فليسمع.»

مثل النمو الخفي للزرع

«وَقَالَ: «هَكَذَا مَلَكُوتُ اللَّهِ: كَأَنَّ إِنْسَانًا يُلقِي البَذَارَ عَلَى الْأَرْضِ، وَيَنَامُ وَيَقُومُ لَيْلًا وَنَهَارًا، وَالْبَذَارُ يَطْلُعُ وَيَنْمُو، وَهُوَ لَا يَعْلَمُ كَيْفَ، لِأَنَّ الْأَرْضَ مِنْ ذَاتِهَا تَأْتِي بِثَمَرٍ. أَوَّلًا نَبَاتًا، ثُمَّ سُنْبُلًا، ثُمَّ قَمْحًا مَلَانٍ فِي السُّنْبُلِ. وَأَمَّا مَتَى أَدْرَكَ الثَّمَرُ فَلِلْوَقْتِ يُرْسِلُ الْمُنْجِلَ لِأَنَّ الْحَصَادَ قَدْ حَضَرَ» (مرقس ٤: ٢٦-٢٩).

قدم المسيح مثلاً ثالثاً بدون أن يفسره، وبناء على الحقيقة أن النمو في ملكوته الروحي على الأرض أمر طبيعي لا بد منه، وأنه يأتي تدريجياً لا فجأة. وأن هذا النمو يكون له أصل سري غامض، يعجز البشر عن فهمه وتفسيره .

مثل حبة الخردل

«قَالَ لَهُمْ مَثَلًا آخَرَ: «يُشَبِّهُ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ حَبَّةَ خَرْدَلٍ أَخَذَهَا إِنْسَانٌ وَزَرَعَهَا فِي حَقْلِهِ، وَهِيَ أَصْغَرُ جَمِيعِ البُزُورِ. وَلَكِنْ مَتَى نَمَتْ فَهِيَ أَكْبَرُ البُقُولِ، وَتَصِيرُ شَجَرَةً، حَتَّى إِنَّ طُيُورَ السَّمَاءِ تَأْتِي وَتَتَأَوَّى فِي أَغْصَانِهَا» (متى ١٣: ٣١، ٣٢).

لما كان الوقت الذي يتكلم فيه المسيح أول فصل الشتاء، وكان عمل الزراع منتشرًا حوله، حكى لسامعيه مثلاً رائعاً زراعياً لإظهار حقيقة ضعف ملكوته في العالم عند إنشائه، ثم عظّمته أخيراً بواسطة نموّ خارجي مهم، حتى تمكّنه عظّمته من خدمة الناس خدمات عظيمة. شبّه المسيح ملكوته بحبة الخردل، أصغر جميع البزور التي يزرعها الإنسان، لكنها تنمو شيئاً فشيئاً إلى أن تصبح أكبر البقول، بل شجرة تأوي إليها طيور السماء للاستفادة منها. ويناسب الخردل تشبيهاً للملكوت الجديد الذي أدخله المسيح، بالنظر إلى صغر حجمه، ولاستعماله دواء في الأمراض، ولاتصافه بشيء من القساوة المؤلمة، ولأن مفعوله في الشفاء يتوقف على سحقه، كما تتوقف قوة المخلص للخلاص على سحقه على الصليب .

مثل الخميرة

«قَالَ لَهُمْ مَثَلًا آخَرَ: «يُشَبِّهُ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ خَمِيرَةً أَخَذَتْهَا امْرَأَةٌ وَحَبَّاتُهَا فِي ثَلَاثَةِ أَكْيَالٍ دَقِيقٍ حَتَّى اخْتَمَرَ الْجَمِيعُ» (متى ١٣: ٣٣).

المثل الخامس الذي قدّمه المسيح في هذا الوقت، هو مثل الخميرة، وهو مبني على ثلاث حقائق مهمة. الأولى أن إنماء الملكوت لا يكون بواسطة الازدياد الخارجي كنمو الجماد، بل بواسطة المفعول الداخلي كنمو الحي. ونجاح كنيسة المسيح لا يتوقف على أسباب خارجية عنها، بل على الأسباب التي في داخلها. فالسلطة السياسية والثروة المادية وما يشابههما، لا

تنمّي كنيسة المسيح الحقيقية إلا قليلاً ونادراً، لا بل كثيراً ما توقّف هذه ذلك النمو، مع أنها قد تنمّي جماعات ظاهرة تسمّى خطأ كنيسة المسيح. لا ينمّي الكنيسة إلا أعضاؤها الذين يحصلون على قوة إلهية تحل فيهم من الروح القدس .

والحقيقة الثالثة هي أن الدين الحقيقي، من طبيعته أن يخترق كل دقائق حياة المؤمن ويتملّك فيها. فيكون جسمه وعقله وروحه كلياً تحت سطوة تأثير الدين الذي في قلبه... يمثل المسيح هذه الحقائق بالخميرة التي خبأها امرأة في ثلاثة أكياس دقيق حتى اختمر الجميع. فيصحّ تشبيه فعل المسيح في ملكوته بفعل الخمير، لأنه خفي ومتزايد، ويتوقف على وضعه في قلب الذي يطلب تخميره، ولأنه من جنسه أيضاً. أي أن المسيح المخلص يتّخذ لنفسه طبيعة البشر الذين أتى ليخلصهم.. وأخبار خلاص البشر لا تتم بواسطة الملائكة، بل بواسطة الناس .

هذا بعض ما حفظ لنا من مجموع الأمثال الجميلة التي ألقاها المسيح على الجمهور المحتشد على شاطئ البحيرة في ذلك النهار، لأن البشير يقول: «وبأمثال كثيرة مثل هذه كان يكلمهم حسبما كانوا يستطيعون أن يسمعوا. وبدون مثل لم يكن يكلمهم. «لِكَيَّيْتَمَ مَا قِيلَ بِالنَّبِيِّ: «سَأَفْتَحُ بِأَمْثَالٍ فَمِي، وَأَنْطِقُ بِمَكْتُومَاتٍ مُنْذُ تَأْسِيسِ الْعَالَمِ» (متى ١٣: ٣٥).

لماذا علم المسيح بأمثال؟

بعد أن ترك المسيح وتلاميذه البحر وعادوا إلى البيت، سأله تلاميذه عن سبب اتّخاذه هذا الأسلوب الجديد في الوعظ، الذي لغموضه يتطلّب تفسيراً، فأجابهم أنه تعمّد الإغماض عن الذين يرفضون النور الذي لهم، ففقدوا كل حق بأن يزيدهم نوراً. ولما طلبوا منه أن يفسر لهم مثل الزارع وبخهم بقوله: «أما تعلمون هذا المثل؟ فكيف تعرفون جميع الأمثال؟ فإني الحق أقول لكم إن أنبياء وأبراراً كثيرين اشتهاوا أن يروا ما أنتم ترون ولم يروا، وأن يسمعوا ما أنتم تسمعون ولم يسمعوا .»

ومع أسف المسيح على غباوة تلاميذه، احتملهم وفسّر لهم مثلين تسهيلاً لفهمهم غيرهما.. من مثلي الزارع والزوان وحدهما قد نظن أن نجاح الملكوت يكون قليلاً. ولكن في مثلي حبة الخردل والخميرة نقيض لهذا الوهم، وتبشير بنجاح باهر لهذا الملكوت الذي نشأ في ضعف .

مثل الكنز المخفي

«أَيْضاً يُشْبِهُ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ كَنْزاً مُخْفَى فِي حَقْلٍ، وَجَدَهُ إِنْسَانٌ فَأَخْفَاهُ. وَمَنْ فَرَجَهُ مَضَى وَبَاعَ كُلَّ مَا كَانَ لَهُ وَاشْتَرَى ذَلِكَ الْحَقْلَ» (متى ١٣: ٤٤).

في البيت زاد المسيح ثلاثة أمثال أخرى. أراد أن يبين أن ملكوته ذو قيمة تفوق كل شيء في العالم. وحتى لو ضحى الإنسان لأجله يكون في ذلك حكيمًا. أراد المسيح أيضاً أن يبين أن البعض وإن لم يفتشوا عن كنز الدين الحق، يعثرون عليه كأنه بالصدفة، بينما يشتغلون في أمور أخرى، كما حدث لشاول الطرسوسي في طريق دمشق (أعمال ٩: ١-٢٢). مثل ذلك بإنسان وجد كنزاً في حقل إنسان آخر، فذهب وباع كل مقتنياته واشترى الحقل ليحصل على هذا الكنز .

مثل اللؤلؤة الحسنة

«أَيْضاً يُشْبِهُ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ إِنْسَانًا تَاجِرًا يَطْلُبُ لَالِيَّ حَسَنَةً، فَلَمَّا وَجَدَ لَوْلُؤَةً وَاحِدَةً كَثِيرَةَ الثَّمَنِ، مَضَى وَبَاعَ كُلَّ مَا كَانَ لَهُ وَاشْتَرَاهَا» (متى ١٣: ٤٥، ٤٦).

لكن ليس هذا العثور العرضي هو القانون، بل السعي الجدي وراء هذا الكنز. فالذي في تفتيشه بين مذاهب العالم يعثر على ملكوت المسيح الروحي، ينسى كل ما سواه، ويبدل كل نفيس وغالٍ ليتمسك به. وإظهاراً لهذه الحقيقة قدم المسيح مثل إنسان تاجر يطلب لالي حسنة، فلما وجد لؤلؤة كثيرة الثمن، مضى وباع كل ما له واشتراها .

مثل الشبكة

«أَيْضاً يُشْبِهُ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ شَبَكَةً مَطْرُوحَةً فِي الْبَحْرِ، وَجَامِعَةً مِنْ كُلِّ نَوْعٍ. فَلَمَّا امْتَلَأَتْ أَصْعَدُوهَا عَلَى الشَّاطِئِ، وَجَلَسُوا وَجَمَعُوا الْجِيَادَ إِلَى أَوْعِيَةٍ، وَأَمَّا الْأَرْدِيَاءُ فَطَرَحُوهَا خَارِجًا. هَكَذَا يَكُونُ فِي انْقِضَاءِ الْعَالَمِ: يَخْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَيُفَرِّزُونَ الْأَشْرَارَ مِنْ بَيْنِ الْأَبْرَارِ، وَيَطْرَحُونَهُمْ فِي أَتُونِ النَّارِ. هُنَاكَ يَكُونُ الْبُكَاءُ وَصَرِيرُ الْأَسْنَانِ» (متى ١٣: ٤٧-٥٠).

ختم المسيح سلسلة أمثاله في هذا اليوم، بمثل يشير إلى انقضاء العالم، حين يفرز الديان الإلهي الأشرار من بين الأبرار، بواسطة الملائكة ثم يطرح الأشرار في أتون النار، حيث يكون البكاء وصرير الأسنان، فلا يطمئن الخاطئ نفسه بأن التساهل الإلهي في عدم سرعة قصاصه يدوم إلى الأبد، بل عليه أن ينتبه الآن. وإيضاحاً لهذه الحقيقة قدم المسيح مثل الشبكة المطروحة في البحر، التي تجمع من كل نوع، فلما امتلأت، أصعدوها على الشاطئ، وجلسوا وجمعوا الجياد إلى أوعية، وأما الأردياء فطرحوها خارجاً .

«قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «أَفَهَمْتُمْ هَذَا كُلَّهُ؟» فَقَالُوا: «نَعَمْ يَا سَيِّدُ». فَقَالَ لَهُمْ: «مَنْ أَجَلَ ذَلِكَ كُلِّ كَاتِبٍ مُتَعَلِّمٍ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ يُشْبِهُ رَجُلًا رَبَّ بَيْتٍ يُخْرِجُ مِنْ كَنْزِهِ جُدُودًا وَغَتَقَاءَ» (متى ١٣: ٥٢، ٥١).

العتقاء هي أقوال الكتاب، والجدد هي الفوائد المستخرجة منها، التي تستدعي الدرس المدقق، لأجل الوقوف على معانيها المقصودة. فالذي اعتدنا أن نسمعه من الصغر هو عتيق قديم، ولكن الدروس التي نستفيد منها هي جديدة تناسب حاجة كل يوم جديد. فكل حقائق كتاب الله كنز ثمين، نستخرج منها الجديد الذي يقوي ضعيف الإيمان، وينير الجاهل، ويعزي الحزين ويرشد الضال .

المسيح يهدئ العاصفة

«وَقَالَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمَ لَمَّا كَانَ الْمَسَاءُ: «لِنَجْتَزِ إِلَى الْعَبْرِ». فَصَرَفُوا الْجَمْعَ وَأَخَذُوهُ كَمَا كَانَ فِي السَّفِينَةِ. وَكَانَتْ مَعَهُ أَيْضاً سَفُنٌ أُخْرَى صَغِيرَةٌ. فَحَدَّثَ نَوْءٌ رِيحٍ عَظِيمٍ، فَكَانَتْ الْأَمْوَاجُ تَضْرِبُ إِلَى السَّفِينَةِ حَتَّى صَارَتْ تَمْتَلِي. وَكَانَ هُوَ فِي الْمَوْحَرِّ عَلَى وَسَادَةٍ نَائِماً. فَأَيْقَظُوهُ وَقَالُوا لَهُ: «يَا مُعَلِّمُ، أَمَا يَهْمُكَ أَنَّ نَهْلُكُ؟» فَقَامَ وَانْتَهَرَ الرِّيحَ، وَقَالَ لِلْبَحْرِ: «اسْكُتْ. إِنَّكُمْ». فَسَكَتَتِ الرِّيحُ وَصَارَ هُدُوءٌ عَظِيمٌ. وَقَالَ لَهُمْ: «مَا بَالُكُمْ خَائِفِينَ هَكَذَا؟ كَيْفَ لَا إِيمَانَ لَكُمْ؟» فَخَافُوا خَوْفاً عَظِيماً، وَقَالُوا بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: «مَنْ هُوَ هَذَا؟ فَإِنَّ الرِّيحَ أَيْضاً وَالْبَحْرَ يُطِيعَانِهِ!» (مرقس ٤: ٣٥-٤١).

كان النهار قد مال ودنا المساء، فصرف التلاميذ الجمع وأخذوا المسيح وأقلعوا قاصدين شاطئ بحر الجليل الشرقي، ورافقتهم سفن أخرى صغيرة. وفي سيرهم تحت جناح الليل، نام المسيح على وسادة في مؤخر السفينة. ذكر عنه أنه جاع وعطش وحزن وتعب وتنهج وبكى وابتهج. ولكن لم يذكر مطلقاً أنه ضحك أو مرض أو خاف. ولم يذكر أنه نام إلا في هذا الحادث. نام كابن الإنسان، فأعطى بذلك برهاناً قاطعاً على صدق بشريته. أما بالنظر إلى طبيعته الإلهية فلم يزل كلام المرنم صادقاً «لَا يَنعَسُ وَلَا يَنَامُ» (مزمور ١٢١: ٤). لا بل على رغم هذا النوم الجسدي، هو ساهر على رفقاءه في السفينة وهم يسيرونها ويلاحظون علامات النوء النازل عليهم من بين الجبال المحيطة بهذه البحيرة. كان التلاميذ قد قضوا أكثر أوقاتهم على هذا البحر، وقابلوا أنواء عديدة في مياهه، ولذلك بدأوا يهيئون القلوع والمجاديف، وكل ما يلزم، استعداداً لما قد يطرأ عليهم في النوء الهاجم.

لم يطل الوقت حتى غطت الأمواج السفينة وصارت تمتلئ فصاروا في خطر. سلمت قديماً من ذلك الطوفان الهائل في أيام نوح سفينة كانت تُقَلُّ ثمانية أشخاص، هم عائلة نوح الصالح - فهل تسلم الآن البذرة الوحيدة للكنيسة المسيحية في العالم، وهي المسيح ورسله في هذه السفينة على بحر الجليل؟ أليست أهمية سلامة المسيح وتلاميذه مثل أهمية سلامة نوح وبنيه سام وحام ويافت؟

نرى في هذا النوء القوات المهلكة تتخذ نوم المسيح فرصة لتحاول إهلاكه وإهلاك تابعيه. ونتخيل هؤلاء الصيادين وحركاتهم العنيفة في مقاومة العاصفة، ونسمع صياحهم فوق هدير الرياح وتلاطم الأمواج، وهم يصرخون الواحد إلى الآخر بما هو جارٍ معه، وما يطلب كل واحد من الآخر أن يعمل. ننظر كيف يترنحون من ملاطمة الأمواج في ظلام الليل الدامس، وهم يتعبون في تفريغ المياه من قعر السفينة، لأن السفينة في البحر الهائج يمكن أن تنجو، ولكن متى صار البحر الهائج في داخلها لا يمكن أن تنجو.. كما أن الإنسان الذي يهيج حوله نوء الشر في قلبه.. نوء المحيط لا يغرق، لكن الذي يهلك هو النوء الذي في

النفوس... يصحُّ هذا القول في الكنيسة إجمالاً كما يصحُّ في أفرادها، لأن الأشرار حولها لا يمكن أن يفنوها، لكن يهدمها الأشرار الذين فيها .

هل خطر للتلاميذ أن المسيح هو نائم «حرز وتميمة» يحفظ السفينة ومَنْ فيها من كل أذى؟ لا نظن. لأن الخوف جبارٌ يضعضع الرشد ويشتت الإيمان متى كان ضعيفاً. نقصتهم الثقة بالمسيح وهو نائم، كما نقصتنا نحن الثقة بالمسيح وهو غائب عن الأبصار. وقد يكون أنهم لاحظوا اقتراب النوء قبل أن يقلعوا من البر، وربما كان إلحاح المسيح عليهم بأن يسافروا بعد محاولتهم البقاء في الميناء سبباً في أنهم ألقوا اللوم عليه. فكيف لا يزال نائماً على رغم ضجيج النوء وضجيج النوتية؟ كيف لا يبالي بهذا الخطر العظيم المحيط بهم؟

ربما قصد المسيح حتى بعد اشتداد النوء أن يمتحن إيمانهم. في البدء أمسكهم حبهم واحترامهم له عن إيقاظه لأنهم لا ينتظرون منه مساعدة في تدبير السفينة. لكن بعد أن فشل كل ما عندهم من الوسائل، لم يسعهم إلا أن يوقظوه. ألا يحقُّ لهم أن يطلبوا معونته في الخطر الشديد صارخين: «يا معلم، أما يهملك أننا نهلك؟». هل نسوا سريعاً ما تعلّموه عن مقامه الإلهي وقدرته الفائقة، حتى ظنوا في جهالتهم أنه يُحتمل وقوع أقل ضرر لسفينة فيها الذي عرفوه رباً حقيقياً؟ أيقظوه فقام الذي «يَجْمَعُ كَنَدَ أَمْوَاةِ الْيَمِّ. يَجْعَلُ اللَّجَجَ فِي أَهْرَاءِ». القائل «: أَنَا الَّذِي وَضَعْتُ الرَّمْلَ تَحُوماً لِلْبَحْرِ فَرِيضَةً أَبَدِيَّةً لَا يَتَعَدَّاهَا، فَتَتَلَاظِمُ وَلَا تَسْتَطِيعُ، وَتَعِجُ أَمْوَاجُهُ وَلَا تَتَجَاوَزُهَا» (مزمور ٣٣: ٧، إرميا ٥: ٢٢).

لما استيقظ هذا السيد النائم رأى نوئين، الواحد في البحيرة، والآخر في صدور تلاميذه، فاهتم لهذا أكثر من ذاك. إنما بلطفه ابتدأ بتوبيخ النوء البحري، بينما كان التلاميذ أولى بالتوبيخ، فقد كان يعلم أنهم لا يستفيدون بالتوبيخ إلا بعد أن يسكن النوء، فسكته أولاً. تكلم سلطان البحار وقال للبحر: «اسكت.. ابكم».

ليس كما ضرب موسى البحر بعصاه بأمر الرب، فخضع، بل بمجرد كلمته أخضعه، لأنه هو «الْمُنْتَقِطُ بِالْقُدْرَةِ، الْمُهْدِي عَجِيجَ الْبَحَارِ عَجِيجَ أَمْوَاجِهَا وَضَجِيجَ الْأَمَمِ» (مزمور ٦٥: ٦ و ٧).

نحن نشهد له فنقول قول المرنم: «مَنْ مِثْلَكَ قَوِيٌّ... أَنْتَ مُتَسَلِّطٌ عَلَى كِبْرِيَاءِ الْبَحْرِ. عِنْدَ ارْتِفَاعِ لُجَجِهِ أَنْتَ تُسَكِّنُهَا. صَوْتُ الرَّبِّ عَلَى الْمِيَاهِ.. الرَّبُّ فَوْقَ الْمِيَاهِ الْكَثِيرَةِ» (مزمور ٨٩: ٨ و ٩ و ٢٩: ٣). فالذي ينتهر الآن بحر طبرية هو الذي انتهر قديماً بحر «سوف» فيببس، وسيُرهم في اللجج كالبرية. تسلط أنذ على البحر الأحمر خدمةً لجماعة خائفية، وها هو يسكن هيجان بحر الجليل لمرور تلاميذه فيه، لأنه كما أن الخراف لا تعرف ولا تطيع إلا صوت راعيها، كذلك الرياح والأمواج لا تعرف ولا تطيع إلا صوت بارئها. فبأمره

سكتت الريح وصار هدوء عظيم. ولم يكن هذا الهدوء طبيعياً، لأن قانون الموج أن يزول تدريجياً بعد زوال الريح، فكانت هذه معجزة مزدوجة .

نعلم أن السر في الحياة اليومية هو السرّ في تلك السفينة المعذبة . أي أن السلامة للأشخاص وللكنيسة في وسط أنواء الحياة، تقوم بوجود المسيح في القلوب، وسائراً مع كنيسته، لينتهر قوات الشر، ويوجد الهدوء والظفر .

ولنا في تسكين المسيح هذا النوء لمحة من القصد الإلهي، بأن يعيد إلى الإنسان سلطته على الطبيعة التي فقدتها بسقوطه، وذلك بواسطة عمله الفدائي. نرى هذا يتم على نوعين: أولاً بواسطة رقيّة الروحي، فيقابل مخاطر القوات الطبيعية وأضرارها دون ارتعاب. وثانياً: بواسطة رقيّة العلمي، فيستولي على كثير من هذه القوات ويتلافى أضرارها ويستخدم منافعها - كما يستخدم سرعة الرياح في توليد الكهرباء .

مثّلت الريح من خارج البحر المصائب الخارجية التي تنقضّ على الإنسان، ومنها القوى الطبيعية المهلكة للأجساد. ومثّل التمّوج من داخل البحر التجارب الداخلية التي تثور في نفس الإنسان، وهي القوى الشيطانية المهلكة للنفوس. ففي تسكين المسيح هذا النوء المزدوج بالمعجزة المزدوجة، أعلن استعداداه أن يعمل عملاً مزدوجاً في سفينة حياة الإنسان التي تتخبط في بحر هذا الدهر. وهو الذي يعطي الفوز على نوعي البلاء، والسلامة من شرهما. فالمصائب والتجارب هي كبوتقة الصائغ، التي لا تحوّل الذهب نحاساً ولا النحاس ذهباً، بل تُظهر الحقيقة وتزيل الإلتباس، وتزيد الذهب جلاءً وانفصالاً عن النحاس. هكذا التجارب لا تصيّر الصالح صالحاً ولا الشرير شريراً، لكنها تُظهر الحقيقة وتكشف عن شر الشرير وتزيده، وعن صلاح الصالح وتزيده .

أما النوء الثاني الذي كان في صدور التلاميذ فقد سكّنه المسيح بتوبيخ لطيف، عندما قال: «ما بالكم خائفين هكذا يا قليلي الإيمان؟ كيف لا إيمان لكم؟» فأظهر سلطانه في معالجة المصائب الخارجية، كما في ذلك معالجة التجارب الداخلية الأشدّ خطراً. فإنه يوقف النوعين متى شاء، وكان في ذلك خير، لأن سماح الله بالتجارب والمصائب، ليس إلا للخير. «اللَّهُ أَمِينٌ، الَّذِي لَا يَدْعُكُمْ تُجَرَّبُونَ فَوْقَ مَا تَسْتَطِيعُونَ، بَلْ سَيَجْعَلُ مَعَ التَّجَرُّبَةِ أَيْضاً الْمُنْفَذَ، لِتَسْتَطِيعُوا أَنْ تَحْتَمِلُوا» (١ كورنثوس ١٠: ١٣).

المسيح يشفي لجئون

«وَجَاءُوا إِلَى عَبْرِ الْبَحْرِ إِلَى كُورَةِ الْجَدْرِيِّينَ. وَلَمَّا خَرَجَ مِنَ السَّفِينَةِ لِلْوَقْتِ اسْتَقْبَلَهُ مِنَ الْقُبُورِ إِنْسَانٌ بِهِ رُوحٌ نَجِسٌ، كَانَ مَسْكَنُهُ فِي الْقُبُورِ، وَلَمْ يَقْدِرْ أَحَدٌ أَنْ يَرْبِطَهُ وَلَا بِسَلْسِلٍ، لِأَنَّهُ قَدْ رُبِطَ كَثِيرًا بِقُيُودٍ وَسَلْسِلٍ فَقَطَّعَ السَّلْسِلَ وَكَسَّرَ الْقُيُودَ، فَلَمْ يَقْدِرْ أَحَدٌ أَنْ يُدْلِلَهُ. وَكَانَ دَائِمًا لَيْلًا وَنَهَارًا فِي الْجِبَالِ وَفِي الْقُبُورِ، يَصِيحُ وَيُجَرِّحُ نَفْسَهُ بِالْحِجَارَةِ. فَلَمَّا رَأَى يَسُوعَ مِنْ بَعِيدٍ رَكَضَ وَسَجَدَ لَهُ، وَصَرَخَ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ: «مَا لِي وَلَكَ يَا يَسُوعَ ابْنَ اللَّهِ الْعَلِيِّ! اسْتَخْلَفَكَ بِاللَّهِ أَنْ لَا تُعَذِّبَنِي!» لِأَنَّهُ قَالَ لَهُ: «اخْرُجْ مِنَ الْإِنْسَانِ يَا أَيُّهَا الرُّوحُ النَّجِسُ». وَسَأَلَهُ: «مَا اسْمُكَ؟» فَأَجَابَ: «اسْمِي لَجُئُونُ، لِأَنَّنَا كَثِيرُونَ». وَطَلَبَ إِلَيْهِ كَثِيرًا أَنْ لَا يُرْسِلَهُمْ إِلَى خَارِجِ الْكُورَةِ. وَكَانَ هُنَاكَ عِنْدَ الْجِبَالِ قَطِيعٌ كَبِيرٌ مِنَ الْخَنَازِيرِ يَزْعَى، فَطَلَبَ إِلَيْهِ كُلُّ الشَّيَاطِينِ قَائِلِينَ: «أُرْسِلْنَا إِلَى الْخَنَازِيرِ لِنَدْخُلَ فِيهَا.» فَأَذِنَ لَهُمْ يَسُوعَ لِلْوَقْتِ. فَخَرَجَتِ الْأَرْوَاحُ النَّجِسَةُ وَدَخَلَتْ فِي الْخَنَازِيرِ، فَأَنْدَفَعَ الْقَطِيعُ مِنْ عَلَى الْجُرْفِ إِلَى الْبَحْرِ - وَكَانَ نَحْوَ أَلْفَيْنِ، فَاخْتَنَقَ فِي الْبَحْرِ. وَأَمَّا رِعَاةُ الْخَنَازِيرِ فَهَرَبُوا وَأَخْبَرُوا فِي الْمَدِينَةِ وَفِي الضِّيَاعِ، فَخَرَجُوا لِيَرَوْا مَا جَرَى. وَجَاءُوا إِلَى يَسُوعَ فَنَظَرُوا الْمَجْنُونِ الَّذِي كَانَ فِيهِ اللَّجْنُونُ جَالِسًا وَلَا بِسًا وَعَاقِلًا، فَخَافُوا. فَحَدَّثَهُمُ الَّذِينَ رَأَوْا كَيْفَ جَرَى لِلْمَجْنُونِ وَعَنِ الْخَنَازِيرِ. فَابْتَدَأُوا يَطْلُبُونَ إِلَيْهِ أَنْ يَمْضِيَ مِنْ تَحْوَمِهِمْ. وَلَمَّا دَخَلَ السَّفِينَةَ طَلَبَ إِلَيْهِ الَّذِي كَانَ مَجْنُونًا أَنْ يَكُونَ مَعَهُ، فَلَمْ يَدْعُهُ يَسُوعُ، بَلْ قَالَ لَهُ: «اذهَبْ إِلَى بَيْتِكَ وَإِلَى أَهْلِكَ، وَأَخْبِرْهُمْ كَمْ صَنَعَ الرَّبُّ بِكَ وَرَحِمَكَ.» فَمَضَى وَابْتَدَأَ يُنَادِي فِي الْعَشْرِ الْمُدُنِ كَمْ صَنَعَ بِهِ يَسُوعُ. فَتَعَجَّبَ الْجَمِيعُ» (مرقس ٥: ٢٠-٢١).

حدث بعد تسكين النوء أمرٌ يحوّل الفكر من أفعال المسيح إلى أفعال خصمه إبليس، الذي لم يسكت عن المسيح كل مدة وجوده طاهرًا بين الناس. فتعويضاً عن فشله في محاولة التسلّط على المسيح ضاعف سلطته على بعض البشر، ليستخدمهم في مقاومة خصمه العظيم

ومن جملة آلات إبليس البشرية رجالان مجنونان يطوفان البرية في منطقة الجرجسيين، في المكان الذي قصد المسيح أن ينزل فيه من السفينة. وإذ رأى هذان المجنونان قدوم سفينة، هجما من مأواهما في المدافن الصخرية، لأنهما كانا قد قطعا بجنونهما الطرقات في تلك الناحية كلها على العابرين. ويرجّح أنهما قصدا الفتك بالقادمين فيها، وعلى الأخصّ بالمسيح لأنهما عرفاه، فأتيا يصرخان ملطخين بدمائهما، لأنهما كانا يجرحان نفسيهما بالحجارة. عند ذلك أمر المسيح الأرواح النجسة الحالّة فيهما أن تخرج منهما، فصاحا للوقت بكلام بعضه شيطاني وبعضه معقول، مما دلّ على سطوة المسيح عليهما، قائلين: «ما لنا ولك يا يسوع ابن الله العلي! أجنّت هنا قبل الوقت لتعذبنا؟.»

حصر البشير مرقس هذا الخبر في أشهر هذين الرجلين وأورده مفصلاً. بعد انتهاء المسيح الأرواح الشريرة الحالة في هذا الرجل وفي رفيقه، ركض هذا وسجد له صارخاً: «أستحلفك بالله أن لا تعذبني». التأثير الأول لأمر المسيح للشياطين أن تخرج، كان تعذيباً للمسكون، لأن الشيطان لا يخرج من إنسان إلا ويصرعه ويؤلمه، ولذلك كان المسكون يخاف ويطلب التخلص من الآلام. وفعل المسيح الثاني كان تعذيباً للشيطان، الذي يتلذذ بتعذيب الإنسان وإهلاكه. وعذابه يكون بنزع فريسته من بين مخالفه، فالساكن والمسكون يصرخان: «لا تعذبنا».

يا لها من صورة مؤثرة على شاطئ هذا البحر! يقف المسيح مكللاً بهيبة القداسة، المقترنة بالسلطان والحنان، ووراءه التلاميذ وهيتهم تدلُّ على الاضطراب الشديد من تعب الليل الماضي، وعلى اضطراب جديد من هجوم المجنونين عليهم في هذا الوعر، وجهلهم ماذا يصير من أمرهما. ومع اضطرابهم ترى في وجوههم ملامح الشفقة على هذا المعذب بالأرواح النجسة. وأمامهم هذا الشخص البربري الجاثي في عريه وجروحه أمام سيدهم، وفي هيئته شيء من أمل المستجد بشخص يعرفه قادراً على تخليصه من شقائه.

سأله المسيح «ما اسمك؟» فأجاب: «اسمي لجئون». لأن شياطين كثيرة دخلته. واقترحت الشياطين على المسيح أن يسمح لها بالدخول في الخنازير، وليس إلى الهاوية. فسمح لهم بالدخول في قطيع كبير من الخنازير، نحو ألفين، كان يرعى عند الجبال بعيداً عنهم - وما أكبر الشبه بين الأرواح النجسة والخنازير - فالخنازير محرمة عند اليهود، وامتلاكها برهان غلبة الطمع على الدين في أصحابها اليهود، فعاقبهم المسيح بهلاك خنازيرهم المحرمة، ولا سيما أن في هذا برهاناً ملموساً بأن الاحتلال الشيطاني حقيقي، وبأن الشفاء من هذا الاحتلال كان حقيقياً ودائماً، ويرى الجميع عاقبة الاستعباد للشيطان، وبرهاناً لسلطان المسيح على الخيرات الزمنية، فيتصرف بها حسب حكمته. لأن الذي سمح بهذه الخسارة على أصحاب الخنازير هو المالك الأصلي الحقيقي. أولاً تسمح عنايته كل يوم بمثل هذا العالم، حتى بين خائفه أيضاً؟ فكل تقي يقول لربه: ما لا يأتييني أستعني عنه دون تذمر قائلاً: «الرَّبُّ أَعْطَى وَالرَّبُّ أَخَذَ فَلْيَكُنْ اسْمُ الرَّبِّ مُبَارَكاً» (أيوب ١: ٢١).

قال المسيح للأرواح: «امضوا» فخرجت ودخلت في الخنازير، وإذا القطيع كله يندفع من على الجرف إلى البحيرة ويختنق في المياه. واندهل رعاة الخنازير من هذا الأمر الغريب، فهربوا وأذاعوا في طريقهم بين الضياع وفي المدينة خبر ما حدث للمجنونين وللخنازير، فأسرع الجمهور قاصدين مكان هذا الحادث الغريب. وعند وصولهم رأوا في جثث الخنازير برهان صحة رواية الرعاة. وزادت دهشتهم عند رؤيتهم المجنون لا بساً وعاقلاً وجالساً عند قدمي المسيح، يسمع تعليمه في موضوع ملكوت السماوات الذي دخله جديداً، إذ آمن بالملك الروحي الذي نجاه.

كنا ننتظر أن يبتهج الناس بظهور خصم إبليس القوي، القادر أن يقيده ويخلص الناس من الاستعباد له، وكنا ننتظر أن يشكروا المسيح على معجزاته، ولكن الغريب أنهم طردوا المسيح من بلدهم، لأنهم حسبوا خسارة خنازيرهم أكبر من فائدة الانتصار على إبليس .

لكن ماذا يفعل هذا الرجل الذي شُفي؟ هل يطلب العودة إلى بيته وأملاكه وأشغاله، ليستعويض عن الزمان الطويل الضائع؟... لو كان شفاؤه جسدياً فقط لفعل ذلك. لكن المسيح لم يشف جسده فقط، بل شفى نفسه أيضاً، وهذا أهم من شفاء جسده بما لا يُقاس. فظهر الشفاء الروحي في هذا المجنون من طلبه أن يكون مع المسيح .

ولنا في هذا المجنون مثال صادق للخاطيء. حقاً إن الخطيئة جنون النفس، والجنون المعروف رمز إلى الجنون الحقيقي وهو الخطيئة، ففضّل مجنون جدره القبور النجسة مسكناً على البيوت النظيفة الصحية المرتبة، وكان عمله إضراراً بذاته مع كل من لاصقه أو مرّ به. كان يتجنّب معاشرة الأصحاء، ويختار عشراء من المجانين نظيره ومن وحوش البرية، ويقول للمخلص الوحيد: «ما لي ولك!» ولم يظهر مخلص من جنون الخطيئة ومن نتائجها في الدنيا والآخرة، إلا المسيح الذي خلّص مجنون جدره في ذلك اليوم من جنونه وأسبابه ونتائجه.

المسيح يقيم ابنة يائرس من الموت

«وَلَمَّا اجْتَاَزَ يَسُوعُ فِي السَّفِينَةِ أَيْضاً إِلَى الْعَبْرِ اجْتَمَعَ إِلَيْهِ جَمْعٌ كَثِيرٌ، وَكَانَ عِنْدَ الْبَحْرِ. وَإِذَا وَاحِدٌ مِنْ رُؤَسَاءِ الْمَجْمَعِ اسْمُهُ يَائِرُسُ جَاءَ. وَلَمَّا رَأَهُ خَرَّ عِنْدَ قَدَمَيْهِ، وَطَلَبَ إِلَيْهِ كَثِيراً قَائِلاً: «ابْنَتِي الصَّغِيرَةُ عَلَى آخِرِ نَسَمَةٍ. لَيْتَكَ تَأْتِي وَتَضَعُ يَدَكَ عَلَيَّهَا لِتُشْفَى فَتَحْيَا». فَمَضَى مَعَهُ وَتَبِعَهُ جَمْعٌ كَثِيرٌ وَكَانُوا يَزْحَمُونَهُ. وَأَمْرَأَةٌ بِنَزَفٍ دِمٍ مُنْذُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً، وَقَدْ تَأَلَّمَتْ كَثِيراً مِنْ أَطِبَّاءَ كَثِيرِينَ، وَأَنْفَقَتْ كُلَّ مَا عِنْدَهَا وَلَمْ تَنْتَفِعْ شَيْئاً، بَلْ صَارَتْ إِلَى حَالٍ أَرْدَأَ - لَمَّا سَمِعَتْ بِيَسُوعَ، جَاءَتْ فِي الْجَمْعِ مِنْ وَرَاءِ، وَمَسَّتْ ثَوْبَهُ، لِأَنَّهَا قَالَتْ: «إِنْ مَسَسْتُ وَلَوْ ثِيَابَهُ شُفِيتُ». فَلَوْفَتْ جَفَّ يَنْبُوعُ دِمِّهَا، وَعَلِمَتْ فِي جِسْمِهَا أَنَّهَا قَدْ بَرِنَتْ مِنَ الدَّاءِ. فَلَوْفَتْ التَفَتَ يَسُوعُ بَيْنَ الْجَمْعِ شَاعِراً فِي نَفْسِهِ بِالْقُوَّةِ الَّتِي خَرَجَتْ مِنْهُ، وَقَالَ: «مَنْ لَمَسَ ثِيَابِي؟» فَقَالَ لَهُ تَلَامِيذُهُ: «أَنْتَ تَنْظُرُ الْجَمْعَ يَزْحَمُكَ، وَتَقُولُ مَنْ لَمَسَنِي؟» وَكَانَ يَنْظُرُ حَوْلَهُ لِيَرَى الَّتِي فَعَلَتْ هَذَا. وَأَمَّا الْمَرْأَةُ فَجَاءَتْ وَهِيَ خَائِفَةٌ وَمُرْتَعِدَةٌ، عَالِمَةٌ بِمَا حَصَلَ لَهَا، فَخَرَّتْ وَقَالَتْ لَهُ الْحَقَّ كُلَّهُ. فَقَالَ لَهَا: «يَا ابْنَةُ، إِيمَانُكَ قَدْ شَفَاكَ. اذْهَبِي بِسَلَامٍ وَكُونِي صَحِيحَةً مِنْ دَائِكَ.» وَبَيْنَمَا هُوَ يَتَكَلَّمُ جَاءُوا مِنْ دَارِ رَئِيسِ الْمَجْمَعِ قَائِلِينَ: «ابْنَتُكَ مَاتَتْ. لِمَاذَا تَتَعَبُ الْمُعَلِّمَ بَعْدُ؟» فَسَمِعَ يَسُوعُ لَوْفَتِهِ الْكَلِمَةَ الَّتِي قِيلَتْ، فَقَالَ لِرَئِيسِ الْمَجْمَعِ: «لَا تَحْزَنْ. آمِنْ فَقَطْ». وَلَمْ يَدْعُ أَحَدًا يَتَّبِعُهُ إِلَّا بُطْرُسَ وَيَعْقُوبَ، وَيُوحَنَّا أَخَا يَعْقُوبَ. فَجَاءَ إِلَى بَيْتِ رَئِيسِ الْمَجْمَعِ وَرَأَى ضَاحِجاً. يَبْكُونَ وَيُؤْلُولُونَ كَثِيراً. فَدَخَلَ وَقَالَ لَهُمْ: «لِمَاذَا تَضْجُونَ وَتَبْكُونَ؟ لَمْ تَمُتِ الصَّبِيَّةُ لَكِنَّهَا نَائِمَةٌ». فَضَحِكُوا عَلَيْهِ. أَمَّا هُوَ فَأَخْرَجَ الْجَمِيعَ، وَأَخَذَ أَبَا الصَّبِيَّةِ وَأُمَّهُمَا وَالَّذِينَ مَعَهُ وَدَخَلَ حَيْثُ كَانَتِ الصَّبِيَّةُ مُضْطَجِعَةً، وَأَمْسَكَ بِيَدِ الصَّبِيَّةِ وَقَالَ لَهَا: «طَلِيئًا، قُومِي». (الَّذِي تَفْسِيرُهُ: يَا صَبِيَّةُ، لَكَ أَقُولُ قُومِي. (وَلَوْفَتْ قَامَتِ الصَّبِيَّةُ وَمَشَتْ، لِأَنَّهَا كَانَتْ ابْنَةً اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً. فَبْهَتُوا بَهْتًا عَظِيماً. فَأَوْصَاهُمْ كَثِيراً أَنْ لَا يَعْلَمَ أَحَدٌ بِذَلِكَ. وَقَالَ أَنْ تُعْطَى لِتَأْكُلَ» (مرقس ٥: ٢١-٤٣).

ذهب المسيح إلى كفر ناحوم، بعد أن طرده أهل جدره التي شفى فيها المجنون، وأهلك خنازيرهم. وكان في كفر ناحوم رجل اسمه يائرس، وهو رئيس المجمع هناك. كانت له ابنة توشك على الموت، لم تنجح معها معالجات الأطباء، ولا خدمة الأقرباء ولا تضرعات الأحباء. ولم يبق رجاء إلا في الالتجاء إلى الناصري الشهير.

لا بد أن يائرس قرر الذهاب إلى المسيح ليطلب مجيئه إلى بيته، لكنه استصعب مفارقة وحيدته في حالتها هذه. كما أنه لم يكن ينتظر أن يأتي المسيح إلى بيته لو أرسل له آخر، ولا يمكن أن يأخذ ابنته إلى المسيح وهي في هذه الدرجة من الخطر. فأسرع يائرس بنفسه إلى الشاطئ، ووقع عند قدمي المسيح وسجد له. وكم كانت دهشة الحاضرين عند رؤيتهم رئيسهم متذلاً بهذا المقدار أمام النجار الناصري الفقير، الذي هو رفيق للعشارين والخطاة. غير أن ما عرفه يائرس وأهل كفر ناحوم عن فضائل المسيح وفضله، يفسر شيئاً من هذا

الاحترام غير المنتظر. لقد ذلت المصيبة الشديدة يائرس، وساقته إلى المسيح، فانفتح له باب الفرج، وتحولت مصيبته إلى بركة أعظم .

صبر المسيح على يائرس إلى أن «طلب إليه كثيراً» ووصف حالة ابنته، وأظهر كامل الإيمان بالمسيح، لأنه قال: «ابنتي الصغيرة على آخر نسمة. ليتك تأتي وتضع يدك عليها لتُشفى. تعال وضع يدك عليها فتحيا». يستحيل أن يتغاضى المسيح عن طلب كهذا مقرون بإيمان، لأن الإيمان هو الدلو الوحيد الذي يسحب به الإنسان ماء الحياة من آبار الخلاص. وهو العين الوحيدة التي بها يرى الإنسان طريق السماء ليسير فيه، وهو اليد الوحيدة التي بها يتناول الإنسان خبز الحياة ليحيا به «أَمَّا الْبَارُّ فَبِالْإِيمَانِ يَحْيَا» (رومية ١: ١٧).

وهنا يواجهنا سؤال: لماذا لم يأمر المسيح بالشفاء عن بُعد كما فعل مرتين قبلاً؟ ألا يكون في ذلك معجزة أبهج، وموجباً أقوى لإيمان الجمهور وأهل المدينة به؟ ربما كان ذلك لأن المسيح علم ما لم يعرفه يائرس أو غيره من الحاضرين، وذلك أن الابنة قد ماتت فعلاً بعد خروج أبيها من البيت. وبما أن رئيس المجمع عدو للمسيح، ففي ذهاب المسيح معه يظهر له محبة تكون لنا مثلاً في محبة العدو. وبما أن يائرس أتم الشروط الأربعة اللازمة لنوال بركات المخلص، فقد نال طلبه، وذهب المسيح معه إلى بيته. وهذه الشروط هي: (أ) الإتيان إلى المسيح. و(ب) الإلتضاع أمامه. و(ج) الحرارة في الطلب منه. و(د) الإيمان الحي به .

وفيما كان المسيح منطلقاً زحمته الجموع. وإذ لا يمكن للمُحاط بازدهام كهذا أن يسرع في السير، فلا ريب أن يائرس استاء من هذا البطء، لأن الدقائق كانت عنده كالساعات، لا بل كالأيام. وزاده استياءً وقوف المسيح في الطريق. ووقوف الجمهور معه بسبب امرأة مسكينة، كانت مريضة بنزف دم. غير أن هذا التأخير عاد على يائرس بالبركة في تقوية إيمانه وإحياء رجائه .

فقد اقتربت من المسيح امرأة مريضة بنزف دم منذ اثنتي عشرة سنة، هَدَّ قُواها، وضَيَّعَ مالها على الأدوية بغير فائدة، كما أنه كان يُعتبر نجاسة بحسب طقوس شريعة موسى. لم تكن نازفة الدم تقدر أن تلتقي بالمسيح منفردة لتحكي له عن مرضها، ولم تكن تقدر أن تحكي عن مرضها جهاراً - فماذا تعمل؟

اجتمعت قوة إيمانها بالمسيح، مع شدة حاجتها إليه، فقالت في نفسها: «يكفيني لمس ثيابه فقط، ولي ملء اليقين أن ذلك يُنيلني الشفاء، دون إزعاج المعلم والتعرض لملاحظة الجمهور». ولأنها لم تتوقف كالكثيرين عند الفكر الحسن والقول الصائب، نالت أمنيته. ولم يكن الازدحام مانعاً لها، بل اقتربت إلى وراء هذا الشافي ولمست هذب ثوبه، وللحال علمت بشفائها الفجائي على صورة لم تكن تتوقعها .

جاءت هذه المرأة وراء المسيح، فلم يرها ولم تلمس جسمه. فتوهمت أنه لا يحس بما فعلته. لكن لأنه عالم الخفايا، أوقف السير وسأل: «من لمس ثيابي؟» فظن الجميع حتى رسله أنه سأل استعلاماً. وناب بطرس المتسرع في الكلام عن زملائه في تلويح المسيح، وقال إن الازدحام جعل الكثيرين يلمسون ثيابه. لكن المسيح لم يسأل عن اللمس البسيط، بل عن لمس الإيمان، إذ لا شيء كالإيمان، فإيمان هذه المريضة هو الذي ميّزها عن الكثيرين غيرها، الذين كانوا مثلها يطلبون الشفاء. ومجرد لمس هُذْب ثوب المسيح مقروناً بالإيمان، كان باب الخلاص لها، بينما معاشره المسيح ومساكنته ثلاث سنين دون إيمان لم تأت بهذه النتيجة الجوهرية للإسخريوطي، بل زادت دينونة.

قصد المسيح بهذه المعجزة شفاءً جسدياً وروحياً، كما قصد تقوية إيمان تلاميذه ويايرس. وقد قال الكتاب: «لَأَنَّ الْقَلْبَ يُؤْمَنُ بِهِ لِلْبِرِّ، وَالْفَمُ يُعْتَرَفُ بِهِ لِلْخَلَّاصِ» (رومية ١٠: ١٠).

نظر المسيح إلى الورا وتطلع في نازفة الدم مبيّناً أنه عرفها، فارتعبت لأنها لا تعرف لطفه وحبّه للناس، وخافت من القصاص على عمل لا حق لها فيه، أو على الأقل من توبيخ صارم أمام الجمهور، وإذ لم يعد يمكنها إلا الاعتراف العلني، تقدمت وسجدت له واعترفت بعلتها المخجلة أولاً: ثم بما فعلته خفية، وبالشفاء العجيب الذي نالته. فكلها حالاً بكلام كله عطف ورحمة قائلاً: «ثقي يا ابنة، إيمانك قد شفاك. اذهبي بسلام وكوني صحيحة من دائك.»

ثم تابع المسيح مسيرته نحو بيت يائرس. وإذا برسول من بيت يائرس يقول له: «ابنتك ماتت. لماذا تتعب المعلم بعد؟». ترى هل أسف يائرس على تذله للمسيح، أو هل ندم على خروجه من بيته وغيابه ساعة احتضار وحيدته؟ أو لا يتوقع شماتة زملائه الفريسيين الذين يكرهون هذا الناصري الذي لا يخضع لهم؟ ولكن المسيح استدرك هذا التأثير السيء، وطيب خاطره بقوله: «لا تخف. آمن فقط، فهي تُشْفَى.»

فلما وصل المسيح والأب والجمع إلى البيت، أمر أن يبقى تلاميذه مع الجمهور خارجاً، ما عدا بطرس ويعقوب ويوحنا، الذين ابتدأ يميّزهم فوق رفقائهم، فأدخلهم معه ليكونوا شهوداً للمعجزة العظيمة، وترك التسعة خارجاً إيناساً للجمع الذي لم يسمح له بالدخول، وعند دخوله الدار تكدر من الضجيج والبكاء والنوح، ووبّخ القائمين بها، وسعى ليزيل أوهامهم في أمر الموت الجسدي، بإرجاعه روحاً إلى جسدها بعد الموت. وشبّه الموت بالنوم بالنظر إلى القيامة الآتية، فقال للمجتمعين: «لماذا تضجون وتبكون؟ تنحّوا. لا تبكوا. فإن الصبية لم تمت لكنها نائمة.» فاستهزأ الجميع به ولا سيما النائحون المأجورون، وضحكوا عليه لعدم معرفته الفرق بين النائم والمات. فأخرجهم من الغرفة - ولم يشهد هذه المعركة التي فيها يقهر المسيح الموت - إلا الوالد والوالدة والرسل الثلاثة. قيل عنه في الأنبياء إنه «يَبْلُغُ

الْمَوْتَ إِلَى الْأَبَدِ، وَيَمْسَحُ السَّيِّدُ الرَّبُّ الدُّمُوعَ عَنْ كُلِّ الْوُجُوهِ» (إش ٢٥: ٨). «مِنْ يَدِ الْهَالَوِيَّةِ أَفْدِيهِمْ. مِنَ الْمَوْتِ أَخْلَصُهُمْ. أَئِنَّ أَوْبَاؤَكَ يَا مَوْتُ؟ أَئِنَّ شَوْكَتَكَ يَا هَالَوِيَّةُ؟» «هوشع ١٣: ١٤) ووصف الرسول عمله أنه «أَبْطَلَ الْمَوْتَ وَأَنَارَ الْحَيَاةَ وَالْخُلُودَ» (٢ تيموثاوس ١: ١٠).

نرى الذي قال عن حياته: «لي سلطان أن أضعها ولي سلطان أن أخذها أيضاً» يدخل مع هؤلاء الخمسة غرفة الموت، وبهذا السلطان يمسك يد الجثة، ويكلم الروح التي فارقت الجسد، ويرجعها إليه بقوله: «يا صبية قومي». وللوقت قامت الصبية ومشت. ثم أمر أبويها أن يقدمها لها طعاماً. فأحدثت هذه المعجزة دهشة عظيمة.

شفاء أعميين

«وَفِيمَا يَسُوعُ مُجْتَازٌ مِنْ هُنَاكَ تَبِعَهُ أَعْمَيَانِ يَصْرَخَانِ وَيَقُولَانِ: «ارْحَمْنَا يَا ابْنَ دَاوُدَ». وَلَمَّا جَاءَ إِلَى الْبَيْتِ تَقَدَّمَ إِلَيْهِ الْأَعْمَيَانِ، فَقَالَ لَهُمَا يَسُوعُ: «أَتُؤْمِنَانِ أَنِّي أَفْعِلُ هَذَا؟» قَالَا لَهُ: «نَعَمْ يَا سَيِّدُ». حِينَئِذٍ لَمَسَ أَعْيُنُهُمَا قَائِلًا: «بِحَسَبِ إِيْمَانِكُمَا لِيَكُنْ لَكُمَا». فَانْفَتَحَتْ أَعْيُنُهُمَا. فَانْتَهَرَهُمَا يَسُوعُ قَائِلًا: «انْظُرَا، لَا يَعْلَمُ أَحَدٌ!» وَلَكِنَّهُمَا خَرَجَا وَأَشَاعَاهُ فِي تِلْكَ الْأَرْضِ كُلِّهَا» (متى ٩: ٢٧-٣١).

بعد أن أقام المسيح ابنة يائرس، رجع إلى المنزل الذي كان يُقيم فيه. وفي الطريق صرخ وراءه أعميان طالبين الرحمة، أظهر إيمانهم به في اللقب الذي نادياه به: «يا ابن داود». وكان كلام الأنبياء يؤكد أن المسيح يكون ابن داود، وهكذا رأى فاقد البصر الجسدي السيد المسيح بالبصر الروحي، وهذا ما لم يره أهل البصر الجسدي، واختبر الأعميان قول داود: «لَأَنَّهُ يُنْجِي الْفَقِيرَ الْمُسْتَغِيثَ وَالْمَسْكِينِ إِذْ لَا مُعِينَ لَهُ. يُشْفِقُ عَلَى الْمَسْكِينِ وَالْبَائِسِ وَيُخَلِّصُ أَنْفُسَ الْفُقَرَاءِ» (مزمور ١٢: ٧٢ و ١٣) وعرفا تصريح إشعياء النبي بأن المسيح سيعطي البصر للعميان. أما المسيح فلم يلب طلبهما أو ينتبه إليهما أولاً. لكن إغضاه لم يُشْنِ عزمهما، فتبعاه إلى البيت مجددين استنجاذهما به. ثرى لماذا أبدى المسيح عدم الاهتمام بهما أولاً؟ لقد قصد أن يمتحن إيمانهم به. لم يسألهم إن كانا يؤمنان أن الله قادر، بل كان سؤاله: «هل تؤمنان أنني قادر؟».

ولما كان الأعميان عاجزين عن رؤية وجه المسيح، لم يقدر أن يكتشفا محبته العظيمة التي ترافق قدرته العظيمة، فأعلن لهما محبته بواسطة أصابعه، إذ لمس أعينهما فانفتحت. ومع انفتاح أعينهما فتح لهما طريق الخلاص بقول: «بحسب إيمانكما ليكن لكما». فلم يكن سبب نجاحهما في المعارف ولا المقام ولا الغنى ولا الصلاح، بل في الإيمان.

المسيح يرسل الإثني عشر للكراسة

«وَكَانَ يَسُوعُ يَطُوفُ الْمُدُنَ كُلَّهَا وَالْقُرَى يُعَلِّمُ فِي مَجَامِعِهَا، وَيَكْرُرُ بِبَشَارَةِ الْمَلَكُوتِ، وَيَشْفِي كُلَّ مَرَضٍ وَكُلَّ ضَعْفٍ فِي الشَّعْبِ. وَلَمَّا رَأَى الْجُمُوعُ تَحَنَّنَ عَلَيْهِمْ، إِذْ كَانُوا مُنْزَعَجِينَ وَمُنْطَرِحِينَ كَغَنَمٍ لَا رَاعِيَ لَهَا. حِينَئِذٍ قَالَ لِتَلَامِيذِهِ: «الْحَصَادُ كَثِيرٌ وَلَكِنَّ الْفَعْلَةَ قَلِيلُونَ. فَاطْلُبُوا مِنْ رَبِّ الْحَصَادِ أَنْ يُرْسِلَ فَعْلَةً إِلَى حَصَادِهِ» (متى. 9:35-38)

ترك المسيح الناصرة، وأخذ يطوف المدن والقرى في خدمته المتنوعة يركز بالبشارة، ويعلم في المجامع، ويشفي المرضى. وساءه حال الشعب فشبهه بقطيع غنم لا راعي لها، إذ كان لهم رعاة اسماً لا فعلاً. هم في الحقيقة «أجرى لا يبالون بالخراف» فلا يقودونهم إلى المراعي الخضر وإلى مياه الراحة. إلى هذه الخراف التعيسة جاء «الراعي الصالح الذي يبذل نفسه عن الخراف» وتحنن لما رأى شقاءها.

وبناءً على إثمار مساعي المسيح في تدريب تلاميذه وجعلهم أهلاً لأن يشتركوا في هذه الخدمة الشريفة دعا الإثني عشر وابتدأ يرسلهم اثنين اثنين، لأن تمرينهم على العمل بعد تمرينهم في التعليم صار ضرورياً للغاية. فآلهمهم أولاً بقوله: «الحصاد كثير ولكن الفعلة قليلون». وأفهمهم أن الفعلة لا يكونون إلا مرسلين من رب الحصاد، الذي يرسلهم استجابة للصلاة.

لا بد من استعداد الرعاة الروحيين لعملهم، فعليهم أن يتطوعوا أولاً، ثم يختارهم أصحاب الكلمة والحق في ذلك. ولكن بعد التطوع، واختيار الناس لهم، لا تنجح خدمتهم إلا إذا كان المرسل الحقيقي لهم هو روح الله. فلا يتوقف إيجاد الفعلة الروحيين الناجحين على المدارس اللاهوتية التي يتعلمون فيها، ولا على الأجر الذي يُقدّم لهم ترغيباً، بل على إرسال رب الحصاد لهم.

«هُؤْلَاءِ الْإِثْنَا عَشَرَ أَرْسَلَهُمْ يَسُوعُ وَأَوْصَاهُمْ قَائِلًا: «إِلَى طَرِيقِ أُمَمٍ لَا تَمْضُوا، وَإِلَى مَدِينَةٍ لِلسَّامِرِيِّينَ لَا تَدْخُلُوا. بَلْ اذْهَبُوا بِالْحَرِيِّ إِلَى خِرَافِ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ الضَّالَّةِ. وَفِيمَا أَنْتُمْ ذَاهِبُونَ اكْرزُوا قَائِلِينَ: إِنَّهُ قَدْ اقْتَرَبَ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ. اشْفُوا مَرْضَى. طَهِّرُوا بُرْصاً. أَقِيمُوا مَوْتَى. أَخْرِجُوا شَيَاطِينَ. مَجَاناً أَخَذْتُمْ مَجَاناً أَعْطُوا. لَا تَقْتَنُوا ذَهَباً وَلَا فِضَّةً وَلَا نَحَاساً فِي مَنَاطِقِكُمْ، وَلَا مَزُوداً لِلطَّرِيقِ وَلَا ثَوْبَيْنِ وَلَا أَحْذِيَّةً وَلَا عَصاً، لِأَنَّ الْفَاعِلَ مُسْتَحَقٌّ طَعَامَهُ» (متى. 10:5-10)

زود رب الحصاد هؤلاء التلاميذ المتفرقين اثنين اثنين للتبشير زاداً كافياً، لأنه أعطاهم السلطان والقوة لتأييد تبشيرهم بمعجزات الشفاء، وإخراج الشياطين، حتى وإقامة الموتى. وأعطاهم أيضاً ما هو أهم، أي التعليمات الصريحة المتعلقة بمواضيع تبشيرهم وأساليبه.

ثم أوضح المسيح لهم الفرق بينهم وبين رؤساء الدين، والمعلمين الذي يجعلون خدمة الدين تجارة لأجل الأرباح المادية. لأن الخير الذي يعمله الإنسان ولا يأخذ عنه بدلاً مادياً يكون حسناً تأثيره مضاعفاً. لذلك جعل قاعدة عملهم: «مجاناً أخذتم مجاناً أعطوا». وتسهيلاً لحفظ هذه القاعدة ضمن لهم أن حاجاتهم الجسدية في هذه الرحلة تأتيهم دون تدبير منهم، فهو يعتني بزمانياتهم إن كانوا يهتمون بروحياته، فإن هذه كلها تزداد للذين يطلبون أولاً ملكوت الله وبره - أي للذين يتفرغون للاهتمام بالحاجات الروحية .

«وَأَيَّةُ مَدِينَةٍ أَوْ قَرْيَةٍ دَخَلْتُمُوهَا فَافْحَصُوهَا مَنْ فِيهَا مُسْتَحَقٌّ، وَاقِيمُوا هُنَاكَ حَتَّى تَخْرُجُوا. وَحِينَ تَدْخُلُونَ الْبَيْتَ سَلِّمُوا عَلَيْهِ، فَإِنْ كَانَ الْبَيْتُ مُسْتَحَقًّا فَلْيَأْتِ سَلَامُكُمْ عَلَيْهِ، وَلَكِنْ إِنْ لَمْ يَكُنْ مُسْتَحَقًّا فَلْيَرْجِعْ سَلَامُكُمْ إِلَيْكُمْ. وَمَنْ لَا يَقْبَلُكُمْ وَلَا يَسْمَعُ كَلَامَكُمْ فَأَخْرَجُوا خَارِجاً مِنْ ذَلِكَ الْبَيْتِ أَوْ مِنَ تِلْكَ الْمَدِينَةِ، وَانْفُضُوا غُبَارَ أَرْجُلِكُمْ. الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ: سَتَكُونُ لَأَرْضِ سُدُومَ وَعَمُورَةَ يَوْمَ الَّذِينَ حَالَةٌ أَكْثَرُ احْتِمَالاً مِمَّا لَتِلْكَ الْمَدِينَةِ» (متى ١٠: ١١-١٥).

أوصى المسيح تلاميذه أن لا ينتقلوا من بيت إلى بيت في القرية الواحدة، لأن الوقت لا يكفي للتأثير المطلوب في أكثر من البيت الواحد، بواسطة تكرار التعليم والتأثير الشخصي. فكان يجب أن يتركوا في كل بلد بيتاً واحداً مختبراً جيداً، يخمر البلد كلها بعد ذلك. وأوصاهم أن يعزّزوا كرامة عملهم وشرف الحق الذي هو موضوع كرازتهم بواسطة إنذارات مخيفة لكل من يرفض قبولهم وقبول كلامهم، لأنهم يمثلون الملك الذي أرسلهم. فمن يهينهم يهين ملكهم الذي أرسلهم، وهو يعاقب كل من يؤذيهم. ومن يرفض سفيراً يمثل العرش السماوي لا يمكن أن يسلم من عقاب مخيف .

«هَا أَنَا أَرْسَلُكُمْ كَغَنَمٍ فِي وَسْطِ ذُنَابٍ، فَكُونُوا حُكَمَاءَ كَالْحَيَّاتِ وَبُسْطَاءَ كَالْحَمَامِ. وَلَكِنْ احذَرُوا مِنَ النَّاسِ، لِأَنَّهُمْ سَيُسَلِّمُونَكُمْ إِلَى مَجَالِسَ، وَفِي مَجَامِعِهِمْ يَجْلِدُونَكُمْ. وَتَسَاقُونَ أَمَامَ وُلاَةٍ وَمُلُوكٍ مِنْ أَجْلِ شَهَادَةٍ لَهُمْ وَلِلْأَمَمِ. فَمَتَى أَسْلَمُوكُمْ فَلَا تَهْتَمُّوا كَيْفَ أَوْ بِمَا تَتَكَلَّمُونَ، لِأَنَّهُمْ تُعْطُونَ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ مَا تَتَكَلَّمُونَ بِهِ، لِأَن لَسْتُمْ أَنْتُمْ الْمُتَكَلِّمِينَ بَلْ رُوحُ أَبِيكُمْ الَّذِي يَتَكَلَّمُ فِيكُمْ.»

«وَلَا تَخَافُوا مِنَ الَّذِينَ يَقْتُلُونَ الْجَسَدَ وَلَكِنَّ النَّفْسَ لَا يَقْدِرُونَ أَنْ يَقْتُلُوهَا، بَلْ خَافُوا بِالْحَرِيِّ مِنَ الَّذِي يَقْدِرُ أَنْ يُهْلِكَ النَّفْسَ وَالْجَسَدَ كِلَيْهِمَا فِي جَهَنَّمَ» (متى ١٠: ٢٠-٢٨).

تنبأ المسيح لهم باضطهادات عنيفة من أناس يكونون هم بينهم «كغنم في وسط ذناب». لأن عملهم الكرازي يعرّضهم للكره والاضطهاد من ملوك وولاة. فعليهم بحفظ طبيعة الحملان، واجتناب الشراسة والانتقام، وليعلموا أن الروح الإلهي لا يفارقهم، وعليه يستندون في الدفاع عن أنفسهم «فيُعْطُونَ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ مَا يَتَكَلَّمُونَ بِهِ». قد غومل المسيح قبلهم بمثل بما سيقاسونه من الاضطهاد، وهذا يعزّيهم متى «أمسوا مبعّضين من الجميع من أجل

اسمه». وخطر العذاب أو الهلاك الجسدي لا يوجب الخوف والحذر كخطر عذاب النفس الأبدي. وعناية الآب السماوي بهم تتناول كل أمورهم حتى «إحصاء شعور رؤوسهم جميعاً». ومن لا يخاف من الاعتراف بالمخلص ينال أخيراً اعتراف المخلص به في السماء .

«لَا تَطْنُوا أَنِّي جِئْتُ لِأَلْقِي سَلَاماً عَلَى الْأَرْضِ. مَا جِئْتُ لِأَلْقِي سَلَاماً بَلْ سَيْفًا. فَإِنِّي جِئْتُ لِأَفَرِّقَ الْإِنْسَانَ ضِدَّ أَبِيهِ، وَالْإِبْنَةَ ضِدَّ أُمِّهَا، وَالْكَنَّةَ ضِدَّ حَمَاتِهَا. وَأَعْدَاءُ الْإِنْسَانِ أَهْلُ بَيْتِهِ. مَنْ أَحَبَّ أَبًا أَوْ أُمًّا أَكْثَرَ مِنِّي فَلَا يَسْتَحِقُّنِي، وَمَنْ أَحَبَّ ابْنًا أَوْ ابْنَةً أَكْثَرَ مِنِّي فَلَا يَسْتَحِقُّنِي، وَمَنْ لَا يَأْخُذُ صَلَيبَهُ وَيَتَّبِعُنِي فَلَا يَسْتَحِقُّنِي. مَنْ وَجَدَ حَيَاتَهُ يُضِيعُهَا، وَمَنْ أَضَاعَ حَيَاتَهُ مِنْ أَجْلِ يَحْدِثُهَا. مَنْ يَقْبَلُكُمْ يَقْبَلُنِي، وَمَنْ يَقْبَلُنِي يَقْبَلُ الَّذِي أَرْسَلَنِي. مَنْ يَقْبَلُ نَبِيًّا بِاسْمِ نَبِيِّ فَأَجْرَ نَبِيِّ يَأْخُذُ، وَمَنْ يَقْبَلُ بَارًّا بِاسْمِ بَارٍّ فَأَجْرَ بَارٍّ يَأْخُذُ، وَمَنْ سَقَى أَحَدًا هَؤُلَاءِ الصِّغَارِ كَأْسَ مَاءٍ بَارِدٍ فَقَطْ بِاسْمِ تَلْمِيزٍ، فَالْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ إِنَّهُ لَا يُضِيعُ أَجْرَهُ» (متى ١٠: ٣٤-٤٢).

المسيح رئيس السلام، وملكوته ملكوت سلام، لكن السلام قد يستوجب الحرب الفكرية لأجل تأييده. وإظهار الحق يهيج البطل لمحاربتة، فلم يأت المسيح ليلقي سلاماً على الأرض، بل سيفاً. وعمله لا بد أن يفرق بين أقرب الأقرباء في كثير من الأوقات والأماكن. وعند ذلك يظهر من يفضل رضى الأهل على رضى ربه، ومن يترك ربه ليلتصق بأهله.. ومن ينكر ربه وإيمانه للتخلص من الموت الجسدي فهؤلاء هم الخاسرون، أما من يبقى أميناً فينال الجزاء على كل خير يعمل، مهما كان بسيطاً، نظير إعطاء كأس ماء بارد لتلميذ من تلاميذ المسيح حباً له .

فلما أكمل المسيح هذا الخطاب تفرق رسله في الجهات المختلفة للعمل الخطير الذي كلفهم به .

«وَاجْتَمَعَ الرُّسُلُ إِلَى يَسُوعَ وَأَخْبَرُوهُ بِكُلِّ شَيْءٍ، كُلِّ مَا فَعَلُوا وَكُلِّ مَا عَلَّمُوا. فَقَالَ لَهُمْ: «تَعَالَوْا أَنْتُمْ مُنْفَرِدِينَ إِلَى مَوْضِعٍ خَلَاءٍ وَاسْتَرِيحُوا قَلِيلًا». لِأَنَّ الْقَادِمِينَ وَالذَّاهِبِينَ كَانُوا كَثِيرِينَ، وَلَمْ تَنْتَبِهْ لَهُمْ فُرْصَةٌ لِلْأَكْلِ. فَمَضَوْا فِي السَّفِينَةِ إِلَى مَوْضِعٍ خَلَاءٍ مُنْفَرِدِينَ. فَرَأَهُمُ الْجُمُوعُ مُنْطَلِقِينَ، وَعَرَفَهُ كَثِيرُونَ. فَتَرَكَضُوا إِلَى هُنَاكَ مِنْ جَمِيعِ الْمُدُنِ مُشَاءً، وَسَبَقُوهُمْ وَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ. فَلَمَّا خَرَجَ يَسُوعُ رَأَى جَمْعًا كَثِيرًا، فَتَحَنَّنَ عَلَيْهِمْ إِذْ كَانُوا كَخَرَافٍ لَا رَاعِيَ لَهَا، فَابْتَدَأَ يُعَلِّمُهُمْ كَثِيرًا» (مرقس ٣٠: ٦-٣٤).

بعد أن أرسل المسيح تلاميذه للكراسة اثنين اثنين، قطع الملك هيرودس رأس يوحنا المعمدان، بناء على طلب زوجة أخيه، التي كان هيرودس قد أخذها منه .

ولما عاد الاثنا عشر رسولاً من رحلتهم التبشيرية فاجأهم خبر قتل المعمدان. ولا بد أنهم تأثروا جداً، ولا سيما الذين اهتموا منهم بواسطته. وبعدها قصُّوا على المسيح اختباراتهم المتنوعة، والشرح والتعليم الذي كرّزوا به في البلاد التي زاروها، استحسّن المسيح أن يختلي بهم مدة ليستريحوا قليلاً، لأنه وجد الجماهير تتوارد إليهم في كفر ناحوم ونواحيها - وكانت خدمة هذه الجماهير تضغط عليهم حتى لم يجدوا فرصة للأكل. وبالنظر إلى الأحوال الحرجة بعد قتل المعمدان، قرر المسيح أن يتوارى مع تلاميذه عن أبصار الرؤساء إلى حين، وأن يفرّق الجماهير التي قد تكون حجةً سياسية للقبض عليه كما حدث لما سُجن المعمدان .

وكانت السفينة المخصصة لخدمته تنتظر، والإعياء يدعو للاستراحة. والبحر أفضل مكان للانسحاب من ازدحام الجمهور وضغط الأشغال. والحكمة تقضي بالانتقال من تحت ولاية قاتل المعمدان إلى مقاطعة أخيه فيلبس الأصلح منه كثيراً. وهذا يمكّن المسيح من تعليم تلاميذه حقائق لا تتسنّى له في المدينة. فركب وتلاميذه السفينة وأقلعوا عبر البحر. وبما أن الريح لم توافقهم، كان بطء سير السفينة سبباً في زيادة استراحة ركابها .

أما الجماهير فتراكضوا إلى بيت صيدا في العبر، مُشاةً على شطّ البحيرة الشمالي عابرين الأردن عند مصبه وسبقوا السفينة. وحال وصولها اجتمعوا إليه مع كثيرين من سكان تلك الجهات التي مرّوا بها. فلم يسمح قلبه الحنون أن يدفعهم أو يجافهم أو يؤنبهم. وما داموا يطلبونه فهو يترفق بهم، فشفي المحتاجين إلى الشفاء. ثم عاد فانسحب ثانية وصعد مع تلاميذه إلى جبل. لكنه لم يكد يجلس هناك حتى رفع عينه ونظر أن جمعاً كثيراً مقبلاً إليه. فلم يتضجر، بل زاد حنواً إذ رأى في أفرادهم ما رآه سابقاً من نفوس جائعة تشبه خرافاً تائهة بلا راع، فتحنن عليهم وشفى مرضاهم .

وبقي الجمهور مع المسيح حتى جاء المساء - ومعه مسؤولية جديدة.. من سيطعم هذه الآلاف؟

المسيح يشبع خمسة آلاف

«وَبَعْدَ سَاعَاتٍ كَثِيرَةٍ تَقَدَّمَ إِلَيْهِ تَلَامِيذُهُ قَائِلِينَ: «الْمَوْضِعُ خَلَاءٌ وَالْوَقْتُ مَضَى. اصْرِفْهُمْ لِكَيْ يَمْضُوا إِلَى الضِّيَاعِ وَالْقُرَى حَوَالَيْنَا وَيَبْتَاعُوا لَهُمْ خُبْزاً، لِأَنَّ لَيْسَ عِنْدَهُمْ مَا يَأْكُلُونَ». فَأَجَابَ: «أَعْطُوهُمْ أَنْتُمْ لِيَأْكُلُوا». فَقَالُوا لَهُ: «أَنَّمُضِي وَنَبْتَاعُ خُبْزاً بِمِئَتَيْ دِينَارٍ وَنُعْطِيهِمْ لِيَأْكُلُوا؟» فَقَالَ لَهُمْ: «كَمْ رَغِيفاً عِنْدَكُمْ؟ أَدْهَبُوا وَانْظُرُوا». وَلَمَّا عَلِمُوا قَالُوا: «خَمْسَةٌ وَسَمَكَتَانِ.» فَأَمَرَهُمْ أَنْ يَجْعَلُوا الْجَمِيعَ يَتَكُونُونَ رَفَاقاً رَفَاقاً عَلَى الْعُشْبِ الْأَخْضَرِ. فَاتَّكَأُوا صُفُوفاً صُفُوفاً: مِئَةٌ مِئَةً وَخَمْسِينَ خَمْسِينَ. فَأَخَذَ الْأَرْغِفَةَ الْخَمْسَةَ وَالسَّمَكَتَيْنِ، وَرَفَعَ نَظْرَهُ نَحْوَ السَّمَاءِ، وَبَارَكَ ثُمَّ كَسَرَ الْأَرْغِفَةَ، وَأَعْطَى تَلَامِيذَهُ لِيَقْدِمُوا إِلَيْهِمْ، وَقَسَمَ السَّمَكَتَيْنِ لِلْجَمِيعِ، فَأَكَلَ الْجَمِيعُ وَشَبِعُوا، ثُمَّ رَفَعُوا مِنَ الْكَسْرِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ قُرَّةً مَمْلُوءَةً، وَمِنَ السَّمَكِ. وَكَانَ الَّذِينَ أَكَلُوا مِنَ الْأَرْغِفَةِ نَحْوَ خَمْسَةِ آلَافٍ رَجُلٍ» (مرقس ٦: ٣٥-٤٤).

جاء المساء ومعه مسؤولية جديدة جعلت التلاميذ يتأففون في حيرتهم ويتشاورون على انفراد، إلى أن قرَّ رأيهم أخيراً أن يعرضوا على المسيح ما رأوه واجباً. لم يتعلموا بعد أن يصبروا إلى أن يأخذوا التعليمات من سيدهم. وغفلوا عن أنه لا يحتاج إلى من يعلمه أو يذكره بما يجب أن يفعله. فهل اعتبروا أنفسهم أكثر شفقة منه، أو أدركوا منه بما يقتضيه صالح هذا الجمهور وراحة المسيح وراحتهم؟

تقدم التلاميذ الاثنا عشر إلى المسيح وقالوا له: «الموضع خلاء والوقت مضى. اصرف الجموع لكي يمشوا إلى الضياع والقرى حوالينا فيبيتوا ويبتاعوا لهم طعاماً، لأننا ههنا في موضع خلاء. وليس عندهم ما يأكلون». يظهر أنهم خافوا أن يطالبهم الجمهور بحقوق الضيافة، وحسبوا أن هؤلاء الرجال والنساء والأطفال مع مرضاهم يتضررون إذا دخل الليل عليهم في هذا الخلاء.

وهنا وجَّه المسيح لفيلبس جوابه على هذا الكلام، وكان في صيغة سؤال عن مكان يوجد فيه طعام، كأنه يكلف فيلبس بتدبير ما يلزم لهؤلاء الضيوف. سأله المسيح: «من أين نبتاع خبزاً ليأكل هؤلاء؟» لا ليستفهم، بل ليمتحن ويعلم، لأنه كان يعلم جيداً ما سيفعل، لكنه أراد أن ينبّه تلاميذه إلى عجزهم وضعف إيمانهم. لأن درس التواضع درس أولي يجب أن يتعلموه.

كان فيلبس منتبهاً إلى صعوبة الأمر من وجوه عديدة، فعمل حساباً بأن الخبز وحده يكلف أكثر من مئتي دينار. فأين الدنانير؟ هل هي عند المسيح الذي ليس له أين يسند رأسه؟ وفضلاً عن ذلك: لو وجدوا الدنانير، فأين الوقت للذهاب إلى قرى عديدة لجمع كمية كهذه، ولو من الخبز وحده والإتيان به، والشمس أوشكت أن تغرب؟ وفوق هذا كله: أين وسائل النقل لإحضار طعام يكفي الألف؟ ويلاحظ أيضاً أن حصّة يسيرة من الخبز الحاف لا تقوم

بضيافة يليق أن يقدمها شخص كالمسيح لضيوفه. بناء على هذا كله أجاب فيلبس المسيح: «لا يكفيهم خبز بمئتي دينار ليأخذ كل واحد منهم شيئاً يسيراً.» وظن أن جوابه يقتنع المسيح فيتبع نصيحة الرسل ويصرف الجمع. فكم كان عجبه لما أجابه المسيح «لا حاجة لهم أن يمضوا. أعطوهم أنتم ليأكلوا.»

قال المسيح: «اعطوهم أنتم ليأكلوا» وهو يعلم أن ليس لديهم طعام، ليعلمهم أن الذين يقصدون إفادة الآخرين يحتاجون إليه، إذ ليس لديهم ما يطعمون به نفوساً جائعة. وفي الوقت ذاته يشير إلى أن الله يختار الوسائط البشرية ليُجري مقاصده في العالم، لأنه لا يوزع خيراته الروحية والزمنية رأساً، أو بواسطة الملائكة إلا نادراً - وذلك عندما لا توجد وسائط بشرية. وهذا القانون هو لخير الذين يقدمون والذين يأخذون معاً، إذ تنشأ بذلك رُبط المحبة بين المحسن والمحسن إليه، ويتنشط الذي يوزع في ممارسة إنكار الذات وخدمة الآخرين.

لكن التلاميذ اعترضوا على أمر المسيح قائلين: «أنمضي ونبتاع خبزاً بمئتي دينار ونعطيهم ليأكلوا؟» فسأل: «كم رغيماً عندكم؟ اذهبوا وانظروا.» نبَّههم بهذا الكلام إلى أن العمل الإلهي لا يُغني عن العمل البشري المستطاع، ولم يُرد أن يوجد خبزاً من لا شيء، طالما يوجد شيء. فاستخدم أولاً الموجود بين أيديهم ليعلمهم أن لا يطلبوا من الناس - حتى ولا من الله - عملاً يستطيعونه بالوسائط الطبيعية، لأن هذه دبرها لهم الله-فلا حق لهم في غيرها، إلا بعد الفراغ من استعمالها. اعتماد الإنسان على غيره في ما يستطيعه يُحسب دناءة، وانتظاره أن الله يعمل ما يطلب منه هو يُعدّ كسلاً وتواكلاً. فمتى عجز العمل الإنساني أو انتهى، يحقُّ طلب العمل الإلهي.

وكان أندراوس تلميذ المسيح الأول قد لاحظ غلاماً بين الجمهور (ربما كان يبيع طعاماً) معه خمسة أرغفة شعير وسمكتان. فأخبر المسيح عنه مع التحفُّظ قائلاً: «لكن ما هذا لمثل هؤلاء؟» ولم يقل المسيح بعد أن سمع بوجود هذا القليل: «اتركوه لأنه لا يستحق الذكر.» ولا قال: «قدموها للجمع.» بل قال: «إيتوني بها إلى هنا» ليعلمهم أنه هو مصدر الخير والبركة - هو الملك وصاحب الحق. وكل ما عندنا هو له، يتصرف فيه كما يشاء دون مُعارض.

ولما كان الترتيب من أبواب الرقي في الدين والدنيا، فلا نعجب من اهتمام المسيح به، فأمر أن يجعلوا الناس يتكئون فرقاً خمسين خمسين على العشب الأخضر. فلو توزَّع الطعام على هذه الألوف دون ترتيب، لداس بعضهم بعضاً، وتغلَّب القوي على الضعيف. وأخذ البعض كثيراً والبعض لم يأخذوا شيئاً. لكن بواسطة الترتيب يتم التوزيع بسرعة ولياقة وإنصاف، ويرى كل مفكر في أمور الطبيعة، اهتمام الخالق بأمر الترتيب. استلم المسيح الأرغفة

الخمسة والسمتين، ثم رفع نظره نحو السماء وشكر. فعلم تلاميذه أن كل خير - حتى الطعام الذي نشتره - هو عطية إلهية، وأنا يجب دائماً أن نقدم الشكر للمعطي الجواد عندما نتناول الطعام - ولا يجب أن نشكر في وقت الطعام فقط، بل نشكر عندما ننال أي نوع من الخيرات. لأن «كُلَّ عَطِيَّةٍ صَالِحَةٍ وَكُلَّ مَوْهَبَةٍ تَامَّةٍ هِيَ مِنْ فَوْقُ، نَازِلَةٌ مِنْ عِنْدِ أَبِي الْأَنْوَارِ» (يعقوب ١: ١٧).

وبعد أن شكر المسيح بارك وكسر الأرغفة والسمتين، ثم ناول الكسر التي باركها للرسول ليقدموها للمصطفين فرقاً على البساط الأخضر. وفي هذا العمل علمهم أن يطعموا غيرهم أولاً، ثم يأكلوا هم بعدهم، كما يجدر بالمؤمنين الأفاضل .

في أثناء التوزيع على هذا العدد الغفير حدثت معجزة الإكثار. قيل إنه «قسم السمتين على الجميع بقدر ما شاءوا فأكلوا وشبعوا جميعاً». وليس ذلك فقط بل أن القطع التي لم تؤكل كانت أضعاف الموجود أصلاً .

بهذه المعجزة المؤثرة الغنية بالفوائد، علم المسيح أتباعه أنه مستعد أن يأخذ خدمتهم الدينية الضعيفة، وكلامهم البسيط، ويضع فيها قوة وتأثيراً ليزيد فعلهما أضعاف فعلهما الطبيعي، لأنه يأخذ ما يقدم له ويزيده، ثم يعيده لمقدمه زائداً. فالنفوس والأجساد مع قواها ومواهبها ومعارفها ثم العائلة، ثم المقتنيات والأوقات والمساكن والأشغال كافة، إذا تركزت للمسيح، يقبلها ويباركها ويجعلها تزيد نمواً وفائدة. فأعظم تشجيع لفاعل الخير المتواضع، يأتيه من يقينه بأن الذي أشبع الألف بالزاد القليل مستعد أن يرافق خدمته الحغيرة ببركته الفياضة، فتفعل كثيراً .

بقي أن نتعلم درساً من اهتمام المسيح بالفضلات والكسر، لأنه يخشى أن يستخف تلاميذه بالكسر الفاضلة بعد المعجزة التي جرت أمام عيونهم. وأن يقولوا: هل يحتمل أن الذي أوجد من هذا القليل ما يكفي هذا العدد الكبير، يفكر في فضلات الكسر الساقطة على العشب؟ نعم يسأل، لأن قانوناً من قوانين عنايته هو «لكي لا يضيع شيء» .

لا تحقرن صغيراً أمراً إنما تلك الصغار إلى الكبار دليل

بعد أن أطعم المسيح الجموع هتفوا له، وأرادوا أن يملكوه عليهم - وكان رد فعله الأول هو أنه فصل تلاميذه عن الجمهور المتحمس لهذا العمل، وألزمهم أن يدخلوا السفينة، ويسبقوه إلى العبر، حتى يكون قد صرف الجموع. لم يسئل عليهم ترك سيدهم أثناء نجاحه الباهر، وانتشار صيته، خصوصاً بعد أن ظهر لهم أن باب العظمة العالمية، والثروة الزمنية، قد فُتح أمامهم. وإن كان المسيح قد صرفهم بشيء من العنف، لأنهم رفضوا فكره، نراه يُتبع

العنف باللفظ، لأن البشير يذكر صريحاً أنه ودّعهم. ومع أنه سيفترق عنهم ساعات قليلة فإنه يوّدّهم وداعاً حبيباً يحقق لهم به عواطفه الحارة نحوهم .

وكان رد فعل المسيح الثاني أنه صرف الجمهور .

وكانت خطوته الثالثة انصرافه هو، وصعوده منفرداً إلى الجبل ليصلي. يذكّرنا فعل إبليس في أفكار الجمهور في هذا الوقت بالتجربة الثالثة العظيمة التي قدمها إبليس للمسيح في البرية قبل هذا بسنتين، لما وعده بكل ممالك العالم ومجدها. فإعادة هذه التجربة في ظروفه الحالية تستدعي صلاة خصوصية للآب لتلافي الأخطار الجديدة، ولذلك انصرف إلى الجبل منفرداً. ولما رأى الناس أن المسيح لم يسافر مع تلاميذه في السفينة راجعاً إلى وطنه في العبر، توقعوا رؤيته في ذلك المكان في الغد، فلم ينصرفوا إلى أماكنهم البعيدة .

وأما هو فمضى إلى الجبل وحده ليصلي، وما أكثر المرات التي كان فيها يختلي للصلاة. وفي المرة التي اختلى منفرداً ليصلي - بعد أن أطعم الخمسة الآلاف، كانت هناك أسباب دفعته لذلك - منها قتل يوحنا المعمدان، وظنُّ الجمهور أن مملكة المسيح من هذا العالم، فهي مملكة سياسية، وانقياد التلاميذ إلى هذا الضلال، وعلمه بأن أكثر الذين تظاهروا أنهم معه، سيتخلّون عنه....

المسيح يمشي على الماء

«وَبَعْدَمَا صَرَفَ الْجُمُوعَ صَعِدَ إِلَى الْجَبَلِ مُنْفَرِداً لِيُصَلِّيَ. وَلَمَّا صَارَ الْمَسَاءُ كَانَ هُنَاكَ وَحْدَهُ. وَأَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ قَدْ صَارَتْ فِي وَسْطِ الْبَحْرِ مُعَذَّبَةً مِنَ الْأَمْوَاجِ. لِأَنَّ الرِّيحَ كَانَتْ مُضَادَّةً. وَفِي الْهَزِيعِ الرَّابِعِ مِنَ اللَّيْلِ مَضَى إِلَيْهِمْ يَسُوعُ مَاشِياً عَلَى الْبَحْرِ. فَلَمَّا أَبْصَرَهُ التَّلَامِيذُ مَاشِياً عَلَى الْبَحْرِ اضْطَرَبُوا قَائِلِينَ: «إِنَّهُ خَيَالٌ». وَمِنَ الْخَوْفِ صَرَخُوا! فَلَوْفَتْ قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «تَشَجَّعُوا! أَنَا هُوَ. لَا تَخَافُوا». فَأَجَابَهُ بُطْرُسُ: «يَا سَيِّدُ، إِنْ كُنْتُ أَنْتَ هُوَ، فَمُرْنِي أَنْ آتِيَ إِلَيْكَ عَلَى الْمَاءِ». فَقَالَ: «تَعَالَ». فَנَزَلَ بُطْرُسُ مِنَ السَّفِينَةِ وَمَشَى عَلَى الْمَاءِ لِيَأْتِيَ إِلَى يَسُوعَ. وَلَكِنْ لَمَّا رَأَى الرِّيحَ شَدِيدَةً خَافَ. وَإِذْ ابْتَدَأَ يَغْرَقُ صَرَخَ: «يَا رَبِّ نَجِّنِي». فَفِي الْحَالِ مَدَّ يَسُوعُ يَدَهُ وَأَمْسَكَ بِهِ وَقَالَ لَهُ: «يَا قَلِيلَ الْإِيمَانِ، لِمَ أَذًا شَكَّكْتَ؟» وَلَمَّا دَخَلَ السَّفِينَةُ سَكَتَتِ الرِّيحُ. وَالَّذِينَ فِي السَّفِينَةِ جَاءُوا وَسَجَدُوا لَهُ قَائِلِينَ: «بِالْحَقِيقَةِ أَنْتَ ابْنُ اللَّهِ» (متى. 14:22-33)

كان المسيح يصلي على الجبل وحده في الليل، بينما كان تلاميذه في السفينة، عندما وقع اضطراب في البحيرة، إذ هاج البحر من ريح عظيمة. وكانت السفينة معذبة من الأمواج لأن الريح كانت مضادة، لم يكن التلاميذ قد نسوا ما علمه المسيح في النوم قبل هذا الوقت بنحو نصف سنة، ولكنه كان وقتها معهم في السفينة. أما الآن فيخيفهم غيابهم - فهل ظنوا يا ترى أن الذي يشفي العليل بكلمة، وعن بُعد، يستطيع أن يحفظ ويعطي السلامة عن بُعد أيضاً؟

ظلوا يصارعون الأمواج إلى قرب الصباح، دون أن يتمكنوا من عبور البحيرة. وعرف المسيح بعذابهم وهو في مخدع الصلاة الهادئ على الجبل. وهو المحب الذي لا يريد عذابهم إلا بمقدار ما يؤول لخيرهم. فلما رأى اضطرابهم والخطر عليهم، نزل من الجبل ومشى على البحر الهائج معتلياً أمواجه في هبوطها وارتفاعها، كأنها اليابسة، وهو مسرع للإفراج منهم.

هذا هو الكلمة «الذي كُلُّ شَيْءٍ بِهِ كَانَ» (يوحنا ١: ٣) وقد وصفه بقوله: «الْبَاسِطُ السَّمَاوَاتِ وَحْدَهُ وَالْمَاشِي عَلَى أَعَالِي الْبَحْرِ» (أيوب ٩: ٨). رفقاً بهم لم يتجه فوراً إلى السفينة لئلا يخيفهم، بل مرّ بقربهم كأنه يتجاوزهم. لا شك أنهم اعتادوا القصص الخرافية الدارجة في كل عصر، عن ظهور أشباح روحية مزعجة. والآن يشاهدون لأول مرة في حياتهم روحاً أو خيالاً، فصرخوا مرتعدين - لعلهم أرادوا أن يخيفوا هذا الخيال ليبتعد عنهم. ولكن أتى صدى صراخهم خلافاً لما انتظروا، لأن هذا الخيال أجابهم بصوت لا يُشْتَبَه به، وبكلام مطمئن حبي قال: تشجعوا، أنا هو، لا تخافوا». ولا زال هذا الصوت الحنون المشجع يُسمع

حينما يوجد مؤمن مضطرب من جراء هموم ومخاوف الحياة. ولا سيما متى كان انزعاجه نتيجة لثقل خطاياه ومخاوف الابتعاد الأبدي عن الله .

فلما اقترب المتكلم وعرفوه، تمنى بطرس الجسور أن يتشبّه بسيدّه في المشي على الماء، فصرخ: «يا سيد إن كنت أنت هو، فمُرني أن آتي إليك على الماء .» فهل يسمح له بما طلب، رغم قوله: «إن كنت أنت هو» خصوصاً بعد أن قال سيده: «أنا هو»؟ نعم، إذا كان بذلك يقدر أن يُري تلاميذه أن كل شيء مستطاع عند الله. فمتى شاء يمكن الإنسان من فعل المستحيلات .

نجح بطرس في أول الأمر لأنه نزل من السفينة ومشى على الماء ليأتي إلى المسيح. لما كان فكره ونظره متجهين إلى المسيح لم يكن خائفاً، واستطاع أن يفعل المستحيل. لكن نجاحه أدى إلى فشله، لأنه ابتداءً يفكر بذاته ويفتخر بعمل لم يسبقه إليه أحد، فحوّل فكره ونظره من المسيح إلى نفسه، فابتدأت الأمواج الهائجة ترعبه، وحالاً أخذ يغرق، ولم تَفدّه معرفته بالسباحة. وصار يحسد رفقاءه في السفينة، بعد أن كانوا هم يحسدونه لما مشى على الماء. صرخ: «يا رب نجني». ففي الحال مدّ المسيح يده وأمسك به ونشله. ثم وبخه بقوله: «يا قليل الإيمان، لماذا شككت؟». فصَحَّ فيه كلام داود النبي: «نَشَلْنِي مِنْ مِيَاهٍ كَثِيرَةٍ» (مزمور ١٨: ١٦).

نجا بطرس من الغرق لأن المسيح أمسك به، لا هو بالمسيح. وهكذا نجا الخاطئ عندما تكلّ يده وتغمض عيناه ويرتخي تمسكه بالمخلص، فلا يرى أمامه إلا الهلاك. ولكن متى أدرك أن المخلص المقنن الذي لا ينام يمسك به يحلّ الرجاء عنده مكان اليأس .

لما ظن التلاميذ في السفينة أنهم رأوا خيالاً، صرخوا ليعذّوهم عنهم. أما الآن فقبلوا أن يدخل السفينة، فصعد إليهم وبمجرد دخوله إليها سكنت الرياح وللوقت صارت السفينة إلى أرض جنيسارت، التي كانوا ذاهبين إليها. ويقول الإنجيل إن التلاميذ «لم يفهموا بالأرغفة، إذ كانت قلوبهم غليظة» فلما رأوا هذه المعجزة الثانية في اليوم الواحد بُهتوا وتعجبوا جداً - مع أن المسيح أسكت هذا البحر من أجلهم منذ بضعة أشهر. وحالما وصلوا إلى الشاطئ تقدموا وسجدوا له سجودهم الأول كجماعة قائلين: «بالحقيقة أنت ابن الله .»

تعليم عن خبز الحياة

«وَفِي الْعَدِ لَمَّا رَأَى الْجَمْعُ الَّذِينَ كَانُوا وَاقِفِينَ فِي عَبْرِ الْبَحْرِ أَنَّهُ لَمْ تَكُنْ هُنَاكَ سَفِينَةٌ أُخْرَى سِوَى وَاحِدَةٍ، وَهِيَ تِلْكَ الَّتِي دَخَلَهَا تَلَامِيذُهُ، وَأَنَّ يَسُوعَ لَمْ يَدْخُلِ السَّفِينَةَ مَعَ تَلَامِيذِهِ بَلْ مَضَى تَلَامِيذُهُ وَحَدَهُمْ - غَيْرَ أَنَّهُ جَاءَتْ سَفُنٌ مِنْ طَبَرِيَّةَ إِلَى قُرْبِ الْمَوْضِعِ الَّذِي أَكَلُوا فِيهِ الْخُبْزَ، إِذْ شَكَرَ الرَّبُّ - فَلَمَّا رَأَى الْجَمْعُ أَنَّ يَسُوعَ لَيْسَ هُوَ هُنَاكَ وَلَا تَلَامِيذُهُ، دَخَلُوا هُمْ

أَيْضاً السُّفْنُ وَجَاءُوا إِلَى كَفَرِنَاخُومَ يَطْلُبُونَ يَسُوعَ. وَلَمَّا وَجَدُوهُ فِي عَبْرِ الْبَحْرِ، قَالُوا لَهُ: «يَا مُعَلِّمُ، مَتَى صِرْتَ هُنَا؟» أَجَابَهُمْ يَسُوعُ وَقَالَ: «الْحَقُّ الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ: أَنْتُمْ تَطْلُبُونَنِي لَيْسَ لِأَنَّكُمْ رَأَيْتُمْ آيَاتِي، بَلْ لِأَنَّكُمْ أَكَلْتُمْ مِنَ الْخُبْزِ فَشَبِعْتُمْ. اِعْمَلُوا لَا لِلطَّعَامِ الْبَائِدِ، بَلْ لِلطَّعَامِ الْبَاقِي لِلْحَيَاةِ الْأَبَدِيَّةِ الَّذِي يُعْطِيكُمْ ابْنُ الْإِنْسَانِ، لِأَنَّ هَذَا اللَّهُ الْآبُ قَدْ خَتَمَهُ». فَقَالُوا لَهُ: «مَاذَا نَفْعُلُ حَتَّى نَعْمَلَ أَعْمَالَ اللَّهِ؟» أَجَابَ يَسُوعُ: «هَذَا هُوَ عَمَلُ اللَّهِ: أَنْ تُؤْمِنُوا بِالَّذِي هُوَ أَرْسَلَهُ». فَقَالُوا لَهُ: «فَأَيَّةُ آيَةٍ تَصْنَعُ لِنَرَى وَنُؤْمِنَ بِكَ؟ مَاذَا تَعْمَلُ؟ أَبَاؤُنَا أَكَلُوا الْمَنَّ فِي الْبَرِّيَّةِ، كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ: أَنَّهُ أَعْطَاهُمْ خُبْزاً مِنَ السَّمَاءِ لِيَأْكُلُوا» (يوحنا ٦: ٢٢-٣١).

عند شق فجر اليوم التالي، ابتدأ الجمهور الذي كان ينتظر المسيح في عبر البحر يفتش عنه. كانوا يعرفون أنه لم يدخل السفينة مع تلاميذه، بل صعد إلى الجبل وحده - وأنه لم تكن سفينة أخرى هناك تقله إلى الشاطئ الجليلي. فقضى هذا الجمهور ليلة في البرية عازماً على العودة إلى الأوطان بموكب يقوده هذا النبي المقتدر بعد أن يرجع صباحاً من الجبل.

ولما وجدوه قد سبقهم تعجبوا من كيفية وصوله قبلهم. أما المسيح المترفع عن الغايات الذاتية، فلم يكثرث باحتفائهم به، ولم يذكر لهم معجزة مشيه على الماء تفسيراً لحيرتهم. ولما سألوه: «يا معلم، متى صرت هنا؟» أجابهم: «الحق الحق أقول لكم، أنتم تطلبونني ليس لأنكم رأيتم الآيات، بل لأنكم أكلتم من الخبز فشبعتم». «كأنه يقول: «أنتم تطلبونني، ليس لأجل التعليم الروحي، قوت النفس الباقي، بل لأجل طعام الجسد البائد، مع أنني قادر ومستعد أن أعطيكم الطعام الباقي للحياة الأبدية، لأنني كابن الإنسان مختوم من الله الآب لهذا العمل». لقد فتحوا له الباب ليقدم لهم خطاباً عن خبز الحياة، هو من أعظم أحاديثه.

الذي يهْمُنَا بالدرجة الأولى ما يكشفه لنا هذا الخطاب عن حقيقة شخصية المسيح، فقد أشار فيه ست مرات إلى ضرورة أكل جسده وشرب دمه، وكرر ثلاث عشرة مرة أنه نزل من السماء، وصرّح اثنتي عشرة مرة أنه هو الذي يهب الحياة للمؤمنين به، لأن الله أرسله مخلصاً. ويقول أربع مرات إنه يقيم المؤمنين به من الموت في اليوم الأخير. ثم ينفرد عن البشر في تسميته الله «أبي». وقال إنه قد رأى الآب وأنه هو الوحيد الذي رآه. فكيف يقدر مجرد بشر أن ينطق بأقوال كهذه؟ بل ما كان أكذبها لو لفظها رجلٌ ليس إلا كأحد الأنبياء. فالأمر واضح إذ أن المسيح قصد أن يفهم سامعوه أنه ليس مجرد بشر. ولأنه فهمهم ومستقيم، لا بد من تصديقه.

كان من أصعب الأمور على سامعي المسيح من اليهود أن يقبلوا كلامه عن أكل جسده وشرب دمه، فخاصم بعضهم بعضاً بسبب هذا الكلام. فقد كان محرماً عندهم أكل اللحم بدمه، فلا بد أنهم اشمأزوا من ذكر شرب دمه أضعاف اشمأزازهم من ذكر أكل جسده،

فحقّ للذين لم يعترفوا بأصله السماوي أن يتذمروا من كلامه هذا إذ يحسبون أنهم يعرفون جيداً أصله وأهله، فأَيُّ حقٍ له بهذه الأقوال؟

يصحُّ تشبيه المسيح بالخبز من وجوه شتى. لأن لا حياة إلا به. ولا حياة به إلا بعد سحقه، ولا حياة بعد سحقه إلا بتخصيصه للنفس بفعل الإيمان الذي يشبّهه هو بالأكل. لكن السامعين أخذوا كلام المسيح هذا بالمعنى الحرفي فعثروا بسببه. وامتدّت هذه العثرة إلى كثيرين من تلاميذه أيضاً. ولا يزال إلى الآن جمهور غفير نظيرهم يتقيّدون بالمعنى الحرفي .

وقد أيّد صدق مثاله بإشارته إلى حادث قادم عجيب جداً. إذ تنبأ لهم لأول مرة عن صعوده إلى السماء، الذي سوف يشاهده كثيرون من تلاميذه المؤمنين. فيكون لهم حينئذ أفضل برهان على أنه نزل من السماء، فلا يمكن أن يتكلم إلا بالصدق. ثم حذرهم من التفسير الحرفي بقوله: «الروح هو الذي يحيي. أما الجسد فلا يفيد شيئاً. الكلام الذي أكلّمكم به هو روح وحياة.»

قال المسيح لتلاميذه إنه يعرف ما في قلوبهم، فيقدر أن يميّز المؤمنين الحقيقيين من غيرهم. ويعرف أن إيمان بعض تلاميذه سطحي، وأن واحداً منهم سيسلمه، وأنه مطّلع على ذلك من البدء. وأشار إلى الكفارة التي أتى ليقدمها عن الخاطئ بقوله إنه يبذل جسده من أجل حياة العالم. فجاء هذا الخطاب كحدّ فاصل بين احتفاء جماهير الجليل به، والرفض والعدوان الذي ما زال يعلو ويتفاقم، إلى أن طما فوق رأسه، وأغرقه بتعليقه على الصليب .

من هذا الوقت رجع كثيرون من تلاميذه إلى الوراء، ولم يعودوا يمشون معه. ولا يُستبعد أن إيمان الاثني عشر تززع ولو قليلاً بسبب ارتداد هؤلاء، فاستحسن المسيح أن يفتح لهم باب الارتداد لكي يختاروا إمّا أن يتركوه أو أن يجددوا التصاقهم به. لكن الاثني عشر أجابوه بفم بطرس سريعاً وصريحاً: «يا رب، إلى من نذهب؟ كلام الحياة الأبدية عندك. ونحن قد آمنا وعرفنا أنك أنت المسيح ابن الله الحي». فمع فرحه بجواب بطرس حزن الرسول الخائن يهوذا الإسخريوطي، فقال مشيراً إليه: «أليس أني اخترتكم وواحد منكم شيطان؟.»

طهارة القلب وطهارة الطقس

«حِينَئِذٍ جَاءَ إِلَى يَسُوعَ كَتَبَةٌ وَفَرِيسِيُّونَ الَّذِينَ مِنْ أُورُشَلِيمَ قَائِلِينَ: «لِمَاذَا يَتَعَدَّى تَلَامِيذُكَ تَقْلِيدَ الشُّيُوخِ، فَإِنَّهُمْ لَا يَغْسِلُونَ أَيْدِيَهُمْ حِينَمَا يَأْكُلُونَ خُبْزاً؟» فَأَجَابَ وَقَالَ لَهُمْ: «وَأَنْتُمْ أَيْضاً، لِمَاذَا تَتَعَدُّونَ وَصِيَّةَ اللَّهِ بِسَبَبِ تَقْلِيدِكُمْ؟ فَإِنَّ اللَّهَ أَوْصَى قَائِلاً: أَكْرِمِ أَبَاكَ وَأُمَّكَ، وَمَنْ يَشْتِمِ أَباً أَوْ أُمًّا فَلَيَمُتْ مَوْتاً. وَأَمَّا أَنْتُمْ فَتَقُولُونَ: مَنْ قَالَ لِأَبِيهِ أَوْ أُمِّهِ: قُرْبَانٌ هُوَ الَّذِي تَنْتَفِعُ بِهِ مِنِّي. فَلَا يُكْرِمُ أَبَاهُ أَوْ أُمَّهُ. فَقَدْ أَبْطَلْتُمْ وَصِيَّةَ اللَّهِ بِسَبَبِ تَقْلِيدِكُمْ! يَا مُرَاوُونَ! حَسَناً تَنْبَأُ عَنْكُمْ إِشْعِيَاءُ قَائِلاً: يَقْتَرِبُ إِلَيَّ هَذَا الشَّعْبُ بِفَمِهِ، وَيُكْرِمُنِي بِشَفَتَيْهِ، وَأَمَّا قَلْبُهُ فَمُبْتَعِدٌ عَنِّي بَعِيداً. وَبَاطِلاً يَعْْبُدُونَنِي وَهُمْ يُعَلِّمُونَ تَعَالِيمَ هِيَ وَصَايَا النَّاسِ». ثُمَّ دَعَا الْجَمْعَ وَقَالَ لَهُمْ: «اسْمَعُوا وَافْهَمُوا. لَيْسَ مَا يَدْخُلُ الْفَمَ يُنَجِّسُ الْإِنْسَانَ، بَلْ مَا يَخْرُجُ مِنَ الْفَمِ هَذَا يُنَجِّسُ الْإِنْسَانَ». حِينَئِذٍ تَقَدَّمَ تَلَامِيذُهُ وَقَالُوا لَهُ: «أَتَعْلَمُ أَنَّ الْفَرِيسِيِّينَ لَمَّا سَمِعُوا الْقَوْلَ نَفَرُوا؟» فَأَجَابَ: «كُلُّ غَرَسٍ لَمْ يَغْرِسْهُ أَبِي السَّمَاوِيِّ يُقْلَعُ. أَتُرْكُوهُمْ. هُمْ عُمَيَّانُ قَادَةُ عُمَيَّانٍ. وَإِنْ كَانَ أَعْمَى يَقُودُ أَعْمَى يَسْقُطَانِ كِلَاهُمَا فِي حُفْرَةٍ». فَقَالَ بَطْرُسُ لَهُ: «فَسِرْ لَنَا هَذَا الْمَثَلُ». فَقَالَ يَسُوعُ: «هَلْ أَنْتُمْ أَيْضاً حَتَّى الْآنَ غَيْرُ فَاهِمِينَ؟ أَلَا تَفْهَمُونَ بَعْدَ أَنْ كُلَّ مَا يَدْخُلُ الْفَمَ يَمْضِي إِلَى الْجَوْفِ وَيَنْدَفِعُ إِلَى الْمَخْرَجِ، وَأَمَّا مَا يَخْرُجُ مِنَ الْفَمِ فَمِنَ الْقَلْبِ يَصْدُرُ، وَذَلِكَ يُنَجِّسُ الْإِنْسَانَ، لِأَنَّ مِنَ الْقَلْبِ تَخْرُجُ أَفْكَارٌ شَرِّيرَةٌ: قَتْلٌ، زَنَى، فَسْقٌ، سِرْقَةٌ، شَهَادَةٌ زُورٍ، تَجْدِيفٌ. هَذِهِ هِيَ الَّتِي تُنَجِّسُ الْإِنْسَانَ. وَأَمَّا الْأَكْلُ بِأَيْدٍ غَيْرِ مَغْسُولَةٍ فَلَا يُنَجِّسُ الْإِنْسَانَ» (متى ١٥: ٢٠).

يتبادر إلى الذهن أن الحوادث الأخيرة شوّقت الرؤساء في أورشليم إلى رؤية المسيح، في هذا الفصح، لكي يجدوا عليه علّة لمحاكمته وإعدامه، لكن المسيح لم يصعد إلى هذا العيد. فلما خابت آمالهم أرسلوا بعض رجالهم ليراقبوه، حاسبين أنهم يتمكنون على الأقل من تحريك النفور في قلوب الشعب وكلامه وأفعاله.

لكن هذا الأمر لا يتم باتّهامه بأقل مخالفة للشرعية الإلهية، فلا سبيل لهم للوصول إلى غايتهم إلا فيما يختص بشرائعهم الإضافية، التي وضعها علماءهم وتسمى «تقليد الشيوخ».

اعتنى النظام الموسوي كثيراً بأمر النظافة لدواع صحية وأدبية وروحية، ليوّجه النظر إلى أهمية نظافة القلب الداخلية، بواسطة ما فيه من أوامر عن النظافة الجسدية. فلما يعلمهم عن تنجّس النفس بالخطيئة، وضع الله نظاماً لليهود، من ضمنه أن التنجّس الديني ينتج عن إهمال النظافة الخارجية. ونتج عن ذلك إفراز شعب الله الخاص عن الأمم من حولهم، لصيانتهم من اقتباس عادات الأمم السيئة، وعبادتهم الباطلة.

أما التقليديون فحوّلوا هذا النظام إلى نيرٍ ثقيل، إذ بنوا عليه اختراعاتهم السخيفة العديدة. فقد أفتى ربيهم الشهير «يوسي» أن خطيئة الأكل بأيدي غير مغسولة تعادل خطيئة الزنا. وقالوا

إن من يهمل هذا الواجب يتسلط عليه شيطان يسمى «شيتا» ليلاً على فراشه. وقيل إن حاخامهم الشهير أكيبا سُجن مرة وكان يُعطي في سجنه مقداراً قانونياً من الماء يكفي بالكاد غسلاته وشربه. فلما أتاه السجن يوماً بما لا يكفي الاحتياج ارتبك كثيراً. وأخيراً قرر أن يترك الشرب ليُتِمَّ الاغتسال قائلاً: «أفضل الموت على مخالفة سنَّة أجدادي». وكان عليهم أن يجلبوا الماء اللازم للغسلات في أوانها، ولو عن بُعد ساعة ونصف .

ولا يمكن أن المسيح كمصلح ومعلم يجري الرؤساء في هذه الأباطيل، كما أن شعوره الرقيق لا يسمح له أن يؤيد الحرم الكبير الذي كانوا يوقعونه على من يهمل الغسلات المفروضة. فلما رفض الرضوخ لهذه الفرائض البشرية، عمل تلاميذه (أو بعضهم) مثله. ولاحظ المراقبون الذين حضروا من أورشليم هذه المخالفة فانتهزوا الفرصة لتعنيفه. فلما وجهوا سؤالهم إليه انتقاداً على تلاميذه - وهو يعلم نواياهم الخبيثة - أجابهم حالاً: «يا مراؤون .»

لم يضرب المسيح على نوع من الشر بمقدار ما ضرب على شر الرياء. وقد وجَّه إلى المرانين توبيخاته. والعالم اليوم في حاجة إلى مصلحين ينهجون سبيل المسيح في محاربة هذه الآفة المهلكة، وإلى مجتهدين في طرد هذا الشيطان الخبيث من الدوائر الدينية، لكي تتفق ظواهر أهل الدين تماماً مع بواطنهم. عندها يلبس الدين هبة جديدة، ويتمجد الإله الذي من أسمى أسمائه «الحق» .

نكاد لا نجد في كلام المسيح ما يجوز تسميته تهكماً، لأنه لم يستعمل المزح مطلقاً، لكنه في هذا الوقت قال للرؤساء تهكماً: «حسناً رفضتم وصية الله لتحفظوا تقليدكم!» ونبههم على تشبُّههم بالأمور الطفيفة، وتساهلهم بالأمور العظيمة، كالغسلات التي يفكرون بها الآن. هي كالقذى في عين تلاميذه أو كالبعوضة، لأنها فرائض بشرية ثانوية. وبينما يتشبَّثون بها يجهلون الشرائع الإلهية الجوهرية، كالرحمة والحق التي شبَّهها المسيح بالخشبة الكبيرة أو بالجمل. لذلك هم كمن يبلع الجمل ويصقّي عن البعوضة، أو الذي يطلب إخراج القذى من عين أخيه والخشبة في عينه .

ومع أن التلاميذ تشبَّهوا بالمسيح في إهمال الغسلات المفروضة، لكنهم لم يفهموا المبدأ المُتَّبَع في ذلك، فقالوا له: «أتعلم أن الفريسيين لما سمعوا القول نفروا؟». ولما تركوا الجمع ودخلوا البيت سألوه تفسير ما قاله، فوبخهم بقوله: «هل أنتم أيضاً حتى الآن غير فاهمين؟». لكنه أوضح لهم الأمر باختصار إذ قال: «كل ما يدخل فم الإنسان من خارج، لا يقدر أن ينجسه، وأما ما يخرج من الفم فمن القلب يصدر، وذلك ينجس الإنسان. لأنه من داخل، من قلوب الناس، تخرج الأفكار الشريرة: قتل زنى فسق سرقة خبث مكر عهارة

عين شريرة شهادة زور تجديف كبرياء جهل. جميع هذه الشرور تخرج من الداخل. هذه هي التي تنجس الإنسان. وأما الأكل بأيدي غير مغسولة فلا تنجس الإنسان.»

المسيح يبشر الوثنيين

جاء المسيح مخلصاً للعالم كله، وكما قدّم خدمته لبني إسرائيل قدم خدمته للوثنيين من الأمم، فاتجه إلى البلاد الفينيقية - وفي هذا جملة فوائد: فبانقاله إلى بلاد أُممية يحصل هو وتلاميذه على بعض الراحة الجسدية والعقلية، لأن الازدحام عليه يخفّ بين أناس يجله أكثرهم. وينال أيضاً غايته إذ يتفرغ لتعليم تلاميذه استعداداً لتركهم، فبرؤيتهم بلاداً جديدة تتسع مداركهم، وبيئتيّ فيهم الاستعداد لوصيته الوداعية أن «يتلمذوا جميع الأمم ويكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها» (متى ٢٨: ١٨). وسيرون في هذه السياحة شاهداً جديداً على صدق نبوته لما قال في مسامعهم: «يَأْتُونَ مِنَ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ وَيَتَكُونُونَ مَعَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ» (متى ٨: ١١). (فيعلمهم بالمشاهدة أن الدين ليس بالإرث بل بالإيمان. لذلك انصرف معهم إلى نواحي صور وصيدا، أفضل وأشهر البلاد الفينيقية .

وهناك دخل المسيح بيتاً وهو لا يريد أن يعلم أحد، فلم يقدر أن يختفي. إذ كيف يمكن أن تختفي الرائحة الذكية التي كانت تفوح من شخصه الكريم؟ كان قد وصل إلى هذه الأصقاع شيء من أخبار محبته وقدرته، لأن بعض أهلها كانوا قد ذهبوا إليه سابقاً إلى كفر ناحوم. ويستحيل أن مسافراً مهوباً مثل المسيح يدخل قرية يرافقه تلاميذه إلا ويسأل الناس عن أمره. فسمعت به امرأة واقعة في مصيبة عظيمة، إذ كانت ابنتها مجنونة جداً، لأن بها روحاً نجساً .

إيمان المرأة الفينيقية

«ثُمَّ قَامَ مِنْ هُنَاكَ وَمَضَى إِلَى تُخُومِ صُورَ وَصَيْدَاءَ، وَدَخَلَ بَيْتاً وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ لَا يَعْلَمَ أَحَدٌ، فَلَمْ يَقْدِرْ أَنْ يَخْتْفِيَ، لِأَنَّ امْرَأَةً كَانَتْ ابْنَتْهَا رُوحٌ نَجِسٌ سَمِعَتْ بِهِ، فَأَتَتْ وَخَرَّتْ عِنْدَ قَدَمَيْهِ. وَكَانَتْ الْمَرْأَةُ أُمَمِيَّةً، وَفِي جَنْسِهَا فِينِيقِيَّةٌ سُورِيَّةٌ - فَسَأَلَتْهُ أَنْ يُخْرِجَ الشَّيْطَانَ مِنْ ابْنَتِهَا. وَأَمَّا يَسُوعُ فَقَالَ لَهَا: «دَعِي الْبَنِينَ أَوَّلًا يَشْبَعُونَ، لِأَنَّهُ لَيْسَ حَسَنًا أَنْ يُؤْخَذَ خُبْزُ الْبَنِينَ وَيُطْرَحَ لِلْكَلابِ». فَأَجَابَتْ وَقَالَتْ لَهُ: «نَعَمْ يَا سَيِّدِي! وَالْكَلابُ أَيْضاً تَحْتَ الْمَائِدَةِ تَأْكُلُ مِنْ قُتَاتِ الْبَنِينَ». فَقَالَ لَهَا: «لَأَجْلِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ اذْهَبِي. قَدْ خَرَجَ الشَّيْطَانُ مِنْ ابْنَتِكَ». فَذَهَبَتْ إِلَى بَيْتِهَا وَوَجَدَتِ الشَّيْطَانَ قَدْ خَرَجَ، وَالابْنَةُ مَطْرُوحَةً عَلَى الْفِرَاشِ» (مرقس ٧: ٢٤-٣٠).

كانت المرأة الفينيقية وشعبها يحتقرون اليهود، ولكنها سجدت عند قدمي المسيح، وصرخت باحترام قائلة: «يا سيد». ربما فهمت أنه أشرف عائلة عند اليهود، أو علمت أن مسيح اليهود يكون ابن داود، فظننت أنها تعظمه وتسره بمناداتها إياه: «يا سيد، يا ابن داود». لكن لو صدّق ظن اليهود عنه أنه ابن داود فقط، والمسيح الذي تصوره، فلن ينفعها بشيء، لأنه يكون مخلصاً سياسياً عالمياً لا بيالي إلا باليهود، ويرفض جميع الأمم، عبدة الأصنام نظيرها، لأنه يعتبرهم كالكلاب المكروهة المطرودة، فطلبت منه الرحمة. لكنها لم تقل:

ارحم ابنتي بل «ارحمني». لأن ابنتها المجنونة لا تشعر ولا تهتم لمصيبتها. لكن الأمومة جعلت مصيبة الأم جسيمة جداً .

أكرمت المرأة الفيقية المسيح وسجدت له، واستنجدت به بحرارة، لكنه لم يجبها بكلمة. وظهر أنه خرج من البيت متوجّهاً إلى مكان آخر، فتبعته مكررة صراخها وهو لا ينتبه إليها، لكنها لم تيأس. لعلها رأت فيه ما حقّق لها على رغم سكوته أن صيته في الحنوّ ليس كاذباً، وأنها تحصل بواسطة اللجاجة على بركة منه. ولعل سكوته ناتج من اشتغال أفكاره في أمور أخرى أهم من أمرها. يكفي أنه لم يضجّر من صراخها ولم ينتهره. وتضايق التلاميذ من إلحاحها، فطلبوا من المسيح أن يعطيها طلبها، لكنه قال لهم: «لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة.»

لكن كيف يخصص مخلص العالم ذاته لخراف بيت إسرائيل فقط؟ الجواب: أن المسيح قرر أن يبدأ خدمته بتبشير اليهود، لأن عندهم مواعيد الله. ولو خرج المسيح للكراسة بين الأمم، لرفض اليهود الإصغاء إليه. ولم يشأ أن يخدم اليهود والأمم معاً، لأن الفرصة ضيقة لا تكفي لتبشير اليهود والأمم أيضاً. كما أنه كان يدرّب تلاميذه ليحملوا بشارته للجميع من يهود وأمم .

قبل حقاً إن الريح التي تطفئ الفتيلة، تزيد الحريق الكبير اضطراباً، فالصدمة التي تطفئ الإيمان الضعيف تزيد الإيمان القوي قوة. فنرى هذه المرأة تتقدم وتجدد استنجاها، كأن الرفض يزيد قوة إيمانها، فسجدت ثانية وصرخت: «أعني». كان مفعول هذه الكلمة الواحدة البسيطة الصادرة من قلب ملتهب، أعظم من كل الصلوات الفصيحة التي تقدمت في الهيكل العظيم في ذلك اليوم. أفلا يتزأف الآن هذا السيد الصارم؟ ألا يكفي هذا القدر من احتراق قلبها؟ لأن هذا الرؤوف يريد أن يعطيها مجداً أعظم، بعد تزكية إيمانها بامتحان جديد أمرّ من الأول، إذ قال لها: «دعي البنين أولاً يشبعون. ليس حسناً أن يؤخذ خبز البنين ويُطرح للكلاب؟ ألا يشك من يقرأ هذا الجواب أنه من اختلاق وتزوير أحد مبغضي المسيح؟ أيحتمل أن يخرج كلام كهذا من فم ذلك الذي أحب العالم بأسره كبيره مع صغيره، وأميره مع فقيره، صالحه مع شريره حتى بذل نفسه عنهم جميعاً؟

الإجابة: كلا! فقد أراد المسيح بهذه الكلمات أن يفتح عيني هذه السيدة إلى حقيقة روحية خفيت عنها. نظرت هذه المرأة إليه كابن داود. ومسيح اليهود وحدهم، وإذ ذاك لا نصيب لها مطلقاً في عطايه وبركاته. ولا يقدر أن يجعل لها هذا النصيب إلا بعد أن تعرفه وتعترف به مسيحاً للأمم أيضاً. ففتح لها بجوابه القاسي باباً تصل منه إلى هذه المعرفة وهذا الاعتراف .

ففي تواضعها العظيم مع احتياجها الكبير، عادت تطالبه بإلحاح. ألم يقل لها: «دعي البنين أولاً يشبعون؟» إذاً الكلاب تأخذ دورها بعد البنين! فجعلت المسيح بوضعه إياها بين الكلاب، يعترف أن لها حقوقاً، لأن أب البنين حول المائدة، هو أيضاً رب الكلاب تحت المائدة. فإن كانت هي من الكلاب، فللكلاب أرباب، وهو إذاً ربها. ولها الفتات الفاضلة عن البنين .

في إيمانها هذا أعطت مثلاً يوضح شيئاً عن الإيمان. لو كان إيمانها الإيمان العقلي فقط - نظير إيمان كثيرين، لأقنعتها معاملة المسيح أن تتركه وأن لا نصيب لها عنده. لكن لأن إيمانها قلبي، نظر إلى وراء الظواهر، وتأكد أن المسيح لا يردّ طلب مستغيث ولو أجل الإغاثة، فإذا به يلتي طلبها اللجوج بقوله: «يا امرأة، عظيم إيمانك. ليكن لك كما تريدن. ولأجل هذه الكلمة اذهبي. قد خرج الشيطان من ابنتك». هذا المسيح العظيم الذي لم يرضخ البتة في كل مناقشاته مع فلاسفة اليهود بل كان يلجمهم بأجوبته السديدة، ويريههم بُعدهم عن ملكوت الله، يتنازل الآن ويرضخ بجلم عجيب لهذه المسكينة في احتياجها إليه، ويبين قربها لهذا الملكوت .

فائدة للتلاميذ

نلاحظ أيضاً أن التلاميذ حصلوا على نتيجة في هذا الإمتحان، لأنهم رأوا أمامهم مثلاً لخراف هذا الراعي العظيم، التي ليست من الحظيرة اليهودية (يوحنا 10:16) بعضها يفوق الخراف اليهودية في المواهب الروحية. قد تعودوا أن يسمعو من المسيح تأنيباً بقوله لهم مراراً: «يا قليلي الإيمان». ولما كاد بطرس يغرق وبّخه قائلاً: «يا قليل الإيمان، لماذا شككت؟». فأئيّ خجل يغمرهم جميعاً إذ سمعوا سيدهم يقول مبتهجاً لهذه الوثنية المدومة الوسائط الدينية: «عظيم إيمانك. ليكن لك كما تريدن»!

استجابة الصلاة

ويرينا هذا الحادث أن استجابة الصلاة لا تتوقف على مقام الطالب كما يتوهم كثيرون، بل على روحه في الطلب. ظهر هذا لما أتى للمسيح يوماً تلميذاه الممتازان يعقوب ويوحنا الحبيب مع والدتهما، التي كانت ترافقهم وتخدمهم من مالها، وطلبوا منه شيئاً، فلم يسمع لهما، أما الآن فاستجاب لهذه الفينيقيّة الغريبة العديمة المقام. قد رأينا فيما سبق تلاميذ كثيرين في وطن المسيح يرتدّون عنه. لكن تلك الخسارة - وإن كان ظاهرها عظيماً - لا توازي ربحه هذه النفس النادرة المثال، التي انضمت إليه في القرية الوثنية، في نواحي صور وصيدا .

كراسة في المدن العشر

«ثُمَّ خَرَجَ أَيْضاً مِنْ تُخُومِ صُورَ وَصَيْدَاءَ، وَجَاءَ إِلَى بَحْرِ الْجَلِيلِ فِي وَسْطِ حُدُودِ الْمُدُنِ الْعَشْرِ» (مرقس ٧: ٣١).

ثم سافر المسيح من جهات صور وصيدا شرقاً إلى مقاطعة ديكابوليس (أي العشر المدن)، في الجولان. وكانت هذه البلاد عظيمة بالتمثّن اليوناني، وتجارتها الواسعة. ولم تكن تابعة لحكم هيرودس أنتيباس وسلطته الجائرة، كما كانت بعيدة عن سلطة رؤساء اليهود التي هي أشدّ خطراً على المسيح. وكان قد قضى قبلاً في هذه المقاطعة ساعات قليلة عندما أخرج الشيطان من «لجنون». وعلى ما نرى أن عمل هذا الرجل أثر في تلك المقاطعة، حتى لما جاء المسيح وصعد إلى جبل وجلس، جاء إليه جموع كثيرة مع عُرج وعُمي ومشلولين وخُرس وآخرون كثيرون وطرحوهم عند قدمي المسيح فشفاهم.

شفاء الأصم الأعقد

«وَجَاءُوا إِلَيْهِ بِأَصَمٍّ أَعْقَدَ، وَطَلَبُوا إِلَيْهِ أَنْ يَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ. فَأَخَذَهُ مِنْ بَيْنِ الْجَمْعِ عَلَى نَاحِيَةٍ، وَوَضَعَ أَصَابِعَهُ فِي أُذُنَيْهِ وَتَفَلَ وَلَمَسَ لِسَانَهُ، وَرَفَعَ نَظْرَهُ نَحْوَ السَّمَاءِ وَأَنَّ وَقَالَ لَهُ: «إِفْتَأْ». أَيْ انْفَتَحْ. وَلِلْوَقْتِ انْفَتَحَتْ أُذُنَاهُ، وَانْحَلَّ رِبَاطُ لِسَانِهِ، وَتَكَلَّمَ مُسْتَقِيمًا. فَأَوْصَاهُمْ أَنْ لَا يَقُولُوا لِأَحَدٍ. وَلَكِنْ عَلَى قَدَرِ مَا أَوْصَاهُمْ كَانُوا يُنَادُونَ أَكْثَرَ كَثِيرًا. وَبُهِتُوا إِلَى الْعَايَةِ قَائِلِينَ: «إِنَّهُ عَمِلَ كُلَّ شَيْءٍ حَسَنًا! جَعَلَ الصُّمَّ يَسْمَعُونَ وَالْخُرْسَ يَتَكَلَّمُونَ» (مرقس ٧: ٣٢-٣٧).

ورد بتفصيل من بين حوادث الشفاء في صور وصيدا حادث شفاء أصم أعقد جاءوا به محمولاً، إمّا لعجزهم عن إفهامه ما يقصدونه له، أو لكونه مختل العقل أو معتل الجسم. فهذا الأصم الأعقد لم يسمع كغيره من المسيح ولا عنه، فقصده المسيح أن يحرك فيه عاطفة الإيمان الضرورية في كل عليل يشفيه. ولكي يكلمه كلاماً روحياً انفرد به عن الجمع، ثم وضع أصابعه في أذنيه كأنه يفتح فيهما باباً للسمع. وتفل ولمس لسانه. بهذه الحركات البسيطة أحيا فيه إيماناً جديداً، وأيد مبدءاً استعمال كل ما يمكن من الوسائط الملائمة.

بقي عليه تحويل أفكار هذا المسكين إلى الإله مصدر كل الخيرات، ليعلم من حيث يأتي عونهُ. فرفع يسوع نظره نحو السماء (مظهراً بذلك تعلُّقه الكامل بالآب (و) «أَنَّ» - لعله جمع في أُنْتَه أنين الخلق أجمع، ورفع شاكياً مصائبهم التي لا تُحصى إلى الآب السماوي، طالباً منه الرحمة لجميع المصابين بالعلل الجسدية، لأنه هو الذي قيل عنه «فِي كُلِّ ضَيْقِهِمْ تَضَايِقُ» (إشعيا ٦٣: ٩). ثم أمر العليل بلغته الأرامية قائلًا: «إِفْتَأْ» أي «انفتح» فانحلَّ رباط لسانه وتكلم مستقيماً. فتمَّ قول النبي «أَذَانُ الصُّمِّ تَنْفَتِّحُ» (إشعيا ٣٥: ٥).

كانت مناظر الشفاء جديدة عند أكثر هذا الجمهور، وعرفوا أن المسيح من بني إسرائيل وليس وثنياً نظيرهم. وأن ألتهم التي كانوا يفتخرون بها ويتكلمون عليها لا تستطيع شيئاً من هذا الذي كان المسيح يصنعه. فلذلك عندما «تعجبوا وبُهِتُوا للغاية» صاروا يمجدون المسيح قائلين: «إنه عمل كل شيء حسناً». وهذه الشهادة إنه يعمل كل شيء حسناً يقدمها الملايين من الناس الذين على توالي الأجيال والقرون، يأتون إليه ويتخذونه لأنفسهم المخلص والمدبر في حياتهم اليومية .

إطعام أربعة آلاف وثني

«فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ إِذْ كَانَ الْجَمْعُ كَثِيراً جِداً، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مَا يَأْكُلُونَ، دَعَا يَسُوعُ تَلَامِيذَهُ وَقَالَ لَهُمْ: «إِنِّي أَشْفِقُ عَلَى الْجَمْعِ، لِأَنَّ الْآنَ لَهُمْ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ يَمْكُثُونَ مَعِيَ وَلَيْسَ لَهُمْ مَا يَأْكُلُونَ. وَإِنْ صَرَفْتُهُمْ إِلَى بُيُوتِهِمْ صَائِمِينَ يَخْوَرُونَ فِي الطَّرِيقِ، لِأَنَّ قَوْماً مِنْهُمْ جَاءُوا مِنْ بَعِيدٍ». فَأَجَابَهُ تَلَامِيذُهُ: «مِنْ أَيْنَ يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يُشْبِعَ هؤُلَاءِ خُبْزاً هُنَا فِي الْبَرِّيَّةِ؟» فَسَأَلَهُمْ: «كَمْ عِنْدَكُمْ مِنَ الْخُبْزِ؟» فَقَالُوا: «سَبْعَةٌ». فَأَمَرَ الْجَمْعَ أَنْ يَتَّكُوا عَلَى الْأَرْضِ، وَأَخَذَ السَّبْعَ خُبْزَاتٍ وَشَكَرَ وَكَسَرَ وَأَعْطَى تَلَامِيذَهُ لِيُقَدِّمُوا، فَقَدَّمُوا إِلَى الْجَمْعِ. وَكَانَ مَعَهُمْ قَلِيلٌ مِنْ صِغَارِ السَّمَكِ، فَبَارَكَ وَقَالَ أَنْ يُقَدِّمُوا هَذِهِ أَيْضاً. فَأَكَلُوا وَشَبِعُوا، ثُمَّ رَفَعُوا فَضَلَاتِ الْكِسْرِ: سَبْعَةُ سِلَالٍ. وَكَانَ الْأَكْلُونَ نَحْوَ أَرْبَعَةِ آلَافٍ. ثُمَّ صَرَفَهُمْ» (مرقس ٨: ١-٩).

أجرى المسيح معجزة إشباع خمسة آلاف نفس في الجليل - وأجرى معجزة أخرى لإشباع أربعة آلاف نفس في دائرة ديكابوليس أي (المدن العشر) وهي من البلاد الوثنية .

اجتمع الناس هناك من حول المسيح في البرية، وطال اجتماعهم به ثلاثة أيام حتى نفذ الزاد، لأن قوماً جاءوا من بعيد. فحمله إشفاقه على تكرر إشباع الجمهور بمعجزة. وإشفاق المسيح هذا يرافق كل فرد من البشر من مهدد إلى لحد. كان كلامه الحنون: «لست أريد أن أصرفهم إلى بيوتهم صائمين لئلا يخوروا في الطريق». لا يسعنا إلا أن نستغرب تكرر التلاميذ اعتذارهم بالعجز في صيف ذات السنة التي في ربيعها أشبع المسيح جمعاً أكثر بشيء زهيد من الطعام. غير أن المسيح بكتهم بعد قليل على نسيان المعجزتين معاً وعدم استفادتهم منهما. فالشكوك الحاضرة تولد نسيان المراحل الماضية .

شفاء أعمى وثني

«وَجَاءَ إِلَى بَيْتِ صَيْدَا، فَقَدَّمُوا إِلَيْهِ أَعْمَى وَطَلَّبُوا إِلَيْهِ أَنْ يَلْمَسَهُ، فَأَخَذَ بِيَدِ الْأَعْمَى وَأَخْرَجَهُ إِلَى خَارِجِ الْقَرْيَةِ، وَتَقَلَّ فِي عَيْنَيْهِ، وَوَضَعَ يَدَيْهِ عَلَيْهِ وَسَأَلَهُ هَلْ أَبْصَرَ شَيْئاً؟ فَتَطَلَّعَ وَقَالَ: «أَبْصَرُ النَّاسَ كَأَشْجَارٍ يَمْشُونَ». ثُمَّ وَضَعَ يَدَيْهِ أَيْضاً عَلَى عَيْنَيْهِ، وَجَعَلَهُ يَتَطَلَّعُ. فَعَادَ

صَحِيحاً وَأَبْصَرَ كُلَّ إِنْسَانٍ جَلِيّاً. فَأَرْسَلَهُ إِلَى بَيْتِهِ قَائِلاً: «لَا تَدْخُلِ الْقَرْيَةَ، وَلَا تَقُلْ لِأَحَدٍ فِي الْقَرْيَةِ» (مرقس ٢٢: ٨-٢٦).

زادت هذه المعجزة في انتشار شهرة المسيح في هذه البلاد الجديدة، فاضطر أن يغادرها تخلصاً من الازدحام، فدخل السفينة مع تلاميذه وجاء إلى تخوم مجدل ودلمانوثة المجاورة لها. ولما وصل إلى بيت صيدا يولياس، على جانب البحيرة الشرقي، حيث أشبع الخمسة الآلاف، أتوه بأعمى ليشفيه باللمس، فلم يقبل أن يعيتوا له أسلوب الشفاء. لكنه استجاب طلبهم وشفاه على الأسلوب الذي استحسنته هو. أخرجه إلى خارج القرية، وبينما كان الأعمى ينتظر متحيراً ماذا يفعل المسيح أو ماذا يطلب منه، تفل المسيح في عينيه ووضع على كل عين يداً، فأبصر الناس كأشجار يمشون - أي أتاه البصر على قدر إيمانه - ولما زاد إيمانه بعد البصر القليل كرر المسيح وضع يديه على عينيه، فأتاه البصر الكامل. وبذلك مثل الذين يستنثرون تدريجياً في الأمور الروحية. فإن استعملوا النور القليل الذي لهم، تكون النتيجة ازدياد النور «فَإِنَّ مَنْ لَهُ سَيُعْطَى وَيَزَادُ» (متى ١٣: ١٢).

مسابقة الكتاب

القراء الأعزاء

نرجو توجيه إجاباتكم على هذه المسابقات إلى (نداء الرجاء)

<http://www.call-of-hope.com>

على العنوان التالي:

Of Hope Call

P.O. Box 1018

Stuttgart 1, West Germany 7000

عزيزي القارئ،

إن أرسلت إلينا إجابة صحيحة على عشرين سؤالاً من الأسئلة الخمسة والعشرين التالية، نرسل لك كتاباً جائزة من كتبنا المختلفة. نرجو أن ترسل مع الإجابة اسمك وعنوانك واضحاً لنرسل لك الجائزة .

- 1 ماذا كانت إجابة المسيح على شكوك يوحنا المعمدان؟
- 2 لماذا قبل المسيح دعوة سمعان الفريسي؟
- 3 لماذا أحببت المرأة الخاطئة المسيح كثيراً؟
- 4 لماذا يعتبر الفاترون أن الغيرة في الدين جنوناً؟
- 5 من هم إخوة المسيح الحقيقيون؟
- 6 اذكر برهاناً قدمه المسيح على أنه لا يخرج الشياطين بقوة رئيس الشياطين.
- 7 ما هو الفرق بين قوة المسيح وقوة الشيطان؟
- 8 اكمل الآية الآتية: «هلم نتحاج يقول الرب: - » (إشعياء ١٨: ١).
- 9 لماذا لا يغفر الله خطية التجديف على الروح القدس؟
- 10 في آية يونان النبي إشارة إلى المسيح - ما هي؟
- 11 اذكر الأنواع الأربعة للأرض التي يقع عليها البذار، كما ذكرها المسيح في مثل الزارع.
- 12 اذكر صفتين لحبة الخردل موجودتين في ملكوت السموات.
- 13 اذكر شبيهاً بين عمل ملكوت السموات وعمل الخميرة.
- 14 ماذا نتعلم من مثل اللؤلؤة الحسنة كما ذكره المسيح في متى ١٣: ٤٥ ، ٤٦؟
- 15 اذكر آية من المزامير توضح سلطان المسيح على الطبيعة.

- 16 عاصفتان ونوءان هاجما تلاميذ المسيح على البحيرة - ما هما؟
- 17 لماذا طلب أصحاب الخنازير من المسيح أن يذهب بعيداً عن بلدهم.
- 18 لماذا لم تطلب نازفة الدم من المسيح أن يشفيها، ولماذا لمست هذب ثوبه؟
- 19 ما هي الشروط الأربعة لنوال البركات من المسيح؟
- 20 ما معنى أن المسيح لم يُلْقِ سلاماً بل سيفاً؟
- 21 لماذا طلب المسيح من تلاميذه أن يعطوا الجمع ليأكلوا، وهو يعلم أن ليس عندهم طعام؟
- 22 ماذا نتعلم من شكر المسيح على الأرغفة والسمكتين؟
- 23 لماذا استطاع بطرس أن يمشي على الماء؟
- 24 ما هي أوجه الشبه بين المسيح والخبز؟ - اذكر ثلاثة.
- 25 لماذا قال المسيح للمرأة الفينيقية: «ليس جيداً أن يؤخذ خبز البنين ويُطرح للكلاب»؟

ارسل الإجابة فقط بدون تعليقات أخرى لئلا تُهمل، ونحن بانتظار إجابتك.

سيرة المسيح

الدكتور جورج فورد

الكتاب الخامس: جوهره واتباعه

من هو المسيح وماذا سيفعل؟

«ثُمَّ خَرَجَ يَسُوعُ وَتَلَامِيذُهُ إِلَى قُرَى قَيْصَرِيَّةَ فِيلُبُسَ. وَفِي الطَّرِيقِ سَأَلَ تَلَامِيذُهُ قَائِلًا: «مَنْ يَقُولُ النَّاسُ إِنِّي أَنَا؟» فَأَجَابُوا: «يُوحَنَّا الْمَعْمَدَانُ، وَآخَرُونَ إِيْلِيَّا، وَآخَرُونَ وَاجِدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ». فَقَالَ لَهُمْ: «وَأَنْتُمْ، مَنْ تَقُولُونَ إِنِّي أَنَا؟» فَأَجَابَ بَطْرُسُ وَقَالَ لَهُ: «أَنْتَ الْمَسِيحُ!» فَأَنْتَهَرَ هُمْ كَيْ لَا يَقُولُوا لِأَحَدٍ عَنْهُ» (مرقس ٨: ٢٧-٣٠).

ارتحل المسيح وتلاميذه شمالاً، سفر نحو يومين، إلى سفح جبل الشيخ في نواحي قيصرية فيلبس، وهناك وجّه لهم السؤال: «من يقول الناس إنني أنا ابن الإنسان؟». وكعادته لم يكن سؤاله للاستفهام، بل لخير الذين يطلب منهم الجواب. طلب منهم أن يخبروه برأي الناس فيه كابن الإنسان فقط، لأن العامة لا يرون إلا ناسوته. فأجابوه أن الناس في حيرة من جهته. يعتبرونه نبياً عظيماً، لكن لا يتصورونه نبياً جديداً. يظنون أنه إيليا أو إرميا أو المعمدان أو نبي آخر قديم قد ظهر ظهوراً جديداً. والظاهر أن ليس أحد يقول إنه المسيح المنتظر.

هل هذه هي النتيجة بعد خدمته ثلاث سنين؟ هل ذهبت أتعابه أدراج الرياح؟ قد أصاب البشير بقوله: «إن النور يضيء في الظلمة، والظلمة لم تدركه» (يوحنا. 1:5) بعد إشباعه الخمسة الآلاف قال عنه الجمع: «إن هذا هو بالحقبة النبي الآتي إلى العالم». أي النبي الذي ينبغي أن يظهر قبل مجيء المسيح ليعلن مجيئه.

كان سؤال المسيح عن رأي الناس فيه مقدمة للسؤال الأهم، عن رأي تلاميذه الذين ثبتوا بعد ارتداد الأكثرين عنه. وبعد سنوات الدرس والتمرين، أتت الساعة ليفحصهم فيعرف أفكارهم في شخصية المعلم وليس فقط في تعليمه. لذلك سألهم: «وأنتم من تقولون إنني أنا؟» - دون حصر سؤاله كالمرّة الأولى في كونه ابن الإنسان.

لا ريب أنهم كانوا قد تحدثوا في ما مضى وتجاوزوا في الأمر الذي سألهم عنه الآن، وتمسكوا طوال حياتهم بالأمال السياسية العالمية المتعلقة بمجيء المسيح، فيكون تركها تماماً من أصعب الأمور. ولكن المسيح أراد أن يمحو هذه الفكرة منهم، وأن يقطعها نهائياً. ليت الجميع يدركون ضرورة «القطع والبت»، دون تردد أو إهمال في تقرير المعتقد الديني، ومباشرة السلوك بموجبه.

وكم كان ابتهاج المسيح عظيماً لما أخذ من تلاميذه - بفم بطرس - ذلك الجواب المستوفي الصريح: «أنت المسيح ابن الله الحي». كان السؤال الأول للمسيح: ما القول فيه كابن الإنسان. فجاءه في الجواب الثاني «أنت ابن الله». فما أعظم سر التقوى الذي أشار الرسول بولس إليه وهو أن الله ظهر في الجسد (١ تيموثاوس ٣: ١٦) أي أن القولين في المسيح إنه ابن الإنسان وإنه ابن الله الحي صادقان، على رغم ما بظاهرهما من التناقص. أخذ المسيح لنفسه لقب الاتضاع، واعترف بطرس له بلقب الارتفاع. لم يبتهج المسيح لهذا الجواب، لأن الشياطين سبقت إلى مثل هذا الاعتراف مراراً، وكذلك يوحنا المعمدان ونثنائيل. وبطرس ذاته أجاب قبلاً بهذه الألفاظ. لكن المسيح ابتهج لروح بطرس وزملائه، وللإيمان الثابت بعد تمحيص الحوادث السابقة. فطوبَّ المسيح بطرس حالاً شخصياً تطويلاً لم نقرأ أنه أسبغه على غيره إذ قال: «طوبى لك يا سمعان بن يونا.»

ليس في هذا التطويب مديح لبطرس، بل تهنئة لحظّه الممتاز. وقد ظهر هذا في قول المسيح لبطرس: «إن لحماً ودماً لم يعلن لك، لكن أبي الذي في السموات «فليس شيء مما قاله أو فعله بطرس مجلبة لهذا التطويب، بل ما ناله من كلام الإله الذي أعلن له بإلهام رُوحِي تلك النبوة الفريدة. ونحن نعلم أن نور الخلاص - مثل هذا الإعلان لبطرس - لا يمكن أن يأتي من البشر، فالبشر يهينون السراج والزيت، لكن النور من عمل الإله. وقد قال الرسول بولس: «لَيْسَ أَحَدٌ يَقْدِرُ أَنْ يَقُولَ: «يَسُوعُ رَبٌّ» إِلَّا بِالرُّوحِ الْقُدُسِ» (١ كورنثوس ١٢: ٣).

أعطيك مفاتيح الملكوت

«فَأَجَابَ سِمْعَانُ بُطْرُسُ وَقَالَ: «أَنْتَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ الْحَيِّ». فَأَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُ: «طُوبَى لَكَ يَا سِمْعَانُ بْنُ يُونَا، إِنَّ لَحْماً وَدَمًا لَمْ يُعْلَنَ لَكَ، لَكِنَّ أَبِي الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ. وَأَنَا أَقُولُ لَكَ أَيْضاً: أَنْتَ بُطْرُسُ، وَعَلَى هَذِهِ الصَّخْرَةِ أَبْنِي كَنِيسَتِي، وَأَبْوَابُ الْجَحِيمِ لَنْ تَقْوَى عَلَيْهَا. وَأَعْطِيكَ مَفَاتِيحَ مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ، فَكُلُّ مَا تَرَبِّطُهُ عَلَى الْأَرْضِ يَكُونُ مَرْبُوطاً فِي السَّمَاوَاتِ. وَكُلُّ مَا تَحُلُّهُ عَلَى الْأَرْضِ يَكُونُ مَحْلُولاً فِي السَّمَاوَاتِ». حِينَئِذٍ أَوْصَى تَلَامِيذَهُ أَنْ لَا يَقُولُوا لِأَحَدٍ إِنَّهُ يَسُوعُ الْمَسِيحُ) «متى ١٦: ١٦-٢٠».

ثم كرر المسيح لبطرس ذكر الاسم الذي دعاه به بياناً لثباته (بطرس معناه: صخرة) وكأن المسيح يقول لرسوله المقدام: «أنت يا بطرس قد برهنت ثباتك الصخري في هذه الأحوال الصعبة لما كررت بيان حقيقة كوني في شخصي الواحد: المسيح البشري وابن الله الحي. وأنا أصرح لك أنني سأبني كنيسة على صخرة هذه الحقيقة الجوهرية التي نطق بها الآن، بعد أن أعلنت لك من أبي الذي في السموات. وكل مقاومات العالم، وقوات الجحيم إلى آخر الأيام لا يمكن أن تتغلب على الكنيسة المؤسسة على هذه الحقيقة. أصرح لك وللذين نُبت عنهم في الجواب، بأني قد عينتكم لتتوبوا عني وتكملوا عملي بعد صعودي إلى

السماء. أعطيتكم مفاتيح ملكوت السماوات، لتفتحوا باب الخلاص بتبشيركم في كل البلدان، وتدخلوا إلى كنيسة الذين ترونهم من أهل الخلاص، لأنهم أتموا شروط الخلاص. أخوكم سلطاناً لتصرّحوا بالهلاك الأبدي للذين يرفضون شروط الخلاص، ويتأخرون عن التوبة والإيمان والصلاح. تحلون وتربطون هذه أيضاً بواسطة كتابكم الإنجيل - يقودكم إلهام الروح الإلهي. فكل ما تضعونه في هذا الكتاب يكون مصدقاً في السماء، وكل ما تتركونه يكون متروكاً في السماء. لأن ما تكتبونه من الواجبات والمحرمات يكون ما سمعتموه مني، أو ما تأخذونه بإلهام روحي، فيصلح أن يكون قانون كنيسة إلى كل الأزمان. وسأعطيكم نصيباً خصوصياً وكافياً من روح النبوة وتمييز الأرواح، تأهيلاً لهذه المهمة الفائقة. وأجعلكم أهلاً له بسكب الروح القدس عليكم سكباً عجيبيّاً، تحقق لكم ولجميع الناس، أنكم نوابي المفوضين. وسأمنحكم ختماً لكل ذلك: قوة لفعل المعجزات العظيمة. أسلمكم هذا العمل الخطير لأنني أسندكم فيه فتستطيعونه.»

ماذا سيفعل المسيح؟

«وَابْتَدَأَ يُعَلِّمُهُمْ أَنَّ ابْنَ الْإِنْسَانِ يَنْبَغِي أَنْ يَتَأَلَّمَ كَثِيرًا، وَيُرْفُضَ مِنَ الشُّيُوخِ وَرُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ وَالْكَتَبَةِ، وَيُقْتَلَ، وَبَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ يَقُومُ. وَقَالَ الْقَوْلَ عَلَانِيَةً، فَأَخَذَهُ بُطْرُسُ إِلَيْهِ وَابْتَدَأَ يَنْتَهَرُهُ. قَالَتْ وَأَبْصَرَ تَلَامِيذَهُ، فَاَنْتَهَرَ بُطْرُسُ قَائِلًا: «أَذْهَبْ عَنِّي يَا شَيْطَانُ، لِأَنَّكَ لَا تَهْتَمُّ بِمَا لِلَّهِ لَكِنْ بِمَا لِلنَّاسِ» (مرقس ٨: ٣١-٣٣).

بعد اعتراف بطرس هذا، طلب المسيح من تلاميذه أن لا يقولوا لأحد إنه يسوع المسيح، لأن ساعته لم تأت بعد. ثم أعلن لهم لأول مرة صريحاً غاية مجيئه من السماء، فابتدأ يعلمهم أنه سيتألم كثيراً في أورشليم ويرفضه الرؤساء ويقتلونه ثم يقوم في اليوم الثالث. انتظر إلى أن يرسخ في قلوبهم اليقين بسرّ تأنسه، ويعترفون به بلسانهم صريحاً ونهائياً قبل أن يعلن لهم أمر آلامه وموته ثم قيامته. لأن فهم عمل الفداء بموته يتوقف على تأنسه - أي طبيعته المزدوجة. فإن لم يعرفوه المسيح ابن الله وابن الإنسان، لا يدركون معنى موته وقيامته. وكل من يرفض حقيقة التأنس لا يترك مكاناً للفداء. لذلك ترى الذين ينكرون لاهوت المسيح ينكرون أيضاً كفارته، لأن القضيتين مرتبطتان برباط لا يُحل .

لكن هذا الإعلان الجديد خالف كل آمال التلاميذ، فلم يقدر بطرس أن يسكت، بل تجاسر وأخذ المسيح على جانب وابتدأ ينتهره. يا للعجب! إن الذي اعترف في هذه الساعة أن هذا السيد هو ليس المسيح العظيم فقط، بل ابن الله الحي، ينتهره ويكذّبه بقوله: «حاشاك يا رب! لا يكون لك هذا». فما رآه بطرس في نفسه غير حبية نحو سيده، كان بالحقيقة انتصاراً شيطانياً فتح له بطرس الباب، لأن الأسد الزائر إبليس كامنٌ لهذا الرسول المقدم، فوثب عليه في ساعة ارتفاعه، وأوقعه إلى الأرض مهشماً. كان خيراً لكل ناجح وممدوح

ومرتفع لو تحذر من حيل الشيطان لإسقاطه. ولنا هذا التحذير في قول الرسول: «مَنْ يَظُنْ أَنَّهُ قَائِمٌ فَلْيَنْظُرْ أَنْ لَا يَسْقُطَ» (١ كورنثوس ١٢: ١٠). وقال سليمان الحكيم: «قَبْلَ الْكَسْرِ الْكِبْرِيَاءُ، وَقَبْلَ السُّقُوطِ تَشَامُخُ الرُّوحِ» (أمثال ١٨: ١٦).

لم يحتمل المسيح هذا الكلام بل انتهر الشيطان الذي تكلم في بطرس. ووبخ بطرس توبيخاً مرأً، وقال له: «اذهب عني يا شيطان، أنت معثرة لي، لأنك لا تهتم بما لله لكن بما للناس». رأى المسيح عالم الخفايا أن نوايا بطرس لم تخل من حب المجد العالمي، فاستحق هذا التوبيخ الصارم. ولأنه تلميذ حقيقي احتمله بمحبة، ولذلك وبخه. قال الحكيم: «وَبَخْ حَكِيمًا فَيُجِبْكَ» (أمثال ٨: ٩). وأيضاً: «وَبَخْ فَهِيمًا فَيَفْهَمَ مَعْرِفَةً» (أمثال ١٩: ٢٥).

شروط اتباع المسيح

«وَدَعَا الْجَمْعَ مَعَ تَلَامِيذِهِ وَقَالَ لَهُمْ: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ وَرَائِي فَلْيُنْكَرْ نَفْسَهُ وَيَحْمِلْ صَلِيبَهُ وَيَتَّبِعْنِي. فَإِنْ مَنْ أَرَادَ أَنْ يُخَلِّصَ نَفْسَهُ يُهْلِكُهَا، وَمَنْ يُهْلِكُ نَفْسَهُ مِنْ أَجْلِي وَمِنْ أَجْلِ الْإِنْجِيلِ فَهُوَ يُخَلِّصُهَا. لِأَنَّهُ مَاذَا يَنْتَفِعُ الْإِنْسَانُ لَوْ رَجَعَ الْعَالَمُ كُلُّهُ وَخَسِرَ نَفْسُهُ؟ أَوْ مَاذَا يُعْطَى الْإِنْسَانُ فِدَاءً عَنْ نَفْسِهِ؟» (مرقس ٨: ٣٤-٣٧)

ثم دعا المسيح تلاميذه مع الجمع الذي كان قد انفرد عنه، وأعلن لهم الشروط الثلاثة الشهيرة المطلوبة من تابعيه .

الشرط الأول: «إنكار الذات» أي تسليم زمام الذات والحياة له. لما أنكر بطرس المسيح قال: «لا أعرفه». ومن يتبع المسيح حقاً وينكر نفسه يقول: لا أعرف نفسي حاكماً في حياتي، بل ربي هو الحاكم. سأعطي كل السيطرة على حياتي للمسيح الذي أحبني .

الشرط الثاني: حمل الصليب يومياً. وهذا بالأكثر هو التمثل بالمسيح الذي حمل صليباً لم يضعه آخر عليه، بل هو قصده وأقامه وحمله حباً ليخلص النفوس من الخطيئة والهلاك. وحمل الصليب وراء المسيح هو الإقدام على المصائب والمتاعب الجسدية - حتى الموت - تطوعاً لا إرغاماً، متى كان ذلك اهتماماً بتخليص النفوس، فليس هذا الشرط (في معظمه) احتمال صليب يوضع علينا، بل حمل صليب نقصده ونرفعه باختيارنا لخير الآخرين .

الشرط الثالث: اتباع المسيح، أي السير في خطواته بالتدقيق، دون كلل أو فتور، ودون تردد أو ارتداد. هو الراعي الذي يتقدم خرافه فتسير وراءه أمانة وأمنة. ثم أوضح المسيح أن هذه الشروط الثلاثة مبنية على حقيقة رئيسية في شريعة النعمة، وهي أن الذي يطلب السلامة أولاً يخسرها، والذي يطلب الخدمة أولاً يجد السلامة أيضاً. والذي يتهم أولاً بأن يحمي ذاته لا يحميه الرب فلا يسلم، أما الذي يتفرغ أولاً لخدمة الرب ويرضى أن يهجم على المخاطر في سبيل هذه الخدمة، فهذا يحميه الرب فيسلم .

ثم قال السيد المسيح: «ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه، أو ماذا يعطي الإنسان فداءً عن نفسه؟» - هنا يسأل المسيح سامعيه: هل قيمة العالم بأسره تساوي قيمة نفس واحدة؟ والجواب: هذا غير ممكن، طالما العالم وكل ما فيه من الخيرات والأمجاد يزول، بينما النفس خالدة تبقى إلى الأبد. إذًا ما أعظم غباوة الذي يهمل أمور النفس في سيره وراء الأرباح العالمية. لأنه لو ربح العالم كله ثم أراد أن يشتري به الخلاص، يجد ذلك مستحيلًا .

وأخيراً أُنذر المسيح سامعيه أن لا يستحوا به ولا بكلامه. ولو استهان ذلك الجيل الفاسق الخاطيء به وبهم، فإنه سيجيء يوماً في مجد أبيه مع الملائكة ليجازي كل واحد حسب عمله، ويستحي بالذي استحي به أولاً .

المسيح على جبل التجلي

«وَبَعْدَ سِتَّةِ أَيَّامٍ أَخَذَ يَسُوعُ بُطْرُسَ وَيَعْقُوبَ وَيُوحَنَّا، وَصَعِدَ بِهِمْ إِلَى جَبَلٍ عَالٍ مُنْفَرِدِينَ وَحَذَهُمْ. وَتَغَيَّرَتْ هَيْئَتُهُ فُدَّامَهُمْ، وَصَارَتْ ثِيَابُهُ تَلْمَعُ بَيَضَاءً جِدًّا كَالْتَلْجِ، لَا يَقْدِرُ قَصَّارٌ عَلَى الْأَرْضِ أَنْ يُبَيِّضَ مِثْلَ ذَلِكَ. وَظَهَرَ لَهُمْ إِبِلِيَّا مَعَ مُوسَى، وَكَانَا يَتَكَلَّمَانِ مَعَ يَسُوعَ. فَجَعَلَ بُطْرُسُ يَقُولُ لِيَسُوعَ: «يَا سَيِّدِي، جَيِّدٌ أَنْ نَكُونَ هَهُنَا. فَلْنَصْنَعْ ثَلَاثَ مَظَالٍ، لَكَ وَاحِدَةً وَلِمُوسَى وَاحِدَةً وَلِإِبِلِيَّا وَاحِدَةً». لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ مَا يَتَكَلَّمُ بِهِ إِذْ كَانُوا مُرْتَعِبِينَ. وَكَانَتْ سَحَابَةٌ تُظِلُّهُمْ. فَجَاءَ صَوْتُ مِنَ السَّحَابَةِ قَائِلًا: «هَذَا هُوَ ابْنِي الْحَبِيبُ. لَهُ اسْمَعُوا.» فَنَظَرُوا حَوْلَهُمْ بَعْتَةً وَلَمْ يَرَوْا أَحَدًا غَيْرَ يَسُوعَ وَحْدَهُ مَعَهُمْ» (مرقس ٩: ٢-٨).

أعلن المسيح لتلاميذه أنه سيقتل وبعد ثلاثة أيام يقوم. ولكن التلاميذ رفضوا الفكرة بلسان زعيمهم بطرس.

وأراد المسيح أن يثبت لهم ضرورة صليبه. فأخذ معه بطرس ويعقوب ويوحنا، وصعد بهم إلى جبل عال. أما التلاميذ التسعة الآخرون فتركهم مع الجمهور عند أسفل الجبل.

ولا نعرف كل تفاصيل ما حدث على هذا الجبل الذي سماه بعدئذ «الجبل المقدس» (٢ بطرس ١: ١٨). لكن يرجح أن الأربعة بلغوا قمة الجبل في آخر النهار. وبينما كان المسيح منصرفاً بكليته إلى الصلاة، تثقل التلاميذ الثلاثة بالنوم. ولو علموا بخسارتهم في هذا النوم، لسهروا معه ولم يتركوه وحده في صلاته - لأنه بينما هم متقلون بالنوم، طراً على هيئته الطبيعية تغيير عجيب، فكانه خلع ستار الاتضاع الوقتي، وأبرق نور مجده الأصلي الحقيقي. أي أن الأب استجاب صلاته ومجده لينشط ويثبت تلاميذه أيضاً. مجده بهيئته التي تغيرت وبصحبة موسى وإيليا، لأنه لم يرسل له ملاكاً حسب المألوف في تاريخ شعبه - بل أرسل له رجلين ظهرا بمجد، وهما موسى زعيم الشريعة وإيليا زعيم الأنبياء.. موسى كليم الله وفخر بني إسرائيل الأعظم، المتَّصف بالحلم والوداعة. هذا دفنه الله قبل هذا الحادث بنحو ١٥٠٠ سنة في رأس جبل، ولا يُعرف قبره إلى هذا اليوم، وربما تمجد جسده دون أن يرى فساداً.. وإيليا رجل الله الجبار المليء بالنشاط والغيرة ومحاربة الشر، حتى أنه سُمِّي بالنبي الناري، الذي صعد إلى السماء قبل هذا الحادث بنحو ألف سنة في مركبة نارية، ولم يمسه الموت الطبيعي. أعاد الله هذين الرجلين من عالم الأرواح إلى الأرض ليتكلما مع الابن الوحيد في موضوع صليب المسيح.

الصليب موضوع الحديث :

كان موضوع الحديث الذي دار بين هؤلاء على مقربة من الثلاثة النائمين، إعلان موت المسيح العتيذ، الذي أزعج التلاميذ. والاسم الذي وضعه الإنجيل هنا للموت هو

«الخروج»، وهو نفس الاسم الذي أتى في التوراة لانتقال بني إسرائيل قديماً من عبودية مصر إلى أرض الميعاد، إذ قال البشير لوقا إن موسى وإيليا تكلمتا معه عن «خُرُوجِهِ الَّذِي كَانَ عَتِيداً أَنْ يُكَمِّلَهُ فِي أُورُشَلِيمَ» (لوقا ٩: ٣١). أي أن موت المسيح لا يكون قَسْراً كغيره، بل اختياراً، كعمل يقصده ويكمله .

في تلك الساعة فقط في التاريخ كله، تمثلت الكنيسة المسيحية الواحدة الجامعة التي تكلم عنها المسيح، لأن رأس الكنيسة الوحيد وقف على هذا الجبل يتكلم مع زعمي العهد القديم اللذين يمثلان قيم الكنيسة الموجودة في السماء، على مسمع الرسل الثلاثة الممتازين، زعماء العهد الجديد الذين يمثلون القسم الأرضي من هذه الكنيسة الواحدة .

ولا عجب أن افتخر بولس بموضوع هذه المحادثة وأهميته أيضاً. إذ قال: «لَمْ أَعْزَمْ أَنْ أَعْرِفَ شَيْئاً بَيْنَكُمْ إِلَّا يَسُوعَ الْمَسِيحَ وَإِبْرَاهِيمَ مَصْلُوباً» (١ كورنثوس ٢: ٢) ويردد الملائكة والقديسون في السماء في تسابيحهم ذكر هذا الموت المجيد الذي هو إكليل فخر المسيح الممتاز، والذي لأجله يحبه الآب. ولا ريب أن الذين يسكتون عن موت المسيح الفدائي أو ينكرونه، يخسرون ويُخَسِرُونَ كل من ينتمي إليهم، فقد قال هو: «إِنْ لَمْ تَقَعْ حَبَّةُ الْحِنْطَةِ فِي الْأَرْضِ وَتَمُتْ فَهِيَ تَبْقَى وَحْدَهَا. وَلَكِنْ إِنْ مَاتَتْ تَأْتِي بِثَمَرٍ كَثِيرٍ» (يوحنا ١٢: ٢٤).

دهشة التلاميذ :

ربما كان المسيح قد انتهى من حديثه مع زائريه السماويين لما أفاق تلاميذه الثلاثة من نومهم الثقيل، ورأوا فجأة أن سيدهم لم يعد جاثياً يصلي كما كان عندما غلبهم النعاس. ولما نظروه يتكلم مع شخصين لم يصعدا معهم إلى هذا الجبل العالي، وعرفوهما، كان لرؤيتهما وقع أعظم في أعينهم مما لو كانا ملاكين.. وها هم الآن يبصرون في يقظة، وليس في رؤيا، مجداً جديداً عجباً لرفيقهم وسيدهم المسيح مع موسى وإيليا مسربلين أيضاً بمجد سماوي. ومما زاد أسفهم كثيراً على ما خسروه من هذا المجد في نومهم، ملاحظتهم أن موسى وإيليا يُهَمَّان بالانصراف. ولهذا لا نتعجب أن بطرس العجول الجسور يحاول منعهما من الذهاب .

قد تعودنا أن نرى بطرس تائهاً عن الصواب في تجاسره. أما الآن فهو يتطفل ويقدم للمسيح رأياً للعمل. فاتته أن الواجب عليه أن ينتظر آراء المسيح وإرادته الكاملة، لا أن يقدم آراءه للمسيح، كأنه أوفر حكمة من سيده. فاقترح أن يشتغل مع رفيقه في نصب أكواخ مثل التي تعودوا أن ينصبوها في ضواحي أورشليم في عيد المظال. فقال: «يا رب، جيد أن نكون ههنا». وقد درج هذا القول على السنة المؤمنين في كل آن ومكان، متى حضروا في أماكن الصلاة .

أما الجواب على اقتراحه فلم يأت من المسيح بل من السماء. لأنه «فيما هو يتكلم ظللتهم سحابة نيرة، فخافوا لما دخلوا في السحابة». ثم زاد خوفهم جداً وسقطوا على وجوههم عندما سمعوا من وسط السحابة صوتاً من شخص غير منظور، قال في آذانهم: «هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت. له اسمعوا.»

عندما أعلن المسيح أنه سيصلب انتهره بطرس قائلاً: «حاشاك يا رب. ولكن الصوت الإلهي على جبل التجلي جاء يقول عن المسيح: «له اسمعوا». فكأن الله يقول للتلاميذ: «اقبلوا ما يقوله المسيح لكم! إن الصليب ضرورة حتمية»!

شهادة السماء لابن الله :

في الأسبوع الماضي وافق المسيح على شهادتهم أنه ابن الله وليس ابن الإنسان فقط. فالآن يثبت صوت من السماء تلك الشهادة. فصار برهاناً حسيّاً كاملاً على ما شهدته عيونهم وسمعته آذانهم على هذا الجبل. فهل بقي مكانٌ بعد للشك؟ لما جاهر هؤلاء فيما بعد بهذه الحقيقة أسندوا تأكدهم منها إلى هذا الحادث الفريد .

أخذ التلاميذ من الصوت السماوي درساً مهماً جداً، وهو أن الاهتمام الأعظم يجب أن ينصرف إلى نوال الرضى الإلهي لا البشري، وكل من نال الرضى الإلهي لا يبالي بغضب البشر، حتى أعظمهم، ولا بمقاومتهم حتى أمرها! في قول الصوت «له اسمعوا» أتاهم تصديق على ما فعلوه من عدم استماعهم لرؤساء الكتبة والفريسيين ورؤساء الكهنة، وعلى إصغائهم إلى المسيح بدلاً منهم. ومع وجود موسى وإيليا معهم لم يكن الأمر الإلهي «لهما اسمعوا». أفلا يرنّ في مسمع كل مؤمن هذا الصوت الإلهي القائل عن المسيح: «له اسمعوا». فيجعله يعدل عن الإصغاء إلى التعليم البشري، ما لم يكن ذلك التعليم صدى لتعليم المعلم الإلهي !

وبينما كان هؤلاء الثلاثة ساقطين على وجوههم خوفاً، ارتفعت السحابة نقلت موسى وإيليا رجوعاً إلى السماء، إذ قد أتمّ رسالتهم. فلم تؤيد السماء احتفاء التلاميذ الثلاثة بهما، بل كان الصوت الذي أمرهم أن يسمعوا للابن الحبيب بمثابة توبيخ لطيف على تمسكهم بموسى وإيليا، كأنهم يربحون بوجودهما أكثر مما هم حاصلون عليه. وكأن الصوت يقول لهم: إن مستقبلكم لا يرتبط بالذين لا يدومون معكم، مثل موسى وإيليا، بل بالذي هو رفيقكم الدائم، وإن كنتم لستم تعرفون قيمته بعد .

لكنهم لم يدروا بارتفاع السحابة وذهاب موسى وإيليا إلا بعد أن لمسهم المسيح وقال: «قوموا ولا تخافوا» فرفعوا أعينهم ونظروا حولهم بغتة، ولم يروا إلا المسيح وحده معهم. فِعِمَّ الخوف الذي تعقبه الطمأنينة من الله! ونِعَم البصر الذي يحدق بالمسيح وحده، كما

جرى لبطرس ويعقوب ويوحنا في هذه الساعة المباركة. لم يروا إلا الذي هو الكل وفي الكل، إذ ليست هناك حاجة إلى غيره، المخلص والشفيع وسيد حياتنا .

برهان الخلود :

زال كل شك بخصوص الخلود من أفكار التلاميذ بعد أن رأوا موسى وإيليا عياناً. ولما كان الصدوقيون ينكرون الخلود والأرواح، كان هذا البرهان المناقض لأضاليلهم غاية في الأهمية أمام الذين سيكونون معلمي الكنيسة المسيحية الجديدة . واستفاد التلاميذ أيضاً أنه يوجد جسد ممجد مرتبط بالجسد الأرضي الأصلي، وغير مقيد بالقيود التي كان مقيداً بها هنا في كل حركاته .

وقد تبرهن للتلاميذ أيضاً أن الذين ماتوا في الإيمان ليسوا في حالة سبات، بانتظار يوم القيامة كما يزعم البعض، بل هم أمام العرش، مستعدون لخدمة الله ومقاصده، كما أنه سيكون لجميع المؤمنين أجسادٌ مجيدة وراء القبر .

المسيح يشفي مسكوناً بروح نجس

«وَلَمَّا جَاءَ إِلَى التَّلَامِيذِ رَأَى جَمْعاً كَثِيراً حَوْلَهُمْ وَكَتَبَةً يُحَاوِرُونَهُمْ. وَلِلْوَقْتِ كُلِّ الْجَمْعِ لَمَّا رَأَوْهُ تَحَيَّرُوا، وَرَكَضُوا وَسَلَّمُوا عَلَيْهِ. فَسَأَلَ الْكَتَبَةُ: «بِمَاذَا تُحَاوِرُونَهُمْ؟» فَأَجَابَ وَاحِدٌ مِنَ الْجَمْعِ: «يَا مُعَلِّمُ، قَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكَ ابْنِي بِهِ رُوحٌ أَخْرَسٌ، وَحَيْثُمَا أَدْرَكَهُ يُمَرِّقُهُ فَيَزِيدُ وَيَصِرُ بِأَسْنَانِهِ وَيَبْيَسُ. فَقُلْتُ لِتَلَامِيذِكَ أَنْ يُخْرِجُوهُ فَلَمْ يَقْدِرُوا». فَأَجَابَ وَقَالَ لَهُمْ: «أَيُّهَا الْجِيلُ غَيْرُ الْمُؤْمِنِ، إِلَى مَتَى أَكُونُ مَعَكُمْ؟ إِلَى مَتَى أَخْتَمِلُكُمْ؟ قَدِّمُوهُ إِلَيَّ!». فَقَدَّمُوهُ إِلَيْهِ. فَلَمَّا رَأَهُ لِلْوَقْتِ صَرَخَ الرُّوحُ، فَوَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ يَتَمَرَّغُ وَيُزِيدُ. فَسَأَلَ أَبَاهُ: «كَمْ مِنَ الزَّمَانِ مُنْذُ أَصَابَهُ هَذَا؟» فَقَالَ: «مُنْذُ صِبَاهُ. وَكَثِيراً مَا أَلْقَاهُ فِي النَّارِ وَفِي الْمَاءِ لِيُهْلِكَهُ. لَكِنْ إِنْ كُنْتُ تَسْتَطِيعُ شَيْئاً فَتَحْنَنْ عَلَيْنَا وَأَعِنَّا». فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: «إِنْ كُنْتُ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُؤْمِنَ، فَكُلُّ شَيْءٍ مُسْتَطَاعٌ لِلْمُؤْمِنِ». فَلِلْوَقْتِ صَرَخَ أَبُو الْوَلَدِ بِدُمُوعٍ وَقَالَ: «أَوْ مِنْ يَا سَيِّدِي، فَأَعِنْ عَدَمَ إِيمَانِي». فَلَمَّا رَأَى يَسُوعُ أَنَّ الْجَمْعَ يَتَرَاكضُونَ، انْتَهَرَ الرُّوحَ النَّجِسَ قَائِلاً لَهُ: «أَيُّهَا الرُّوحُ الْأَخْرَسُ الْأَصَمُّ، أَنَا أَمْرُكَ: اخْرُجْ مِنْهُ وَلَا تَدْخُلْهُ أَيْضاً». فَصَرَخَ وَصَرَخَ شَدِيداً وَخَرَجَ، فَصَارَ كَمَيْتٍ، حَتَّى قَالَ كَثِيرُونَ: إِنَّهُ مَاتَ. فَأَمْسَكَهُ يَسُوعُ بِيَدِهِ وَأَقَامَهُ، فَقَامَ. وَلَمَّا دَخَلَ بَيْتاً سَأَلَهُ تَلَامِيذُهُ عَلَى انْفِرَادٍ: «لِمَاذَا لَمْ نَقْدِرْ نَحْنُ أَنْ نُخْرِجَهُ؟» فَقَالَ لَهُمْ: «هَذَا الْجِنْسُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُخْرَجَ بِشَيْءٍ إِلَّا بِالصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ» (مرقس ٩: ١٤-٢٩).

صعد المسيح من وادي الاتضاع العميق لبرية التجربة إلى جبل التجلي العالي جداً، لينزل منه إلى وادي ذل أعمق من الأول في نهاية خدمته، عند آلامه وموته على الصليب. وكما كان المجد على رأس هذا الجبل كان الهوان عند سفحه، لأنه بينما كان بطرس ويعقوب ويوحنا في نعيم، كان رفقاؤهم التسعة في جحيم. لم ينل هؤلاء شيئاً مما حظي به الثلاثة تثبيتاً لإيمانهم بالمسيح، بعد الإنباء بموته. فيظهر أن إيمانهم تزعزع لأن المسيح كان قد أعطاهم جميعاً قوة ليعملوا المعجزات قبل هذا الوقت. والآن نراهم يحاولون في غياب سيدهم أن يخرجوا روحاً نجساً أخرس وأصم يسكن شاباً يقدمه إليهم والده، لكنهم فشلوا لضعف إيمانهم. وأكسبتهم خيبتهم استهزاء خصومهم بين الجمهور، فباتوا في خجل عظيم. وزاد عذابهم لما حاورهم هؤلاء العلماء وطرحوا عليهم أسئلة يعجز عن حلها البسطاء نظيرهم. وشعر الناس باقتراب المسيح ورفقائه نازلين من على الجبل ومعهم جمهور كان قد استقبلهم قبل وصولهم إلى التلاميذ التسعة. ومع علم المسيح بما جرى، طلب من الكتبة أن يخبروه بموضوع محاورتهم مع تلاميذه. لكن أبا الولد المصاب لم يعطهم الفرصة للجواب، إذ تقدم وجثا للمسيح وصرخ طالباً منه أن يفعل له ما عجز التلاميذ عن فعله. وقال للمسيح إن ولده وحيد وإن روحاً شريراً يسكنه، وحيثما أدركه يمزقه ويصرعه فيزبد ويصر بأسنانه ويبيس ويتألم، وبالجهد يفارقه مرضضاً إياه، وكثيراً ما ألقاه في النار وفي الماء ليهلكه.

إن سلمنا بالعلاقة الكبيرة بين الأمراض الجسدية والروحية في كثير من الأحوال، يسهل علينا أن نفهم أن مرض هذا الشاب من خرس وصمم ناتج عن سلطة شيطانية، لذلك نرى المسيح يعتني ليس بإزالة الأعراض، بل بإزالة الأسباب أولاً. واستخدم أب الولد فشل التلاميذ التسعة حجة ثانية لاستنجاده بالمسيح، فكان جواب المسيح توبيخاً عاماً للحاضرين، يشمل الكتبة الذين حاوروا تلاميذه، ويشمل الذين فشلوا في ما باشره، ويشمل الأب الذي قصر في إيمانه. قال المسيح: «أيها الجيل غير المؤمن والملتوي، إلى متى أكون معكم؟ إلى متى أحتلمكم؟». فآثر هذا الكلام في الأب ليتواضع، استعداداً لتوليد الإيمان في قلبه. لكن المسيح لم يتركه في ذله، بل شجعه بقوله: «قدم ابنك إلى هنا». أليس هذا صوت المسيح على الدوام لكل الآباء: «قدم ولدك إلى هنا؟» وهذا التقدير هو ما يفعله الوالدون عندما يأتون بأولادهم القاصرين إلى العماد المسيحي. وهذا ما يفعله بالصلاة والإيمان كل مسيحي لخلاص ذوي الذين لا يزالون في قيود إبليس.

عمل المسيح على تنشيط إيمان الأب، وإظهار محبته له بسؤال بسيط عن مدة استيلاء هذه المصيبة على ابنه. فدلّ جواب الأب على أنه لم يكن يعرف المسيح من قبل، ولا بد أنه فهم من التسعة أن المسيح أعطاهم سلطاناً كافياً لإخراج الأرواح. فلما وجدهم عاجزين عن شفاء ابنه ظنّ أن المسيح سيعجز أيضاً. لكن المسيح قال له: «كل شيء مستطاع للمؤمن». فكأنه يقول للرجل: «ليس الخلل في استطاعتي أن أشفي ابنك، بل في استطاعتك أن تؤمن». ففعل دواء هذا الطبيب فعله الشافي في هذه النفس العليلة، إذ صرخ أب الولد بدموع قائلاً: «أؤمن يا سيد، فأعن عدم إيماني». فأصاب في طلبه تقوية إيمانه.

صرّخ هذا الرجل اليائس شعار مؤثر وصلاة جميلة لكل من يشعر بأهمية الإيمان وبتقصيره فيه، لأن الإيمان القلبي مفتاح الخيرات الإلهية. ليس للمفتاح فضل، لكنه الوسيلة الوحيدة والكافية للحصول على كل ما في مخازن الله من بركات. وصارت دموع هذا الرجل مثلاً للتغيير الروحي في القلب الذي كان يرافق معجزات المسيح الشفائية. وصحّ فيه قول المرنم: «الَّذِينَ يَزْرَعُونَ بِالْذُّمُوعِ يَخْصُصُونَ بِالْإِبْتِهَاجِ» (مزمور ١٢٦: ٥). فانتهر المسيح الروح النجس بسلطان أمر مطاع قائلاً: «أيها الروح الأخرس الأصم، أنا أمرك، اخرج منه ولا تدخله أيضاً.»

فعند ذلك بذل الشيطان منتهى قدرته قبل خروجه لكي يعذب الولد ويهلكه إن أمكن، لكنه وجد هناك من هو أقوى منه، الذي قيّده لأنه أتى لينقض أعماله، وكما تتقدم أظلم ساعات الليل فجر النهار، كان أمر هذا الولد، لأن الشيطان صرخ وصرعه شديداً قبل خروجه، حتى قال كثيرون إنه مات. أما المسيح فمدّ تلك اليد المحسنة والموصلة بينه وبين اليائسين، والحلقة التي تربط المعطي بالمستعطي، ونشل هذا الولد من باب الهاوية، وأقامه سالماً صحيحاً، وسلمه إلى أبيه. إن الخاطئ المتسلط عليه إبليس لا يسمع الأصوات الإلهية ولا

ينطق بمجد الله، لكن الذين يحررهم المسيح من هذه السلطة يحررهم أيضاً من الخرس والصمم الروحيين، فيسمعون تعليمه ويتكلمون بأمجاده .

عرف الجميع أن المسيح عمل هذا باسم أبيه ولمجده، لذلك بُهتوا من عظمة الله. في هذا الكلام دليل على أن أغلب الجمهور في هذه البلاد الأممية كانوا وثنيين، ورأوا للمرة الأولى برهاناً ملموساً على الفرق بين الهتهم الباطلة، وإله إسرائيل الحي القادر على كل شيء .

بعد ذلك دخل المسيح وتلاميذه بيتاً منفردين فسأله التسعة عن سبب فشلهم، لأنهم لم يتعلموا بعد أن سبب كل فشل لا يكون إلا داخلياً، لأن الفشل الناتج عن أسباب خارجية ليس فشلاً حقيقياً. ولم ينتبهوا لينظروا في قلوبهم ليجدوا علة هزيمتهم. ويُحتمل أن حب الذات منعهم عن السرور بنجاح المسيح في ما عجزوا عنه. ولما كان عدم إيمانهم سبب فشلهم قال المسيح لهم: « هذا الجنس لا يخرج إلا بالصلاة والصوم . »

في خاتمة كلامه أعلن المسيح قيمة الإيمان، بقوله: « لو كان لكم إيمان مثل حبة الخردل لكنتم تقولون للجبل انتقل من هنا إلى هناك، فينتقل . » لا يخلو هذا القول من صعوبة في تفسيره، لكن لا يظن أحد أن المسيح قصد به المعنى الحرفي، إنما الأقرب إلى الصواب أنه قصد المعنى الروحي المعنوي، فكم من جبال صعوبات انتقلت وزالت من أمام المؤمنين .

المسيح يدفع الضرائب

« وَلَمَّا جَاءُوا إِلَى كَفَرْنَاهُومَ تَقَدَّمَ الَّذِينَ يَأْخُذُونَ الدَّرْهَمَيْنِ إِلَى بُطْرُسَ وَقَالُوا: «أَمَا يُوفِي مُعَلِّمُكُمُ الدَّرْهَمَيْنِ؟» قَالَ: «بَلَى». فَلَمَّا دَخَلَ الْبَيْتَ سَبَقَهُ يَسُوعُ قَائِلاً: «مَاذَا تَظُنُّ يَا سَمْعَانُ؟ مِمَّنْ يَأْخُذُ مُلُوكُ الْأَرْضِ الْجَبَايَةَ أَوْ الْجَزِيَّةَ، أَمْ مِنْ بَنِيهِمْ أَمْ مِنْ الْأَجَانِبِ؟» قَالَ لَهُ بُطْرُسُ: «مِنْ الْأَجَانِبِ». قَالَ لَهُ يَسُوعُ: «فَإِذَا الْبُنُونَ أَحْرَارٌ. وَلَكِنْ لِنَلَّا نُعْثِرَهُمْ، اذْهَبْ إِلَى الْبَحْرِ وَأَلْقِ صِنَارَةً، وَالسَّمَكَةُ الَّتِي تَطْلُعُ أَوَّلًا خُذْهَا، وَمَتَى فَتَحْتَ فَاهَا تَجِدُ اسْتِئْزَاراً، فَخُذْهُ وَأَعْطِهِمْ عَنِّي وَعَنْكَ» (متى ٢٤: ١٧-٢٧).

رجع المسيح إلى وطنه كفر ناحوم بعد غياب طويل، وكان جبابة مال الهيكل ينتظرون رجوعه ليأخذوا منه الدرهمين المفروضين على كل يهودي فوق سن العشرين. ويجوز أن هذا الطلب تقدم الآن لأول مرة بتحريك من الرؤساء، ليحرقوا المسيح بحرمانه من حقوق الإعفاء الممنوحة للأنبياء ورؤساء الدين، أو لاتخاذ حجة لضرره إن رفض الدفع. ويجوز أنه كان يدفع سنوياً هذه الكمية الزهيدة. فالتقى الجبابة ببطرس خارجاً، وسأله: «أما يوفي معلمك الدرهمين، حسب عاداته؟»

كان على بطرس أن يسأل المسيح قبل أن يجابهم، لكنه تطفل وقال لهم: «نعم». فلما عاد إلى البيت بيّن المسيح له خطأه. وسأله: «ممن يأخذ ملوك الأرض الجباية أو الجزية؟ هل

تؤخذ من بني الملك؟ أو من رعاياه الذين هم أجانِب بالنسبة إلى أولاده». فأجاب بطرس: «من الأجانِب» فقال المسيح: «إذاً البنون أحرار. قد اعترفت أنني ابن الله. فكيف يطلبون منِّي جزية لبيت أبي؟.»

اكتفى المسيح بأن صرّح بحقوقه ولم يتشَبَّث بها، فلو أصرَّ على عدم الدفع يُعَثِّر الآخرين، لأن الرؤساء والجمهور لا يعترفون به كالمسيح. فيكون رفضه دفع الجزية في نظرهم تمرّداً وتحقيراً للهيكَل والدين. ولم تكن هذه الجزية من تقاليد الشيوخ، ليكون في رفضها فائدة تعليمية، بل هي من نظام موسى الأصلي، وهو لا يقصد إلغاء الفرائض الخارجية التي هي بوصايا إلهية، إلا بعد إتمامها وإكمال عمله الفدائي. فامتثل للنظام، وأعطى بذلك مثلاً لتابعيه أن لا يتشَبَّثوا بحقوقهم متى خشوا من ذلك حدوث ضرر أو خصام أو شكوك. فالسير على هذه القاعدة يزيل القسم الأعظم من المشاكل والخصومات بين الناس .

قد يكون الصندوق الذي كان في عهدة الإسخريوطي فارغاً في هذا الوقت، أو أن المسيح أراد أن يقرن خضوعه للنظام بمعجزة تقوي إيمان بطرس، وتعلن أن هذا الخضوع لم يكن قسراً. فمع خضوعه للظلم في ما يتعلق ببيت أبيه المتواضع، المسمى بالهيكَل، يستعمل سلطانه الشرعي في بيت أبيه الأوسع الذي هو الخليقة. لذلك أمر بطرس أن يُحضر المطلوب بواسطة مهنته - ليس بصيد رسمي بالشباك والسفينة، بل بالصنارة، لأجل السرعة. وأخبره أنه عندما يفتح فم أول سمكة يصطادها، يجد إستراراً يساوي أربعة دراهم تكفي لدفع الضريبة المفروضة عليه وعلى سيده. وقال: «أعطهم عني وعنك» لا «عنا» لأن بطرس مكلف بالدفع قانونياً، ولكن المسيح غير مكلف، فيكون دفعه كرماءً منه وتطوعاً.

المسيح يعلم عن العظمة الحقيقية

«فِي تِلْكَ السَّاعَةِ تَقْدَمُ التَّلَامِيذُ إِلَى يَسُوعَ قَائِلِينَ: «فَمَنْ هُوَ أَعْظَمُ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ؟» فَدَعَا يَسُوعُ إِلَيْهِ وَلَدًا وَأَقَامَهُ فِي وَسْطِهِمْ وَقَالَ: «الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنْ لَمْ تَرْجِعُوا وَتَصِيرُوا مِثْلَ الْأَوْلَادِ فَلَنْ تَدْخُلُوا مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ. فَمَنْ وَضَعَ نَفْسَهُ مِثْلَ هَذَا الْوَلَدِ فَهُوَ الْأَعْظَمُ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ. وَمَنْ قِيلَ وَلَدًا وَاحِدًا مِثْلَ هَذَا بِاسْمِي فَقَدْ قَبِلَنِي» (متى ١٨: ٥-١٨).

تحدث بعض التلاميذ عند رجوعهم من جبل التجلي، على غير مسمع من المسيح، في من هو الأعظم بينهم. ومن الطبيعي أن التلاميذ الذين لم يدعوا لأنفسهم الأولوية، كانوا ينتصرون للذين يريدون لأنفسهم الكرامة الممتازة، فأوصلهم الحسد إلى الاحتجاج الذي ربما بنوه على بعض الامتيازات الشخصية في معاملات المسيح وكلامه. فما أشد هذه الضربة على قلب المسيح الرقيق المحب بوقوع هذه المشاحنة الصبيانية، بين الذين قد اصطفاهم من بين كل البشر رسلاً له، ويا له من هبوط عظيم في الآمال التي تعلقت عليهم !

وفاتح المسيح بعض تلاميذه في ما عسى أن يكون موضوع جدالهم الحماسي الذي لن يسمعه، فسكتوا. كان يجب عليهم أن يعترفوا ويصلحوا زلتهم، فقد قال إمام الحكماء سليمان: «مَنْ يَكُنْ حَطَايَاهُ لَا يَنْجَحُ، وَمَنْ يُقِرُّ بِهَا وَيَتْرُكُهَا يُرَحِّمُ» (أمثال ١٣: ٢٨). وقال نبي الله داود: «لَمَّا سَكَتُ بَلَيْتَ عِظَامِي مِنْ زَفِيرِي الْيَوْمَ كُلَّهُ.. قُلْتُ: «أَعْتَرَفُ لِلرَّبِّ بِذُنُوبِي» وَأَنْتَ رَفَعْتَ أُنَامَ حَطِيئَتِي» (مزمور ٣٢: ٥) لكن بعد سكوتهم تقدموا وطلبوا إليه أن يفيدهم عن أساس العظمة في ملكوت السماوات ومن هو الأعظم فيه، فجمع الاثنى عشر جميعاً، ثم دعا ولداً إليه وأوقفه في الوسط ليراه الجميع، وكأنه يقول إن العظمة في ملكوته لا تكون إلا للذي لا يطلبها، وأن لا أحد يدخل هذا الملكوت إلا من يرجع إليه ويصير مثل ولد .

من أوصاف الولد بساطة التواضع بدلاً من ادعاء العظمة، وعدم المبالاة برفعة المقام، وسهولة الانقياد والطاعة دون تردد أو اعتراض، وسرعة المسامحة على الأذية بدلاً من التشبث بالانتقام والحد طويلاً، والتطلع للأمام برجاه والنظر إلى المستقبل بسرور بدلاً من القنوط واليأس، والاكتفاء بالخير القليل بدلاً من الطمع، وتصديق ما يسمعه بدلاً من الشكوك والظنون السيئة .

لذلك قال المسيح: «الأصغر فيكم جميعاً هو يكون عظيماً». وقد مرّت تسعة عشر قرناً على البشر ولا يزال هذا التعليم مجهولاً من الكثيرين، ولم يفهم في التواضع إلا عدد قليل.. حتى تلاميذ المسيح أنفسهم لم يستفيدوا في ذلك الوقت إلا قليلاً من هذا التعليم، لأنهم جددوا هذه المجادلة فيما بعد. وفي هذا الوقت طلبوا أن يعرفوا من منهم يكون الأعظم في ملكوت السماوات. لذلك كانوا في خطر، ليس أن يفقدوا الامتياز فقط، بل أن يفقدوا الدخول إلى ذلك

الملكوت. وما دام الذي يطلب العظمة لنفسه ولا يرجع ويصير مثل الأولاد لن يدخل ملكوت السماوات، فإن عليهم أن يتركوا السؤال عن العظمة، ويهتموا بالسؤال عن دخول الملكوت.

ثم علمهم المسيح شيئاً عن كرامة اسمه، حتى أن كل ما يصنعه أحد باسمه يُحسب إكراماً له. ومن يكرم صغيراً باسمه يكون قد أكرمه. ومن يكرمه يكون قد أكرم الأب الذي أرسله. فما أجمل هذه الرابطة التي تربط الأب بالابن، ثم الابن بأصغر المؤمنين باسمه.

«وَقَالَ يُوْحَنَّا: «يَا مُعَلِّمُ، رَأَيْنَا وَاحِدًا يُخْرِجُ شَيَاطِينَ بِاسْمِكَ وَهُوَ لَيْسَ يَتَّبَعُنَا، فَمَنْعَاهُ لِأَنَّهُ لَيْسَ يَتَّبَعُنَا». فَقَالَ يَسُوعُ: «لَا تَمْنَعُوهُ، لِأَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ يَصْنَعُ قُوَّةً بِاسْمِي وَيَسْتَطِيعُ سَرِيعاً أَنْ يَقُولَ عَلَيَّ شَرًّا. لِأَنَّ مَنْ لَيْسَ عَلَيْنَا فَهُوَ مَعَنَا. لِأَنَّ مَنْ سَقَاكُمْ كَأْسَ مَاءٍ بِاسْمِي لِأَنَّكُمْ لِلْمَسِيحِ فَالْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ إِنَّهُ لَا يُضِيعُ أَجْرَهُ» (مرقس ٩: ٣٨-٤١).

على أثر هذا الكلام، أخبره يوحنا عما جرى معه ومع بعض رفقائه، لما التقوا بإنسان يخرج شياطين باسم المسيح، وهو ليس من تابعيه ظاهراً، ظناً منهم أن لا حق لغيرهم في هذا الامتياز الذي منحه المسيح لهم. لكن طالما لا يقدر إلا المسيح أن يعطي هذا السلطان، فلا مانع من أن يكون قد أخذه من المسيح على غير علمهم. وأن المسيح أجاز له أن يعمل باسمه دون أن يرافقه، ودون أن يعرف التلاميذ به. وقد خطأ المسيح يوحنا، وأظهر أن من ليس عليه فهو معه. أي أن لا حياد بالنسبة لملكوت البر. فلا يصح أن يقال مطلقاً في الدين: «لا معنا ولا علينا». والواجب على يوحنا أن يعرف أن كل إنسان صالح يسمي اسم المسيح سنداً لعمله، يسنده المسيح، لأن عمله يكون عزيزاً لدى المسيح. وحامل هذا الاسم باستحقاق يكون تحت حماية المسيح، وكل من يؤذيه يجازيه الملك، ويكافئ كل من يقدم خدمة باسمه.

تحذير من العثرات

«وَمَنْ أَعْتَرَى أَحَدَ هَؤُلَاءِ الصِّغَارِ الْمُؤْمِنِينَ بِئِ فَخَيْرٍ لَهُ أَنْ يُعْلَقَ فِي عُنُقِهِ حَجَرُ الرَّحَى وَيُغْرَقَ فِي لُجَّةِ الْبَحْرِ. وَيَلْ لِلْعَالَمِ مِنَ الْعَثَرَاتِ. فَلَا بُدَّ أَنْ تَأْتِيَ الْعَثَرَاتُ، وَلَكِنْ وَيْلٌ لِدَلِكِ الْإِنْسَانِ الَّذِي بِهِ تَأْتِي الْعَثْرَةُ. فَإِنْ أَعْتَرَتْكَ يَدُكَ أَوْ رِجْلُكَ فَاقْطَعْهَا وَأَلْقِهَا عَنْكَ. خَيْرٌ لَكَ أَنْ تَدْخُلَ الْحَيَاةَ أَعْرَجاً أَوْ أَقْطَعَ مِنْ أَنْ تُلْقَى فِي النَّارِ الْأَبَدِيَّةِ وَلَكَ يَدَانِ أَوْ رِجْلَانِ. وَإِنْ أَعْتَرَتْكَ عَيْنُكَ فَاقْلَعْهَا وَأَلْقِهَا عَنْكَ. خَيْرٌ لَكَ أَنْ تَدْخُلَ الْحَيَاةَ أَعُورَ مِنْ أَنْ تُلْقَى فِي جَهَنَّمَ النَّارِ وَلَكَ عَيْنَانِ) «متى ١٨: ٩-٦».

ثم تطرق المسيح إلى موضوع آخر مهم جداً، وهو العثرات. وكان قد تكلم عنه في وعظه على الجبل، وكرره الآن كتعليم خاص للتلاميذ وحدهم. لقد أعطاهم نفسه قدوة لما جنبهم

العثرة ودفع الجزية، ووبّخهم على غلطهم لما أعتروا التلميذ المجهول الذي كان يُخرج شياطين باسمه. ثم قال المسيح إن غرق الإنسان مثقلاً بحجر الرحى في لجة البحر، أفضل له من أن «يعثر أحد هؤلاء الصغار». ولا بد من أنه قصد بالإعثار أولاً أن يقود الإنسان غيره إلى الخطيئة، وقصد أيضاً الإهانة والتكدير في غير محله. فمن يفعل ذلك لأحد تلاميذه الحقيقيين ينال جزاءً مخيفاً، يجعله يتمنى أن يبدل العقاب - لو أمكن - بالغرق في قعر البحر .

ولكي لا يولد كلام المسيح آمالاً فارغة في تلاميذه، فيظنون أنهم يستطيعون إزالة العثرات من العالم تماماً، قال: «لا بد أن تأتي العثرات». فهل هناك عذر لمن يُعثر غيره لأن العثرات لا بد أن تأتي؟ أسرع المسيح وتلافى هذا الوهم فقال: «لكن ويل لذلك الإنسان الذي به تأتي العثرة.»

ثم نصح المسيح أن من تعثره يده فليقطعها، ومن تعثره عينه فيقلعها. وهذا بالطبع كلام مجازي، لأن قطع اليد أو قطع العين الحرفي لا يزيل الإثم الذي مركزه القلب، ففقط أعضاء الجسد لا يصلحها. يمكن أن يرتكب الإنسان جميع الخطايا في فكره وقلبه ولو قلع ليس العين اليمنى فقط، بل واليسرى أيضاً، وقطع يده اليمنى واليسرى أيضاً. فالإله الروح، الذي له وحده الحكم في أمر الخطيئة والهلاك، ينظر إلى ما في القلب وليس إلى ما في الأعضاء. والمقصود من هذا الكلام هو أن كل من يجزئ الإنسان إلى الخطيئة يجب إبعاده ولو كان عزيزاً عند الإنسان، كعينه اليمنى أو يده اليمنى .

قصد الخالق أن تكون أعضاء الجسد بركة وآلة للخير في نفع الناس، لذلك يسمي الرسول بولس الأجساد هياكل للروح القدس (١ كورنثوس ٦: ١٩) فالذي يشوهها يهين الهيكل وصانعه. إنه لا يطلب قلعة لأعضاء الجسد، بل يطلب صيانتها وتكريسها لخدمته. وهذه الخدمة تتعذر على من يتلف هذه الأعضاء .

ثم قال المسيح إن كل من يعثر غيره يتعرّض لجهنم النار، حيث دودهم لا يموت والنار لا تُطفأ. وليس في هذا الكلام رائحة تهديد، بل هو تحذير وإنذار مقدّم ممن أتى من السماء ليخلصنا من هذه الأبدية المرعبة. ولا يمكن أن محباً نظيره يبالغ في وصف المخاوف التي يخشى من أن تصيب الذين يحبهم .

تحذير من تعثر الصغار

«لَا تَحْتَقِرُوا أَحَدَ هَؤُلَاءِ الصِّغَارِ، لِأَنِّي أَقُولُ لَكُمْ إِنَّ مَلَائِكَتَهُمْ فِي السَّمَاوَاتِ كُلِّ حِينٍ يَنْظُرُونَ وَجْهَ أَبِي الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ. لِأَنَّ ابْنَ الْإِنْسَانِ قَدْ جَاءَ لِكَيْ يُخَلِّصَ مَا قَدْ هَلَكَ. مَاذَا تَنْظُرُونَ؟ إِنْ كَانَ لِلْإِنْسَانِ مِثْلُ حَرُوفٍ، وَضَلَّ وَاحِدٌ مِنْهَا، أَفَلَا يَتْرُكُ التِّسْعَةَ وَالتِّسْعِينَ عَلَى

الْجِبَالِ وَيَذْهَبُ يَطْلُبُ الضَّالَّ؟ وَإِنْ اتَّفَقَ أَنْ يَجِدَهُ، فَالْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ إِنَّهُ يَفْرَحُ بِهِ أَكْثَرَ مِنْ
التِّسْعَةِ وَالتِّسْعِينَ الَّتِي لَمْ تَضِلَّ. هَكَذَا لَيْسَتْ مَشِيئَةُ أَمَامَ أَبِيكُمْ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ أَنْ يَهْلِكَ
أَحَدُ هَؤُلَاءِ الصِّغَارِ» (متى 18:10-14)

ثم حذر المسيح تلاميذه من احتقار الصغار، لأن الله يعتني بهم، حتى أنه يقدم لهم خدمة ملائكية خصوصية. قال إن ملائكتهم ينظرون كل حين وجه الأب السماوي. فأَيُّ حقٍ للناس أن يحتقروهم؟ ليس المقصود بهذا القول صغار السن وحدهم، بل يشمل أيضاً صغار النفوس، وعلى الأخص المؤمنين الواقعيين تحت نيران الاضطهاد، أو الغرقى في بحر الاحتقار. ثم أوضح المسيح أن خلاصه يعُمُّ جميع الأطفال، عندما قال: «ليست مشيئة أَمَامَ أَبِيكُمْ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ أَنْ يَهْلِكَ أَحَدُ هَؤُلَاءِ الصِّغَارِ.»

وأردف بهذا القول كلاماً جميلاً من غاية مجيئه من السماء، بيّن فيه تمسّكه بلقب ابن الإنسان. وهو «لأن ابن الإنسان قد جاء لكي يطلب ويخلص ما قد هلك.» ومثّل عمله بتفتيش إنسان عن خروف أضاعه، فترك على الجبال التسعة والتسعين التي لم تضل لكي يفتش عن الضال. ومتى وجده يفرح به أكثر من التسعة والتسعين. حقاً إن اهتمام الله وفرحه بخاطئ واحد يتوب أكثر من تسعة وتسعين باراً لا يحتاجون إلى توبة، يفوق إدراك البشر، وأن أفكاره ليست كأفكارهم.

إِنْ أَخْطَأَ إِلَيْكَ أَخُوكَ

«وَإِنْ أَخْطَأَ إِلَيْكَ أَخُوكَ فَادْهَبْ وَعَاتِبْهُ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ وَحْدَكُمَا. إِنْ سَمِعَ مِنْكَ فَقَدْ رَبِحْتَ أَخَاكَ. وَإِنْ لَمْ يَسْمَعْ، فَخُذْ مَعَكَ أَيْضاً وَاحِداً أَوْ اثْنَيْنِ، لِكَيْ تَقُومَ كُلُّ كَلِمَةٍ عَلَى فَمِ شَاهِدَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ. وَإِنْ لَمْ يَسْمَعْ مِنْهُمْ فَقُلْ لِلْكَنِيسَةِ. وَإِنْ لَمْ يَسْمَعْ مِنَ الْكَنِيسَةِ فَلْيَكُنْ عِنْدَكَ كَالْوَتَنِيِّ وَالْعَشَّارِ. أَلْحَقْ أَقُولُ لَكُمْ: كُلُّ مَا تَرَبِّطُونَهُ عَلَى الْأَرْضِ يَكُونُ مَرْبُوطاً فِي السَّمَاءِ، وَكُلُّ مَا تَحْلُونَهُ عَلَى الْأَرْضِ يَكُونُ مَحْلُولاً فِي السَّمَاءِ. وَأَقُولُ لَكُمْ أَيْضاً: إِنْ اتَّفَقَ اثْنَانِ مِنْكُمْ عَلَى الْأَرْضِ فِي أَيِّ شَيْءٍ يَطْلُبَانِهِ فَإِنَّهُ يَكُونُ لَهُمَا مِنْ قِبَلِ أَبِي الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ، لِأَنَّهُ حِينَئِذٍ اجْتَمَعَ اثْنَانِ أَوْ ثَلَاثَةٌ بِاسْمِي فَهَنَّاكَ أَكُونُ فِي وَسْطِهِمْ» (متى ١٨: ١٥-٢٠).

ثم تكلم المسيح عن عثرة أخرى لا بد من وقوعها بين أهل الإيمان ضمن الكنيسة. فكيف يتصرف المؤمن متى تعدى عليه أخ؟ أولاً: لا يجب أن يدخل معه في منازعة، بل عليه أن يحفظ نفسه من الغيظ. ثم عليه أن يراعي المحبة الأخوية، فلا يُفشي الأمر خشية تضخمه فيصعب إصلاحه. وعليه أن يعاتب المعتدي حبياً وعلى أفراد، أملاً برجوعه عن خطئه في الحال، ويمنعه من تكرار زلته. لأنه يُرَجَّح أن المعتدي متى رأى عدوه في روح الحب والمسالمة، يخجل ويندم ويتوقف عن تكرار الاعتداء ويُصلح ما فعل. ولهذا السبب قال المسيح: «إِنْ سَمِعَ مِنْكَ فَقَدْ رَبِحْتَ أَخَاكَ.»

أما إن قسى المعتدي قلبه فالواسطة الثانية لتخجيله وإقناعه هي الاستعانة بلجنة صغيرة تسعى في إصلاح ذات البين، وتكون شاهداً على المعتدي إن لم يمثل للحق، وللمعتدى عليه ببرائته من الذنب. لكن إن أصرَّ على رفض هذه الوسائط الحبية، تُرفع القضية إلى المجلس الرسمي، أي الكنيسة، لتتظر في الأمر، وتسعى في إصلاح المذنب. وهذا الاستئناف مفيد، لأن من شأنه أن يجعل المعتدي يخضع للجنة، لئلا يزيد تخجيله وتُخفَّض كرامته بسبب تقديم الشكوى عليه للكنيسة. فإن لم يخضع لحكم الكنيسة يحق للشاكي إن يجتنبه ولا يعتبره كأخ، لأنه قد برهن أن ليس فيه الشروط الجوهرية للأخوية المسيحية .

«حِينَئِذٍ تَقْدَمُ إِلَيْهِ بُطْرُسُ وَقَالَ: «يَا رَبُّ، كَمْ مَرَّةً يُخْطِئُ إِلَيَّ أَخِي وَأَنَا أَغْفِرُ لَهُ؟ هَلْ إِلَى سَبْعِ مَرَّاتٍ؟» قَالَ لَهُ يَسُوعُ: «لَا أَقُولُ لَكَ إِلَى سَبْعِ مَرَّاتٍ، بَلْ إِلَى سَبْعِينَ مَرَّةً سَبْعَ مَرَّاتٍ» (متى ٢١: ١٨-٢٢).

كانت الشريعة اليهودية تقضي بأن يغفر الإنسان لمن يسيء إليه، ثلاث مرات. وإن تكررت الإساءة لا يُكَلَّف بتكرار المغفرة. وشعر بطرس أن شريعة المسيح الجديدة أوسع من القديمة، فسأل المسيح: «يا رب، كم مرة يخطئ إليَّ أخي وأنا أغفر له؟ هل إلى سبع مرات؟» ظن أن سبع مرات هي أكثر ما يُطلب منه، فيكون قد تكرم بقوله «إلى سبع مرات». فكم كان خجله لما أجابه المسيح: «لا أقول لك إلى سبع مرات، بل إلى سبعين مرة سبع مرات». يعني إلى ما لا نهاية له .

ما أصعب هذا الأمر على الإنسان، فإن الطبيعة البشرية لا تحتمله دون نعمة إلهية. لكن الروح الذي يقود إلى مسامحة مسيحية قلبية في المرة الأولى، يقود أيضاً في الثانية، وإلى ما لا نهاية له. ولا سيما إنه إذا غفر مرة يتقوى في هذه الروح، فيسهل تكرار الغفران أكثر من المرة الأولى. والذي ليس له في قلبه أن يسامح في المرة المئة يبرهن أن مسامحته الأولى لم تكن من روح مسيحي حقيقي. فكل من يشعر بفضل الإله الغفور، لا يمكنه أن يحاسب إخوته، مهما عظمت تعدياتهم عليه .

مَثَلُ الْمَلِكِ الَّذِي سَامَحَ

«لِذَلِكَ يُشْبِهُ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ إِنْسَانًا مَلِكًا أَرَادَ أَنْ يُحَاسِبَ عَبِيدَهُ. فَلَمَّا ابْتَدَأَ فِي الْمَحَاسَبَةِ قُدِّمَ إِلَيْهِ وَاحِدٌ مَدْيُونٌ بِعَشْرَةِ آلَافٍ وَزَنَةِ. وَإِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَا يُوفِي أَمَرَ سَيِّدُهُ أَنْ يُبَاعَ هُوَ وَامْرَأَتُهُ وَأَوْلَادُهُ وَكُلُّ مَا لَهُ، وَيُوفَى الدَّيْنُ. فَحَرَ الْعَبْدُ وَسَجَدَ لَهُ قَائِلًا: يَا سَيِّدُ، تَمَهَّلْ عَلَيَّ فَأُوفِيكَ الْجَمِيعَ. فَتَحَنَّنَ سَيِّدُ ذَلِكَ الْعَبْدِ وَأَطْلَقَهُ، وَتَرَكَ لَهُ الدَّيْنَ. وَلَمَّا خَرَجَ ذَلِكَ الْعَبْدُ وَجَدَ وَاحِدًا مِنَ الْعَبِيدِ رُفْقَائِهِ، كَانَ مَدْيُونًا لَهُ بِمِئَةِ دِينَارٍ، فَأَمْسَكَهُ وَأَخَذَ بَعْضَهُ قَائِلًا: أُوَفِّينِي مَا لِي عَلَيْكَ. فَحَرَ الْعَبْدُ رَفِيقَهُ عَلَى قَدَمَيْهِ وَطَلَبَ إِلَيْهِ قَائِلًا: تَمَهَّلْ عَلَيَّ فَأُوفِيكَ الْجَمِيعَ. فَلَمْ يَرُدْ بَلْ مَضَى وَالْقَاهُ فِي سَجْنٍ حَتَّى يُوفَى الدَّيْنُ. فَلَمَّا رَأَى الْعَبِيدُ رُفْقَاؤُهُ مَا كَانَ، حَزَنُوا جَدًّا. وَأَتَوْا وَقَصُّوا عَلَى

سَيِّدِهِمْ كُلَّ مَا جَرَى. فَدَعَاهُ حِينَئِذٍ سَيِّدُهُ وَقَالَ لَهُ: أَيُّهَا الْعَبْدُ الشَّرِيرُ، كُلُّ ذَلِكَ الدَّيْنِ تَرَكَتُهُ لَكَ لِأَنَّكَ طَلَبْتَ إِلَيَّ. أَفَمَا كَانَ يَنْبَغِي أَنَّكَ أَنْتَ أَيْضاً تَرْحَمَ الْعَبْدَ رَفِيقَكَ كَمَا رَحِمْتُكَ أَنَا؟ وَغَضِبَ سَيِّدُهُ وَسَلَّمَهُ إِلَى الْمُعَذِّبِينَ حَتَّى يُوفِيَ كُلُّ مَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِ. فَهَكَذَا أَبِي السَّمَاوِيُّ يَفْعَلُ بِكُمْ إِنْ لَمْ تَتْرُكُوا مِنْ قُلُوبِكُمْ كُلِّ وَاحِدٍ لِأَخِيهِ زَلَّاتِهِ» (متى. 18:23-35)

لما كان ضرورياً أن يبين المسيح أساس هذا القانون الصعب ليقنع تلاميذه بصوابه، أوضح لهم ذلك بواسطة مثل العبد الظالم، الذي بعد أن ترك سيده الملك ديناً عظيماً للغاية، لا يمكنه أن يوفيه مطلقاً، قبض ذلك العبد على أحد رفقاءه العبيد بسبب دين زهيد كان عليه، وزجَّه في السجن، رغم كل الاستراحات والمواعيد وإحسان مولاه إليه، بتركه له هذا الدين العظيم. لم يلب قلبه ليصبر على رفيقه، بل أخذه بعنقه وألقاه في السجن حتى يوفي الدين. فلما أبلغ العبيد رفقاؤه مولاهم الملك بهذا الأمر، اغتاض الملك جداً، وأحضر هذا العبد الظالم وأُتْبِه، وسَلَّمَهُ إِلَى الْمُعَذِّبِينَ حتى يوفي كل ما كان له عليه. فإن كان مفلساً قبل سجنه، فأى أمل له أن يفي الملايين وهو سجين؟ فلا مناص من بقاءه إلى الأبد بين أيدي المعذِّبين !

في هذا المثل شبَّه المسيح الله بالملك، وشبَّه الخطاة بالعبيد المدينين. ولما كان الدين الذي على الخاطئ لله عظيماً، يستحيل على الخاطئ أن يوفيه. لكن الله برحمته، وبناءً على عمل الفداء، يغفر لأعظم الخطاة متى اعترف له وطلب منه الرحمة وتعهَّد أن يصلح أمره فيما بعد. أما دَيْنُ الخاطئ لرفيقه البشري فزهيد بالنسبة إلى دَيْنِ الرفيق لربه. فمتى حصل إنسان على الغفران الإلهي، لا حقَّ له أن يمسك عن رفيقه المغفرة على زلاته، مهما تكاثرت وتكررت. ولا يحق لإنسان أن يدين أخاه قبل مقابلته واستماع عذره. لعله أخطأ سهواً، أو ظلمه واش. فما أَرَهَبَ العبارة التي ختم بها المسيح جوابه على سؤال بطرس بقوله: «فهكذا أبى السماوي يفعل بكم إن لم تتركوا من قلوبكم كل واحد لأخيه زلاته.»

ولنا في الصلاة الربانية برهان أهمية وجوب ترك الحقد، لما نصلي: «اغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضاً للمذنبين إلينا». لا ينتظر البريء أن يأتيه المذنب ليستغفر منه، بل يسبقه، إتماماً للقول: «اذهب وعاتبه بينك وبينه». تمثلاً بالمسيح الذي لم ينتظر الخاطئ إلى أن يتوب ويأتي إليه، بل قد أتى من السماء ليطلب ويخلص ما قد هلك .

المسيح يغفر للزانية

«وَقَدِمَ إِلَيْهِ الْكَتَبَةُ وَالْفَرِّيسِيُّونَ امْرَأَةً أُمْسِكَتْ فِي زَنًا. وَلَمَّا أَقَامُوهَا فِي الْوَسْطِ قَالُوا لَهُ: «يَا مُعَلِّمُ، هَذِهِ الْمَرْأَةُ أُمْسِكَتْ وَهِيَ تَزْنِي فِي ذَاتِ الْفِعْلِ، وَمُوسَى فِي النَّامُوسِ أَوْصَانَا أَنْ مِثْلُ هَذِهِ تُرْجَمَ. فَمَاذَا تَقُولُ أَنْتَ؟» قَالُوا هَذَا لِجَبْرُوتِهِ، لِكَيْ يَكُونَ لَهُمْ مَا يَشْتَكُونَ بِهِ عَلَيْهِ. وَأَمَّا يَسُوعُ فَانْحَنَى إِلَى أَسْفَلٍ وَكَانَ يَكْتُبُ بِإصْبَعِهِ عَلَى الْأَرْضِ. وَلَمَّا اسْتَمَرُّوا يَسْأَلُونَهُ، انْتَصَبَ وَقَالَ لَهُمْ: «مَنْ كَانَ مِنْكُمْ بِلاَ خَطِيئَةٍ فَلْيَرْمِمْهَا أَوَّلًا بِحَجَرٍ!» ثُمَّ انْحَنَى أَيْضاً إِلَى أَسْفَلٍ وَكَانَ

يَكْتُبُ عَلَى الْأَرْضِ. وَأَمَّا هُمْ فَلَمَّا سَمِعُوا وَكَانَتْ ضَمَائِرُهُمْ تُبَكِّتُهُمْ، خَرَجُوا وَاحِدًا فَوَاحِدًا، مُبْتَدِينَ مِنَ الشُّيُوخِ إِلَى الْآخَرِينَ. وَبَقِيَ يَسُوعُ وَخَدُّهُ وَالْمَرْأَةُ وَاقِفَةً فِي الْوَسْطِ. فَلَمَّا انْتَصَبَ يَسُوعُ وَلَمْ يَنْظُرْ أَحَدًا سِوَى الْمَرْأَةِ، قَالَ لَهَا: «يَا امْرَأَةً، أَيْنَ هُمْ أُولَئِكَ الْمُشْتَكُونَ عَلَيْكَ؟ أَمَّا دَانِكَ أَحَدٌ؟» فَقَالَتْ: «لَا أَحَدَ يَا سَيِّدُ». فَقَالَ لَهَا يَسُوعُ: «وَلَا أَنَا أَدِينُكَ. اذْهَبِي وَلَا تُخْطِئِي أَيْضًا» (يوحنا ٨: ٣-١١).

ذهب المسيح إلى اورشليم، ودخل الهيكل. وأخذ يعلم ويشرح للجمهور أمور ملكوته الروحي. وبعد قليل حصلت ضجة بين الحاضرين، لأن جماعة من علماء الدين طلبوا أن يفسح لهم الجمع الطريق ليصلوا إلى المسيح، وهم يجرون امرأة تعيسة أمسكت في زنى. وتظاهروا في ريائهم المعهود بغيرة كاذبة على شريعة العفة، وباحترام كاذب للمسيح، إذ طلبوا حكمة في أمر يتعلق بشريعتهم الدينية المقدسة، ولقبوه بأكرم ألقابهم أي «معلم في الدين» وأوقفوا المذنب في الوسط أمام الجمهور، وطلبوا منه أن يحكم: «هل تعامل بمقتضى شريعة موسى فيرجمونها؟».

كانت الحكومة الرومانية قد منعت المحاكم الدينية اليهودية من الحكم بالإعدام. فإن حكم المسيح برجم هذه الخاطئة يخالف النظام السياسي الحاكم، ويغضب كثيرين من الشعب الذي تعودوا التساهل في الأحكام. وإن حكم بعدم رجمها، يفتح لهم باباً واسعاً لينتقدوه أمام الشعب كمخالف لشريعتهم المقدسة. وبما أنهم يعلمون كيف تصرف أمامهم قبالاً بشريعة السبت، حاسباً ذاته أعظم من موسى، وغير مقيد بشريعته، كانوا يأملون أن يتصرف بذات الطريقة في شريعة الزنى أيضاً، فيهيّجون عليه كل من تهمة المحافظة على العفة والآداب الصحيحة. فقالوا له: «موسى يقول كذا وكذا. فماذا تقول أنت؟» كأنهم يعترفون له بحق مخالفة أحكام موسى، لو شاء.

وانصرفت أفكار المسيح من هذه المذنبية إلى طالبي رجمها، وهم أعظم منها إثماً، لأنه لم يكن يقبل أن يتساهل مع الظالم والخبث. فكان جوابه الأول أنه انحنى وصار يكتب بإصبعه على الأرض، ليعطي سائليه فترة للتفكير. ولما تابعوا السؤال أجابهم قانونياً ما معناه: حسب شريعتكم متى ثبت جرم الزنى على امرأة، فالشهود هم الذين يجب أن يبدأوا أولاً برجمها، وأنتم الشهود. ثم أن العدل يقضي بأن الذي يخطئ أولاً يُجازى أولاً. فالذي منكم خالف شريعة العفة قبل هذه المرأة، لا يحق له أن يطلب قصاصها قبله، فليبتدئ برجمها البريء منكم لا غيره.

ثم انحنى ثانية وصار يكتب بإصبعه على الأرض، فانسحبوا خجلين منكسرين، وخرجوا بالترتيب الذي دخلوا به حسب رتبهم: الشيوخ أولاً ثم الآخرون، حتى لم يبق منهم أحد، فإن الضمير يصيرنا جميعاً جبناءً.

يُرَجَّح أن التلاميذ والجمهور لم ينصرفوا مع الشاكين، بل انتظروا النتيجة في أمر المرأة التي بقيت واقفة في الوسط. واتجه فكر المسيح الآن إليها، لأنه أتى ليطلب ويخلص ما قد هلك. «أين أولئك؟ أما دانك أحد؟» وأجابت: «لا أحد يا سيد». قال لها: «ولا أنا أدينك. اذهبي ولا تخطئي أيضاً.»

بقوله: «ولا أنا أدينك» تصرف قانونياً، لأن هروب المدعين والشهود قبل استجوابهم يُسقط الدعوى، فليس في قوله هذا أقل تساهل مع الخطيئة التي اتُّهمت بها. ولما كان المسيح يكره الخطيئة ويحب الخاطئ، كان يسهل للخطاة أن يتركوا خطاياهم.

«ثُمَّ كَلَّمَهُمْ يَسُوعُ أَيْضاً قَائِلاً: «أَنَا هُوَ نُورُ الْعَالَمِ. مَنْ يَتَّبَعْنِي فَلَا يَمَشِي فِي الظُّلْمَةِ بَلْ يَكُونُ لَهُ نُورُ الْحَيَاةِ». فَقَالَ لَهُ الْفَرِّيسِيُّونَ: «أَنْتَ تَشْهَدُ لِنَفْسِكَ. شَهَادَتُكَ لَيْسَتْ حَقّاً». أَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُمْ: «وَإِنْ كُنْتُ أَشْهَدُ لِنَفْسِي فَشَهَادَتِي حَقٌّ، لِأَنِّي أَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ أَتَيْتُ وَإِلَى أَيْنَ أَذْهَبُ. وَأَمَّا أَنْتُمْ فَلَا تَعْلَمُونَ مِنْ أَيْنَ أَتَيْتُ وَلَا إِلَى أَيْنَ أَذْهَبُ. أَنْتُمْ حَسَبَ الْجَسَدِ تَدِينُونَ، أَمَّا أَنَا فَلَسْتُ أَدِينُ أَحَداً. وَإِنْ كُنْتُ أَنَا أَدِينُ فَدَيُّونَتِي حَقٌّ، لِأَنِّي لَسْتُ وَحْدِي، بَلْ أَنَا وَالْأَبُ الَّذِي أَرْسَلَنِي. وَأَيْضاً فِي نَامُوسِكُمْ مَكْتُوبٌ: أَنْ شَهَادَةَ رَجُلَيْنِ حَقٌّ. أَنَا هُوَ الشَّاهِدُ لِنَفْسِي، وَيَشْهَدُ لِي الْأَبُ الَّذِي أَرْسَلَنِي». فَقَالُوا لَهُ: «أَيْنَ هُوَ أَبُوكَ؟» أَجَابَ يَسُوعُ: «لَسْتُ تَعْرِفُونَنِي أَنَا وَلَا أَبِي. لَوْ عَرَفْتُمُونِي لَعَرَفْتُمْ أَبِي أَيْضاً.»

هَذَا الْكَلَامُ قَالَهُ يَسُوعُ فِي الْخِرَانَةِ وَهُوَ يَعْلَمُ فِي الْهَيْكَلِ. وَلَمْ يُمَسِّكْهُ أَحَدٌ، لِأَنَّ سَاعَتَهُ لَمْ تَكُنْ قَدْ جَاءَتْ بَعْدُ.

قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ أَيْضاً: «أَنَا أَمْضِي وَسَتَطْلُبُونَنِي، وَتَمُوتُونَ فِي خَطِيئَتِكُمْ. حَيْثُ أَمْضِي أَنَا لَا تَقْدِرُونَ أَنْ تَأْتُوا» فَقَالَ الْيَهُودُ: «أَلَعَلَّهُ يَقْتُلُ نَفْسَهُ حَتَّى يَقُولَ: حَيْثُ أَمْضِي أَنَا لَا تَقْدِرُونَ أَنْ تَأْتُوا؟» فَقَالَ لَهُمْ: «أَنْتُمْ مِنْ أَسْفَلُ، أَمَّا أَنَا فَمِنْ فَوْقُ. أَنْتُمْ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ، أَمَّا أَنَا فَلَسْتُ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ. فَقُلْتُ لَكُمْ إِنَّكُمْ تَمُوتُونَ فِي خَطَايَاكُمْ، لِأَنَّكُمْ إِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا أَنِّي أَنَا هُوَ تَمُوتُونَ فِي خَطَايَاكُمْ». فَقَالُوا لَهُ: «مَنْ أَنْتَ؟» فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «أَنَا مِنَ الْبَدْءِ مَا أَكَلِمَكُمُ أَيْضاً بِهِ. إِنْ لِي أَشْيَاءُ كَثِيرَةٌ أَتَكَلَّمُ وَأَحْكُمُ بِهَا مِنْ نَحْوِكُمْ، لَكِنَّ الَّذِي أَرْسَلَنِي هُوَ حَقٌّ. وَأَنَا مَا سَمِعْتُهُ مِنْهُ فَهَذَا أَقُولُهُ لِلْعَالَمِ». وَلَمْ يَفْهَمُوا أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ لَهُمْ عَنِ الْأَبِ. فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «مَتَى رَفَعْتُمْ ابْنَ الْإِنْسَانِ، فَحِينَئِذٍ تَفْهَمُونَ أَنِّي أَنَا هُوَ، وَلَسْتُ أَفْعَلُ شَيْئاً مِنْ نَفْسِي، بَلْ أَتَكَلَّمُ بِهِذَا كَمَا عَلَّمَنِي أَبِي. وَالَّذِي أَرْسَلَنِي هُوَ مَعِي، وَلَمْ يَتْرَكْنِي الْأَبُ وَحْدِي، لِأَنِّي فِي كُلِّ حِينٍ أَفْعَلُ مَا يُرْضِيهِ» (يوحنا ٨: ١٢-٢٩).

استأنف المسيح تعليمه للناس بعد المقاطعة التي سببها حادث المرأة، فشبه ذاته وعمله بالنور، فإن من أشرف ألقابه «نور العالم». فاعترض الفريسيون على كلامه بحُجَّة أن شهادة الإنسان لنفسه لا تثبت، فأجابهم بما معناه أن هذا الحكم ولو صحَّ في الخطاة الذين

تخدعهم الأنانية، أو يخدعون الآخرين عمداً، فلا يصح في المسيح الكامل الذي هو في حضن الآب. هذا فضلاً عن شهادة الآب غير القابلة للشك أو الاعتراض. فلما سألوه: «أين أبوك؟» أجاب بما لا يحق لبشر أن يقوله، إذ قال: «لستم تعرفونني أنا ولا أبي. لو عرفتموني لعرفتم أبي أيضاً». ولما كرر كلامه السابق أنهم لا يقدر أن يتبعوه إلى حيث يذهب بعد قليل، قالوا تهكماً: «أعله يقتل نفسه حتى يقول هذا القول؟». فأجابهم بكلام آخر لا يسوغ لبشر أن يقوله. قال: «أنا لست من هذا العالم. أنا من فوق. إن لم تؤمنوا أنني أنا هو، تموتون في خطاياكم. ولم يتركني الآب وحدي لأنني في كل حيث أفعل ما يرضيه.»

«وَبَيْنَمَا هُوَ يَتَكَلَّمُ بِهِذَا آمَنَ بِهِ كَثِيرُونَ. فَقَالَ يَسُوعُ لِلْيَهُودِ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ: «إِنَّكُمْ إِنْ تَبَنُّمُ فِي كَلَامِي فَبِالْحَقِيقَةِ تَكُونُونَ تَلَامِيذِي، وَتَعْرِفُونَ الْحَقَّ وَالْحَقُّ يَحَرِّرُكُمْ». أَجَابُوهُ: «إِنَّا ذُرِّيَّةُ إِبْرَاهِيمَ وَلَمْ نُسْتَعْبِدْ لِأَحَدٍ قَطُّ. كَيْفَ تَقُولُ أَنْتَ: إِنَّكُمْ تَصِيرُونَ أَحْرَاراً؟» أَجَابَهُمْ يَسُوعُ: «الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنْ كُلُّ مَنْ يَعْمَلُ الْخَطِيئَةَ هُوَ عَبْدٌ لِلْخَطِيئَةِ. وَالْعَبْدُ لَا يَبْقَى فِي الْبَيْتِ إِلَى الْأَبَدِ، أَمَّا الْابْنُ فَيَبْقَى إِلَى الْأَبَدِ. فَإِنْ حَرَّرَكُمْ الْابْنُ فَبِالْحَقِيقَةِ تَكُونُونَ أَحْرَاراً. أَنَا عَالِمٌ أَنَّكُمْ ذُرِّيَّةُ إِبْرَاهِيمَ. لَكِنَّكُمْ تَطْلُبُونَ أَنْ تَقْتُلُونِي لِأَنَّ كَلَامِي لَا مَوْضِعَ لَهُ فِيكُمْ. أَنَا أَتَكَلَّمُ بِمَا رَأَيْتُ عِنْدَ أَبِي، وَأَنْتُمْ تَعْمَلُونَ مَا رَأَيْتُمْ عِنْدَ أَبِيكُمْ.» أَجَابُوا: «أَبُونَا هُوَ إِبْرَاهِيمُ.» قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «لَوْ كُنْتُمْ أَوْلَادَ إِبْرَاهِيمَ لَكُنْتُمْ تَعْمَلُونَ أَعْمَالَ إِبْرَاهِيمَ! وَلَكِنَّكُمْ الْآنَ تَطْلُبُونَ أَنْ تَقْتُلُونِي، وَأَنَا إِنْسَانٌ قَدْ كَلَّمَكُم بِالْحَقِّ الَّذِي سَمِعَهُ مِنَ اللَّهِ. هَذَا لَمْ يَعْمَلْهُ إِبْرَاهِيمُ. أَنْتُمْ تَعْمَلُونَ أَعْمَالَ أَبِيكُمْ.» فَقَالُوا لَهُ: «إِنَّا لَمْ نُولَدْ مِنْ زَنًا. لَنَا أَبٌ وَاحِدٌ وَهُوَ اللَّهُ.» فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «لَوْ كَانَ اللَّهُ أَبَاكُمْ لَكُنْتُمْ تُحِبُّونَنِي، لِأَنِّي خَرَجْتُ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ وَأَتَيْتُ. لِأَنِّي لَمْ آتِ مِنْ نَفْسِي، بَلْ ذَاكَ أَرْسَلَنِي. لِمَاذَا لَا تَفْهَمُونَ كَلَامِي؟ لِأَنَّكُمْ لَا تَقْدِرُونَ أَنْ تَسْمَعُوا قَوْلِي. أَنْتُمْ مِنْ أَبِي هُوَ إِبْلِيسُ، وَشَهَوَاتِ أَبِيكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَعْمَلُوا. ذَاكَ كَانَ قَتَالاً لِلنَّاسِ مِنَ الْبَدْءِ، وَلَمْ يَثْبُتْ فِي الْحَقِّ لِأَنَّهُ لَيْسَ فِيهِ حَقٌّ. مَتَى تَكَلَّمْتُ بِالْكَذِبِ فَإِنَّمَا يَتَكَلَّمُ مِمَّا لَهُ، لِأَنَّهُ كَذَّابٌ وَأَبُو الْكَذَّابِ. وَأَمَّا أَنَا فَلَأَنِّي أَقُولُ الْحَقَّ لَسْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِي. مَنْ مِنْكُمْ يُبْكِنُنِي عَلَى خَطِيئَةٍ؟ فَإِنْ كُنْتُ أَقُولُ الْحَقَّ، فَلِمَاذَا لَسْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِي؟ الَّذِي مِنَ اللَّهِ يَسْمَعُ كَلَامَ اللَّهِ. لِذَلِكَ أَنْتُمْ لَسْتُمْ تَسْمَعُونَ، لِأَنَّكُمْ لَسْتُمْ مِنَ اللَّهِ» (يوحنا ٨: ٣٠-٤٧).

بعد أن تحدث المسيح عن نفسه أنه نور العالم، آمن به كثيرون. فصرح بأن الحق يحرر من يعرف الحق، وإن حررهم الابن فبالحقيقة يكونون أحراراً. وقال المسيح للذين اعترضوا على كلامه، بحجة أنهم لا يحتاجون إلى التحرير، إن العبودية الحقيقة هي الاستعباد للخطيئة، وإن كل من يفعلها هو عبد لها، والعبد لا يرث ولا يدوم في البيت. وقال للذين يُضْمَرُونَ في قلوبهم قتله: «تطلبون أن تقتلوني لأن كلامي لا موضع له فيكم.» أعلن لهم أن الاستعباد للخطيئة يعني البنوة لإبليس. فادعاهم البنوة لإبراهيم ادعاء بغير حق، لأنهم لا يعملون أعمال إبراهيم بل أعمال إبليس. فإبراهيم لم يطلب أن يقتل إنساناً لمجرد أنه تكلم

بالحق. وكل من يفكر في قتل البريء، يعمل عمل إبليس لا عمل إبراهيم. ومثله الكذب الذي تعودوه، لأن «إبليس كذاب وأبو الكذاب.»

ثم قال قولاً آخر، لا يجوز لمجرد بشر أن ينطق به. قال: «من منكم يبكتني على خطيئة؟» اعترف سائر الأنبياء بخطاياهم بتذلل وأسف وحزن، فمن هذا الذي يقول هذا القول عن نفسه؟ لو كان بشراً فقط لحق لنا أن نحسبه دون أولئك الذي أقرّوا بأنهم خطاة. ثم قال أيضاً: «الحق الحق أقول لكم إن كان أحد يحفظ كلامي فلن يرى الموت إلى الأبد.» وهذا القول أيضاً لا يحق لبشر.. إنه كلام ابن الله.

فَأَجَابَ الْيَهُودُ وَقَالُوا لَهُ: «أَلَسْنَا نَقُولُ حَسَنًا إِنَّكَ سَامِرِيٌّ وَبِكَ شَيْطَانٌ؟» أَجَابَ يَسُوعُ: «أَنَا أَلَيْسَ بِي شَيْطَانٌ، لَكِنِّي أَكْرُمُ أَبِي وَأَنْتُمْ تُهَيِّبُونَنِي. أَنَا لَسْتُ أَطْلُبُ مَجْدِي. يُوجَدُ مَنْ يَطْلُبُ وَيَدِينُ. الْحَقُّ الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَحْفَظُ كَلَامِي فَلَنْ يَرَى الْمَوْتَ إِلَى الْأَبَدِ.» فَقَالَ لَهُ الْيَهُودُ: «الآنَ عَلِمْنَا أَنَّ بِكَ شَيْطَانًا. قَدْ مَاتَ إِبْرَاهِيمُ وَالْأَنْبِيَاءُ، وَأَنْتَ تَقُولُ: «إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَحْفَظُ كَلَامِي فَلَنْ يَذُوقَ الْمَوْتَ إِلَى الْأَبَدِ». أَلَعَلَّكَ أَعْظَمُ مِنْ أَبِيْنَا إِبْرَاهِيمَ الَّذِي مَاتَ. وَالْأَنْبِيَاءُ مَاتُوا. مَنْ تَجْعَلُ نَفْسَكَ؟» أَجَابَ يَسُوعُ: «إِنْ كُنْتُ أَمَجِّدُ نَفْسِي فَلَيْسَ مَجْدِي شَيْئًا. أَبِي هُوَ الَّذِي يُمَجِّدُنِي، الَّذِي تَقُولُونَ أَنْتُمْ إِنَّهُ إِلَهُكُمْ، وَلَسْتُمْ تَعْرِفُونَهُ. وَأَمَّا أَنَا فَأَعْرِفُهُ. وَإِنْ قُلْتُ إِنِّي لَسْتُ أَعْرِفُهُ أَكُونُ مِثْلَكُمْ كَاذِبًا، لَكِنِّي أَعْرِفُهُ وَأَحْفَظُ قَوْلَهُ. أَبُوكُمْ إِبْرَاهِيمُ تَهَلَّلَ بَأَن يَرَى يَوْمِي فَرَأَى وَفَرَحَ.» فَقَالَ لَهُ الْيَهُودُ: «لَيْسَ لَكَ خَمْسُونَ سَنَةً بَعْدُ، أَفَرَأَيْتَ إِبْرَاهِيمَ؟» قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «الْحَقُّ الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ: قَبْلَ أَنْ يَكُونَ إِبْرَاهِيمُ أَنَا كَائِنٌ.» فَرَفَعُوا حِجَارَةً لِيَرْجُمُوهُ. أَمَّا يَسُوعُ فَاحْتَفَى وَخَرَجَ مِنَ الْهَيْكَلِ مُجْتَازاً فِي وَسْطِهِمْ وَمَضَى هَكَذَا» (يوحنا 8:48-59).

قال المسيح إنه الحق الذي يحرر، فاتَّهمه خصومه أنه «سامري وبه شيطان» وكذبوا قوله بأن من يحفظ كلامه لن يرى الموت إلى الأبد، بحجة أن أب الآباء إبراهيم وسائر الآباء والأنبياء ماتوا. فكيف لا يموت كل من يحفظ كلامه؟ وسألوه: «من تجعل نفسك؟» فجواباً على هذا قال القول الشهير الذي يثبت بلا مراجعة إعلانه إنه ليس بشراً فقط، لأن حياته لم تبتدئ كسائر البشر لما وُلد، بل إنه منذ الأزل. قال: «أبوكم إبراهيم تهلل بأن يرى يومي، فرأى وفرح» فقال له اليهود: «ليس لك خمسون سنة بعد، افرأيت إبراهيم؟» فأجابهم: «الْحَقُّ الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ: قَبْلَ أَنْ يَكُونَ إِبْرَاهِيمُ أَنَا كَائِنٌ» (يوحنا 8:58). فرفعوا حجارة ليرجموه. لقد أدركوا المعنى الخطير الذي أعلنه بقوله: «قبل إبراهيم أنا كائن» - هذا إعلان لألوهيته، فكيف رآه إبراهيم ما لم يكن صاحب طبيعة أخرى أزلية كانت من البدء (يوحنا 1:1) وقوله: «أنا كائن» هو نفس الاسم الذي أعلن الله نفسه به يوم أرسل موسى لليهود» وَقَالَ: «هَكَذَا تَقُولُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: أَهْيَهُ (أي أنا كائن) (أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ» (خروج

١٤:٣ - لقد فهموا أنه يقول إنه الله، ويدّعي لنفسه الأزلية، فأرادوا أن يرموه، لكنه أفلت منهم، لأن ساعته لم تأت بعد، فاختفى وخرج من الهيكل مجتازاً في وسطهم ومضى .

شروط اتباع المسيح

«وَحِينَ تَمَّتِ الْآيَّامُ لِرِثْفَاعِهِ ثَبَّتَ وَجْهَهُ لِيَنْطَلِقَ إِلَى أُورُشَلِيمَ، وَأَرْسَلَ أَمَامَ وَجْهِهِ رُسُلًا، فَذَهَبُوا وَدَخَلُوا قَرْيَةً لِلْسَّامِرِيِّينَ حَتَّى يُعِدُّوا لَهُ. فَلَمْ يَقْبَلُوهُ لِأَنَّ وَجْهَهُ كَانَ مُتَّجِهاً نَحْوَ أُورُشَلِيمَ. فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ تَلْمِيزُهُ يَعْقُوبَ وَيُوحَنَّا، قَالَا: «يَا رَبُّ، أَتُرِيدُ أَنْ نَقُولَ أَنْ تَنْزِلَ نَارٌ مِنَ السَّمَاءِ فَتُقْنِيَهُمْ، كَمَا فَعَلَ إِيلِيَّا أَيْضاً؟» فَالْتَقَتَا وَانْتَهَرَهُمَا وَقَالَ: «لَسْتُمَا تَعْلَمَانِ مِنْ أَيِّ رُوحٍ أَنْتُمَا! لِأَنَّ ابْنَ الْإِنْسَانِ لَمْ يَأْتِ لِيُهْلِكَ أَنْفُسَ النَّاسِ، بَلْ لِيُخَلِّصَ». فَمَضَوْا إِلَى قَرْيَةٍ أُخْرَى» (لوقا. 9:51-56)

في رحلة المسيح الأخيرة من الجليل في الشمال إلى اليهودية في الجنوب، قصد أن يمرَّ بالسامرة، وهي الجزء المعروف باسم «عبر الأردن» في كلام النبي إشعياء عن الأراضي التي سوف يبصر شعبها نوراً عظيماً (إشعياء ٩:٢).

وأرسل المسيح خبراً إلى قرية سامرية قصد أن يبيت فيها مع تلاميذه، فهاج التعصُّب السامري لما سمعوا بقدوم جماعة من اليهود مع هذا المعلم الشهير، متَّجهين إلى أورشليم ليؤدِّوا فيها فروض الدين، لأن السامريين يتمسكون بوجوب تأديتها في جبلهم المقدس. ولربما أخذتهم أيضاً غيرة الحسد، فنفروا من المسيح لإهماله بلادهم، وخدمته لخراف بيت إسرائيل الضالة وحدها في إحساناته العجيبة. ولربما استصعبوا تقديم الضيافة لعدد كهذا من المسافرين. فرفضوا قبوله.

لما عاد المرسلون بخبر الرفض، استاء التلاميذ جداً من هذه الإهانة لقائدهم العظيم، ولهم. كنا نتوقع تحمُّس بطرس في مقدمة القوم، لكن سبقه ابنا زبدي: يعقوب ويوحنا، اللذان سمَّاهما المسيح «ابني الرعد» وأستاذنا منه أن يُنزل ناراً من السماء تهلك هؤلاء السامريين. ألم تسقط في هذه المقاطعة قديماً نار من السماء بطلب النبي إيليا، فأهلكته مئة رجل من جنود الملك أخزيا الذين أرسلهم للقبض على النبي؟ (٢ ملوك ١٠:١). أولم يتعلما أمساً على جبل التجلي أن معلمهما أعظم من إيليا؟ فما دام الغضب الإلهي حلَّ ناراً على الذين أهانوا إيليا، فكيف لا يُجازى بمثل ذلك الذين أهانوا سيدهم الذي عرفوا واعترفوا أنه ابن الله ومسيحه؟

لكن في بعض الأمور لا يصلح الاقتداء بالأنبياء. وانتهر المسيح يعقوب ويوحنا، وقال: «لستما تعلمان من أي روح يجب أن تكونا وأنتما في صحبتي. إن ما جرى حتى الآن أمامكما كافٍ لتعلما ما هو روح المحبة الذي فيَّ، والذي يجب أن يكون في تلاميذي أيضاً. فالروح الذي ساقكما إلى هذا الطلب لا يخلو من اندفاع الشباب وانتقام الكبرياء. فهل رأيتما فيَّ شيئاً من هذا؟ قد ساقكما روح التعصب المذهبي الذي نشأتما عليه، فكنتما تحسبان هؤلاء السامريين كلاباً نجسة، فاستصعبتما احتمال الإهانة ممَّن تحتقرانهم. فهل رأيتما هذا

في؟ لما هاج عليّ جمهور الناصرة وجروني إلى حافة الجبل ليقتلوني - هل عاقبتُ أحداً منهم؟ ولما قاموا عليّ في اليهودية ليرجموني، هل انتقمتم من إنسان؟ ولما طردوني من كورة الجدرين، هل قاومتُ أحداً لذلك؟ ألم أقل تكراراً: «أحبوا أعداءكم. أحسنوا إلى مبغضيك». فكيف تطلبان الآن أن تُفنيا بنار من السماء أهالي هذه القرية؟ أَلستم تعلمان بعد كل هذا أنني لم أت لأهلك الناس جسداً أو نفساً، بل لأخلصهم؟

رفض المسيح اقتراح تلميذه بإحراق السامريين الذي رفضوه، وانتقل مع تابعيه إلى قرية أخرى. ويُرجَّح أن موقعها وراء الحدود السامرية، وقدم بذلك مثلاً للطف والحلم والوداعة في احتمال عمل سخي. كانت أعمال الشفاء في هذه الرحلة أكثر من كافية لتشغل كل أوقاته، لكن البشير يقول: «وكعادته كان أيضاً يعلمهم» لأن اهتمامه الأول بالتعليم الروحي. وهذا درس لجميع الذين يشتغلون في أعمال الرحمة للأجساد، أن يرافقوها بالتعاليم الروحية لأجل النفوس.

ثلاثة أمثال

«وَفِيمَا هُمْ سَائِرُونَ فِي الطَّرِيقِ قَالَ لَهُ وَاحِدٌ: «يَا سَيِّدُ، أَتُبْعُكَ أَيُّنَمَا تَمْضِي». فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: «لِلثَعَالِبِ أُوجِرَةٌ وَلِطُيُورِ السَّمَاءِ أُوكَارٌ، وَأَمَّا ابْنُ الْإِنْسَانِ فَلَيْسَ لَهُ أَيْنَ يُسْنَدُ رَأْسُهُ». وَقَالَ لآخر: «اتَّبِعْنِي». فَقَالَ: «يَا سَيِّدُ، انْذَنْ لِي أَنْ أَمْضِيَ أولاً وَأَدْفِنَ أَبِي». فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: «دَعِ الْمَوْتَى يَدْفِنُونَ مَوْتَاهُمْ، وَأَمَّا أَنْتَ فَادْهَبْ وَنَادِ بِمَلَكُوتِ اللَّهِ». وَقَالَ آخر أيضاً: «أَتُبْعُكَ يَا سَيِّدُ، وَلَكِنْ انْذَنْ لِي أولاً أَنْ أُوَدِّعَ الَّذِينَ فِي بَيْتِي». فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: «لَيْسَ أَحَدٌ يَضَعُ يَدَهُ عَلَى الْمِحْرَاثِ وَيَنْظُرُ إِلَى الْوَرَاءِ يَصْلُحُ لِمَلَكُوتِ اللَّهِ» (لوقا ٩: ٥٧-٦٢).

جاء أحد علماء الدين المعروفين بالكنيسة للمسيح. وبعد السلام قال: «يا سيد، أتبعك أينما تمضي». وربما ظن أن المسيح يفتخر بتابع كهذا ويرحب به كثيراً. لكن نستنتج من ردّ المسيح عليه أن في قلب هذا الكاتب مطامع عالمية. فلا نصيب له أو لأمثاله في صحبة المسيح الذي وهو الإله المتأبّس تنازل إلى أدنى درجات الفقر الزمني، تعزية لفقراء العالم، لكي لا ييأس أفقر البشر لشدة فقره. كان سريره مستعاراً لا ملكاً، وقبره كذلك - ومثلهما كل ما استعمله بين المهد والحد. كانت معيشته من مال المحبين. ولم يترك للإقتسام بعد موته سوى الثياب التي عليه، والأكفان التي تركها في القبر عند قيامته. فكان جوابه لهذا الكاتب: «لِلثَعَالِبِ أُوجِرَةٌ وَلِطُيُورِ السَّمَاءِ أُوكَارٌ. وَأما ابن الإنسان فليس له أين يسند رأسه». ثم انطفاً خبر هذا الكاتب.

وقدم المسيح بعد ذلك دعوة لأحد رفقاءه المؤمنين ليكون تلميذاً ملازماً، فرضي، على شرط أن يعطيه المسيح مهلة ليذهب أولاً ويدفن أباه. وهو يقصد أن يلازم أباه العجوز إلى أن يموت - وكان هذا واجباً مقدساً، بعده يترك كل شيء ويتبع المسيح. لكن المسيح لم يتساهل

معه لأنه لم يضع الواجبات للوالدين بعد الواجبات لله. فأمره أن يترك للموتى روحياً تدبير أمر الموتى جسدياً، لأنه كحي روحياً بعد إيمانه الجديد يجب أن يلتصق بالأحياء روحياً مثله. لا ريب في تمسك المسيح بالوصية التي تأمر بإكرام الوالدين، وقد برهن ذلك في حدائته في الناصرة لما كان خاضعاً لأبويه. ونذكر أنه أنب رؤساء اليهود الذين كانوا ينقضون الواجبات للوالدين تحت حجة «قربان» (مرقس ١٠: ٧-١٣) فيكون أن الذي جعله يأمر هذا الرجل أن يترك أباه ويتبعه هو، أنه يطلب لنفسه حقوق العزة الإلهية. فمتى تضاربت الحقوق الإلهية مع الواجبات الوالدية، تُقدّم الحقوق الإلهية على كل شيء.

ثم تقدم رجل ثالث بقصد أن يتبع المسيح. إنما يطلب أن يغيب بعض الوقت ليوذع أهل بيته، فلم يسمح المسيح له. يُحتمل أن بيته كان في بلدة بعيدة، أو أن المسيح عرف أن أحوال بيته تعاكس قصده الحسن، فإن رجع ليوذع أهله يضغطون عليه ويمنعونه. أو أن المسيح قصد أن يوضح أمام جميع تابعيه أنه لا يجوز تأخير دعوته مطلقاً ولو قليلاً، فأجابه على استئذانه: «ليس أحد يضع يده على المحراث وينظر إلى الوراء يصلح لملكوت الله.»

الإتباع العملي

«وَبَعْدَ ذَلِكَ عَيْنَ الرَّبِّ سَبْعِينَ آخَرِينَ أَيْضاً، وَأَرْسَلَهُمْ اثْنَيْنِ اثْنَيْنِ أَمَامَ وَجْهِهِ إِلَى كُلِّ مَدِينَةٍ وَمَوْضِعٍ حَيْثُ كَانَ هُوَ مُزْمِعاً أَنْ يَأْتِيَ. فَقَالَ لَهُمْ: «إِنَّ الْحَصَادَ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّ الْفَعْلَةَ قَلِيلُونَ. فَاطْلُبُوا مِنْ رَبِّ الْحَصَادِ أَنْ يُرْسِلَ فَعْلَةً إِلَى حَصَادِهِ. اذْهَبُوا. هَا أَنَا أُرْسِلُكُمْ مِثْلَ خُمَلَانٍ بَيْنَ ذُنَابٍ. لَا تَحْمِلُوا كَيْساً وَلَا مِزْوداً وَلَا أَحْذِيَةً، وَلَا تُسَلِّمُوا عَلَى أَحَدٍ فِي الطَّرِيقِ. وَأَيُّ بَيْتٍ دَخَلْتُمُوهُ فَقُولُوا أَوَّلًا: سَلَامٌ لِهَذَا الْبَيْتِ. فَإِنْ كَانَ هُنَاكَ ابْنُ السَّلَامِ يَحِلُّ سَلَامَكُمْ عَلَيْهِ، وَإِلَّا فَيَرْجِعْ إِلَيْكُمْ. وَأَقِيمُوا فِي ذَلِكَ الْبَيْتِ أَكْلِينَ وَشَارِبِينَ مِمَّا عِنْدَهُمْ، لِأَنَّ الْفَاعِلَ مُسْتَحَقٌّ أَجْرَتَهُ. لَا تَنْتَقِلُوا مِنْ بَيْتٍ إِلَى بَيْتٍ. وَأَيَّةُ مَدِينَةٍ دَخَلْتُمُوهَا وَقَبِلُوكُمْ، فَكُلُوا مِمَّا يُقَدِّمُ لَكُمْ، وَاشْفُوا الْمَرْضَى الَّذِينَ فِيهَا، وَقُولُوا لَهُمْ: قَدْ اقْتَرَبَ مِنْكُمْ مَلَكُوتُ اللَّهِ وَأَيَّةُ مَدِينَةٍ دَخَلْتُمُوهَا وَلَمْ يَقْبَلُوكُمْ، فَاخْرُجُوا إِلَى شَوَارِعِهَا وَقُولُوا: حَتَّى الْعَبَارُ الَّذِي لَصِقَ بِنَا مِنْ مَدِينَتِكُمْ نَنْفُضَهُ لَكُمْ. وَلَكِنْ اعْلَمُوا هَذَا أَنَّهُ قَدْ اقْتَرَبَ مِنْكُمْ مَلَكُوتُ اللَّهِ. وَأَقُولُ لَكُمْ إِنَّهُ يَكُونُ لِسُدُومَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ حَالَةٌ أَكْثَرُ احْتِمَالاً مِمَّا لَتِلْكَ الْمَدِينَةِ» (لوقا ١٠: ١٢).

لا شك أن عدداً كبيراً من الناس كان يتبع المسيح كتلاميذ له، كان من بينهم سبعون رجلاً يصلحون لأن يرسلهم للتبشير في القرى والمدن اثنتين اثنتين، وكلفهم أن يقدموا للناس التعليم والشفاء، كما فعل لما أرسل الإثنى عشر. وبارسالهم اثنتين اثنتين تظهر أهمية العمل أكثر مما لو ذهبوا أفراداً، فيشجع الواحد منهم الآخر ويصلح أغلاطه، ويتناوبان في الكلام والأعمال. فلو زاد عدد كل فريق عن اثنتين يثقلون على مضيفيهم، وتقل أماكن تبشيرهم. وبمنحه إياهم قوة الشفاء يكتسبون انتباه الناس وثقتهم ومحبتهم، ويظهرون اهتمام سيدهم

بصالح الجميع، الزمنى مع الروحي، ويبشرون بالملكوت الجديد الذي اقترب منهم، وبملك هذا الملكوت الذي أرسلهم أمامه .

وزود المسيح السبعين بمثل النصائح والإعلانات التي قدمها للاثني عشر قبلهم، إلا أنه أضاف عليها وصيته أن لا يسلّموا على أحد في الطريق، لأن الوقت قصير، بالكاد يكفي للتعليم والشفاء. ومن عاداتنا الشرقية أننا نكثر السلامة التي تضيع الوقت. وأوصاهم أيضاً أن يأكلوا ما يُقدّم لهم دون سؤال أو اعتراض، وأن يهتموا الطقوس اليهودية في أمر المأكولات، لئلا تقف حاجزاً بينهم وبين الذين يقبلونهم في بيوتهم، وأردف هذا بقوله: «لأن الفاعل مستحق أجرته.»

«فَرَجَعَ السَّبْعُونَ بِفَرَحٍ قَائِلِينَ: «يَا رَبُّ، حَتَّى الشَّيَاطِينُ تَخْضَعُ لَنَا بِاسْمِكَ». فَقَالَ لَهُمْ: «رَأَيْتُ الشَّيْطَانَ سَاقِطاً مِثْلَ الْبَرْقِ مِنَ السَّمَاءِ. هَا أَنَا أُعْطِيكُمْ سُلْطَاناً لِتَدُوسُوا الْحَيَّاتِ وَالْعُقَارِبَ وَكُلَّ قُوَّةِ الْعَدُوِّ، وَلَا يَضُرُّكُمْ شَيْءٌ. وَلَكِنْ لَا تَفْرَحُوا بِهَذَا أَنَّ الْأَرْوَاحَ تَخْضَعُ لَكُمْ، بَلِ افْرَحُوا بِالْحَرِيِّ أَنَّ أَسْمَاءَكُمْ كُتِبَتْ فِي السَّمَاوَاتِ» (لوقا ١٧: ١٠-٢٠).

نرجح أن السبعين مبشراً رجعوا تدريجياً، لكنهم رجعوا جميعاً بنعمة الفرح مع شيء من التعجب. يظهر أن السلطان الذي منحه المسيح لهم لم يتناول إخراج الشياطين، فلما شرعوا بإخراج الشياطين أيضاً ونجحوا فاض ابتهاجهم، حتى كان خبر هذا النجاح يشغل المحل الأول في تقاريرهم لمرسلهم. قالوا: «يا رب، حتى الشياطين تخضع لنا باسمك». فلماذا اسم المسيح وليس اسم الله؟ وأي فعل لمجرد الاسم، ما لم يكن المسيح معهم روحياً، رغم غيابه عنهم جسدياً؟

في جواب المسيح عليهم نبّههم إلى أن نجاحهم راجع إلى العمل الإلهي في طرد إبليس من السماء التي سقط منها بسبب كبريائه. كأنه يقول لهم: أنتم رأيتم فشل بعض الجنود، ولكني رأيت فشل رئيسهم وسقوطه. رأى المسيح بروح النبوة سقوط الشيطان التام في المستقبل، فسياخذ المسيح إبليس أسيراً، ذلك الذي طالما أسر البشر لإرادته. لطالما قيّد إبليس البشر بقيود الطبيعة المفسدة والعادات الذميمة. من لقبه «رئيس هذا العالم» (يوحنا ١١: ١٦) تظهر مملكته.. ومن لقبه «سلطان الهواء» (أفسس ٢: ٢) يظهر مسكنه.. ومن لقبه «سلطان الظلمة» (كولوسي 1: 14) يظهر نوع أعماله.. ومن لقبه «الذي يعمل الآن في أبناء المعصية» (أفسس ٢: ٢) يظهر من هم رعاياه .

كان المسيح قد قال: «كثيرون سيقولون لي في ذلك اليوم: يا رب يا رب، أليس باسمك تنبأنا، وباسمك أخرجنا شياطين، وباسمك صنعنا قوات كثيرة؟ فحينئذ أصرح لهم: إني لم أعرفكم قط. اذهبوا عني يا فاعلي الإثم». أفلا يعلمون أن نجاحهم في إخراج الشياطين محفوف بخطر الكبرياء، لأنه في الظاهر نتيجة عملهم، بينما النجاح الحقيقي الذي هو كتابة

اسمائهم في السماوات هو عمل الله وهبة من نعمته المجانية؟ هنيئاً لهؤلاء الذين حقق المسيح لهم أن أسماءهم مكتوبة في السماء. لكن هل لمجرد إنسان بشري حق أن يصرح لأناس مخصوصين أن أسماءهم مكتوبة في السماوات؟ ألا يوضح لنا هذا أن المسيح هو ابن الإنسان وابن الله معاً؟

فرح المسيح بخدمة أتباعه

«وَفِي تِلْكَ السَّاعَةِ تَهَلَّلَ يَسُوعُ بِالرُّوحِ وَقَالَ: «أَحْمَدُكَ أَيُّهَا الْآبُ، رَبُّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، لِأَنَّكَ أَخْفَيْتَ هَذِهِ عَنِ الْحُكَمَاءِ وَالْفُهَمَاءِ وَأَعْلَنْتَهَا لِلْأَطْفَالِ. نَعَمْ أَيُّهَا الْآبُ، لِأَنَّ هَكَذَا صَارَتْ الْمَسَرَّةُ أَمَامَكَ». وَالتَفَتَ إِلَى تَلَامِيذِهِ وَقَالَ: «كُلُّ شَيْءٍ قَدْ دُفِعَ إِلَيَّ مِنْ أَبِي. وَلَيْسَ أَحَدٌ يَعْرِفُ مَنْ هُوَ الْإِبْنُ إِلَّا الْآبُ، وَلَا مَنْ هُوَ الْآبُ إِلَّا الْإِبْنُ، وَمَنْ أَرَادَ الْإِبْنُ أَنْ يُعْلِنَ لَهُ». وَالتَفَتَ إِلَى تَلَامِيذِهِ عَلَى انْفِرَادٍ وَقَالَ: «طُوبَى لِلْعُيُونِ الَّتِي تَنْظُرُ مَا تَنْظُرُونَهُ، لِأَنِّي أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ أَنْبِيَاءَ كَثِيرِينَ وَمُلُوكاً أَرَادُوا أَنْ يَنْظُرُوا مَا أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ وَلَمْ يَنْظُرُوا، وَأَنْ يَسْمَعُوا مَا أَنْتُمْ تَسْمَعُونَ وَلَمْ يَسْمَعُوا» (لوقا. 10:21-24)

في حياة المسيح كلها لم نقرأ أنه تهلل إلا في هذا الوقت، مع أننا نقرأ ثلاث مرات أنه بكى، وعدة مرات أنه انزعج أو اضطرب بالروح أو حزن.. تهلل لأنه رأى في غلبة تلاميذه على العدو، واستفادة الناس منهم، أعظم نجاح حصل إلى الآن في عمله. وفي تهله اتجهت روحه طبيعياً، ليس نحو الناس، بل نحو الآب السماوي، فحمده بعبارات استعملها سابقاً. ثم قال لهم على انفراد: «إن أنبياء كثيرين وملوكاً أرادوا أن ينظروا ما أنتم تنظرون ولم ينظروا، وأن يسمعوا ما أنتم تسمعون ولم يسمعوا».

لا نغفل الفائدة العظيمة التي حصلت لهؤلاء السبعين ولنا نحن أيضاً بواسطة إرسالياتهم هذه. فعندما كلف السبعين بالعمل الذي خص به التلاميذ الاثني عشر سابقاً، علمنا أن التبشير ليس محصوراً في رجال الدين القانونيين، بل أن على كل مؤمن أن يكون مبشراً، وأن يخصص قسماً من أوقاته وأمواله للتبشير بالإنجيل. متى أدرك المسيحيون هذه الحقيقة، وعملوا بموجبها، يفعلون المعجزات الروحية. وقد قال عنها المسيح لتلاميذه: «مَنْ يُؤْمِنُ بِي فَلَا عَمَلٍ الَّتِي أَنَا أَعْمَلُهَا يَعْمَلُهَا هُوَ أَيْضاً، وَيَعْمَلُ أَعْظَمَ مِنْهَا، لِأَنِّي مَاضٍ إِلَى أَبِي» (يوحنا ١٤: ١٢) والحمد لله أن الشواهد على صدق هذا القول واضحة في تاريخ الكنيسة قديماً في زمان الرسل والآباء، وحديثاً في تاريخ انتشار الإنجيل في بلدان كثيرة

من هو قريبي؟

«وَإِذَا نَامُوسِي قَامَ يُجَرِّبُهُ قَائِلًا: «يَا مُعَلِّمُ، مَاذَا أَعْمَلُ لِأَرِثَ الْحَيَاةَ الْأَبَدِيَّةَ؟» فَقَالَ لَهُ: «مَا هُوَ مَكْتُوبٌ فِي النَّامُوسِ. كَيْفَ تَقْرَأُ؟» فَأَجَابَ: «تُحِبُّ الرَّبَّ إِلَهَكَ مِنْ كُلِّ قَلْبِكَ، وَمِنْ كُلِّ نَفْسِكَ، وَمِنْ كُلِّ قُدْرَتِكَ، وَمِنْ كُلِّ فِكْرِكَ، وَقَرِيبَكَ مِثْلَ نَفْسِكَ». فَقَالَ لَهُ: «بِالصَّوَابِ أَجَبْتَ. إِفْعَلْ هَذَا فَتَحْيَا». وَأَمَّا هُوَ فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يُبَرِّرَ نَفْسَهُ، سَأَلَ يَسُوعَ: «وَمَنْ هُوَ قَرِيبِي؟» فَأَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ: «إِنْسَانٌ كَانَ نَازِلًا مِنْ أُورُشَلِيمَ إِلَى أَرِيحَا، فَوَقَعَ بَيْنَ لُصُوصٍ، فَعَرَّوهُ وَجَرَّحُوهُ، وَمَضُوا وَتَرَكُوهُ بَيْنَ حَيٍّ وَمَيِّتٍ. فَعَرَضَ أَنَّ كَاهِنًا نَزَلَ فِي تِلْكَ الطَّرِيقِ، فَرَأَهُ وَجَارَ مُقَابِلَهُ. وَكَذَلِكَ لَآوِيٌّ أَيْضًا، إِذْ صَارَ عِنْدَ الْمَكَانِ جَاءَ وَنَظَرَ وَجَارَ مُقَابِلَهُ. وَلَكِنَّ سَامِرِيًّا مُسَافِرًا جَاءَ إِلَيْهِ، وَلَمَّا رَأَهُ تَحَنَّنَ، فَتَقَدَّمَ وَضَمَدَ جِرَاحَاتِهِ، وَصَبَّ عَلَيْهَا زَيْتًا وَخَمْرًا، وَأَرْكَبَهُ عَلَى دَابَّتِهِ، وَأَتَى بِهِ إِلَى فُنْدُقٍ وَاعْتَنَى بِهِ. وَفِي الْعَدِ لَمَّا مَضَى أَخْرَجَ دِينَارَيْنِ وَأَعْطَاهُمَا لِصَاحِبِ الْفُنْدُقِ، وَقَالَ لَهُ: اعْتَنِ بِهِ، وَمَهْمَا أَنْفَقْتَ أَكْثَرَ فَعِنْدَ رُجُوعِي أُوفِيكَ. فَأَيُّ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةِ تَرَى صَارَ قَرِيبًا لِلَّذِي وَقَعَ بَيْنَ اللَّصُوصِ؟» فَقَالَ: «الَّذِي صَنَعَ مَعَهُ الرَّحْمَةَ». فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: «أَذْهَبْ أَنْتَ أَيْضًا وَاصْنَعْ هَكَذَا» (لوقا ١٠: ٣٧).

بعد رجوع السبعين جاء أحد علماء الشريعة لكي يجرب المسيح فسأله: «يا معلم، ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية؟».

لو كان سؤاله عدائياً لوبَّخه المسيح توبيخاً صارماً، لكنه كان سؤال مباحكة بسيطة، فأخذ جواباً يلائمه، هو ردُّ السؤال إلى السائل، ليجيب هو عليه، مما هو مكتوب في الشريعة. كان جواب هذا الكاتب ممتازاً كسؤاله. فقال: «تُحِبُّ الرَّبَّ إِلَهَكَ مِنْ كُلِّ قَلْبِكَ وَمِنْ كُلِّ نَفْسِكَ وَمِنْ كُلِّ فِكْرِكَ وَمِنْ كُلِّ أَفْكَارِكَ، وَقَرِيبَكَ مِثْلَ نَفْسِكَ». فقال له المسيح: «بِالصَّوَابِ أَجَبْتَ. افْعَلْ هَذَا فَتَحْيَا». قد أدرك هذا الرجل الشريعة الإلهية إدراكاً كافياً، لكنه علم جيداً أنه لا يستطيع تماماً أن يحب الله وقريبه لهذه الدرجة. وأنه على هذه القاعدة ليس له ولا بغيره حق في الحياة الأبدية. إذاً فالمعرفة وحدها لا تريح الضمير بل تزعجه، ولا تزيل الدينونة بل تزيدها، وحفظ الناموس لا يخوِّل الخلاص ما لم يُحفظ تماماً.

لذلك يطلب الله من كل خاطئ أن يعرف ليس الشريعة فقط بل نفسه أيضاً وتقصيرها وعجزها. وكان عالم الشريعة هذا ناقصاً في معرفة نفسه، فقصده أن يبرِّر نفسه وهو ليس باراً. لم يقدر أن يسأل من هو الله لأحبه، فسأل: من هو قريبي لأعرف إن كنتُ أحبه كنفسياً، فأرث الحياة الأبدية؟ وأجاب المسيح مرة أخرى بسؤال، ليجعل السائل نفسه يجيب على ما سأل. ولكي يمهد المسيح لتقديم السؤال الثاني روى مثلاً نعرفه باسم «مثل السامري الصالح».

روى المسيح لعالم الشريعة قصة مسافر يهودي كان ذاهباً من أورشليم إلى أريحا ووقع بين أيدي اللصوص، فسلبوه كل شيء حتى ثيابه، وأشبعوه ضرباً وجرحاً حتى لم يعد يقدر أن يصرخ أو يستجير، وتركوه بين حي وميت. وحدث أن كاهناً نزل في تلك الطريق فراه .

حسب اصطلاح الناس، وحسب فكر هذا الكاهن، كانت مقابلة هذا الجريح تبدو صدفة، مع أنها من تدابير العناية الإلهية، شفقة على هذا التعيس. وبصدفة كهذه، يمتحن الله كل واحد منّا: هل نلبي الدعوة الإلهية الخفية التي تنتدبنا لأعمال الرحمة والخير؟

لما رأى الكاهن هذا المسكين «جاز مقابله». ولا بد أنه حاول أن يبرر نفسه بأعذار واهية، لكنه غير معذور في ما فعل. فالمصاب أخوه في الجنسية اليهودية، وهو مكلف رسمياً بإغاثة هذا المسكين، لأنه أحد رؤساء الدين، ومسئوليته خدمة الشعب في كل ما يمكن. وقد أفرز ليكون قدوة للشعب في أعماله. لذلك كان هروبه من المسؤولية تقصيراً كبيراً .

بعد الكاهن مرّ زميل له، وهو لاوي - أي في المنزل الثانية من رجال الدين. نراه أفضل من الأول، لأنه إذ صار عند المكان «جاء ونظر». تحرك فيه بعض الحنان، لكنه لم يترجم شعوره إلى عمل، إذ هو أيضاً «جاز مقابله».

لا يجهل الكاهن واللاوي الوصية المكررة في الشريعة والتي توجب مساعدة الأخ في ساعة الضيق. فكيف الأمر الآن وخادماً ديناً قد رأيا أخاهما في أسوأ حال، ولم يمداً له يد المساعدة؟ هل اعتذرا بأنهما قد عملا واجباتهما لله وللناس، لأنهما أتما كل الفروض الدينية؟ أو هل حسبا أن هذا الإنسان قارب الموت ولا فائدة من خدمته، بل إن مات بين أيديهما يتنجسان، فيتعطلان مؤقتاً عن ممارسة الفرائض الدينية؟ كان يجب عليهما أن يذكرنا القول الإلهي: «إِنِّي أُرِيدُ رَحْمَةً لَا ذَبِيحَةً» (هوشع ٦: ٦). هل اعتذرا بمخاطر الطريق التي أثبتتها ما حدث للرجل الجريح، فحسبا الابتعاد ضرورياً لأجل سلامتيهما؟ أو هل اعتذر الكاهن بأن اللاوي وراءه فترك له هذه الخدمة، واكتفى اللاوي بأن الكاهن الذي سبقه أرفع مقاماً منه في الدين وملزوم أكثر منه، حتى ما لا يُطالب به الكاهن لا يُطالب به اللاوي. هل بين أعذار كهذه ما تقبله الشهامة أو ما يقبله الله؟

لقد أدان المسيح الكاهن واللاوي، ونجد في هذا برهاناً قوياً على أن الإنسان لا يُدان فقط على ما يفعله من الشر، بل أيضاً على ما يهمله من الخير. فمع أنه لم يُذكر للكاهن واللاوي سبباً فعلاً، يلومهما الرأي العام، بسبب ما لم يفعلاه لما تغاضيا عن مصيبة أخيهما .

نلتفت الآن من صورة الكاهن واللاوي المحزنة، إلى صورة مبهجة تفاجئنا هي صورة مسافر ثالث غريب الجنس، سامري، يعتبرونه عدواً طبيعياً لليهودي الواقع بين اللصوص. لو كان الجريح في صحته وسلامته لكان يبصق على هذا السامري ويشتمه ويتنجس منه،

لأنه أبعد الناس عنه. ولعل هذا السامري عرف أن أخوي هذا الجريح قد مرّاً به ولم يريا لزوماً للالتفات إليه. لكن على رغم هذا كله أطاع الأمر الإلهي بمحبة القريب والتي أوردتها الأسفار الخمسة لموسى التي يعترف بها السامريون (لاويين 19:15) فصَحَّ مرة أخرى قول المسيح في الآخرين الذين يصيرون أولين، والأولين الذين يصيرون آخرين .

نزل هذا السامري عن دابته، ومال إلى الجريح وفحصه، ثم صبَّ على جروحه خمراً وزيتاً، وضمّدها. ثم أركبه على دابته ومشى ماسكاً به في هذه الطريق الوعرة إلى أن أوصله إلى الفندق. وهناك لم يستغف من المسؤولية والتعب والخسارة، فدفع نفقة إعالة الجريح مالا يعادل أجره الفاعل مدة يومين، ووعد أن يسدّد فيما بعد ما ينفقه صاحب الفندق عليه فوق ذلك، إلى أن يُشفى ويواصل سفره .

لما أكمل المسيح هذه القصة سأل عالم الشريعة: أي الثلاثة الذين مرّوا بهذا الجريح تصرّف كقريب يحب قريبه بنفسه. وكانت الإجابة الواجبة هي: «السامري». لكن التعصّب لم يدعه ينطق باللفظ الصريح أن سامرياً أفضل من كاهن يهودي، فاكتمى بالتلميح وأجاب: «الذي صنع معه الرحمة». اكتمى المسيح بهذا الجواب وقال: «إذهب أنت أيضاً واصنع هكذا». أي: كُنْ أنت قريباً لكل من يحتاج مساعدة منك تستطيعها، ولو كان عدوك .

ذكر المسيح هذا السامري، لا ليكرم السامريين، ولا ليهين الكهنة واللاويين لكن ليعلم أن الغريب عن الدين الذي يطيع شريعة المحبة خير من خادم الدين الذي يخالفها. سأل عالم الشريعة: «من يستحق أن يُعامل كقريب؟» وكان الأجوب أن يسأل: «قريب من أنا؟ وهل تصرفي مع الناس هو تصرف قريب يحبهم بنفسه؟». القريب هو الذي تلتقي طريقتي بطريقه، والذي يمكن أن تصل إليه يدي، فمهما ابتعد قلبه عني وعاداني، لا يزال قريباً، ويطلب الله مني أن أحبه كنفسي، وأعامله معاملة تدلّ على أن هذه المحبة حقيقية .

جدّد المسيح في هذه القصة تعليمه الرئيسي بأن الدين لا يقوم بحفظ الفروض الخارجية والطقوس المذهبية، إذ أن الشخصين اللذين أكملوا هذه الفروض الحقّة المعيّنة من الله، وأكملوها في الهيكل المقدس، خالفاً أساس الدين المتعلّق بمحبة القريب. ومن يخالف وصية محبة القريب لا يمكن أن يكون محباً حقيقياً لله. إذاً فالكاهن واللاوي لم يحفظا شيئاً من جوهر الدين، بينما قبل الله السامري الذي لم يتمم فروض الدين الخارجية، وكان أجنبياً عن شعب الله المختار، ولكنه أظهر محبته لله بمحبته لقريبه .

هدم المسيح بهذه القصة جداراً من الجدران الفاصلة بين المذاهب، وأوضح أن الجوهر في الدين لا يختص بالمذهب بل بالمحبة. يجب أن تربط المذاهب المختلفة رابطة روحية تثبت وحدة الإيمان رغم اختلاف التفسير. وأن لا يخلّ هذا الاختلاف بالمحبة الأخوية. إن الحق الجوهري واحد، والصالح واحد، والاهتداء إلى الله هو المقصود في كل فروع الدين .

مريم ومرثا تستقبلان المسيح

«وَفِيمَا هُمْ سَائِرُونَ دَخَلَ قَرْيَةً، فَقَبِلَتْهُ امْرَأَةٌ اسْمُهَا مَرْثَا فِي بَيْتِهَا. وَكَانَتْ لِهَذِهِ أُخْتُ تُدْعَى مَرْيَمَ، الَّتِي جَلَسَتْ عِنْدَ قَدَمَيْ يَسُوعَ وَكَانَتْ تَسْمَعُ كَلَامَهُ. وَأَمَّا مَرْثَا فَكَانَتْ مُزْتَبِكَةً فِي خِدْمَةِ كَثِيرَةٍ، فَوَقَفَتْ وَقَالَتْ: «يَا رَبُّ، أَمَا تُبَالِي بَأَنَّ أُخْتِي قَدْ تَرَكَتْنِي أَخْدِمُ وَحْدِي؟ فَقُلْ لَهَا أَنْ تُعَيِّنَنِي!» فَأَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهَا: «مَرْثَا مَرْثَا، أَنْتِ تَهْتَمِينَ وَتَضْطَرِّبِينَ لِأَجْلِ أُمُورٍ كَثِيرَةٍ، وَلَكِنَّ الْحَاجَةَ إِلَى وَاحِدٍ. فَاخْتَارَتْ مَرْيَمَ النَّصِيبَ الصَّالِحَ الَّذِي لَنْ يُنْزَعَ مِنْهَا» (لوقا ١٠: ٤٢-٣٨).

واصل المسيح وتلاميذه سفرهم نحو اورشليم، إلى أن بلغوا بيت عنيا، التي تبعد عن المدينة نحو ثلاثة أرباع ساعة سيراً على الأقدام. وبيت عنيا ذات رائحة ذكية في التاريخ، بسبب عائلة تقيّة سكنتها، منحها المسيح صداقة شخصية ممتازة، قابلتها بتقديم مكان مريح للمسيح وتلاميذه، يأوون إليه مسرورين كلما شاءوا. وعندما دخل المسيح هذا البيت مع تلاميذه وغيرهم من مرافقيه اجتمع قوم من أهل القرية فأخذ يعلمهم كعادته. عند ذلك ظهر الفرق بين الأختين المتساويتين في الاهتمام الحبي بإكرام هذا الضيف الشهير وطلب رضاه، فمرثا الأكبر سناً، ومديرة البيت، اهتمت بالخدمة الجسدية وارتبكت في تجهيز طعام كثير. ولا عجب، لأن عدد الضيوف الذين باغثوها، ومقام معلمهم النبي العظيم صانع المعجزات يستحقان هذا الارتباك .

أما مريم فقد قادتها بصيرتها إلى أن المسيح ليس كغيره من كبار القوم، يفرح بمظاهر الضيافة الكريمة، أو يسأل كثيراً عما قد يُقدّم له من طعام، بل شعرت أن معظم سروره ينتج عن إصغاء الناس إلى تعاليمه. فقد قال: «طوبى للجياع والعطاش إلى البر» (متى ٥: ٦). فجلست عند قدميه تسمع كلامه. وبهذا مثلت تمثيلاً جميلاً القليلين الذين ليست الدنيا عندهم إلا تابعة للدين وخاضعة له. ليس أنهم يقصدون ترك الدنيا وشرورها، بل يضعون الدين قبلها. هؤلاء هم الذين أسماؤهم مكتوبة في سفر الحياة، لأن الله قد اختارهم للحياة الأبدية، وعلى جبينهم علامة اختياره لهم .

كان خطأ مرثا في هذا الوقت هو تقديم الحسن الدنيوي على الأحسن الديني. وكثيراً ما يمنع الحسن الوصول إلى الأحسن. ولأن الخطأ لا يولد إلا الخطأ تذرمت في قلبها على أختها، وحسدتها لجلوسها عند قدمي المسيح. ثم أنتج تذمرها تذمراً على المعلم ذاته. كان الأولى بها أن تفرح لحصول أختها على هذه الفرصة الثمينة للاستفادة، أو على الأقل أن تقول لها: اعملي معي أولاً يا أختي، ثم نجلس سوياً عند قدمي المعلم. لكنها وقفت وقالت: «يا رب، أما تبالي بأن أختي قد تركتني أخدم وحدي؟ فقل لها أن تعينني.»

كان المسيح يعلم جيداً ضرورة الماديات، وكان يخدم ماديات الناس كثيراً مع روحياتهم. لكنه لم يغفل أن يشرح أنها إن كانت تقصد إرضاءه، فهو يسرُّ بمن يحب أن يسمع تعليمه أكثر ممن يقدم له خدمة جسدية .

فقال لها: «مرثا مرثا، أنت تهتمين وتضطربين لأجل أمور كثيرة». كأنه يقول لها إن انهماكها في الأمور العالمية يحرمها الهدوء والسلام والسرور الناتجة عن طلب ملكوت الله، أي الخير الروحي، أولاً. ليس ضرورياً للإنسان إلا أمر واحد وهو النصيب الصالح الذي اختارته مريم، وهو الذي سيبقى معها دائماً .

المسيح يفتح عيني مولود أعمى

«وَفِيمَا هُوَ مُجْتَازٌ رَأَى إِنْسَانًا أَعْمَى مُنْذُ وَلَادَتِهِ، فَسَأَلَهُ تَلَامِيذُهُ قَائِلِينَ: «يَا مُعَلِّمُ، مَنْ أَخْطَأَ: هَذَا أَمْ أَبَوَاهُ حَتَّى وُلِدَ أَعْمَى؟» أَجَابَ يَسُوعُ: «لَا هَذَا أَخْطَأَ وَلَا أَبَوَاهُ، لَكِنْ لِنَظَرٍ أَعْمَالُ اللَّهِ فِيهِ. يَنْبَغِي أَنْ أَعْمَلَ أَعْمَالَ الَّذِي أَرْسَلَنِي مَا دَامَ نَهَارٌ. يَأْتِي لَيْلٌ حِينَ لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَعْمَلَ. مَا دُمْتُ فِي الْعَالَمِ فَأَنَا نُورُ الْعَالَمِ». قَالَ هَذَا وَتَقَلَّ عَلَى الْأَرْضِ وَصَنَعَ مِنَ التُّفْلِ طِينًا وَطَلَى بِالطِّينِ عَيْنَيِ الْأَعْمَى. وَقَالَ لَهُ: «اذْهَبِ اغْتَسِلْ فِي بَرْكَةِ سِلْوَامَ». الَّذِي تَفْسِيرُهُ مُرْسَلٌ. فَمَضَى وَاغْتَسَلَ وَأَتَى بِصِيرًا» (يوحنا ٩: ١-٧).

مرَّ المسيح في مدينة أورشليم برجل وُلِدَ أعمى، فسأله تلاميذه: «من أخطأ، هذا أم أبواه، حتى وُلِدَ أعمى؟». أجابهم المسيح بما معناه أن هذه المصيبة العظيمة لم تأتِ هذا الرجل نتيجة خطيئة ارتكبها هو أو والداه، إنما سمحت العناية الإلهية بهذه الضربة لتظهر أعمال الله في المصاب.

ما أعظم الفرق بين هذا الكلام المعزي من المسيح، وكلام التائب الموجب لليأس الذي كان يسمعه ذلك الأعمى كل حياته من الجميع عن أسباب مصيبتِهِ. ها هو يسمع لأول مرة أن مصيبتِهِ هذه لا تدل على أنه مغضوب عليه من الله ومرفوض، بل بالعكس، أن الله في مصيبتِهِ مقاصد صالحة، فنقله هذا الكلام من عالم اليأس إلى عالم الرجاء. سأل عن اسم من يكلمه، وعرف أن اسمه «يسوع». يا لمصيبة عماه! إنه لا يستطيع أن يرى هذا الذي انتصر له. لو قدم له المسيح في هذه الساعة ليس الدنانير النحاسية التي تعودها، بل الذهبية أيضاً، لما أحسن إليه بمقدار إحسانه بهذا الجواب، حتى لو تركه وشأنه حالاً.

لكن هذه اللفتة كانت بداية عمل المسيح الصالح معه. نبّه المسيح سامعيه أولاً إلى قِصَر الفرصة الباقية له للعمل. قال: «ينبغي أن أعمل أعمال الذي أرسلني ما دام نهار. يأتي ليل حين لا يستطيع أحد أن يعمل». ثم أشار إلى وظيفته كالنور الحقيقي الآتي إلى العالم الذي ينير كل إنسان، وقال: «ما دمتُ في هذا العالم فأنا نور العالم». أي أن الظلمة الجسدية والروحية التي أثمرت هذا الضرير هي ضدي وأنا ضدها، فسأزِيلها. ثم فعل المسيح ما قاله. تفل على الأرض وصنع طِيناً، وطلَى بالطين عيني الأعمى، وأمره أن يذهب ويغتسل في بركة سلوام، فمضى واغتسل وأتى بصيراً.

ظهرت القوة الإلهية في هذا العمل بواسطة الفرق العظيم بين طريقة الشفاء ونتيجته. إن الطين يُعْمِي العين السليمة، لكن الطلي بالطين كان مهماً لأجل تحقيق العلاقة بين الفاعل وفعله، ولأجل إحياء الإيمان في قلب هذا الأعمى. كان مهماً أيضاً إيضاح ضرورة الطاعة التي هي ثمر الإيمان. فعلى الأعمى أن يطيع وإلا فلا يستفيد من عمل المسيح. ليست النتيجة العجيبة التي حدثت ثمر عمل الأعمى، لكنها توقفت على ذلك الفعل. ولو لم يؤمن

لما أطاع. لو لم يطع بعد إيمانه لما جاز أن يُقال إنه آمن. جاءه الشفاء لأنه آمن إيماناً يثمر بالطاعة. وهذه على الدوام قاعدة الخلاص والإيمان والأعمال. من يؤمن يخلص، ومن يؤمن لا بد له أن يعمل. فإن لم يعمل حسب الفرصة المُعطاه له يحكم أنه لم يؤمن، فيهلك، ليس لأنه لم يعمل بل لأنه لم يؤمن إيماناً صحيحاً .

نرى هذا الأعمى يسير بين الجمهور، بعد أن طلى المسيح عينيه بالطين، وقَبْل أن يغسلهما في بركة سلوام، ووجهه ملطخ بالطين، وسيُره جديُّ فوق العادة، مما ينبّه الناظرين ويثير عليه الاستهزاء. لكن الاستهزاء لم يُثنه عن طاعته، ولا نصائح العقلاء له أن لا ينقاد لكلام المسيح المكروه من قادة الدين، وان لا يعرض نفسه لغيظ الرؤساء، لأنه يعمل في السبب ضدّاً لتعاليمهم. كل هذه لم تطفئ فتيلة إيمانه المدخنة، ولم تردّه عن الذهاب إلى حيث أمره المسيح. ولما نال البصر عاد إلى المكان الذي فارق فيه المسيح ليمتّع بصره الجديد بروية الذي أنعم عليه بهذه الهبة التي لا تُنْثَن، وليقدم له الشكر اللائق والواجب، ويستمد منه إرشادات جديدة دينية. لكنه لم يجد المسيح هناك، ولم يجد من يهديه إليه .

هذه المعجزة رمز مناسب جداً للخلاص. لأنها منحت هذا المولود أعمى ما لم يكن له سابقاً. كانت مصيبة هذا الرجل الكبرى أنه مولود أعمى بالمعنى الروحي أيضاً، لأنه وُلد في الإثم والخطيئة كما ذكّرهُ الرؤساء، فمنحه المسيح مع البصر الجديد الجسدي، ما هو أهم بما لا يُقاس، وهو بصر جديد روحي .

«فَالْجِيرَانُ وَالَّذِينَ كَانُوا يَرَوْنَهُ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ أَعْمَى، قَالُوا: «أَلَيْسَ هَذَا هُوَ الَّذِي كَانَ يَجْلِسُ وَيَسْتَعْطِي؟» آخَرُونَ قَالُوا: «هَذَا هُوَ». وَآخَرُونَ: «إِنَّهُ يُشْبِهُهُ». وَأَمَّا هُوَ فَقَالَ: «إِنِّي أَنَا هُوَ». فَقَالُوا لَهُ: «كَيْفَ انْفَتَحَتْ عَيْنَاكَ؟» أَجَابَ ذَلِكَ وَقَالَ: «إِنْسَانٌ يُقَالُ لَهُ يَسُوعُ صَنَعَ طِيناً وَطَلَى عَيْنَيَّ، وَقَالَ لِي: اذْهَبْ إِلَى بَرْكَةِ سِلْوَامَ وَاغْتَسِلْ. فَمَضَيْتُ وَاغْتَسَلْتُ فَأَبْصَرْتُ». فَقَالُوا لَهُ: «أَيْنَ ذَلِكَ؟» قَالَ: «لَا أَعْلَمُ» (يوحنا ٩: ١٢-١٣).

نال المولود أعمى شفاءه في يوم سبت - وهو يوم راحة عند اليهود. وعندما رأى المتعصبون الرجل ماشياً في السبب يطلب الشفاء حقنوا عليه، وأرادوا أن يعاقبوه لأنه خالف شريعة السبت المقدسة. ولم يجسر أحد أن يدافع عمّا فعله المسيح، ولا عمّا جرى مع الأعمى، لأن الرؤساء كانوا قد أعلنوا جهاراً أنه إن اعترف أحد بأنه المسيح يُحرّم من امتيازاته الدينية والمدنية، ويطردونه من ممارسة العبادة .

لما فشل الأعمى الذي أبصر أن يرى شافيه، رجع إلى بيته ليرى والديه وجيرانه لأول مرة في حياته التي لم تقلّ عن الثلاثين سنة .

ما أعظم التغيير الذي حصل في منظر هذا الرجل بسبب ما جرى له. فقد انفتحت عيناه، وضاء وجهه بالفرح، وتغيرت لهجته، فلم يعرفه الذين كانوا يعرفونه بعض المعرفة السطحية فقط. لهذا السبب اختلف الرأي بخصوصه. اعتقد البعض أن شفاؤه وهُم وخداع، وأن هذا البصير ليس هو ذاك الضرير بل شخص آخر يشبهه. أما هو فقال: «إني أنا هو». ولما سألوه عما جرى له، ومن شفاؤه، أجابهم بالواقع. لكن لما سألوه عن شافيه أين هو؟ قال: «لا أعلم». وهو يتمنى لو استطاع أن يهتدي إلى مكان المسيح ليهديهم إليه.

«فَأَتُوا إِلَى الْفَرِّيسِيِّينَ بِالَّذِي كَانَ قَبْلاً أَعْمَى. وَكَانَ سَبَبُ حِينَ صَنَعَ يَسُوعُ الطِّينَ وَفَتَحَ عَيْنَيْهِ. فَسَأَلَهُ الْفَرِّيسِيُّونَ أَيْضاً كَيْفَ أَبْصَرَ، فَقَالَ لَهُمْ: «وَضَعُ طِيناً عَلَى عَيْنَيَّ وَاغْتَسَلْتُ، فَأَنَا أَبْصِرُ». فَقَالَ قَوْمٌ مِنَ الْفَرِّيسِيِّينَ: «هَذَا الْإِنْسَانُ لَيْسَ مِنَ اللَّهِ، لِأَنَّهُ لَا يَحْفَظُ السَّبْتَ». آخَرُونَ قَالُوا: «كَيْفَ يَقْدِرُ إِنْسَانٌ خَاطِئٌ أَنْ يَعْمَلَ مِثْلَ هَذِهِ الْآيَاتِ؟» وَكَانَ بَيْنَهُمُ انْتِشَاقٌ. قَالُوا أَيْضاً لِلْأَعْمَى: «مَاذَا تَقُولُ أَنْتَ عَنْهُ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ فَتَحَ عَيْنَيْكَ؟» فَقَالَ: «إِنَّهُ نَبِيٌّ». فَلَمْ يُصَدِّقِ الْيَهُودُ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ أَعْمَى فَأَبْصَرَ حَتَّى دَعَوْا أَبَوِيَ الَّذِي أَبْصَرَ. فَسَأَلُوهُمَا قَائِلِينَ: «أَهَذَا ابْنُكُمَا الَّذِي تَقُولَانِ إِنَّهُ وُلِدَ أَعْمَى؟ فَكَيْفَ يُبْصِرُ الْآنَ؟» أَجَابَهُمَا أَبَوَاهُ وَقَالَا: «نَعْلَمُ أَنَّ هَذَا ابْنُنَا وَأَنَّهُ وُلِدَ أَعْمَى، وَأَمَّا كَيْفَ يُبْصِرُ الْآنَ فَلَا نَعْلَمُ. أَوْ مَنْ فَتَحَ عَيْنَيْهِ فَلَا نَعْلَمُ. هُوَ كَامِلُ السِّنِّ. اسْأَلُوهُ فَهُوَ يَتَكَلَّمُ عَنْ نَفْسِهِ». قَالَ أَبَوَاهُ هَذَا لِأَنَّهُمَا كَانَا يَخَافَانِ مِنَ الْيَهُودِ، لِأَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا قَدْ تَعَاهَدُوا أَنَّهُ إِنْ اعْتَرَفَ أَحَدٌ بِأَنَّهُ الْمَسِيحُ يُخْرَجُ مِنَ الْمَجْمَعِ. لِذَلِكَ قَالَ أَبَوَاهُ: «إِنَّهُ كَامِلُ السِّنِّ، اسْأَلُوهُ» «يوحنا ٩: ١٣-٢٣».

لم يهتد المتعصبون إلى الذي سبب هذه المخالفة، فجرؤوا الأعمى الذي أبصر إلى مجلسهم ليحاكموه. ولما طلب أعضاء المجلس أن يسمعو القصّة من فمه رأساً قصّها عليهم. ولما علموا أن المسيح الذي يبغضونه وينوون قتله فعل هذه المعجزة حاروا في أمرهم. إن هم حكموا على المسيح بمخالفة السبت يثبتون المعجزة ويشيعون خبرها، فيزيد تمسك الشعب بالمسيح. ولأنه وقت العيد العظيم لا يُستبعد أن الشعب يثير حركة سياسية، وينادي بالمسيح ملكاً. وإن هم أنكروا حقيقة المعجزة، يخسرون الحُجّة التي فرحوا لها للحكم عليه بأنه دنس السبت. لذلك ترددوا وناقضوا ذواتهم لأنهم أثبتوا المعجزة أولاً، وافتكروا الآن أن يلاشوا تأثيرها بقولهم إن فعلها في يوم السبت برهان أن الفاعل ليس من الله، بل قد فعلها بقوة الشياطين!

لكن قوماً في المجلس اعترضوا بقولهم: «كيف يقدر إنسان خاطئ أن يعمل مثل هذه المعجزة؟» فحصل انقسام في المجلس، وغيّروا خطّتهم وعمدوا إلى حيلة ضد الأولى، إذ حاولوا إنكار المعجزة لعلهم ينجحون في اتهام المسيح بالاحتتيال، وطلبوا أن يجبروا الرجل وأبويه على إنكار المعجزة. ولكنه قال: «أعلم شيئاً واحداً: أني كنتُ أعمى والآن أبصر».

هذا القول هو شعار كل من اختبر الخلاص بالمسيح، بواسطة الإيمان الحي به، لأنه يقدم الشهادة عينها .

«فَدَعَوْا ثَانِيَةً الْإِنْسَانَ الَّذِي كَانَ أَعْمَى، وَقَالُوا لَهُ: «أَعْطِ مَجْداً لِلَّهِ. نَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْإِنْسَانَ خَاطِئٌ». فَأَجَابَ: «أَخَاطِئُ هُوَ؟ لَسْتُ أَعْلَمُ. إِنَّمَا أَعْلَمُ شَيْئاً وَاحِداً: أَنِّي كُنْتُ أَعْمَى وَالْآنَ أَبْصِرُ». فَقَالُوا لَهُ أَيْضاً: «مَاذَا صَنَعَ بِكَ؟ كَيْفَ فَتَحَ عَيْنَيْكَ؟» أَجَابَهُمْ: «قَدْ قُلْتُ لَكُمْ وَلَمْ تَسْمَعُوا. لِمَاذَا تُرِيدُونَ أَنْ تَسْمَعُوا أَيْضاً؟ أَلَعَلَّكُمْ أَنْتُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تُصِيرُوا لَهُ تَلَامِيذٌ؟» فَتَشْتَمُوهُ وَقَالُوا: «أَنْتَ تَلْمِيزُ ذَاكَ، وَأَمَّا نَحْنُ فَإِنَّا تَلَامِيذُ مُوسَى. نَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ مُوسَى كَلَّمَهُ اللَّهُ، وَأَمَّا هَذَا فَمَا نَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ هُوَ». أَجَابَ الرَّجُلُ وَقَالَ لَهُمْ: «إِنَّ فِي هَذَا عَجَباً! إِنَّكُمْ لَسْتُمْ تَعْلَمُونَ مِنْ أَيْنَ هُوَ، وَقَدْ فَتَحَ عَيْنِي. وَنَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ لَا يَسْمَعُ لِلْخُطَاةِ. وَلَكِنْ إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَتَّقِي اللَّهَ وَيَفْعَلُ مَشِيئَتَهُ فَلِهَذَا يَسْمَعُ. مِنْذُ الدَّهْرِ لَمْ يُسْمَعْ أَنَّ أَحَداً فَتَحَ عَيْنِي مَوْلُودٍ أَعْمَى. لَوْ لَمْ يَكُنْ هَذَا مِنَ اللَّهِ لَمْ يَقْدِرْ أَنْ يَفْعَلَ شَيْئاً». أَجَابُوا قَالُوا لَهُ: «فِي الْخَطَايَا وُلِدْتَ أَنْتَ بِجَمَلَتِكَ، وَأَنْتَ تُعَلِّمُنَا!» فَأَخْرَجُوهُ خَارِجاً) «يوحنا ٩: ٢٤-٣٤» .

ولما وجَّه الرؤساء أسئلتهم للأعمى الذي أبصر قال: «قلت لكم ولم تسمعوا. لماذا تريدون أن تسمعوا أيضاً؟ ألعلمكم أنتم تريدون أن تصيروا له تلاميذ؟» فشتموه مفتخرين بأنهم تلاميذ موسى، بينما هو تلميذ هذا الجليلي المجهول الأصل. شتموه بحجة أنه ضلَّ وكفر في تسميته المسيح نبياً. ولا مهم الأعمى الذي أبصر لأنهم - وهو معلمو الدين - يجهلون أصل شخص عمل ما يبرهن أنه من الله. وختم جوابه بكلام قوي أظهر ذكائه وشجاعته وإيمانه. إذ قال إن كل تاريخهم منذ نشأة العالم لا يذكر شخصاً واحداً منح البصر لمولود أعمى. ثم قال: «نعلم أن الله لا يسمع للخطاة، ولكن إن كان أحد يتقي الله ويفعل مشيئته فلماذا يسمع. لو لم يكن هذا من الله ما قدر أن يفعل شيئاً.»

ويستند قوله هذا على بعض آيات الكتاب، فالخاطي الوحيد الذي يسمع له الله هو الذي يقدم توبة حقيقية صادقة. فاستشاطوا غيظاً وقالوا له: «في الخطايا وُلدت أنت بجملتك وأنت تعلِّمنا!». ثم حكموا عليه بالحرِّم الأعظم وأخرجوه من المجمع .

«فَسَمِعَ يَسُوعُ أَنَّهُمْ أَخْرَجُوهُ خَارِجاً، فَوَجَدَهُ وَقَالَ لَهُ: «أَتُؤْمِنُ يَا ابْنَ اللَّهِ؟» أَجَابَ: «مَنْ هُوَ يَا سَيِّدُ لِأَوْ مِنْ بِهِ؟» فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: «قَدْ رَأَيْتُهُ، وَالَّذِي يَتَكَلَّمُ مَعَكَ هُوَ هُوَ». فَقَالَ: «أَوْ مِنْ يَا سَيِّدُ». وَسَجَدَ لَهُ» (يوحنا. 9:35-38)

وما أن خرج الرجل من المجمع مطروداً حتى لاقاه المسيح، فقال له: «أتؤمن يا ابن الله؟». لم يعلن المسيح ذاته كابن الله للعلماء في الأمة، لكنه أعلن ذلك لهذا الفقير الميال إلى الإيمان، والذي ظهر جوهره لما أجاب: «من هو يا سيد لأومن به؟» فأناره المسيح بقوله: «قد رأيته، والذي يتكلم معك هو هو.»

ما أصعب هذا الجواب على مسامع يهودي متمسك بالتوحيد. كيف يكون هذا الرجل الذي أمامه ابن الله وكل ملامحه بشرية؟ فإن كان حقاً ابن الله فيجب أن يسجد له حالاً، وإلا فلا يجوز، بل يكون السجود له خطيئة عظيمة. لقد عرف أولاً واعترف أن المسيح نبي ولم يسجد له، وأما الآن فيسجد، لأنه صدّق أنه ابن الله، وهذا يُجيز سجوداً له لا يُعطى لنبي أو ملك أو ملاك .

في هذه الساعة تمّ شفاء هذا الرجل من عماه الروحي الذي وُلد فيه، فأبصر جلياً ورأى أمامه بعينه الجسديتين يسوع الناصري ابن مريم، وبعين الإيمان رأى ابن الله الوحيد. أخذ هذا المسكين من رؤسائه الشتيمة والحرّم، لكن المسيح عوّض عليه أضعاف الأضعاف بالبركة والخلاص. أولئك أخرجوه من المجمع وأغلقوا في وجهه باب النظام الديني والحقوق المذهبية، لكن المسيح أدخله إلى ملكوت الله وفتح له باب السماء. وبسبب عماه اهتدى إلى الخلاص الأبدي، وربح صداقة هذا الخَلّ السماوي، ونال ذكراً شريفاً أبدياً في التاريخ. ثم أنه خدم المسيح بنشر صيته انتشاراً جديداً بشهادته الصادقة له، وخدم ذوي القلوب السليمة حوله بإعطائهم أسباباً كافية ليلجأوا إلى هذا المخلص وينالوا به خلاصاً. أفلا يحقُّ لنا أن نتصوّره بين القديسين في السماء يقدم شكراً وافراً على الدوام، لأنه وُلد أعمى .

المسيح الراعي الصالح

«فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: «قَدْ رَأَيْتَهُ، وَالَّذِي يَتَكَلَّمُ مَعَكَ هُوَ هُوَ». فَقَالَ: «أَوْ مِنْ يَا سَيِّدُ». وَسَجَدَ لَهُ. فَقَالَ يَسُوعُ: «لِدِينُونَةِ أَنْتِثُ أَنَا إِلَى هَذَا الْعَالَمِ، حَتَّى يُبْصِرَ الَّذِينَ لَا يُبْصِرُونَ وَيَعْمَى الَّذِينَ يُبْصِرُونَ». فَسَمِعَ هَذَا الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ مِنَ الْفَرِيسِيِّينَ، وَقَالُوا لَهُ: «أَلَعَلَّنَا نَحْنُ أَيْضاً عُمَيَّانُ؟» قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «لَوْ كُنْتُمْ عُمَيَّانَا لَمَا كَانَتْ لَكُمْ خَطِيئَةٌ. وَلَكِنْ الْآنَ تَقُولُونَ إِنَّنَا نُبْصِرُ، فَخَطِئْتُكُمْ بِأَقِيَّةٍ.»

«الْحَقُّ الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ الَّذِي لَا يَدْخُلُ مِنَ الْبَابِ إِلَى حَظِيرَةِ الْخِرَافِ، بَلْ يَطْلُعُ مِنْ مَوْضِعٍ آخَرَ، فَذَلِكَ سَارِقٌ وَلِصٌّ. وَأَمَّا الَّذِي يَدْخُلُ مِنَ الْبَابِ فَهُوَ رَاعِي الْخِرَافِ. لِهَذَا يَفْتَحُ الْبُوابُ، وَالْخِرَافُ تَسْمَعُ صَوْتَهُ، فَيَدْخُلُ خِرَافُهُ الْخَاصَّةَ بِأَسْمَاءٍ وَيُخْرِجُهَا. وَمَتَى أَخْرَجَ خِرَافَهُ الْخَاصَّةَ يَذْهَبُ أَمَامَهَا، وَالْخِرَافُ تَتَّبَعُهُ، لِأَنَّهَا تَعْرِفُ صَوْتَهُ. وَأَمَّا الْعَرِيبُ فَلَا تَتَّبَعُهُ بَلْ تَهْرُبُ مِنْهُ، لِأَنَّهَا لَا تَعْرِفُ صَوْتَ الْغُرَبَاءِ». هَذَا الْمَثَلُ قَالَهُ لَهُمْ يَسُوعُ، وَأَمَّا هُمْ فَلَمْ يَفْهَمُوا مَا هُوَ الَّذِي كَانَ يُكَلِّمُهُمْ بِهِ» (يوحنا ١٠: ٦-٩).

فتح المسيح عيني الرجل الذي وُلِدَ أعمى، ولكن شيوخ اليهود قاوموا المسيح. وهاجموا الأعمى الذي أبصر. وطرده من مجتمعهم، فكيف يكلمهم المسيح؟

لقد أطلق عليهم لقب «سُرَّاق ولصوص» لأنهم لم يدخلوا على وظيفتهم الرعائية من الباب الوحيد الذي عيّنه الله، الذي هو المسيح ذاته، بل طلّعوا من موضع آخر. ولم يدخلوا بدعوة إلهية، ولا لأهلية فيهم، بل لنجاحهم في الوسائط السياسية. دخلوا من الثغرات في سور الحظيرة، فقد نالوا وظيفتهم الكهنوتية الرعوية بالإرث أو المحاباة أو التمليق أو الرشوة أو الحيلة أو الاستبداد. فما الفائدة من تسلسلهم الهاروني ورسامتهم القانونية، وغير ذلك من الشروط الرسمية الخارجية، طالما هم تائهون عن الباب؟ والمسيح ذاته هو الباب. وإلى اليوم لا دخول للخدمة الرعائية إلا من هذا الباب.

المسيح هو الباب

«فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ أَيْضاً: «الْحَقُّ الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنِّي أَنَا بَابُ الْخِرَافِ. جَمِيعُ الَّذِينَ أَتَوْا قَبْلِي هُمْ سُرَّاقٌ وَلُصُوصٌ، وَلَكِنَّ الْخِرَافَ لَمْ تَسْمَعْ لَهُمْ. أَنَا هُوَ الْبَابُ. إِنْ دَخَلَ بِي أَحَدٌ فَيَخْلُصُ وَيَدْخُلُ وَيَخْرُجُ وَيَجِدُ مَرْعًى. أَلَسَّارِقٌ لَا يَأْتِي إِلَّا لِيَسْرِقَ وَيَذْبَحَ وَيُهْلِكَ، وَأَمَّا أَنَا فَقَدْ أَتَيْتُ لِنَكُونُ لَهُمْ حَيَاةً وَلِنَكُونُ لَهُمْ أَفْضَلُ» (يوحنا ١٠: ٧-١٠).

قال أحد اللاهوتيين: «إن الراعي الحقيقي بين البشر هو الذي يتقلد هذه الوظيفة حباً للمسيح، ويقصد تمجيد المسيح، ويعمل عمله بقوة المسيح، ويعلم تعليم المسيح، ويسلك في خطوات المسيح، ويسعى ليأتي بالنفوس إلى المسيح». ولا يصح الخروج أيضاً إلا من هذا

الباب. والذي قال: «الحق الحق أقول لكم إني أنا باب الخراف. إن دخل بي أحد فيخلص، ويدخل ويخرج، ويجد مرعى». فالباب للرعاة هو الباب أيضاً للرعية، أي لأفراد المؤمنين .

فسر البعض أن الباب المذكور في هذا المثل هو الروح القدس. يعني أن وصول الراعي إلى قلوب رعيته، بقوة روحية لخلاصهم وبنيتهم، لا يكون إلا بفعل هذا الروح. كما أن تأثير المسيح في تبشيريه كان يُعزى إلى هذا الروح .

المسيح هو الراعي الصالح

«أَنَا هُوَ الرَّاعِي الصَّالِحُ، وَالرَّاعِي الصَّالِحُ يَبْذُلُ نَفْسَهُ عَنِ الْخِرَافِ» (يوحنا ١٠: ١١).

ثم وصف المسيح نفسه بأنه الراعي الصالح، لهذا يصلي صاحب المزامير: «يَا رَاعِي إِسْرَائِيلَ اصْنَعْ، يَا قَائِدَ يُوسُفَ كَالضَّانِّ» (مزمور ٨٠: ١) (ويقول النبي إشعياء: «هُوَذَا السَّيِّدُ... كَرَاعٍ يَرْعَى قَطِيعَهُ. بِذِرَاعِهِ يَجْمَعُ الْحُمْلَانَ وَفِي حِضْنِهِ يَحْمِلُهَا، وَيَقْوِدُ الْمُرْضِعَاتِ» (إشعياء ٤٠: ١١) ثم أن أحلى المزامير كلها مزمور الراعي (مزمور ٢٣) يقول مطلعته: «الرب راعي فلا يعوزني شيء».

ليست مهنة الراعي مهنة فخر ودلال، بل هي محفوفة بالمتاعب والمخاطر في الوعور بين الوحوش الضارية. والمسيح كالراعي الصالح تحمّل أعظم المتاعب والمخاطر، ثم بذل حياته ليخلص خرافه الخاصة. بينما الذين سمّاهم «سُرَّاقاً ولصوصاً» لا يأتون إلا ليسرقوا ويذبحوا ويهلكوا. والذين سمّاهم «أجرى» لا يدافعون عن الخراف في ساحات الخطر، بل يهربون ويتركون القطيع يتشتت ويفترس «لأنهم لا يبالون بالخراف».

أما المسيح فهو الراعي الصالح الذي بذل نفسه عن الخراف. فلكني تسلم الخراف من مخالب إبليس ذاق المسيح موتاً لا يستحقه، وأحيا الموتى بموته الذي برهن القيمة العظيمة التي يقدر بها خرافه جملة وأفراداً. وهو يعرف كل فرد من قطيعه معرفة تامة، تتناول أسماءهم وجميع أسرارهم وخفياتهم. ومعرفته الدقيقة واهتمامه التام بكل فرد من رعيته التي لا تُحصى ليست بأقل الآن مما كانت عليه لما أسلم نفسه على الصليب .

الراعي يبذل نفسه

«وَأَمَّا الَّذِي هُوَ أَجِيرٌ، وَلَيْسَ رَاعِيًا، الَّذِي لَيْسَتْ الْخِرَافُ لَهُ، فَيَرَى الذَّنْبَ مُقْبِلًا وَيَتْرَكَ الْخِرَافَ وَيَهْرُبُ، فَيَخْطِفُ الذَّنْبُ الْخِرَافَ وَيَبْذُلُهَا. وَالْأَجِيرُ يَهْرُبُ لِأَنَّهُ أَجِيرٌ، وَلَا يُبَالِي بِالْخِرَافِ. أَمَّا أَنَا فَإِنِّي الرَّاعِي الصَّالِحُ، وَأَعْرِفُ خَاصَّتِي وَخَاصَّتِي تَعْرِفُنِي، كَمَا أَنَّ الْآبَ يَعْرِفُنِي وَأَنَا أَعْرِفُ الْآبَ. وَأَنَا أَضَعُ نَفْسِي عَنِ الْخِرَافِ. وَلِي خِرَافٌ أُخَرُ لَيْسَتْ مِنْ هَذِهِ الْحَظِيرَةِ، يَنْبَغِي أَنْ آتِيَ بِتِلْكَ أَيْضًا فَتَسْمَعَ صَوْتِي، وَتَكُونُ رَعِيَّةً وَاحِدَةً وَرَاعٍ وَاحِدًا. لِهَذَا

يُحِبُّنِي الْآبُ، لِأَنِّي أَضَعُ نَفْسِي لِأَخْذِهَا أَيْضاً. لَيْسَ أَحَدٌ يَأْخُذُهَا مِنِّي، بَلْ أَضَعُهَا أَنَا مِنْ ذَاتِي. لِي سُلْطَانٌ أَنْ أَضَعَهَا وَلِي سُلْطَانٌ أَنْ أَخْذَهَا أَيْضاً. هَذِهِ الْوَصِيَّةُ قَبْلُتُهَا مِنْ أَبِي» (يوحنا ١٢: ١٠-١٨).

لاحظ المسيح أثناء خطابه أنهم لم يفهموا كلامه، فكرره وفسّره موضحاً لهم أنه يضع نفسه عن الخراف طوعاً، فيحقُّ له القول: «لهذا يحبني الآب، لأنني أضع نفسي لأخذها أيضاً. هذه الوصية قبلتها من أبي». وهذا يشبه قول إشعياء «أَتَأْمَهُمْ هُوَ يَحْمِلُهَا. لِذَلِكَ أَقْسِمُ لَهُ بَيْنَ الْأَعْرَاءِ وَمَعَ الْعُظَمَاءِ يَفْسِمُ غَنِيمَةً، مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ سَكَبَ لِلْمَوْتِ نَفْسَهُ وَأَحْصَى مَعَ أَنْمَةٍ، وَهُوَ حَمَلَ خَطِيئَةَ كَثِيرِينَ وَشَفَعَ فِي الْمُذْنِبِينَ» (إشعياء ٥٣: ١١، ١٢). وأوضح لهم أيضاً أن له سلطاناً أن يسترد حياته البشرية بعد أن يبذلها - أي أن يقوم من الموت بقوته الذاتية بعد هذا الخضوع الاختياري للموت.

ثم صرح أيضاً باهتمامه بالخراف الآخر التي ليست من هذه الحظيرة. فقال «ينبغي أن آتي بتلك أيضاً، لأنها لي، فتسمع صوتي وتكون رعية واحدة وراعٍ واحد». فهو يقصد ضمُّ الأمم الخارجية إلى شعب الله المختار.

«فَحَدَّثَ أَيْضاً انْشِقَاقَ بَيْنَ الْيَهُودِ بِسَبَبِ هَذَا الْكَلَامِ. فَقَالَ كَثِيرُونَ مِنْهُمْ: «بِهَ شَيْطَانٌ وَهُوَ يَهْذِي. لِمَاذَا تَسْمَعُونَ لَهُ؟» آخَرُونَ قَالُوا: «لَيْسَ هَذَا كَلَامَ مَنْ بِهِ شَيْطَانٌ. أَلَعَلَّ شَيْطَاناً يَقْدِرُ أَنْ يَفْتَحَ أَعْيْنَ الْعُمَيَّانِ؟»

وَكَانَ عَيْدُ التَّجْدِيدِ فِي أُورُشَلِيمَ، وَكَانَ شِتَاءً. وَكَانَ يَسُوعُ يَتَمَشَّى فِي الْهَيْكَلِ فِي رَوَاقِ سُلَيْمَانَ، فَاحْتَاطَ بِهِ الْيَهُودُ وَقَالُوا لَهُ: «إِلَى مَتَى تَعْلَقُ أَنْفُسَنَا؟ إِنْ كُنْتَ أَنْتَ الْمَسِيحُ فَقُلْ لَنَا جَهْرًا». أَجَابَهُمْ يَسُوعُ: «إِنِّي قُلْتُ لَكُمْ وَلَسْتُمْ تُؤْمِنُونَ. الْأَعْمَالُ الَّتِي أَنَا أَعْمَلُهَا بِاسْمِ أَبِي هِيَ تَشْهَدُ لِي. وَلَكِنِّكُمْ لَسْتُمْ تُؤْمِنُونَ لِأَنَّكُمْ لَسْتُمْ مِنْ خِرَافِي، كَمَا قُلْتُ لَكُمْ. خِرَافِي تَسْمَعُ صَوْتِي، وَأَنَا أَعْرِفُهَا فَتَتَّبَعُنِي. وَأَنَا أُعْطِيهَا حَيَاةً أَبَدِيَّةً، وَلَنْ تَهْلِكَ إِلَى الْأَبَدِ، وَلَا يَخْطُفُهَا أَحَدٌ مِنْ يَدِي. أَبِي الَّذِي أُعْطَانِي إِيَّاهَا هُوَ أَعْظَمُ مِنَ الْكُلِّ، وَلَا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَخْطَفَ مِنْ يَدِ أَبِي. أَنَا وَالْآبُ وَاحِدٌ» (يوحنا ١٩: ١٠-٣٠).

كانت هذه التعاليم فوق مستوى سامعيه، فقالوا: «به شيطان وهو يهذي. لماذا تسمعون له؟» أما القسم الآخر، وهم الأقلية، فلم يسكتوا عن التهمة بل أجابوا: «ليس هذا كلام من به شيطان». واستندوا في جوابهم على المعجزة الأخيرة، التي كانت سبب إلقاء هذا الخطاب، وتساءلوا: «ألع شيطاناً يقدر أن يفتح أعين العميان؟». أما نحن فنضيف على برهانهم الإستفهامي برهاناً آخر ونسأل: على فرض أن الشيطان فتح أعين العميان، هل يمكن أن يعمل الشيطان عملاً صالحاً؟ ألا تكفي الرحمة في هذا الشفاء برهاناً أنه ليس فعلاً شيطانياً؟ لو أراد الخير للناس لما كان شيطاناً.

وهكذا أظهر الرؤساء غباوة عندما نسبوا أعمال المسيح الصالحة إلى الشيطان، فأتبثوا صدق حكم المسيح عليهم بأنهم عميان. ولماذا نسي هؤلاء العلماء أن منح البصر للعميان في التوراة علامة من جملة علامات المسيح وأفعاله؟

أوضح المسيح أنه الراعي الصالح، وأن خرافه تعرفه وتسمع صوته وتتبعه. أما رؤساء اليهود فليسوا من خرافه، ولذلك يرفضون أجلى البراهين على كونه مسيحهم، ويرفضونه لأنه لا يجاريهم في رغباتهم وأفكارهم. أما جاذبيته القوية للأشخاص الذين يستحقون اسم الخراف بالمعنى الروحي، فبرهان على أنه المخلص الآتي، لأن هؤلاء بفعل الروح الإلهي في تجديدهم يميلون إلى الراعي الصالح، الذي نعرفه من ميل الخراف إليه واتباعهم له.

ثم قال المسيح عن خرافه: «لن تهلك إلى الأبد، ولا يخطفها أحد من يدي. أبي الذي أعطاني إياها هو أعظم من الكل. ولا يقدر أحد يخطف من يد أبي». أما الذين يُحسبون ويحسبهم الناس من خرافه ثم يرتدون عنه، فأمرهم موضح في قول الرسول يوحنا: «مَنْ خَرَجُوا، لَكِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا مِنَّا، لِأَنَّهُمْ لَوْ كَانُوا مِنَّا لَبَقُوا مَعَنَا. لَكِنْ لِيُظْهِرُوا أَنَّهُمْ لَيْسُوا جَمِيعُهُمْ مِنَّا» (١ يوحنا ٢: ١٩). من تحقق أنه من خراف المسيح أصبح في ضمانته فلا يهلك. ويستحيل على إبليس وعلى العالم أن يخطفاه من يد راعيهم السماوي. وإن ضلّ، فهذا الراعي يرد نفسه ويهديه «إِلَى سُبُلِ الْبِرِّ مِنْ أَجْلِ اسْمِهِ» (مزمور 23:3).

وعندما يضع المؤمن ثقته في هذه الآية مع أمثالها يجد مرساه مؤتمنة لنفسه، ولا سيما في ساعة السقوط. ولكن لئلا يتصور أحد هذا اليقين يفتح الباب للاستمرار في الخطيئة طمعاً في ضمان المسيح، نقول إن الحياة الأبدية التي يعطيها المسيح لخرافه هي حياة سماوية تجعلنا نكره الخطيئة ونحب إرضاء الأب السماوي. لأن كل من يرضى أن يبقى في أي نوع من الإثم ويراعي إثماً في قلبه، يبرهن بذلك أنه ليس من خراف المسيح الخاصة. ومن يطلب فقط الخلاص من عذابات الآخرة لا محلّ له بين الخراف التي يجمعها الملك عن يمينه في يوم الحساب. وكل من يحب المخلص حباً صادقاً، ويقصد باستقامة ثابتة أن يتخلص من كل ما يخالف إرادة هذا المخلص، يحقّ له أن يطمئن برغم سقطاته، وأن يتمسك بقول الرسول بولس: «الَّذِي ابْتَدَأَ فِيكُمْ عَمَلًا صَالِحًا يُكَمِّلُ إِلَى يَوْمِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ» (فيلبي ١: ٦). ويقول الحكيم قبله: «الصِّدِّيقُ يَسْقُطُ سَبْعَ مَرَّاتٍ وَيَقُومُ» (أمثال ١٦: ٢٤). ولا يُعَقَّلُ أن المخلص القدير يبتدئ خلاصاً ويفشل في تكميله. ليس لغير خرافه أن يدركوا هذا السر الذي يعني ويهم الخراف فقط.

في هذا الخطاب تظهر جلياً براهين طبيعة المسيح الإلهية التي خوّلتها حقّ التكلم على صورة لا تجوز لإنسان هو مجرد بشر أن ينطق بها، لأنه سمّي المؤمنين خرافه، وقال إنها تسمع صوته. وليس أنها تسمع صوت الرب كما كان يقول الأنبياء. وإن الكلام كلامه (لم

يقول كلام الرب) وإن الخراف تتبعه، وإنه هو الذي يعطيها حياة أبدية، وأنها في يده هو. ولا أحد يخطفها من يده. وله الحق أن يقول إنها لن تهلك أبداً. قال أولاً إنها لا تُخطف من يده، ثم إنها لا تُخطف من يد أبيه. فلئلا يظن أحد أن هذين القولين متناقضان ختم خطابه بالقول: «أنا والآب واحد». وفي هذه العبارة أعلن التوحيد والتثنية في الله في وقت واحد .

وقع هذا الختام الخطير على الرؤساء السامعين كصاعقة أثارتهم حتى لم يعد لهم إلا الاختيار بين أمرين: إما أن يعبدوه كالمسيح ابن الله الوحيد، أو أن يرموه كمجذف حسب نص ناموسهم. «فتناولوا حجارة ليرجموه». لكنه قابل هذه الحركة بالبسالة قائلاً: «أعمالاً كثيرة حسنة أرىكم من عند أبي. بسبب أي عمل منها ترجمونني؟!». أجابوه: «إنك وأنت إنسان تجعل نفسك إلهاً». فأجابهم: «الذي قدّسه الآب وأرسله إلى العالم، أتقولون له إنك تجذف لأنني قلت إني ابن الله؟».

لا يقول نبي عن نفسه إن الآب قدسه وأرسله إلى العالم. ولما نفى المسيح عن نفسه التجديف في قوله إنه ابن الله، عرفنا صدق هذا القول. فلما حاول اليهود ثانية أن يمسكوه، خرج من أيديهم، وذهب إلى المكان الذي عمّد فيه يوحنا المعمدان، ونجح هناك في تبشيره، إذ آمن به كثيرون.

من تعاليم المسيح

تعليم عن الصلاة

«وَإِذْ كَانَ يُصَلِّي فِي مَوْضِعٍ، لَمَّا فَرَغَ، قَالَ وَاحِدٌ مِنْ تَلَامِيذِهِ: «يَا رَبُّ، عَلِّمْنَا أَنْ نُصَلِّيَ كَمَا عَلَّمَ يُوْحَنَّا أَيْضاً تَلَامِيذَهُ». فَقَالَ لَهُمْ: «مَتَى صَلَّيْتُمْ فَقُولُوا: أَبَانَا الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ، لِيَتَقَدَّسَ اسْمُكَ، لِيَأْتِ مَلَكُوتُكَ، لِيَتَكُنْ مَشِيئَتُكَ كَمَا فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ عَلَى الْأَرْضِ. خُبِّرْنَا كَفَافَتَنَا أَعْطِنَا كُلَّ يَوْمٍ، وَاغْفِرْ لَنَا خَطَايَانَا لِأَنَّنَا نَحْنُ أَيْضاً نَغْفِرُ لِكُلِّ مَنْ يُذْنِبُ إِلَيْنَا، وَلَا تُدْخِلْنَا فِي تَجَرِبَةٍ لَكِنْ نَجِّنَا مِنَ الشَّرِيرِ». ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: «مَنْ مِنْكُمْ يَكُونُ لَهُ صَدِيقٌ، وَيَمْضِي إِلَيْهِ نِصْفَ اللَّيْلِ وَيَقُولُ لَهُ: يَا صَدِيقُ أَفَرِضْنِي ثَلَاثَةَ أَرْغَفَةٍ، لِأَنَّ صَدِيقاً لِي جَاءَنِي مِنْ سَفَرٍ، وَلَيْسَ لِي مَا أَقْدِمُ لَهُ. فَيُجِيبُ ذَلِكَ مِنْ دَاخِلٍ وَيَقُولُ: لَا تُزْعِجْنِي! الْبَابُ مُغْلَقٌ الْآنَ، وَأَوْلَادِي مَعِيَ فِي الْفِرَاشِ. لَا أَقْدِرُ أَنْ أَقُومَ وَأُعْطِيكَ. أَقُولُ لَكُمْ: وَإِنْ كَانَ لَا يَقُومُ وَيُعْطِيهِ لِكُونِهِ صَدِيقَهُ، فَإِنَّهُ مِنْ أَجْلِ لِحَاجَتِهِ يَقُومُ وَيُعْطِيهِ قَدْرَ مَا يَحْتَاجُ. وَأَنَا أَقُولُ لَكُمْ: اسْأَلُوا تُعْطُوا. اُطْلُبُوا تَجِدُوا. اِقْرَعُوا يُفْتَحْ لَكُمْ. لِأَنَّ كُلَّ مَنْ يَسْأَلُ يَأْخُذُ، وَمَنْ يَطْلُبُ يَجِدُ، وَمَنْ يَقْرَعُ يُفْتَحْ لَهُ. فَمَنْ مِنْكُمْ وَهُوَ أَبٌ، يَسْأَلُهُ ابْنُهُ خُبْزاً، أَفَيُعْطِيهِ حَجَراً؟ أَوْ سَمَكَةً، أَفَيُعْطِيهِ بَدَلِ السَّمَكَةِ؟ أَوْ إِذَا سَأَلَهُ بَيْضَةً، أَفَيُعْطِيهِ عَفْرَباً؟ فَإِنْ كُنْتُمْ وَأَنْتُمْ أَشْرَارُ تَعْرِفُونَ أَنْ تُعْطُوا أَوْلَادَكُمْ عَطَايَا جَيِّدَةً، فَكَمْ بِالْحَرِيِّ الْآبُ الَّذِي مِنَ السَّمَاءِ، يُعْطِي الرُّوحَ الْقُدُسَ لِلَّذِينَ يَسْأَلُونَهُ!» (لوقا ١١: ١-١٣).

في ذات مرة، لما فرغ المسيح من الصلاة طلب منه أحد تلاميذه أن يعلمهم الصلاة كما فعل المعلمان، فأجابه المسيح بتكرار الصلاة الربانية، مختلفة قليلاً عن صورتها في موعظته على الجبل. وأردف هذه الصورة بمثل الصديق الذي يأتي ليلاً ليقترض من صديقه خبزاً، ولا ينجح أولاً. ولكنه ينجح أخيراً بسبب إلحاحه ولجأته. وبنى على هذا المثل نصيحته الشهيرة: «اسألوا تُعطوا. اطلبوا تجدوا. اقرعوا يُفتح لكم». أي أولاً سؤال بسيط. وإن لم يكف فأقوى منه: أي طلب. وإن فشل الطلب فالقرع. فما نُعطاه فوراً هو خير. وما نجده بعد الطلب هو خير أعظم. وما نناله بعد القرع هو كمال الخير.

ثم أوضح المسيح علاقة المؤمنين النبوية مع الله. فهذه تضمن لهم نوال الخير منه. إذ يستحيل أن يمنعه عن الذين يحبهم كأولاده. طالما الأب هو بشر لا يخدع ولده ولا يتأخر عنه، فكيف يمكن أن الأب السماوي الكامل يخدع أو يتأخر؟ ولا سيما إن طلب منه أولاده عطية الروح القدس، أثنى عطاياه.

تعليم عن عناية الله

«وَقَالَ لَهُ وَاحِدٌ مِنَ الْجَمْعِ: «يَا مُعَلِّمُ، قُلْ لِأَخِي أَنْ يُقَاسِمَنِي الْمِيرَاثَ». فَقَالَ لَهُ: «يَا إِنْسَانُ، مَنْ أَقَامَنِي عَلَيْكَ قَاضِياً أَوْ مُقَسِّمًا؟» وَقَالَ لَهُمْ: «انظُرُوا وَتَحَفَّظُوا مِنَ الطَّمَعِ، فَإِنَّهُ مَتَى

كَانَ لِأَحَدٍ كَثِيرٌ فَلَيْسَتْ حَيَاتُهُ مِنْ أَمْوَالِهِ. «وَضَرَبَ لَهُمْ مَثَلًا قَائِلًا: «إِنْسَانٌ غَنِيٌّ أَخَصَبَتْ كُورَتُهُ، فَفَكَّرَ فِي نَفْسِهِ قَائِلًا: مَاذَا أَعْمَلُ، لِأَنْ لَيْسَ لِي مَوْضِعٌ أَجْمَعُ فِيهِ أَثْمَارِي؟ وَقَالَ: أَعْمَلُ هَذَا: أَهْدِمُ مَخَازِنِي وَأَبْنِي أَعْظَمَ، وَأَجْمَعُ هُنَاكَ جَمِيعَ غَلَاتِي وَخَيْرَاتِي، وَأَقُولُ لِنَفْسِي: يَا نَفْسُ لَكَ خَيْرَاتٌ كَثِيرَةٌ، مَوْضُوعَةٌ لِسِنِينَ كَثِيرَةٍ. اسْتَرِيحِي وَكُلِّي وَاشْرَبِي وَافْرَحِي. فَقَالَ لَهُ اللَّهُ: يَا غَبِي، هَذِهِ اللَّيْلَةُ تُطْلَبُ نَفْسُكَ مِنْكَ، فَهَذِهِ الَّتِي أَعَدَدْتَهَا لِمَنْ تَكُونُ؟ هَكَذَا الَّذِي يَكْنِزُ لِنَفْسِهِ وَلَيْسَ هُوَ غَنِيًّا لِلَّهِ.»

وَقَالَ لِنِتْلَامِيذِهِ: «مِنْ أَجْلِ هَذَا أَقُولُ لَكُمْ: لَا تَهْتَمُّوا لِحَيَاتِكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ، وَلَا لِلْجَسَدِ بِمَا تَلْبَسُونَ. الْحَيَاةُ أَفْضَلُ مِنَ الطَّعَامِ، وَالْجَسَدُ أَفْضَلُ مِنَ اللِّبَاسِ. تَأْمَلُوا الْغُرَبَانَ: أَنَّهُ لَا تَزْرَعُ وَلَا تَحْصُدُ، وَلَيْسَ لَهَا مَخْدَعٌ وَلَا مَخْرَنٌ، وَاللَّهُ يُقَيِّمُهَا. كَمْ أَنْتُمْ بِالْحَرِيِّ أَفْضَلُ مِنَ الطُّيُورِ! وَمَنْ مِنْكُمْ إِذَا اهْتَمَّ يَقْدِرُ أَنْ يَزِيدَ عَلَى قَامَتِهِ ذِرَاعًا وَاحِدَةً؟ فَإِنْ كُنْتُمْ لَا تَقْدِرُونَ وَلَا عَلَى الْأَصْغَرِ، فَلِمَ أَذًا تَهْتَمُّونَ بِالْبَوَاقِي؟ تَأْمَلُوا الزَّنَابِقَ كَيْفَ تَنْمُو! لَا تَتْعَبُ وَلَا تَغْزُلُ، وَلَكِنْ أَقُولُ لَكُمْ إِنَّهُ وَلَا سُلَيْمَانُ فِي كُلِّ مَجْدِهِ كَانَ يَلْبَسُ كَوَاحِدَةٍ مِنْهَا. فَإِنْ كَانَ الْعُشْبُ الَّذِي يُوجَدُ الْيَوْمَ فِي الْحَقْلِ وَيُطْرَحُ غَدًا فِي النَّثُورِ يُلْبَسُهُ اللَّهُ هَكَذَا، فَكَمْ بِالْحَرِيِّ يُلْبَسُكُمْ أَنْتُمْ يَا قَلِيلِي الْإِيمَانِ؟ فَلَا تَطْلُبُوا أَنْتُمْ مَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَشْرَبُونَ وَلَا تَقْلَقُوا، فَإِنَّ هَذِهِ كُلَّهَا تَطْلُبُهَا أُمَمُ الْعَالَمِ. وَأَمَّا أَنْتُمْ فَأَبُوكُمْ يَعْلَمُ أَنَّكُمْ تَحْتَاجُونَ إِلَى هَذِهِ. بَلْ اطْلُبُوا مَلَكُوتَ اللَّهِ، وَهَذِهِ كُلُّهَا تَزَادُ لَكُمْ.

«لَا تَخَفْ أَيُّهَا الْقَطِيعُ الصَّغِيرُ، لِأَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ سَرَّ أَنْ يُعْطِيَكُمْ الْمَلَكُوتَ» (لوقا ١٢: ٣٢-٣٣).

جاء رجل إلى المسيح يطلب منه أن يستعمل سلطانه ليقنع أخاه أن يقاسمه الميراث، فرفض المسيح التدخل في الأمر، لأنه يحصر مساعدته الزمنية في الحاجات الضرورية التي لا يقدر غيره أن يؤديها، ولأن خدمته الدينية خالية من كل صبغة سياسية مذهبية، فلا يرضى أن ينظر الناس كرئيس مذهب يقضي في أمور تابعيه الزمنية. وبمناسبة هذا الحادث هاجم المسيح خطيئة أخرى أعم من الرياء، ولكنها غير مستقبحة عند العموم، وهي خطيئة الطمع، أي تعلق القلب بالمال.

ولكي يوضح ما هو الطمع، قدم مثلاً عن غني زادت خيراته الزمنية، لكنه لم يهتم أن يكون غنياً لله، بل رضي أن يعيش غنياً عنه تعالى. لما زادت محاصيله كان يجب أن يشكر الله ويعترف بفضلها، لكنه لم يفعل. وكان عليه أن يعرف أن أمواله ليست له بل لرَبِّه، وأنه موكلٌ عليها ليستخدمها في ما يهديه الله من الأعمال المفيدة له ولغيره، ولكنه لم يفعل. فأى حقٍ له أن يعتني الله به، ما دام لا يبالي بالله ولا بالناس، بل بذاته فقط؟ فكان نصيبه أن نقصت حياته بقدر ما زادت حاصلاته، لأنه سمع صوت الرب قائلاً: «يا غبي، هذه الليلة تُطلب نفسك منك. فهذه التي أعددتها لمن تكون؟».. لا يحصر الله خيراته الزمنية في

تُبْطِلُ الْأَرْضَ أَيْضاً؟ فَأَجَابَ: يَا سَيِّدُ، انْثَرَكُهَا هَذِهِ السَّنَةُ أَيْضاً، حَتَّى أَنْقَبَ حَوْلَهَا وَأَضَعَ زَبْلاً. فَإِنْ صَنَعْتَ ثَمَراً، وَإِلَّا فَفِيْمَا بَعْدُ تَقْطَعُهَا» (لوقا. 13:6-9)

أظهر المسيح أيضاً في خطابه إنه أتى إلى العالم بتعاليم هي كنار تحرق أشواك الأباطيل والتمسكين بها، لأنه متى جاء النور إلى العالم وأحب الناس الظلمة أكثر من النور، لا بد من الخصام بين أنصار النور وأنصار الظلام. لأن من طبيعة أنصار الظلام الخصام. فحيثما يكون الكل ظلاماً أو الكل نوراً، فلا خصام. أما متى أقبل النور على الظلام، فإن الظلام يهاجمه فيحدث الانقسام، فالانقسام إذاً نتيجة حتمية لمجيء المسيح لبث تعاليمه.

ثم شبه المسيح أمته اليهودية بشجرة تين قُضي عليها لعدم إثمارها، وأمر بقطعها لأنها تعطل الأرض. وشبه الخالق سبحانه بصاحب الكرم، وشبه المسيح نفسه بالكرام. فهو الوسيط بين الله وأبيه والناس الخطاة، يستدرك الغضب الإلهي الذي استحقوه لعدم إتيانهم بالأثمار الصالحة، ولتعطيلهم الأرض بقدوتهم الشريرة بين الأمم، ويسترحم الصبر الإلهي عليهم حتى يتم ما يقصده لخلاصهم. يعترف بأن الله صبر عليها ثلاث سنين، بينما كان هو يعلمهم ويخدمهم بطرق متنوعة. ولم تبقَ له غير واسطة وحيدة وأخيرة يقدمها لعلمهم بسببها يتوبون، وهي أنه يقدم ذاته أمام عيونهم ذبيحة إثم عنهم، فإن قبلوا هذه الواسطة يسلمون، وإلا فيقطعون. وقد تدوّنت على صفحات التاريخ بعد صعود المسيح، الخاتمة المحزنة لما صوّره المسيح في هذا المثل الذي تمّ به كلام المعمدان لما قال: «وَالآنَ قَدْ وُضِعَتِ الْفَأْسُ عَلَى أَصْلِ الشَّجَرِ، فَكُلُّ شَجَرَةٍ لَا تَصْنَعُ ثَمَراً جَيِّداً تُقَطَّعُ وَتُلْقَى فِي النَّارِ» (متى ٣: ١٠).

تعليم عن عمل الخير يوم السبت

«وَكَانَ يُعَلِّمُ فِي أَحَدِ الْمَجَامِعِ فِي السَّبْتِ، وَإِذَا امْرَأَةٌ كَانَتْ بِهَا رُوحٌ ضَعْفٍ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً، وَكَانَتْ مُنْحَنِيةً وَلَمْ تَقْدِرْ أَنْ تَنْتَصِبَ الْبَتَّةَ. فَلَمَّا رَأَاهَا يَسُوعُ دَعَاَهَا وَقَالَ لَهَا: «يَا امْرَأَةُ، إِنَّكَ مَحْلُولَةٌ مِنْ ضَعْفِكَ.» وَوَضَعَ عَلَيْهَا يَدَيْهِ، فَفِي الْحَالِ اسْتَقَامَتْ وَمَجَّدَتِ اللَّهَ. فَرَأَيْسُ الْمَجْمَعِ، وَهُوَ مُعْتَاطٌ لِأَنَّ يَسُوعَ أَبْرَأَ فِي السَّبْتِ، قَالَ لِلْمَجْمَعِ: «هِيَ سِتَّةُ أَيَّامٍ يَنْبَغِي فِيهَا الْعَمَلُ، فَفِي هَذِهِ انْتُوا وَاسْتَشْفُوا، وَلَيْسَ فِي يَوْمِ السَّبْتِ» فَأَجَابَهُ الرَّبُّ: «يَا مَرَاتِي، أَلَا يَحُلُّ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ ثَوْرَهُ أَوْ حِمَارَهُ مِنَ الْمَذُودِ وَيَمْضِي بِهِ وَيَسْقِيهِ؟ وَهَذِهِ، وَهِيَ ابْنَةُ إِبْرَاهِيمَ، قَدْ رَبَطَهَا الشَّيْطَانُ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً، أَمَا كَانَ يَنْبَغِي أَنْ تُحَلَّ مِنْ هَذَا الرِّبَاطِ فِي يَوْمِ السَّبْتِ؟» وَإِذْ قَالَ هَذَا أُخِجَ جَمِيعُ الَّذِينَ كَانُوا يُعَانِدُونَهُ، وَفَرَحَ كُلُّ الْجَمْعِ بِجَمِيعِ الْأَعْمَالِ الْمَجِيدَةِ الَّتِي كَانَتْ مِنْهُ» (لوقا ١٣: ١٠-١٧).

دخل المسيح مجمع إحدى القرى في يوم سبت وصار يعلم، وكان بين العابدين امرأة منحنية الظهر، لا تقدر أن تنتصب البتة منذ ثمانين سنة، حتى لم يعد لها أمل بصحة الجسم. لكن تقواها جذبتها إلى المعبد برغم العلة. لا يظهر أنها استجذبت بالمسيح، بل كانت تُصغي

إلى تعليمه، فدعاها ليشفيها ثم يجدد تعليمه في قضية السبت وبركاته. فلما تقدمت إليه وضع يديه عليها كطبيب يقوم ظهرها المنحني وقال: «يا امرأة، إنك محلولة من ضعفك». فانتصبت حالاً صحيحة من دائها، وأظهرت إيمانها وفعل النعمة في قلبها بأنها مجدت الله. فاغتاظ رئيس المجمع مدّعياً المحافظة على وصية السبت. ومع احترامه للمسيح صوّب توبيخه نحو الجمع وأمرهم أن لا يطالبوا بالشفاء في السبوت ما دام لهم ستة أيام أخرى لذلك.

أما المسيح فرفع عن هذه المسكينة، وعن الجموع، هذا الحكم الظالم. وذكر هذا الرئيس المرائي أنه يسمح للناس أن يعملوا في السبوت أعمالاً للمحافظة على مواشيهم تزيد على ما عمله المسيح للمحافظة على هذه المرأة. فإذا كانوا يقودون في السبوت مواشيهم إلى المياه بعد أن يحلوها من مرابطها، كيف يدينون من يحل شخصاً من قيود استمرت سنوات، بفعل الشيطان، ليقودها إلى الصحة الجسدية، ثم إلى الحياة الأبدية وفرح الجمع بكلام السيد المسيح وبجميع أعماله المجيدة، وخجل جميع الذين كانوا يعاندونه.

تعليم عن دعوة المساكين

«وَإِذْ جَاءَ إِلَى بَيْتِ أَحَدِ رُؤَسَاءِ الْفَرِيسِيِّينَ فِي السَّبْتِ لِيَأْكُلْ خُبْزاً، كَانُوا يُرَاقِبُونَهُ. وَإِذَا إِنْسَانٌ مُسْتَسْقٍ كَانَ قُدَامَهُ. فَسَأَلَ يَسُوعَ النَّامُوسِيِّينَ وَالْفَرِيسِيِّينَ: «هَلْ يَحِلُّ الْإِبْرَاءُ فِي السَّبْتِ؟» فَسَكَتُوا. فَأَمْسَكَهُ وَأَبْرَأَهُ وَأَطْلَقَهُ. ثُمَّ أَجَابَهُمْ وَقَالَ: «مَنْ مِنْكُمْ يَسْقُطُ حِمَارُهُ أَوْ ثَوْرُهُ فِي بئرٍ وَلَا يَنْشُلُهُ حَالاً فِي يَوْمِ السَّبْتِ؟» فَلَمْ يَقْدِرُوا أَنْ يُجِيبُوهُ عَنْ ذَلِكَ. وَقَالَ لِلْمَدْعُوِينَ مَثَلًا، وَهُوَ يُلاحِظُ كَيْفَ اخْتَارُوا الْمُتَكَاثِرَ الْأُولَى: «مَتَى دُعِيتَ مِنْ أَحَدٍ إِلَى عُرْسٍ فَلَا تَتَكَبَّرْ فِي الْمُتَكَاثِرِ الْأَوَّلِ، لَعَلَّ أَكْرَمَ مِنْكَ يَكُونُ قَدْ دُعِيَ مِنْهُ. فَيَأْتِي الَّذِي دَعَاكَ وَإِيَّاهُ وَيَقُولُ لَكَ: أَعْطِ مَكَاناً لِهَذَا. فَحِينَئِذٍ تَبْتَدِئُ بِحَجَلٍ تَأْخُذُ الْمَوْضِعَ الْأَخِيرَ. بَلْ مَتَى دُعِيتَ فَادْهَبْ وَاتَّكِبْ فِي الْمَوْضِعِ الْأَخِيرِ، حَتَّى إِذَا جَاءَ الَّذِي دَعَاكَ يَقُولُ لَكَ: يَا صَدِيقُ، ارْتَفِعْ إِلَى فَوْقِ. حِينَئِذٍ يَكُونُ لَكَ مَجْدٌ أَمَامَ الْمُتَكَبِّرِينَ مَعَكَ. لِأَنَّ كُلَّ مَنْ يَرْفَعُ نَفْسَهُ يَتَضَعُ وَمَنْ يَضَعُ نَفْسَهُ يَرْتَفِعُ». وَقَالَ أَيْضاً لِلَّذِي دَعَاهُ: «إِذَا صَنَعْتَ غَدَاءً أَوْ عَشَاءً فَلَا تَدْعُ أَصْدِقَاءَكَ وَلَا إِخْوَتَكَ وَلَا أَقْرَبَاءَكَ وَلَا الْجِيرَانَ الْأَغْنِيَاءَ، لِنَلَّا يَدْعُوكَ هُمْ أَيْضاً، فَتَكُونَ لَكَ مُكَافَأَةٌ. بَلْ إِذَا صَنَعْتَ ضِيافَةً فَادْعُ الْمَسَاكِينَ: الْجُدْعَ، الْعُرْجَ، الْعُمَى، فَيَكُونَ لَكَ الطُّوبَى إِذْ لَيْسَ لَهُمْ حَتَّى يُكَافُوكَ، لِأَنَّكَ تُكَافَى فِي قِيَامَةِ الْإِبْرَارِ» (لوقا ١٤: ١-١٤).

دعا أحد الفريسيين المسيح ليتناول الطعام في بيته في يوم السبت. ولم تكن الدعوة عن حب وإخلاص، ولكن المسيح المتواضع المتسامح قبلها.

وصادف المسيح في هذا البيت رجلاً مريضاً بالاستسقاء، فسأل الذين كانوا يراقبون: «هل يحل الإبراء في السبت؟» فتحيروا لأنهم إن قالوا: «نعم»، يكونون قد فتحوا له باباً لفعل

المعجزة، ولا يمكنهم أن ينتقدوه عليها، فيزيد تعلُّق الشعب به وبتعليمه. وإن قالوا «لا» يخلجهم من كتبهم كما فعل سابقاً، فسكتوا. فأبرأ المستسقي وأطلقه. ثم بكت مقاوميه مرة أخرى على أفكارهم السرية في انتقادهم عمله في السبت .

وإذ لاحظ المسيح كيف تسابق ضيوف هذا الفريسي أثناء الوليمة إلى المتكأ الأول على المائدة، الذي هو الأشرف حسب اصطلاحهم، بنى على ذلك تعليمه أن «كل من يرفع نفسه يتضع، ومن يضع نفسه يرتفع». ونصح الحاضرين أن لا يعرض أحدهم نفسه للخجل باختياره الموضع الأول. فالتعظم ذميم، والتواضع باب الكرامة الحقيقية .

ثم التفت المسيح إلى صاحب البيت وذكره أن الذي يدعو أصحابه والأغنياء من جيرانه ليأكلوا عنده ينال مكافأته في هذه الدنيا، لأنهم فيما بعد يدعونه إلى مواعدهم. أما الذي يريد المكافأة في قيامة الأبرار فعليه أن يدعو ويطعم أهل الفاقة والذل، فالفضل الحقيقي الذي يسخو لمجرد حبه لربه ولبنى جنسه، دون نظر إلى العوض، لا في هذه الدنيا ولا في الآخرة. والإكرام الإلهي مضمون لمثل هذا .

الأكل في ملكوت السماوات

«فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ وَاحِدٌ مِنَ الْمُتَكِينِينَ قَالَ لَهُ: «طُوبَى لِمَنْ يَأْكُلُ خُبْزاً فِي مَلَكُوتِ اللَّهِ». فَقَالَ لَهُ: «إِنْسَانٌ صَنَعَ عَشَاءً عَظِيماً وَدَعَا كَثِيرِينَ، وَأَرْسَلَ عَبْدَهُ فِي سَاعَةِ الْعَشَاءِ لِيَقُولَ لِلْمَدْعُوبِينَ: تَعَالَوْا لِأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ قَدْ أُعِدَّ. فَأَبْتَدَأَ الْجَمِيعُ بِرَأْيٍ وَاحِدٍ يَسْتَعْفُونَ. قَالَ لَهُ الْأَوَّلُ: إِنِّي اشْتَرَيْتُ حَفَلاً، وَأَنَا مُضْطَرٌّ أَنْ أَخْرُجَ وَأَنْظُرَهُ. أَسْأَلُكَ أَنْ تُعْفِينِي. وَقَالَ آخَرُ: إِنِّي اشْتَرَيْتُ خَمْسَةَ أَرْوَاجَ بَقَرٍ، وَأَنَا مَاضٍ لَأُمْتَحِنَهَا. أَسْأَلُكَ أَنْ تُعْفِينِي. وَقَالَ آخَرُ: إِنِّي تَزَوَّجْتُ بِأَمْرَةٍ، فَلِذَلِكَ لَا أَقْدِرُ أَنْ أَجِيءَ. فَأَتَى ذَلِكَ الْعَبْدُ وَأَخْبَرَ سَيِّدَهُ بِذَلِكَ. جِينِذُ غَضِبَ رَبُّ الْبَيْتِ، وَقَالَ لِعَبْدِهِ: اخْرُجْ عَاجِلاً إِلَى شَوَارِعِ الْمَدِينَةِ وَأَرْقِنَهَا، وَأَدْخِلْ إِلَى هُنَا الْمَسَاكِينَ وَالْجُدْعَ وَالْعُرْجَ وَالْعُمَى. فَقَالَ الْعَبْدُ: يَا سَيِّدُ، قَدْ صَارَ كَمَا أَمَرْتَ، وَيُوجَدُ أَيْضاً مَكَانٌ. فَقَالَ السَيِّدُ لِلْعَبْدِ: اخْرُجْ إِلَى الطَّرِيقِ وَالسِّيَّاحَاتِ وَالزَّمُهُمْ بِالدُّخُولِ حَتَّى يَمْتَلَأَ بَيْتِي، لِأَنِّي أَقُولُ لَكُمْ إِنَّهُ لَيْسَ وَاحِدٌ مِنْ أُولَئِكَ الرِّجَالِ الْمَدْعُوبِينَ يَذُوقُ عَشَائِي» (لوقا ١٥: ١٤-٢٤).

علق أحد الحاضرين على تعليم المسيح عن الولائم، وقال: «طوبى لمن يأكل خبزاً في ملكوت الله». حاسباً نفسه من هؤلاء المطوبين. فقدّم المسيح مثلاً اتخذ فيه الوليمة رمزاً إلى الدين، لأن الدين الحق يغذي النفوس ويلدُّ لها، ولأن الله يقدمه للناس مجاناً، ولأنه يترك للمدعوين تمام الحرية بقبول الدعوة أو رفضها، ولأنه يجمع كل الذين يلثون الدعوة. تحدث المسيح في المثل عن إنسان شريف دعا أشخاصاً إلى عشاء عظيم في بيته، فقدّموا أعاراً مختلفة، وتأخروا عن العشاء .

هكذا يوجّه الله الدعوة للمتديّنين، لكن لأنهم رفضوا دعوته فإنه يوجهها إلى العشارين والخطاة. وهؤلاء يشبهون أهل الشوارع والأزقة في مدينة الملك. ولما كان عشاؤه يكفي كثيرين، فإنه يعمّم الدعوة إلى الذين في الطرق والسيارات خارج المدينة - أي الشعوب الوثنية، فيقبلون ما رفضه رجال الدين اليهود، ويجدون طريقهم إلى التوبة والإيمان .

شبهه المسيح رؤساء الدين بالذي يقول: «اشتريتُ حقلاً وأنا مضطّر أن أخرج وأنظره. أسألك أن تعفيني». ثم بآخر يقول: «اشتريت خمسة أزواج بقر، وأنا ماض لأمتحنها. أسألك أن تعفيني». وبثالث يقول: «إني تزوجت بامرأة، فلذلك لا أقدر أن أجيء» (إن أعفيتني أو إن لم تعفيني). فالاعتذار الباطل في الدين هو اصطلاح قديم ومنتشر كثيراً ومُهْلِك. وقد وضّح المسيح غضب الله من الأعداء على أنواعها، لأنها تدل على الاستخفاف بدعوته الإلهية لوليمة الخلاص، وعلى غباوتهم الفائقة لأنهم وضعوا أرباح الدنيا قبل أرباح السماء، وظنوا أن أعداءهم تفيدهم، وأن الباب يبقى مفتوحاً لهم إن أتوا متأخرين .

عزيزي القارئ، هل وصلتكَ دعوة المسيح إلى وليمة محبته لتجد فيها شعب نفسك؟ إنه يريدك أن تتعشى معه وهو معك (رؤيا ٣: ٢٠).

فهل تقبل الدعوة؟ هل تفتح له باب قلبك؟

اترك الأعداء، ومَتِّع نفسك معه بالشعب العظيم ...

مسابقة الكتاب

القراء الأعزاء

نرجو توجيه إجاباتكم على هذه المسابقات إلى (نداء الرجاء)

<http://www.call-of-hope.com>

على العنوان التالي:

Of Hope Call

P.O. Box 1018

Stuttgart 1, West Germany 7000

عزيزي القارئ،

إن أرسلت إلينا إجابة صحيحة على عشرين سؤالاً من الأسئلة الخمسة والعشرين التالية، نرسل لك كتاباً جائزة من كتبنا المختلفة. نرجو أن ترسل مع الإجابة اسم

- 1 ماذا كانت إجابة بطرس على سؤال المسيح: «من تقولون إنني أنا؟»
- 2 كيف جاء النور لبطرس فأجاب إجابته التي مدحها المسيح؟
- 3 لماذا جاء المسيح إلى عالمنا؟
- 4 هناك ثلاثة شروط لاتباع المسيح - ما هي؟
- 5 ماذا كان موضوع حديث موسى وإيليا مع المسيح على جبل التجلي؟
- 6 لماذا قال الله للتلاميذ: «هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت. له اسمعوا»؟
- 7 ماذا نتعلم من قول المسيح: «قدم ابنك إلى هنا»؟
- 8 كيف دبر المسيح أن يدفع هو وبطرس الجزية؟
- 9 ماذا نتعلم من دفع المسيح للضرائب؟
- 10 اذكر بعض صفات الأولاد التي يجب أن تكون في المؤمنين بالمسيح.
- 11 ماذا تفعل إن أخطأ إليك أخوك؟
- 12 اكتب مختصراً لقصة الملك الذي سامح الرجلين المديونين له.
- 13 اذكر المناسبة التي كتب فيها المسيح بإصبعه على الأرض.
- 14 ماذا نتعلم من سؤال المسيح لأعدائه: «من منكم يكتني على خطية»؟
- 15 قال المسيح: «قبل إبراهيم أنا كائن» - لماذا غضب اليهود من هذا القول؟
- 16 اشرح معنى قول المسيح: «أنا كائن».
- 17 اذكر ثلاثة أمثلة لطول أناة المسيح وغفرانه لأعدائه.

- 18 من هو قريبك؟
- 19 لماذا نلقي اللوم على الكاهن واللاوي في مثل السامري الصالح؟
- 20 كيف أكرمت مرثا المسيح، وكيف أكرمته أختها مريم؟
- 21 لماذا وُلد الرجل الأعمى الذي جاءت قصته في يوحنا ٩ فاقد البصر؟
- 22 لماذا لم يعرف الناس المولود أعمى بعد فتح عينيه؟
- 23 اذكر ثلاثة أشياء يفعلها الراعي الصالح مع خرافه.
- 24 في لوقا ١٦: ١٢-٢١ مثل الغني الغبي - اكتب له ملخصاً.
- 25 إن عملت وليمة، فمن عليك أن تدعو؟ ولماذا تخصص الدعوة لهم؟
- ارسل الإجابة فقط بدون تعليقات أخرى لئلا تُهمل، ونحن بانتظار أجابتك .

سيرة المسيح

الدكتور جورج فورد

الكتاب السادس: دخوله أورشليم

المسيح يبحث عن الضال

تذمر الفريسيون والكتبة في أحد الأيام على المسيح وقالوا عنه: «هذا يقبل خطاة ويأكل معهم». فَقَدَّمْ لَهُمْ ثَلَاثَةَ أَمْثَالٍ تَبَيَّنَ أَنَّ شَرَّ الْأَشْرَارِ لَا يَمْنَعُ الْمَحَبَّةَ الْإِلَهِيَّةَ الْأَبْوِيَّةَ عَنْهُمْ، لِأَنَّهُ عِنْدَ وَقُوعِ الْبَنِينَ فِي أَشْرَاكَ إِبْلِيسَ يَشْتَعَلُ الْحُبُّ الْأَبْوِيُّ مَضَاعِفًا أَسْفًا عَلَى تَعَاسَتِهِمْ، وَرَغْبَةً فِي تَخْلِيصِهِمْ مِنْهَا. وَهَذَا مَا نَرَاهُ فِي الْأَبِّ الَّذِي لَهُ وَلَدٌ قَاصِرٌ أَوْ مَرِيضٌ أَوْ مَعْتَوَاهُ أَوْ شَارِدٌ. فَتُوبَةُ الشَّرِيرِ عَزِيزَةٌ جَدًّا عِنْدَ اللَّهِ، وَعِنْدَ جَمِيعِ الْبَشَرِ الصَّالِحِينَ .

مثل الخروف الضال

«وَكَانَ جَمِيعُ الْعَشَّارِينَ وَالْخُطَاةِ يَذْنُونَ مِنْهُ لِيَسْمَعُوهُ. فَتَدَمَّرَ الْفَرِّيسِيُّونَ وَالْكَتَبَةُ قَائِلِينَ: «هَذَا يَقْبَلُ خُطَاةً وَيَأْكُلُ مَعَهُمْ». فَكَلَّمَهُمْ بِهَذَا الْمَثَلِ: «أَيُّ إِنْسَانٍ مِنْكُمْ لَهُ مِئَةُ خُرُوفٍ، وَأَضَاعَ وَاحِدًا مِنْهَا، أَلَا يَتْرُكُ التِّسْعَةَ وَالتِّسْعِينَ فِي الْبَرِّيَّةِ، وَيَذْهَبُ لِأَجْلِ الضَّالِّ حَتَّى يَجِدَهُ؟ وَإِذَا وَجَدَهُ يَضَعُهُ عَلَى مَنْكِبِيهِ فَرِحًا، وَيَأْتِي إِلَى بَيْتِهِ وَيَدْعُو الْأَصْدِقَاءَ وَالْجِيرَانَ قَائِلًا لَهُمْ: أَفْرَحُوا مَعِيَ، لِأَنِّي وَجَدْتُ خُرُوفِي الضَّالَّ. أَقُولُ لَكُمْ إِنَّهُ هَكَذَا يَكُونُ فَرَحٌ فِي السَّمَاءِ بِخَاطِيٍّ وَاحِدٍ يَتُوبُ أَكْثَرَ مِنْ تِسْعَةٍ وَتِسْعِينَ بَارًّا لَا يَحْتَاجُونَ إِلَى تَوْبَةٍ» (لوقا ١٥: ١-٧).

صاغ المسيح أول الأمثال الثلاثة في قالب الاستفهام، عندما سأل سامعيه: من منكم له مئة خروف وأضاع واحداً منها؟». فكانه في هذا السؤال يبيّتهم كراعاة الشعب على أنهم أهملوا الضالين، واكتفوا بالتسعة والتسعين التي يعتبرونها غير ضالة، وحسبوا أن الضال يستحق ما هو فيه من العذاب والخطر والهلاك .

يقدم المسيح نفسه كالراعي الصالح الأمين المحب، الذي يبذل كل جهد في تفتيشه عن كل نفس ضالة بمفردها، بل يرثي لضعفها ويحنّ لشفاؤها ويحملها على كتفيه فرحاً، ويأتي بها إلى بيته، وبهذا يميّزها عن التي لم تضل، ثم يدعو للاشتراك معه في فرحه الملائكة والقديسين في السماء، الذين يفرحون بخاطي واحد يتوب أكثر من تسعة وتسعين باراً لا يحتاجون إلى توبة .

فَمَنْ يَتَجَاسَرُ أَنْ يَصِفَ حَوَادِثَ السَّمَاءِ، وَكَيْفِيَّةَ أَفْرَاحِ أَهْلِهَا؟ لَا حَقَّ لِأَحَدٍ فِي ذَلِكَ إِلَّا الْمَسِيحُ الَّذِي كَانَ مِنْذُ الْأَزَلِ فِي حَضْنِ الْأَبِّ، وَقَدْ نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ. وَمَنْ هُمُ الَّذِينَ يَصْفَهُمُ

بالتسعة والتسعين باراً الذين لا يحتاجون إلى توبة؟ ليسوا ملائكة. لأنه يقول إن الملائكة لا تفرح بهم كفرحها بالضال التائب. وليسوا بشراً صالحين، لأن الرسول بولس يقول: «لَيْسَ بَارٌّ وَلَا وَاحِدٌ. الْجَمِيعُ زَاغُوا وَفَسَدُوا مَعاً» (رومية ١٠: ٣، ١٢). إذاً هم الذين يتوهمون ويدعون خطأ أنهم أبرار. وهذا ما كان يفعله سامعو المسيح من الفريسيين، ويفعله خلفاؤهم في كل جيل.

لكن على فرض أن هؤلاء كانوا أبراراً ولم يضلوا، واعتُبرت قيمتهم مئة ضعف العشارين والخطاة والضالين، فإن الراعي السماوي لا يكتفي بهم ويترك المحتقرين والمرفوضين منهم، بل إنه يُسرُّ بتوبة خاطئ واحد أكثر من الفرائض المقدسة التي يمارسها الرؤساء في الهيكل في صلوات وأصوام وتقدمات، لأنه جاء من السماء ليخلص الخطاة. ثم أنه لا ينتظر الخطاة ليأتوا إليه أولاً، بل هو يقصدهم ويجدهم ويحثُّهم على الرجوع إلى الله وإلى بيت أبيهم الأصلي الحقيقي. فلو كان الفريسيون مثل أهل السماء لفرحوا بما فرح له أهل السماء. والخاطئ الذي يعرف أن توبته تجعل أجراس السماء تفرح فرحاً، يجد دافعاً قوياً وشرافاً يسرع به إلى المخلص.

مَثَل الدرهم المفقود

«أَوْ أَيْةٌ أَمْرَةٍ لَهَا عَشْرَةُ دَرَاهِمَ، إِنْ أَضَاعَتْ دِرْهَمًا وَاحِدًا، أَلَا تُوقِدُ سِرَاجًا وَتَكْنُسُ الْبَيْتَ وَتَفْتِشُ بِاجْتِهَادٍ حَتَّى تَجِدَهُ؟ وَإِذَا وَجَدَتْهُ تَدْعُو الصَّدِيقَاتِ وَالْجَارَاتِ قَائِلَةً: افْرَحْنَ مَعِيَ لِأَنِّي وَجَدْتُ الدِّرْهَمَ الَّذِي أَضَعْتُهُ. هَكَذَا أَقُولُ لَكُمْ يَكُونُ فَرَحٌ قُدَّامَ مَلَائِكَةِ اللَّهِ بِخَاطِيٍّ وَاحِدٍ يَتُوبُ» (لوقا ١٥: ١٠-١١).

في المَثَل الثاني يصوِّر المسيح للنساء بين سامعيه عملاً بيتياً، ويجعل النسبة بين الضالين وغير الضالين كواحد إلى عشرة، فيعظم نسبة قيمة الخاطئ. ويوضح خسارة المالك السماوي الذي له الأرض وملؤها، المسكونة وكل الساكنين فيها) مزمور ٢٤: ١). في المَثَل أضاعت المرأة درهماً من عشرة، وبعد التفتيش بواسطة تكنيس البيت على ضوء السراج، نجحت، ففرحت جداً بالعثور على الدرهم كما فرح صاحب الخروف، وأشركت الآخرين معها أيضاً في الأفراح.

يجوز القول إن المرأة تمثل الكنيسة، كما مثَّل الراعي المسيح رأس الكنيسة. فكنيسة المسيح الحقيقية تسير على خُطَّته، لأنه يقودها بروحه، ولذلك تفتش بكل اجتهاد على التائهين في قفار الخطية. والسراج الموقد بيدها هو كتاب الوحي الذي قال فيه داود: «سِرَاجٌ لِرِجْلِي كَلَامُكَ وَنُورٌ لِسَبِيلِي» (مزمور 119: 105) والكنيسة تصدق في اعترافها: «الدرهم الذي أضعته» لأن كثيراً من الهالكين يُطلب من الفاترين في الكنيسة، ومن الكنيسة إجمالاً

بسبب تقصيرها. والراعي محق في قوله «خروفي» أما المرأة فلا تقول «درهمي» لأن الملك ليس للكنيسة بل للمسيح رئيسها .

علم المسيح في هذين المثلين أن مصدر الخلاص هو ما يعمله الله في طلب الخاطئ، لا عمل الخاطئ في طلب الخلاص، لأن طلب الخاطئ للخلاص هو نتيجة لعمل الله في قلبه. فليس في الدين قولٌ جوهري أكثر من القول إن الأصل في الدين ليس ما يعمله الإنسان لأجل الله، بل ما يعمله الله لأجل الإنسان .

مَثَل الابن الضال

«وَقَالَ: «إِنْسَانٌ كَانَ لَهُ ابْنَانِ. فَقَالَ أَصْغَرُهُمَا لِأَبِيهِ: يَا أَبِي أَعْطِنِي الْقِسْمَ الَّذِي يُصِيبُنِي مِنَ الْمَالِ. فَقَسَمَ لَهُمَا مَعِيشَتَهُ. وَبَعْدَ أَيَّامٍ لَيْسَتْ بِكَثِيرَةٍ جَمَعَ الابْنُ الْأَصْغَرُ كُلَّ شَيْءٍ وَسَافَرَ إِلَى كُورَةٍ بَعِيدَةٍ، وَهُنَاكَ بَذَرَ مَالَهُ بَعِيشٍ مُسْرِفٍ. فَلَمَّا أَنْفَقَ كُلَّ شَيْءٍ، حَدَثَ جُوعٌ شَدِيدٌ فِي تِلْكَ الْكُورَةِ، فَابْتَدَأَ يَحْتَاجُ. فَمَضَى وَالتَّصَقَّ بِوَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ تِلْكَ الْكُورَةِ، فَأَرْسَلَهُ إِلَى حُقُولِهِ لِيَرْعَى خَنَازِيرَ. وَكَانَ يَشْتَهِي أَنْ يَمْلَأَ بَطْنَهُ مِنَ الْخُرْتُوبِ الَّذِي كَانَتْ الْخَنَازِيرُ تَأْكُلُهُ، فَلَمْ يُعْطِهِ أَحَدٌ. فَرَجَعَ إِلَى نَفْسِهِ وَقَالَ: كَمْ مِنْ أَجِيرٍ لِأَبِي يُفْضَلُ عَنْهُ الْخُبْزُ وَأَنَا أَهْلِكُ جُوعاً! أَقُومُ وَأَذْهَبُ إِلَى أَبِي وَأَقُولُ لَهُ: يَا أَبِي أَخْطَأْتُ إِلَى السَّمَاءِ وَقُدَّامَكَ، وَلَسْتُ مُسْتَحِقّاً بَعْدَ أَنْ أَدْعَى لَكَ ابْناً. اجْعَلْنِي كَأَحَدِ أَجْرَاكَ. فَقَامَ وَجَاءَ إِلَى أَبِيهِ. وَإِذْ كَانَ لَمْ يَزَلْ بَعِيداً رَأَاهُ أَبُوهُ، فَتَحَنَّنَ وَرَكَضَ وَوَقَعَ عَلَى عُنُقِهِ وَقَبَّلَهُ. فَقَالَ لَهُ الابْنُ: يَا أَبِي أَخْطَأْتُ إِلَى السَّمَاءِ وَقُدَّامَكَ، وَلَسْتُ مُسْتَحِقّاً بَعْدَ أَنْ أَدْعَى لَكَ ابْناً. فَقَالَ الْأَبُ لِعَبِيدِهِ: أَخْرِجُوا الْحُلَّةَ الْأُولَى وَالْبُسُوءَ، وَاجْعَلُوا خَاتِماً فِي يَدِهِ، وَجِدَاءً فِي رِجْلَيْهِ، وَقَدِّمُوا الْعِجْلَ الْمُسَمَّنَ وَادْبَحُوهُ فَنَأْكُلْ وَنَفْرَحَ، لِأَنَّ ابْنِي هَذَا كَانَ مَيِّتاً فَعَاشَ، وَكَانَ ضَالاً فُوجِدَ. فَابْتَدَأُوا يَفْرَحُونَ» (لوقا ١٥: ١١-٢٤).

أما المثل الثالث فإنه الدرة الفريدة بين أمثال المسيح كافة، وفيه تشبيه لعمل الأولاد في العائلة، تنبيهاً للأولاد بين سامعيه. ويوضح ما لم يُعلن في المثلين السابقين من عظمة مسئولية الذين يضلون عن الله وشرائعه. ونلاحظ أن هذا المثل يمتاز على المثلين الآخرين في القيمة التي يعطيها للضالين، لأن نسبتهم كواحد إلى واحد، ويمثلهم بالابن العزيز الأصغر، لا بمعدن أو حيوان، كما أنه يوضح ضرورة العمل الإلهي الأساسي في الرجوع إلى الله بالتوبة والإرادة الحرة، الأمر الذي هو ثمر العمل الإلهي الأساسي في التفتيش عن الضالين وفتح الباب لخلاصهم. فضمَّ المسيح هذه الأمثال الثلاثة إلى عقد واحد، ليشرح لنا أمر الخلاص شرحاً وافياً .

حصَرَ المسيح الشعب اليهودي الذي خصَّه بخدمته في صنفين، يمثلهما ابنان لأب واحد. فالابن الأكبر (الذي له شرعاً نصيبٌ مضاعف في الإرث) يمثل الذين يحافظون على

صورة الدِّين، وهم في أعين الناس، وأعين أنفسهم، أهل الدين والأمانة لله، لأنهم يحفظون بتدقيق فرائض الدين الخارجية، ولا يتيهون علانية في برية الآثام والمعاصي .

ويمثّل الابن الأصغر سائر أبناء الأمة، الذين يتبعون الأهواء المنكرة ولا يتقيدون بفروض الدين فينكرون المراحم الإلهية ويستخدمون عطايا الرب لهم في العصيان عليه، ويرفضون حرية البنوة الشريفة، إذ يبتعدون عن الله عمداً وظاهراً. لذلك يضلون دون خجل ودون تردد عن كتاب الله وعن عبادته وعن شعبه، فيبتعدون بذلك عن القداسة والسلامة والسعادة، وبالتالي عن صالحهم وصالح من هم حولهم في الدنيا والآخرة .

ضلّ هذا الابن الأصغر عن بيت أبيه، وعن أخيه الوحيد، وعن العناية الأبويّة، وعن خيرات وطنه، وعن المعشر الصالح، وعن العمل لزيادة الثروة التي تأتيه بالإرث من أبيه. ملّ ونفر من القيود البيئية الشريفة، والسلطة الأبويّة المكرّمة، واشتهى أن يحكم نفسه بنفسه، وأن يضلّ في الملمات الفاسدة بين الأشرار، فشقّ عصا الطاعة البنويّة وعزم على الابتعاد عن أبيه، ليتصرف كما يشاء. فطلب من أبيه - وهو لا يزال حياً - نصيبه من الميراث .

ترك روح البنوة الذي يقول: «أبانا الذي في السموات. خبزنا كفافنا أعطنا اليوم». وطلب دفعة واحدة كل نصيبه من أبيه، ليستقلّ عنه تماماً. وهذا حال الخاطئ الذي يعيش لنفسه، دون نظر إلى إرادة الله، ويتباهى باستقلاله عن الرب مفتخراً بما يعيبه. ولما كانت الطاعة الإجبارية لا تحلو لأبٍ محب، وافق أبوه على طلبه، وأعطاه نصيبه من الميراث، كما نرى ذلك في معاملة الله للأشرار الذين يعطيهم من عنايته الفياضة خيراتٍ أرضية جزيلة حسب ما يرغبون. ولكن هذه العطايا ليست علامة الرضى الأبوي. ومع أن هذا الجاهل انفصل قلبياً عن أبيه، فإنه لم ينصرف حالاً من بيت أبيه، بل قضى في بيت أبيه أياماً سافر بعدها. هكذا الخاطئ أيضاً لا يبدأ حالاً بالانفصال الكلي عن الله، بل يصل إلى ذلك تدريجياً .

في البلدة البعيدة التي سافر إليها هذا الشاب، أطلق العنان للأهواء الفاسدة، حيث ليس من يردعه أو يُخجله أو يذكره بماضيه الصالح وأصله الشريف، وفيها بدّر ماله بإسراف، حتى افتقر تماماً. واتفق عند فراغ جيبه حدوث مجاعة هناك، مما قسّى قلوب أصحابه عليه، وقطع عنه القوت الضروري .

نتصوّره في غربته يراعي بعض تقاليد شعبه في الأمور الخارجية، لكن لما عضّه الجوع، لجأ إلى الخدمة عند صاحب خنازير، أرسله ليرعى خنازيره، فضحّى بدينه في سبيل جوعه، ورضي بالنجاسة ليشبع، ولما كان يعود بالخنازير مساءً إلى مأواها كان صاحبها يعطيها عشاءها من الخرنوب، ليسدّ به ما نقصها في المرعى بسبب القحط. وكان هذا

المسكين يشتهي من شدة جوعه أن يتساوى مع هذه الحيوانات النجسة ويملاً بطنه من الخرنوب الذي كانت الخنازير تأكله، ولم يعطه أحد .

كثيراً ما يستخدم الله الشدائد ليُرجع الناس إليه، لكن كثيرين تزيدهم الشدائد بعداً عنه. فما يقصده الله بركة للخلاص يحولونه لعنة للهلاك، والذي تردُّه الشدائد إلى بيت أبيه يبرهن بنويته الحقيقية. ولقد وجد الابن الضال في وسط محنته باب الخلاص، لأن الدخول إلى الخلاص، يكون أحياناً من باب اليأس .

لا يزال الابن الضال ابناً، وأبوه لا يزال أباً. وكما أن الطاعة لم تصيِّره ابناً، هكذا عصيانه لا يقطع هذه العلاقة التي هي وضع إلهي، لا يلاشيها إلا الموت. ولا يخفى أن في صدر كل خاطئ من بني البشر ومضة من البنوة لله. فمهما هبط شر الناس في حماة الإثم، ومهما علت جبال خطاياهم، فهذه الومضة المباركة لا تنطفئ ما داموا على قيد الحياة، ما لم يميئوها عمداً بتجديفهم على الروح القدس، الذي وحده يوقظها ويحييها، ليلجأ صاحبها إلى المخلص الوحيد وينال الخلاص .

رجع هذا الشاب إلى نفسه لأن الفقر الشديد أعاد إليه الرشد، فكان رجوعه إلى نفسه مقدمة لرجوعه إلى بيت أبيه. فلما عقد النية على هذا الرجوع كان تائباً متواضعاً واثقاً من رحمة أبيه .

ظهرت توبته في الكلام الذي أعدّه ليقوله لأبيه عند المقابلة: «يا أبي أخطأت إلى السماء وقدامك». شعر أن خطيته ليست ضد أبيه فقط، بل بالأكثر ضد الله. ولا يُسمَّى عملٌ ما خطيئة بالنسبة إلى حقوق الناس فقط، بل النسبة إلى حقوق الله أيضاً .

وظهر صدق تواضعه في شعوره أنه أضاع كل حقوقه الأصلية، فطلب أن يعتبره أبوه أجيراً، ويكون قبول أبيه له كأجير فضلاً من أبيه عليه .

وظهر صدق إيمانه في رافة أبيه في أنه قام وذهب غير خائف أن يطرده أبوه، مع أنه لا يستحق إلا الطرد.. وهذا الإيمان شرط لازم للتوبة، فالتوبة دون إيمان تكون فارغة، وتبقى ندامة فقط. والندامة لا تؤدي إلى الخلاص بدون التوبة الحقيقية. فالابن لم يعزم فقط على الرجوع، بل رجع. فأني نفع في أحسن عزم إن لم يخرج إلى حيز الفعل؟

وفيما هو يقترب من بيت أبيه كان قلب هذا الوالد ملتهباً بالحب الشديد لهذا الشارد، وعينه تراقبان الطريق التي ذهب فيها، متوقعاً عودته تائباً، لأنه عانى من أجل ابنه الضال كثيراً. وكان ثمر مراقبته الدائمة أنه رأى ابنه، إذ كان لم يزل بعيداً، فلم ينتظر وصوله، ولم يفكر في أن يذله أو يعيِّره، ولم يذكر سيئاته لأنه يعلم أن الاستعباد لإبليس هو أعظم المصائب

التي تدعو للشفقة. فهل يزيد عذاب ابنه بتأنيبه على ما مضى؟ إن القصد من التأنيب هو تحريك الضال للتوبة، فمتى ظهرت التوبة لا تعود للتأنيب حاجة .

ظهر الجمال الأبوي بكل معناه في هذا الأب، في القول إنه تحنن لما رأى ابنه. وهكذا لا ينتج خلاص الخاطئ عن مجرد الإشفاق الإلهي، بل عن محبة الأب لابنه الشارد في قفر الهلاك الروحي، والمقيّد بسلاسل عدوه إبليس. هذا الابن هو من صُلب أبيه مهما شرد وأضاع المشابهة له. وهو يحمل اسم أبيه مهما لطخ شرف هذا الاسم، وهو وارث بيت أبيه مهما بذر من إرثه في المعاصي .

يتأني الخالق سبحانه في كل شيء إلا في ملاقة الخاطئ التائب، فالإشارة الوحيدة في الكتاب للاستعجال الإلهي وردت في هذا المثل، لأن المسيح قال عن هذا الأب إنه «تحنن وركض» ليلقي ابنه، وقابله مقابلة محبّ حنون. نسي كل تاريخه المعيب إذ وقع على عنقه وقبله، بالرغم من حالته القدرة. وعوّض له عن خسارته وشقائه في الماضي باهتمام يفوق اهتمامه بابنه الذي لم يضل. ولم ينتظر الأب حتى يبرهن ابنه عن صدق توبته بسلوك حسن لمدة طويلة، ولكنه صالحه فوراً، لتكون طاعته المتواصلة بعد المصالحة والمغفرة والإكرام برهاناً أفضل لصحة توبته من الطاعة التي يقدمها للحصول على الإنعامات الأبوية. كما أن المغفرة التي تُعطى للخاطئ قبل الطاعة التامة، تكون نعمة إلهية، وكرماً، أكثر من التي تُعطى جزاءً بعد الطاعة .

ما أجمل هذه المقابلة الحبية الحارة التي فاق سرور الأب الصالح فيها على سرور ابنه التائب. لقد تجدد عزم الابن على التوبة لما وجد عواطف والده القوية وغفرانه المجاني. هكذا الخاطئ التائب يتأثر من الغفران الإلهي المجاني الحالي الكامل، وتزيد توبته الصادقة وتتقوى. ومن المستحيل أن يولد فيه هذا الغفران طمعاً في الجلم الإلهي ليؤجل إصلاح سيرته ويتساهل مع ميوله الشريرة، لأن هذا الغفران يكون روابط جديدة بينه وبين إلهه، تجعله يبتعد عن كل ما لا يُرضي الله .

عند هذا اللقاء بدأ الابن الضال بالقول الذي رتبته لما رجع إلى نفسه، وهو بين الخنازير. لكن الأب اكتفى بالمقدمة وقاطعه في الكلام قبل وصوله إلى الطلب أن يكون أجيراً عنده، وأسرع يأمر عبده أن يخدموه كالابن الأصغر الأعزّ. فأعيدت إليه حقوقه في البيت مضاعفة. فبدلاً من الخرق القدرة الرثة التي أتى فيها أتوه بالخلة الأولى، وبأفخر الموجود، إشارة إلى صفاته الجديدة. هكذا يفعل الله مع الخاطئ التائب، إذ يمنحه ثوب البر ورداء الخلاص ليستره، فيظهر أمام الله مبرراً مطهراً يمجّد مخلصه (إشعياء ١٠: ٦١). ثم أمر الأب بإعطاء ابنه الخاتم، علامة السلطان البنوي الذي يخوّله حق الختم عن أبيه في المعاملات الرسمية. وفي هذا إشارة إلى السلطان الروحي الذي يهبه الروح القدس بحلوله

في التائبين. وأمر له بحذاء ليتمكن من السعي الجدي في أعمال بيت أبيه، وفي هذا إشارة إلى الوقاية الروحية التي يحصل عليها كل تائب حقيقي. ثم أكمل الأب احتفائه بتوبة ابنه بأن جهز وليمة يأكل فيها ابنه أفخر مأكولات البيت، تعويضاً عن آلام الجوع في ما مضى .

وشرح الأب لعبيده سبب كل ذلك بقوله: «لأن ابني هذا كان ميتاً فعاش، وكان ضالاً فُوجِدَ». اعتبر الأب توغُّل ابنه في الشرور موتاً أدبياً وروحياً، كما أن غيابه أشبه بالموت الجسدي. فكان رجوعه كمن يقوم من قبره. فالخطية وليس موت الجسد هي الموت الحقيقي .

الابن الأكبر

«وَكَانَ ابْنُهُ الْأَكْبَرُ فِي الْحَقْلِ. فَلَمَّا جَاءَ وَقَرَّبَ مِنَ الْبَيْتِ، سَمِعَ صَوْتَ آلَاتِ طَرَبٍ وَرَفْصاً، فَدَعَا وَاحِداً مِنَ الْعِلْمَانِ وَسَأَلَهُ: مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ هَذَا؟ فَقَالَ لَهُ: أَخُوكَ جَاءَ فَذَبَحَ أَبُوكَ الْعِجْلَ الْمُسَمَّنَ، لِأَنَّهُ قَبْلَهُ سَالِماً. فَعَضِبَ وَلَمْ يُرِدْ أَنْ يَدْخُلَ. فَخَرَجَ أَبُوهُ يَطْلُبُ إِلَيْهِ. فَقَالَ لِأَبِيهِ: هَا أَنَا أَخْدِمُكَ سِنِينَ هَذَا عَدْدُهَا، وَقَطُّ لَمْ أَتَجَاوَزْ وَصِيَّتَكَ، وَجَدِيّاً لَمْ تُعْطِنِي قَطُّ لِأَفْرَحَ مَعَ أَصْدِقَائِي. وَلَكِنْ لَمَّا جَاءَ ابْنُكَ هَذَا الَّذِي أَكَلَ مَعِيشَتَكَ مَعَ الزَّوَانِي، ذَبَحَتْ لَهُ الْعِجْلَ الْمُسَمَّنَ. فَقَالَ لَهُ: يَا بُنَيَّ أَنْتَ مَعِيَ فِي كُلِّ حِينٍ، وَكُلُّ مَا لِي فَهُوَ لَكَ. وَلَكِنْ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ نَفْرَحَ وَنُسَرَّ، لِأَنَّ أَخَاكَ هَذَا كَانَ مَيِّتاً فَعَاشَ، وَكَانَ ضَالاً فُوجِدَ» (لوقا ١٥: ٢٥-٣٢).

وبينما كانت الأفراح قائمة في البيت عاد الابن الأكبر في آخر النهار من الحقل. وتعجب إذ سمع أصوات الطرب وما يتعلق بها دون داع يعلمه لذلك، فظهر على حقيقته السيئة، إذ لم يدخل ببساطة قلب فرحاً لما سيجده في بيته، بل دعا أحد الخدم بسوء ظن وخبث، وسأله عن الموضوع. وعند ذلك هاج حُمقاً وحسداً ورفض أن يدخل ليشترك في سرور أبيه وأخيه .

حقاً إنه لا يوجد في هذه الدنيا أفراح إلا وترافقها أكرار، كثيراً ما يسببها الأقربون. صوّر المسيح في الابن الأصغر العشارين والخطاة الذين فتح لهم الله باب التوبة للخلاص فدخلوا. وصوّر في الابن الأكبر أصحاب التدين الفارغ الذين بدلاً من الفرح لاهتداء الضالين يتذمرون لأجل رجوعهم. لم ير الابن الأكبر في أخيه إلا العيوب، حتى أنه لم يرض أن يسميه أخاه، بل قال لأبيه: «ابنك هذا الذي أكل معيشتك مع الزواني .»

قد يكون كلامه صدقاً، لكن ليس الصدق كله، لأنه سلب أخاه فضيلة التوبة، وفي كبريائه لم ير في ذاته إلا الفضائل، إذ قال لأبيه: «ها أنا أخدمك سنين هذا عددها، وقط لم أتجاوز وصيتك». فلو فرضنا أنه صادق في هذا القول فإنه ليس الصدق كله، لأن أفكاره في خدمته لأبيه ظهرت في قوله: «وجدياً لم تعطني قط لأفرح مع أصدقائي». استاء من فرح

أبيه، وسيطرت الأنانية على روحه وتصرفاته، فوضعت بينه وبين أبيه هوةً وابتعاداً أكثر مما وضعه الابن الأصغر في ذهابه إلى كورة بعيدة وشروره هناك. لكن أباه لم يعامله حسب استحقاقه، بل خرج إليه، وتنازل بدلاً من أن يوبخه أو يتركه. حتى بعد أن أهانه بتوبيخ مرّ، وبشيء من الاحتقار، أجابه بمحبة: «يا بني أنت معي في كل حين. وكل ما لي فهو لك». فالدليل من هذا أن الله لا يمنع الحب الإلهي والرحمة حتى عن المتكبرين القساة، بل يمتّعهم بكل وسائل التوبة والإيمان كما يفعل مع الخطاة وأكثر. ما عليهم إلا أن يتوبوا ويتركوا شرورهم كما فعل العشارون والخطاة قبلهم .

وتنتهي رواية هذا المثل دون أن نجد ذكراً لتوبة الابن الأكبر. لكننا نعلم أن الذين مثّلهم (وهم الرؤساء والفريسيون) لم يتوبوا، بل استمروا مُصرّين على خطئهم، وعلى الحسد الذي جعلهم يسلّمون المسيح إلى بيلاطس للصلب، وعلى البُغض الذي ظهر في محاكمته أمام رؤسائهم، ومعاملتهم القاسية له .

نتعلم من قصة الابن الأكبر أن المتكبر الذي يتكل على صلاحه ليتبرر أمام الله هو أبعد عن الله وعن السماء من الشرير الذي شرّه ظاهر ولا يدّعي الصلاح، لأن الأمل في إصلاح الشرير أقوى، فإن الرياء والكبرياء من أكبر الموانع في سبيل الخلاص. وبسببها امتنع الفريسيون عن الإيمان والخلاص بالمسيح. وبسببها يعثر الكثيرون الآن. وفي مثل الابن الضال نرى التعليم الإلهي أن الله يعتبر إصرار الضال على ضلاله خسارة عليه كما أن رجوعه عن ضلاله ربحٌ وسرور لله. فما أعجب هذا الحب والتنازل الإلهي! وما أعظم هذا الباعث للامتناع عن الخطية !

المسيح يروي مثلين

مثل الوكيل الظالم

«وَقَالَ أَيْضاً لِتَلَامِيذِهِ: «كَانَ إِنْسَانٌ غَنِيٌّ لَهُ وَكِيلٌ، فَوُشِيَ بِهِ إِلَيْهِ بِأَنَّهُ يَبْذُرُ أَمْوَالَهُ. فَدَعَاهُ وَقَالَ لَهُ: مَا هَذَا الَّذِي أَسْمَعُ عَنْكَ؟ أَعْطِ حِسَابَ وَكَالَتِكَ لِأَنَّكَ لَا تَقْدِرُ أَنْ تَكُونَ وَكِيلًا بَعْدُ. فَقَالَ الْوَكِيلُ فِي نَفْسِهِ: مَاذَا أَفْعَلُ؟ لِأَنَّ سَيِّدِي يَأْخُذُ مِنِّي الْوَكَالََةَ. لَسْتُ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَنْقُبَ وَأَسْتَحْيَ أَنْ أَسْتَعْطِيَ. قَدْ عَلِمْتُ مَاذَا أَفْعَلُ، حَتَّى إِذَا عَزَلْتُ عَنِ الْوَكَالََةِ يَقْبَلُونِي فِي بُيُوتِهِمْ. فَدَعَا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ مَدْيُونِي سَيِّدِهِ، وَقَالَ لِلأَوَّلِ: كَمْ عَلَيْكَ لِسَيِّدِي؟ فَقَالَ: مِئَةُ بَتٍّ رَيْتَ. فَقَالَ لَهُ: خُذْ صَكَكَ وَاجْلِسْ عَاجِلاً وَاكْتُبْ خَمْسِينَ. ثُمَّ قَالَ لِآخَرَ: وَأَنْتَ كَمْ عَلَيْكَ؟ فَقَالَ: مِئَةُ كُرٍّ قَمْحٍ. فَقَالَ لَهُ: خُذْ صَكَكَ وَاكْتُبْ ثَمَانِينَ. فَمَدَحَ السَيِّدُ الْوَكِيلَ الظُّلْمَ إِذْ بِحِكْمَةٍ فَعَلَ، لِأَنَّ أَبْنَاءَ هَذَا الدَّهْرِ أَحْكَمُ مِنْ أَبْنَاءِ النُّورِ فِي حِيلِهِمْ. وَأَنَا أَقُولُ لَكُمْ: اصْنَعُوا لَكُمْ أَصْدِقَاءَ بِمَالِ الظُّلْمِ، حَتَّى إِذَا فَنِينُمْ يَقْبَلُونَكُمْ فِي الْمَظَالِّ الأَبَدِيَّةِ. الأَمِينُ فِي القَلِيلِ أَمِينٌ أَيْضاً فِي الكَثِيرِ، وَالظَّالِمُ فِي القَلِيلِ ظَالِمٌ أَيْضاً فِي الكَثِيرِ. فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا أَمَنَاءَ فِي مَالِ الظُّلْمِ، فَمَنْ يَأْتِمُنْكُمْ عَلَى الْحَقِّ؟ وَإِنْ لَمْ تَكُونُوا أَمَنَاءَ فِي مَا هُوَ لِلْغَيْرِ، فَمَنْ يُعْطِيكُمْ مَا هُوَ لَكُمْ؟ لَا يَقْدِرُ خَادِمٌ أَنْ يَخْدِمَ سَيِّدَيْنِ، لِأَنَّهُ إِمَّا أَنْ يُبَغِضَ الْوَاحِدَ وَيُحِبَّ الْآخَرَ، أَوْ يُلَازِمَ الْوَاحِدَ وَيَحْتَقِرَ الْآخَرَ. لَا تَقْدِرُونَ أَنْ تَخْدِمُوا اللَّهَ وَالْمَالَ» (لوقا ١٦ :

13).

روى المسيح مثلاً يصور غنياً دعا إليه وكيله، ومدير أملاكه، وطلب منه الحساب، وأعلن له عزله بسبب شكوى أخته بأنه يبدّر أمواله. وطلب منه في المحاسبة أن يقدم صكوكاً يوقع عليها المزارعون، ويصدق عليها هو باعتبار أنه الوكيل، تُبين ما للمالك عند كل مزارع من حاصلات أملاكه. ولكن الوكيل الخائن لم يعترف بخيانتته ويستغفر ويتعهد بالإصلاح، بل أخذ يفكر في حيلة تنفعه بعد طرده من الوكالة. فالسلطة الشيطانية التي تجعل الآثام تولد آثاماً أخرى، جعلته يخترع خيانة جديدة أردأ من الأولى، لأنه دعا المزارعين إلى الغش معه. والذي يقود غيره إلى الخطأ تكون دينونته مضاعفة .

وأراد الوكيل الخائن أن يشتري لنفسه أصدقاء يعولونه في ضيقه بمال سيده، لقاء الأرباح التي تأتيهم بواسطته. فطلب من المزارعين أن يكتبوا صكوكاً بكميات أقل من الحق، ليصدق عليها ويقدمها للمالك. وقدّم لضميره هذا العذر: «ماذا أفعل؟ لست أستطيع أن أنقب. وأستحي أن أستعطي». وكان أولى أن يقول: «لست أستطيع أن أختلس.»

فلما اطلع مولاه على هذه الخيانة الجديدة دُهِش لجسارته وفطنته. وحسب المثل السائر «أعط الشيطان حقه» مدحه على ما سمّاه «حكمة» في ما فعل. لم يمدح السيد الوكيل على

الخيانة في عمله، لأنه أطلق عليه لقب «وكيل الظلم». ولو أنه مدحه على الخيانة لأرجعه إلى وكالته .

ثم ختم المسيح هذا المثل بقوله إن أبناء هذا الدهر أحكم من أبناء النور في جيلهم. وقدّم نصيحة لسامعيه أن يستعملوا ما لديهم من مال الظلم في خدمة الآخرين، ولا سيما في خدمة مصالحهم الروحية الأبدية .

ليس في هذا المثل تقديم أعذار لمن يجمع مالاً بالظلم أو بالخداع لينفقه كله أو بعضه في سبيل الخير والإحسان - فإن أفضل بابٍ للتخلص سريعاً من مال الظلم، متى وُجد، هو بذله في سبيل الخير. ولا سيما ما يمهدّ للذي يأخذه طريقه إلى السماء. لقد استخدم الوكيل في المثل مال الظلم ليربح له أصدقاء يقبلونه عندما يجيء عليه الضيق، فكم يجب أن يسعى الذي يريد أن يتخلص من مال الظلم الموجود بين يديه، ليربح بواسطته أصدقاء يستقبلونه في الديار الأبدية؟ وإن كان وكيل الظلم اجتهد بالحرام ليحقق مستقبله الزمني، فكم يجب أن يجتهد كل حكيم ليحقق مستقبله الأبدي؟ والذي تظهر أمانته في الأمور الأرضية التي تُعدّ زهيدة، هذا يختاره الله ليرزقه الكنوز الأثمن كثيراً - أي السماوية .

مثل الغني ولعازر

«كَانَ إِنْسَانٌ غَنِيٌّ وَكَانَ يَلْبَسُ الْأَرْجُوَانَ وَالْبَزَّ وَهُوَ يَتَنَعَّمُ كُلَّ يَوْمٍ مُتَرَفِّهاً. وَكَانَ مَسْكِينٌ اسْمُهُ لِعَازَرُ، الَّذِي طُرِحَ عِنْدَ بَابِهِ مَضْرُوباً بِالْقُرُوحِ، وَيَشْتَهِي أَنْ يَشْبَعَ مِنَ الْفَتَاتِ السَّاقِطِ مِنْ مَائِدَةِ الْغَنِيِّ، بَلْ كَانَتْ الْكِلَابُ تَأْتِي وَتَلْحَسُ فُرُوحَهُ. فَمَاتَ الْمَسْكِينُ وَحَمَلَتْهُ الْمَلَائِكَةُ إِلَى حِضْنِ إِبْرَاهِيمَ. وَمَاتَ الْغَنِيُّ أَيْضاً وَدُفِنَ، فَرَفَعَ عَيْنَيْهِ فِي الْهَلَاوِيَةِ وَهُوَ فِي الْعَذَابِ، وَرَأَى إِبْرَاهِيمَ مِنْ بَعِيدٍ وَلِعَازَرَ فِي حِضْنِهِ، فَنَادَى: يَا أَبِي إِبْرَاهِيمُ ارْحَمْنِي، وَأَرْسِلْ لِعَازَرَ لِيَبْلُ طَرَفَ إصْبَ عِهِ بِمَاءٍ وَيُبْرِدَ لِسَانِي، لِأَنِّي مُعَذَّبٌ فِي هَذَا اللَّهيبِ. فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: يَا ابْنِي اذْكُرْ أَنَّكَ اسْتَوْفَيْتَ خَيْرَاتِكَ فِي حَيَاتِكَ، وَكَذَلِكَ لِعَازَرُ الْبَلَايَا. وَالْآنَ هُوَ يَتَعَزَّى وَأَنْتَ تَتَعَذَّبُ. وَفَوْقَ هَذَا كُلِّهِ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ هُوَّةٌ عَظِيمَةٌ قَدْ أَثْبَتَتْ، حَتَّى إِنَّ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْعُبُورَ مِنْ هَهُنَا إِلَيْكُمْ لَا يَقْدِرُونَ، وَلَا الَّذِينَ مِنْ هُنَاكَ يَجْتَازُونَ إِلَيْنَا. فَقَالَ: أَسْأَلُكَ إِذَا يَا أَبَتِ أَنْ تُرْسِلَهُ إِلَى بَيْتِ أَبِي، لِأَنَّ لِي خَمْسَةَ إِخْوَةٍ، حَتَّى يَشْهَدَ لَهُمْ لِكَيْلَا يَأْتُوا هُمْ أَيْضاً إِلَى مَوْضِعِ الْعَذَابِ هَذَا. قَالَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: عِنْدَهُمْ مُوسَى وَالْأَنْبِيَاءُ. لِيَسْمَعُوا مِنْهُمْ. فَقَالَ: لَا يَا أَبِي إِبْرَاهِيمَ. بَلْ إِذَا مَضَى إِلَيْهِمْ وَاحِدٌ مِنَ الْأَمْوَاتِ يَتُوبُونَ. فَقَالَ لَهُ: إِنْ كَانُوا لَا يَسْمَعُونَ مِنْ مُوسَى وَالْأَنْبِيَاءِ، وَلَا إِنْ قَامَ وَاحِدٌ مِنَ الْأَمْوَاتِ يُصَدِّقُونَ» (لوقا ١٦: ١٩-٣١).

ثم روى المسيح مثلاً آخر عن غني يتنعم كل يوم مترفهاً، وكان عند بابهِ رجل اسمه لعازر، مضروباً بالقرح ومطروحاً عند مدخل قصره ليلتقط طعامه من الفتات الساقط من مائدة الغني. وكان الدواء الوحيد لتنظيف قروحهِ هو ألسنة الكلاب عند الباب التي كانت

تسابقه في التقاتل. وأخيراً مات الرجلان، وأكرما في موتهما إكراماً متخالفاً. فالغني دُفن بمزيد الاحترام البشري وحُرم النصيب السماوي. أما لعازر فلم يجد من يكرمه في دفنه، لكن الملائكة التي تحلّ حول خائفي الله حملته إلى حضن إبراهيم.

وفي الهاوية التي ذهبت روح الغني إليها، لعدم استعداده للسماء، رفع عينيه إلى النعيم ورأى سعادة لعازر هناك. فلم يجسر أن يطلب التخلص تماماً من عذابه في الجحيم، لكنه توهم أن تلطيف آلامه ممكن. وعلم أن الاسترحام من العزة الإلهية عبث بعد أن أهمل ربّه كل مدة حياته، فاستنجد بإبراهيم زعيم مذهبه الأقدم، أب الأمة اليهودية وأب الآباء. كان قد تعود في حياته أن يحتقر لعازر، والآن يتوهم أن يستخدمه لتخفيف عذابه، فطلب من إبراهيم: «يا أبي إبراهيم، ارحمني وأرسل لعازر ليليل طرف أصبعه بماء ويبرد لساني، لأنني معذب في هذا اللهب». «اشتهد الغني قطرة ماء من أصبع لعازر، الذي كان يشتهي على الأرض أن يجد فئات مائدة الغني».

فأجابه إبراهيم أن الذي يستوفي ملذاته في الحياة الدنيا، غير مبالٍ بالأبدية، لا بد أن يأتيه يومٌ يعرف مقدار خسارته الجسيمة. فالذي يتم شروط نيل السعادة الأبدية لا يهمله ما يصيبه في حياته الدنيا من الذل والعذاب لأن ساعة واحدة في حضن إبراهيم تعوّض كل ذلك، وتجعله ينساه. إن بين النعيم والجحيم هوة عظيمة مثبتة يستحيل اجتيازها. فلا يمكن أن يسقط إلى الجحيم من قد نال النعيم، ولا أن يرتقي إلى النعيم من ذهب إلى الجحيم.

ولما تأكد الغني أن تلطيف عذابه مستحيل، تحول فكره إلى إخوته الخمسة الذين تركهم في الدنيا، فطلب من إبراهيم أن يرسل لعازر إليهم ليخبرهم بما أصابه من العذاب، ويحذرهم من الانضمام إليه. فأجابه إبراهيم بما معناه أن حاجة إخوته العظمى ليست إلى زيادة البراهين العقلية، فإن الذين لا تكفيهم براهين الكتاب المقدس للإيمان لا يؤمنون مهما زيد لهم من البيّنات العجيبة. عدم الإيمان عمى روعي لا تزيله البراهين الجديدة. كما أنه لا فرق عند الضرير بين درجات النور. فمهما زادت الشمس ضياء فلن يستنير بذلك.

ظن هذا الغني أن إخوته الذين عرفوا لعازر في تعاسته على الأرض ينتبهون إذا رأوه آتياً من السماء ممجّداً، ليبلغهم تحذير أخيهام المعذب، فيتوبون ويطلبون الخلاص. لكن جواب إبراهيم فنّد زعمه هذا. نرى في هذا المثل إشارة إلى الارتباط الكلي بين قسمي حياة الإنسان، وأن أحواله في الآخرة تتبع أحواله الروحية في الدنيا، وأن باب السماء لا يبقى مفتوحاً لغير التائبين بعد موتهم، وأن استنقاذ الإنسان في حياته بالقديسين في السماء لا فائدة منه على الإطلاق.

المسيح يُقيم لعازر من الموت

«وَكَانَ إِنْسَانٌ مَرِيضاً وَهُوَ لِعَازَرُ، مِنْ بَيْتِ عَنِيَا مِنْ قَرْيَةِ مَرْيَمَ وَمَرْثَا أُخْتَيْهَا. وَكَانَتْ مَرْيَمُ، الَّتِي كَانَ لِعَازَرُ أَخُوهَا مَرِيضاً، هِيَ الَّتِي دَهَنَتْ الرَّبَّ بِطِيبٍ، وَمَسَحَتْ رِجْلَيْهِ بِشَعْرِهَا. فَأَرْسَلَتْ الْأُخْتَانِ إِلَيْهِ قَائِلَتَيْنِ: «يَا سَيِّدُ، هُوَذَا الَّذِي تُحِبُّهُ مَرِيضٌ». فَلَمَّا سَمِعَ يَسُوعُ، قَالَ: «هَذَا الْمَرَضُ لَيْسَ لِلْمَوْتِ، بَلْ لِأَجْلِ مَجْدِ اللَّهِ، لِيَتِمَّ جَدُّ ابْنِ اللَّهِ بِهِ». وَكَانَ يَسُوعُ يُحِبُّ مَرْثَا وَأُخْتَهَا وَلِعَازَرَ. فَلَمَّا سَمِعَ أَنَّهُ مَرِيضٌ مَكَثَ حِينًا فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي كَانَ فِيهِ يَوْمِينَ» (يوحنا ١١: ٦-١١).

جاء إلى المسيح رسول من بيت عنيا، من عند مرثا ومريم، ليلبغه أن لعازر أخاهم الذي يحبه مريض. لم تكن محبة أخيهما للمسيح هي الدافع على هذا الطلب، بل محبة المسيح لأخيهما، وهذه على الدوام لغة التقوى الحقيقية التي تعترف أن أساس السرور والرجاء والخلص ليس في محبة الخاطئ للمخلص، بل في محبة المخلص للخاطئ. كانت مرثا ومريم تعلمان الخطر الذي يهدد حياة المسيح وحياة تابعيه إن اقترب من أورشليم بعد سفره منها، فلم تدعوا لياثي إليهما. ولربما تذكر أن كان أحياناً يشفي من بعيد، فيكفي أن يعرف خبر مرض أخيهما ليأمر من حيث هو لأخيهما بالشفاء.

كان جواب المسيح على هذه الرسالة وجيزاً، دون تقديم عذر لعدم ذهابه مع الرسول. قال: «هذا المرض ليس للموت، بل لأجل الله، ليتمجد ابن الله به.»

وعاد الرسول إلى بيت عنيا ليجد أن لعازر قد مات. ماذا كانت أفكار ذلك الرسول؟ لعله قال إن المسيح كاذب لأنه قال إن هذا المرض ليس للموت؟

تُرى ماذا قالت مريم ومرثا عن تأخير المسيح عنهما؟ هل أصابهما الشك في محبته لهما؟

وفي اليوم الثالث طالب المسيح تلاميذه أن يستعدوا للذهاب إلى اليهودية، فعارضوه أولاً بقولهم: «يا معلم، الآن كان اليهود يطلبون أن يرحموك، وتذهب أيضاً إلى هناك؟». احتاروا في هذا الأمر الجديد، لأنه لو كان ذهابه ضرورياً لشفاء لعازر، فلماذا لم يذهب حالاً؟ وإن كان غير ضروري فلماذا يخاطر بنفسه وبهم؟

واستخدم المسيح اعتراض التلاميذ ليعلمهم أن لا خوف على الذي يسير بإرشاد إلهي، لأن هذا هو النور، وعدمه الظلام. وقال لهم إنه يقصد بالذهاب إلى اليهودية أن يوقظ لعازر من النوم. ومن تسمية لعازر «حبيبنا» عرفنا لعازر شاباً ممتازاً في صفاته، يليق أن يكون صديقاً خصوصياً للمسيح وتلاميذه.

فكان جواب التلاميذ أن نوم لعازر علامة جيدة تدلّ على أنه يشرف على الشفاء. فلما رأى المسيح أنهم لم يفهموا كلامه أوضح الأمر بقوله: «لعازر مات». لقد أطلق المسيح على الموت «نوماً» لأن موت المؤمن وقتي، تعقبه يقظة القيامة والسعادة الأبدية.

أظهر المسيح لتلاميذه أن عدم وجوده في بيت عنيا ليشفي لعازر كان خيراً لهم، لأنه سيقوي إيمانهم تقوية عظيمة. لقد امتنع عن تقديم بركة الشفاء ليهب بركة أعظم جداً هي إقامة المريض بعد موته. وكثيراً ما يتعامل الله على هذا المنوال مع خائفه. ويظهر أن التلاميذ تردّدوا في أمر الطاعة، لكن توما تحمّس أخيراً وقال: «لنذهب نحن أيضاً لكي نموت معه». فأظهر شدة حبه للمسيح واستعداده لأن يموت لأجله. هكذا بدأ سفر المسيح وتلاميذه إلى بيت عنيا.

«فَلَمَّا أَتَى يَسُوعُ وَجَدَ أَنَّهُ قَدْ صَارَ لَهُ أَرْبَعَةُ أَيَّامٍ فِي الْقَبْرِ. وَكَانَتْ بَيْتُ عَنِيَا قَرِيبَةً مِنْ أُورُشَلِيمَ نَحْوَ خَمْسِ عَشْرَةِ غَلْوَةً. وَكَانَ كَثِيرُونَ مِنَ الْيَهُودِ قَدْ جَاءُوا إِلَى مَرْثَا وَمَرْيَمَ لِيُعْزُوهُمَا عَنْ أَخِيهِمَا. فَلَمَّا سَمِعَتْ مَرْثَا أَنَّ يَسُوعَ آتٍ لَاقَتْهُ، وَأَمَّا مَرْيَمُ فَاسْتَمَرَّتْ جَالِسَةً فِي الْبَيْتِ. فَقَالَتْ مَرْثَا لِيَسُوعَ: «يَا سَيِّدُ، لَوْ كُنْتُ هَهُنَا لَمْ يَمُتْ أَخِي. لَكِنِّي الْآنَ أَيْضاً أَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ مَا تَطْلُبُ مِنَ اللَّهِ يُعْطِيكَ اللَّهُ إِيَّاهُ». قَالَ لَهَا يَسُوعُ: «سَيَقُومُ أَخُوكِ». قَالَتْ لَهُ مَرْثَا: «أَنَا أَعْلَمُ أَنَّهُ سَيَقُومُ فِي الْقِيَامَةِ، فِي الْيَوْمِ الْآخِرِ». قَالَ لَهَا يَسُوعُ: «أَنَا هُوَ الْقِيَامَةُ وَالْحَيَاةُ. مَنْ آمَنَ بِي وَلَوْ مَاتَ فَسَيَحْيَا، وَكُلُّ مَنْ كَانَ حَيًّا وَآمَنَ بِي فَلَنْ يَمُوتَ إِلَى الْأَبَدِ. أَتُؤْمِنِينَ بِهَذَا؟» قَالَتْ لَهُ: «نَعَمْ يَا سَيِّدُ. أَنَا قَدْ آمَنْتُ أَنَّكَ أَنْتَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ، الْآتِي إِلَى الْعَالَمِ» (يوحنا ١١: ٢٧-١٧).

قبل أن يصل المسيح وتلاميذه بيت عنيا سمعت مرثا بقومهم، فأسرت لملاقاة المسيح، تاركة أختها مريم تقوم بواجب المعزين الجالسين في البيت. ونستنتج من هذا أن بيت لعازر كان بيت غنى وسخاء.

وما أن وصلت مرثا للمسيح حتى قالت له: «يا سيد، لو كنت ههنا لم يمت أخي. لكني الآن أيضاً أعلم أن كل ما تطلب من الله يعطيك الله إياه». كان إيمانها بالمسيح قوياً، لكن غير كامل، لأنه لما قال لها: «سيقوم أخوك» لم تتوقع أنه سيُقيم فوراً، بل أنه سيقوم مع سائر المؤمنين في اليوم الأخير. فأكرم المسيح إيمانها رغم ضعفه كما يفعل على الدوام، وذلك بإعلان فائق إذ قال لها: «أنا هو القيامة والحياة. من آمن بي ولو مات فسيحيا. وكل من كان حياً وآمن بي فلن يموت إلى الأبد.»

لكن من غير الله ينسب إلى نفسه صدقاً أن الموت والحياة يتوقّان على الإيمان به، وأنه هو الحياة وهو القيامة؟ ومن يستطيع أن يصف أو يدرك مقدار التعزية التي حصلت للمؤمنين من هذا الكلام منذ قاله المسيح إلى هذا اليوم؟ وستحصل التعزية نفسها في المستقبل إلى أن

يجيء بمجيئه الثاني العتيد المجيد، ويقيم بصوته جميع الذين في القبور. لما سأل مرثا: «أتؤمنين بهذا؟» أجابت: «نعم يا سيد، أنا قد آمنت أنك أنت المسيح ابن الله الآتي إلى العالم». فكان كلامها الأول زهر الإيمان، وهذا الثاني ثمره الذي نضج سريعاً.

«وَلَمَّا قَالَتْ هَذَا مَضَتْ وَدَعَتْ مَرْيَمَ أُخْتَهَا سِرًّا، قَائِلَةً: «الْمُعَلِّمُ قَدْ حَضَرَ، وَهُوَ يَدْعُوكِ». أَمَّا تِلْكَ فَلَمَّا سَمِعَتْ قَامَتْ سَرِيعاً وَجَاءَتْ إِلَيْهِ. وَلَمْ يَكُنْ يَسُوعُ قَدْ جَاءَ إِلَى الْقَرْيَةِ، بَلْ كَانَ فِي الْمَكَانِ الَّذِي لَاقَتْهُ فِيهِ مَرْتًا. ثُمَّ إِنَّ الْيَهُودَ الَّذِينَ كَانُوا مَعَهَا فِي الْبَيْتِ يُعْزُّوْنَهَا، لَمَّا رَأَوْا مَرْيَمَ قَامَتْ عَاجِلاً وَخَرَجَتْ، تَبْعُوهَا قَائِلِينَ: «إِنَّهَا تَذْهَبُ إِلَى الْقَبْرِ لِتَبْكِيَ هُنَاكَ». فَمَرْيَمُ لَمَّا أَتَتْ إِلَى حَيْثُ كَانَ يَسُوعُ وَرَأَتْهُ، خَرَّتْ عِنْدَ رِجْلَيْهِ قَائِلَةً لَهُ: «يَا سَيِّدُ، لَوْ كُنْتُ هَهُنَا لَمْ يَمُتْ أَخِي». فَلَمَّا رَأَاهَا يَسُوعُ تَبْكِي، وَالْيَهُودَ الَّذِينَ جَاءُوا مَعَهَا يَبْكُونَ، انْزَعَجَ بِالرُّوحِ وَاضْطَرَبَ، وَقَالَ: «أَيْنَ وَضَعْتُمُوهُ؟» قَالُوا لَهُ: «يَا سَيِّدُ، تَعَالَ وَانْظُرْ». بَكَى يَسُوعُ. فَقَالَ الْيَهُودُ: «انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ يُحِبُّهُ». وَقَالَ بَعْضُ مِنْهُمْ: «أَلَمْ يَقْدِرْ هَذَا الَّذِي فَتَحَ عَيْنَيِ الْأَعْمَى أَنْ يَجْعَلَ هَذَا أَيْضاً لَا يَمُوتُ؟» (يوحنا ١١: ٣٧-٢٨).

عند ذلك طلب المسيح من مرثا أن يرى أختها أيضاً. وانتظر حيث كان، بينما أسرع مرثا إلى البيت وأخبرت مريم سرّاً بطلب المسيح. فلما قامت حالاً وخرجت، تبعها المعزون لأنهم ظنوا أنها تحتاج إلى من يلطف حزنها ويوقف بكاءها عند قبر أخيها. فكان لعملهم هذا فائدة عظيمة، إذ رأى خصوم المسيح على غير قصدٍ منهم أعجب معجزاته كافة. وبعد أن رأوا إقامة لعازر من قبره يستحيل عليهم الشك أو الإنكار.

نتخيل هذا الموكب الوقور سائراً بسرعة من البيت إلى المقبرة تتقدمه الأختان الحزيتان. ثم ارتباك هؤلاء اليهود، لما فوجئوا برؤية المسيح الذي يبغضونه ويطلبون موته، ورأوا المرأة التي يتبعونها تسجد عند قدميه، وتصرخ كما صرخت أختها قبلها: «يا سيد، لو كنت ههنا لم يمت أخي». هو كلامٌ كانتا بلا شك تردّدانه كثيراً في الأربعة الأيام الأخيرة. ليس في كلامهما تلويح للمسيح على تأخيرته في المجيء، لأن أخاهما مات يوم ذهاب رسولهما، فلم تقولوا: «لو جئت بل لو كنت ههنا». تكلمت مريم ثم انفجرت ومعها الجميع بكاءً وعويلًا.

تحركت عواطف المسيح الرقيقة «وانزعج بالروح واضطرب». والمعنى الأصلي للكلمة اليونانية «انزعج» هو «اغتاظ». اغتاظ المسيح وهو يرى أمامه عدوّه إبليس في هذه الساعة، كما كان يفعل كثيراً، لأنه يعلم أن إبليس هو السبب الأعظم للشقاء والبكاء والموت في العالم. ثم سأل عن مكان الدفن. فأجابوه: «يا سيد، تعال وانظر» فمشى معهم ودموعه تتساقط بهدوء حتى قال لليهود: «انظروا كيف كان يحبه.»

ربما نتعجب كيف بكى مع أنه كان ذاهباً ليقيمه من قبره ويردّه إلى بيته. فلماذا لم يكن مبتهجاً؟

لا يبتهج وأحباؤه مكتئبين، فهو يقدّم للعالم قدوة المواساة اللطيفة الصادقة، فبكى مع الباكين كما فرح مع الفرحين، بكى لأنه رأى في هؤلاء الباكين مثلاً لبكاء البشر جميعاً. بكى لشعوره مع البشر في مصائبهم التي لا تُحصى. فتعجب الرؤساء الحاضرون كيف لم يستعمل هذا الباكي قدرته المعهودة في شفاء شخص يحبه بهذا المقدار. وكان قد شفى أمام أعينهم من مدة قصيرة إنساناً غريباً في أورشليم ولد أعمى. فكيف لم يشف حبيبه لعازر ويمنع عنه الموت؟

«فَانْزَعَجَ يَسُوعُ أَيْضاً فِي نَفْسِهِ وَجَاءَ إِلَى الْقَبْرِ، وَكَانَ مَعَارَةً وَقَدْ وُضِعَ عَلَيْهِ حَجَرٌ. قَالَ يَسُوعُ: «ارْفَعُوا الْحَجَرَ». قَالَتْ لَهُ مَرْثَا، أُخْتُ الْمَيِّتِ: «يَا سَيِّدُ، قَدْ أَتَنْتَ لِأَنَّ لَهُ أَرْبَعَةَ أَيَّامٍ». قَالَ لَهَا يَسُوعُ: «أَلَمْ أَقُلْ لَكَ: إِنْ آمَنْتَ تَرَيْنِ مَجْدَ اللَّهِ؟». فَرَفَعُوا الْحَجَرَ حَيْثُ كَانَ الْمَيِّتُ مَوْضُوعاً، وَرَفَعَ يَسُوعُ عَيْنَيْهِ إِلَى فَوْقَ، وَقَالَ: «أَيُّهَا الْآبُ، أَشْكُرُكَ لِأَنَّكَ سَمِعْتَ لِي، وَأَنَا عَلِمْتُ أَنَّكَ فِي كُلِّ حِينٍ تَسْمَعُ لِي. وَلَكِنْ لِأَجْلِ هَذَا الْجَمْعِ الْوَاقِفِ قُلْتُ، لِيُؤْمِنُوا أَنَّكَ أَرْسَلْتَنِي». وَلَمَّا قَالَ هَذَا صَرَخَ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ: «لِعَازَرُ، هُلِّمْ خَارِجاً» فَخَرَجَ الْمَيِّتُ وَيَدَاهُ وَرِجْلَاهُ مَرْبُوطَاتٌ بِأَقْمِطَةٍ، وَوَجْهُهُ مَلْفُوفٌ بِمِنْدِيلٍ. فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «حُلُّوهُ وَدَعُوهُ يَذْهَبُ» (يوحنا ١١: ٣٨-٤٤).

لما أتوا إلى القبر تجدد انفعال المسيح ثانية بانزعاج الغيظ، لأنه زاد اقتراباً عند القبر من خصمه الروحي إبليس، ومن المصارعة القوية معه لخطف فريسة الموت من قبضته، لأنه يقابله الآن عند القبر الذي هو أمتع معاقله .

كان على باب المدفن حجر كبير يجب رفعه. وبما أن الواقفين يقدر أن يرفعوه لم يرفعه المسيح بمعجزة. وفي هذا نموذج للخلاص. لا يجوز أن يتوقف الخاطئ عن العمل المطلوب منه، بحجة أنه ينتظر العمل الإلهي العجيب، بل كما يشترط المسيح لإقامة الميت أن يدحرج الناس الحجر، يشترط على الخاطئ أن يتوب ويؤمن قبل أن يخلصه من خطيته .

أما مرثا صاحبة الكلمة في أمر الفقيده، فاعترضت على رفع الحجر عن باب القبر بدافع الشك والاحترام، لأنها لم تشأ أن ترى جسد أخيها بعد أن بدأ فيه الفساد والفناء، وقالت: «يا سيد قد أتنت، لأن له أربعة ايام». فقابلها المسيح بتوبيخ لطيف في جوابه: «ألم أقُلْ لك إن آمنت ترين مجد الله؟».

ولما فتحوا باب القبر كان عمل المسيح الأول تحويل أفكار الحاضرين إلى أبيه الجالس على عرش الكون. الذي هو مرتبط معه ارتباطاً خوله حق القول في وقت آخر: «أَنَا وَالآبُ

وَاحِدٌ» (يوحنا ١٠:٣٠) لقد أراد أن يعرف كل الحاضرين أنه لا يعمل عملاً مستقلاً عن الأب، ليظهر اشتراك الأب معه في كل ما يعمل، فرفع عينيه إلى فوق وقال: «أيها الأب أشكرك لأنك سمعت لي». ثم لكي لا نتصور أنه يصلي كأحد الأنبياء الذين ينالون أحياناً ما يطلبونه، وأحياناً لا ينالونه، قال في صلاته: «أنا علمت أنك في كل حين تسمع لي». ولكي لا يظنوا أن صلاته كانت لاحتياج فيه، كأنه عاجز في ذاته، وقال: «ولكن لأجل هذا الجمع الواقف قلت، ليؤمنوا أنك أرسلتني» والقاعدة لكل من يريد أن يخاطب موتى الذنوب والخطايا أن يخاطب الله أولاً في الصلاة لأجلهم، كما فعل المسيح في هذه الساعة .

ثم عند نهاية صلاته صرخ بصوت عظيم قائلاً: «لعازر، هلم خارجاً.»

وقد أشعر الصوت العظيم الحاضرين بعظمة العمل وصعوبته، وذكرهم أن النفس غير موجودة في هذا القبر، وأنه يناديها عن بُعد من وراء القبر. فعند هذا الصراخ السلطاني خرج الميت من قبره لابساً أكفانه التي قيّدت حركته. فأمرهم المسيح: «حلّوه ودعوه يذهب». فصحت الآن النبوة التي نطق بها: «الْحَقُّ الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُ تَأْتِي سَاعَةٌ وَهِيَ الْآنَ، حِينَ يَسْمَعُ الْأَمْوَاتُ صَوْتَ ابْنِ اللَّهِ، وَالسَّامِعُونَ يَحْيَوْنَ» (يوحنا ٥:٢٥).

«فَكثيرون من اليهود الذين جاءوا إلى مريم، ونظروا ما فعل يسوع، آمنوا به. وأما قوم منهم فمضوا إلى الفريسيين وقالوا لهم عما فعل يسوع. فجمع رؤساء الكهنة والفريسيون مجمعا وقالوا: «ماذا نصنع؟ فإن هذا الإنسان يعمل آيات كثيرة. إن تركناه هكذا يؤمن الجميع به، فيأتي الرومانيون ويأخذون موضعنا وأمتنا». فقال لهم واحد منهم، وهو قيافا، كان رئيساً للكهنة في تلك السنة: «أنتم لستم تعرفون شيئاً، ولا تفكرون أنه خير لنا أن يموت إنسان واحد عن الشعب ولا تهلك الأمة كلها». ولم يقل هذا من نفسه، بل إذ كان رئيساً للكهنة في تلك السنة، تنبأ أن يسوع مزمع أن يموت عن الأمة، وليس عن الأمة فقط، بل ليجمع أبناء الله المتفرقين إلى واحد. فمن ذلك اليوم تشاوروا ليقْتُلُوهُ» (يوحنا ١١:٤٥-٥٢).

كانت هذه المعجزة برهان صحة إرسالية المسيح السماوية وصدق تعليمه، وأقنعت كل من عنده قابلية ليفتنع بالحق. ومع ذلك لم يؤمن أغلب الموجودين بل ازدادوا قساوة وبغضاً، بتأثير رؤيتهم هذا البرهان القاطع. وقصدوا أن يكذبوا قول المسيح إنه القيامة ومانح الحياة، بقضائهم عليه بالإعدام. فعقدوا جلسة خصوصية لمجمعهم الكبير للنظر في الظروف الجديدة التي أوجدتها إقامة لعازر من قبره، فاعترفوا أنه كان يعمل آيات كثيرة. فإن تركوه، يؤمن به الجميع بتأثير شخصه وتعليمه وآياته، فتحدث فتنة سياسية ضد الحكم الروماني، تحرك غضب الحكام وتجعلهم يهلكون الأمة أو يبدّدونها بالسبي. وكانت هذه الجلسة توفيقاً عظيماً للدعوة المسيحية، لأنها أتت بشهادة جلية من خصوم المسيح .

في غضون الجلسة تكلم رئيسها قيافا (رئيس الكهنة) كلاماً نبوياً، أنطقه به الروح الإلهي على غير فهم منه. قال: «أنتم لستم تعرفون شيئاً، ولا تفكرون أنه خيرٌ لنا أن يموت إنسان واحد عن الشعب ولا تهلك الأمة كلها». قصد قيافا في كلامه نصيحة أن يقتلوا المسيح لئلا تهلك الأمة بسببه، وقصد الروح القدس الذي تكلم بواسطته أن يبين أن موت المسيح كان كفارة عن الأمة، وليس عن الأمة فقط بل «ليجمع أبناء الله المتفرّقين إلى واحد.»

كان قيافا، وأكثر رؤساء الكهنة، من طائفة الصدوقيين الذين ينكرون القيامة وعالم الأرواح، لذلك كانت إقامة لعازر من الموت ضربة مؤلمة عليهم، لأنها أعلنت للجميع فساد تعليمهم، الأمر الذي جعلهم يتحدون مع خصومهم الفريسيين ليهلكوا المسيح. ولا غرابة أن هذه القيامة مهدت الطريق كثيراً لتصديق قيامة المسيح الذي أقام لعازر، والتي حدثت بعد شهرين. ولا سيما أن المسيح لم يرقد في قبره المدة التي رقد بها لعازر في قبره .

لم يصبر مجمع السنهدريم إلى جلسة أخرى، بل أصدر قراراً رسمياً بقتل المسيح، وهو أمر حاولوه مراراً من قبل لكن على غير جدوى، ولكنهم أخذوا يسعون من الآن أن ينفذوه بموجب مستند رسمي مصدّق من مجمع السنهدريم، الذي لا يُستأنف حكمه.

لقاءات وأحاديث للمسيح

شفاء عشرة بُرص

«وَفِي ذَهَابِهِ إِلَى أُورُشَلِيمَ اجْتَاَزَ فِي وَسْطِ السَّامِرَةِ وَالْجَلِيلِ. وَفِيمَا هُوَ دَاخِلٌ إِلَى قَرْيَةٍ اسْتَقْبَلَهُ عَشْرَةُ رِجَالٍ بُرَصٍ، فَوَقَفُوا مِنْ بَعِيدٍ وَصَرَخُوا: «يَا يَسُوعُ يَا مُعَلِّمُ، ارْحَمْنَا». فَنَظَرَ وَقَالَ لَهُمْ: «اذْهَبُوا وَأَرُوا أَنْفُسَكُمْ لِلْكَهَنَةِ». وَفِيمَا هُمْ مُنْطَلِقُونَ طَهَّرُوا. فَوَاحِدٌ مِنْهُمْ لَمَّا رَأَى أَنَّهُ شَفِيَ، رَجَعَ يُمَجِّدُ اللَّهَ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ، وَخَرَّ عَلَى وَجْهِهِ عِنْدَ رِجْلَيْهِ شَاكِرًا لَهُ. وَكَانَ سَامِرِيًّا. فَقَالَ يَسُوعُ: «أَلَيْسَ الْعَشْرَةُ قَدْ طَهَّرُوا؟ فَأَيْنَ التَّسْعَةُ؟ أَلَمْ يُوجَدْ مَنْ يَرْجِعْ لِيُعْطِيَ مَجْدًا لِلَّهِ غَيْرَ هَذَا الْغَرِيبِ الْجِنْسِ؟» ثُمَّ قَالَ لَهُ: «قُمْ وَامْضِ. إِيْمَانُكَ خَلَّصَكَ» (لوقا 17:11-19).

رجع المسيح إلى اورشليم لأن عيد الفصح - ميعاد تقديمه الذبيحة الكفارية - صار قريباً، واثناء دخوله إحدى القرى لاقاه عشرة رجال مرضى بالبرص. ولا يخفى أن المصابين تجمع حتى الأعداء. وهكذا اجتمع أولئك المرضى معاً. ولكن مراعاةً للقانون واللياقة وقفوا بعيداً وصرخوا: «يا يسوع، يا معلم، ارحمنا.»

في بداءة خدمة المسيح كان يلمس البرص الذين طهروهم، لأنه بذلك أظهر حنانه وتفضيله الرحمة على الفرائض الخارجية، أما الآن وقد اشتهر بكل ذلك. فلا حاجة إلى هذا اللمس. فأمر هؤلاء العشرة أن يُرُوا نفوسهم للكهنة في اورشليم، برهاناً على أنهم طهروا، فأطاعوا حالاً قبل أن يروا من التطهير شيئاً، لذلك أكرم المسيح إيمانهم الذي أثمر طاعة. وفيما هم سائرون طهروا.

أما التسعة اليهود فلم يبالوا بالذي قدم لهم الرحمة، فتابعوا سيرهم نحو اورشليم ناسين واجب الشكر للطبيب الشافي. لكن السامري الغريب تأثر من إحسان لم يتوقعه، فرجع وهو يمجّد الله بصوت عظيم ليقدم الشكر أولاً للذي أنقذه من العار والخطر وحرمان الحقوق الدينية، وجثا عند قدمي المسيح. فقال جزاءه تلك الكلمة الثمينة: «إيمانك خلّصك». ألا يمتثل هذا الحادث أكثر ما يحدث في التاريخ البشري؟ وهل يؤدي أكثر من واحد في العشرة شكراً لله على مراحمه الوافرة؟

سؤال عن الملكوت

«وَلَمَّا سَأَلَهُ الْفَرِّيسِيُّونَ: «مَتَى يَأْتِي مَلَكُوتُ اللَّهِ؟» أَجَابَهُمْ: «لَا يَأْتِي مَلَكُوتُ اللَّهِ بِمُرَاقَبَةٍ، وَلَا يَقُولُونَ: هُوَذَا هُنَا أَوْ: هُوَذَا هُنَاكَ، لِأَنَّ هَا مَلَكُوتُ اللَّهِ دَاخِلَكُمْ». وَقَالَ لِلتَّلَامِيذِ: «سَتَأْتِي أَيَّامٌ فِيهَا تَشْتَهُونَ أَنْ تَرَوْا يَوْمًا وَاحِدًا مِنْ أَيَّامِ ابْنِ الْإِنْسَانِ وَلَا تَرَوْنَ. وَيَقُولُونَ لَكُمْ: هُوَذَا هُنَا أَوْ: هُوَذَا هُنَاكَ. لَا تَذْهَبُوا وَلَا تَتَّبِعُوا، لِأَنَّهُ كَمَا أَنَّ الْبَرَقَ الَّذِي يَبْرِقُ مِنْ نَاحِيَةِ

تَحْتَ السَّمَاءِ يُضِيءُ إِلَى نَاجِيَةٍ تَحْتَ السَّمَاءِ، كَذَلِكَ يَكُونُ ابْنُ الْإِنْسَانِ فِي يَوْمِهِ. وَلَكِنْ يَنْبَغِي أَوَّلًا أَنْ يَتَأَلَّمَ كَثِيرًا وَيُرْفُضَ مِنْ هَذَا الْجِيلِ. وَكَمَا كَانَ فِي أَيَّامِ نُوحٍ كَذَلِكَ يَكُونُ أَيْضًا فِي أَيَّامِ ابْنِ الْإِنْسَانِ. كَانُوا يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ، وَيَزَوِّجُونَ وَيَتَزَوَّجُونَ، إِلَى الْيَوْمِ الَّذِي فِيهِ دَخَلَ نُوحٌ الْفُلَّكَ، وَجَاءَ الطُّوفَانُ وَأَهْلَكَ الْجَمِيعَ) «لوقا ١٧: ٢٠-٢٧».

بعد هذا سأل الفريسيون المسيح: «متى يأتي ملكوت الله؟» فأجابهم بحقيقة أساسية متعلقة بملكوته، أنه لا يُقال عنه في مكان أو زمان معين، أو أن هيئة أو طائفة أو كنيسة خصوصية هي ملكوت الله، بل «ها ملكوت الله داخلكم». أي أن القلوب التي حلَّ هو فيها، ويحكم عليها، هي التي تؤلِّف ملكوته .

ثم وجَّه المسيح كلامه إلى تلاميذه الذين يحلمون بالملكوت الزماني، وأشار مرة أخرى إلى ما أمامه من الآلام الكثيرة والرفض. وتكلَّم عن مخاوف اليوم الذي فيه يظهر ابن الإنسان، لأن ذلك اليوم يذكر العالم بأهوال الطوفان العظيم، وتدمير سدوم وعمورة بالنار والكبريت، حيث تصبح الأمة اليهودية جثة بالية تنقضُّ عليها النصور الرومانية وتقنصها .

مثَّل عن ضرورة الصلاة المتواضعة

«وَقَالَ لِقَوْمٍ وَاثِقِينَ بِأَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ أَبْرَارٌ، وَيَحْتَفِرُونَ الْآخِرِينَ هَذَا الْمَثَلُ: «إِنْسَانَانِ صَعِدَا إِلَى الْهَيْكَلِ لِيُصَلِّيَا، وَاحِدٌ فَرِيسِيٌّ وَالْآخَرُ عَشَّارٌ. أَمَّا الْفَرِيسِيُّ فَوَقَفَ يُصَلِّي فِي نَفْسِهِ هَكَذَا: اللَّهُمَّ أَنَا أَشْكُرُكَ أَنِّي لَسْتُ مِثْلَ بَاقِي النَّاسِ الْخَاطِفِينَ الظَّالِمِينَ الزُّنَاةَ، وَلَا مِثْلَ هَذَا الْعَشَّارِ. أَصُومُ مَرَّتَيْنِ فِي الْأُسْبُوعِ، وَأَعَشِّرُ كُلَّ مَا أَفْتَنِيهِ. وَأَمَّا الْعَشَّارُ فَوَقَفَ مِنْ بَعِيدٍ، لَا يَشَاءُ أَنْ يَرْفَعَ عَيْنَيْهِ نَحْوَ السَّمَاءِ، بَلْ قَرَعَ عَلَى صَدْرِهِ قَائِلًا: اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي أَنَا الْخَاطِيءُ. أَقُولُ لَكُمْ إِنَّ هَذَا نَزَلَ إِلَى بَيْتِهِ مُبَرَّرًا دُونَ ذَلِكَ، لِأَنَّ كُلَّ مَنْ يَرْفَعُ نَفْسَهُ يَتَضَعُ، وَمَنْ يَضَعُ نَفْسَهُ يَرْتَفِعُ» (لوقا ١٨: ٩-١٤).

جدَّد المسيح كلامه للفريسيين لئريهم صورتهم في مثَّل متعلِّق بالصلاة، فضرب مثلاً عن فريسي معتدِّ بنفسه، يصلي ويشكر الله في الهيكل لامتيازهِ في الفضائل. وعن عشار يصلي في ذات الوقت والمكان، متواضعاً عند مدخل الهيكل، ورأسه المنحني يدلُّ على خشوعه، وقَرَّعَ على صدره يبيِّن حزنه على آثامه، وكلامه يكشف عن إيمانه بقوله: «اللهم ارحمني أنا الخاطيء». ألم يقل الكتاب إن «ذبايح الله هي الروح المنكسرة. القلب المنكسر والمنسحق يا الله لا تحتقره» (مزمور ٥١: ١٧)؟ فنزل العشار إلى بيته مبرِّراً دون الفريسي. «لأن كل من يرفع نفسه يتضع، ومن يضع نفسه يرتفع».

سؤال عن الطلاق

«وَجَاءَ إِلَيْهِ الْفَرِيسِيُّونَ لِيُجَرِّبُوهُ قَائِلِينَ لَهُ: «هَلْ يَحِلُّ لِلرَّجُلِ أَنْ يُطَلِّقَ امْرَأَتَهُ لِكُلِّ سَبَبٍ؟» فَأَجَابَ: «أَمَا قَرَأْتُمْ أَنَّ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْبَدَنِ حَقْفَهُمَا ذَكَرًا وَأُنْثَى؟» وَقَالَ: «مِنْ أَجْلِ هَذَا يَتْرُكُ الرَّجُلُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَيَلْتَصِقُ بِامْرَأَتِهِ، وَيَكُونُ الاثْنَانِ جَسَدًا وَاحِدًا. إِذَا لَيْسَ بَعْدُ اثْنَيْنِ بَلْ جَسَدٌ وَاحِدٌ. فَالَّذِي جَمَعَهُ اللَّهُ لَا يُفَرِّقُهُ إِنْسَانٌ». فَسَأَلُوهُ: «فَلِمَاذَا أَوْصَى مُوسَى أَنْ يُعْطَى كِتَابُ طَلَاقٍ فَتُطَلَّقَ؟» قَالَ لَهُمْ: «إِنَّ مُوسَى مِنْ أَجْلِ قَسَاوَةِ قُلُوبِكُمْ أَذِنَ لَكُمْ أَنْ تُطَلِّقُوا نِسَاءَكُمْ. وَلَكِنْ مِنَ الْبَدَنِ لَمْ يَكُنْ هَكَذَا. وَأَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ مَنْ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ إِلَّا بِسَبَبِ الزَّنا وَتَزَوَّجَ بِأُخْرَى يَزْنِي، وَالَّذِي يَتَزَوَّجُ بِمُطَلَّقَةٍ يَزْنِي». قَالَ لَهُ تَلَامِيذُهُ: «إِنْ كَانَ هَكَذَا أَمْرُ الرَّجُلِ مَعَ الْمَرْأَةِ فَلَا يُوَافِقُ أَنْ يَتَزَوَّجَ!» فَقَالَ لَهُمْ: «لَيْسَ الْجَمِيعُ يَقْبَلُونَ هَذَا الْكَلَامَ بَلِ الَّذِينَ أُعْطِيَ لَهُمْ، لِأَنَّهُ يُوجَدُ خَصِيَانٌ وَلِدُوا هَكَذَا مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِهِمْ، وَيُوجَدُ خَصِيَانٌ خَصَاهُمْ النَّاسُ، وَيُوجَدُ خَصِيَانٌ حَصَوْا أَنْفُسَهُمْ لِأَجْلِ مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ. مَنْ اسْتَطَاعَ أَنْ يَقْبَلَ فَلْيَقْبَلْ» متى ١٩:٣-١٢).

وجّه الفريسيون للمسيح سؤالاً عدائياً في أمر الطلاق. ومع أن عندهم شريعة موسى، تظاهروا أنهم يكرمون المسيح ويعطونه الحق لينتبت أو يلغي تلك الشريعة، فأعاد المسيح الحكم للشريعة. ولما قالوا له إن الشريعة تُجيز الطلاق بشرط أن يتم رسمياً ويثبت بصك قانوني، أجابهم أن هذا كان تساهلاً من موسى بسبب قساوة قلوبهم، وأن الله أعطاهم أولاً شريعةً اقتصرت على ما يحتملونه ليحررهم من فساد عادات الأمم حولهم، وليقودهم تدريجياً إلى الوضع الإلهي الأصلي الذي قضى أن تكون امرأة واحدة لرجل واحد. لكن نظام ملكوته الجديد لا يُجيز الطلاق إلا لعدة الزنا. ومتى أُجري الطلاق على القانون اليهودي لا يجوز أن يتزوج المطلّق فيما بعد، لأن زواجه الأول قائم أمام الله، ولا يوقفه إلا الموت أو الزنى.

فلما سمع تلاميذه هذا القانون الضيق بالنسبة إلى ما تعودوه قالوا: «إِنْ كَانَ هَذَا أَمْرُ الرَّجُلِ مَعَ الْمَرْأَةِ فَلَا يُوَافِقُ أَنْ يَتَزَوَّجَ». فأظهر لهم أن الامتناع الحسن عن الزواج هو الذي يكون لأجل ملكوت الله.

رأي في الأطفال

«حِينَئِذٍ قَدَّمَ إِلَيْهِ أَوْلَادٌ لِكَيْ يَضَعَ يَدَيْهِ عَلَيْهِمْ وَيُصَلِّيَ، فَانْتَهَرَهُمُ التَّلَامِيذُ. أَمَّا يَسُوعُ فَقَالَ: «دَعُوا الْأَوْلَادَ يَأْتُونَ إِلَيَّ وَلَا تَمْنَعُوهُمْ لِأَنَّ لِمَثَلٍ هَؤُلَاءِ مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ». فَوَضَعَ يَدَيْهِ عَلَيْهِمْ. وَمَضَى مِنْ هُنَاكَ» (متى ١٩:١٣-١٥).

على أثر الكلام في العلاقة العائلية، تحدث المسيح بكلام جميل يختص بالأطفال، لأن احتقار الصغار ساد كثيراً في كل بلاد العالم. ولما كان هو مخلص الجميع، فلا بد أن يهتم بهذا القسم العظيم من البشر. وكان تكريمه للأطفال من أهم امتيازاته .

جاءه في هذا الوقت أناسٌ يقدّمون أطفالهم ليضع عليهم يديه ويصلي، لأنهم اشتبهوا لأطفالهم بركة من المسيح كليّ الطهارة والمقدرة، فأراد التلاميذ أن يبعدوا عن سيدهم هذا الإزعاج، فانتهروهم ليذهبوا عنه، وقالوا لهم إن مهمّة المسيح أعظم من أن تسمح له بأن ينظر إلى أمر طفيف كهذا .

ولم يقبل المسيح هذه المعاملة الخشنة التي تدلّ على الفرق العظيم بين تفكيره هو وتفكير تلاميذه ومعاصريهم، وخطأهم في ذلك. وفي غيظه كما في رضاه تبرق جواهر الحكمة الإلهية، لأنه بكّت تلاميذه بكلمات مؤثرة يتعلّمها كل ولد مسيحي، وكم كان تأثيرها مباركاً في العالم منذ ذلك الوقت، وهي: «دعوا الأولاد يأتون إليّ ولا تمنعوهم، لأن لمثل هؤلاء ملكوت السموات». وصرح بأنه لا يدخل أحدٌ ملكوت السموات إن لم يرجع ويصير مثل ولد .

إننا نوقن بأن فداء المسيح يعمّ جميع الأطفال الذين يموتون في الطفولية في كل الأجيال، على اختلاف أحوال أهلهم الدينية والمدنية. وبناءً على هذا، ما أكثر الجمهور البشري الذي ينضمّ إلى الجيش السماوي، مقابل العدد الغفير من البالغين الذين يموتون في خطاياهم .

حديث مع شاب غني

«وَإِذَا وَاجِدُ تَقَدَّمَ وَقَالَ لَهُ: «أَيُّهَا الْمُعَلِّمُ الصَّالِحُ، أَيِّ صَلاَحٍ أَعْمَلُ لِتَكُونَ لِي الْحَيَاةَ الْأَبَدِيَّةَ؟» فَقَالَ لَهُ: «لِمَاذَا تَدْعُونِي صَالِحاً؟ لَيْسَ أَحَدٌ صَالِحاً إِلَّا وَاحِدٌ وَهُوَ اللَّهُ. وَلَكِنْ إِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَدْخُلَ الْحَيَاةَ فَاحْفَظِ الْوَصَايَا». قَالَ لَهُ: «آيَةُ الْوَصَايَا؟» فَقَالَ يَسُوعُ: «لَا تَقْتُلْ. لَا تَزْنِ. لَا تَسْرِقْ. لَا تَشْهَدْ بِالزُّورِ. أَكْرِمِ أَبَاكَ وَأُمَّكَ، وَاجِبْ قَرِينَكَ كَنَفْسِكَ». قَالَ لَهُ الشَّابُّ: «هَذِهِ كُلُّهَا حَفِظْتُهَا مِنْذُ حَدَاثَتِي. فَمَاذَا يُعْزِرُنِي بَعْدُ؟» قَالَ لَهُ يَسُوعُ: «إِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَكُونَ كَامِلاً فَادْهَبْ وَبِعْ أَمْلاكَكَ وَأَعْطِ الْفُقَرَاءَ، فَيَكُونَ لَكَ كَنْزٌ فِي السَّمَاءِ وَتَعَالَ اتَّبِعْنِي». فَلَمَّا سَمِعَ الشَّابُّ الْكَلِمَةَ مَضَى حَزِيناً، لِأَنَّهُ كَانَ ذَا أَمْوَالٍ كَثِيرَةٍ. فَقَالَ يَسُوعُ لِتَلَامِيذِهِ: «الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُ يَعْسُرُ أَنْ يَدْخُلَ غَنِيٌّ إِلَى مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ» (متى. 19:16-23)

فيما المسيح خارج إلى الطريق، جاء رئيس يهودي غني جداً. وجثا له دلالة على أنه أتى بإخلاص ليستفهم منه عن طريق الخلاص، وأكرمه بقوله: «أيها المعلم الصالح، أيّ صلاحٍ أعمل لأرث الحياة الأبدية؟» فأجابه المسيح بأن كل الناس حتى أصلحهم خالون من

الصالح الكامل، وأنه لا يجوز أن ننسب الصلاح إلا لله وحده. إمّا أن يكون المسيح صالحاً فعلاً، فيكون هو الله الذي ظهر في الجسد، أو يكون الشاب الغني مخطئاً .

لم يكن المسيح يقبل تحيةً في غير مكانها، وكان دوماً يريد أن يوضّح أن كماله وصلاحه ناتجان عن كونه «الله الذي ظهر في الجسد» - فليس بين البشر إنسان كامل الصلاح .

سأل الشاب الغني عن أي إصلاح يعمل له ليرث الحياة الأبدية، فأفاده المسيح أن الصلاح الذي يؤدي إلى الحياة الأبدية هو الصلاح الكامل فقط. وهذا معقول، لأن شهادة النجاح التي بها رسوب درس واحد تعني الرسوب كله، كما قال الرسول يعقوب: «مَنْ حَفِظَ كُلَّ النَّامُوسِ، وَإِنَّمَا عَثَرَ فِي وَاحِدَةٍ، فَقَدْ صَارَ مُجْرَماً فِي الْكُلِّ» (يعقوب ١٠: ٢) ولما ادّعى الرئيس أنه حفظ الناموس كله منذ حادثته، نظر إليه المسيح وأحبه لإخلاصه واجتهاده، وأراد أن يكشف له أن حفظ الناموس المقبول عند الله هو الحفاظ الروحي لا الحرفي، فقال له: «يعوزك أيضاً شيء واحد. إن أردت أن تكون كاملاً، فاذهب وبع كل أملاكك وأعط الفقراء، فيكون لك كنز في السماء، وتعال اتبعني حاملاً الصليب.»

يلخّص المسيح الوصايا بمحبة الله فوق كل شيء، ومحبة القريب كالنفس. فإن كان هذا الشاب قد حفظ الوصايا كلها، فلا يصعب عليه أن يطيع ما أمره المسيح به. لكنه أثبت على نفسه بطلان ادّعائه، لأنه اغتمّ من هذا القول ومضى حزيناً لأنه كان ذا أموال كثيرة. وبهذا أثبت أنه يحب ماله أكثر من الله، وأن المال هو ربّه الحقيقي. أحب المسيح هذا الشاب وأسف جداً عليه لأنه فضّل المال على ملكوت السماوات .

الدخول إلى ملكوت الله يبدأ هنا في هذه الحياة. والذين يدخلونه يدركون أن كل مقتنياتهم مكرّسة للملك، فمتى طلب منها يقدمونه برغبة وسرور، فيزول بذلك كل تذمّر يسببه عن الفقر أو الخسارة المادية. والذي يتعلق قلبه بأمور الدنيا لا يجد في السماء ما يلدّ له، وليس له كنز هناك، فذهابه إلى السماء يكون عبثاً، فضلاً عن كونه مستحيلاً .

«فَقَالَ يَسُوعُ لِتَلَامِيذِهِ: «الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُ يَعْسرُ أَنْ يَدْخُلَ غَنِيٌّ إِلَى مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ. وَأَقُولُ لَكُمْ أَيْضاً: إِنَّ مُزُورَ جَمَلٍ مِنْ ثَقَبِ إِبْرَةِ أَيْسرُ مِنْ أَنْ يَدْخُلَ غَنِيٌّ إِلَى مَلَكُوتِ اللَّهِ.» فَلَمَّا سَمِعَ تَلَامِيذُهُ بُهْتُوا جِدّاً قَائِلِينَ: «إِذَا مَنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَخْلُصَ؟» فَنَظَرَ إِلَيْهِمْ يَسُوعُ وَقَالَ: «هَذَا عِنْدَ النَّاسِ غَيْرُ مُسْتَطَاعٍ، وَلَكِنْ عِنْدَ اللَّهِ كُلُّ شَيْءٍ مُسْتَطَاعٌ» (متى ٢٣: ١٩-٢٦).

بمناسبة هذا قال المسيح لتلاميذه: «ما أعسر دخول المتكلمين على الأموال إلى ملكوت الله.» ليبين أنه ليس فقط عسراً، قال إن دخول جمل من ثقب الإبرة أيسر من ذلك. ولما اعترض التلاميذ بقولهم: «إِذَا مَنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَخْلُصَ؟» أفهمهم أن ترك الدنيا مستحيل على

الطمع البشري، إنما كل شيء مستطاع عند الله. فمتى غيّر الروح الإلهي قلب محبي المال، يستطيعون أن يدخلوا الملكوت الروحي، لأن قلبهم الجديد سيحبّ الله أكثر من حبهم للمال .

«فَأَجَابَ بُطْرُسُ حِينَئِذٍ: «هَا نَحْنُ قَدْ تَرَكْنَا كُلَّ شَيْءٍ وَتَبِعْنَاكَ. فَمَاذَا يَكُونُ لَنَا؟» فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّكُمْ أَنْتُمْ الَّذِينَ تَبِعْتُمُونِي فِي التَّجْدِيدِ، مَتَى جَلَسَ ابْنُ الْإِنْسَانِ عَلَى كُرْسِيِّ مَجْدِهِ، تَجْلِسُونَ أَنْتُمْ أَيْضاً عَلَى اثْنَيْ عَشَرَ كُرْسِيّاً تَدِينُونَ أَسْبَاطَ إِسْرَائِيلَ الْاثْنَيْ عَشَرَ. وَكُلُّ مَنْ تَرَكَ بَيْتاً أَوْ إِخْوَةً أَوْ أَخَوَاتٍ أَوْ أَباً أَوْ أُمّاً أَوْ امْرَأَةً أَوْ أَوْلَاداً أَوْ حُقُولاً مِنْ أَجْلِ اسْمِي، يَأْخُذُ مِثْلَ ضِعْفٍ وَيَرِثُ الْحَيَاةَ الْأَبَدِيَّةَ. وَلَكِنْ كَثِيرُونَ أَوْلُونَ يَكُونُونَ آخِرِينَ وَآخِرُونَ أَوَّلِينَ» (متى ١٩: ٢٧-٣٠).

حرّك ذِكْرُ المال بطرس ليسأل: «ها قد تركنا كل شيء وتبعناك. فماذا لنا؟» فأجابه المسيح بما يفيد أنهم ينالون التفاتاً خاصاً من العناية الإلهية في هذه الدنيا، مع اضطهادات لامتحان إيمانهم وزيادة ثوابهم. ثم في الدهر الآتي يرثون الحياة الأبدية. وفي هذه القرينة أعاد ما قاله سابقاً وسيقوله ثالثة بعد حين: «كثيرون أَوْلُونَ يَكُونُونَ آخِرِينَ، وَالْآخِرُونَ أَوَّلِينَ» (مرقس ١٠: ٣١).

مَثَلُ فَعْلَةِ الْكَرْمِ

«فَإِنَّ مَلَكَوَتَ السَّمَاوَاتِ يُشْبِهُ رَجُلًا رَبَّ بَيْتٍ خَرَجَ مَعَ الصُّبْحِ لِيَسْتَأْجِرَ فَعْلَةً لِكَرْمِهِ، فَاتَّفَقَ مَعَ الْفَعْلَةِ عَلَى دِينَارٍ فِي الْيَوْمِ، وَأَرْسَلَهُمْ إِلَى كَرْمِهِ. ثُمَّ خَرَجَ نَحْوَ السَّاعَةِ الثَّالِثَةِ وَرَأَى آخِرِينَ قِيَاماً فِي السُّوقِ بَطَّالِينَ، فَقَالَ لَهُمْ: أَذْهَبُوا أَنْتُمْ أَيْضاً إِلَى الْكَرْمِ فَأَعْطِيكُمْ مَا يَحِقُّ لَكُمْ. فَمَضَوْا. وَخَرَجَ أَيْضاً نَحْوَ السَّاعَةِ السَّادِسَةِ وَالثَّاسِعَةِ وَفَعَلَ كَذَلِكَ. ثُمَّ نَحْوَ السَّاعَةِ الْحَادِيَةِ عَشْرَةَ خَرَجَ وَوَجَدَ آخِرِينَ قِيَاماً بَطَّالِينَ، فَقَالَ لَهُمْ: لِمَاذَا وَقَفْتُمْ هُنَا كُلُّ النَّهَارِ بَطَّالِينَ؟ قَالُوا لَهُ: لِأَنَّهُ لَمْ يَسْتَأْجِرْنَا أَحَدٌ. قَالَ لَهُمْ: أَذْهَبُوا أَنْتُمْ أَيْضاً إِلَى الْكَرْمِ فَتَأْخُذُوا مَا يَحِقُّ لَكُمْ. فَلَمَّا كَانَ الْمَسَاءُ قَالَ صَاحِبُ الْكَرْمِ لَوَكِيلِهِ: ادْعُ الْفَعْلَةَ وَأَعْطِهِمْ الْأُجْرَةَ مُبْتَدِئاً مِنَ الْآخِرِينَ إِلَى الْأَوَّلِينَ. فَجَاءَ أَصْحَابُ السَّاعَةِ الْحَادِيَةِ عَشْرَةَ وَأَخَذُوا دِينَاراً دِينَاراً. فَلَمَّا جَاءَ الْأَوَّلُونَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ يَأْخُذُونَ أَكْثَرَ. فَأَخَذُوا هُمْ أَيْضاً دِينَاراً. وَفِيمَا هُمْ يَأْخُذُونَ تَذَمَّرُوا عَلَى رَبِّ الْبَيْتِ قَائِلِينَ: هَؤُلَاءِ الْآخِرُونَ عَمِلُوا سَاعَةً وَاحِدَةً، وَقَدْ سَاوَيْنَاهُمْ بِنَا نَحْنُ الَّذِينَ احْتَمَلْنَا ثَقَلِ النَّهَارِ وَالْحَرِّ! فَقَالَ لَوَاحِدٍ مِنْهُمْ: يَا صَاحِبُ، مَا ظَلَمْتُكَ! أَمَا اتَّفَقْتَ مَعِيَ عَلَى دِينَارٍ؟ فَخُذِ الَّذِي لَكَ وَادْهَبْ، فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُعْطِيَ هَذَا الْآخِرَ مِثْلَكَ. أَوْ مَا يَجِلُّ لِي أَنْ أَفْعَلَ مَا أُرِيدُ بِمَالِي؟ أَمْ عَيْنُكَ شَرِيرَةٌ لِأَنِّي أَنَا صَالِحٌ؟ هَكَذَا يَكُونُ الْآخِرُونَ أَوَّلِينَ وَالْأَوَّلُونَ آخِرِينَ، لِأَنَّ كَثِيرِينَ يُدْعَوْنَ وَقَلِيلِينَ يُنْتَحَبُونَ» (متى ٢٠: ١-١٦).

وجواباً على سؤال بطرس: «ماذا يكون لنا؟» روى المسيح مَثَلُ فَعْلَةِ الْكَرْمِ، فقال إن صاحب كرم استأجر فعلة ليعملوا في كرمه في ساعات مختلفة من النهار، بحيث ذهب

الأخرون قبل نهاية النهار بساعة واحدة. واتفق مع الذين ابتدأوا في أول النهار على أجره دينار واحد. أما للأخيرين فقال: «أعطيتكم ما يحق لكم». وعند المحاسبة في آخر النهار ساوى بين الفعلة في الأجر، وأمر وكيله أن يحاسب الآخرين أولاً ويعطيهم أجره نهار كامل. فولد هذا الكرم آمالاً فارغة في الأولين الذين ظنوا أنهم يأخذون أجره أكثر، لأنهم اشتغلوا ساعات أكثر. فلما أعطى كلاً منهم ديناراً واحداً حسب الشرط، تذمروا. فوبخهم صاحب الكرم، وذكرهم أنه لا يحق لهم أن يحكموا عليه كيف يتصرف بماله، كما أنه لا حق للذي يأخذ كامل حقوقه أن يحسد من يأخذ أكثر من حقوقه.

في هذا المثل درس دائم على خطأ الذين يتذمرون بسبب نجاح الآخرين أكثر منهم، وخطأ الذين يحتجون على عدم المساواة في المعاملة الإلهية. وكل عاقل يعلم أن أتعس الناس في العالم، عنده من الخيرات الزمنية والرحمة الإلهية فوق ما يستحق، وأنه بالنظر إلى المعاملة الإلهية لا يوجد في كل المسكونة مظلوم واحد.

إعلان جديد عن الصليب

«وَفِيمَا كَانَ يَسُوعُ صَاعِداً إِلَى أُورُشَلِيمَ أَخَذَ الْاِثْنَيْنِ عَشَرَ تَلْمِيزاً عَلَى انْفِرَادٍ فِي الطَّرِيقِ وَقَالَ لَهُمْ: هَا نَحْنُ صَاعِدُونَ إِلَى أُورُشَلِيمَ، وَابْنُ الْإِنْسَانِ يُسَلَّمُ إِلَى رُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ وَالْكَتَبَةِ، فَيَحْكُمُونَ عَلَيْهِ بِالْمَوْتِ، وَيُسَلِّمُونَهُ إِلَى الْأُمَمِ لِكَيْ يَهْزَأُوا بِهِ وَيَجْلِدُوهُ وَيَصْلُبُوهُ، وَفِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ يَقُومُ». حِينَئِذٍ تَقَدَّمتْ إِلَيْهِ أُمُّ ابْنَيْ زَبْدِي مَعَ ابْنَيْهَا، وَسَجَدَتْ وَطَلَبَتْ مِنْهُ شَيْئاً. فَقَالَ لَهَا: «مَاذَا تُرِيدِينَ؟» قَالَتْ لَهُ: «قُلْ أَنْ يَجْلِسَ ابْنَايَ هَذَانِ وَاحِدٌ عَنْ يَمِينِكَ وَالْآخَرُ عَنِ الْيَسَارِ فِي مَلَكُوتِكَ». فَأَجَابَ يَسُوعُ: «لَسْتُمَا تَعْلَمَانِ مَا تَطْلُبَانِ. أَتَسْتَطِيعَانِ أَنْ تَشْرَبَا الْكَاسَ الَّتِي سَوْفَ أَشْرَبُهَا أَنَا، وَأَنْ تَصْطَبِعَا بِالصَّبْغَةِ الَّتِي أَصْطَبِعُ بِهَا أَنَا؟» قَالَا لَهُ: «نَسْتَطِيعُ». فَقَالَ لَهُمَا: «أَمَّا كَأْسِي فَتَشْرَبَانِيهَا، وَبِالصَّبْغَةِ الَّتِي أَصْطَبِعُ بِهَا أَنَا تَصْطَبِعَانِ. وَأَمَّا الْجُلُوسُ عَنْ يَمِينِي وَعَنِ يَسَارِي فَلَيْسَ لِي أَنْ أُعْطِيَهُ إِلَّا لِلَّذِينَ أُعِدَّ لَهُمْ مِنْ أَبِي». فَلَمَّا سَمِعَ الْعَشْرَةُ اغْتَاظُوا مِنْ أَجْلِ الْأَخَوَيْنِ. فَدَعَاهُمُ يَسُوعُ وَقَالَ: «أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رُؤَسَاءَ الْأُمَمِ يَسُودُونَهُمْ، وَالْعُظَمَاءُ يَتَسَلَّطُونَ عَلَيْهِمْ. فَلَا يَكُونُ هَكَذَا فِيكُمْ. بَلْ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ فِيكُمْ عَظِيماً فَلْيَكُنْ لَكُمْ خَادِماً، وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ فِيكُمْ أَوَّلاً فَلْيَكُنْ لَكُمْ عَبْدًا، كَمَا أَنَّ ابْنَ الْإِنْسَانِ لَمْ يَأْتِ لِيُخْدَمَ بَلْ لِيُخْدَمَ، وَلِيَبْذِلَ نَفْسَهُ فِدْيَةً عَنْ كَثِيرِينَ» (متى. 20:17-28)

وفي سير المسيح نحو اورشليم في مقدمة تلاميذه، زاد شبح الصليب وضوحاً أمامه، وزاد شعوره بثقل خطايا العالم التي أتى ليكفر عنها، فانفرد بتلاميذه وأنباهم ثالثة بالآلام وموته بأكثر تفصيل من قبل. وبما أنهم سيكونون معه متى داهمته تلك الحوادث المخيفة، فهو لا يريد أن يرافقه إلا باختيارهم، مع علمهم بما سيكون. فأوضح لهم أنه يُسَلَّم أولاً لرؤساء الكهنة وللكتبة، فيحكمون عليه بالموت، ثم يسلمونه للأمم خلافاً لنظامهم الملي. ويكون

نصيبه الاستهزاء والجلد والشتيمة والبصق عليه. وفي النهاية يموت صلباً، ثم يقوم في اليوم الثالث .

ومع كل هذا الإيضاح ظهر أن التلاميذ لم يفهموا كلامه، إذ تقدم إليه التلميذان الممتازان، يعقوب ويوحنا مع والدتهما التي سجدت له احتراماً، كأنها تريد أن تطلب شيئاً. ولما سألها ماذا تريد، طلبت أن يكون لابنهما المقام الأول عندما يجلس المسيح على عرشه في ملكوته، فيجلس أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره. وكانت سالومة واثقة بأنها ستنال طلبها من ابن أختها، سيماً وأنها تركت بيتها وتبعته مع تلاميذه في أسفارهم، وخدمتهم من مالها، ولأنها لاحظت امتياز ابنها في بيت يائرس وعلى جبل التجلي .

لم تعلم سالومة، ولا علم يعقوب ويوحنا أن الإنسان لا ينال الإكرام بمجرد الطلب، بل بالأهلية له، فالتضحية وإنكار الذات هما باب الإكرام الإلهي، لا الطمع ولا الطموح، لذلك قال المسيح لتلميذه: «لستما تعلمان ما تطلبان. فهل أنتما مستعدان أن تشربا مثلي كأس الآلام، والاصطباج بالموت المهيئ؟» فلما أجابا دون تردٍ: «نستطيع» أكد لهما أنهما يقدران على ذلك، أما الامتياز في ملكوته فمحفوظ فقط للذين أعدّه الأب لهم، وليس له كابن الإنسان أن يهبه .

وتضايق باقي التلاميذ من كلام يعقوب ويوحنا، فوبّخهم المسيح على الغيظ الذي تحرك في قلوبهم، وقال لهم: «من أراد أن يصير فيكم أولاً فليكن للجميع عبداً». وعندما يتخذ كل رئيس صفة الخادم وعمله، طاعة للسيد المسيح، نرى سريعاً انتشار الخير الروحي والصالح في العالم .

المسيح يخلص زكا

«ثُمَّ دَخَلَ وَاجْتَاَزَ فِي أَرِيحَا. وَإِذَا رَجُلٌ اسْمُهُ زَكَّا، وَهُوَ رَئِيسُ الْعَشَّارِينَ وَكَانَ غَنِيًّا، وَطَلَبَ أَنْ يَرَى يَسُوعَ مَنْ هُوَ، وَلَمْ يَقْدِرْ مِنَ الْجَمْعِ، لِأَنَّهُ كَانَ قَصِيرَ الْقَامَةِ. فَرَكَضَ مُتَقَدِّمًا وَصَعِدَ إِلَى جُمُيزَةٍ لِكَيْ يَرَاهُ، لِأَنَّهُ كَانَ مُزْمِعًا أَنْ يَمُرَّ مِنْ هُنَاكَ. فَلَمَّا جَاءَ يَسُوعُ إِلَى الْمَكَانِ، نَظَرَ إِلَى فَوْقَ فَرَاهُ، وَقَالَ لَهُ: «يَا زَكَّا، أَسْرِعْ وَانْزِلْ، لِأَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ أَمْكُثَ الْيَوْمَ فِي بَيْتِكَ.» فَأَسْرَعَ وَنَزَلَ وَقَبِلَهُ فَرِحًا. فَلَمَّا رَأَى الْجَمِيعُ ذَلِكَ تَدَمَّرُوا قَائِلِينَ: «إِنَّهُ دَخَلَ لِيَبِيتَ عِنْدَ رَجُلٍ خَاطِيٍّ.» فَوَقَفَ زَكَّا وَقَالَ لِلرَّبِّ: «هَا أَنَا يَا رَبُّ أُعْطِيَ نِصْفَ أَمْوَالِي لِلْمَسَاكِينِ، وَإِنْ كُنْتُ قَدْ وَشَيْتُ بِأَحَدٍ أَرُدُّ أَرْبَعَةَ أَضْعَافٍ.» فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: «الْيَوْمَ حَصَلَ خَلَاصٌ لِهَذَا الْبَيْتِ، إِذْ هُوَ أَيْضًا ابْنُ إِبْرَاهِيمَ، لِأَنَّ ابْنَ الْإِنْسَانِ قَدْ جَاءَ لِكَيْ يَطْلُبَ وَيُخَلِّصَ مَا قَدْ هَلَكَ» (لوقا ١٩: ١-١٠).

وفي يوم آخر دخل المسيح أريحا ليعطي الخلاص لبيت عشار خاطئ ويقدم التوبة والإيمان، وهو زكا الغني ورئيس العشارين، الذي لا بد أن يكون قد علم بما اشتهر به المسيح من فُتْح باب التوبة والخلاص للعشارين، فطلب أن يرى من هو المسيح، فلما تعذّر عليه التفرُّج على المسيح بسبب قصر قامته والعدد الغفير المحيط بالمسيح، انتبه لجميزة تمتدُّ أغصانها فوق الطريق، فركض وصعد أغصان الجميزة فوق الطريق العام، دون أن يُعير التفاتاً لمن يستهزئ به، فكافأه المسيح عندما وصل إلى تحت الجميزة، إذ أوقف الجمهور وناداه باسمه، وأمره أن ينزل بسرعة ويستقبله في بيته. قصد المسيح بذلك أن يفعل فعلاً روحياً مهماً في هذا الشخص، لأن مهنته ورياسته وغناه وصفاته وتصرفاته الماضية تجعله من أبعد الناس عن ملكوت الله، فاختار هذا العشار ليخلّصه، دون أكثر اث لتدنُّر الجمهور معه بسبب ما فعل .

فاض كأس سرور المسيح لما وقف زكا أمامه وأمام الحاضرين في بيته، وأعلن توبته وثمرها وهو يقول: «ها أنا يا رب أعطي نصف أموالي للمساكين، وإن كنت قد اغتصبتُ شيئاً من أحد أردُّ أربعة أضعاف». فالذي رفض أن يفعله الرئيس الغني الفريسي الذي ادّعى أنه حفظ الوصايا كلها، فعله الآن زكا الرئيس الغني العشار المرفوض عند ذلك الفريسي، لأن الله غيّر قلبه فاستطاع المستحيل، وأمات حب المال في قلبه، فمرّ الجمل في ثقب الإبرة إلى ملكوت السموات .

وهنا أعلن المسيح أن هذا الرجل صار من أهل الخلاص. وكرر بأن ابن الإنسان قد جاء لكي يخلص ما قد هلك .

زكا هذا، مثال للذين لا يسمحون لمانع أن يمنعهم عن المجيء إلى المخلص، والذين يتجددون فجأة ويقدمون فور تجديدهم برهاناً قاطعاً بصحة تجديدهم، لأن إيمانهم مثمر في أعمالهم. فكان بارتيمائوس الأعمى وزكا العشار باكورة الكنيسة في أريحا. ويُرجَّح أنهما انضمّا إلى الموكب الذي ترك أريحا صاعداً مع المسيح إلى أورشليم لحضور احتفالات العيد .

المسيح يزور بيت لعازر

«ثُمَّ قَبْلَ الْفِصْحِ بِسِتَّةِ أَيَّامٍ أَتَى يَسُوعُ إِلَى بَيْتِ عَنِّيَا، حَيْثُ كَانَ لِعَازَرُ الْمَيْتُ الَّذِي أَقَامَهُ مِنَ الْأَمْوَاتِ. فَصَنَعُوا لَهُ هُنَاكَ عَشَاءً. وَكَانَتْ مَرْتًا تَخْدُمُ وَأَمَّا لِعَازَرُ فَكَانَ أَحَدَ الْمُتَكِنِينَ مَعَهُ. فَأَخَذَتْ مَرْيَمُ مَنّاً مِنْ طِيبِ نَارِدِينَ خَالِصٍ كَثِيرٍ الثَّمَنِ، وَدَهَنَتْ قَدَمَيْ يَسُوعَ، وَمَسَحَتْ قَدَمَيْهِ بِشَعْرَهَا، فَأَمْتَلَأَ الْبَيْتُ مِنْ رَائِحَةِ الطِّيبِ. فَقَالَ وَاحِدٌ مِنْ تَلَامِيذِهِ، وَهُوَ يَهُوذَا سِمْعَانُ الْإِسْخَرْيُوطِيُّ، الْمَزْمُوعُ أَنْ يُسَلِّمَهُ: «لِمَآذَا لَمْ يَبِيعْ هَذَا الطِّيبُ بِثَلَاثِمِئَةِ دِينَارٍ وَيُعْطَى لِلْفُقَرَاءِ؟» قَالَ هَذَا لَيْسَ لِأَنَّهُ كَانَ يُبَالِي بِالْفُقَرَاءِ، بَلْ لِأَنَّهُ كَانَ سَارِقاً، وَكَانَ الصُّنْدُوقُ عِنْدَهُ، وَكَانَ

يَحْمِلُ مَا يُلْقَى فِيهِ. فَقَالَ يَسُوعُ: «اتْرُكُوهَا. إِنَّهَا لِيَوْمِ تَكْفِينِي قَدْ حَفِظْتُهُ، لِأَنَّ الْفُقَرَاءَ مَعَكُمْ فِي كُلِّ حِينٍ، وَأَمَّا أَنَا فَلَسْتُ مَعَكُمْ فِي كُلِّ حِينٍ» (يوحنا ١٢: ٨-١٠).

وصل المسيح وتلاميذه قرية بيت عنيا حيث نزل ضيفاً على بيت حبيبته لعازر الذي أقامه من الأموات من عهد قريب. ودُعي إلى وليمة صنعوها له في بيت سمعان الأبرص الذي يقول التقليد إنه كان زوج مرثا قبل ترمُلها. يذكر الإنجيل لعازر بين «المتكئين» معه في الوليمة، كما يذكر أخته مرثا بين المشتغلين بتدبيرها. وذكر مريم أيضاً لأنها أتت بقارورة طيب ناردين كثير الثمن، وكسرتها لتسكب الطيب على رأس المسيح ثم على قدميه. وبعد أن دهنتهما، مسحتهما بشعر رأسها علامة على شكرها وإكرامها لمخلصها. فامتأ البيت من رائحة الطيب، كما تفوح في كل مكان الرائحة الذكية حتى لأصغر الأعمال التي يصنعها الإنسان حباً بالمخلص، ولو كان كأس ماء بارد يقدمه لأحقر تلاميذه .

لكن فاعل الخير لا ينتظر أن يسلم من الانتقاد. فانسكب في هذا الوقت على رأس المسيح مع الطيب العطر انتقاداً مر، بحجة ضرورة مساعدة الفقراء. والأرجح أن الإسخريوطي بدأ هذا الانتقاد، وأثار الآخرين لأنه «أمين الصندوق». وكان يوزع منه إحساناً على الفقراء، كما كان يسرق منه، فيكون دفاعه عن الفقراء نفاقاً. واشترك بعض التلاميذ في هذا الهجوم عن بساطة، منحازين إلى انتقاد الإسخريوطي أن عمل مريم كان إسرافاً في غير محله، وأن توزيع ثمن الطيب على الفقراء كان أفضل .

لم يترك المسيح مريم التائبة تحت نيران الانتقاد، بل وبَّخ المنتقدين وحكم بحسن عملها. فكأنها بروح النبوة دهنت جسده بالطيب، استعداداً لتكفينه بعد أيام قليلة. وفند حجة المنتقدين بقوله إنه يذهب عنهم قريباً، فيستحيل عليهم إكرام جسده بعد ذلك، أما الفقراء فلا ينقطعون عنهم أبداً، فيستطيعون إلى آخر الزمان أن يحسنوا إليهم. وعوض على مريم بقوله: «أَلْحَقْ أَقُولُ لَكُمْ: حَيْثُمَا يُكْرَزُ بِهِذَا الْإِنْجِيلِ فِي كُلِّ الْعَالَمِ، يُحْبَزُ أَيْضاً بِمَا فَعَلْتُهُ هَذِهِ، تَذْكَاراً لَهَا» (مرقس ١٤: ٩).

المسيح الملك يدخل اورشليم

«وَلَمَّا قَرُبُوا مِنْ أُورُشَلِيمَ وَجَاءُوا إِلَى بَيْتِ فَاجِي عِنْدَ جَبَلِ الزَّيْتُونِ، حِينَئِذٍ أَرْسَلَ يَسُوعُ تَلْمِذَيْنِ قَائِلًا لَهُمَا: «إِذْهَبَا إِلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمَامَكُمَا، فَلِلْوَقْتِ تَجِدَانِ أَتَانًا مَرْبُوطَةً وَجَحْشًا مَعَهَا، فَخَلَاهُمَا وَأَتِيَانِي بِهِمَا. وَإِنْ قَالَ لَكُمْ أَحَدٌ شَيْئاً فَقُولَا: الرَّبُّ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِمَا. فَلِلْوَقْتِ يُرْسِلُهُمَا». فَكَانَ هَذَا كُلُّهُ لِكَيْ يَتِمَّ مَا قِيلَ بِالنَّبِيِّ: «قُولُوا لِابْنَةِ صِهْيُونَ: هُوَذَا مَلِكُكَ يَأْتِيكَ وَدِيعاً، رَاكِباً عَلَى أَتَانٍ وَجَحْشٍ ابْنِ أَتَانٍ». فَذَهَبَ التَّلْمِذَانِ وَفَعَلَا كَمَا أَمَرَهُمَا يَسُوعُ، وَأَتَيَا بِالْأَتَانِ وَالْجَحْشِ، وَوَضَعَا عَلَيْهِمَا ثِيَابَهُمَا فَجَلَسَ عَلَيْهِمَا. وَالْجَمْعُ الْأَكْثَرُ فَرَشُوا ثِيَابَهُمْ فِي الطَّرِيقِ. وَآخَرُونَ قَطَعُوا أَغْصَاناً مِنَ الشَّجَرِ وَفَرَشُوهَا فِي الطَّرِيقِ. وَالْجَمُوعُ الَّذِينَ تَقَدَّمُوا وَالَّذِينَ تَبِعُوا كَانُوا يَصْرَخُونَ: «أَوْصِنَا لِابْنِ دَاوُدَ! مُبَارَكُ الْآتِي بِاسْمِ الرَّبِّ! أَوْصِنَا فِي الْأَعَالِي». وَلَمَّا دَخَلَ أُورُشَلِيمَ ارْتَجَّتِ الْمَدِينَةُ كُلُّهَا قَائِلَةً: «مَنْ هَذَا؟» فَقَالَتِ الْجُمُوعُ: «هَذَا يَسُوعُ النَّبِيُّ الَّذِي مِنْ نَاصِرَةِ الْجَلِيلِ» (متى ١: ٢١-١١).

خرج المسيح صباح يوم الأحد مع تلاميذه والجمهور التابع له من بيت عنيا قاصداً الهيكل، وسار جمهور المستقبلين من المدينة ليلاقوه، ثم أرسل أمامه تلميذين إلى قرية قريبة، حيث يجدان فيها جحشاً لم يُرَوَّض بعد، مربوطاً بجانب أمه، أمام أحد البيوت. فعليهما أن يحلاهما ويأتيا بهما إليه. فإذا اعترض صاحبهما على هذا العمل من شخصين غريبين، يجيبانه: «الرب محتاج إليهما». فحالا يسمح بهما. فتمت نبوة المسيح لهما حرفياً. في هذا الحادث تثبتت لعظمة المسيح بعلمه الغيب والمستقبل. فإذا عرفنا أن صاحب البهيمنتين ليس من تلاميذه ولا محبيه تزيد عظمتة، لسلطانه على أفكار هذا الرجل وإرادته.

وهنا نتساءل: ترى لماذا اختار المسيح هذا الموعد بالذات ليدخل اورشليم هذا الدخول الانتصاري؟

الإجابة: «إن اليهود كانوا يفرزون خروف الفصح - الذي يرمز للمسيح - في اليوم العاشر من شهر نيسان القمري، ويعدونه للذبح ليأكلوه بعد خمسة أيام، فليس عبثاً أن نرى المسيح (حمل الله الذي يرفع خطية العالم) يُفَرَّزُ علانية في اليوم ذاته، مع الأغنام الكثيرة التي كانت ترمز إليه، ثم يُذبح على الصليب وقت ذبحها في الهيكل بعد خمسة أيام.

وتثبتاً لأهمية موته وما يتعلق به، نرى أن البشائر الأربع تخصص سدس أخبار ١٢٤٠٠ يوماً، التي روت لنا أخبارها من حياة المسيح، ليوم واحد منها هو يوم موته وأخبار هذا اليوم، والسبعة الأيام التي قبله وبعده (التي نسميها أسبوع الآلام) (تشغل أكثر من ربع أخبار السنين الأربع والثلاثين التي تتضمنها سيرة المسيح المقدسة).

ركب المسيح الجحش بعد أن وضع بعضُ تابعيه ثيابهم عليه. ولما التقى جمهور الخارجين من المدينة بجمهور الداخلين إليها اشتدت الحماسة وتسابقوا في إكرام المسيح وهم ينشدون بمعجزته لما أقام لعازر من الموت في بيت عنيا. وفعلوا ما يفعلونه عادة في أيام عيد المظال عندما يطوفون حول المذبح حاملين سعف النخل، شارَات النصر، صارخين «أوصنا» (ومعناها: خَلِّصْنَا). وقطعوا أغصاناً من الشجر فرشوها في الطريق، كما فرشوا فيه ثيابهم .

أضفى الشعب على هذا الاحتفاء صبغة دينية، فصاروا يفرحون ويسبحون الله لأجل جميع المعجزات التي أجراها المسيح. وفي ابتهاجهم كانوا يصرخون: «أوصنا لابن داود. مبارك الآتي باسم الرب. مباركة مملكة أبينا داود الآتية باسم الرب. سلام في السماء، ومجد في الأعالي». أوصنا في الأعالي». وهذه الهتافات مقتبسة من المزمور المئة والثامن عشر، لأن الشعب كان يعتقد أن يسوع هذا هو المخلص المنتظر، وابن داود الآتي ليعيد أمجاد مملكة داود السياسية، دون أن يفهموا معنى خلاصه الروحي من عبودية الخطية. ولذلك فإن هذا الذي يهتف له شعبه الآن كملك، سيرى عكس هذا الاحتفاء. سيتوجونه في هذا الأسبوع (الذي نسميه أسبوع الآلام) لكن بإكليل من شوك استهزاءً، ويلبسونه حُلَّةً ملوكية، لكن سخرية، ثم ينزعونها عنه، ويضعون قصبَةً كصولجان في يمينه، ثم يخطفونها من يده ويضربونه بها. سيسجدون أمامه ويحيونه كملك، لكن مكرراً ووقاحة وإهانة. سيُجلِسونه مرفوعاً على عرش، لكنه الصليب. سيقُتله الذين اختلسوا مُلكه ويبدلون الصراخ: «أوصنا لابن داود ملك إسرائيل» بالصراخ: «اصلبه. اصلبه. ليس لنا ملك إلا قيصر .»

ولم يكن ممكناً أن يتغاضى الفريسيون عن تجمع كهذا، فانضمُّوا إلى الجمهور ليروا ماذا يحدث، وقالوا بعضهم لبعض: «انظروا. إنكم لا تنفعون شيئاً. هوذا العالم قد ذهب وراءه». لقد ضايقهم غاية الضيق عدم تنفيذ أوامرهم المشددة، وقراراتهم الرسمية. لقد ضاعت سطوتهم النافذة على الشعب فاجتمع فيهم الحسد الجديد مع البغض القديم، وخافوا لئلا يظن الوالي الروماني أن هذه المنادة بملكٍ جديد لإسرائيل هي باتفاق الشعب ورؤسائه، فيحسبها مكيدة سياسية، ويعاقب لأجلها الرؤساء أولاً. وكان الوالي قد حضر من عاصمته قيصرية ليراقب ما قد يحدث أثناء العيد ضد حكومته من الفتن السياسية ليخمدوها ويعاقب المسؤولين. لذلك تقدم بعض الفريسيين إلى المسيح وقالوا له: «يا معلم، انتهر تلاميذك .»

لكن المقاصد الإلهية التي لا يعملها إلا هو تقضي بهذا الاحتفاء في هذا الوقت، حتى أنه لو تأخر البشر عن إتمامها لاضطرت الحجارة الصماء أن تقوم بها. ولذلك رفض المسيح طلب رؤساء اليهود، ومضى في موكبه وسط هتافات الجمهور له .

وكان لا بد أن يدخل المسيح أورشليم هذا الدخول الانتصاري، سبق النبي زكريا أن قال في التوراة: «ابْتَهِجِي جِدًّا يَا ابْنَةُ صِهْيَوْنَ، اهْتِفِي يَا بِنْتُ أُورُشَلِيمَ. هُوَذَا مَلِكُكَ يَأْتِي إِلَيْكَ. هُوَ عَادِلٌ وَمَنْصُورٌ وَدَبِيعٌ، وَرَاكِبٌ عَلَى حِمَارٍ وَعَلَى جَحْشٍ ابْنِ أَتَانٍ» (زكريا ٩:٩).

وزكريا نبي من جملة الذين قادهم روح المسيح في النبوة. فأعلن المسيح سلطته العجيبة لما جعل الجمهور يشترك معه في إتمام هذه النبوة حرفياً، برغم مكائد الرؤساء. ففي بدء الاستعداد لهذا العيد العظيم دخل أورشليم بموكب عظيم، راكباً على جحش، بعد أن كان في كل سفراته يمشي على الأقدام.

المسيح يبكي على أورشليم

«وَفِيمَا هُوَ يَقْتَرِبُ نَظَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَبَكَى عَلَيْهَا قَائِلاً: «إِنَّكَ لَوْ عَلِمْتَ أَنَّتِ أَيْضاً حَتَّى فِي يَوْمِكَ هَذَا مَا هُوَ لِسَلَامِكَ. وَلَكِنَّ الْآنَ قَدْ أَخْفَيْ عَنْ عَيْنَيْكَ. فَإِنَّهُ سَتَأْتِي أَيَّامٌ وَيُحِيطُ بِكَ أَعْدَاؤُكَ بِمِثْرَسَةٍ، وَيُحْدِقُونَ بِكَ وَيُحَاصِرُونَكَ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ، وَيَهْدُمُونَكَ وَبَنِيكَ فِيكَ، وَلَا يَتْرَكُونَ فِيكَ حَجَراً عَلَى حَجَرٍ، لِأَنَّكَ لَمْ تَعْرِفِي زَمَانَ افْتِقَادِكَ» (لوقا ١٩:٤١-٤٤).

ولما وصل هذا الموكب إلى أول مكان يرون منه المدينة المقدسة، وقع نظر المسيح عليها، أبرقت في بصيرته النبوية صورتها الساحرة للأبصار. صورة سوف يراها بعض هؤلاء المحتفلين به، فطار عنه كل ما ولّده هذا الاحتفال الحبي البهيج من الفرح، ورفع صوته بالرناء والبكاء المسموع. بكى على قبر لعازر بهدوء. أما الآن فيبكي بشدة على أورشليم التي ستُخرب، وهذا يعلمنا أن نحب الوطن، وأن نحب الخطاة، ونبكي على مصيرهم الأليم.

وما كان أشد دهشة هذا الجمهور عندما سمعوا بكاءه دون أن يروا سبباً لذلك. إن كل آلامه الفائقة الوصف، حتى تعليق على الصليب، لم تُنزل له دَمعة ولا أَسْمَعَتْ له أُنَّة لكن حبه لهذه المدينة وشعبها العاصي أبكاه. أذابت خطاياهم والويلات التي تترصد لهم قلبه الحنون، فبكى عليهم. لقد رأى بعلمه الفائق أورشليم بعد أربعين سنة وقد حاصرها الجيش الروماني والعذابات الهائلة التي ستحلّ بها، ثم الخراب التام للمدينة ولهيكل الله العظيم. رأى أسوارها تُهدم وتُطرح إلى الحضيض وتُحرق بالنار. رأى لوعة المجاعة التي جعلت الأمهات يبعن أولادهن للذبح، ويأكل بعضهن أولادهن في جنون الجوع. رأى الأمة تنتشّت تشنّناً دائماً وتزول فرائضها المقدسة. وسيكون عذابهم وهلاك مدينتهم على يد القيصر الذي فضّلوه عليه، وتباهوا بأنه ليس ملك إلا هو. رأى المسيح الرومان بعد أربعين سنة ينصبون متاريسهم في ذات المكان الذي يبكي فيه الآن، وهم يقذفون منه على أسوار المدينة آلاتهم المدمرة. وهناك يحفرون خنادق الحصار، فيتمّ بذلك القول النبوي القديم: «إِنَّ صِهْيَوْنَ تُفْلَحُ كَحَقْلٍ وَتَصِيرُ أُورُشَلِيمُ خَرِباً وَجَبَلُ الْبَيْتِ شَوَامِخٌ وَغَرْ» (إرميا ١٨:٢٦). وقد حدث ما رآه المسيح فعلاً. وفي هذا الحصار ذاق اليهود تلك الأهوال التي جعلت المؤرخين يقولون إنها

أشد من كل ما ورد في تاريخ العالم، حتى قيل إن القائد الروماني تيطس ذاته لما دخل المدينة، ورأى الجثث مكدسة في الأزقة، رفع يديه نحو السماء، واستشهد آلهته أنه ليس هو المسؤول عن هذا الخراب، ولكن الذين اضطروه إليه هم المسؤولون عنه .

كانت هذه الحوادث المؤلمة كلها مكشوفة لبصيرة المسيح. في هذه الساعة تحركت في صدره الرحب الصفوح عواطف حب الوطن والإنسانية، وشعور الإشفاق والغفران على الذين أرادوا أن يقتلوه، فتحول فكره من احتفاء القوم به وسرور تلاميذه، إلى ذرف الدموع السخينة، ورثاء هذه المدينة، وبكائه عليها، وعلى شعبها المحبوب المتمرد، فقال مخاطباً أورشليم: «لو علمت أنت أيضاً حتى في يومك هذا ما هو لسلامك. لكن الآن قد أخفي عن عينيك. فإنه ستأتي أيام ويحيط بك أعداؤك بمتراسة، ويحاصرونك من كل جهة، ويهدمونك وبنيك فيك، ولا يتركون فيك حجراً على حجر، لأنك لم تعرفي زمان افتقارك .»

دخل هذا الموكب أورشليم من الباب الشرقي العظيم، بجانب الهيكل، فعرفت المدينة كلها من الهتاف المتواصل ورفع سعف النخل أن حادثاً خطيراً وقع في وسطهم. فتساءل المارة وسكان البيوت والتجار في حوانيتهم: «من هذا؟» وكان الجواب: «هذا يسوع النبي، الذي من ناصرة الجليل .»

عندما وصل هذا الجمع إلى الهيكل كان النهار قد مال، فاكتفى المسيح بأن نظر حوله إلى ما يجري في الهيكل، ورأى أنه يستدعي عملاً هاماً وخطيراً يُطلب منه. وهذا لا يفعله إلا في اليوم التالي، لأن أبواب الهيكل تُغلق في المساء قبل أن يمكنه إتمامه. وهو لا يريد أن يبيت في المدينة لئلا يعرض نفسه لمكائد الرؤساء فيقضون عليه قبل أن تأتي ساعته. لذلك عاد مع تلاميذه إلى بيت عنيا.

المسيح يظهر الهيكل

المسيح يلعن التينة غير المثمرة

«وَفِي الْغَدِ لَمَّا خَرَجُوا مِنْ بَيْتِ عَنِيَا جَاعَ، فَنَظَرَ شَجَرَةَ تَيْنٍ مِنْ بَعِيدٍ عَلَيْهَا وَرَقٌ، وَجَاءَ لَعَلَّهُ يَجِدُ فِيهَا شَيْئًا. فَلَمَّا جَاءَ إِلَيْهَا لَمْ يَجِدْ شَيْئًا إِلَّا وَرَقًا، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ وَقْتُ التَّيْنِ. فَقَالَ يَسُوعُ لَهَا: «لَا يَأْكُلُ أَحَدٌ مِنْكَ ثَمَرًا بَعْدُ إِلَى الْأَبَدِ». وَكَانَ تَلَامِيذُهُ يَسْمَعُونَ .

وَفِي الصَّبَاحِ إِذْ كَانُوا مُجْتَازِينَ رَأَوْا التَّيْنَةَ قَدْ بَيَسَتْ مِنَ الْأُصُولِ، فَتَذَكَّرَ بُطْرُسُ وَقَالَ لَهُ: «يَا سَيِّدِي انْظُرْ، التَّيْنَةُ الَّتِي لَعَنْتَهَا قَدْ بَيَسَتْ!» فَأَجَابَ يَسُوعُ: «لِيَكُنْ لَكُمْ إِيْمَانٌ بِاللَّهِ. لِأَنِّي الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ مَنْ قَالَ لِهَذَا الْجَبَلِ، انْتَقِلْ وَانْطَرِحْ فِي الْبَحْرِ، وَلَا يَشْكُ فِي قَلْبِهِ، بَلْ يُؤْمِنُ أَنَّ مَا يَقُولُهُ يَكُونُ، فَمَهْمَا قَالَ يَكُونُ لَهُ. لِذَلِكَ أَقُولُ لَكُمْ: كُلُّ مَا تَطْلُبُونَهُ حِينَما تُصَلُّونَ، فَامْنُوا أَنْ تَنَالُوهُ، فَيَكُونَ لَكُمْ. وَمَتَى وَقَفْتُمْ تُصَلُّونَ فَاعْبُرُوا إِنَّ كَانَ لَكُمْ عَلَى أَحَدٍ شَيْءٌ، لِكَيْ يَغْفِرَ لَكُمْ أَيْضًا أَبُوكُمُ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ زَلَّاتِكُمْ. وَإِنْ لَمْ تَغْفِرُوا أَنْتُمْ لَا يَغْفِرُ أَبُوكُمُ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ أَيْضًا زَلَّاتِكُمْ» «مرقس ١١: ١٢-١٤، ٢٠-٢٦».

دخل المسيح إلى اورشليم، وكان ذلك اليوم يوم الأحد. وفي صباح الإثنين ترك بيت عنيا وعاد إلى اورشليم. ويظهر أنه لم يتناول طعاماً فجاع. وكان جوعه مهماً لأنه من البراهين القاطعة على ناسوته، وأدى إلى تعليم رمزي مهم جداً، ضد النفاق، رسخ في أذهان تلاميذه وذاكرتهم بشهادة العين، والأذن أيضاً. لم يعاقب أحداً من البشر المرانين الذين وبَّخهم لأنه «لم يأت ليدين العالم، بل ليخلص به العالم». لكنه فعل بالشجرة معجزة من باب الغضب - هي الوحيدة في بابها. إنها ليست بشراً، بل فقط شجرة تمثل المرانين المتظاهرين بصلاح ليس في قلوبهم، فهي خضراء مورقة، لكنها لا تحمل ثمراً. وقد أيدت هذه المعجزة قول الممعدان في زمانه إن «قَدْ وُضِعَتِ الْفَأْسُ عَلَى أَصْلِ الشَّجَرِ، فَكُلُّ شَجَرَةٍ لَا تَصْنَعُ ثَمَرًا جَيِّدًا تُقَطَّعُ وَتُلْقَى فِي النَّارِ» (متى ٣: ١٠).

رأى المسيح من بعيد شجرة تينٍ عليها علامات الإثمار (وإن لم يكن وقت التين). لذلك استلقت نظره، فقصدها لعله يجد فيها ثمراً. كانت بعض أشجار التين تحمل باكورة الثمر، وهي ثمار صغيرة الحجم، لكنها كثيرة الحلاوة. ولما كانت هذه الشجرة مورقة، فقد توقع المسيح منها باكورة التين، فلم يجد سوى الورق. فصارت تلك الشجرة مثال الخطية الإيجابية التي ارتكبوها وهي الرياء، والخطية السلبية وهي إهمال الصلاح، أي عدم الإثمار، فلعنها بقوله: «لَا يَأْكُلُ أَحَدٌ مِنْكَ ثَمَرًا بَعْدُ إِلَى الْأَبَدِ». قال ذلك بغاية سامية ليعلم تلاميذه وليعلمنا ضرورة الإتيان بالثمر. ولم يلعن التينة عن حمقٍ أو طيش، لأن ذلك لا ينطبق على صفاته وتاريخه .

المسيح يطهر هيكله

«وَجَاءُوا إِلَى أُورُشَلِيمَ. وَلَمَّا دَخَلَ يَسُوعُ الْهَيْكَلِ ابْتَدَأَ يُخْرِجُ الَّذِينَ كَانُوا يَبِيعُونَ وَيَشْتَرُونَ فِي الْهَيْكَلِ، وَقَلَبَ مَوَازِدَ الصَّيَّارِفَةِ وَكَرَاسِيَّ بَاعَةِ الْحَمَامِ. وَلَمْ يَدَعْ أَحَدًا يَجْتَازُ الْهَيْكَلِ بِمَتَاعٍ. وَكَانَ يُعَلِّمُ قَائِلًا لَهُمْ: «أَلَيْسَ مَكْتُوبًا: بَيْتِي بَيْتَ صَلَاةٍ يُدْعَى لِجَمِيعِ الْأُمَمِ؟ وَأَنْتُمْ جَعَلْتُمُوهُ مَغَارَةً لَصُوصٍ». وَسَمِعَ الْكَتَبَةُ وَرُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ فَطَلَبُوا كَيْفَ يُهْلِكُونَهُ، لِأَنَّهُمْ خَافُوهُ، إِذْ بُهَتَ الْجَمْعُ كُلُّهُ مِنْ تَعْلِيمِهِ. وَلَمَّا صَارَ الْمَسَاءُ خَرَجَ إِلَى خَارِجِ الْمَدِينَةِ» (مرقس ١١: ١٥-١٩).

في صباح يوم الإثنين عاد المسيح وتلاميذه إلى الهيكل، ليباشر العمل الإصلاحى الذي رأى الحاجة ماسةً إليه، لأن تأثير تطهيره الهيكل منذ ثلاث سنين كان قد اضمحل، وعادت العادات الذميمة إلى مجراها القديم، واستخدم اليهود دار الأمم للمرور العادى في الأشغال من جهة إلى جهة بين شوارع المدينة، ونصبوا فيها حوانيت التجارة .

كان هذا الهيكل يرمز إلى المسيح كوسيط بين الله والناس، لأن به يتقدم الجميع إلى الله. وقد قال المسيح: «أَنَا هُوَ الطَّرِيقُ وَالْحَقُّ وَالْحَيَاةُ. لَيْسَ أَحَدٌ يَأْتِي إِلَى الْآبِ إِلَّا بِي» (يوحنا ١٤: ٦) فكان يجب أن يطهر الهيكل مرة أخرى. ولما كان سيسلم ذاته بإرادته في هذا الأسبوع لسلطان أعدائه، فقد جدد برهان سلطانه الذي سيتنازل عنه لإتمام عمل الفداء - برهنه من جديد عندما طرد الباعة من الهيكل وأوقف التجارة فيه .

وفي التطهير الثاني للهيكل لم يدع المسيح أحداً يجتاز فيه بمتاع . واستعمل كلاماً أقوى مما قاله في التطهير الأول للهيكل. في التطهير الأول قال: «لا تجعلوا بيت أبي بيت تجارة». أما في هذه المرة فقال: «بيتي بيت صلاة يُدعى. وأنتم جعلتموه مغارة لصوص». لأنه رأى نفاق التجار في فسحاته. ورأى معظم الأمة، بما فيها الرؤساء، يسلبون حقوق الله .

وصفت النبوة المسيح بأنه عادل ومنصور (زكريا ٩: ٩) ففي طرده الباعة أظهر عدله، وفي عجز الرؤساء عن منعه ظهر منصوراً. بعد تطهيره الأول للهيكل طلب منه اليهود آية، أما في التطهير الثاني فسألوه: «بأي سلطان تفعل هذا؟» وطلبوا أن يهلكوه. لكنه بقي في المدينة وجوارها ثلاثة أيام .

طهر الهيكل وهو ربه ليستعمل بيته في خدمته المزدوجة. ابتداءً حسب عاداته بآيات الشفاء وأردفها بآيات التعليم. فعلم العالم أن أعمال الرحمة تُعد من خدمة الله وتليق ببيته كما بيومه أيضاً. فبانتصاره على الرؤساء، ثم على الأمراض، ثم على الجهل، زاد تعلق الشعب به، وعدد المؤمنين أيضاً. فقل إن «الشعب كله كان متعلقاً به يسمع منه .»

ولما صار المساء خرج المسيح إلى خارج المدينة كعادته، ثم عاد صباح الثلاثاء ليودع الهيكل الذي قد تحوّل من بيت الله إلى مغارة لصوص، لأن تطهيره الثاني للهيكل لم يكن

إلا مؤقتاً كالأول. وهو لا يرجع إليه بعد هذا اليوم. فلما وصلوا في طريقهم إلى حيث كانت التينة التي لعنها بالأمس، نبّه بطرس سيده أنها يبست من الأصول. فرأى المسيح احتياجهم إلى درس جديد في الإيمان، وفي النتائج العظيمة العجيبة التي تتبع كل صلاة تُقدّم بإيمان تام، فأعاد لهم الشرط الأساسي لاستجابة كل صلاة، وهو أن يغفر المصلي من كل قلبه لمن اساء إليه .

سؤال عن سلطان المسيح

«وَجَاءُوا أَيْضاً إِلَى أُورُشَلِيمَ. وَفِيمَا هُوَ يَمْشِي فِي الْهَيْكَلِ أَقْبَلَ إِلَيْهِ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَالْكَتَبَةُ وَالشُّيُوخُ، وَقَالُوا لَهُ: «بِأَيِّ سُلْطَانٍ تَفْعَلُ هَذَا، وَمَنْ أَعْطَاكَ هَذَا السُّلْطَانَ حَتَّى تَفْعَلَ هَذَا؟» فَأَجَابَ يَسُوعُ: «وَأَنَا أَيْضاً أَسْأَلُكُمْ كَلِمَةً وَاحِدَةً. أَجِيبُونِي، فَأَقُولَ لَكُمْ بِأَيِّ سُلْطَانٍ أَفْعَلُ هَذَا: مَعْمُودِيَّةُ يُوَحْنًا: مِنَ السَّمَاءِ كَانَتْ أَمْ مِنَ النَّاسِ؟ أَجِيبُونِي». فَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ قَائِلِينَ: «إِنْ قُلْنَا مِنَ السَّمَاءِ، يَقُولُ: فَلِمَذَا لَمْ تُؤْمِنُوا بِهِ؟ وَإِنْ قُلْنَا مِنَ النَّاسِ». فَخَافُوا الشَّعْبَ. لِأَنَّ يُوَحْنًا كَانَ عِنْدَ الْجَمِيعِ أَنَّهُ بِالْحَقِيقَةِ نَبِيٌّ. فَأَجَابُوا: «لَا نَعْلَمُ». فَقَالَ يَسُوعُ: «وَلَا أَنَا أَقُولُ لَكُمْ بِأَيِّ سُلْطَانٍ أَفْعَلُ هَذَا» (مرقس ١١: ٢٧-٣٣).

بعد أن طهر المسيح الهيكل، اجتمع رؤساء اليهود ليقروا الخطة التي يتخذونها لتنفيذ غايتهم في صلب المسيح. ولم يروا وسيلة لإسقاطه إلا فصل قلوب الشعب عنه أولاً بواسطة أسئلة يجعلونها أشراكاً يصيدونه بها. وهم يرجون أن يجيب عنها بما يجعل الشعب ينفر منه، حتى إذا حاولوا أن يقبضوا عليه لا يعارضهم الشعب .

فبينما كان المسيح يتمشّي في الهيكل، سألوه عن مصدر سلطانه الذي استعمله في تطهير الهيكل، لأنهم هم وكلاؤه ورؤساؤه، وقد تسلموا سلطانهم على الهيكل قانونياً من أسلافهم بالمسح والرسامة مع تصديق الحكومة. أما هو فمن أين سلطانه؟ قد نسوا السلطة النبوية في تاريخهم. لأنه منذ مئات السنين لم يظهر نبي إلا المعمدان، الذي لم يؤمن به الرؤساء - والسلطة النبوية في كل الأزمان، تأتي رأساً من الله الذي يُقيم الأنبياء دون استشارة أو استئذان، ودون تقيّد بالتسلسل .

ذكَرَ المسيح الذين سألوه بسلطان المعمدان، آخر الأنبياء وأعظمهم، وبشهادة المعمدان له أنه ابن الله، وطلب منهم أن يقرروا أولاً مصدر سلطان المعمدان. فإن اعترفوا أنه أخذه من مصدر سماوي يدينون نفوسهم لأنهم لم يقبلوا رسالة المعمدان. وإن أنكروا يخشون أن يجرمهم الشعب الذي كان يعتبر المعمدان نبياً حقيقياً، فلجأوا في حيرتهم إلى الكذب وقالوا: «لا نعلم» فأنزل جوابهم الكاذب على رؤوسهم احتقار الشعب لهم. ورفض المسيح أن يقول لهم بأي سلطان يتصرف، لأنه عرف خفايا قلوبهم الراضية .

مثل الابنين

«مَآذَا تَظُنُّونَ؟ كَانَ لِإِنْسَانٍ ابْنَانِ، فَجَاءَ إِلَى الْأَوَّلِ وَقَالَ: يَا ابْنِي، اذْهَبِ الْيَوْمَ اَعْمَلْ فِي كَرْمِي. فَأَجَابَ: مَا أُرِيدُ. وَلَكِنَّهُ نَدِمَ أَخِيرًا وَمَضَى. وَجَاءَ إِلَى الثَّانِي وَقَالَ كَذَلِكَ. فَأَجَابَ: هَا أَنَا يَا سَيِّدُ. وَلَمْ يَمُضِ. فَأَيُّ الْاِثْنَيْنِ عَمِلَ إِرَادَةَ الْآبِ؟» «قَالُوا لَهُ: «الْأَوَّلُ.» «قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ إِنَّ الْعَشَارَيْنِ وَالزَّوَانِي يَسْبِقُونَكُمْ إِلَى مَلَكُوتِ اللَّهِ، لِأَنَّ يُوْحَنَّا جَاءَكُمْ فِي طَرِيقِ الْحَقِّ فَلَمْ تُؤْمِنُوا بِهِ، وَأَمَّا الْعَشَارُونَ وَالزَّوَانِي فَأَمَّنُوا بِهِ. وَأَنْتُمْ إِذْ رَأَيْتُمْ لَمْ تَتَذَمُّوا أَخِيرًا لِتُؤْمِنُوا بِهِ.» (متى ٢٨: ٢١-٣٢).

سكت رؤساء اليهود، لكن المسيح لم يسكت، بل ضرب لهم مثلاً بابنين أمرهما أبوهما ليعملا في كرمه، فرفض الابن الأول أمر أبيه، ثم ندم وأطاع. أما الابن الثاني فوعد بالقيام بالعمل لكنه لم ينفذ. أخطأ الابن الأول في قوله وأصاب في فعله. أما الابن الثاني فخطيئته كانت التقصير بالفعل، الذي هو أعظم كثيراً من التقصير بالقول. وقصد المسيح بذلك أن الرؤساء المعترضين عليه يعلمون الشريعة، فأقوالهم حسنة. لكنهم يخالفونها فلا يعملون مشيئة الله. بينما غيرهم لا يتظاهرون بالتدين كثيراً، لكنهم يحفظون الشريعة الإلهية أكثر من الرؤساء. ثم لما سألهم: «أي الابنين عمل إرادة أبيه؟» أجابوه: الأول. فأوضح لهم أن قصة المعمدان قد برهنت أن العشارين والزواني يشبهون الابن الأول، لأنهم تابوا عن شرورهم لما سمعوا وعظ المعمدان واعتمدوا منه. بينما الفريسيون يشبهون الابن الثاني المذموم، لأنهم يدعون التقوى بأقوالهم ويخالفونها بأفعالهم، فجوابهم يثبت أفضلية العشارين والزواني عليهم.

مثل الكرامين الأردباء

«إِسْمَعُوا مَثَلًا آخَرَ: كَانَ إِنْسَانٌ رَبُّ بَيْتٍ غَرَسَ كَرْمًا، وَأَحَاطَهُ بِسِيَاجٍ، وَحَفَرَ فِيهِ مَعَصْرَةً، وَبَنَى بُرْجًا، وَسَلَّمَهُ إِلَى كَرَّامِينَ وَسَافِرٍ. وَلَمَّا قَرُبَ وَقْتُ الْأَثْمَارِ أَرْسَلَ عَبِيدَهُ إِلَى الْكَرَّامِينَ لِيَأْخُذَ أَثْمَارَهُ. فَأَخَذَ الْكَرَّامُونَ عَبِيدَهُ وَجَلَدُوا بَعْضًا وَقَتَلُوا بَعْضًا وَرَجَمُوا بَعْضًا. ثُمَّ أَرْسَلَ أَيْضًا عَبِيدًا آخَرِينَ أَكْثَرَ مِنَ الْأَوَّلِينَ، فَفَعَلُوا بِهِمْ كَذَلِكَ. فَأَخِيرًا أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ ابْنَهُ قَائِلًا: يَهَابُونَ ابْنِي! وَأَمَّا الْكَرَّامُونَ فَلَمَّا رَأَوْا الْابْنَ قَالُوا فِيْمَا بَيْنَهُمْ: هَذَا هُوَ الْوَارِثُ. هَلُمُّوا نَقْتُلْهُ وَنَأْخُذْ مِيراثَهُ! فَأَخَذُوهُ وَأَخْرَجُوهُ خَارِجَ الْكَرْمِ وَقَتَلُوهُ. فَمَتَى جَاءَ صَاحِبُ الْكَرْمِ، مَآذَا يَفْعَلُ بِأَوْلِيكَ الْكَرَّامِينَ؟» «قَالُوا لَهُ: «أَوْلِيكَ الْأَرْدِيَاءُ يُهْلِكُهُمْ هَلَاكًا رَدِيًّا، وَيُسَلِّمُ الْكَرْمَ إِلَى كَرَّامِينَ آخَرِينَ يُعْطُونَهُ الْأَثْمَارَ فِي أَوْقَاتِهَا.» «قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «أَمَّا قَرَأْتُمْ قَطُّ فِي الْكُتُبِ: الْحَجَرُ الَّذِي رَفَضَهُ الْبَنَّاؤُونَ هُوَ قَدْ صَارَ رَأْسَ الزَّاوِيَةِ. مِنْ قِبَلِ الرَّبِّ كَانَ هَذَا وَهُوَ عَجِيبٌ فِي أَعْيُنِنَا؟ لِذَلِكَ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ مَلَكُوتَ اللَّهِ يُنَزِّعُ مِنْكُمْ وَيُعْطِي لِأُمَّةٍ تَعْمَلُ أَثْمَارَهُ. وَمَنْ سَقَطَ عَلَى هَذَا الْحَجَرِ يَتَرَضَّضُ، وَمَنْ سَقَطَ هُوَ عَلَيْهِ يَسْحَقُهُ.» وَلَمَّا سَمِعَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَالْفَرِيسِيُّونَ أَمْثَالَهُ عَرَفُوا

أَنَّهُ تَكَلَّمَ عَلَيْهِمْ. وَإِذْ كَانُوا يَطْلُبُونَ أَنْ يُمَسِّكُوهُ خَافُوا مِنَ الْجُمُوعِ، لِأَنَّهُ كَانَ عِنْدَهُمْ مِثْلُ نَبِيِّ»
(متى ٢١: ٤٦-٣٣).

ثم قدم المسيح مثلاً يسمّى «الكرامين الأرياء» كشف فيه عن خطية رؤساء الشعب في ما ينوونه عليه وما سيتممونه في هذا الأسبوع. هؤلاء الكرامون بعدما أهانوا وقتلوا الرسل الذين أرسلهم المالك ليأخذوا حقّه من الأثمار، قتلوا أخيراً ابنه الوحيد ليثبتوا استبدادهم في الكرم. ولما سألهم المسيح: «ماذا يفعل صاحب الكرم بهؤلاء الأشرار؟» أجابه البسطاء منهم: «أولئك الأرياء يهلكهم هلاكاً ردياً، ويسلم الكرم إلى كرامين آخرين يعطونه الأثمار في أوقاتها». أما الذين أدركوا حقيقة المثل فأجابوا: «حاشا». فصدّق المسيح على جوابهم بقوله: «إن ملكوت الله يُنزع منكم، ويُعطى لأمةٍ تعمل أثماره». وذكرهم بقول نبيهم داود أن «الحجر الذي رَفَضَهُ الْبَنَّاؤُونَ قَدْ صَارَ رَأْسَ الزَّائِيَةِ» (مزمو ٢٢: ١١٨). فالذين يقاومونه يترضضون، أما الذين يقاومهم هو فيُسخقون. فحفظ الرسول بطرس هذا القول وأعادته لما اضطهده هؤلاء الرؤساء بعد صعود المسيح، وسجله بعد ذلك في رسالته الأولى (أعمال ١١: ٤، 1 بطرس ٢: ٧).

مَثَلُ عَرَسِ ابْنِ الْمَلِكِ

«يُشَبِّهُ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ إِنْسَانًا مَلِكًا صَنَعَ عُرْسًا لِابْنِهِ، وَأَرْسَلَ عَبِيدَهُ لِيَدْعُوا الْمَدْعُودِينَ إِلَى الْعُرْسِ، فَلَمْ يَرِيدُوا أَنْ يَأْتُوا. فَأَرْسَلَ أَيْضًا عَبِيداً آخَرِينَ قَائِلًا: قُولُوا لِلْمَدْعُودِينَ: هُوَذَا غَدَائِي أَغْدَدْتُهُ. ثِيرَانِي وَمُسَمَّنَاتِي قَدْ دُبِحَتْ، وَكُلُّ شَيْءٍ مُعَدٌّ. تَعَالَوْا إِلَى الْعُرْسِ! وَلَكِنَّهُمْ تَهَاوَنُوا وَمَضَوْا، وَاحِدٌ إِلَى حَقْلِهِ، وَآخَرٌ إِلَى تِجَارَتِهِ، وَالْبَاقُونَ أَمْسَكُوا عَبِيدَهُ وَشَتَمُوهُمْ وَقَتَلُوهُمْ. فَلَمَّا سَمِعَ الْمَلِكُ غَضِبَ، وَأَرْسَلَ جُنُودَهُ وَأَهْلَكَ أُولَئِكَ الْقَاتِلِينَ وَأَحْرَقَ مَدِينَتَهُمْ. ثُمَّ قَالَ لِعَبِيدِهِ: أَمَّا الْعُرْسُ فَمُسْتَعَدَّةٌ، وَأَمَّا الْمَدْعُودُونَ فَلَمْ يَكُونُوا مُسْتَحَقِّينَ. فَادْهَبُوا إِلَى مَفَارِقِ الطَّرِيقِ، وَكُلُّ مَنْ وَجَدْتُمُوهُ فَادْعُوهُ إِلَى الْعُرْسِ. فَخَرَجَ أُولَئِكَ الْعَبِيدُ إِلَى الطَّرِيقِ، وَجَمَعُوا كُلَّ الَّذِينَ وَجَدُوهُمْ أَشْرَاراً وَصَالِحِينَ. فَأَمْتَلَأَ الْعُرْسُ مِنَ الْمُتَكَبِّينَ. فَلَمَّا دَخَلَ الْمَلِكُ لِيَنْظُرَ الْمُتَكَبِّينَ، رَأَى هُنَاكَ إِنْسَانًا لَمْ يَكُنْ لَابِسًا لِبَاسَ الْعُرْسِ. فَقَالَ لَهُ: يَا صَاحِبُ، كَيْفَ دَخَلْتَ إِلَى هُنَا وَلَيْسَ عَلَيْكَ لِبَاسُ الْعُرْسِ؟ فَسَكَتَ. حِينَئِذٍ قَالَ الْمَلِكُ لِلْخَدَّامِ: ارْبُطُوا رِجْلَيْهِ وَيَدَيْهِ، وَخُذُوهُ وَاطْرَحُوهُ فِي الظُّلْمَةِ الْخَارِجِيَّةِ. هُنَاكَ يَكُونُ الْبُكَاءُ وَصَرِيرُ الْأَسْنَانِ. لِأَنَّ كَثِيرِينَ يَدْعُونَ وَقَلِيلِينَ يَنْتَخِبُونَ» (متى ٢٢: ١٤-٢٢).

أغاض مثل الكرامين الأرياء الرؤساء، لأن المسيح قاله لدينونتهم، فجددوا السعي لإلقاء القبض عليه. ولكن خوفهم من الشعب قيّد أيديهم، فتركوه ومضوا. لكن المسيح لم يمض، لأنه لم يكن قد أكمل بعد تعليمه الوداعي في الهيكل، فزاد مثلاً ثالثاً يسمّى مثل عرس ابن الملك. قال إن الملك صنع عرساً لابنه، وأعطى كل واحد من المدعوين حلة ملكية. ولما

دخل الملك ليرحب بالمتكئين الذين امتلأ العرس منهم، رأى إنساناً لم يكن لابساً لباس العرس، بل اكتفى بثوبه الذي أتى به، لأنه كان يعجبه أكثر من الثوب الذي أهده الملك لجميع المدعوين. كان يفتخر بثوبه هو. ورفض أن يماثل الآخرين. كما لم يرد أن يكون تحت فضل الملك في أمر كسوته. ولما سأله الملك عن سبب مخالفته نظام العرس، سكت. وكان سكوته برهاناً كافياً لذنبه، فنال جزاءه. لأن نظام الملوك إعدام كل من يخالف أوامرهم. فقال الملك لرجاله: «اربطوا رجليه ويديه وخذوه واطرحوه في الظلمة الخارجية، هناك يكون البكاء وصرير الأسنان». ولم يكن طرده من حضرة الملك لشرِّ فعله، بل لخير أهمله. فمهما كان الإنسان صالحاً في عيني نفسه وأعين الآخرين، فإن الله يعاقبه على اكتفائه ببره، وإهماله ارتداء ثوب البر الذي يقدمه له الله.

في هذه الأمثال الثلاثة المتوالية: «مثل الابنين، ومثل الكرامين الأردباء، ومثل عرس ابن الملك» صرَّح المسيح بأن رفض الرؤساء له يقابله قبول العشارين له. وأن رفض الأمة له يقابله قبول الأمم الأخرى له في ما بعد. أما قول المسيح في آخر المثل إن «كثيرين يُدعون وقليلين يُنتخبون» فلا نرى أنه يشمل الأزمنة كافة، بل أنه يشير خصوصاً إلى زمانه، ولا سيما إلى الأمة اليهودية.

المسيح يجاوب على أسئلة شيوخ اليهود ثم يسألهم

كما يطلب المحارب المغلوب حلفاء جدداً لعله ينتصر أخيراً، تحالف رؤساء اليهود مع خصومهم من الهيروودسيين أنصار الملك هيروودس. وبعد أن تشاوروا اتفقت القوة السياسية مع الدينية على هجوم جديد .

ما لقيصر لقيصر

«ثُمَّ أَرْسَلُوا إِلَيْهِ قَوْمًا مِنَ الْفَرِيسِيِّينَ وَالْهِيرُودُسِيِّينَ لِكَيْ يَصْطَادُوهُ بِكَلِمَةٍ. فَلَمَّا جَاءُوا قَالُوا لَهُ: «يَا مُعَلِّمُ، نَعْلَمُ أَنَّكَ صَادِقٌ وَلَا تُبَالِي بِأَحَدٍ، لِأَنَّكَ لَا تَنْظُرُ إِلَى وُجُوهِ النَّاسِ، بَلْ بِالْحَقِّ تَعْلَمُ طَرِيقَ اللَّهِ. أَيجُوزُ أَنْ نُعْطِيَ جِزْيَةً لِقَيْصَرَ أَمْ لَا؟ نُعْطِي أَمْ لَا نُعْطِي؟» فَعَلِمَ رِیَاءَهُمْ، وَقَالَ لَهُمْ: «لِمَذَا تُجَرِّبُونَنِي؟ إِيْثُونِي بِدِينَارٍ لِأَنْظُرَهُ». فَأَتَوْا بِهِ. فَقَالَ لَهُمْ: «لِمَنْ هَذِهِ الصُّورَةُ وَالْكِتَابَةُ؟» فَقَالُوا لَهُ: «لِقَيْصَرَ». فَأَجَابَ يَسُوعُ: «أَعْطُوا مَا لِقَيْصَرَ لِقَيْصَرَ وَمَا لِلَّهِ لِلَّهِ». فَتَعَجَّبُوا مِنْهُ» (مرقس ١٣: ١٢-١٧).

كانت الحيلة أن الهيروودسيين يتظاهرون بالتدين لكي يصطادوا المسيح ويمسكوه بكلمة، فيسلموه إلى حكم الوالي وسلطانه. فتقدموا إليه وتملقوه واستشاروه إن كانوا يدفعون الجزية للحكومة الرومانية أو لا يدفعونها، أملاً أن يمسكوه في شبكتهم مهما كانت إجابتها، فإن قال بدفع الجزية ينفر الشعب منه، لأنهم ضجروا من هذه الضريبة التي هي علامة استعبادهم للرومان، ولأنهم ينتظرون مجيء المسيح ليحررهم منها. وكانوا يسألون: «كيف يمكن أن يكون المسيح ملك إسرائيل - كما هتف له الشعب بالأمس في الهيكل، ويحكم أن ندفع الجزية لقيصر؟». وإن أجاب بعدم دفعها كما يرغب الهيروودسيون (وهو ما كانوا يرجحونه) يحصلون على حجة كافية ليسلموه للحكومة، كمثير للفتنة ضد القيصر الذي وضع هذه الضريبة .

علم المسيح رياءهم وخبتهم، وأن الجواب الذي يروق للفريسيين لا يروق للهيروودسيين - ومع ذلك اتفق الفريقان على امتحانه، فأجاب: «لماذا تجربونني يا مراؤون؟ أروني معاملة الجزية». ولما أتوا بدينار. كانت صورة الإمبراطور مرسومة عليه. ومعنى هذا أنهم يعترفون بسلطان قيصر عليهم. فقال: «أعطوا ما لقيصر لقيصر، وما لله لله». أي أعطوا كل ذي حق حقه. بهذا الجواب حطم الشَّرْك المنسوب له، ونطق بهذا القول المأثور قاعدة للواجبات في الدين والدولة. فلم يقدروا أن يمسكوه بكلمة قدام الشعب وتعجبوا من جوابه وسكتوا، وتركوه ومضوا .

من تعليم المسيح هذا نرى أن الواجبات للدولة مقدسة وضمن الواجب الديني... ليس السؤال: هل نخضع لقيصر أم لله، لأن الخضوع للاثنتين واجب، والخضوع لقيصر في ما

لا يخالف الخضوع لله هو من أصل الخضوع لله، لأن الله هو الذي سمح لقيصر أن يتسلط عليهم. فعليهم أن يخضعوا لهذا التأديب. وكما تذكرهم صورة القيصر على الدينار، بما عليهم له، يجب أن تذكرهم صورة الله التي خلق فيها الإنسان، بما عليهم لله .

إله أحياء، لا إله أموات

«وَجَاءَ إِلَيْهِ قَوْمٌ مِنَ الصَّدُوقِيِّينَ، الَّذِينَ يَقُولُونَ لَيْسَ قِيَامَةٌ، وَسَلَّوْهُ: «يَا مُعَلِّمُ، كَتَبَ لَنَا مُوسَى: إِنَّ مَاتَ لِأَحَدٍ أَخٌ، وَتَرَكَ امْرَأَةً وَلَمْ يُخَلِّفْ أَوْلَادًا، أَنْ يَأْخُذَ أَخُوهُ امْرَأَتَهُ، وَيُقِيمَ نَسْلًا لِأَخِيهِ. فَكَانَ سَبْعَةُ إِخْوَةٍ. أَحَدُ الْأَوَّلِ امْرَأَةً وَمَاتَ، وَلَمْ يَتْرُكْ نَسْلًا. فَأَخَذَهَا الثَّانِي وَمَاتَ، وَلَمْ يَتْرُكْ هُوَ أَيْضًا نَسْلًا. وَهَكَذَا الثَّلَاثُ. فَأَخَذَهَا السَّبْعَةُ، وَلَمْ يَتْرُكُوا نَسْلًا. وَآخِرَ الْكُلِّ مَاتَتِ الْمَرْأَةُ أَيْضًا. فَبَيْنَ الْقِيَامَةِ، مَتَى قَامُوا، لِمَنْ مِنْهُمْ تَكُونُ زَوْجَةٌ؟ لِأَنَّهَا كَانَتْ زَوْجَةً لِلْسَّبْعَةِ.» فَأَجَابَ يَسُوعُ: «لَيْسَ لِهَذَا تَضِلُّونَ، إِذْ لَا تَعْرِفُونَ الْكِتَابَ وَلَا قُوَّةَ اللَّهِ؟ لِأَنَّهُمْ مَتَى قَامُوا مِنَ الْأَمْوَاتِ لَا يُزَوِّجُونَ وَلَا يُزَوَّجُونَ، بَلْ يَكُونُونَ كَمَلَائِكَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ. وَأَمَّا مِنْ جِهَةِ الْأَمْوَاتِ إِنَّهُمْ يَقُومُونَ: أَفَمَا قَرَأْتُمْ فِي كِتَابِ مُوسَى، فِي أَمْرِ الْعُلَيْقَةِ، كَيْفَ كَلَّمَهُ اللَّهُ قَائِلًا: أَنَا إِلَهُ إِبْرَاهِيمَ وَإِلَهُ إِسْحَاقَ وَإِلَهُ يَعْقُوبَ؟ لَيْسَ هُوَ إِلَهُ أَمْوَاتٍ بَلْ إِلَهُ أَحْيَاءٍ. فَأَنْتُمْ إِذَا تَضِلُّونَ كَثِيرًا» (مرقس ١٢: ١٨-٢٧).

أخيراً انفقت جميع الأحزاب الكبرى الدينية والسياسية على مهاجمة المسيح هذا اليوم الأخير في الهيكل، فانضمَّ الصدوقيون إلى الفريسيين والكتبة ورؤساء الكهنة وشيوخ الشعب، ونصبوا للمسيح شركاً آخر علقوه علفلسفتهم الطبيعية. كان الصدوقيون يستخفون بالدين إجمالاً، ولا يؤمنون بالقيامة ولا الملائكة ولا الأرواح، فكان يُنتظر منهم أن يسألوا سؤالاً هزلياً جدياً، ليثيروا الاستهزاء بالمسيح .

وبما أن أفكارهم كانت جسدية، فقد لَفَقُوا مشكلة تتصل بالعالم الروحي الذي تسكنه الأرواح بعد الموت الجسدي. كانت شريعة موسى توجب على إخوة كل رجل متزوج يموت دون أن ينجب نسلًا أن يتزوج أحدهم بأرملة المتوفى ليقوم للأخ الميت نسلًا. ولأجل غايتهم الهزلية تخيل الصدوقيون امرأة تزوجت بسبعة إخوة، الواحد بعد الآخر. وسألوه لمن من هؤلاء السبعة تكون زوجة في القيامة؟

كان الفريسيون يشاركون المسيح في الإيمان بالقيامة وبالعالم الأرواح، فهزيمته هنا أمام الصدوقيين تكون هزيمة لهم أيضاً. ونجاح المسيح في الجدل، يساعد الفريسيين من هذا الوجه. ولو أنه يكون مصيبة عليهم، لأنه يرفع مقام المسيح فيتعلق الشعب به أكثر من قبل .

نلاحظ في جواب المسيح على الصدوقيين أنه ترفق بهم أكثر مما بالفريسيين، وتلطّف في توبيخهم، لأنه كان يحسب رياء الفريسيين أشد من كفر الصدوقيين، فلم ينطق عليهم بالويل

أو يناديهم: «يا مراؤون». بل أجاب: «أليس لهذا تضلون، إذ لا تعرفون الكتب ولا قوة الله؟» إن خطية الصدوقيين أخف من خطيئة الفريسيين الذين يعرفون ولا يعملون بما يعرفونه.

وأعطاهم المسيح برهاناً من أسفارهم الموسوية أن الله ليس إله أموات بل إله أحياء. إذاً توجد قيامة حقيقية. وهو سبحانه روح. إذاً يوجد عالم روحي واسع وأعظم جداً من العالم المادي. فلو كانوا يعرفون الكتب المقدسة لما كانوا ينكرون القيامة. ولو كانوا يعرفون قوة الله لما حددوها وحصروها في عالم الماديات الصغير.

وأفهم المسيح سامعيه أن العالم الروحي لا يقاس تماماً على العالم المادي، فالزيجة الجسدية لا وجود لها هناك، إذ يكون كل من له نصيب في قيامة الأبرار كملائكة الله في السماوات. فبُهِتَ الجموع من تعليمه، وفرح بعض الكتبة بفشل الصدوقيين أكثر مما تكدروا لانتصار المسيح، وقالوا له: «يا معلم، حسناً قلت». وتوقف قليلاً تيار الاعتراض على هذا المعلم الناصري، ولم يتجاسروا أيضاً أن يسألوه عن شيء.

الوصية العظمى

«فَجَاءَ وَاحِدٌ مِنَ الْكَتَبَةِ وَسَمِعَهُمْ يَتَحَاوَرُونَ، فَلَمَّا رَأَى أَنَّهُ أَجَابَهُمْ حَسَنًا، سَأَلَهُ: «أَيَّةُ وَصِيَّةٍ هِيَ أَوَّلُ الْكُلِّ؟» فَأَجَابَهُ يَسُوعُ: «إِنَّ أَوَّلَ كُلِّ الْوَصَايَا هِيَ: اسْمَعْ يَا إِسْرَائِيلُ. الرَّبُّ إِلَهُنَا رَبٌّ وَاحِدٌ. وَتُحِبُّ الرَّبَّ إِلَهَكَ مِنْ كُلِّ قَلْبِكَ، وَمِنْ كُلِّ نَفْسِكَ، وَمِنْ كُلِّ فِكْرِكَ، وَمِنْ كُلِّ قُدْرَتِكَ. هَذِهِ هِيَ الْوَصِيَّةُ الْأُولَى. وَثَانِيَةً مِثْلَهَا هِيَ: تُحِبُّ قَرِيبَكَ كَنَفْسِكَ. لَيْسَ وَصِيَّةٌ أُخْرَى أَعْظَمَ مِنْ هَاتَيْنِ». فَقَالَ لَهُ الْكَاتِبُ: «جَيِّدًا يَا مُعَلِّمُ. بِالْحَقِّ قُلْتَ، لِأَنَّهُ اللَّهُ وَاحِدٌ وَلَيْسَ آخَرُ سِوَاهُ. وَمَحَبَّتُهُ مِنْ كُلِّ الْقَلْبِ، وَمِنْ كُلِّ الْفَهْمِ، وَمِنْ كُلِّ النَّفْسِ، وَمِنْ كُلِّ الْقُدْرَةِ، وَمَحَبَّةُ الْقَرِيبِ كَالنَّفْسِ، هِيَ أَفْضَلُ مِنْ جَمِيعِ الْمُحَرَقَاتِ وَالذَّبَائِحِ». فَلَمَّا رَأَى يَسُوعُ أَنَّهُ أَجَابَ بِعَقْلِ قَالَ لَهُ: «لَسْتُ بَعِيدًا عَنْ مَلَكُوتِ اللَّهِ». وَلَمْ يَجْسُرْ أَحَدٌ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ يَسْأَلَهُ» (مرقس ١٢: ٢٨-٣٤).

ثم سأله أحد علماء الشريعة المعروفين بالكتبة، وهو يريد أن يمتحن معرفته بالناموس: «يا معلم، أية وصية هي العظمى في الناموس وأول الكل؟» أجاب المسيح إن أول كل الوصايا هي «اسمع يا إسرائيل: الرب إلهك رب واحد، وتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكريك ومن كل مقدرتك. هذه هي الوصية الأولى والعظمى. والثانية مثلها: تحب قريبك كنفسك. ليس وصية أخرى أعظم من هاتين. بهاتين الوصيتين يتعلق الناموس كله والأنبياء». ثم وصف المسيح عالم الشريعة هذا بأنه «ليس بعيداً عن ملكوت الله». فهل عرف عالم الشريعة أن حالة الذي ليس بعيداً عن الملكوت ولا يدخله، هي حالة أصعب من الذي هو بعيد؟ ما أمر هلاك الواقفين عند باب الملكوت.

قال الرب لربي

«ثُمَّ سَأَلَ يَسُوعُ وَهُوَ يُعَلِّمُ فِي الْهَيْكَلِ: «كَيْفَ يَقُولُ الْكَتَبَةُ إِنَّ الْمَسِيحَ ابْنُ دَاوُدَ؟ لِأَنَّ دَاوُدَ نَفْسَهُ قَالَ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ: قَالَ الرَّبُّ لِرَبِّي: اجْلِسْ عَنْ يَمِينِي، حَتَّى أَضَعَ أَعْدَاءَكَ مَوْطِنًا لِقَدَمَيْكَ. فَدَاوُدُ نَفْسَهُ يَدْعُوهُ رَبًّا. فَمِنْ أَيْنَ هُوَ ابْنُهُ؟» وَكَانَ الْجَمْعُ الْكَثِيرُ يَسْمَعُهُ بِسُرُورٍ» (مرقس ١٢: ٣٥-٣٧).

ترقب المسيح وهو يعلم في الهيكل فرصة اجتماع الفريسيين ليمتحنهم كما امتحنوه، فطلب منهم تفسير هذه الآية في مزامير داود: «قَالَ الرَّبُّ لِرَبِّي: اجْلِسْ عَنْ يَمِينِي» (مزمور ١١٠: ١). هنا تُكَلِّمُ العزة الإلهية شخصاً يسميه ربّه. وهذا الشخص حسب تفسير اليهود جميعاً هو المسيح، وفي ذات الوقت هو المسيح ابن داود. فكيف يكون بشراً محضاً، ويكون ربّ داود وابن داود في الوقت نفسه؟ لا يحل هذه المعضلة إلا القول بطبيعة المسيح المزدوجة التي تجعله رب داود من جهة لا هوته، وابن داود من جهة ناسوته، وهذا هو الوصف الذي يطلقه سفر الرؤيا على المسيح «أَصْلُ وَذُرِّيَّةُ دَاوُدَ» (رؤيا ١٦: ٢٢). فبما أنهم ينكرون لا هوته لم يستطع أحد أن يردّ بكلمة. فأسكت جميع معانديه وأسعد الجمع الكثير بكلامه. ويناسب هنا أن نذكر الشهادة التي قدمها سابقاً رسل خصومه الفريسيين بقولهم: «لم يتكلم قط إنسان هكذا مثل هذا الإنسان». ويؤيد العدد الذي لا يُحصى من الذين سعدوا بكلامه من ذلك الوقت إلى يومنا هذا.

المسيح يمدح عطاء الأرملة

«وَجَلَسَ يَسُوعُ تَجَاهَ الْخِرَازَةِ، وَنَظَرَ كَيْفَ يُلْقِي الْجَمْعُ نُحَاسًا فِي الْخِرَازَةِ. وَكَانَ أَغْنِيَاءُ كَثِيرُونَ يُلْقُونَ كَثِيرًا. فَجَاءَتْ أَرْمَلَةٌ فَقِيرَةٌ وَأَلْقَتْ فَلْسَيْنِ، قِيمَتُهُمَا رُبْعٌ. فَدَعَا تَلَامِيذَهُ وَقَالَ لَهُمْ: «الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ هَذِهِ الْأَرْمَلَةَ الْفَقِيرَةَ قَدْ أَلْقَتْ أَكْثَرَ مِنْ جَمِيعِ الَّذِينَ أَلْقُوا فِي الْخِرَازَةِ، لِأَنَّ الْجَمِيعَ مِنْ فَضْلَتِهِمْ أَلْقُوا. وَأَمَّا هَذِهِ فَمِنْ إِعْوَازِهَا أَلْقَتْ كُلَّ مَا عِنْدَهَا، كُلَّ مَعِيشَتِهَا» (مرقس ١٢: ٤١-٤٤).

ثم انتقل المسيح من قسم الهيكل الداخلي إلى الدار الخارجية التي كانوا يسْمُونَهَا دار النساء (لأنهم كانوا يسمحون بدخول النساء إليها). وكان هناك ثلاثة عشر بوقاً مخصّصة لوضع التقدّمات النقدية لخدمة الهيكل وأعمال الرحمة. وكان العابدون بعد غياب طويل يعودون في أيام العيد العظيم ليقدموا لهذا المعبد الفريد مبالغ وافرة، فجلس المسيح تجاه الأبواق في محل «الخزانة» يراقب العابدين وهم يدفعون عطاياهم. فلما وضعت أرملة فلسين، وهي أقل قيمة يجوز تقديمها، دعا تلاميذه لينظروا وقال «إن هذه الأرملة الفقيرة قد أَلْقَتْ أَكْثَرَ مِنْ جَمِيعِ الَّذِينَ أَلْقُوا فِي الْخِرَازَةِ، لِأَنَّ الْآخَرِينَ أَلْقُوا مِنْ فَضْلَتِهِمْ، وَأَمَّا هِيَ فَأَلْقَتْ كُلَّ مَعِيشَتِهَا». للعطاء أهمية كبيرة في الدين، وقد علّم المسيح أن مقياس السخاء ليس مقدار

التقدمة، بل مقدار ما يبقى للمعطي بعد أن يقدمها. ويخطئ الذين يقدمون في الإحسان قليلاً ويسمونه «فلسي الأرملة»، لأن هذا الاسم لا يُطلق على العطاء القليل، إلا إن كان كل ما عند المعطي .

قدمت الأرملة ما عندها متكلة على العناية الإلهية التي تدبر كل أعوازاها، ولذلك نالت مدح المسيح على محبتها لله، وعلى ثقتها في عنايته .

اليونانيون يطلبون المسيح

«وَكَانَ أَنَسٌ يُونَانِيُونَ مِنَ الَّذِينَ صَعِدُوا لِيَسْجُدُوا فِي الْعِيدِ. فَتَقَدَّمَ هُوَ لَا إِلَى فِيلُبُّسَ الَّذِي مِنْ بَيْتِ صَيْدَا الْجَلِيلِ، وَسَلَّوَهُ: «يَا سَيِّدُ، نُرِيدُ أَنْ نَرَى يَسُوعَ» فَأَتَى فِيلُبُّسُ وَقَالَ لِأَنْدَرَاوُسَ، ثُمَّ قَالَ أَنْدَرَاوُسُ وَفِيلُبُّسُ لِيَسُوعَ. وَأَمَّا يَسُوعُ فَأَجَابَهُمَا: «قَدْ أَتَتِ السَّاعَةُ لِيَتِمَّجَدَ ابْنُ الْإِنْسَانِ. الْحَقُّ الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنْ لَمْ تَقَعْ حَبَّةُ الْحِنْطَةِ فِي الْأَرْضِ وَتَمُتَ فَهِيَ تَبْقَى وَحْدَهَا. وَلَكِنْ إِنْ مَاتَتْ تَأْتِي بِثَمَرٍ كَثِيرٍ. مَنْ يُحِبُّ نَفْسَهُ يَهْلِكُهَا، وَمَنْ يُبْغِضُ نَفْسَهُ فِي هَذَا الْعَالَمِ يَحْفَظُهَا إِلَى حَيَاةٍ أَبَدِيَّةٍ. إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَخْدُمُنِي فَلْيَتْبَعْني، وَحَيْثُ أَكُونُ أَنَا هُنَاكَ أَيْضاً يَكُونُ خَادِمِي. وَإِنْ كَانَ أَحَدٌ يَخْدُمُنِي يُكْرِمُهُ الْآبُ. الْآنَ نَفْسِي قَدْ اضْطَرَبَتْ. وَمَاذَا أَقُولُ؟ أَيُّهَا الْآبُ نَجِّنِي مِنْ هَذِهِ السَّاعَةِ. وَلَكِنْ لِأَجْلِ هَذَا أَتَيْتُ إِلَى هَذِهِ السَّاعَةِ. أَيُّهَا الْآبُ مَجِّدِ اسْمَكَ». فَجَاءَ صَوْتُ مِنَ السَّمَاءِ: «مَجَّدْتُ، وَأَمَجِّدُ أَيْضاً». فَالْجَمْعُ الَّذِي كَانَ وَاقِفاً وَسَمِعَ، قَالَ: «قَدْ حَدَّثَ رَعْدٌ». وَآخَرُونَ قَالُوا: «قَدْ كَلَّمَهُ مَلَكَ». أَجَابَ يَسُوعُ: «لَيْسَ مِنْ أَجْلِي صَارَ هَذَا الصَّوْتُ، بَلْ مِنْ أَجْلِكُمْ» (يوحنا ١٢: ٢٠-٣٠).

من المشرق البعيد أتى قوم، هم المجوس العلماء، ليروا المسيح في طفولته. والآن أتى قوم آخرون من المغرب البعيد من اليونان بلاد العلماء، ليروا المسيح في خاتمة خدمته. وقفوا في الدار الخارجية من الهيكل، وهي المكان المخصص لعبادة الله لغير اليهود، يقدمون العبادة للإله الواحد إله إسرائيل. وأبلغوا تلميذ المسيح فيلبس شوقهم لرؤية المسيح. وحدث فيلبس أندراوس، واتفقا أن يقولوا لسيدهما هذا الأمر .

رأى المسيح في أولئك اليونانيين مقدمةً للجمهور الذي لا يُحصى من الأمم المزمعين أن يطلبوه بالإيمان، فقال: «قَدْ أَتَتِ السَّاعَةُ لِيَتِمَّجَدَ ابْنُ الْإِنْسَانِ». سيتمجد بالرغم من رفض أمته له، فلا يكون هذا فشلاً له ولا لعمله .

التقى المسيح باليونانيين وقال لهم: «الحق الحق أقول لكم، إِنْ لَمْ تَقَعْ حَبَّةُ الْحِنْطَةِ فِي الْأَرْضِ وَتَمُتَ، فَهِيَ تَبْقَى وَحْدَهَا، وَلَكِنْ إِنْ مَاتَتْ تَأْتِي بِثَمَرٍ كَثِيرٍ. مَنْ يُحِبُّ نَفْسَهُ يَهْلِكُهَا، وَمَنْ يُبْغِضُ نَفْسَهُ فِي هَذَا الْعَالَمِ يَحْفَظُهَا إِلَى حَيَاةٍ أَبَدِيَّةٍ». كَلَّمَهُمْ عَنْ مَوْتِ هُوَ مُقَدِّمَةُ الْحَيَاةِ - هُوَ مَوْتُهُ الْفِدَائِي لِيُحْيِيَ نَفُوساً بَلَا عَدَدٍ. وَهُوَ مَوْتُ الْمُؤْمِنِ عَنِ الْخَطِيئَةِ لِيُحْيِيَ لِلْبَرِّ .

في هذا الوقت وفي هذا المقام اعترف المسيح أن نفسه اضطربت لشدة هول ساعة موته. لكن بما أنه قد أتى من السماء لأجل هذه الساعة، هل يمكن أن يطلب التخلُّص منها؟ كلا ثم كلا. لأن طلبه الوحيد هو أن يتمجد اسم الآب. فصلَّى أوجز صلواته وآخرها في الهيكل قائلاً: «أيها الآب مجد اسمك». فأكرم الآب هذا التسليم التام وإنكار الذات، وجاء صوت من السماء يقول: «مجدت وأمجد أيضاً.»

عندما غلب المسيح إبليس في البرية وقت التجربة، أرسل الآب له ملائكة جاءت وصارت تخدمه، لكن هذه الغلبة الجديدة على تجربة الاستغناء من الصليب وما يتعلق به أشهر من تجربة البرية، وهذه الساعة أعظم من تلك. فأسمع الآب صوته للمرة الثالثة في حياة المسيح على الأرض. أما أعداؤه فسمعوا صوتاً دون أن يفهموا الكلام، فقالوا: «قد حدث رعد». وأما مريدوه فسمعوا كلاماً، لكن غير مفهوم، فقالوا «كلمه ملاك». لكن المسيح الذي وحده فهم كلام الصوت، أكد لجميع السامعين أنه لم يكن لأجله بل لأجلهم، وإن لم يكن مفهوماً عندهم.. جاءهم صوت الله تأييداً لشخص المسيح وتعليمه، فبواسطة هذه الغلبة الجديدة أثبت المسيح مرة أخرى صلاحيته كمخلص العالم. وصلاحيته تضمن نجاحه، لأنه بارتفاعه على الصليب «يجذب إليه الجميع». وهذا الجاذب الفعال لا يزال يشغل بنجاح في العالم، فوق ما كان يتصوره بشر. يجذب الأفراد ويجذب الشعوب، ولا يتوقف عن عمله الخلاصي، إلى أن تُسمع الأصوات في السماء قائلة: «قَدْ صَارَتْ مَمَالِكُ الْعَالَمِ لِرَبِّنَا وَمَسِيحِهِ، فَسَيَمْلِكُ إِلَى أَبَدِ الْأَبَدِينَ» (رؤيا ١٥: ١١).

المسيح يعلن أموراً آتية

«وَفِيمَا هُوَ خَارِجٌ مِنَ الْهَيْكَلِ قَالَ لَهُ وَاحِدٌ مِنْ تَلَامِيذِهِ: «يَا مُعَلِّمُ، انْظُرْ مَا هَذِهِ الْحِجَارَةُ وَهَذِهِ الْأَبْنِيَّةُ؟» فَأَجَابَ يَسُوعُ: «أَتَنْتَظِرُ هَذِهِ الْأَبْنِيَّةَ الْعَظِيمَةَ؟ لَا يَتْرُكُ حَجَرٌ عَلَى حَجَرٍ لَا يُنْقَضُ». وَفِيمَا هُوَ جَالِسٌ عَلَى جَبَلِ الزَّيْتُونِ، تُجَاهَ الْهَيْكَلِ، سَأَلَهُ بُطْرُسُ وَيَعْقُوبُ وَيُوحَنَّا وَأَنْدَرَاوُسُ عَلَى انْفِرَادٍ: «قُلْ لَنَا مَتَى يَكُونُ هَذَا، وَمَا هِيَ الْعَلَامَةُ عِنْدَمَا يَتِمُّ جَمِيعُ هَذَا» (مرقس ١: ١٣-٤).

كان المسيح في طريقه إلى خارج الهيكل، حين لاحظ تلاميذه جمال البناء العظيم - وكان الملك هيرودس قد بنى هذا الهيكل وعمل فيه أبواباً مغطاة بالفضة والذهب، وكانت حجارته كبيرة جداً... فقد كان طول بعضها خمسة وأربعين ذراعاً، وعرضه ستة أذرع، وسُمكه خمسة أذرع. لقد كان بناء الهيكل عظيماً.

ولفت التلاميذ نظر المسيح إلى الحجارة والأبنية، فنظر إليها وقال: «هذه الأبنية العظيمة.. لا يترك حجر على حجر لا يُنْقَضُ.»

ومضى المسيح وتلاميذه إلى جبل الزيتون، وهناك سأله التلاميذ سؤالين: «قل لنا متى يكون هذا؟» «وما هي العلامة عندما يتم جميع هذا؟.»

كان التلاميذ يريدون أن يعرفوا الوقت، وكانوا يريدون أن يعرفوا بعض العلامات حتى يقدروا أن يميزوا الوقت. وبدأ المسيح يخبر عن حوادث مقبلة. تكلم المسيح أولاً عن خراب أورشليم، ثم تكلم عن مجيئه الثاني.

علامات كاذبة على خراب أورشليم

«فَأَجَابَهُمْ يَسُوعُ: «انْظُرُوا! لَا يُضِلُّكُمْ أَحَدٌ. فَإِنَّ كَثِيرِينَ سَيَأْتُونَ بِاسْمِي قَائِلِينَ: إِنِّي أَنَا هُوَ. وَيُضِلُّونَ كَثِيرِينَ. فَإِذَا سَمِعْتُمْ بِحُرُوبٍ وَبِأَحْبَارٍ حُرُوبٍ فَلَا تَرْتَاغُوا، لِأَنَّهَا لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ، وَلَكِنْ لَيْسَ الْمُنْتَهَى بَعْدُ. لِأَنَّهُ تَقُومُ أُمَّةٌ عَلَى أُمَّةٍ، وَمَمْلَكَةٌ عَلَى مَمْلَكَةٍ، وَتَكُونُ زَلَزَلٌ فِي أَمَاكِنَ، وَتَكُونُ مَجَاعَاتٌ وَاضْطِرَابَاتٌ. هَذِهِ مُبْتَدَأُ الْأَوْجَاعِ» (مرقس ٥: ١٣-٨).

سأل التلاميذ عن الوقت الذي يتم فيه خراب الهيكل، ثم سألوا عن علامة ذلك الخراب. وجابوب المسيح عن السؤال الثاني أولاً، فتكلم عن العلامات، وبدأ المسيح بالعلامات الكاذبة: «انظروا.. لا يضللكم أحد» هذه هي العلامات الكاذبة:

(1) العلامة الأولى الكاذبة على خراب أورشليم هي مجيء مضلين كثيرين (آية ٦)
«كثيرون سيأتون ويقولون إنهم المسيح، ويضلون كثيرين.. لا تصدِّقوهم.» وقد حدث فعلاً

قبل خراب اورشليم أن ظهر مسحاء كذبة، وقالوا لليهود إنهم سيخلصونهم من عبودية الرومان، ولكنهم كانوا كاذبين (اقرأ أعمال ٢١: ٣٨).

(2) والعلامة الثانية الكاذبة على خراب اورشليم هي الحروب (آية ٧). (وقد حدثت فعلاً حروب كثيرة بين اليهود وبين الشعوب الأخرى قبل خراب اورشليم. حدثت حرب بين يهود الإسكندرية وبين المصريين سنة ٣٨ بعد ولادة المسيح. وحرب في سلوكية مات فيها خمسون ألف يهودي).

(3) العلامة الثالثة الكاذبة على خراب اورشليم هي حدوث زلازل ومجاعات واضطرابات (آية ٧). وقد حدثت فعلاً زلازل في كريت وروما وأورشليم. كما حدثت مجاعات، منها التي تنبأ عنها أغابوس (أعمال ١١: ٢٨) كما حدثت اضطرابات بين اليهود والسامريين، وبين اليهود واليونانيين، مات فيها عشرون ألف يهودي. كل هذا حدث قبل خراب اورشليم. وكل هذا كان علامات كاذبة. وهي مبتدأ الأوجاع.

علامات صحيحة على خراب اورشليم

«فَانْظُرُوا إِلَى أَنْفُسِكُمْ. لِأَنَّكُمْ سَيَسْلَمُونَكُمْ إِلَى مَجَالِسَ، وَتُجْلَدُونَ فِي مَجَامِعَ، وَتُوقَفُونَ أَمَامَ وُلاَةِ وَمُلُوكٍ، مِنْ أَجْلِي، شَهَادَةً لَهُمْ. وَيَنْبَغِي أَنْ يُكْرَزَ أَوَّلًا بِالْإِنْجِيلِ فِي جَمِيعِ الْأُمَمِ. فَمَتَى سَأَفُوكُمْ لِيَسْلَمُوكُمْ، فَلَا تَعْتَنُوا مِنْ قَبْلِ بِمَا تَتَكَلَّمُونَ وَلَا تَهْتَمُّوا، بَلْ مَهْمَا أُعْطِيتُمْ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ فَبِذَلِكَ تَكَلَّمُوا، لِأَنْ لَسْتُمْ أَنْتُمْ الْمُتَكَلِّمِينَ بَلِ الرُّوحُ الْقُدُسُ. وَسَيَسْلَمُ الْأَخُ أَخَاهُ إِلَى الْمَوْتِ، وَالْأَبُ وَلَدَهُ، وَيَقُومُ الْأَوْلَادُ عَلَى وَالِدِيهِمْ وَيَقْتُلُونَهُمْ. وَتَكُونُونَ مُبْغَضِينَ مِنَ الْجَمِيعِ مِنْ أَجْلِ اسْمِي. وَلَكِنَّ الَّذِي يَصْبِرُ إِلَى الْمُنْتَهَى فَهَذَا يَخْلُصُ. فَمَتَى نَظَرْتُمْ «رِجْسَةَ الْخَرَابِ» الَّتِي قَالَتْ عَنْهَا دَانِيَالُ النَّبِيُّ، قَائِمَةً حَيْثُ لَا يَنْبَغِي - لِيَفْهَمَ الْقَارِئُ - فَحِينَئِذٍ لِيَهْرَبِ الَّذِينَ فِي الْيَهُودِيَّةِ إِلَى الْجِبَالِ، وَالَّذِي عَلَى السَّطْحِ فَلَا يَنْزِلُ إِلَى الْبَيْتِ وَلَا يَدْخُلُ لِيَأْخُذَ مِنْ بَيْتِهِ شَيْئًا، وَالَّذِي فِي الْحَقْلِ فَلَا يَرْجِعْ إِلَى الْوَرَاءِ لِيَأْخُذَ ثَوْبَهُ. وَوَيْلٌ لِلْحَبَالِيِّ وَالْمُرْضِعَاتِ فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ. وَصَلُّوا لِكَيْ لَا يَكُونَ هَرَبُكُمْ فِي شِتَاءٍ. لِأَنَّهُ يَكُونُ فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ ضَيْقٌ لَمْ يَكُنْ مِثْلَهُ مُنْذُ ابْتِدَاءِ الْخَلِيقَةِ الَّتِي خَلَقَهَا اللَّهُ إِلَى الْآنَ، وَلَنْ يَكُونَ. وَلَوْ لَمْ يَقْصِرِ الرَّبُّ تِلْكَ الْأَيَّامَ لَمْ يَخْلُصْ جَسَدٌ. وَلَكِنْ لِأَجْلِ الْمُخْتَارِينَ الَّذِينَ اخْتَارَهُمْ قَاصِرَ الْأَيَّامِ. حِينَئِذٍ إِنْ قَالَ لَكُمْ أَحَدٌ: هُوَذَا الْمَسِيحُ هُنَا أَوْ هُوَذَا هُنَاكَ فَلَا تُصَدِّقُوا. لِأَنَّهُ سَيَقُومُ مُسَحَّاءُ كَذِبَةً وَأَنْبِيَاءُ كَذِبَةً، وَيُعْطُونَ آيَاتٍ وَعَجَائِبَ، لِكَيْ يُضِلُّوا - لَوْ أَمَكْنَ - الْمُخْتَارِينَ أَيْضًا. فَانْظُرُوا أَنْتُمْ. هَا أَنَا قَدْ سَبَقْتُ وَأَخْبَرْتُكُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ» (مرقس ٩: ١٣-٢٣).

(1) العلامة الأولى على خراب اورشليم هي «اضطهاد وتبشير» (آيات 9-13) يقول المسيح لتلاميذه: «انظروا إلى نفوسكم». فهو يفتح عيونهم على الآلام التي ستأتي عليهم،

وعلى الأمجاد التي بعدها. أولها اضطهادات من الخارج، من مجالس اليهود ومجامعه، حيث يجلدونهم ويوقفونهم أمام ولاية وملوك، من أجل شهادة المسيح (آية ٩).

ويشجع المسيح تلاميذه حتى لا يقلقوا ويجهزوا الدفاع عن أنفسهم، لأن الروح سوف يتكلم فيهم، ويعطيهم الرد الصحيح (آية ١١).

ثم هناك اضطهادات من الداخل - من الإخوة والآباء (آية ١٢) - ويقول متى البشير: «حينئذٍ يعثر كثيرون، ويسلمون بعضهم بعضاً، ويغضون بعضهم بعضاً» (متى 24:10).
للاضطهاد والعذاب. ثم يقول المسيح لتلاميذه: «وتكونون مبغضين من الجميع من أجل اسمي» (آية ١٣).

ولكن في وسط الاضطهاد هناك تشجيع، هو أنه «ينبغي أن يُكرز أولاً بالإنجيل في جميع الأمم» (آية ١٠) فإن الاضطهاد سوف يوصل رسالة الإنجيل إلى جميع الأمم، وذلك قبل خراب أورشليم، ويقول بولس الرسول في كولويسي ١:٦ «الإنجيل الذي قد حضر إليكم كما في كل العالم أيضاً». ويقول في نفس الأصحاح في آية ٢٣ «الإنجيل الذي سمعتموه، المكروز به في كل الخليقة التي تحت السماء.»

إذاً فليتشجع التلاميذ، لأن اضطهادهم يوصل رسالة المسيح للجميع .

وهنا تشجيع آخر، هو أن «الذي يصبر إلى المنتهى فهذا يخلص» (آية ١٣) فالذي يصبر وسط هذه جميعها يخلص .

(2) العلامة الثانية الصحيحة على خراب أورشليم هي «رجسة الخراب» (آيات ١٤-٢٣) أي الرجسة التي هي سبب الخراب.. وقد تكلم عنها دانيال النبي في سفره) دانيال ٩:٢٧ ، ١١:٣١ ، ١٢:١١).

وقد قصد دانيال في نبوته أنتيوخس أبيفانيس الذي أبطل الذبيحة في الهيكل وأقام بدلها عبادة الأصنام، وذلك قبل ولادة المسيح بوقت طويل. والمسيح يقول إن شيئاً كهذا سيحدث مرة أخرى .

وقد قصد المسيح من القول «رجسة الخراب» أن عساكر الجيش الروماني سوف يدخلون أورشليم وهم يحملون تماثيل النسور، وتماثيل ملوكهم، وهم يعبدونها. وهكذا فإن تلك التماثيل والأصنام سوف تكون «حيث لا ينبغي» (آية ١٤).

ويقول لوقا البشير «أورشليم محاطة بجيوش» (لوقا ٢٠:٢١). فتكون رجسة الخراب هي جيش الرومان وتماثيلهم، حيث لا ينبغي أن تكون، أي في الهيكل المقدس والمدينة المقدسة .

هذه هي العلامة الصحيحة: أورشليم وحولها جيش الرومان الذي يريد أن يخربها، والمسيح يحذر تلاميذه من تلك الأيام، فالذي في اليهودية يجب أن يهرب بعيداً إلى الجبال، والذي على السطح يجب أن يهرب ولا ينزل إلى البيت ليأخذ حاجاته، والذي في الحقل يجب أن يهرب ولا يرجع إلى البيت ليأخذ ثوبه. أما الحبالى والمرضعات فسوف تكون ظروفهن قاسية صعبة، لأنهن يحملن حمل أنفسهن وحمل أطفالهن .

ويطلب المسيح من تلاميذه أن يصلُّوا حتى لا يكون ذلك كله في شتاء، ذلك لأن الضيق الذي سيأتي على أورشليم سيكون أعظم ضيق رآته المدينة .

وفي وسط هذه الصورة الحزينة يقدم المسيح تشجيعاً (آية ٢٠) هو أن تلك الأيام ستكون قصيرة، وقد جعلها الله قصيرة من أجل المختارين. على أن الضيق العظيم سيجعل الناس مستعدين أن يتعلَّقوا بأي قشة من أمل، فعندما يأتي الأنبياء الكذبة والمسحاء الكذبة ويقولون إن عندهم الخلاص، يثق الناس بهم، فيُضِلُّون كثيرين، ولو أمكن المختارون أيضاً .

وقد حدث كل الكلام الذي تنبأ المسيح به في خراب أورشليم .

فقد حاصر غالوس الروماني أورشليم سنة ٦٦ بعد ولادة المسيح، ثم حاصرها فسبسيانوس الروماني سنة ٦٨. وعند هذا الحصار الثاني هرب المسيحيون الذين عرفوا كلام المسيح، ولم يهلك منهم أحد. لقد فهم القارئ المسيحي نبوة المسيح، وهرب، فلم يصبه سوء، كما قال مرقس «ليفهم القارئ» (آية ١٤).

ثم حاصر تيطس الروماني أورشليم سنة ٧٠ حتى سقطت في يده، وقتل من اليهود مليون ونصف مليون يهودي تقريباً، وصلب منهم كثيرين حتى لم يكن مكان لصلبان أكثر. وهكذا تم كلام المسيح: «ضيق لم يكن مثله منذ ابتداء الخليقة» (آية ١٩).

وهُدم الهيكل وأشعل أحد العساكر فيه النار، فلم يَبْقَ فيه حجر على حجر لم يُنْقِض. وقد كانت مدة حصار أورشليم قصيرة. قصيرة بالنسبة للوقت الذي كانوا يحاصرون فيه المدن في ذلك الزمان. وقصيرة بالنسبة لمدينة أورشليم ومناعتها الطبيعية، لأنها كانت مبنية على جبل .

وقال تيطس الروماني الذي فتحها: «اللَّهُ أعطانا النجاح في حصار هذه المدينة» ورفض أن يأخذ مكافأة على نجاحه في حصار أورشليم وفتحها .

وقد كان ذلك النجاح والانتصار لتيطس من الله بسبب خطية اليهود. وفي ختام كلام المسيح عن خراب أورشليم قال: «انظروا أنتم، ها أنا قد سبقت وأخبرتكم بكل شيء» (آية ٢٣).

لقد أخبر المسيح تلاميذه بالحوادث المقبلة، وقد فهموا ونجوا من الضيق العظيم الذي جاء على اورشليم .

مجيء المسيح ثانية

«وَأَمَّا فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ بَعْدَ ذَلِكَ الضَّيْقِ، فَالشَّمْسُ تُظْلِمُ، وَالْقَمَرُ لَا يُعْطِي ضَوْءَهُ، وَنُجُومُ السَّمَاءِ تَتَساقَطُ، وَالْقَوَاتُ الَّتِي فِي السَّمَاوَاتِ تَتَزَعَرُ. وَحِينَئِذٍ يُبْصِرُونَ ابْنَ الْإِنْسَانِ آتِيًا فِي سَحَابٍ بِقُوَّةٍ كَثِيرَةٍ وَمَجْدٍ، فَيُرْسِلُ حِينَئِذٍ مَلَائِكَتَهُ وَيَجْمَعُ مُخْتَارِيهِ مِنَ الْأَرْبَعِ الرِّيَاحِ، مِنْ أَفْصَاءِ الْأَرْضِ إِلَى أَفْصَاءِ السَّمَاءِ» (مرقس 13:24-27)

بعد أن تكلم المسيح عن خراب اورشليم، بدأ يتكلم عن مجيئه ثانية .قال: «في تلك الأيام، بعد ذلك الضيق..» وهو يقصد خراب اورشليم، فإن ألف سنة عند الرب مثل يوم واحد. «الشمس تظلم، والقمر لا يعطي ضوءه، ونجوم السماء تتساقط، والقوات التي في السموات تتزعزع» (آيتا ٢٤ ، ٢٥) والمقصود بذلك أن عظماء سيسقطون، وملوكاً يتزعزعون .

كما أن المقصود أن السماوات تزول بضجيج محترقة ملتهبة، وأن العناصر تنحل وتذوب، وأن الأرض والمصنوعات التي فيها تحترق (اقرأ بطرس الثانية ٣:٨-١٣).

حينئذٍ يأتي ابن الإنسان في السحاب، بقوة كثيرة فيقيم الأموات ويدين العالم. ويأتي بمجد وعظمة، ويرسل الملائكة ليجمعوا مختاريه من كل أطراف الأرض ومن كل مكان يوجدون فيه .

زمن خراب اورشليم

«فَمِنْ شَجَرَةِ التِّينِ تَعَلَّمُوا الْمَثَل: مَتَى صَارَ غُصْنُهَا رَخْصًا وَأَخْرَجَتْ أَوْرَاقًا، تَعْلَمُونَ أَنَّ الصَّيْفَ قَرِيبٌ. هَكَذَا أَنْتُمْ أَيْضًا، مَتَى رَأَيْتُمْ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ صَائِرَةً، فَاعْلَمُوا أَنَّهُ قَرِيبٌ عَلَى الْأَبْوَابِ. الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ: لَا يَمْضِي هَذَا الْجِيلُ حَتَّى يَكُونَ هَذَا كُلُّهُ. السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ تَزُولَانِ، وَلَكِنَّ كَلَامِي لَا يَزُولُ. وَأَمَّا ذَلِكَ الْيَوْمُ وَتِلْكَ السَّاعَةُ فَلَا يَعْلَمُ بِهِمَا أَحَدٌ، وَلَا الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ فِي السَّمَاءِ، وَلَا الْإِبْنُ، إِلَّا الْآبُ. أَنْظَرُوا! اسْهَرُوا وَصَلُّوا، لِأَنَّكُمْ لَا تَعْلَمُونَ مَتَى يَكُونُ الْوَقْتُ» (مرقس ١٣:٢٨-٣٣).

عندما ذكر المسيح خراب هيكل اورشليم، سأله تلاميذه: «متى يكون هذا؟» ثم سأله: «وما هي العلامة التي عندها يتم جميع هذا؟» .

وجاوب المسيح على السؤال الثاني، فأخبرهم عن العلامات، ثم أجاب على السؤال الأول عن الوقت. قال المسيح: «حين تُخرج شجرة التين أوراقها، تعلمون أن الصيف قريب، وهكذا عندما ترون العلامات التي ذكرتها، تعلمون أن الوقت قريب على الأبواب.» لا

يمضي هذا الجيل حتى يكون هذا كله». وقد رأى كثيرون من المسيحيين خراب أورشليم في حياتهم. وأراد المسيح أن يؤكد الأمر لتلاميذه فقال: «السماء والأرض تزولان ولكن كلامي لا يزول.»

هنا يتكلم المسيح عن وقت خراب أورشليم بالتقريب. أما اليوم والساعة فإن أحداً لا يعرفهما إلا الأب السماوي. لا الملائكة في السماء، ولا ابن الإنسان.

ولا بد أن تسأل: كيف لا يعرف المسيح؟

والإجابة: إن المسيح هو الله الذي ظهر في الجسد (١ تيموثاوس ٣: ١٦) فهو إله كامل وإنسان كامل.. والمسيح ابن الإنسان قد أخلى نفسه وأخذ صورة عبد وصار في شبه الناس. وإذا أخلى نفسه لم يعرف اليوم ولا الساعة التي يكون فيها خراب أورشليم. المسيح الإله يعرف كل شيء، لكن المسيح الإنسان لا يعرف اليوم ولا الساعة.

ونحن أمام شخص المسيح نقف باحترام كامل، لأننا لا نعرف كيف يكون هذا، لكننا نؤمن به، لأنه هو بنفسه الذي قال هذا. «وَلَيْسَ أَحَدٌ يَقْدِرُ أَنْ يَقُولَ: «يَسُوعُ رَبُّ» إِلَّا بِالرُّوحِ الْقُدُسِ» (١ كورنثوس ١٢: ٣).

وختم المسيح كلامه للتلاميذ بقوله: «انظروا! اسهروا وصلوا لأنكم لا تعلمون متى يكون الوقت.»

اسهروا

«كَأَنَّمَا إِنْسَانٌ مُسَافِرٌ تَرَكَ بَيْتَهُ، وَأَعْطَى عَبِيدَهُ السُّلْطَانَ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ عَمَلَهُ، وَأَوْصَى الْبُوابَ أَنْ يَسْهَرَ. اسْهَرُوا إِذَا لَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ مَتَى يَأْتِي رَبُّ الْبَيْتِ، أَمَسَاءً، أَمْ نِصْفَ اللَّيْلِ، أَمْ صِيَاخَ الدِّيكِ، أَمْ صَبَاحاً. لِئَلَّا يَأْتِيَ بَعْتُهُ فَيَجِدَكُمْ نِيَاماً! وَمَا أَقُولُهُ لَكُمْ أَقُولُهُ لِلْجَمِيعِ: اسْهَرُوا» (مرقس ١٣: ٣٤-٣٧).

تكلم المسيح عن خراب أورشليم، ثم تكلم عن مجيئه ثانية. وفي وقت لا يعرفه أحد يتم ما تكلم عنه السيد المسيح. ولذلك فإن ما أقوله لكم أقوله للجميع: اسهروا.

ثم ضرب المسيح مثلاً: قال فيه: إن رجلاً مسافراً ترك بيته وأعطى عبيده أعمالاً، وأوصى البواب أن يسهر. والعبيد لا يعلمون متى يعود رب البيت.

كان الليل مقسوماً إلى أربعة أقسام، كل قسم منها ثلاث ساعات. القسم الأول هو المساء، والثاني هو نصف الليل، والثالث هو صياح الديك، والرابع هو الصباح. ولا يعلم العبيد في أي قسم من أقسام الليل يأتي سيدهم.

عزيزي القارئ، ما هو العمل الذي كلفك الله به؟ كيف تتصرف كزوج وكأب في البيت؟ ما هو سلوكك وسط زملائك في العمل؟ لا تنس أن «لكل واحد عمله» - ما هو العمل المطلوب منك، هل تعمله بأمانة؟ نحن اليوم نعلم أن المسيح آت، ولكننا لا نعلم اليوم ولا الساعة، ويقول لنا المسيح: «اسهروا» لأن العدو يحيط بكم من داخلكم ومن خارجكم. اسهروا لأن عليكم مسئولية في خدمة الله. اسهروا لأنه بعد سهر قصير يأتي ربكم ويكافئكم. أرجو أنه عندما يجيء المسيح يجدنا ساهرين .

مثل العذارى العشر

«يُشْبِهُ مَلَكُوثُ السَّمَاوَاتِ عَشْرَ عَذَارَى، أَخَذْنَ مَصَابِيحَهُنَّ وَخَرَجْنَ لِلِقَاءِ الْعَرِيسِ. وَكَانَ خَمْسٌ مِنْهُنَّ حَكِيمَاتٍ، وَخَمْسٌ جَاهِلَاتٍ. أَمَّا الْجَاهِلَاتُ فَأَخَذْنَ مَصَابِيحَهُنَّ وَلَمْ يَأْخُذْنَ مَعَهُنَّ زَيْتًا، وَأَمَّا الْحَكِيمَاتُ فَأَخَذْنَ زَيْتًا فِي أَنْبِيتِهِنَّ مَعَ مَصَابِيحِهِنَّ. وَفِيمَا أَبْطَأَ الْعَرِيسُ نَعَسْنَ جَمِيعُهُنَّ وَنَمْنَمْنَ. فِي نِصْفِ اللَّيْلِ صَارَ صُرَاخٌ: هُوَذَا الْعَرِيسُ مُقْبِلٌ، فَاخْرُجْنَ لِلِقَائِهِ! فَقَامَتِ جَمِيعُ أُولَئِكَ الْعَذَارَى وَأَصْلَحْنَ مَصَابِيحَهُنَّ. فَقَالَتِ الْجَاهِلَاتُ لِلْحَكِيمَاتِ: أَعْطِينَا مِنْ زَيْتِكُنَّ فَإِنَّ مَصَابِيحَنَا تَنْطَفِئُ. فَأَجَابَتِ الْحَكِيمَاتُ: لَعَلَّهُ لَا يَكْفِي لَنَا وَلَكُنَّ، بَلْ اذْهَبْنَ إِلَى الْبَاعَةِ وَابْتَغْنَ لَكُنَّ. وَفِيمَا هُنَّ ذَاهِبَاتٌ لِيَبْتَغْنَ جَاءَ الْعَرِيسُ، وَالْمُسْتَعِدَّاتُ دَخَلْنَ مَعَهُ إِلَى الْعُرْسِ، وَأَغْلَقَ الْبَابَ. أَحْيَرًا جَاءَتِ بَقِيَّةُ الْعَذَارَى أَيْضًا قَائِلَاتٍ: يَا سَيِّدُ، يَا سَيِّدُ، افْتَحْ لَنَا. فَأَجَابَ: الْحَقُّ أَقُولُ لَكُنَّ: إِنِّي مَا أَعْرِفُكُمْ. فَاسْهَرُوا إِذَا لَأَتَكُمْ لَا تَعْرِفُونَ الْيَوْمَ وَلَا السَّاعَةَ الَّتِي يَأْتِي فِيهَا ابْنُ الْإِنْسَانِ» (متى ١٣: ٢٥-١٣).

ثم روى المسيح مثل العشر عذارى المكرر فيه تشبيهه بعريس لم يأت عرسه بعد، وينقسم المشتركون في عرسه قسمين: قسم مستعد وقسم غير مستعد. ظن غير المستعدين أنهم يقدر أن يستعينوا عند مجيء العريس بالمستعدين، أو أنهم يستعدون بعد مجيئه. لكن لما حضر العريس وابتدأ العرس، عرفوا خطأهم في الفكرتين. ولما طلبوا الرحمة أجابهم السيد بالكلام المخيف المحزن أن العريس لا يعرفهم ولهذا لا يفتح لهم .

ويقصد المسيح بهذا المثل ضرورة الاستعداد لمجيئه الثاني ويوم الحساب، وبطلان زعم الذين يتصورون أن صلاح القديسين يفيض فيساعد غيرهم على نيل الغفران والدخول إلى السماء. كما أن المثل يقطع رجاء الذين يتصورون أن الرحمة الإلهية نحو الخطاة تمتد إلى ما وراء القبر .

مثل الوزنات

«وَكَاثَمَا إِنْسَانٌ مُسَافِرٌ دَعَا عَبِيدَهُ وَسَلَّمَهُمْ أَمْوَالَهُ، فَأَعْطَى وَاحِدًا خَمْسَ وَزَنَاتٍ، وَآخَرَ وَزَنْتَيْنِ، وَآخَرَ وَزَنَةً - كُلٌّ وَاحِدٍ عَلَى قَدْرِ طَاقَتِهِ. وَسَافَرُوا لِلْوَقْتِ. فَمَضَى الَّذِي أَخَذَ الْخَمْسَ

وَزَنَاتٍ وَتَاجَرَ بِهَا، فَرَبِحَ خَمْسَ وَزَنَاتٍ أُخَرَ. وَهَكَذَا الَّذِي أَخَذَ الْوَزْنَتَيْنِ، رَبِحَ أَيْضاً وَزْنَتَيْنِ أُخَرَيْنِ. وَأَمَّا الَّذِي أَخَذَ الْوَزْنَ فَامْضَى وَحَفَرَ فِي الْأَرْضِ وَأَخْفَى فِضَّةَ سَيِّدِهِ. وَبَعْدَ زَمَانٍ طَوِيلٍ أَتَى سَيِّدُ أُولَئِكَ الْعَبِيدِ وَحَاسَبَهُمْ. فَجَاءَ الَّذِي أَخَذَ الْخَمْسَ وَزَنَاتٍ وَقَدَّمَ خَمْسَ وَزَنَاتٍ أُخَرَ قَائِلاً: يَا سَيِّدُ، خَمْسَ وَزَنَاتٍ سَلَّمْتَنِي. هُوَذَا خَمْسُ وَزَنَاتٍ أُخَرَ رَبِحْتُهَا فَوْقَهَا. فَقَالَ لَهُ سَيِّدُهُ: نِعِمَّا أَيُّهَا الْعَبْدُ الصَّالِحُ وَالْأَمِينُ. كُنْتَ أَمِيناً فِي الْقَلِيلِ فَأَقِيمَكَ عَلَى الْكَثِيرِ. أَدْخُلْ إِلَى فَرَحِ سَيِّدِكَ. ثُمَّ جَاءَ الَّذِي أَخَذَ الْوَزْنَتَيْنِ وَقَالَ: يَا سَيِّدُ، وَزْنَتَيْنِ سَلَّمْتَنِي. هُوَذَا وَزْنَتَانِ أُخَرَيَانِ رَبِحْتُهُمَا فَوْقَهُمَا. قَالَ لَهُ سَيِّدُهُ: نِعِمَّا أَيُّهَا الْعَبْدُ الصَّالِحُ الْأَمِينُ. كُنْتَ أَمِيناً فِي الْقَلِيلِ فَأَقِيمَكَ عَلَى الْكَثِيرِ. أَدْخُلْ إِلَى فَرَحِ سَيِّدِكَ. ثُمَّ جَاءَ أَيْضاً الَّذِي أَخَذَ الْوَزْنَ الْوَاحِدَةَ وَقَالَ: يَا سَيِّدُ، عَرَفْتُ أَنَّكَ إِنْسَانٌ قَاسٍ، تَحْصُدُ حَيْثُ لَمْ تَزْرَعْ وَتَجْمَعُ مِنْ حَيْثُ لَمْ تَبْذُرْ. فَخِفْتُ وَمَضَيْتُ وَأَخْفَيْتُ وَزْنَتَكَ فِي الْأَرْضِ. هُوَذَا الَّذِي لَكَ. فَأَجَابَ سَيِّدُهُ: أَيُّهَا الْعَبْدُ الشَّرِيرُ وَالْكَسَلَانُ، عَرَفْتُ أَنِّي أَحْصَدُ حَيْثُ لَمْ أَرْزَعْ، وَأَجْمَعُ مِنْ حَيْثُ لَمْ أَبْذُرْ، فَكَانَ يَنْبَغِي أَنْ تَضَعَ فِضَّتِي عِنْدَ الصَّيَّارِفَةِ، فَعِنْدَ مَجِيئِي كُنْتُ أَخْذُ الَّذِي لِي مَعَ رَبٍّ. فَخُذُوا مِنْهُ الْوَزْنَ وَأَعْطُواهَا لِلَّذِي لَهُ الْعَشْرُ وَزَنَاتٍ. لِأَنَّ كُلَّ مَنْ لَهُ يُعْطَى فَيَزِدَادُ، وَمَنْ لَيْسَ لَهُ فَالَّذِي عِنْدَهُ يُؤْخَذُ مِنْهُ. وَالْعَبْدُ الْبَطَالُ اطْرَحُوهُ إِلَى الظُّلْمَةِ الْخَارِجِيَّةِ، هُنَاكَ يَكُونُ الْبُكَاءُ وَصُرِيرُ الْأَسْنَانِ) «متى ١٤: ٢٥-٣٠».

أما المثل الثاني فيُسمَّى مثل الوزنات، وهو يوضح أن مواهب الله للناس متفاوتة. لكن عندما يتساوى أصحابها في اجتهادهم وأمانتهم في استعمالها، يكون جزاؤهم متساوياً. فالذي أكسب سيده وزنتين مدحه سيده بذات الكلام الذي مدح به الذي أكسبه خمس وزنات. أما من يهمل ما وُهب له فيكون كأن لا شيء له. إنه لم يختلس ولم يفعل شراً ولكنه أهمل، فكان نصيبه قول الديان: «والعبد البطل اطرحوه إلى الظلمة الخارجية. هناك يكون البكاء وصرير الأسنان». لا ريب أن أعظم ما يهبه الله للإنسان هو الخلاص الأبدي، فالدينونة العظمى، وأشد البكاء وصرير الأسنان، تكون لمن يهمل هذه الهبة الفائقة التي اشتراها المسيح بموته على الصليب.

يوم الدينونة العظيم

«وَمَتَى جَاءَ ابْنُ الْإِنْسَانِ فِي مَجْدِهِ وَجَمِيعُ الْمَلَائِكَةِ الْقِدِّيسِينَ مَعَهُ، فَحِينَئِذٍ يَجْلِسُ عَلَى كُرْسِيِّ مَجْدِهِ. وَيَجْتَمِعُ أَمَامَهُ جَمِيعُ الشُّعُوبِ، فَيُمَيَّزُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ كَمَا يُمَيَّزُ الرَّاعِي الْخِرَافَ مِنَ الْجِدَاءِ، فَيَقِيمُ الْخِرَافَ عَنْ يَمِينِهِ وَالْجِدَاءَ عَنْ الْيَسَارِ. ثُمَّ يَقُولُ الْمَلِكُ لِلَّذِينَ عَنْ يَمِينِهِ: تَعَالَوْا يَا مُبَارَكِي أَبِي، رَثُوا الْمُلُكُوتَ الْمُعَدَّ لَكُمْ مِنْذُ تَأْسِيسِ الْعَالَمِ. لِأَنِّي جُعْتُ فَأَطْعَمْتُمُونِي. عَطِشْتُ فَسَقَيْتُمُونِي. كُنْتُ غَرِيباً فَأَوْثَقْتُمُونِي. غُرِياناً فَكَسَوْتُمُونِي. مَرِيضاً فَرَزَقْتُمُونِي. مَحْبُوساً فَأَتَيْتُمُونِي إِلَيَّ. فَيَجِيبُهُ الْأَبْرَارُ حِينَئِذٍ قَائِلِينَ: يَا رَبُّ، مَتَى رَأَيْنَاكَ جَائِعاً فَأَطْعَمْنَاكَ، أَوْ عَطِشْنَا فَسَقَيْنَاكَ؟ وَمَتَى رَأَيْنَاكَ غَرِيباً فَأَوْثَقْنَاكَ، أَوْ غُرِياناً فَكَسَوْنَاكَ؟ وَمَتَى رَأَيْنَاكَ مَرِيضاً

أَوْ مَحْبُوساً فَأَتَيْنَا إِلَيْكَ؟ فَيَجِيبُ الْمَلِكُ وَيَقُولُ لَهُمْ: الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ: بِمَا أَنْتُمْ فَعَلْتُمُوهُ بِأَخِي إِخْوَتِي هَؤُلَاءِ الْأَصَاغِرِ، فَبِي فَعَلْتُمْ .

«ثُمَّ يَقُولُ أَيْضاً لِلَّذِينَ عَنِ الْيَسَارِ: اذْهَبُوا عَنِّي يَا مَلَاعِينُ إِلَى النَّارِ الْأَبَدِيَّةِ الْمُعَدَّةِ لِإِبْلِيسَ وَمَلَائِكَتِهِ، لِأَنِّي جُعْتُ فَلَمْ تُطْعِمُونِي. عَطِشْتُ فَلَمْ تَسْقُونِي. كُنْتُ غَرِيباً فَلَمْ تَأْوِني. عُرْيَاناً فَلَمْ تَكْسُونِي. مَرِيضاً وَمَحْبُوساً فَلَمْ تَرْوُونِي. حِينَئِذٍ يُجِيبُونَهُ هُمْ أَيْضاً قَائِلِينَ: يَارَبُّ مَتَى رَأَيْنَاكَ جَائِعاً أَوْ عَطْشَاناً أَوْ غَرِيباً أَوْ عُرْيَاناً أَوْ مَرِيضاً أَوْ مَحْبُوساً وَلَمْ نَخْدِمَكَ؟ فَيُجِيبُهُمْ: الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ: بِمَا أَنْتُمْ لَمْ تَفْعَلُوهُ بِأَخِي هَؤُلَاءِ الْأَصَاغِرِ فَبِي لَمْ تَفْعَلُوا. فَيَمْضِي هَؤُلَاءِ إِلَى عَذَابٍ أَبَدِيٍّ وَالْآخَرُونَ إِلَى حَيَاةٍ أَبَدِيَّةٍ» (متى ٢٥: ٣١-٤٦).

كانت خاتمة هذا الخطاب للتلاميذ على جبل الزيتون مؤثرة ومفيدة للغاية، إذ صَوَّرَ المسيح فيها اجتماع البشر في يوم الدين، عندما يَتَّخِذُ المخلص الرؤوف صفته كالديان، ويجيء في مجده وجميع الملائكة القديسين معه، ويجلس على كرسي مجده. حينئذٍ يجتمع أمامه جميع الشعوب، وكالراعي الصالح الذي يعرف خاصته، يفرز الخراف فيضعها عن يمينه في مقام الرضى والإكرام، ويضع الجداء (الذين ليسوا خرافه) (عن يساره في مقام الرفض والإبعاد، ولا يجد الذين على اليسار لنفوسهم عذراً، عندما يرون المسيح الذي يرثي لضعفات البشر، لأنه جَرَّبَ مثلهم، والذي في حبه المتناهي مات عنهم فدية، لأنهم لم يلتجئوا إليه للخلاص .

ثم يعلن هذا الديان النصيب الصالح الذي للخراف، وهو الميراث المُعَدَّ لهم منذ تأسيس العالم، لأنهم مباركوا أبيه الذين أعدده لهم. ويعلن نصيب الجداء الذي لم يعدده لهم، وهو النار الأبدية التي أعدها لإبليس وملائكته. لقد اختاروا الانقياد إلى إبليس وملائكته رغم إرادة الله والوسائط التي أعدّها لهم لأجل الخلاص، فلا عذر لهم إن أرسلهم الله إلى محل إبليس، الرئيس الذي تبعوه في حياتهم الأرضية، وفضّلوا طاعته على طاعة المخلص الجالس على كرسي الدينونة. أما السبب الأصلي للدينونة فهو عدم إيمانهم به. ولأنهم لم يؤمنوا ولم يعملوا ما يطلبه من تابعيه، وقد أهملوا العمل الخصوصي الذي يذكرهم به، وهو معاملة البؤساء ولا سيما أتباعه منهم، الذين دعاهم «إخوتي هَؤُلَاءِ الْأَصَاغِرِ» .

في هذا المثل يوضّح المسيح أن إطعام الجائعين وكساء العراة وافتقاد المسجونين وإضافة الغرباء وزيارة المرضى، وأمثال ذلك من الإحسان الذي يفعله الإنسان حباً للمسيح، يكون كأنه لذات شخص المسيح، فيُثَابَرُ الفاعل، ليس على ما فعل فقط، بل على قصده في فعله. وأما الذي لعدم حبه للمسيح لا يفعل هذا الإحسان، فكأنه منعه ليس عن المساكين بل عن المسيح ذاته. وفيه أيضاً يبيّن المسيح أن الخير الذي يهمله الإنسان، وليس فقط الشر الذي يعمل، يوقعه في الهلاك. وهذه من أصعب الدروس، وقليلون جداً هم الذين يحفظونها .

استسلم يهوذا الإسخريوطي تماماً لقيادة إبليس الذي لم يفلقه ولو قليلاً إلى أن أوصله إلى النار المُعدّة لإبليس وجنوده. ظهر انفصال يهوذا القلبي عن المسيح قبل هذا الوقت بثلاثة أيام لما اعترض على مريم إذ دهنت قدمي المسيح بالطيب في بيت عنيا، ولم ينتبه لذلك باقي التلاميذ لسلامة قلوبهم. ويُرجّح أنه بينما كان المسيح يكلم التلاميذ على جبل الزيتون، دبّر يهوذا حُجّة معقولة ليتركهم ويعود إلى المدينة ليسعى بما وسوس إليه إبليس الشرير. نتصوّر أن ضميره حاربه جداً وهو يفكر كيف يستخدم مقاصد اليهود ضد المسيح وسيلة ليربح أولاً مالاً، وثانياً صداقتهم للحصول على معيشتهم، عندما تتوقّف إعالتهم من إيرادات الصندوق الذي كان يختلس منه. ألم ينتبه إلى تصريحات المسيح بأن ملكوته ليس زمنياً؟ وبأن نصيب تابعيه هو الخسائر والمقاومات والإهانات والاضطهادات المهينة؟ أولم ينتبه أيضاً إلى تكرار المسيح عبارات تدلّ على معرفته أسرارهم؟ فما دام لا ميل له للتوبة والتقوى، لا بد أن هذه العوامل تزيد انفصاله عن المسيح. حينئذٍ دخل الشيطان فيه، وترأس على قلبه.

شيوخ اليهود يتآمرون

«وَلَمَّا اكْمَلَ يَسُوعُ هَذِهِ الْأَقْوَالَ كُلَّهَا قَالَ لِتَلَامِيذِهِ: «تَعْلَمُونَ أَنَّهُ بَعْدَ يَوْمَيْنِ يَكُونُ الْفِصْحُ، وَابْنُ الْإِنْسَانِ يُسَلَّمُ لِيُصَلَّبَ». حِينَئِذٍ اجْتَمَعَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَالْكَتَبَةُ وَشُيُوخُ الشَّعْبِ إِلَى دَارِ رَئِيسِ الْكَهَنَةِ الَّذِي يُدْعَى قَيَافَا، وَتَشَاوَرُوا لِكَيْ يُمَسِّكُوا يَسُوعَ بِمَكْرٍ وَيَقْتُلُوهُ. وَلَكِنَّهُمْ قَالُوا: «لَيْسَ فِي الْعِيدِ لِئَلَّا يَكُونَ شَعْبٌ فِي الشَّعْبِ.»

حِينَئِذٍ ذَهَبَ وَاحِدٌ مِنَ الْاِثْنَيْ عَشَرَ، الَّذِي يُدْعَى يَهُوذَا الْإِسْخَرِيُوطِيُّ، إِلَى رُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ وَقَالَ: «مَاذَا تُرِيدُونَ أَنْ تُعْطُونِي وَأَنَا أَسْلِمُهُ إِلَيْكُمْ؟» فَجَعَلُوا لَهُ ثَلَاثِينَ مِنَ الْفِصَّةِ. وَمِنْ ذَلِكَ الْوَقْتِ كَانَ يَطْلُبُ فُرْصَةً لِيُسَلِّمَهُ» (متى ١٦: ٥-١٤، ١٦-١٧).

ترأس الشيطان اجتماعاً في ذلك اليوم في دار قيافا رئيس الكهنة حضره رؤساء الكهنة والكتبة وشيوخ الشعب ليقرروا بعد البحث كيف يقبضون على المسيح ليقتلوه، لأنهم لم يقدروا أن يحتملوا منه أكثر، وأرادوا أن يقبضوا عليه قبل العيد إن أمكن. لكن العقلاء بينهم أدركوا أن الشعب أقوى منهم ولا يجاريهم في قصدهم. فاقنعوا الآخرين أن يصبروا إلى أن يمضي العيد وتنصرف الجماهير ولا سيما مواطنيه الجليليين. هذا ما قرره مجلس السنهدريم. وأما مجلس السماء فقرر منذ الأزل أن يُذبح حملُ الله في عيد الفصح الذي رُسم إشارة لهذه الضحية، فيكون قرار مجلس السنهدريم المخالف باطلاً.

وعد يهوذا الرؤساء أن يسهّل عليهم القبض على المسيح سراً قبل العيد، لقاء مبلغ معين. ولا شك أن الرؤساء عاملوه أولاً بتحفظ، لأنهم استبعدوا أن يسلمه أحد تلاميذه، فطلبوا من يهوذا براهين كافية تؤكد إخلاصه لهم. فلما طلب منهم مالاً أظهر كمال خيانتهم للمسيح.

ولربما استبشر شيوخ اليهود بمجيء يهوذا أنهم قريباً ينجحون في أن يحذو رفقاء يهوذا
حذوه ويتركوا المسيح. وفرحوا جداً بوعد يهوذا أنه يمكّنهم من القبض عليه سراً،
فيسرعون بتسليمه للحكومة الرومانية. ولا خوف بعدئذ من انتصار الشعب له .

ولا نتعجب إن كانت الأجرة التي اتفقوا عليها مع يهوذا زهيدة، لأن الرؤساء لم يكونوا
محتاجين لمساعدة يهوذا لهم بعد العيد، فيكون أنهم دفعوا ليهوذا أجرة الإسراع فقط في
القبض على المسيح. وكان على يهوذا أن يراقب وقتاً يكون فيه المسيح منفرداً لكي يمسكوه
بسهولة. وقد قبل يهوذا هذا المبلغ الضئيل لأنه ظن أن لا تأثير لعمله، وقد استفاق على
غلطه استفاقةً مريعةً كما سنرى

المسيح يرسم فريضة العشاء الرباني

عاد المسيح إلى بيت عنيا في المساء يرافقه تلاميذه، ويهوذا معهم. وقضى يومي الأربعاء والخميس هناك، فلم يتيسر للخائن أن يوفي بوعده للرؤساء سريعاً. ولعلمهم تصوّروا أنه خابروهم امتحاناً، وأنه لا ينوي أن يوفي بوعده. أما هو فاستسلم أكثر للطمع والرياء في وظيفته الجديدة كجاسوس على سيده وولي نعمته، وأخذ يراقب فرصة مناسبة ليسلمه. وهكذا انقضى يوم الثلاثاء. أما يوم الأربعاء فلم يذكر الكتاب عمّا جرى فيه شيئاً. لكن يُرجّح أن المسيح وتلاميذه قضوه في هدوء في بيت عنيا .

ولما أشرقت الشمس صباح الخميس كان قد بقي للمسيح ليل واحد قبل صلبه، قضاه في العشاء الفصحى ثم الرباني، والصلاة في البستان. ثم تسليم يهوذا له، ومحاكمته محاكمة غير قانونية في دار رئيس الكهنة. ثم أعقب ذلك الليل ليلان وجسده الكريم في القبر، وبعد ذلك جسد القيامة الممجّد الذي لا يحتاج إلى نوم .

«وَفِي أَوَّلِ أَيَّامِ الْفِطِيرِ تَقَدَّمَ التَّلَامِيذُ إِلَى يَسُوعَ قَائِلِينَ لَهُ: «أَيْنَ تُرِيدُ أَنْ نُعِدَّ لَكَ لِتَأْكُلَ الْفِصْحَ؟» فَقَالَ: «اذْهَبُوا إِلَى الْمَدِينَةِ، إِلَى فُلَانٍ وَقُولُوا لَهُ: الْمُعَلِّمُ يَقُولُ إِنَّ وَقْتِي قَرِيبٌ. عِنْدَكَ أَصْنَعُ الْفِصْحَ مَعَ تَلَامِيذِي». فَفَعَلَ التَّلَامِيذُ كَمَا أَمَرَهُمْ يَسُوعُ وَأَعَدُّوا الْفِصْحَ» (متى ١٧: ٢٦-١٩).

لم يُظهر المسيح صباح هذا الخميس استعداداً للذهاب إلى أورشليم. وربما استنتج أنه يريد أن يأكل الفصح في بيت عنيا. وكان هذا الخميس الواقع في اليوم الرابع عشر من الشهر القمري - اليوم الأول في عيد الفطير، وفيه كانوا يجهّزون كل ما يلزم لعشاء الفصح في مسائه. لكن كانت تهيئة الخروف والأعشاب المرّة والخمر وأنية الاغتسال وسائر تفاصيل العشاء، تستغرق وقتاً ليس بقليل، لذلك لم يصبر التلاميذ، بل تقدموا للمسيح وسألوه: أين يُعدّون العشاء. وكان جوابه أن أرسل التلاميذ بطرس ويوحنا بتعليمات غامضة تحجب عن الإسخريوطي معرفة المكان. وتنبأ المسيح للتلاميذ أنهما سيصادفان في المدينة منظراً غير عادي، رجلاً يحمل جرة ماء في الطريق. وأفهمهما أن يقولوا لصاحب البيت الذي يدخله هذا الرجل: «يقول لك المعلم إن وقتي قريب. عندك أصنع الفصح مع تلاميذي». فمضيا ووجدا فعلاً كما قال لهما. فأخذهما هذا الرجل الكريم إلى عليّة كبيرة مفروشة جاهزة، لأن يهود أورشليم كانوا يجهّزون كل ما يمكنهم في منازلهم، للمسافرين الغرباء ليلة عشاء الفصح. فهناك أعدّا كل شيء حسب شريعة موسى .

المسيح يغسل أرجل تلاميذه

«أَمَّا يَسُوعُ قَبْلَ عِيدِ الْفَصْحِ، وَهُوَ عَالِمٌ أَنَّ سَاعَتَهُ قَدْ جَاءَتْ لِيَنْتَقِلَ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ إِلَى الْآبِ، إِذْ كَانَ قَدْ أَحَبَّ خَاصَّتَهُ الَّذِينَ فِي الْعَالَمِ، أَحَبَّهُمْ إِلَى الْمُنْتَهَى. فَحِينَ كَانَ الْعِشَاءُ، وَقَدْ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي قَلْبِ يَهُوذَا سِمْعَانَ الْإِسْخَرْيُوطِيَّ أَنْ يُسَلِّمَهُ، يَسُوعُ وَهُوَ عَالِمٌ أَنَّ الْآبَ قَدْ دَفَعَ كُلَّ شَيْءٍ إِلَى يَدَيْهِ، وَأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَرَجَ، وَإِلَى اللَّهِ يَمْضِي، قَامَ عَنِ الْعِشَاءِ، وَخَلَعَ ثِيَابَهُ، وَأَخَذَ مَنَشَفَةً وَاتَّزَرَ بِهَا، ثُمَّ صَبَّ مَاءً فِي مِغْسَلٍ، وَابْتَدَأَ يَغْسِلُ أَرْجُلَ التَّلَامِيذِ وَيَمْسَحُهَا بِالْمِنَشَفَةِ الَّتِي كَانَ مُتَّزِرًا بِهَا. فَجَاءَ إِلَى سِمْعَانَ بُطْرُسَ. فَقَالَ لَهُ ذَلِكَ: «يَا سَيِّدُ، أَنْتَ تَغْسِلُ رِجْلِي!» أَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُ: «أَلَسْتَ تَعْلَمُ أَنْتَ الْآنَ مَا أَنَا أَصْنَعُ، وَلَكِنَّكَ سَتَفْهَمُ فِيمَا بَعْدُ». قَالَ لَهُ بُطْرُسُ: «لَنْ تَغْسِلَ رِجْلِي أَبَدًا!» أَجَابَهُ يَسُوعُ: «إِنْ كُنْتُ لَا أَغْسِلُكَ فَلَيْسَ لَكَ مَعِيَ نَصِيبٌ». قَالَ لَهُ سِمْعَانُ بُطْرُسُ: «يَا سَيِّدُ، لَيْسَ رِجْلِي فَقَطْ بَلْ أَيْضًا يَدَيَّ وَرَأْسِي». قَالَ لَهُ يَسُوعُ: «الَّذِي قَدْ اغْتَسَلَ لَيْسَ لَهُ حَاجَةٌ إِلَّا إِلَى غَسْلِ رِجْلَيْهِ، بَلْ هُوَ طَاهِرٌ كُلُّهُ. وَأَنْتُمْ طَاهِرُونَ وَلَكِنْ لَيْسَ كُلُّكُمْ». لِأَنَّهُ عَرَفَ مُسَلِّمَهُ، لِذَلِكَ قَالَ: «أَلَسْتُ كُلُّكُمْ طَاهِرِينَ» (يوحنا ١٣: ١-١١).

ولما صار المساء نزل المسيح وتلاميذه العشرة إلى عليية الفصح وانضموا إلى بطرس ويوحنا. وكان عليهم قبل أن يتكئوا حول المائدة أن يغسلوا أرجلهم من غبار السفر، لأن النعال التي كانوا يلبسونها لا تغطي إلا إخمص القدم. وكان الخدم عادة يؤدون هذه الخدمة، وحيث لا يوجد خدم كان التلاميذ يغسلون بعضهم أرجل بعض. لكن بما أن هذا العشاء رسمي، كما أنه عظيم، أخذ كل واحد منهم يستصعب القيام بهذه الخدمة لرفقائه، كأنهم أرفع منه مقاماً، لذلك تشاجروا في من هو أعظم بينهم، ليعرفوا من يجب أن يخدمهم.

يُرَجَّحُ أن البادئ والمحرك الأعظم في هذه المشاجرة كان الإسخريوطي، الذي يطلب لنفسه الرفعة بحجة أنه من اليهودية، وبيده أمانة الصندوق، فإن هذه المشاجرة بدأت «حين ألقى الشيطان في قلب يهوذا الإسخريوطي أن يسلمه».

اهتم البشير يوحنا أن يذكر قبل هذا الخبر أن المسيح كان في تلك الساعة يعلم أن الآب قد دفع كل شيء إلى يده، وأنه من عند الله خرج وإلى الله يمضي. فهذه المعرفة الحقيقية بمقامه العظيم، تزيد قيمة مثال التواضع الذي يقدمه لنا. أهمل الإثنا عشر غَسْلَ الأرجل، فنهض المسيح من مكانه بعد أن اتكأوا حول مائدة العشاء، وخلع الرداء الذي يميزه كمعلم، واتَّزَرَ بمنشفة كالعبيد، وأتى بالمغسل والماء، وأخذ يغسل أرجل التلاميذ الذين أبوا أن يغسل الواحد للآخر. لكن لئلا يُؤخذ فعله في هذه الساعة كأنه عن جِدَّة غضب، ذكر البشير أن المسيح أحبَّ خاصته الذين في العالم حتى المنتهى، أي أن عاطفة الحب العظيم الثابت، وليس انفعال الغضب الوقتي هي التي حرَّكته ليغسل أرجلهم، ليعطيهم من نفسه مثلاً. وقد

بقي هذا الحب إلى منتهى وجوده معهم في الجسد، بالرغم مما أظهره من التقصير والسقوط. وإثباتاً لهذه الحقائق، غسل أيضاً رجلي يهوذا الخائن المتربص ليسلمه للقتل. ألم يكن هذا العمل من الوسائل التي استعملها هذا المخلص العظيم مع يهوذا الشرير ليلين قلبه القاسي ويجذبه إلى التوبة والصلاح؟

يقول القديس يوحنا فم الذهب إن المسيح ابتدأ بيهوذا في غسل الأرجل، لأنه الأقرب إليه في المتكأ عن شماله، ويُرجَّح أن بطرس كان قدام يوحنا وعن يمين المسيح، فيكون المسيح قد غسل أرجل الجميع ما عدا يوحنا قبل وصوله إلى بطرس. فلما جاء دور بطرس اعترض بصورة المستفهم المستغرب، ولم يقتنع لما أجابه المسيح بأنه سيفهم فيما بعد ما لا يفهمه الآن، فاعترض من جديد بقوة وقال: «لن تغسل رجلي أبداً». فهو يخطئ سيده، ويقبح في نفس الوقت عمل رفقائه الذين قد سلّموا له بهذا العمل، كأنهم أقل منه في الإدراك واللياقة. فقال جزاءه في كلام المسيح القوي: «إِنْ كُنْتُ لَا أَغْسِلُكَ فَلَيْسَ لَكَ مَعِيَ نَصِيبٌ» - وهنا تهوّر بطرس وطالب المسيح بأكثر مما قصد المسيح أن يفعله، لأنه قال: «ليس رجلي فقط بل أيضاً يدي ورأسي». سلّم بطرس، لكن ليس تسليم التواضع، بل كان تواضعه من باب ما يُعرف بكبرياء التواضع، لأن التواضع الحقيقي يجعل صاحبه يهمل ذاته، ويفكر في غيره. وقد أصلح المسيح خطأ بطرس وبيّن له أن لا حاجة لغسل يديه ورأسه.

في هذا الجواب تعليم في التطهير من الخطية، فمن يحصل مرة على الغفران عندما يتوب ويؤمن، لا يحتاج إلى إعادته فيما بعد، لأن اسمه كُتب في سفر الحياة، وقد تبناؤه الروح الإلهي، وصار من أولاد الله. لكن بما أنه لا يخلو تماماً من السقوط في بعض الزلات، عجزاً أو سهواً، يحتاج إلى غفرانٍ يختلف عن الأول، كما يختلف غفران خطية الابن عن غفران خطية العدو. ويشبه غسل الأقدام بالنسبة إلى غسل الجسد كله. فلأن التلاميذ كلهم متجددون إلا الإسخريوطي، تتنوع خطاياهم عن خطاياهم. لذلك قال المسيح: «أنتم طاهرون ولكن ليس كلكم». وقال البشير: «لأنه عرف مسلمه». والذي يتوب مرة توبة حقيقية لا يعود إلى حالته القديمة، بل يُصرُّ على التخلُّص من الخطية، فغفرانه ثابت وخلصه مقرر، لأنهما لا يتوقفان على أعماله وطاعته، بل على مواعيد الله ورحمته المجانية. فإن عاد إلى القديم تكون توبته غير حقيقية، فقد قال الرسول يوحنا عن مثل هؤلاء: «مِنَّا خَرَجُوا، لَكِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا مِنَّا، لِأَنَّهُمْ لَوْ كَانُوا مِنَّا لَبَقُوا مَعَنَا. لَكِنْ لِيُظْهِرُوا أَنَّهُمْ لَيْسُوا بِمِثْلِهِمْ مِنَّا» (١ يوحنا ٢: ١٩).

«فَلَمَّا كَانَ قَدْ غَسَلَ أَرْجُلَهُمْ وَأَخَذَ ثِيَابَهُ وَاتَّكَأَ أَيْضاً، قَالَ لَهُمْ: «أَتَفْهَمُونَ مَا قَدْ صَنَعْتُ بِكُمْ؟ أَنْتُمْ تَدْعُونَنِي مُعَلِّماً وَسَيِّدًا، وَحَسَنًا تَقُولُونَ، لِأَنِّي أَنَا كَذَلِكَ. فَإِنْ كُنْتُ وَأَنَا السَّيِّدُ وَالْمُعَلِّمُ قَدْ غَسَلْتُ أَرْجُلَكُمْ، فَأَنْتُمْ يَجِبُ عَلَيْكُمْ أَنْ يَغْسِلَ بَعْضُكُمْ أَرْجُلَ بَعْضٍ، لِأَنِّي أَعْطَيْتُكُمْ مِثَالًا، حَتَّى كَمَا صَنَعْتُ أَنَا بِكُمْ تَصْنَعُونَ أَنْتُمْ أَيْضاً. الْحَقُّ الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُ لَيْسَ عَبْدٌ أَكْبَرُ مِنْ سَيِّدِهِ،

وَلَا رَسُولٌ أَكْبَرُ مِنْ مُرْسِلِهِ. إِنْ عَلِمْتُمْ هَذَا فَطُوبَاكُمْ إِنْ عَمِلْتُمُوهُ. لَسْتُ أَقُولُ عَنْ جَمِيعِكُمْ. أَنَا أَعْلَمُ الَّذِينَ اخْتَرْتُهُمْ. لَكِنْ لِيَتِمَّ الْكِتَابُ: الَّذِي يَأْكُلُ مَعِيَ الْخُبْزَ رَفَعَ عَلَيَّ عَقِبَهُ. أَقُولُ لَكُمْ الْآنَ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ، حَتَّى مَتَى كَانَ تُؤْمِنُونَ أَنِّي أَنَا هُوَ. الْحَقُّ الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ: الَّذِي يَقْبَلُ مَنْ أَرْسَلُهُ يَقْبَلُنِي، وَالَّذِي يَقْبَلُنِي يَقْبَلُ الَّذِي أَرْسَلَنِي» (يوحنا ١٣: ٢٠-٢١).

لما أكمل المسيح غسل أرجل الجميع، نزع المنشفة عن حقويه ولبس رداءه واتكأ في مكانه على رأس المائدة، وقال إن العظمة الحقيقية التي يسعى لأجلها العاقل التقى لا تنتج عن الأموال أو المقام أو الذكاء أو المعارف، بل عن الخدمة ونفع الآخرين، ومقدار هذا النفع هو قياس هذه العظمة. ثم جدد المسيح إشارة محزنة إلى خيانة يهوذا، وقال إنها تثبت صحة كلام الوحي، وتتفق مع المشورة الإلهية، لئلا يظن أحد أن عمل يهوذا يعارض القضاء الإلهي أو يفسده. لا شك أن الإسخريوطي كان قد تعمد بمعمودية يوحنا كغيره من التلاميذ، والآن غسل المسيح رجله رمزاً للتطهير من الخطية. فصار شاهداً ناطقاً على أن أفضل الوسائط الخارجية الدينية - كأسرار الكنيسة وأنظمة العبادة - لا تنتج خلاص الذين ينالونها، ما لم يرافقها شعور داخلي يناسبها.

المسيح يأكل الفصح

«وَلَمَّا كَانَ الْمَسَاءُ اتَّكَأَ مَعَ الْإِثْنَيْ عَشَرَ. وَفِيمَا هُمْ يَأْكُلُونَ قَالَ: «الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ، إِنْ وَاحِدًا مِنْكُمْ يُسَلِّمُنِي». فَحَزَنُوا جِدًّا، وَابْتَدَأَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَقُولُ لَهُ: «هَلْ أَنَا هُوَ يَا رَبُّ؟» فَأَجَابَ وَقَالَ: «الَّذِي يَغْمِسُ يَدَهُ مَعِيَ فِي الصَّحْفَةِ هُوَ يُسَلِّمُنِي. إِنَّ ابْنَ الْإِنْسَانِ مَاضٍ كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ عَنْهُ، وَلَكِنْ وَيلٌ لِدَلكَ الرَّجُلِ الَّذِي بِهِ يُسَلِّمُ ابْنُ الْإِنْسَانِ. كَانَ خَيْرًا لِدَلكَ الرَّجُلِ لَوْ لَمْ يُولَدْ». فَسَأَلَ يَهُودًا مُسَلِّمُهُ: «هَلْ أَنَا هُوَ يَا سَيِّدِي؟» قَالَ لَهُ: «أَنْتَ قُلْتَ» (متى ٢٦: ٢٠-٢٥).

رأينا المسيح يتسلط على هيكل أورشليم فيطهره، وعلى السبت اليهودي فيحرره، وعلى الكتاب الإلهي فيفسره، والآن نراه يتسلط على الفصح العبراني ويغيره. قضت الفريضة في التوراة أن تمارس كل عائلة عشاء الفصح معاً، ولكن المسيح فضّل العلاقات الروحية على العلاقات الجسدية، فجعل تلاميذه أهل عائلته وفقاً لقوله: «من هي أُمِّي ومن هم إِخْوَتِي؟ من يصنع مشيئة الله هو أخي وأختي وأمي». لقد كانت أمه وقت الفصح في أورشليم ومعها إِخْوَتُهُ. فيكونون قد مارسوا الفصح في مكان آخر منفصلين عن قريبتهم الأعظم. وهذا يُظهر لنا المقام الممتاز الذي وهبه المسيح للتلاميذ وليس لغيرهم.

في هذا العشاء امتزاج الابتهاج والكآبة في قلب المسيح. وقد ظهر ابتهاجه من قوله: «شهوة اشتهيته أن أكل هذا الفصح معكم». ابتهاج وهو يشترك مع تلاميذه في عيد الفصح الغني بالمعنى، والذي يشير في رسمه وتفصيله وممارسته إلى عمله الخلاصي، الذي سيتممه

سريعاً، لأن ساعة انتصاره على قوات الجحيم ورئيسها قد اقتربت - وقتها يسحق رأس الحية التي سمح لها أن تسحق عقبه. وقد ابتهج المسيح أيضاً لقرب رجوعه إلى حضن أبيه - وهذا يبهجه ويبهج تلاميذه أيضاً، لأنه يثبتهم ويجعلهم يقومون بأعمالهم العظيمة وينجحون نجاحاً باهراً في المستقبل القريب، ولهذا قال لهم: «أَنْتُمْ الَّذِينَ ثَبَّتُوا مَعِيَ فِي تَجَارِبِي، وَأَنَا أَجْعَلُ لَكُمْ كَمَا جَعَلَ لِي أَبِي مَلَكُوتاً» (لوقا ٢٢: ٢٨ و ٢٩).

ومع كل ابتهاج المسيح نراه يكتئب، لأن سعيه كل هذه المدة لإصلاح يهوذا الخائن ذهب أدراج الرياح. ومرارة هذه الخيانة أصعب من مرارة مقاومة الرؤساء. يكتئب المسيح لأنه يعلم أن تلاميذه جميعاً يشكُّون في تلك الليلة وتتحقق نبوة التوراة «اضْرِبِ الرَّاعِي فَتَنْشَتَّ الْعَنَمُ» (زكريا ١٣: ٧). وأن عميدهم الصخرة، سمعان بطرس، سيفوق الجميع في الارتداد الوقتي. يكتئب المسيح لأن هذه الساعة هي ساعة فراق مؤلم، ولا سيما لتلاميذه الأحباء الضعفاء والمتكئين على قيادته الشخصية. وهو يكتئب كابن الإنسان لما ينتظره من العذابات الجسدية والنفسية الأصعب منها .

ثم قال المسيح لتلاميذه إن واحداً منهم سيسلمه ليد أعدائه شيوخ اليهود. ولما سألته الإسخريوطي: «هل أنا يا سيد؟» قال له: «أنت قلت». ثم غمس لقمة في الأعشاب المرة وناولها له .

انتهى عشاء الفصح اليهودي، ويهوذا يرفض أن ينقاد إلى المحبة التي قدّمها له المسيح، فمع اللقمة المغموسة «دخله الشيطان» أي قوّى سلطته فيه، فقال له المسيح: «ما أنت تعمله فاعمله بأكثر سرعة». أما رفاقؤه فبعد كل ما قيل في مسامعهم وحدث أمام عيونهم، لم يفهموا هذا القول، ولا تصوّروا أن المسيح يشير إلى خيانة يهوذا، بل إلى أعمال خيرية هي مسؤوليته لأنه أمين الصندوق. فلما أخذ يهوذا اللقمة خرج للوقت وكان ليلاً. وأيُّ ليل هذا الذي ليس بعده ليلٍ أظلم منه بما لا يقاس في الدينونة الأبدية. وعن مقام عال شريف بين تلاميذ المسيح هوى منه يهوذا الآن بنفسه إلى أعماق الخيانة والقساوة، ثم اليأس والعذاب والعقاب في النار الأبدية .

سقط يهوذا من ذلك النعيم إلى هذا الجحيم تدريجياً كغيره. سقط لأنه لم يسهر ويصلّ ليسلم من الطمع والرياء، فوصل إلى ما وصل إليه. وزادت قساوة قلبه لرفعة مقامه السابق، ولأنه رفض الوسائط الحسنة التي قدّمها المسيح له. سار مع ميوله الفاسدة، وكان لم يزل سهلاً عليه أن يقهرها ويميتها، فقويت عليه وأهلكته .

خرج الإسخريوطي من بين التلاميذ ليفتش عن شركائه الجدد، ويخبرهم أن المسيح في المدينة، ويمكنهم أن يلقوا القبض عليه بسهولة. وارتفع عن قلب المسيح ثقلٌ، فقال: «الآن تمجد ابن الإنسان وتمجد الله فيه. وأن الله سيمجده في ذاته سريعاً.»

هنا تأكد التلاميذ أن سيدهم يُسَلَّم إلى مبغضيه ويقتلونه صلباً. لكنهم لم يدركوا معنى ذلك، فأوضح لهم ذلك المعنى بواسطة فريضة جديدة حسيّة، هي العشاء الرباني الجديد، الذي ربطه بعشاء الفصح القديم، ليسهل عليهم قبوله وفهم تعليمه .

«وَفِيمَا هُمْ يَأْكُلُونَ أَخَذَ يَسُوعُ الْخُبْزَ، وَبَارَكَ وَكَسَّرَ وَأَعْطَى التَّلَامِيذَ وَقَالَ: «خُذُوا كُلُّوا. هَذَا هُوَ جَسَدِي.» وَأَخَذَ الْكَاسَ وَشَكَرَ وَأَعْطَاهُمْ قَائِلاً: «اشْرَبُوا مِنْهَا كُلُّكُمْ، لِأَنَّ هَذَا هُوَ دَمِي الَّذِي لِلْعَهْدِ الْجَدِيدِ الَّذِي يُسَفِّكُ مِنْ أَجْلِ كَثِيرِينَ لِمَغْفِرَةِ الْخَطَايَا. وَأَقُولُ لَكُمْ: إِنِّي مِنَ الْآنَ لَا أَشْرَبُ مِنْ نِتَاجِ الْكَرْمَةِ هَذَا إِلَى ذَلِكَ الْيَوْمِ حِينَمَا أَشْرَبُهُ مَعَكُمْ جَدِيداً فِي مَلَكُوتِ أَبِي.» ثُمَّ سَبَّحُوا وَخَرَجُوا إِلَى جَبَلِ الزَّيْتُونِ» (متى ٢٦: ٢٦-٣٠).

أخذ المسيح قطعة من خبز الفطير الذي يشير إلى الخلو من الخمير العتيق والفساد، وشكر وكسر وبارك وأعطى التلاميذ، وقال: «خذوا كلوا. هذا هو جسدي المكسور لأجلكم الذي يُبذل عنكم. اصنعوا هذا لذكري.»

في الشكر ذكر المسيح تلاميذه أنه عند تناول خيرات الأرض نشكر رب السماء، مصدر كل عطية صالحة وكل موهبة تامة. وفي التفسير نذكر أنه كما أن الخبز لا يحيي الأجساد إلا بعد كسره، كذلك لا يحيي المسيح موتى الذنوب والخطايا إلا بعد أن يتألم ويُصلب أولاً. وفي المباركة ذكرهم المسيح أنه صاحب السلطان المعطى له من الأب. هو الذي بركته «تُعْنِي، وَلَا يَزِيدُ الرَّبُّ مَعَهَا تَعَباً» (أمثال 10:22) وفي إعطاء الخبز من يده ليدهم تذكروا أنه هو الطريق والحق والحياة، وليس أحد يأتي إلى الأب إلا به. وفي قوله: «خذوا كلوا» ذكرهم أن كل ما يعملُه لأجل خلاصهم وحياتهم الروحية يذهب سُدى ما لم يأخذوه روحياً، ويخصّصوا شخصه وعمله لنفوسهم فرداً فرداً بالإيمان، بفعل رُوحِي يشابه الأكل الجسدي .

في قوله: «هذا هو جسدي المكسور لأجلكم» أوضح لهم أنه قد عَيَّن الخبز المكسور في هذا العشاء الجديد، رمزاً لجسده المكسور لأجل حياة العالم. سبق له من مدة سنة أن قال كلاماً قوياً لليهود في مجمع كفر ناحوم في موضوع أكل جسده وشرب دمه، بمعنى رُوحِي. ولو أن كلامه أَعَثَر السواد الأعظم من تابعيه (يوحنا ٦) فليس جديداً في تعليمه أن جسده، خبز الحياة، يؤكل رُوحياً في ممارسة العشاء الرباني. ويكفي ذلك الكلام القديم تفسيراً لهذا الكلام الجديد، ونفياً للتفسير الحرفي الذي حذرهم منه وقتئذ .

يقصد المسيح بقوله: «هذا هو جسدي» قصداً رُوحياً لا حرفياً. وما ينفي التفسير الحرفي لذلك قول المسيح: «الرُّوحُ هُوَ الَّذِي يُحْيِي. أَمَّا الْجَسَدُ فَلَا يُفِيدُ شَيْئاً. الْكَلَامُ الَّذِي أَكَلْتُمْ بِهِ هُوَ رُوحٌ وَحَيَاةٌ» (يوحنا ٦: ٦٣). وينفيه أيضاً أن جسده لم يكن مكسوراً عندما قال: «هذا هو جسدي المكسور». بل كان سالماً، وكان الخبز موضوعاً على حدة، فلا يكونان شيئاً

واحداً. ولم يتكلم في صيغة المستقبل ليؤخذ كلامه عن أمر سيحدث بعدما تكلم. وينفيه كلام الرسول بولس الذي يقول: «كُلَّمَا أَكَلْتُمْ هَذَا الْخُبْزَ» بعد قوله: « هَذَا هُوَ جَسَدِي » (١ كورنثوس ١١: ٢٤ ، ٢٦) وتنفيه شهادة الحواس التي هي وضع إلهي، والوسيلة الوحيدة لتحقيق المعجزات، لأنه لا توجد معجزة واحدة بين كل ما ذكر في الكتاب إلا ظهر برهانها للحواس. فمعجزة تحويل الخبز إلى جسد لا تصدّقها حاسة واحدة، بل تخالف تماماً شهادة الحواس الأربع، أي البصر واللمس والشم والذوق. صحيح أن الأمور الروحية خارجة عن شهادة الحواس وفوقها، لكن تحويل الخبز إلى جسد، أمر مادي تدركه الحواس .

ثم ناول المسيح تلاميذه كأس الخمر بعد أن شكر، وقال: «هذه الكأس هي العهد الجديد بدمي، الذي يُسفك من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا .»

كان للدم أعظم أهمية في كل التعليم الإلهي لشعب العهد القديم، منذ أيام هابيل الذي قَبِلَ الله تقدمته الدموية، بعد أن رفض تقدمة أخيه غير الدموية. وكان سفك الدم أساس النظام الموسوي كله، لكن لا معنى ولا فائدة لدم النيتوس والعجول والحملان في الدين، إلا كرمز لدم المسيح حمل الله الذي يُسفك لأجل رفع خطية العالم. لأنه كما أنقذ الدم الموضوع على القوائم والأعتاب في بيوت العبرانيين في مصر الأبنكار من الملاك المُهلك (خروج ١٢: ١٣)، ينقذ دم حمل الله الخاطئ من الهلاك الأبدي. لذلك لا تشبه كأس العهد الجديد الكأس التي شربوها بحضور الإسخريوطي والمباحة لجميع أفراد نسل إبراهيم، بصرف النظر عن صفاتهم، بل هي رمز للدم الذي بعد بضع ساعات سيُهرق على الصليب، وتُخصّص فائدته للمؤمنين الحقيقيين .

ضرورة العشاء الرباني

في قول المسيح: «اصنعوا هذا لذكري» أوجب على كل تابعيه الأمناء - من ذلك الحين إلى أن يجيء ثانية - أن يطيعوا أمره ويمارسوا هذا السر المقدس، فتمتلى أفكارهم بذكر موته الكفاري لأجل البشر، وذكر عشاء العرس المُعدّ لجميع المؤمنين. وهو عشاء تفيض فيه كأس ابتهاجهم إذ يتمتعون بالقداسة التامة والسعادة الكاملة إلى أبد الأبد .

وهذا العشاء الرباني دليل الاشتراك الحبي بين المؤمنين وعربونه أيضاً. لذلك قال المسيح في وليمة الحب هذه: «يا أولادي، وصية جديدة أنا أعطيك، أن تحبوا بعضكم بعضاً. كما أحببتكم أنا تحبون أنتم أيضاً بعضكم بعضاً. بهذا يعرف الجميع أنكم تلاميذي إن كان لكم حبٌ بعضاً لبعض». هذا هو الحب الأخوي المتبادل بين المؤمنين الحقيقيين الذي يجعل الأخ في الإيمان أقرب من الأخ الطبيعي الخارج عن الإيمان .

«حِينَئِذٍ قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «كُلُّكُمْ تَشْكُونَنِي فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ، لِأَنَّهُ مَكْتُوبٌ: أَنِّي أَضْرِبُ الرَّاعِي فَيَتَّبِعُونَ خِرَافَ الرَّعِيَّةِ. وَلَكِنْ بَعْدَ قِيَامِي أَسْبِقُكُمْ إِلَى الْجَلِيلِ. فَأَجَابَ بُطْرُسُ وَقَالَ لَهُ: «وَأِنْ شَكَّ فِيكَ الْجَمِيعُ فَأَنَا لَا أَشْكُ أَبَدًا». قَالَ لَهُ يَسُوعُ: «الْحَقُّ أَقُولُ لَكَ: إِنَّكَ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ قَبْلَ أَنْ يَصِيحَ دِيكَ تُنْكِرُنِي ثَلَاثَ مَرَّاتٍ». قَالَ لَهُ بُطْرُسُ: «وَلَوْ اضْطَرَرْتُ أَنْ أَمُوتَ مَعَكَ لَا أَنْكِرُكَ!» هَكَذَا قَالَ أَيْضًا جَمِيعُ التَّلَامِيذِ» (متى ٣١: ٢٦-٣٥).

لما قال المسيح لتلاميذه إنه سيفارقهم عن قريب إلى حيث لا يستطيعون أن يأتوا تحمس بطرس واعترض كعاداته، وكان كلامه جميلاً ناتجاً عن نية صادقة وحب قلبي، لكنه لم يعرف ضعفه. فاضطر المسيح أن يفهمه أنه قبل أن يصيح الديك في الصباح القادم ينكر سيده ثلاث مرات. ولئلا يفتخر التلاميذ أو يشمتوا في بطرس قال أيضاً: «كلكم تشكون في (أي تتركوني) في هذه الليلة». فتصح النبوة «اضرب الراعي فتشتت الغنم» (زكريا ١٣: ٧). كان المسيح قد أوصاهم أن يحبوا بعضهم بعضاً كما أحبهم هو، وهي وصية تقضي على كل منهم أن يدافع عن إخوته، وينفي عنهم احتمال الارتداد، فخالف بطرس حالاً روح هذه الوصية في دفاعه عن نفسه وعدم دفاعه عن إخوته. لا بل سلم ضمناً بإمكانية سقوط إخوته واستحالة سقوطه هو، فلم يتعظ بتحذير سليمان الحكيم في قوله: «قَبْلَ الْكَسْرِ الْكِبْرِيَاءُ، وَقَبْلَ السُّقُوطِ تَشَامُخُ الرُّوحِ» (أمثال ١٨: ١٦).

تشجيع لبطرس

«وَقَالَ الرَّبُّ: «سَمْعَانُ سَمْعَانُ، هُوَذَا الشَّيْطَانُ طَلَبَكُمْ لِكَيْ يُغْرِبَكُمْ كَالْحِنْطَةِ! وَلَكِنِّي طَلَبْتُ مِنْ أَجْلِكَ لِكَيْ لَا يَفْنَى إِيْمَانُكَ. وَأَنْتَ مَتَى رَجَعْتَ تَبْنِي إِخْوَتَكَ». فَقَالَ لَهُ: «يَا رَبُّ، إِنِّي مُسْتَعِدٌّ أَنْ أَمْضِيَ مَعَكَ حَتَّى إِلَى السَّجْنِ وَإِلَى الْمَوْتِ». فَقَالَ: «أَقُولُ لَكَ يَا بُطْرُسُ، لَا يَصِيحُ الدِّيكُ الْيَوْمَ قَبْلَ أَنْ تُنْكِرَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ أَنَّكَ تَعْرِفُنِي.»

ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: «حِينَ أَرْسَلْتُكُمْ بِلاَ كَيْسٍ وَلَا مِزْوَدٍ وَلَا أَحْذِيَّةٍ، هَلْ أَعَزَّكُمْ شَيْءٌ؟» فَقَالُوا: «لَا». فَقَالَ لَهُمْ: «لَكِنْ الْآنَ، مَنْ لَهُ كَيْسٌ فَلْيَأْخُذْهُ وَمِزْوَدٌ كَذَلِكَ. وَمَنْ لَيْسَ لَهُ فَلْيَبِيعْ ثَوْبَهُ وَيَشْتَرِ سَيْفًا. لِأَنِّي أَقُولُ لَكُمْ إِنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَتِمَّ فِي أَيْضًا هَذَا الْمَكْتُوبُ: وَأُخْصِي مَعَ أَتَمَةٍ. لِأَنَّ مَا هُوَ مِنْ جِهَتِي لَهُ انْقِضَاءٌ». فَقَالُوا: «يَا رَبُّ، هُوَذَا هُنَا سَيْفَانِ». فَقَالَ لَهُمْ: «يَكْفِي» (لوقا ٣١: ٢٢-٣٨).

عرف المسيح أن بطرس سيسقط سقوطاً سريعاً ومخيفاً. وأراد أن يشجعه لينهض بعد السقوط، ويحذره لئلا يفتخر بعد نهوضه، فقال له: «سمعان، سمعان، هوذا الشيطان طلبكم لكي يغربكم كالحنطة. ولكني قد طلبت من أجلك لكي لا يفنى إيمانك. وأنت متى رجعت فتنبت إخوتك.»

من قول المسيح: «الشيطان طلبكم» نتعلم أن الشيطان يخطّط أموراً كهذه، وأن الله يسمح بها أحياناً لمقاصد خيرية بحته. ميّز المسيح بطرس في شفاعته لأن سقوط بطرس سيكون أشرّ من سقوط رفقاءه، وذلك على رغم افتخاره عليهم. لم يطلب المسيح لأجله أن لا يتزعزع إيمانه، لأن بطرس يحتاج إلى درس قوي يعلمه التواضع والتوكل - درس يتعلمه من تزعزع إيمانه، ومن نتيجة ذلك في إنكاره الفطيع. بل طلب المسيح أن لا يفنى إيمان بطرس كما فني إيمان يهوذا، فشقق نفسه، وقد استجيب هذا الطلب .

علّم المسيح بطرس ما عليه من الاهتمام بإخوته المعرّضين للسقوط، لأنه يقدر أن يجعل اختباراً في السقوط ثم في النهوض نافعاً لهم أيضاً. لكن بطرس أصرّ على ثقته بنفسه أنه لا يسقط، وكرر تأكيده أنه يمضي مع سيده إلى السجن وحتى إلى الموت، فاضطر المسيح أن يؤكد له بعبارة أقوى من الأولى أنه سيسقط، لكنه مع كل ذلك كرر ثلاثة اختلافه مع إعلان المسيح، وهو لا يدرك أنه بتكراره هذا يجعل المسيح كاذباً. فارتقاء المؤمن في النجاح الديني لا يرجع إلى قوته، بل يقول مع الرسول بولس: «مَنْ يَظُنُّ أَنَّهُ قَائِمٌ فَلْيَنْظُرْ أَنْ لَا يَسْقُطَ» (١كورنثوس ١٠:١٢).

ثم ذكر المسيح تلاميذه بعنايته السابقة بهم، فإنه عندما أرسلهم للكراسة لم يحتاجوا إلى شيء، لكن الأحوال تعيّرت الآن. فعندما أرسلهم للكراسة الأولى كان ذلك لزمن قصير، وفي بلادهم (لوقا ٩:٣). أما الآن فسيسافرون طويلاً ليكرزوا وسط الغرباء، فيلزم أن يتغير الأمر، فليأخذوا معهم نقوداً. ومن ليس له نقود فليبيع ثوبه ليشتري سيفاً للدفاع عن النفس ضد اللصوص. والمسيح يقصد أن يستخدم المؤمن حكمته في الدفاع عن نفسه، عندما يقف العالم ضده .

وواضح أن المسيح لم يكن يتكلم عن دفاع تلاميذه عنه بالسيف المعدني، لأنه يقول إن ما تنبأت به التوراة عن موته لا بد أن يحدث. ولما قالوا له: «يا رب هوذا هنا سيفان» قال لهم: «يكفي» وهي كلمة كان علماء الدين يستخدمونها ليُسكِتُوا بها جهالة بعض تلاميذهم عندما لا يفهمون المعاني العميقة لتعاليمهم. وعندما لم يفهم التلاميذ قصد المسيح، قال لهم: «الَّذِينَ يَأْخُذُونَ السَّيْفَ بِالسَّيْفِ يَهْلِكُونَ» (متى ٢٦:٥٢) فلم يكن المسيح يطالب تلاميذه باستخدام العنف للدفاع عنه .

خطاب المسيح في العلية

(يوحنا ١٤-١٦)

بعد أن رسم المسيح فريضة العشاء الرباني، ألقى على تلاميذه حديثاً يشغل الأصحاحات ١٤-١٦ من بشارة يوحنا. يبتدئ بقوله: «لا تضطرب قلوبكم. أنتم تؤمنون بالله فآمنوا بي. في بيت أبي منازل كثيرة، وإلا فإني كنت قد قلت لكم. أنا أمضي لأعد لكم مكاناً، وإن مضيتُ وأعددتُ لكم مكاناً آتي أيضاً وأخذكم إليّ، حتى حيث أكون أنا تكونون أنتم أيضاً». أليس هذا كلاماً مدهشاً جداً من إنسان يعلم جيداً أنه قبل غروب شمس الغد يكون تلاميذه الذين يكلمهم هكذا، مشتتّين يختبئون من أمام أعدائهم وأعدائهم؟ ويكون هو جثة هامدة على صليب بين لصين؟ فبأي حق يتكلم كغالب وليس كمغلوب؟ وماذا نقول في كلماته التالية: «أنا هو الطريق والحق والحياة. ليس أحد يأتي إلى الآب إلا بي. الذي رآني فقد رأى الآب. الحق أقول لكم: من يؤمن بي، فالأعمال التي أنا أعملها يعملها هو أيضاً، ويعمل أعظم منها، لأنني ماضٍ إلى أبي. مهما سألتكم باسمي فذلك أفعله ليتمجد الآب بالابن.»

ثم يأتيهم بأعظم مواعيده، لأن عليه يتوقف حُسن مستقبلهم، وكيان كنيسته، ونجاح أفرادها في كل الأزمان. قال: «أنا أطلب من الآب فيعطيكُم معزياً آخر ليمكث معكم إلى الأبد. روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقبله لأنه لا يراه ولا يعرفه، وأما أنتم فتعرفونه لأنه ماكن معكم ويكون فيكم. وأما المعزي الروح القدس الذي سيرسله الآب باسمي، فهو يعلمكم كل شيء، ويذكركم بكل ما قلته لكم». ويكرر كلاماً في ارتباط المحبة له مع حفظ وصاياه، ويبين النتيجة الجميلة لحفظ وصاياه في قوله: «إن أحبني أحد يحفظ كلامي، ويحبه أبي، وإليه نأتي، وعنده نصنع منزلاً.»

أي تفسير لهذا كله إلا أن المسيح - الله الذي ظهر في الجسد - يقول هذا الكلام العظيم بسلطان إلهي عظيم... هو رئيس السلام الذي كان السلام موضوع بشارة الملائكة عند ولادته، فيقول: «سلاماً أترك لكم، سلامي أعطيكُم. ليس كما يعطي العالم أعطيكُم أنا». ليس «عليه السلام» كالأنبياء بل «منه السلام» كما صرح بذلك الرسل في الرسائل. ولكي لا يستسلموا للحزن يقول: «لو كنتم تحبونني لكنتم تفرحون لأنني قلت أمضي إلى أبي، لأن أبي أعظم مني.»

ثم تنتقل أفكاره من تلاميذه إلى ما يجري في المدينة بقربهم في نصف الليل، لأنه يرى ما يرونه من التجمهر في دار رئيس الكهنة، استعداداً لأعظم جريمة في التاريخ. ويرى ليس فقط الرؤساء وأعوانهم، وحركات الإسخريوطي الخائن بينهم، بل يرى أيضاً رئيس الشياطين الذي يقوده هؤلاء في مكائدهم الأثيمة، دون أن يشعروا بحضوره الروحي بينهم. ووقفته ورؤيته في كلامه عند قوله: «لا أتكلم معكم أيضاً كثيراً، لأن رئيس هذا العالم يأتي،

وليس له في شيء». كان للشيطان رئيس هذا العالم في كل شيء. لكن ليس للشيطان شيء في ابن الإنسان، الكامل الخالي من كل خطية وخطاً .

مَثَل الكَرْمَةِ

«أَنَا الْكَرْمَةُ الْحَقِيقِيَّةُ وَأَبِي الْكَرَّامُ. كُلُّ غُصْنٍ فِيَّ لَا يَأْتِي بِثَمَرٍ يَنْزَعُهُ، وَكُلُّ مَا يَأْتِي بِثَمَرٍ يُنْقِيهِ لِأَيِّ بَثْمَرٍ أَكْثَرَ. أَنْتُمْ الْآنَ أَنْفِيَاءُ لِسَبَبِ الْكَلَامِ الَّذِي كَلَّمْتُكُمْ بِهِ. أَتُبْنُوا فِيَّ وَأَنَا فِيكُمْ. كَمَا أَنَّ الْغُصْنَ لَا يَقْدِرُ أَنْ يَأْتِيَ بِثَمَرٍ مِنْ دَاتِهِ إِنْ لَمْ يَتَّبَثْ فِي الْكَرْمَةِ، كَذَلِكَ أَنْتُمْ أَيْضاً إِنْ لَمْ تَتَّبْنُوا فِيَّ) «يوحنا ١٥: ١-٤» .

في هذه الكلمات أوضح المسيح العلاقة المتينة بينه وبين المؤمنين به، عندما شبه ذاته بالكرمة وشبههم بالأغصان، وعلمهم أن المهم فيه وفيهم هو الإثمار، لأن بهذا يتمجد الله.. إنه يُظهر أثماره بواسطتهم كما تُظهر الكرمة أثمارها بواسطة أغصانها. أما الذين لا يثمرون فيقطعون ويحرقون. والوسيلة الوحيدة والكافية للإثمار هي الثبات فيه، أي الالتصاق التام به. فأبى انفصال بين الكرمة والغصن يمنع الإثمار، ويجفف الغصن ويميته. والثبوت فيه يحقق ثبوت فرحه فيه، وهذا ما يرغب ويقصد أن يتمتعوا به. وما أعجب تفكير المسيح وتكلمه بالفرح في هذه الساعة الهائلة !

ثم صرح المسيح بركن متين لإيمانهم هو أنه اختارهم قبل أن يختاروه. وجعل طاعتهم لوصيته الجديدة (التي هي المحبة الأخوية) برهان محبتهم له. وذكرهم أنه لم يتصرف معهم حسب حقوقه كسيد مع عبده، بل كحبيب بين أحياء. ويقول برهاناً لذلك: «لأنني أعلمتكم بكل ما سمعته من أبي». وشجعهم لأجل سنوات الاضطهاد التي تنتظرهم قائلاً إن العالم قد أبغضه أولاً، وأنه تأتي ساعة فيها يظن كل من يقتلهم أنه يقدم خدمة لله، وإن سبب عدم إيضاحه لذلك من البداية أنه كان معهم بالجسد، «فليس العبد أعظم من سيده. ولا التلميذ أفضل من معلمه». وسبب بُغْض العالم هو أشرف سبب، لأنهم ليسوا من العالم ليحبهم، ولأن العالم لا يعرف الأب ليحب أولاده، أو ليحب الابن الوحيد الذي نزل من حضنه في السماء .

حزن التلاميذ كثيراً من كلام المسيح هذا، لأنه فوق حزنهم على تأكيده بأنه سيتركهم، طلب منهم أن يتوقعوا الاضطهاد المميت، فنبههم إلى فوائد المصيبة الأولى، أي تركه إياهم، فقال: «لأنني قلت لكم هذا قد ملأ الحزن قلوبكم؟ أقول لكم الحق: إنه خير لكم أن أنطلق، لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزي. لكن إن ذهبت أرسله إليكم. متى جاء ذاك روح الحق، فهو يرشدكم إلى جميع الحق، لأنه لا يتكلم من نفسه، بل كل ما يسمعه يتكلم به، ويخبركم بأمور آتية. كل ما هو للأب فهو لي.»

ثم كرر المسيح إشارته السابقة إلى أنهم سيتركونه عن قريب وحده، ولكننا لا نجد في كلامه أقل غيظ أو مرارة، بل بالعكس. لأنه يقول: «كلمتكم بهذا ليكون لكم في سلام. في العالم سيكون لكم ضيق، ولكن ثقوا أنا قد غلبت العالم.»

المسيح يصلي لأجل تلاميذه

(يوحنا ١٧)

بعد أن انتهى المسيح من تعليمه، رفع عينيه نحو السماء في الصلاة، وقدم الصلاة المؤثرة الشفاعية التي هي أعظم ما كتب من صلواته، وتستحق أن يدرسها المطالع بدقة في الإنجيل، وأن يلاحظ اتفاقها مع الخطاب الذي سبقها. وفيها ردّد نعمة المجد ونعمة الوحدة. نراها خالية من الأنين والحزن بالرغم من الظروف الخارجية الداعية إلى ذلك، بل نراها عامرة بأصوات المجد والابتهاج والوحدة. وإليك بعض ما جاء فيها :

«أَيُّهَا الْآبُ، قَدْ أَتَتِ السَّاعَةُ. مَجِّدِ ابْنَكَ لِيُمَجِّدَكَ ابْنُكَ أَيْضاً، إِذْ أُعْطِيتَهُ سُلْطَاناً عَلَى كُلِّ جَسَدٍ لِيُعْطِيَ حَيَاةً أَبَدِيَّةً لِكُلِّ مَنْ أُعْطِيتَهُ. وَهَذِهِ هِيَ الْحَيَاةُ الْأَبَدِيَّةُ: أَنْ يَعْرِفُوكَ أَنْتَ الْإِلَهَ الْحَقِيقِيَّ وَحَدَكَ وَيَسُوعَ الْمَسِيحَ الَّذِي أَرْسَلْتَهُ. أَنَا مَجِّدُكَ عَلَى الْأَرْضِ. الْعَمَلُ الَّذِي أُعْطِيتَنِي لِأَعْمَلْ قَدْ أَكْمَلْتُهُ. وَالْآنَ مَجِّدْنِي أَنْتَ أَيُّهَا الْآبُ عِنْدَ ذَاتِكَ بِالْمَجْدِ الَّذِي كَانَ لِي عِنْدَكَ قَبْلَ كَوْنِ الْعَالَمِ.» أَنَا أَظْهَرْتُ اسْمَكَ لِلنَّاسِ الَّذِينَ أُعْطِيتَنِي مِنَ الْعَالَمِ. كَانُوا لَكَ وَأُعْطِيتَهُمْ لِي، وَقَدْ حَفِظُوا كَلَامَكَ. وَالْآنَ عَلِّمُوا أَنَّ كُلَّ مَا أُعْطِيتَنِي هُوَ مِنْ عِنْدِكَ، لِأَنَّ الْكَلَامَ الَّذِي أُعْطِيتَنِي قَدْ أُعْطِيتَهُمْ، وَهُمْ قَبِلُوا وَعَلِّمُوا يَقِيناً أَنِّي خَرَجْتُ مِنْ عِنْدِكَ، وَأَمَّنُوا أَنَّكَ أَنْتَ أَرْسَلْتَنِي. مِنْ أَجْلِهِمْ أَنَا أَسْأَلُ. لَسْتُ أَسْأَلُ مِنْ أَجْلِ الْعَالَمِ، بَلْ مِنْ أَجْلِ الَّذِينَ أُعْطِيتَنِي لِأَتُهُمْ لَكَ. وَكُلُّ مَا هُوَ لِي فَهُوَ لَكَ، وَمَا هُوَ لَكَ فَهُوَ لِي، وَأَنَا مُمَجِّدٌ فِيهِمْ. وَلَسْتُ أَنَا بَعْدُ فِي الْعَالَمِ، وَأَمَّا هَؤُلَاءِ فَهُمْ فِي الْعَالَمِ، وَأَنَا آتِي إِلَيْكَ. أَيُّهَا الْآبُ الْقُدُّوسُ، احْفَظْهُمْ فِي اسْمِكَ. الَّذِينَ أُعْطِيتَنِي، لِيَكُونُوا وَاحِدًا كَمَا نَحْنُ» (يوحنا ١٧: ١-١٢).

تكشف هذه الصلاة عن محبة عجيبة لا متناهية في قلب المسيح نحو تلاميذه، تتجاوز منهم إلى كل من يؤمن بالمسيح بواسطة كلامهم، ونحن منهم. وهي أساس الرجاء بالخلاص، لأنه ما دام المخلص المقتدر يحب هكذا، ويتعهد للآب أن يحفظ جميع الذين أعطاهم له الآب حتى لا يهلك منهم أحد إلا ابن الهلاك، يحق لكل مؤمن حقيقي أن يثق بأن هذا المخلص سيحفظه ويصلحه ويقدمه أخيراً أمام عرش الآب مكملاً .

بعد الصلاة والخطاب سبّحوا، ثم خرج المسيح ومضى كالعادة مع تلاميذه إلى عبر وادي قدرون إلى جبل الزيتون. أما تسبّحتهم فكانت تلك الترتيلة التي رنموها وقت الانصراف بعد عشاء الفصح. فكم كان تأثر التلاميذ وهم يرنمون: «اكَتَنَفْتَنِي جِبَالُ الْمَوْتِ. أَصَابْتَنِي

شَدَائِدُ الْهَآوِيَةِ. كَابَدْتُ ضَيْقًا وَحُزْنًا. الرَّبُّ لِي فَلَا أَخَافُ. مَاذَا يَصْنَعُ بِي الْإِنْسَانُ. الْحَجَرُ
الَّذِي رَفَضَهُ الْبَنَّاؤُونَ قَدْ صَارَ رَأْسَ الزَّاوِيَةِ. مِنْ قَبْلِ الرَّبِّ كَانَ هَذَا وَهُوَ عَجِيبٌ فِي أَعْيُنِنَا.
مُبَارَكُ الْآتِي بِاسْمِ الرَّبِّ. بَارَكْنَاكُمْ مِنْ بَيْتِ الرَّبِّ. الرَّبُّ هُوَ اللَّهُ وَقَدْ أَنَارَ لَنَا. أَوْثَقُوا الذَّبِيحَةَ
بِرُبُطٍ إِلَى قُرُونِ الْمَذْبَحِ. اْحْمَدُوا الرَّبَّ لِأَنَّهُ صَالِحٌ، لِأَنَّ إِلَى الْأَبَدِ رَحْمَتُهُ» (مزامير
١١٦:٣، ١١٨:٦ و ٢٢-٢٩).

مسابقة الكتاب

القراء الأعزاء

نرجو توجيه إجاباتكم على هذه المسابقات إلى (نداء الرجاء)

<http://www.call-of-hope.com>

على العنوان التالي:

Of Hope Call

P.O. Box 1018

Stuttgart 1, West Germany 7000

عزيزي القارئ،

إن أرسلت إلينا إجابة صحيحة على عشرين سؤالاً من الأسئلة الخمسة والعشرين التالية، نرسل لك كتاباً جائزة من كتبنا المختلفة. نرجو أن ترسل مع الإجابة اسمك وعنوانك واضحاً لنرسل لك الجائزة .

- 1 اذكر أسماء الأمثال الثلاثة التي رواها المسيح في لوقا ١٥ ولماذا رواها؟
- 2 كيف ظهرت توبة الابن الضال؟
- 3 ما هو الشيء الذي لا يتأنى فيه الخالق أبداً؟
- 4 اذكر درساً تتعلمه من مثل الابن الأكبر.
- 5 اذكر درساً تتعلمه من مثل الوكيل الظالم.
- 6 اذكر فائدة حصلت عليها من مثل الغني ولعازر.
- 7 ماذا كانت نبوة قيافا عن المسيح؟
- 8 اذكر فائدة حدثت من إقامة لعازر من الموت.
- 9 ما هي الآية الجميلة التي قالها المسيح عن الأطفال؟ اكتب شاهدها.
- 10 لماذا قال المسيح للشباب الغني: «ليس أحد صالحاً إلا واحد وهو الله؟
- 11 ماذا تفعل لو أردت أن تكون أولاً؟
- 12 كيف برهن زكا أنه قد حصل على الخلاص؟
- 13 لماذا قبل المسيح أن يحتفل به الشعب كملك يوم الدخول الانتصاري لأورشليم؟
- 14 لماذا بكى المسيح على أورشليم؟
- 15 ماذا تتعلم من لعن التينة غير المثمرة؟
- 16 بأي سلطان طهر المسيح الهيكل للمرة الثانية؟

- 17 لماذا رفض المدعو للعرس أن يلبس الحلة الملكية؟ وما هو الدرس الذي تتعلمه من هذا؟
- 18 كيف برهن المسيح أن الله إله أحياء؟
- 19 ما هي أعظم وصية؟
- 20 اشرح مزمور 110:1
- 21 ماذا يعلمنا مثل العذارى الحكيمات والجاهلات؟
- 22 ما هي العلامة التي تميز الخراف من الجداء؟ (انظر متى ٢٥: ٣١-٤٦).
- 23 اذكر درسين تعلمتهما من غسل المسيح أرجل تلاميذه.
- 24 كيف ترى أن المسيح قصد بقوله: «هذا هو جسدي» قصداً روحياً لا حرفياً؟
- 25 ما هي علاقة الكرمة بالأغصان - وكيف تصف هذه العلاقة صلة المؤمن المتينة بالمسيح؟
- أرسل الإجابة فقط بدون تعليقات أخرى لئلا تُهمل، ونحن بانتظار إجابتك.

سيرة المسيح

الدكتور جورج فورد

الكتاب السابع: موته وقيامته

القبض على المسيح في بستان جنسيماني

«حِينَئِذٍ جَاءَ مَعَهُمْ يَسُوعُ إِلَى ضَيْعَةٍ يُقَالُ لَهَا جَنَسِيمَانِي، فَقَالَ لِلتَّلَامِيذِ: «اجْلِسُوا هَهُنَا حَتَّى أَمْضِيَ وَأُصَلِّي هُنَاكَ». ثُمَّ أَخَذَ مَعَهُ بُطْرُسَ وَابْنَيْ زَبْدِي، وَابْتَدَأَ يَحْزَنُ وَيَكْتَنِبُ. فَقَالَ لَهُمْ: «نَفْسِي حَزِينَةٌ جِدًّا حَتَّى الْمَوْتِ. أُمْكُثُوا هَهُنَا وَاسْهَرُوا مَعِيَ» (متى ٢٦: ٣٦-٣٨).

كل قادم وراءه نور، يسبقه ظله. فالصليب قادمٌ وراءه نور الخلاص، لذلك يظهر الآن ظله كثيفاً بعد ظهوراته الخفيفة السابقة، لأنه قبل غروب الشمس مرة أخرى، يظهر الصليب ذاته. خرج الإسخريوطي من عليّة العشاء وكان ليلاً. وبعد خروجه رسم المسيح فريضة العشاء الرباني، وتحدث بمناسبته، ثم ألقى على تلاميذه عظته الوافية وصلاته الشفاعية. فلا بد أن الليل كان قد انتصف عندما كُملت الصلاة. لكن المسيح لا يستغني في هذا الوقت الرهيب عن اختلاء خصوصي مع الآب استعداداً لما ينتظره، فإن الاستعدادات العدائية في المدينة تتكامل .

خرج المسيح ومعه تلاميذه الإثنا عشر من العلية يمرّون بالأزقة المسقوفة تحت ستار السكينة والظلام، ويجتازون وادي قدرون في نور البدر متوجّهين شرقاً إلى بستان في سفح جبل الزيتون، يملكه أحد محبّي المسيح في منطقة اسمها جنسيماني (معناها معصرة). لذلك نرجح أن شجر هذا البستان في معصرة جبل الزيتون كان من نوع الزيتون. وأن المسيح اختار ظل هذه الأشجار الكثيف مخدعاً للصلاة .

وعندما دخلوا البستان اجلس المسيح ثمانية من التلاميذ هناك، وأوصاهم أن يصلّوا لئلا تتغلب عليهم التجربة التي تأتيهم. وتقدم أكثر إلى الداخل يرافقه تلاميذه الثلاثة: بطرس ويعقوب ويوحنا، فشاهدوا المسيح في حزن واكتئاب. كان الثلاثة قد رافقوه على جبل التجلي، وشاهدوا منه بهجة ومجداً وجلالاً. وكانت هذه المشاهدة الجديدة على جبل الزيتون ضرورية لإعلان بشريته الحقيقية، كما أعلنت مشاهد جبل التجلي بنويته الحقيقية لله. قد أراهم المسيح في جبل التجلي شمس عظمته في أفقها الأرضي، وها هو في جنسيماني يريهم بداءة كسوفها في آلام اتضاعه، كسوفاً لا يقلُّ عجباً عن مجدها. فالحادثان مرتبطان برابط لا ينفصم .

اختار المسيح الانفراد التام في مصارعتة الأخيرة مع إبليس، ومقابلته العظمى مع أبيه، وتسليمه التام لمشيئته. ونحن نتعجب أن المسيح الذي قَبْلَ هذا الوقت بساعة كان يقدِّم عظة ثم صلاة ملؤها الابتهاج والمجد، يقول الآن: «نفسى حزينه جداً حتى الموت». السبب أنه قد أتت الساعة التي لأجلها جاء من السماء. ثم أوصى رفقاءه الثلاثة قائلاً: «امكثوا ههنا واسهروا معي». وتقدَّم قليلاً وانفصل عنهم نحو رمية حجر، وجثا على ركبتيه وخرَّ على وجهه على الأرض، وكان يصلي. ما لطف وأجمل وأكرم طلبه منهم «اسهروا معي!»

المسيح يصلي في جثسماني

«ثُمَّ تَقَدَّمَ قَلِيلًا وَخَرَّ عَلَى وَجْهِهِ، وَكَانَ يُصَلِّي قَائِلًا: «يَا أَبَتَاهُ، إِنْ أَمَكْنَ فَلْتَعْبُرْ عَنِّي هَذِهِ الْكَأْسُ، وَلَكِنْ لَيْسَ كَمَا أُرِيدُ أَنَا بَلْ كَمَا تُرِيدُ أَنْتَ». ثُمَّ جَاءَ إِلَى التَّلَامِيذِ فَوَجَدَهُمْ نِيَامًا، فَقَالَ لِبَطْرُسَ: «أَهَكَذَا مَا قَدَرْتُمْ أَنْ تَسْهَرُوا مَعِيَ سَاعَةً وَاحِدَةً؟ اسْهَرُوا وَصَلُّوا لئَلَّا تَدْخُلُوا فِي تَجْرِبَةٍ. أَمَّا الرُّوحُ فَنَشِيطٌ وَأَمَّا الْجَسَدُ فَضَعِيفٌ». فَمَضَى أَيْضًا ثَانِيَةً وَصَلَّى قَائِلًا: «يَا أَبَتَاهُ، إِنْ لَمْ يُمْكِنْ أَنْ تَعْبُرَ عَنِّي هَذِهِ الْكَأْسُ إِلَّا أَنْ أَشْرَبَهَا فَلْتَكُنْ مَشِيئَتُكَ». ثُمَّ جَاءَ فَوَجَدَهُمْ أَيْضًا نِيَامًا، إِذْ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ ثَقِيلَةً. فَتَرَكَهُمْ وَمَضَى أَيْضًا وَصَلَّى ثَالِثَةً قَائِلًا ذَلِكَ الْكَلَامَ بِعَيْنِهِ. ثُمَّ جَاءَ إِلَى تَلَامِيذِهِ وَقَالَ لَهُمْ: «نَامُوا الْآنَ وَاسْتَرِيحُوا. هُوَذَا السَّاعَةُ قَدْ اقْتَرَبَتْ، وَابْنُ الْإِنْسَانِ يُسَلِّمُ إِلَى أَيْدِي الْخَطَاةِ. فُومُوا نَنْطَلِقْ. هُوَذَا الَّذِي يُسَلِّمُنِي قَدْ اقْتَرَبَ» (متى ٢٦: ٤٦-٤٩).

ها هو المسيح بطل السماء الطاهرة، ووحيد الآب وواحد معه، لا يطيق ما يراه أمامه من ساعةٍ فيها يخفي هذا الآب وجهه عنه. وسبب ذلك أنه في موته الفدائي سيتحمَّل لعنة الشريعة كحامل خطايا البشر. وهو لا يطيق ذلك، إِنْ كَانَ لَدَى الْآبِ وَسِيلَةٌ أُخْرَى لِتَخْلِيصِ الْبَشَرِ بِغَيْرِ هَذَا الْعَذَابِ الْفَاقِقِ. إنه يأبى أَنْ يَتَحَمَلَ غَضَبَ أَبِيهِ وَلَوْ لِحِيظَةٍ. هذه أسباب اكتنابه الآن وصراخه في صلاته لكي تعبر عنه الساعة إِنْ أَمَكْنَ، وطلبه من الآب ثلاث مرات أَنْ يُجِيزَ عَنْهُ هَذِهِ الْكَأْسُ. كَانَ فِي جِهَادٍ يَصْلِي بِأَشَدِّ لِحَاجَةٍ، وَصَارَ عِرْقُهُ كَقَطْرَاتٍ دَمٍ نَازِلَةٍ عَلَى الْأَرْضِ.

علم المسيح أن إبليس لا يهاجمه وحده ليثنيه عن عزمه في تتميم الفداء بموته على الصليب، بل يهاجم أيضاً تلاميذه، فحذَّر تلاميذه من إبليس وأوصاهم أَنْ يَسْهَرُوا مَعَهُ وَيَصَلُّوا لِأَجْلِهِ وَلِأَجْلِ ذَوَاتِهِمْ. كُنَّا نَظُنُّ أَنَّ النَّوْمَ يَسْتَحِيلُ عَلَيْهِمْ فِي سَاعَةِ كَهَذِهِ، لَكِنْ الْوَاقِعُ أَنَّهُمْ اسْتَسَلَمُوا حَالًا لِلنَّوْمِ كَمَا نَامُوا عَلَى جِبَلِ التَّجْلِي.

ثم ركع المسيح للصلاة، وتحدث مع أبيه. لم يطلب أَنْ تعبر عنه هذه الكأس وسكت، لكنه مضى يقول: «لكن ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت.»

بعد الصلاة الأولى عاد المسيح إلى تلاميذه وأيقظهم، ثم وجّه توبيخه اللطيف إلى بطرس أولاً، ثم إلى الجميع بقوله: «لماذا أنتم نيام؟ أهكذا ما قدرتم أن تسهروا معي ساعة واحدة». وأردف توبيخه بعبارة الحنو: «أما الروح فنشيط وأما الجسد فضعيف». ثم عاد إلى صلاته ثانية، وكانت مؤثرة أكثر من الأولى، وفيها لهجة المعاناة والألم. وبعدها وجد الثلاثة مثقلين أيضاً بالنوم، ولما أيقظهم لم يعلموا بماذا يجيبونه. ثم مضى وصلى الثالثة الصلاة السابقة قائلاً ذلك الكلام بعينه. من عدم استجابة الآب للمسيح في كل ما طلبه، وعلى الصورة التي طلبها في بشريته، عرفنا أهمية شربه هذه الكأس، لأن محبة الله الغير محدودة لابنه الوحيد، لا يمكن أن تتركه في عذابات كهذه دون اضطرار كلي. لكن الآب الذي يحب البشر الساقطين الذين جعلوا أنفسهم أعداءه، لم يشفق على ابنه (الوحيد) بل بذله لأجلنا أجمعين (رومية ٨: ٣٢).

لما أيقظ المسيح بطرس ويعقوب ويوحنا ثالث مرة، أكد لهم أن فرصة السهر والصلاة قد فاتت، فنومهم ويقظتهم سيان. قال: «ناموا الآن واستريحوا. يكفي. قد أنتت الساعة. هوذا ابن الإنسان يُسَلَّم إلى أيدي الخطاة». محبّوه نيام لكن الخائن يقظان. الإسخريوطي لا يحتاج إلى وصية أن يسهر. أليست هذه شهادة التاريخ أن «أبناء هذا الدهر أَحْكَمُ مِنْ أَبْنَاءِ النُّورِ فِي جِيلِهِمْ» (لوقا 16:8) ؟ مع أن سهر قوات الشر في العالم مدعاة لمضاعفة سهر قوات الخير ويقظتها .

وأظهر المسيح مرة أخرى اهتمامه بيهودا الذي باع نفسه، كما باع سيده بثلاثين من الفضة، مع أنه جاهد ليربّيه في الصلاح ويقوده إلى الخلاص، فقال: «هوذا الذي يسلمني قد اقترب». سلّم المسيح نفسه لأبيه في هذا البستان قبل أن يسلم جسده لأعدائه عند باب البستان، وبذلك التسليم تمّ الفداء جوهرياً، وصار فعل الصليب وآلامه الجسدية تكملة فقط لعمله الجوهري في جنسيمياني .

يهودا يقود الرؤساء

«وَفِيمَا هُوَ يَتَكَلَّمُ، إِذَا يَهُودًا أَحَدُ الْإِثْنَيْنِ عَشَرَ قَدْ جَاءَ وَمَعَهُ جَمْعٌ كَثِيرٌ بِسُيُوفٍ وَعَصِيٍّ مِنْ عِنْدِ رُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ وَشُيُوخِ الشَّعْبِ. وَالَّذِي أَسْلَمَهُ أَعْطَاهُمْ عَلَامَةً قَائِلًا: «الَّذِي أَقْبَلَهُ هُوَ هُوَ. أَمْسِكُوهُ». فَلِلْوَقْتِ تَقَدَّمَ إِلَى يَسُوعَ وَقَالَ: «السَّلَامُ يَا سَيِّدِي!» وَقَبَّلَهُ. فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: «يَا صَاحِبُ، لِمَاذَا جِئْتَ؟» حِينَئِذٍ تَقَدَّمُوا وَأَلْفَوْا الْأَيْدِيَ عَلَى يَسُوعَ وَأَمْسَكُوهُ. وَإِذَا وَاحِدٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَ يَسُوعَ مَدَّ يَدَهُ وَاسْتَلَّ سَيْفَهُ وَضَرَبَ عَبْدَ رَئِيسِ الْكَهَنَةِ، فَقَطَعَ أُذُنَهُ. فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: «رُدَّ سَيْفَكَ إِلَى مَكَانِهِ. لِأَنَّ كُلَّ الَّذِينَ يَأْخُذُونَ السَّيْفَ بِالسَّيْفِ يَهْلِكُونَ! أَتَظُنُّ أَنِّي لَا أَسْتَطِيعُ الْآنَ أَنْ أَطْلُبَ إِلَى أَبِي فَيَقْدِمَ لِي أَكْثَرَ مِنْ اثْنَيْ عَشَرَ جَيْشًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ؟ فَكَيْفَ تُكَمِّلُ الْكُتُبُ : أَنَّهُ هَكَذَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ؟» (متى ٢٦: ٤٧-٥٤).

نعود بالفكر إلى الإسخريوطي الذي قضى مع شيوخ اليهود هذه الساعات في التدبير لنجاح مشروعاتهم، بينما كان غيرهم من أهل المدينة مثقلين بالنوم بعد وليمة عشاء الفصح، والمسيح وتلاميذه في البستان. فارق الإسخريوطي المسيح والتلاميذ في عليّة العشاء، وهو يعلم أنه لا سلاح معهم إلا السيوف، ولا أنصار لهم بين الشعب في ساعات النوم، فطمأن شركاءه الرؤساء أن المسيح لن يستخدم قوته المعجزية ليتخلص منهم، لأنه أعلن مراراً نيتّه أن يسلم نفسه للصليب، فلا صعوبة تُذكر في القبض عليه في العليّة وتسليمه باكراً للحكومة الرومانية، ما دام الجمهور نائماً.

لكنهم لم يجدوه في العليّة، فرأى الإسخريوطي أن يفتشوا عنه في بستان جثسيماني، حيث يُرَجَّح وجوده. فزادوا القوة التي معهم وهيأوا ما يحتاجون إليه لأجل عملهم خارج المدينة. نعلم أن الذين بلغوا البستان هم يهوذا والجند الروماني المقيم بجوار الهيكل، الذين وضعهم الوالي تحت إمرة رؤساء اليهود، وخدام رؤساء الكهنة والكتبة والفريسيين وشيوخ الشعب، حتى أصبحوا جمعاً كثيراً بمشاعل ومصابيح وسلاح بسيوف وعصي. ولئلا يقع غلط في الليل ويقبض الجند على أحد التلاميذ بدلاً من المسيح فيتسنى له الهرب من بينهم تحت جناح الليل، تم الاتفاق أن الإسخريوطي الذي يعرف المسيح جيداً يعطيهم علامة تقيهم من الغلط. وقال لهم: «الذي أقبّله هو هو.»

تقدم الإسخريوطي إلى المسيح وقال: «السلام يا سيدي». وقبّله لا قبلة واحدة بسيطة بل قبلات عديدة، كأنه أوفر الناس حباً له. أما المسيح فكان لا يزال يحاول أن يخلصه من فساد قلبه إن أمكن، فقال له: «يا صاحب، لماذا جئت؟ يا يهوذا أقبّله تسلم ابن الإنسان؟». وعمل المسيح هذا مع الإسخريوطي مثال مفيد يقدّم لأعظم الخطاة رجاء بأن المخلص لا يهمله لكثرة شروره. وفيه درس لصيادي النفوس يجعلهم يتمسكون إلى النهاية بتخليص النفوس الهالكة مهما توغلت في الآثام.

يظهر أن يهوذا وبعض القادة دخلوا البستان، بينما بقي الباقون خارجاً ينتظرون أوامر القادة. وعندما خرج يهوذا مع المسيح من البستان، رأى المسيح الجمع المحتشد بالأسلحة، فكان همّه الأول أن يحمي تلاميذه من الضرر، فسأل الجمهور: «من تطلبون؟» أجابوه: «يسوع الناصري». فقال لهم «أنا هو». فأرعبتهم هيئته جداً حتى رجعوا إلى الوراء، هم والخائن، وسقطوا على الأرض. بذلك تأكد لهم أنهم لا يأخذونه دون إرادته.

ولما نهضوا أعاد السؤال عليهم ثانية. فلما أجابوا كالأول، دون أن يتقدموا قال لهم: «قد قلت لكم إني أنا هو، فإن كنتم تطلبونني فدعوا هؤلاء (أي تلاميذه) يذهبون». وقف أمامهم كأمير فاطاعوا. ليست هذه المرة الأولى التي أربع المسيح فيها جمهوراً معادياً فأحبط مقاصدهم ضده، لكنها أعظم تلك الحوادث وأغربها. لقد اكتسب المسيح من سهره وصلاته

وتسليمه للآب في البستان قوة وهَيِّية جديدة .وعندما شاهد أعداؤه هيئته ظهر جُبْنُهُمْ، لأن ضمائهم كانت تشهد ضدهم .

لم ينصرف التلاميذ عند قول المسيح لأعدائه: «دعوا هؤلاء يذهبون» لأنهم تذكروا وعَدَهُمْ أنهم يذهبون معه للسجن والموت، وأن سيدهم قال لهم في هذا المساء: «مَنْ لَيْسَ لَهُ سِيفٌ فَلْيَبِغْ ثَوْبَهُ وَيَشْتَرِ سِيفاً». ولما قالوا له: «هنا سيفان.» قال لهم: «يكفي» ظنوا أنه يريدهم أن يدافعوا عنه بالقوة. فلما رأوا أن الذين أمسكوه لم يكتفوا بمسكه، بل أوثقوه (أي ربطوا يديه وراء ظهره، كعادتهم عند مَسْكَ أصحاب الجرائم الكبيرة) «تَحَمَّسُوا فَسَأَلُوا سَيِّدَهُمْ بِعِبَارَةِ التَّعْظِيمِ أَمَامَ خُصُومِهِ: «يَا رَبِّ، أَنْضِرْ بِالسِّيفِ؟».

يظهر أن بطرس لاحظ أن المهاجم الأعظم على سيده، كان عبد رئيس الكهنة، فلم يصبر لسمع جواب المسيح، بل استلَّ السيف الذي معه، وضرب به هذا العبد (واسمه ملخس) على رأسه ليقتله، لكنه لم يَصِبْ إلا أذنه اليمنى فقطعها. اهتم المسيح حالاً بإصلاح خطأ بطرس، كما اهتم أن يُظْهِرَ حُبَّهُ لأعدائه واستعدادَه أن يفعل معجزة لخيرهم، وفي الوقت ذاته يوضح لأعدائه مقامه الحقيقي. لم يتسلطوا عليه إلا برضاه، فأظهر أولاً استيائه من فعل بطرس، وأمرَه أن يردَّ سيفه إلى غمده. وذكره بالحكمة القديمة القائلة إن: «الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون». ثم علَّمه أنه لا يحتاج إلى بشرٍ يَخْلُصُونَ، فهو لا ينتظر من التلاميذ أن يعينوه بالقوة. ولو احتاج لمعونة لطلب من أبيه فيرسل له أكثر من اثني عشر جيشاً من الملائكة. أولاً يعلم بطرس حتى الآن أن القبض على سيده ينبغي أن يكون لكي تُكْمَلَ نبوات التوراة؟ ثم طلب المسيح أن يقدموا ملخس إليه، وهذا يعني تخفيف القيود التي تقيد يدي المسيح. فلما حلوه، مد يده وشفى أذن ملخس وفقاً لوصيته: «أحسنوا إلى مبغضيك». وكانت هذه المعجزة خاتمة معجزاته قبل صلبه .

ولما عرف التلاميذ أن المسيح لا يطلب مساعدتهم، وأن بقاءهم تحت الخطر لا يفيد سيدهم شيئاً، تركوه كلهم وهربوا. فتمت نبوته لهم وهم في العلية أنهم جميعاً سيتركونه .

شيوخ اليهود يحاكمون المسيح

كان حق توقيع حكم الإعدام للوالي الروماني وحده، ولو أن الحكومة الرومانية، كانت تنفذ أحكام رؤساء الدين اليهودي بسهولة، منعاً للمشاكل .

وكان لليهود رئيسان للكهنة، أولهما حنان - الرئيس الشرعي. ولكن الوالي الروماني كان قد عزله منذ عشرين سنة، وأقام صهره قيافا رئيساً للكهنة بدله. وكان حنان صاحب نفوذ عند الشعب، كما كان صانع المكائد الأكبر ضد المسيح .

أخذ الجنود المسيح بعد القبض عليه في البستان إلى بيت حنان، وكان تلاميذه قد هربوا، لكن يوحنا التلميذ الحبيب رجع وانضم إلى الجمهور المتجه من البستان إلى دار رئيس الكهنة. ولأنه كان معروفاً ومقبولاً فيها، دخل مع الداخلين. ورجع سمعان بطرس أيضاً وتبعهم لكن من بعيد، فلما وصل بعد الآخرين أوقفته الجارية البوابة، فطلب منها أن تستدعي له من داخل صديقه ورفيقه يوحنا. فلما خرج يوحنا وتكلم مع الجارية أدخل بطرس معه إلى الدار، لكن ليس إلى غرفة الرئيس حيث دخل هو .

يظهر أن الرئيس قيافا أرسل حالاً فجمع ليلاً الذين أرادهم من رؤساء الكهنة والكتبة والشيوخ، لكي يُجروا محاكمة غير رسمية يُصدرون فيها حكماً رسمياً معجل التنفيذ، ليتمكنوا من تسليم المسيح باكراً للوالي الروماني، لكي ينفذ حكمهم بالإعدام قبل يوم ذبيحة الفصح، لأن شريعة موسى كانت تحرم أي عمل مثل هذا يوم عيد الفصح وفي أيام العيد بعده .

أمام رئيس الكهنة

«فَسَأَلَ رَئِيسُ الْكَهَنَةِ يَسُوعَ عَنْ تَلَامِيذِهِ وَعَنْ تَعْلِيمِهِ. أَجَابَهُ يَسُوعُ: «أَنَا كَلَّمْتُ الْعَالَمَ عِلَانِيَةً. أَنَا عَلَّمْتُ كُلَّ حِينٍ فِي الْمَجْمَعِ وَفِي الْهَيْكَلِ حَيْثُ يَجْتَمِعُ الْيَهُودُ دَائِمًا. وَفِي الْخَفَاءِ لَمْ أَتَكَلَّمْ بِشَيْءٍ. لِمَاذَا تَسْأَلُنِي أَنَا؟ إِسْأَلِ الَّذِينَ قَدْ سَمِعُوا مَاذَا كَلَّمْتُهُمْ. هُوَذَا هَؤُلَاءِ يَعْرِفُونَ مَاذَا قُلْتُ أَنَا.» وَلَمَّا قَالَ هَذَا لَطَمَ يَسُوعَ وَاحِدٌ مِنَ الْخُدَّامِ كَانَ وَاقِفًا، قَائِلًا: «أَهَكَذَا تُجَاوِبُ رَئِيسَ الْكَهَنَةِ؟» أَجَابَهُ يَسُوعُ: «إِنْ كُنْتُ قَدْ تَكَلَّمْتُ رَدِيًّا فَاشْهَدْ عَلَيَّ الرَّدِي، وَإِنْ حَسَنًا فَلِمَاذَا تَضْرِبُنِي؟» وَكَانَ حَنَّانُ قَدْ أَرْسَلَهُ مُوثَقًا إِلَى قِيَافَا رَئِيسِ الْكَهَنَةِ» (يوحنا . 18:19-24)

يا لغرابة الصورة التي أمامنا الآن! ها رئيس الكهنة الأصلي الحقيقي المقام من الله (المسيح) يقف مكتوفاً مخفوراً ليُحاكم أمام شخص اختلس اسم رئيس الكهنة ووظيفته ومقامه، بعد أن حصل على موافقة والٍ شريرٍ وثني .

اتهم رئيس الكهنة المسيح أنه قائد مجموعة من المتآمرين لإثارة فتنة ضد الحكومة. بدليل مرافقة الجماهير له في جولاته، فسأله عن تلاميذه وتعليمه. وكان جواب المسيح: «في الخفاء لم أتكلم بشيء. لماذا تسألني أنا؟ إسأل الذين قد سمعوا ماذا كلمتهم. هوذا هؤلاء يعرفون ماذا قلت أنا؟». ولو أن المسيح لبى طلب رئيس المحكمة وشرح تعاليمه لما كان لجوابه تأثير في المحاكمة القانونية، ولما أقنع سائليه. ولم يعجب رد المسيح واحداً من الخدم الواقفين في الغرفة فلطم المسيح ووبّخه على جوابه للرئيس. ولا شك أننا نذكر تعليم المسيح في وعظه على الجبل بأن المضروب على أحد خديه يحول للضارب خده الآخر، الذي لم يقصد منه المعنى الحرفي، ولا أن إطلاقه يكون على كل الظروف. فبدلاً من خضوعه لهذه اللطمة بسكوت، وبّخ الخادم الذي ضربه بكل رزانة وحق قائلاً: «إن كنت تكلمت ردياً فاشهد على الرديء، وإن حسناً فلماذا تضربني؟». أما اللطمت الأخرى التي أتته بعد حين فلم يعترض عليها بشيء.

شهود الزور

«وَكَانَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَالشُّيُوخُ وَالْمَجْمَعُ كُلُّهُ يَطْلُبُونَ شَهَادَةَ زُورٍ عَلَى يَسُوعَ لِكَيْ يَقْتُلُوهُ، فَلَمْ يَجِدُوا. وَمَعَ أَنَّهُ جَاءَ شُهُودُ زُورٍ كَثِيرُونَ، لَمْ يَجِدُوا. وَلَكِنْ أَخِيراً تَقَدَّمَ شَاهِدًا زُورٍ وَقَالَ: «هَذَا قَالَ إِنِّي أَقْدِرُ أَنْ أَنْفُضَ هَيْكَلَ اللَّهِ، وَفِي ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ أَبْنِيهِ». فَقَامَ رَئِيسُ الْكَهَنَةِ وَقَالَ لَهُ: «أَمَا تُجِيبُ بِشَيْءٍ؟ مَاذَا يَشْهَدُ بِهِ هَذَا عَلَيْنِكَ؟» وَأَمَّا يَسُوعُ فَكَانَ سَاكِتًا. فَسَأَلَهُ رَئِيسُ الْكَهَنَةِ: «أَسْتَحْلِفُكَ بِاللَّهِ الْحَيِّ أَنْ تَقُولَ لَنَا: هَلْ أَنْتَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ؟» قَالَ لَهُ يَسُوعُ: «أَنْتَ قُلْتَ! وَأَيْضاً أَقُولُ لَكُمْ: مِنَ الْآنَ تُبْصِرُونَ ابْنَ الْإِنْسَانِ جَالِساً عَنْ يَمِينِ الْقُوَّةِ، وَآتِياً عَلَى سَحَابِ السَّمَاءِ». فَمَزَقَ رَئِيسُ الْكَهَنَةِ حَبْنَةً ثِيَابَهُ قَائِلاً: «قَدْ جَدَفْتَ! مَا حَاجَتُنَا بَعْدَ إِلَى شُهُودٍ؟ هَا قَدْ سَمِعْنَاهُ تَجْدِيفُهُ! مَاذَا تَرَوْنَ؟» فَأَجَابُوا وَقَالُوا: «إِنَّهُ مُسْتَوْجِبُ الْمَوْتِ». حِينَئِذٍ بَصَفُوا فِي وَجْهِهِ وَلَكْمُوهُ، وَآخَرُونَ لَطَمُوهُ قَائِلِينَ: «تَنْبَأْ لَنَا أَيُّهَا الْمَسِيحُ، مَنْ ضَرَبَكَ!» (متى. 26:59-68)

أهتم الرؤساء كثيراً بتدبير شهود زور. لكن لم تتفق شهاداتهم. أخيراً تنسموا نجاحاً من شاهدين يشهدان بأن المسيح قال إنه يهدم الهيكل ثم يُقيمه في ثلاثة أيام. وهذا تحريف لكلام قاله منذ ثلاث سنين في الهيكل لما طهره أول مرة، وكان يقصد به هيكَل جسده. لكن كلام الشاهدين اختلف فسقطت شهادتهما، فاحتد الرئيس ووقف في الوسط وطلب من المسيح أن يدافع عن نفسه جواباً على الشهود. «فلم يجبه بكلمة». فتحققت نبوة إشعياء القائلة: «ظَلِمَ أَمَّا هُوَ فَتَدَلَّلَ وَلَمْ يَفْتَحْ فَاهُ» (إشعياء ٥٣: ٧).

عند ذلك قال الرئيس: «استحلفك بالله الحي أن تقول لنا: أنت المسيح ابن الله؟». لم يقدر المسيح أن يسكت عند هذا السؤال، لئلا يؤخذ سكوته دليلاً على رجوعه عن تصريحاته

السابقة بهذا المعنى، أو على خوفه من مضطهديه، لذلك أجاب حالاً بالإيجاب. وزاد قوله إنهم سوف يبصرونه كابن الإنسان جالساً عن يمين القوة وآتياً على سحاب السماء. كأنه يتنبأ للرئيس وللمحكمة عن يوم يأتي، حين تتبدل الأمور، فيكون هو الديان الذي يدين الرئيس وقومه .

ما هذا الكلام الغريب العظيم من مكتوفٍ يُحاكم، يوجّهه إلى محاكميه الذين بيدهم حياته؟ وهل يحقُّ لمجرد بشرٍ أن يقول كلاماً كهذا؟ وتظاهر الرئيس بأنه لا يحتمل أن يسمع كلاماً يعارض العظمة الإلهية، فمزّق ثيابه وقال: «قد جدف. ما حاجتنا بعد إلى شهود؟ ها قد سمعتم تجديفه. ما رأيكم؟» .

لا يحقُّ للرئيس أن يعلن رأيه في قضية مطروحة لحكم المجلس، لأن ذلك يؤثر تأثيراً مهماً في الأصوات بعده. وكان القانون العبراني العادل يقضي بأن تؤخذ في المجالس أصوات الأصغر فيه قبل الأكبر. ومن هذا نرى أن قيافا فقد صلاحيته كحاكم في هذا الوقت، عندما أصدر حكمه أن المسيح جدف، الأمر الذي يعني قتل المسيح. ولكنه حصل على موافقة جميع زملائه في المجلس أن المسيح يستحق الموت .

ولما رأى الخدم والحرس العسكري أن الرؤساء حكموا بصوت واحد على المسيح بأعظم جريمة دينية ممكنة، وأنهم مستأثرون منه غاية الاستياء، أطلقوا العنان لميولهم الوحشية، عالمين أنهم بذلك يسرُّون الرؤساء. ومع أن المحاكمة الرسمية لم تكن قد بدأت أخذوا يبصقون في وجه المسيح، ويغطُّون وجهه ويلكمونه، ويقولون: «تنبأ لنا أيها المسيح، من هو الذي ضربك؟» ثم جلدوه وأجروا عليه أنواع الإستهزاء المُهين، تحقيقاً للنبوة القديمة القائلة: «بَدَلْتُ ظَهْرِي لِلضَّارِبِينَ وَخَدَّيَ لِلنَّائِفِينَ. وَجْهِي لَمْ أَسْتُرْ عَنِ الْعَارِ وَالْبَصُقِ» (إشعياء ٥٠: ٦).

كانت محاكمة المسيح في غرفة تشرف على الدار الخارجية، حيث تجتمع الخدم والعبيد. وفي أوائل نيسان يشتد البرد قبيل الفجر. فأضرموا جمرأ في وسط الدار ليستدفئوا، وانضم بطرس إليهم. ويظهر أن بطرس لم يعترض على شيء من الكلام المُهين الذي دار بينهم في حق سيده، فلم ينتقده أحد. لكن بعد حين تقدمت «البوابة» التي فتحت له، وتفرست فيه، وقالت له: «وأنت كنت مع يسوع الناصري الجليلي. ألسنت أنت أيضاً من تلاميذ هذا الإنسان؟». فأنكر قدام الجميع قائلاً: «لست أنا (أي لست من تلاميذ هذا الإنسان). لست أدري ولا أفهم ما تقولين. ولست أعرفه يا امرأة.»

بطرس ينكر المسيح

«وَيَيْنَمَا كَانَ بُطْرُسُ فِي الدَّارِ أَسْفَلَ جَاءَتْ إِحْدَى جَوَارِي رَبِّيسِ الْكَهَنَةِ. فَلَمَّا رَأَتْ بُطْرُسَ يَسْتَنْدِفِي، نَظَرَتْ إِلَيْهِ وَقَالَتْ: «وَأَنْتَ كُنْتَ مَعَ يَسُوعَ النَّاصِرِيِّ!» فَأَنْكَرَ قَائِلًا: «لَسْتُ أَدْرِي وَلَا أَفْهَمُ مَا تَقُولِينَ!» وَخَرَجَ خَارِجًا إِلَى الدَّهْلِيزِ، فَصَاحَ الدَّيْكَ. فَرَأَتْهُ الْجَارِيَةُ أَيْضًا وَابْتَدَأَتْ تَقُولُ لِلْحَاضِرِينَ: «إِنَّ هَذَا مِنْهُمْ!» فَأَنْكَرَ أَيْضًا. وَبَعْدَ قَلِيلٍ أَيْضًا قَالَ الْحَاضِرُونَ لِبُطْرُسَ: «حَقًّا أَنْتَ مِنْهُمْ، لِأَنَّكَ جَلِيلِيٌّ أَيْضًا وَلُغَتُكَ تُشَبِّهُ لُغَتَهُمْ.» فَأَبْتَدَأَ يَلْعَنُ وَيَحْلِفُ: «إِنِّي لَا أَعْرِفُ هَذَا الرَّجُلَ الَّذِي تَقُولُونَ عَنْهُ!» وَصَاحَ الدَّيْكَ ثَانِيَةً، فَتَذَكَّرَ بُطْرُسُ الْقَوْلَ الَّذِي قَالَهُ لَهُ يَسُوعُ: «إِنَّكَ قَبْلَ أَنْ يَصِيحَ الدَّيْكَ مَرَّتَيْنِ، تُنْكِرُنِي ثَلَاثَ مَرَّاتٍ.» فَلَمَّا تَفَكَّرَ بِهِ بَكَى» (مرقس ١٤: ٦٦-٧٢).

لكن إنكاره أوقد حريقاً في قلبه، فتركهم وخرج خارجاً إلى الدهليز. وبينما هو هناك سمع صوت صياح الديك. واعترضته جارية أخرى أكدت للحاضرين أن هذا منهم. فأنكر بقسم تثبيتاً لإنكاره السابق لكي لا يكشفوا كذبه. أخيراً بعد ساعة زاد عليه الاعتراض من الذين أكدوا أنه أحد تلاميذ المسيح، ولا سيما أن لهجته الجليلية تدل على ذلك، إلى أن ظهر بينهم نسيب ملخس الذي قطع أذنه في البستان، وقال إنه رآه مع المسيح هناك.

ولما رأى بطرس شدة الخطر الذي يتهدهه، وعرف أن الإنكار البسيط كالسابق لا يكفي، أخذ يحلف ويلعن مؤكداً أنه لا يعرف المسيح.

لم يفرغ بطرس من إنكاره الفظيع، إلا وصاح الديك ثانية. وكان المسيح ينتظر هذا الصياح لينقذ تلميذه من الهوة التي تورط فيها، فحوّل اهتمامه عن عذابه في تلك المحاكمة وما يتبعها، ليسأل عن نفس هذا البطل الساقط. وأدار وجهه عن رئيس الكهنة والرؤساء لينظر إلى بطرس في الدار، فالتفت عينا المسيح بعيني تلميذه، بالاتفاق مع صياح الديك. وأسرّ المسيح قلب بطرس بلفتة الحب المقترن بالحزن. فابتدأت دموعه تسيل نهراً، وتغلّبت فيه العواطف الشريفة على الدنيئة، وحلّت التوبة القلبية الصافية محل الجحود والإنكار، فعلم أن خطيئته قد غُفرت وأن صلاة المسيح لأجله لكي لا يفنى إيمانه قد استُجيب. لم يعد بطرس يسأل: ماذا يقول الناس عنه، ولا ماذا يتهدهه من الخطر. لكنه سأل فقط عن رضى سيده حبيب نفسه. «فخرج إلى خارج وبكى بكاء مرّاً.» ونال الغفران التام.

«هَلُمَّ نَتَحَاجَّ، يَقُولُ الرَّبُّ. إِنْ كَانَتْ خَطَايَاكُمْ كَالثَّلْجِ. إِنْ كَانَتْ حَمَرَاءَ كَالدُّودِيِّ تَصِيرُ كَالصُّوفِ» (اش ١٨: ١). «أَنَا أَنَا هُوَ الْمَاجِي دُنُوبَكَ لِأَجْلِ نَفْسِي، وَخَطَايَاكَ لَا أَذْكُرُهَا» (إشعيا ٤٣: ٢٥) «طُوبَى لِلَّذِي غَفَرَ إِثْمَهُ وَسَتَرَتْ خَطِيئَتُهُ» (مز ٣٢: ١). والمسيح الذي خلّص بطرس بلفتته، ينجي في كل حين من أعمال الإثم ودركاته كل من ينظر إليه نظرة الإيمان.

محاكمة المسيح صباحاً

«وَلَمَّا كَانَ النَّهَارُ اجْتَمَعَت مَشِيخَةُ الشَّعْبِ: رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَالْكَتَبَةُ، وَأَصْعَدُوهُ إِلَى مَجْمَعِهِمْ قَائِلِينَ: «إِنْ كُنْتَ أَنْتَ الْمَسِيحُ فَقُلْ لَنَا». فَقَالَ لَهُمْ: «إِنْ قُلْتُ لَكُمْ لَا تُصَدِّقُونَ، وَإِنْ سَأَلْتُ لَا تُجِيبُونَنِي وَلَا تُطْلِقُونَنِي. مُنْذُ الْآنَ يَكُونُ ابْنُ الْإِنْسَانِ جَالِساً عَنْ يَمِينِ قُوَّةِ اللَّهِ». فَقَالَ الْجَمِيعُ: «أَفَأَنْتَ ابْنُ اللَّهِ؟» فَقَالَ لَهُمْ: «أَنْتُمْ تَقُولُونَ إِنِّي أَنَا هُوَ». فَقَالُوا: «مَا حَاجَتُنَا بَعْدَ إِلَى شَهَادَةٍ؟ لِأَنَّا نَحْنُ سَمِعْنَا مِنْ فَمِهِ». فَقَامَ كُلُّ جُمْهُورِهِمْ وَجَاءُوا بِهِ إِلَى بِيلاطُسَ» (لوقا ٢٢: ٦٦-٢٣).

كانت المحاكمة في الليل غير قانونية - وما أن أشرق صباح يوم الجمعة حتى قرّر شيوخ اليهود أن يصدرُوا حكمهم الذي اتفقوا عليه خلال الليل. ولما عقدوا جلستهم الرسمية سألوهُ إن كان هو المسيح المنتظر، فأجابهم: «إِنْ قُلْتُ لَكُمْ لَا تُصَدِّقُونَ، وَإِنْ سَأَلْتُكُمْ لَا تُجِيبُونَنِي». ثم كرر عبارته السابقة بخصوص جلوسه عن يمين القوة الإلهية. فسألوهُ: «أَفَأَنْتَ ابْنُ اللَّهِ؟» ولما أجابهم بالإيجاب قالوا: «ما حاجتنا بعد إلى شهود، لأننا نحن سمعنا من فمه؟». «

فحكم هذا المجلس الملي المعظم على المسيح بالإعدام، لارتكابه جريمة التجديف. فماذا يفعل المجلس الآن بعد حكمه هذا؟

كان لا بد أن يصدق الوالي الروماني بيلاطس على هذا الحكم، ليصبح نافذ المفعول. ولما كان اليوم التالي من أيام عيد الفصح الهامة التي تدوم أسبوعاً، كان عليهم أن يسرعوا للحصول على موافقة بيلاطس، لأنه لو لم ينفذ هذا الحكم يوم الجمعة لاقتضى الأمر تأجيله أسبوعاً كاملاً. ومن يدري ما سيحدث خلال هذا الأسبوع؟ سيحاول الشعب أن يخلصه من الحكم الظالم.. لذلك قام كل جمهورهم وجاءوا إلى دار الولاية ودفعوهُ إلى بيلاطس البنطي الوالي .

ما هذه الصورة المحزنة والمكدرّة؟ ها رؤساء الشعب معلّموا الشريعة الإلهية الطاهرة، يسيرون في مقدمة جمع في شوارع المدينة المقدسة، ليسلموا مسيحهم ورجاءهم الوحيد، ورجاء العالم أجمع، إلى والٍ قاسٍ ظالم وثني ليصلبه .

يهودا ينتحر

«حِينَئِذٍ لَمَّا رَأَى يَهُودَا الَّذِي أَسْلَمَهُ أَنَّهُ قَدْ دِينَ، نَدِمَ وَرَدَّ الثَّلَاثِينَ مِنَ الْفِضَّةِ إِلَى رُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ وَالشُّيُوخِ قَائِلاً: «قَدْ أَخْطَأْتُ إِذْ سَلَّمْتُ دَمًا بَرِيئاً». فَقَالُوا: «مَاذَا عَلَيْنَا؟ أَنْتَ أَبْصِرْ!» فَطَرَحَ الْفِضَّةَ فِي الْهَيْكَلِ وَانْصَرَفَ، ثُمَّ مَضَى وَخَنَقَ نَفْسَهُ. فَأَخَذَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ الْفِضَّةَ وَقَالُوا: «لَا يَحِلُّ أَنْ نُلْقِيَهَا فِي الْخِزَانَةِ لِأَنَّهَا تَمَنُّ دَمًا». فَتَشَاوَرُوا وَاشْتَرَوْا بِهَا حَقْلَ الْفَخَّارِيِّ مَقْبَرَةً لِلْغُرَبَاءِ. لِهَذَا سُمِّيَ ذَلِكَ الْحَقْلُ «حَقْلُ الدَّمِ» إِلَى هَذَا الْيَوْمِ. حِينَئِذٍ تَمَّ مَا قِيلَ بِإِرْمِيَا

النَّبِيِّ: «وَأَخَذُوا الثَّلَاثِينَ مِنَ الْفِضَّةِ، ثُمَّ الْمُتَمَنِّي الَّذِي تَمَنَّوْهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَأَعْطَوْهَا عَنْ حَقْلِ الْفَخَّارِيِّ، كَمَا أَمَرَنِي الرَّبُّ» (متى ٢٧: ٣-١٠).

وهنا شعر يهوذا الإسخريوطي أنه أجرم في حق المسيح. ربما تمنى أن يُفلت المسيح من قبضتهم بقوته ومعجزاته. ولكن لما رأى أن المحاكمة ماضية في الطريق وأن المسيح يواجه الموت، أسرع لشيوخ اليهود يردُّ الثلاثين من الفضة ويقول: «قد أخطأت إذ سلَّمتُ دماً بريئاً». ولم يكن رؤساء اليهود يهتمُّون بمحاكمة عادلة، فجاوبوا يهوذا باحتقار قائلين: «ماذا علينا؟ أبصر أنت؟».

ألقى يهوذا بالفضة إليهم. ولكن تمسُّكهم الظاهري بالشرعية جعلهم يرفضون إعادتها للخزانة، فتغلَّبوا على المشكلة بأن اشترَوْا بالمال حقلاً جعلوه مقبرة للغرباء، فتحقَّقت نبوة هامة في التوراة (زكريا ١٢: ١١، ١٣).

ولما رأى الإسخريوطي أن المسيح لم يَنْجُ من الموت، ندم غاية الندم، لكن ندمه كان مختلفاً عن ندم بطرس الذي أنكر، فقد سعى ليصلح أمره مع الناس فقط. اعترف للبشر أولاً، فلقي الفشل الذي يصيب كل من يقَدِّم أولاً للبشر اعترافه بخطاياها. توهم أنه يقدر أن يصلح ما فعل وهذا مستحيل. كان عليه أن يستغفر من الله أولاً، ويطلب منه أن يصلح ما أفسده هو.

مسكين الإسخريوطي، أولاً وأخيراً... مضى وخنق نفسه. سقط على وجهه وانشقَّ من الوسط، فانسكبت أحشاؤه كلها. فأبي نتيجة مرعبة هذه التي تجانس خيانتة العظيمة؟ هذه لمحة من عذاب جهنم، أبرقت منها على العالم عبرة ومثالاً. فمن لا يتَّعظ بها؟

الوالي الروماني يحاكم المسيح

في الصباح الباكر من يوم الجمعة بلغ الوالي في مخدعه قدوم رئيس الكهنة مع مجلسه الموقر، وأنهم أحضروا معهم النبي الناصري الشهير، صانع المعجزات الفائقة، مكتوفاً ومخفوراً، على صورة تدلُّ أنه ارتكب جريمة عظيمة. وكان رؤساء اليهود يتشبَّثون بعظمتهم حتى في علاقاتهم مع الولاة الرومان. وكان الولاة يحترمون رؤساء اليهود ويعترفون لهم بسلطة واسعة ونفوذ عظيم، فكانوا غالباً ينفذون لهم أحكامهم الدينية دون مراجعة.

اهتم رؤساء اليهود أن يتصرف بيلاطس معهم حسب عادته، فلا يفحص القضية، لأن الوقت قد دهمهم. كما كانوا يخشون أن فحَصَ القضية يعني إلغاء حكمهم الظالم. ولما كانت شريعتهم تقول إن دخولهم إلى دار المحكمة الوثنية ينجسهم، ولا وقت ليتطهروا من هذا التنجس قبل العيد العظيم، تساهل الوالي معهم وخرج إليهم، وأدخل المسيح مع العسكر إلى الدار. ثم سأل الرؤساء في غياب المسيح: «أية شكايّة تقدّمون على هذا الإنسان؟» فأجابوه: «لو لم يكن فاعل شرٍ لما كُنّا سلّمناه إليك». محاولين بهذا الرد أن لا يفحص بيلاطس القضية. لكن الوالي تمسك بحقوقه القانونية، فاضطروا أن يصوغوا دعواهم في قالب قانوني، مما يوجب معاقبة المسيح بالإعدام.

اتهامات اليهود للمسيح

«ثُمَّ جَاءُوا يَسُوعَ مِنْ عِنْدِ قَيَافَا إِلَى دَارِ الْوَلَايَةِ، وَكَانَ صُبْحٌ. وَلَمْ يَدْخُلُوا هُمْ إِلَى دَارِ الْوَلَايَةِ لِكَيْ لَا يَتَنَجَّسُوا، فَيَأْكُلُونَ الْفِصْحَ. فَخَرَجَ بِيلاطُسُ إِلَيْهِمْ وَقَالَ: «أَيَّةَ شِكَايَةٍ تُقَدِّمُونَ عَلَى هَذَا الْإِنْسَانِ؟» أَجَابُوا وَقَالُوا لَهُ: «لَوْ لَمْ يَكُنْ فَاعِلَ شَرٍّ لَمَّا كُنَّا قَدْ سَلَّمْنَاهُ إِلَيْكَ!» فَقَالَ لَهُمْ بِيلاطُسُ: «خُذُوهُ أَنْتُمْ وَاحْكُمُوا عَلَيْهِ حَسَبَ نَامُوسِكُمْ». فَقَالَ لَهُ الْيَهُودُ: «لَا يَجُوزُ لَنَا أَنْ نَقْتُلَ أَحَدًا». لِيَتِمَّ قَوْلُ يَسُوعَ الَّذِي قَالَهُ مُشِيرًا إِلَى آيَةِ مِيتَةٍ كَانَتْ مُزْمَعًا أَنْ يَمُوتَ» (يوحنا ١٨: ٣٢-٢٨).

كانت الجريمة الأولى التي نسبها شيوخ اليهود للمسيح هي أنه يفسد الأمة، أي يثير فتنة سياسية ضد الحكومة. لكن لو صدق هذا القول لكان بيلاطس قد عرف هذا بواسطة جواسيسه دون تداخل الرؤساء الذين لا تسيئهم الفتنة ضد الحكومة.

وكانت الجريمة الثانية أن المسيح يمنع أن تُعطى جزية لقيصر. وهذا ما حاولوا أن يجعلوا المسيح أن يقوله، لكنه رفض وقال: «أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله.»

وأما الشكاية الثالثة فكانت أنه «يقول إنه هو مسيح ملك». وهذا أيضاً كذب، فليس في هذه التهمة أيضاً ما يؤثر على الوالي، لأنه يعلم جيداً أن هؤلاء اليهود يفتخرون بكل من يقاوم الحكم الروماني، فلا يمكن أن يسلموا يهودياً للقتل بهذه التهمة لو كانت صحيحة.

فأجابهم الوالي بنفور وتحقير وتهكم: «خذوه أنتم وأحكموا عليه حسب ناموسكم» مع أنه لا علاقة بين الجرائم التي ذكرها وبين ناموسهم. وكأنه يقول لهم: «لا تستطيعون أن تفعلوا ما تشاؤون بدوني، وأنا لا أخضع لمطالبيكم بدون فحص». فاضطر الرؤساء إلى التذلل لينالوا مرامهم، فقالوا: «لا يجوز لنا أن نقتل أحداً.»

بيلاطس يستجوب المسيح

«ثُمَّ دَخَلَ بِيَلَاطُسُ أَيْضاً إِلَى دَارِ الْوَلَايَةِ وَدَعَا يَسُوعَ، وَقَالَ لَهُ: «أَأَنْتَ مَلِكُ الْيَهُودِ؟» أَجَابَهُ يَسُوعُ: «أَمِنْ ذَاتِكَ تَقُولُ هَذَا، أَمْ آخَرُونَ قَالُوا لَكَ عَنِّي؟» أَجَابَهُ بِيَلَاطُسُ: «أَلْعَلِّي أَنَا يَهُودِيٌّ؟ أَمَتُكَ وَرُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ أَسْلَمُوكَ إِلَيَّ. مَاذَا فَعَلْتَ؟» أَجَابَ يَسُوعُ: «مَمْلَكَتِي لَيْسَتْ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ. لَوْ كَانَتْ مَمْلَكَتِي مِنْ هَذَا الْعَالَمِ لَكَانَ خُدَامِي يُجَاهِدُونَ لِكَي لَا أَسْلَمَ إِلَى الْيَهُودِ. وَلَكِنْ الْآنَ لَيْسَتْ مَمْلَكَتِي مِنْ هُنَا.» فَقَالَ لَهُ بِيَلَاطُسُ: «أَفَأَنْتَ إِذَا مَلِكٌ؟» أَجَابَ يَسُوعُ: «أَنْتَ تَقُولُ إِنِّي مَلِكٌ. لِهَذَا قَدْ وُلِدْتُ أَنَا، وَلِهَذَا قَدْ أَتَيْتُ إِلَى الْعَالَمِ لِأَشْهَدَ لِلْحَقِّ. كُلُّ مَنْ هُوَ مِنَ الْحَقِّ يَسْمَعُ صَوْتِي.» قَالَ لَهُ بِيَلَاطُسُ: «مَا هُوَ الْحَقُّ؟» وَلَمَّا قَالَ هَذَا خَرَجَ أَيْضاً إِلَى الْيَهُودِ وَقَالَ لَهُمْ: «أَنَا لَسْتُ أَجِدُ فِيهِ عِلَّةً وَاحِدَةً» (يوحنا ١٨: ٣٣-٣٨).

حصل كل هذا في العراء أمام دار الولاية، وبعده دخل الوالي ودعا المسيح ليفحص أمره. وكان سؤاله الأول معقولاً ومناسباً، لأن اتهام اليهود له بأنه مسيح ملك لم يكن في مواجهته فسأله: «أأنت ملك اليهود؟» ولم يستطع المسيح أن يجيب بنعم فقط، لئلا يأخذ الوالي هذا الجواب على معنى سياسي، بخلاف الواقع. ولم يستطع أن يقول كلا، لأنه بالحقيقة ملك اليهود، بل ملك كل العالم بالمعنى الروحي. وكان يعلم ما قاله اليهود للوالي، فأجاب: «أمن ذاتك تقول هذا، أم آخرون قالوا لك عني؟». أي هل تطلب أن تعرف حقيقة أمري، أو فقط أن تعرف صدق الذين سلموني إليك؟ فنفي بيلاطس أنه يطلب معرفة الحقيقة بقوله: «ألعي أنا يهودي؟». (يعني لماذا أهتم أن أعرف مسيح اليهود؟) «أمتك ورؤساء الكهنة أسلموك إلي. ماذا فعلت؟»

حينئذ كلم المسيح بيلاطس بكلامٍ سامٍ بيّن فيه ماهية ملكوته الروحي، وبرهان ذلك أن أتباعه لم يدافعوا عنه بالسلاح. بينما كانوا يستعملون السلاح لو كان فهموا ملكوته بالمعنى السياسي. لكن الوالي لم يكتفِ بهذا التصريح الروحي المبهّم عنده، فطلب جواباً واضحاً على سؤاله، فقال المسيح: «أنت تقول إنني ملك. لهذا قد وُلدت أنا. ولهذا قد أَتَيْتُ إِلَى الْعَالَمِ لِأَشْهَدَ لِلْحَقِّ (أي الحق الإلهي). وكلُّ مَنْ هُوَ مِنَ الْحَقِّ يَسْمَعُ صَوْتِي.»

فقال بيلاطس بمزيج من الاستخفاف والاحترام، وهو خارجٌ ليقابل اليهود في الفسحة الخارجية: «ما هو الحق؟». أي من يقدر أن يعرف الحق بين الآراء الدينية الكثيرة المتضاربة؟ هل هو بجانب فلاسفة اليونان المتعبدین للجمال وآلهته - أم بجانب الرومان المتعبدین للقوة وآلهتها - أم بجانب اليهود المتعبدین لإله واحد وهو روحٌ لا صورة ظاهرة له - أم بجانبك أنت المرفوض من أمّتك اليهودية التي تخالفها، وتقول إنك أتيت من السماء لتشهد للحق؟ .»

سأل بيلاطس: «ما هو الحق؟» لكنه لم ينتظر الجواب، وما أكثر أمثاله في كل عصرٍ وقطر، الذين يسألون سؤال بيلاطس بالاستخفاف أو بالاحترام، لكنهم لا ينتظرون ليحصلوا على الجواب من الحق سبحانه، ولذلك لا يهتدون إليه. قال المسيح: «إِنْ تَبْتَغُوا فِي كَلَامِي... تَعْرِفُونَ الْحَقَّ وَالْحَقُّ يُحَرِّرُكُمْ» (يوحنا ٨: ٣١ ، ٣٢).

وخرج بيلاطس ليعلن لليهود: «أنا لست أجد فيه علة واحدة». إِنْ صَحَّ زَعْمُ البعض، تكون امرأته قد زرعت فيه ميلاً إلى المسيح. والأمر ظاهر أنه كان يهاب المسيح ويحترمه .

«فَقَالَ بِيَلَاطُسُ لِرُؤُسَاءِ الْكَهَنَةِ وَالْجُمُوعِ: «إِنِّي لَا أَجِدُ عِلَّةً فِي هَذَا الْإِنْسَانِ». فَكَانُوا يُشَدِّدُونَ قَائِلِينَ: «إِنَّهُ يَهَيِّجُ الشَّعْبَ وَهُوَ يُعَلِّمُ فِي كُلِّ الْيَهُودِيَّةِ مُبْتَدِئاً مِنَ الْجَلِيلِ إِلَى هُنَا» (لوقا ٢٣: ٤ ، ٥).

عند هذا التصريح من الوالي جدد اليهود شكاياتٍ متنوعة لم يَرْضَ المسيح أن يجيب عليها. ولما سأله الوالي لماذا لا يدافع عن نفسه، لم يجبه بكلمة، لأنه يعلم أن كلامه يكون عبثاً. وتعجب الوالي من هذا السكوت، لكنه أظهر احترامه بإعادة شهادته أمام الرؤساء والجمهور ببراءة المسيح، فغضبوا وجددوا الشكوى بأن المسيح كان يحرك الشعب للفتنة، ليس فقط في ولاية بيلاطس، بل أكثر أيضاً في وطنه في ولاية هيرودس أنتيباس، في مقاطعة الجليل حيث قضى المسيح معظم سنيه .

ذكر رؤساء اليهود أن المسيح من الجليل ليهيَّجوا الوالي على المسيح ليقْتله. لأن الجليليين أكثر الناس إثارةً للفتن السياسية. لكن الرؤساء ندموا على قولهم هذا، لأنه أدَّى إلى بطءٍ جديد في مشروعاتهم. فقد جعلوا الوالي يفكر في وسيلة جديدة للتخلُّص من هذه الدعوى المزعجة، بإحالتهم إلى حاكم الجليل اليهودي، رغم ما بينهما من الخلاف الشديد. فأرسل بيلاطسُ المسيحَ إلى قصر هيرودس في أورشليم، ومعه المشتكين عليه، وهو يحسب أن هذه الإحالة تريحه من المسؤولية تجاه اليهود وتجاه هيرودس أيضاً، ويكون فيها شيء من الاسترضاء، فينتهي العداء بينه وبين هيرودس، فنجح في الغاية الثانية، وصار بيلاطس وهيرودس صديقين مع بعضهما من ذلك اليوم. لكنه لم ينجح في التخلُّص من مشكلة إرضاء اليهود، ولا إراحة ضميره .

المسيح أمام هيرودس

«فَلَمَّا سَمِعَ بِيَلَاطُسَ ذَكَرَ الْجَلِيلَ، سَأَلَ: «هَلِ الرَّجُلُ جَلِيلِيٌّ؟» وَجِبْنَ عِلْمٌ أَنَّهُ مِنْ سُلْطَنَةِ هِيرُودُسَ، أَرْسَلَهُ إِلَى هِيرُودُسَ، إِذْ كَانَ هُوَ أَيْضاً تِلْكَ الْأَيَّامَ فِي أُورُشَلِيمَ. وَأَمَّا هِيرُودُسُ فَلَمَّا رَأَى يَسُوعَ فَرَحَ جَدًّا، لِأَنَّهُ كَانَ يُرِيدُ مِنْ زَمَانٍ طَوِيلٍ أَنْ يَرَاهُ، لِسَمَاعِهِ عَنْهُ أَشْيَاءَ كَثِيرَةً، وَتَرَجَّى أَنْ يَرَاهُ يَصْنَعُ آيَةً. وَسَأَلَهُ بِكَلَامٍ كَثِيرٍ فَلَمْ يُجِبْهُ بِشَيْءٍ. وَوَقَفَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَالْكَتَبَةُ يَسْتَكُونُ عَلَيْهِ بِاسْتِدَادٍ، فَاحْتَقَرَهُ هِيرُودُسُ مَعَ عَسْكَرِهِ وَاسْتَهْزَأَ بِهِ، وَأَلْبَسَهُ لِبَاساً لَامِعاً، وَرَدَّهُ إِلَى بِيَلَاطُسَ. فَصَارَ بِيَلَاطُسُ وَهِيرُودُسُ صَدِيقَيْنِ مَعَ بَعْضِهِمَا فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، لِأَنَّهُمَا كَانَا مِنْ قَبْلُ فِي عَدَاوَةٍ بَيْنَهُمَا) «لوقا ٦: ٢٣-١٢».

لما وصل المسيح مع المشتكين عليه إلى قصر الملك هيرودس فرح هذا جداً، ليس فقط لافتخاره بتنازل الوالي له، بل لأنه منذ زمان كان يشتهي أن يرى المسيح، لأنه أشهر كل أفراد رعيته في الجليل. ولم يكن قد رآه حتى ذلك الوقت. وقد فرح هيرودس لأنه ظن أن المسيح سيُجري أمامه المعجزات التي قد سمع بها كثيراً. لكن ألا تكون رؤية المسيح موثقاً بالقيود تذكيراً مؤلماً لهيرودس بيوحنا المعمدان لما أدخلوا أمامه رأسه على طبق؟... لما سمع سابقاً بالمسيح قال إنه يوحنا المعمدان الذي قام من القبر، فماذا يظن الآن؟

فحص هيرودس المسيح بكلام كثير لم يُحفظ لنا منه شيء، لكن المسيح لم يكثر ولم يجبه بشيء. كان هيرودس الشرير قد أسكت صوت الله بغم المعمدان، والآن لا يكلمه ابنُ الله بشيء. فاحتقره هيرودس. مع عسكره واستهزأ به وألبسه لباساً لامعاً وردّه (دون حكم) إلى بيلاطس.

بيلاطس يحاول أن ينقذ المسيح

«فَدَعَا بِيَلَاطُسُ رُؤَسَاءَ الْكَهَنَةِ وَالْعُظَمَاءَ وَالشَّعْبَ، وَقَالَ لَهُمْ: «قَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْ هَذَا الْإِنْسَانِ كَمَنْ يُفْسِدُ الشَّعْبَ. وَهَذَا أَنَا قَدْ فَحَصْتُ قُدَّامَكُمْ وَلَمْ أَجِدْ فِي هَذَا الْإِنْسَانِ عِلَّةً مِمَّا تَسْتَكُونُ بِهِ عَلَيْهِ. وَلَا هِيرُودُسُ أَيْضاً، لِأَنِّي أَرْسَلْتُكُمْ إِلَيْهِ. وَهَذَا لَا شَيْءَ يَسْتَحِقُّ الْمَوْتَ صَنِيعَ مَنْهُ. فَأَنَا أُؤَدِّبُهُ وَأُطْلِقُهُ». وَكَانَ مُضْطَرّاً أَنْ يُطْلَقَ لَهُمْ كُلُّ عِيدٍ وَاجِدًا، فَصَرَخُوا بِجُمْلَتِهِمْ قَائِلِينَ: «خُذْ هَذَا وَأُطْلِقْ لَنَا بَارَابَاسَ!» وَذَلِكَ كَانَ قَدْ طُرِحَ فِي السِّجْنِ لِأَجْلِ فِتْنَةٍ حَدَثَتْ فِي الْمَدِينَةِ وَقَتْلٍ. فَذَا هُمْ أَيْضاً بِيَلَاطُسَ وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يُطْلَقَ يَسُوعَ، فَصَرَخُوا: «اصْلُبْهُ! اصْلُبْهُ!» فَقَالَ لَهُمْ ثَالِثَةً: «فَأَيُّ شَرِّ عَمَلٍ هَذَا؟ إِنِّي لَمْ أَجِدْ فِيهِ عِلَّةً لِلْمَوْتِ، فَأَنَا أُؤَدِّبُهُ وَأُطْلِقُهُ». فَكَانُوا يَلْجُونَ بِأَصْوَاتٍ عَظِيمَةٍ طَالِبِينَ أَنْ يُصَلَّبَ. فَقَوَّيْتُ أَصْوَاتَهُمْ وَأَصْوَاتُ رُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ. فَحَكَمَ بِيَلَاطُسُ أَنْ تَكُونَ طَلِبَتُهُمْ. فَأُطْلِقَ لَهُمُ الَّذِي طُرِحَ فِي السِّجْنِ لِأَجْلِ فِتْنَةٍ وَقَتْلٍ، الَّذِي طَلَبُوهُ، وَأَسْلَمَ يَسُوعَ لِمَشِيئَتِهِمْ» (لوقا 23:13-25).

لما عاد الجمع بالمسيح إلى بيلاطس مع جواب أن هيرودس لم يقف له على ذنب حقيقي يستوجب قتلَه، دعا بيلاطس الشعب مع رؤساء الكهنة والعظماء، لعله يحصل من الشعب على مساعدة ضد مكائد الرؤساء، واقترح على اليهود أن يكتفوا بجلده، زاعماً أن هذا إشفاق على المسيح يخدم العدالة بتخليص بريء من الإعدام، وفي الوقت ذاته يجتنب استياء اليهود منه، الذي لا بد سيحصل، لو أنه أطلق المسيح بدون أن يعذبه. فقال لهم: «أنا أؤدبه وأطلقه». بيلاطس يؤدب المسيح بعد أن برّاه تماماً، والأمران ضدان. هذا بداءة خطئه، الذي جرّه إلى أخطاء أعظم.

عند ذلك تحوّلت أفكار الجموع إلى أمر آخر تعودوه في مثل هذا الوقت من كل عام، وهو أن الوالي يُطلق أحد المسجونين تحت الحكم بالإعدام هدية لهم بمناسبة عيد الفصح. فلما طالبوا بيلاطس بهذه المنحة، رأى في ذلك باب فرج للمسيح، فخيرهم مراعاةً لحريتهم بين المسيح وبين محكوم عليه بالإعدام، اسمه باراباس، قائد زمرة لصوص ارتكبوا فتنه وقتلاً. ولم يتصور بيلاطس أن الجمهور سيطلب منه أن يطلق لهم باراباس ويقتل المعلم الديني النقي الصالح، الذي شفى من مرضاهم عدداً لا يُحصى. وكان بيلاطس يظن أن الجمهور ليس مدفوعاً كالرؤساء بعوامل الحسد ليفضلوا لصاً صانع فتنه على صانع المعجزات الذي اتهموه زوراً بأنه صانع فتنه. فسأل الجمهور: «من تريدون أن أطلق لكم، باراباس أم يسوع الذي يدعى المسيح ملك اليهود؟» ثم دخل بعد سؤاله وجلس على كرسي الولاية ليعطي فرصة للجمهور ليقرروا من يختارون.

وصية زوجة بيلاطس

«وَإِذْ كَانَ جَالِساً عَلَى كُرْسِيِّ الْوَلَايَةِ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِ امْرَأَتُهُ قَائِلَةً: «إِيَّاكَ وَذَلِكَ الْبَارَّ، لِأَنِّي تَأَلَّمْتُ الْيَوْمَ كَثِيراً فِي حُلْمٍ مِنْ أَجْلِهِ». وَلَكِنَّ رُؤُوسَاءَ الْكَهَنَةِ وَالشُّيُوخَ حَرَّضُوا الْجُمُوعَ عَلَى أَنْ يَطْلُبُوا بَارَابَاسَ وَيَهْلِكُوا يَسُوعَ. فَسَأَلَ الْوَالِي: «مَنْ مِنَ الْإِثْنَيْنِ تُرِيدُونَ أَنْ أُطْلِقَ لَكُمْ؟» فَقَالُوا: «بَارَابَاسَ». قَالَ لَهُمْ بِيْلَاطُسُ: «فَمَاذَا أَفْعَلُ بِيَسُوعَ الَّذِي يُدْعَى الْمَسِيحَ؟» قَالَ لَهُ الْجَمِيعُ: «لِيُصْلَبَ!» فَقَالَ الْوَالِي: «وَأَيَّ شَرِّ عَمَلٍ؟» فَكَانُوا يَزْدَادُونَ صُرَاخاً قَائِلِينَ: «لِيُصْلَبَ!» فَلَمَّا رَأَى بِيْلَاطُسُ أَنَّهُ لَا يَنْفَعُ شَيْئاً، بَلَ بِالْحَرِيِّ يَحْدُثُ شَعْبٌ، أَخَذَ مَاءً وَغَسَلَ يَدَيْهِ قُدَّامَ الْجَمْعِ قَائِلاً: «إِنِّي بَرِيٌّ مِنْ دَمِ هَذَا الْبَارِّ. أَبْصِرُوا أَنْتُمْ». فَأَجَابَ جَمِيعُ الشَّعْبِ: «دَمُهُ عَلَيْنَا وَعَلَى أَوْلَادِنَا». حِينَئِذٍ أَطْلَقَ لَهُمْ بَارَابَاسَ» (متى ٢٧: ١٩-٢٦ أ).

اتفق عند ذلك مجيء رسول من زوجة بيلاطس تحذّره من أن يحكم ضد المسيح الذي سمّته «ذلك البار». لأنها تألمت كثيراً في ذلك اليوم في حلم من أجله. لا بد أن هذا الحلم ترك أثره في زوجها، لأنه مثل جميع الوثنيين تحت سلطة الخرافات، فيزيد خوفه من أن يأخذ على نفسه مسؤولية إعدام المسيح. لكن بينما كانت أسباب تبرئة المسيح تزيد في غرفة

الوالي، كان العكس تماماً يزيد في خارجها، لأن الرؤساء بذلوا كل جهدهم ليقنعوا الجمهور أن يُصْرُوا على قتلَه بدعوى أنه جدّف، إذ أطلق على نفسه صفة الإله، فجريمته أعظم من جريمة باراباس، ولا سيما أنه أراد أن ينقُضَ هيكلهم المعظم. فلما طلب بيلاطس جوابهم، صرخوا جميعاً قائلين: «خُذْ هذا وأطلق لنا باراباس». ولما راجعهم لعل اختيارهم كان عن إسراع أو سوء فهم، وكأنه يُظْهِرُ لهم مرة أخرى مَيْلَه لأن يطلق المسيح، كان ينتظر أن يؤثر ذلك فيهم ليغيّروا قرارهم، ولكنهم أصرّوا على قرارهم الأول قائلين: «أطلق لنا باراباس.»

لم يكتفِ الوالي بهذا الجواب فسألهم: «ماذا تريدون أن أفعل بيسوع؟» فكرر صراخهم: «اصلبه اصلبه.»

لكن الوالي راجعهم ثالثة فقال: «وأي شرٍ عمل هذا؟ إني لم أجد فيه علة للموت. فأنا أؤدبه وأطلقه.» غير أن قبوله أن يؤدّب رجلاً، كرّر هو تصريحه ببراءته، يعني أنه سلّم بعض الحكم والسلطة للجمهور، فتهيج طمعهم وعنادهم وتشبّثهم بأن يفعل الوالي إرادتهم لا إرادته. وأخذوا يلجّون بأصوات عظيمة ويزدادون جداً صراخاً قائلين: «اصلبه.» فقويت أصواتهم وأصوات رؤساء الكهنة، وأصبح بيلاطس آلة بين أيديهم، واستسلم لجنون الجمهور وطلبهم أن يُصلّب. إلا أنه لم يسلم دون تحفظ، بل حاول التخلص تماماً من مسئولية هذا الغدر، ووضعها على الرؤساء والشعب. وعلامة لذلك أخذ ماءً وغسل يديه أمام الجَمْع قائلاً: «إني بريء من دم هذا البار.» فقال جميع الشعب: «دمه علينا وعلى أولادنا.»

ومن الغريب أن الذين قالوا: «دمه علينا وعلى أولادنا» اغتاضوا بعد حين على بعض رسل المسيح وقالوا لهم: «قَدْ مَلَأْتُمْ أُورُشَلِيمَ بِتَعْلِيمِكُمْ، وَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْلِبُوا عَلَيْنَا دَمَ هَذَا الْإِنْسَانِ» (أعمال ٥: ٢٨).

جَلْدُ الْمَسِيحِ

«وَأَمَّا يَسُوعُ فَجَلَدَهُ وَأَسْلَمَهُ لِيُصَلَّبَ. فَأَخَذَ عَسْكَرُ الْوَالِي يَسُوعَ إِلَى دَارِ الْوَلَايَةِ وَجَمَعُوا عَلَيْهِ كُلَّ الْكُتَيْبَةِ، فَعَرَّوهُ وَأَلْبَسُوهُ رِدَاءً قَرْمَزِيًّا، وَضَفَرُوا إِكْلِيلًا مِنْ شَوْكٍ وَوَضَعُوهُ عَلَى رَأْسِهِ، وَقَصَبَةً فِي يَمِينِهِ. وَكَانُوا يَجْتُونُ قُدَامَهُ وَيَسْتَهْزِئُونَ بِهِ قَائِلِينَ: «السَّلَامُ يَا مَلِكَ الْيَهُودِ!» وَبَصَقُوا عَلَيْهِ، وَأَخَذُوا الْقَصَبَةَ وَضَرَبُوهُ عَلَى رَأْسِهِ» (متى ٢٦: ٢٧ ب-٣٠).

في قانون اليهود كان لا بد لمن يُحكَم عليه بالصلب أن يُجلد أولاً، وكان الجلد يوقف عند تسع وثلاثين جلدة على الأكثر، لكن العدالة الرومانية المشهورة كانت عديمة الإشفاق، فكان جلد المجرمين يتجاوز في القساوة كل الحدود المعقولة، بأسواطٍ من جلد مربوط في أطرافها

قطع من حديد أو رصاص أو عظام. فكثيراً ما كان يُغْمَى على المضروب. وكان البعض يموتون في أثناء الجلد .

وقد أسلم بيلاطس المسيح للجلد، ولعله كان يأمل أن اليهود يكتفون بهذا القصاص الصارم، فيعدلون عن طلب الصلب .

أخذ الجنود الرومان المسيح وجعلوه بين أيديهم. سمعوا أنه تَلَقَّبَ ملكَ اليهود فقصدوا أن يسخروا به كملك. أخذوه إلى داخل دار الولاية، وجمعوا عليه كل الكتبة، وعزَّوه وألبسوه رداءً قرمزيًّا (ثوب أرجوان) وضمفروا إكليلاً من شوك ووضعوه على رأسه. وقصبة في يمينه (إشارة إلى قضيب الملك والصولجان). وكانوا يجثون أمامه استهزاءً قائلين: «السلام يا ملك اليهود». وكانوا يخطفون من يده القصبة ويلطمونه ويضربونه بها على رأسه ويبصقون عليه، ثم يعيدون السجود له .

محاولة أخيرة لإنقاذ المسيح

«فَخَرَجَ بِيَلَاطُسُ أَيْضاً خَارِجاً وَقَالَ لَهُمْ: «هَآ أَنَا أَخْرَجُهُ إِلَيْكُمْ لِتَعْلَمُوا أَنِّي لَسْتُ أَجِدُ فِيهِ عِلَّةً وَاحِدَةً». فَخَرَجَ يَسُوعُ خَارِجاً وَهُوَ حَامِلٌ الْكَلِيلَ الشَّوْكِ وَثَوْبَ الْأَرْجَوَانِ. فَقَالَ لَهُمْ بِيَلَاطُسُ: «هُذَا الْإِنْسَانُ». فَلَمَّا رَأَاهُ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَالْخُدَّامُ صَرَخُوا: «اصْلُبْهُ! اصْلُبْهُ!» قَالَ لَهُمْ بِيَلَاطُسُ: «خُذُوهُ أَنْتُمْ وَاصْلُبُوهُ، لِأَنِّي لَسْتُ أَجِدُ فِيهِ عِلَّةً». أَجَابَهُ الْيَهُودُ: «لَنَا نَامُوسٌ، وَحَسَبَ نَامُوسِنَا يَجِبُ أَنْ يَمُوتَ، لِأَنَّهُ جَعَلَ نَفْسَهُ ابْنَ اللَّهِ». فَلَمَّا سَمِعَ بِيَلَاطُسُ هَذَا الْقَوْلَ ازْدَادَ خَوْفاً. فَدَخَلَ أَيْضاً إِلَى دَارِ الْوَلَايَةِ وَقَالَ لِيَسُوعَ: «مِنْ أَيْنَ أَنْتَ؟» وَأَمَّا يَسُوعُ فَلَمْ يُعْطِهِ جَوَاباً. فَقَالَ لَهُ بِيَلَاطُسُ: «أَمَّا تُكَلِّمُنِي؟ أَلَسْتُ تَعْلَمُ أَنَّ لِي سُلْطَاناً أَنْ أَصْلِبَكَ وَسُلْطَاناً أَنْ أَطْلِقَكَ؟» أَجَابَ يَسُوعَ: «لَمْ يَكُنْ لَكَ عَلَيَّ سُلْطَانُ الْبَيْتَةِ، لَوْ لَمْ تَكُنْ قَدْ أُعْطِيتَ مِنْ فَوْقَ. لِذَلِكَ الَّذِي أَسْلَمَنِي إِلَيْكَ لَهُ خَطِيئَةٌ أَعْظَمُ». مِنْ هَذَا الْوَقْتِ كَانَ بِيَلَاطُسُ يَطْلُبُ أَنْ يُطْلَقَهُ، وَلَكِنَّ الْيَهُودَ كَانُوا يَصْرُخُونَ: «إِنْ أَطْلَقْتَ هَذَا فَلَسْتُ مُحِبّاً لِقَيْصَرَ. كُلُّ مَنْ يَجْعَلُ نَفْسَهُ مَلِكاً يُقَاوِمُ قَيْصَرَ.»

فَلَمَّا سَمِعَ بِيَلَاطُسُ هَذَا الْقَوْلَ أَخْرَجَ يَسُوعَ، وَجَلَسَ عَلَى كُرْسِيِّ الْوَلَايَةِ فِي مَوْضِعٍ يُقَالُ لَهُ «الْبَلَاطُ» وَبِالْعِبْرَانِيَّةِ «جَبَّاثَا». وَكَانَ اسْتِعْدَادُ الْفِصْحِ وَنَحْوُ السَّاعَةِ السَّادِسَةِ. فَقَالَ لِلْيَهُودِ: «هُذَا مَلِكُكُمْ». فَصَرَخُوا: «خُذْهُ! اصْلُبْهُ!» قَالَ لَهُمْ بِيَلَاطُسُ: «أَأَصْلِبُ مَلِكَكُمْ؟» أَجَابَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ: «لَيْسَ لَنَا مَلِكٌ إِلَّا قَيْصَرُ». فَحِينِنِذِ اسْلَمَهُ إِلَيْهِمْ لِيُصْلَبَ. فَأَخَذُوا يَسُوعَ وَمَضَوْا بِهِ) «يوحنا ١٩: ١٦-١٧».

أخيراً أخذ بيلاطس المسيح من بين أيدي الجنود، وخرج به متوجاً بإكليل الشوك، ومسربلاً بالثوب الأرجواني، وقَدَّمَهُ إِلَى الْجَمْعِ الْمُنْتَظَرِ، مكرراً مرة أخرى تبرئته قائلاً: «أُخْرِجْهُ

إليكم، لتعلموا أنني لم أجد فيه علة واحدة. هوذا الإنسان». قال بيلاطس هذا وهو يشير إلى يسوع وقد أفرط في الاستهزاء به. فازدادت جرأة اليهود وصرخوا من جديد: «أصلبه أصلبه». فكرر بيلاطس حكمه مرة أخرى ببرأته قائلاً: «خذوه أنتم أصلبوه، لأنني لست أجد فيه علة». فصرخوا: «لنا ناموس، وحسب ناموسنا يجب أن يموت، لأنه جعل نفسه ابن الله.»

كان بيلاطس قد تحقق امتياز المسيح في الصلاح والحكمة، فلما سمع أنه قال عن نفسه إنه ابن الله، ازداد خوفاً، ورجع للمسيح إلى داخل الدار وسأله: «من أين أنت؟». فقابل المسيح سؤال الوالي الجدّي الجديد بالسكوت، لكن الوالي لم يتعود عدم إجابة أسئلته، وهو لا يحتمل ذلك، فقال له: «أما تكلمني؟ ألسنت تعلم أن لي سلطاناً أن أصلبك وسلطاناً أن أطلقك؟» كأنه يقول له: «ألم تلاحظ كل مساعيّ لأجل تبرئتك؟ فلماذا تمنعني بسكوتك عن أن أطلقك؟ قدم الأجوبة السديدة على هذه الشكايات لكي أكون مسنوداً في إطلاقك.»

ومن هذا الذي يدّعي بالسلطان؟ هل لبيلاطس سلطان على القانون ليخالفه، أو على العدالة ليدوسها؟ هل له سلطان على نفسه ليضحك على الخوف ويتبع ضميره؟ هل له سلطان على أفكار الذين هم تحت حكمه من اليهود؟ هل له سلطان على شهامة هذا الجريح الواقف أمامه والمنهوك القوى الجسدية، فيحزّجه بمقدار شعرة واحدة عن استقامته وقصده؟ كان أشرف لبيلاطس أن لا يتلفظ بكلمة عن السلطان، في ساعة الخضوع لرعاياه في الظلم والقسوة.

رأى المسيح أن هذا الادعاء يستحق الجواب، ويتطلّب منه إظهار عظّمته وسلطانه الحقيقيين، فقال له: «لم يكن لك عليّ سلطان البتة، لو لم تكن قد أعطيت من فوق. لذلك، الذي أسلمني إليك له خطيئة أعظم». الذي أسلمه إلى بيلاطس هو رئيس الكهنة. فنفهم بكل سهولة كيف عظم المسيح خطيئة الرئيس اليهودي على خطيئة بيلاطس الوثني. بيلاطس مدفوع من الرئيس. لكن الرئيس اليهودي مدفوع من عواطفه الشريرة.

هزت إجابة المسيح أعماق نفس بيلاطس، فأراد أن يطلقه حراً، بعد أن حدّد المسيح في إجابته سلطان بيلاطس، وأشار إلى سلطة الرب على قوات الشر.

أخيراً فرغت كل حيل الرؤساء، فلجأوا إلى التهديد. لو كان بيلاطس مستقيماً لكان التهديد يزيد عزمه على إجراء العدالة والحق، لأن لا شيء يثبّت الرجل الكبير المستقيم في عزمه الصالح كالتهديد. لكن الشكايات الصادقة التي سبق وقُدِّمت ضد بيلاطس للقيصر جعلت القيصر يستاء منه، ويريد أن يعزله لأقل سبب. ولذلك هدد رؤساء اليهود بيلاطس بصراخهم: «إن أطلّقت هذا فلست محباً لقيصر. كل من يجعل نفسه ملكاً يقاوم قيصر». يعني إن أطلّقت هذا، نشكوك إلى مولاك الإمبراطور، بأنك انتصرت لإنسانٍ قام لينازع القيصر على مُلكه. وأنت تعلم ماذا تكون نتيجة ذلك عليك.

أناخت هذه الضربة الشيطانية بيلاطس تماماً أمامهم، فخرج وجلس على كرسي الولاية في موضع يُقال له البلاط وقال: «هوذا ملككم». فصرخوا أكثر: «خذه خذه. اصلبه». فقال لهم بيلاطس: «أأصلب ملككم؟» فصرخوا: «ليس لنا ملك إلا قيصر». واعتبروا ذلك حكمة سياسية تثبت نفوذهم. في قولهم هذا ختموا على النبوة بزوال قضيب الملك من نسل داود متى جاء المسيح «شيلون» الذي «لَهُ يَكُونُ خُضُوعُ شُعُوبٍ» (تكوين. 49:10).

لم يبقَ لبيلاطس من حيلة، فأسلمه إليهم ليُصلب. ولما استلموه كرروا الاستهزاء به، ثم نزعوا الرداء الأرجواني وألبسوه ثيابه، وخرجوا ومضوا به للصلب.

وصف التاريخ بيلاطس بالعناد الزائد، وقد ظهر هذا العناد في دفاعه المتكرر في وجه رؤساء اليهود. فبعناده أثبت فوق كل ريب أن المسيح بريء، وأن شيوخ اليهود ظالمون. لكنه بالرجوع عن عناده، وتسليمه المسيح للصلب، أثبت قول المسيح إنه يموت صلباً ويُسفك دمه لأجل حياة العالم.

المسيح يموت مصلوباً

«أسلمه بيلاطس للصلب» - هذا القول فاتحة فصل جديد في حياة المسيح الأرضية، حمل فيه خطايا البشر ليكفر عنها، فافت فيه آلامه كثيراً جداً ما سبقها من الآلام التمهيدية. لقد حقق رؤساء اليهود ما أرادوه. وها هي الجماهير ترى هذا الذي أجرى المعجزات منهوك القوى، دامي الجراح. ها حمل الله الذي يرفع خطية العالم يسير ليُذبح عن البشر، ويجتاز أزقة مدينته حاملاً صليبه - المذبح - الذي سيُرفع عليه، كما حمل قديماً جدّه إسحق الحطب المهيئاً لحرقه ذبيحةً إلى الجبل المقدس .

المسيح يسقط تحت حمل الصليب

«وَبَعْدَ مَا اسْتَهْزَؤُوا بِهِ، نَزَعُوا عَنْهُ الرِّدَاءَ وَالْبَسُوهُ ثِيَابَهُ، وَمَضَوْا بِهِ لِلصَّلْبِ. وَفِيمَا هُمْ خَارِجُونَ وَجَدُوا إِنْسَانًا قَيْرَوَانِيًّا اسْمُهُ سِمْعَانُ، فَسَخَّرُوهُ لِيَحْمِلَ صَلْبِيَهُ. وَلَمَّا أَتَوْا إِلَى مَوْضِعٍ يُقَالُ لَهُ جُلْجَثَةُ، وَهُوَ الْمُسَمَّى «مَوْضِعَ الْجُمُجْمَةِ» أَعْطَوْهُ خَلاً مَمْرُوجاً بِمَرَارَةٍ لِيَشْرَبَ. وَلَمَّا ذَاقَ لَمْ يَرِدْ أَنْ يَشْرَبَ» (متى ٢٧: ٣١-٣٤).

لا نغفل الأسباب التي ذهبت بقوى المسيح الجسدية في هذا النهار، حتى سقط تحت حمل الصليب، فاضطر أصحاب الأمر أن يحملوا صليبه لغيره. ولا نجهل ما للآلام الروحية من التأثير على قوى الإنسان الجسدية. ونذكر أن هذه الآلام الروحية كانت أعظم بما لا يُقاس من الجسدية، ففي الساعات الأولى من يوم الجمعة هذا، مع الليل الذي تقدمها، حُرِمَ المسيح من النوم كلياً، وسيق مكتوفاً من البستان في جبل الزيتون إلى قصر رئيس الكهنة، ثم دار المحكمة، فقصر بيلاطس فقصر هيرودس، ثم قصر بيلاطس ثانية. والوقوف في المحاكمات الطويلة، واللطم المتكرر وما تعلّق به، والجَلْدُ الذي لا نعلم مقداره مع ما نرف من دم بسببه.. كل هذه جعلت قواه تخور .

وما أكبر الآلام الروحية الساحقة لنفس ذات رقة وحب وشعور كنفس المسيح. نذكر خيبة آماله في تلاميذه وهم يتشاجرون حول من منهم هو الأعظم، وخيانة يهوذا، وسقوط بطرس، وهروب كل التلاميذ والمصارعة العجيبة في البستان، وبعدها معاملات العنف والتحقير والتخجيل والاستهزاء الوحشي، ناهيك عن الجوع والبرد القارص. كل هذه أسباب جعلته يسقط تحت حمل الصليب. وفي آلامه كما في تجربته كان ناسوته فقط في هذه المعصرة الرهيبة .

كان أربعة حراس يسوقون المصلوب إلى حيث صُلب، فلما رأوا عجز المسيح عن حمل الصليب، سَخَّرُوا رجلاً قيراونياً من شمال أفريقيا اسمه سمعان، كان راجعاً من الحقل، ليؤدي هذه المهمة. لم يوجد من يتبرع بهذه المساعدة في كل ذلك الجمهور بسبب عار

الصليب المشين الذي لا يتحملة أحد طوعاً. لكن ما كان وقتها عاراً تحوّل فخراً، وأصبح سمعان القيرواني في مقدمة جيش شريف لا يُحصى عدده من حاملي صليب المسيح .

بعد هذا استأنف الجمهور سيره، ومعهم ثمانية حراس يسوقون مجرمين، ويحملون ألواحاً ثلاثة مرفوعة فوق الرؤوس، يعلن كلٌ منها اسم أحد المصلوبين ووطنه وجُرمه الذي يُعاقب عليه. أما اللوح الذي عليه اسم المسيح فكان مختلفاً لأنه مكتوب في ثلاث لغات: العبرانية لغة الدين، فكان ابن داود وابن الله. وبال يونانية لغة العلم، لأنه نور العالم والحق الأزلي. واللاتينية لغة السياسة، لأنه ملك إسرائيل وملك القديسين وملك الملوك ورب الأرباب. كان الإعلان يقول: «هذا هو يسوع الناصري ملك اليهود». اسمه يسوع. ووطنه الناصرة. وجريمته ظهوره كأنه ملك اليهود، ثائراً ضد قيصر .

نساء اورشليم يبكين عليه

«وَتَبِعَهُ جُمُهورٌ كَثِيرٌ مِنَ الشَّعبِ، وَالنِّساءِ اللَّواتي كُنَّ يَلْطِمْنَ أَيْضاً وَيُبْكْنَ عَلَيْهِ. فَأَنفَتَ إِلَيْهِنَّ يَسُوعُ وَقَالَ: «يَا بَنَاتِ أُورُشَلِيمَ، لَا تَبْكِينَ عَلَيَّ بَلْ ابْكِينَ عَلَى أَنْفُسِكُنَّ وَعَلَى أَوْلَادِكُنَّ، لِأَنَّهُ هُوَذَا أَيَّامٌ تَأْتِي يَقُولُونَ فِيهَا: طُوبَى لِلْعَوَاقِرِ وَالْبُطُونِ الَّتِي لَمْ تَلِدْ وَالثُدَيَّ الَّتِي لَمْ تُرْضِعْ. حِينَئِذٍ يَبْتَذِنُونَ يَقُولُونَ لِلْجِبَالِ: اسْقُطِي عَلَيْنَا وَلِلْأَكَامِ: غَطِّينَا. لِأَنَّهُ إِنْ كَانُوا بِالْعُودِ الرَّطْبِ يَفْعَلُونَ هَذَا، فَمَاذَا يَكُونُ بِالْيَاسِ؟». وَجَاءُوا أَيْضاً بِانْتَيْنِ آخَرَيْنِ مُذْنِبَيْنِ لِيُقْتَلَ مَعَهُ» (لوقا ٢٣: ٢٧-٣٢).

تمسك بيلاطس إلى النهاية ببراءة المسيح. لكن لما أسلمه للصلب صار مُضطرباً أن يبين أمام الجميع جريمة تستوجب الصلب، فلم يجد ذلك إلا بالتزوير. وفي هذا التزوير انتقم من اليهود بسبب ضغطهم عليه ليفعل ظلماً. وكتب «ملك اليهود». فصار العار على اليهود الذين صلب ملكهم، لذلك اعترض رؤساء الكهنة طالبين أن يغيّر الوالي هذا العنوان، حتى لا يكون المصلوب ملكهم، بل شخصاً قال إنه ملك اليهود. لكن بيلاطس أصرَّ على ما فعل. هذا الذي سأل استخفافاً: «ما هو الحق؟» خدم الحق وهو لا يدري .

يسبب موكب كهذا تجمعاً عظيماً في أزقة المدينة وخارجها، فأخذ الحنان بعض النساء الكثيرات الواقفات لما رأين منظر المسيح المحزن، فأخذن يبكين بأصوات عالية ويلطمن على صدورهن، لا يخشين إظهار المواساة لهذا المغضوب عليه من رؤسائهن. ولما كان الرؤساء مطمئنين إلى انتصارهم، لم يبالوا بعمل النساء. واعترض المسيح على بكاء النساء - مع أن هذا البكاء كان الشيء الوحيد الذي يُعبّر عن مشاعر محبة في ذلك اليوم. اعترض عليه مع أنه لم يعترض على شيء مما وقع عليه من معاملات عدائية، لأنه المحب الصفوح. فلماذا يبكين عليه والبكاء على أنفسهن أولى؟ إنه يرى ما لا يرى من سيئاتي عليهن وعلى اورشليم، مما يجعل الناس يطوبون الذين لا نسل لهم، ويتمنون أن تسحقهم

الجبال الشامخة تخلصاً من عذاباتٍ تجعل الموت رحمة لا نقمة، بسبب شدتها ومرارتها. فالتفت إليهم وقال: «يا بنات أورشليم لا تبكين عليّ، بل ابكين على أنفسكن وعلى أولادكن». وسألهنّ هذا السؤال: «لقد سمحت العناية الإلهية للحاكم الروماني بأن يفعل كل هذا بإنسان هو كالعود الرطب، لأن حياة الصلاح فيه، فماذا يُنتظر أن يفعل هؤلاء الرومان العتاة بعد حينٍ بصالبيه الظالمين الذين لا حياة صالحة فيهم، بل الذين يشبهون العود اليابس؟». لقد رأى المسيح ذلك اليوم الذي فيه تحل اللعنة على أورشليم وسكانها، حين تُنصب الصلبان الكثيرة العدد، التي سيرها بعض سامعيه وقت خراب أورشليم، والمعلقون عليها هم صالبيه وعيالهم. لم تكن هنا حاجة لبكاء على شخص حقق ما يريد. صحيح أن المشاهدين رأوا المسيح في موقف الانكسار، وهو وحده علم ما لا يعلمه العالم: إن ذلك موقف الانتصار. فلا عجب أنه اعترض على بكائهم عليه.

ليس المسيح شهيداً

لم يجبر أحدٌ أن يقبل ما فعله به أعداؤه. فليس موت المسيح موت شهيد، فالشهداء يُقتلون على رغم إرادتهم، ولو استسلموا للموت دون إكراهٍ لكان ذلك افتخاراً. وهذا حرام. لكنهم كانوا يريدون أن يعيشوا. نعم كانوا يريدون أكثر أن يُرضوا الله، فلما اضطروهم مضطهدوهم للاختيار بين ترك الحياة وترك رضى الله، فضّلوا الاستشهاد على مخالفة ما يطلبه الله منهم، ولكن لم تكن لهم قدرةٌ للتخلص من أعدائهم.

أما موقف المسيح فيختلف عن هذا كلياً.. لقد أوضح كثيراً سلطانه أنه قادر أن يخلص نفسه من أيدي أعدائه. وبما أن خلاص البشر يتوقف على استسلامه للصلب، يكون تخليصه أعظم ضرر على الجنس الخاطئ. فالعقل أيضاً يؤيد الوحي في هذا الأمر. لذلك لا يكفي مطلقاً أن ننظر إلى صلب المسيح كحادث تاريخي مؤثر فقط، بل كحادث تتوقف عليه حياتنا الروحية وسعادتنا الأبدية. ولهذا قال الرسول بولس: «مَعَ الْمَسِيحِ صُلِبْتُ، فَأَحْيَا لَا أَنَا بَلِ الْمَسِيحِ يَحْيَا فِيَّ» (غلاطية 2:20) عَالَمِينَ هَذَا: أَنَّ إِنْسَانَنَا الْعَتِيقَ قَدْ صُلِبَ مَعَهُ لِيُبْتَطَلَ جَسَدُ الْخَطِيئَةِ، كَيْ لَا نَعُودَ نُسْتَعْبَذُ أَيْضاً لِلْخَطِيئَةِ» (رومية 6:6).

المسيح يرفض المخدّر

«وَلَمَّا أَتَوْا إِلَى مَوْضِعٍ يُقَالُ لَهُ جُلْجُتُهُ، وَهُوَ الْمَسْمَى «مَوْضِعَ الْجُمُجْمَةِ» أَعْطَوْهُ خَلاً مَمْرُوجاً بِمَرَارَةٍ لِيَشْرَبَ. وَلَمَّا ذَاقَ لَمْ يُرِدْ أَنْ يَشْرَبَ» (متى 27:33، 34).

لما بلغ هذا الموكب محلّ الصلب قدموا للمسيح مزيجاً مخدّراً استعداداً لصلبه. ولما كان اليهود يستهجنون عادة العقاب بالصلب، ألف نساؤهم لجناً لأجل تخفيف آلام من يُصلب من قومهم، واستشهدوا بنصيحة سليمان الحكيم في أمثال 31:6 فكانوا يمزجون مع الخمر

بعض الأعشاب المخدرة ويقدمون هذا الشراب للمهيئين للصلب قبل أن يبدأ تعذيبهم. لكن المسيح قصد أن يشرب كأس الآلام على مرارتها حتى ثمالتها. ولم يقبل مخدرات، ورفض حتى أخف تخفيض في صفاء أفكاره، لأن عليه في هذا الوقت أن يوجه من على الصليب كلاماً جوهرياً لسامعيه، وصلوات مهمة لأبيه، وهذا يقتضي حفظ القوى العقلية والروحية سالمة تماماً من التدهور، فلما ذاق الشراب الذي قدموه له وعرف ما هو، رفض أن يشرب .

صلبوه بين لصين

«وَلَمَّا صَلَّبُوهُ افْتَسَمُوا ثِيَابَهُ مُفْتَرِعِينَ عَلَيْهَا، لِكَيْ يَتِمَّ مَا قِيلَ بِالنَّبِيِّ: «افْتَسَمُوا ثِيَابِي بَيْنَهُمْ، وَعَلَى لِبَاسِي اَلْقُوا قُرْعَةً» . ثُمَّ جَلَسُوا يَحْرُسُونَهُ هُنَاكَ. وَجَعَلُوا فَوْقَ رَأْسِهِ عِلَّتَهُ مَكْتُوبَةً: «هَذَا هُوَ يَسُوعُ مَلِكُ الْيَهُودِ» . حِينَئِذٍ صَلَّبَ مَعَهُ لَصَانٍ، وَاحِدٌ عَنِ الْيَمِينِ وَوَاحِدٌ عَنِ الْيَسَارِ» (متى ٢٧: ٣٥-٣٨).

صلب مع المسيح لصان، فوضع العسكر صليب المسيح بين صليبيهما. يقولون إنهما زميلا باراباس في اللصوصية والقتل، وإن صليب المسيح كان مُعداً لرئيسهما باراباس، فحلَّ المسيح محله. ويُؤخذ من بعض الكتابات أن اسم باراباس كان يشوع أي مخلص - وباراباس، اسمه الثاني يعني ابن الآب، وأن اسمه جعله يتوهم أنه يقدر أن يخلص شعبه من النير الروماني. وأن هذا كان أساس الجرائم التي سببت الحكم عليه بالإعدام صلباً مع زميله. وأن هذا كان سبب انتصار الشعب له بطلب إطلاقه وصلب المسيح مكانه .

كان الحراس يربطون المحكوم عليه بالصلب على صليبه وهو مسطح على الأرض، ثم يدقون مسامير كبيرة في يديه وقدميه. ثم يرفعون الصليب ويغرزنه في الأرض. ولا تكون أقدام المصلوبين مرتفعة كثيراً عن الأرض، ثم يجلسون يحرسونه نهاراً وليلاً إلى أن يموت، لئلا يأتي أحد مريديه ويُنزله عن الصليب. وكان المصلوب يعيش غالباً بعد صلبه يومين أو على الأقل يوماً كاملاً. وإذا كان لا بد من موته كان الحراس في توحُّشهم يستبيحون التسلية بتعذيبه، وتعجبلاً لموته كانوا يكسرون ساقيه بعصا من حديد. وكان الرومان يتركون الجثة معلقة على الصليب فريسة لوحوش البرية والطيور الكاسرة. لكن اليهود كانوا يطلبون تنزيلها قبل غروب الشمس. أما ثياب المصلوب فكانت قانونياً نصيب حراسه الأربعة .

المسيح يطلب الغفران لصالبيه

«فَقَالَ يَسُوعُ: «يَا أَبَتَاهُ، اغْفِرْ لَهُمْ، لِأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ مَاذَا يَفْعَلُونَ» . وَإِذِ افْتَسَمُوا ثِيَابَهُ اقْتَرَعُوا عَلَيْهَا» (لوقا ٢٣: ٣٤).

لما ابتدأ العسكر صَلَّبَ المسيح كانت قد مضت ثلاث ساعات من النهار في محاكمته أمام المجمع اليهودي، ثم الوالي الروماني، ثم الملك هيرودس الأدومي، ثم من السير إلى محلِّ الصَّلْب. وكان الجنود معتادين على صراخ الغضب والشتائم والألفاظ الكفرية التي يصبُّها المصلوبون على رؤوسهم، والمرجَّح أن اللصين ماثلاً غيرَهما في ذلك. أما المسيح فسمعوه يصلي لأجلهم صلاة محبة في كلمته الأولى على الصليب: «يا أبتاه اغفر لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون». لم يطلب لهم المَعذرة أو التبرئة بحجة جهلهم ما يفعلون، لكنه طلب لهم الغفران بحجة أن خطيتهم أخف مما كانت لو عرفوا تماماً من هو الذي يصلبونه. نذكر قول بولس الرسول: «لَوْ عَرَفُوا لَمَّا صَلَّبُوا رَبَّ الْمَجْد» (١ كورنثوس ٢: ٨).

في صلاة المسيح: «يا أبتاه اغفر لهم» لهجة جديدة لم نسمعها منه سابقاً. كان عادة يلفظ بالغفران كَمَنْ له الحق أن يمنح ذلك، لكنه الآن يتكلم كمن يسامحهم بحقوقه عليهم، ويهتم بأن ينصرف عنهم الغضب الإلهي على ما فعلوه به.

تحققت نبوات

لم يكن العسكر الروماني يعلمون ماذا يفعلون، لأنهم في ظلام العبادة الوثنية.. ولا عرف رؤساء اليهود ماذا يفعلون، لأنهم أغمضوا عيونهم للنور عمداً، فأتاهم العمى الذي يأتي كل من يحبس البصر طويلاً. لم يعلموا ما يفعلون لأنهم تمموا النبوات الصريحة بخصوص مسيحهم عن غير معرفة أو تقوى فأثبتوا بفعلهم أن يسوع مسيحهم، بينما أنكروا ذلك بقولهم. مثال هذا اشتراكهم بتسمير جسده على الصليب، ليتمموا النبوة القائلة: «جَمَاعَةٌ مِنْ الْأَشْرَارِ اكْتَنَفْتَنِي. ثَقَبُوا يَدَيَّ وَرِجْلَيَّ» (مزمو ٢٢: ١٦).

وبتعليقه بين لصين تمموا النبوة القائلة: «جُعِلَ مَعَ الْأَشْرَارِ قَبْرُهُ... وَأُحْصِيَ مَعَ أَثَمَةٍ» (إشعيا ٥٣: ٩، ١٢).

هذا المصلوب مكَّال بتاج من شوك، لأن فوق رأسه عنوان «ملك اليهود». فكل ذي بصيرة يرى تيجاناً أخرى مجيدة تزيّن جمالَ مُحيّاه وتكلل جبهته. وفي التاج الشوكي نرى رمزها. نراه متوجاً بالحكمة الشديدة، والقدرة الخيرية، والقداسة السماوية. وكأن هذه التيجان تختلط لتؤلّف تاجه الأعظم، تاج حبه الفدائي السائد في كلامه وحركاته. وقد برهن العسكر الروماني - عن غير قصد - أن هذا المصلوب هو مسيح اليهود الحقيقي الذي تنبأ بمجيئه الأنبياء، لأنهم لما اقتسموا ثيابه ليأخذ كل جندي حقه منها، أتموا دون أن يقصدوا النبوة القائلة: «يقسمون ثيابي بينهم». ثم لما وصلوا إلى القميص المنسوج بغير خياطة، اقترعوا عليه، فأتّموا بقية النبوة القائلة: «عَلَى لِبَاسِي يَقْتَرَعُونَ». وبنزاع ثيابه عنه، أتموا الكلام الأول في تلك النبوة وهو: «أُحْصِيَ كُلَّ عِظَامِي، وَهُمْ يَنْظُرُونَ وَيَتَفَرَّسُونَ فِيَّ» (مزمو ٢٢: ١٨، ١٧).

ما أعظم السخرية التي سمعها المسيح على الصليب. سخرُوا أولاً على ما حرّفوه من كلامه عن نقض الهيكل وبنائه في ثلاثة أيام، وثانياً على قوله إنه ابن الله، وثالثاً أنه جعل ذاته مخلص البشر، ورابعاً أنه ادّعى بأنه المسيح مختار الله، وخامساً أنه يدّعي بأنه يتكل تماماً على الله، وسادساً لأنه لما سأله بيلاطس: «أنت ملك اليهود؟» أجاب بالإيجاب .

حسب أفكارهم السطحية كان الصليب تكذيباً كافياً لكل هذه البنود الستة، فطالبوا المسيح أن يخلص ذاته من الصليب ليؤمنوا به مخلصاً للآخرين، مع أن تخليصه نفسه من الصليب - وهو قادر على ذلك - يوقع البشر جميعاً في يأس الهلاك الأبدي. لكن هذا الاستهزاء كان تحقيقاً للنبوءات التي منها: «كُلُّ الَّذِينَ يَرُونَنِي يَسْتَهْزِئُونَ بِي. يَفْغَرُونَ الشِّفَاةَ وَيُنْغَضُونَ الرَّأْسَ قَائِلِينَ: «اتَّكَلْ عَلَى الرَّبِّ فَلْيُنْجِهِ. لِيُنْقِذَهُ لِأَنَّهُ سَرَّ بِهِ» (مزمور ٢٢: ٧، ٨).

وانضم العسكر الروماني، ومعهم اللصين إلى صفوف المستهزئين. فقدّم له العسكر خلاً للشرب بدلاً من الخمر الذي يُقدّم للملاك، قائلين: «إن كنت أنت ملك اليهود فخلص نفسك». وأما استهزاء اللصين فيُعدّز أكثر من غيره، لأن تعذيبهما هيّج الشر في قلوبهما، ولأنهما يفكران أن يحمّسا هذا القدير ليخلص ذاته إن أمكن، فيخلصهما معه، وصدقّت بكلامهما نبوة أخرى هي: «تَغْيِيرَاتِ مُعْيِيرِكَ وَقَعْتَ عَلَيَّ» (مزمور ٦٩: ٩).

توبة أحد اللصين

«وَكَاَنَ وَاحِدٌ مِنَ الْمُذْنِبِينَ الْمُعَلَّقِينَ يُجَدِّفُ عَلَيْهِ قَائِلًا: «إِنْ كُنْتُ أَنْتَ الْمَسِيحَ، فَخَلِّصْ نَفْسَكَ وَإِنَّا!» فَانْتَهَرَهُ الْآخَرُ قَائِلًا: «أَوَلَا أَنْتَ تَخَافُ اللَّهَ، إِذْ أَنْتَ تَحْتَ هَذَا الْحُكْمِ بَعِيْنِهِ؟ أَمَّا نَحْنُ فَبَعْدُ، لِأَنَّنَا نَنَالُ اسْتِحْقَاقَ مَا فَعَلْنَا، وَأَمَّا هَذَا فَلَمْ يَفْعَلْ شَيْئًا لَيْسَ فِي مَحَلِّهِ». ثُمَّ قَالَ لِيَسُوعَ: «اذْكُرْنِي يَا رَبُّ مَتَى جِئْتُ فِي مَلَكُوتِكَ». فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: «الْحَقُّ أَقُولُ لَكَ: إِنَّكَ الْيَوْمَ تَكُونُ مَعِي فِي الْفِرْدَوْسِ» (لوقا ٢٣: ٣٩-٤٣).

قال المسيح مرة: «وَأَنَا إِنْ ارْتَفَعْتُ عَنِ الْأَرْضِ أَجْذِبُ إِلَيَّ الْجَمِيعَ» (يوحنا ١٢: ٣٢) الذين يجذبهم إليه بواسطة صليبه هم كنجوم في فلك آلامه المظلم. وحالاً ظهر الكوكب الأول، أحد هذين اللصين، الذي اصطلح المفسرون على اعتباره معلقاً عن يمين المسيح. لقد رأى تصرفات المسيح وسكوته وصبره وصلاته لأجل صالبيه، ولا سيما احتماله بلطف تعبيراته وتعبيرات رفيقه المصلوب معه، فأمن بهذا المصلوب، وتاب عن فعله، وبدأ يخدم هذا المخلص بما في استطاعته، لأنه قاوم رفيقه ووبخه في وجه القوم المتجمعين مع رؤسائهم، ودافع وحده عن المسيح بجرأة عجيبة. وبذلك قام مقام التلاميذ الذين هربوا. قال لزميله: إن كان هذا الجمهور الذي ليس تحت حكم العذاب والموت، يعيّر رفيقنا المصلوب، أيجوز لنا نحن المصلوبين أن نفعل فعلهم؟ أولاً تخاف الله، إذ أنت تحت هذا الحكم بعينه؟ أما نحن فبعدلٍ، لأننا ننال استحقاق ما فعلنا. وأما هذا فلم يفعل شيئاً ليس في محله .»

ما أغرب هذا الصوت في آذان السامعين، ولا سيما في آذان المستهزئين. لص يقول للص: «أولاً أنت تخاف الله؟» ويعترف بأنه يستحق الصلب لأجل آثامه. ويسمي المصلوب بجانبه رباً سوف يجيء منتصراً كملك. فصارت دموع أسفه على ماضيه كالعديسات في المرّقب، تمكّنه من رؤية ما كان بعيداً عن أبصار الآخرين. لقد رأى بالإيمان ملكوتاً روحياً ملكه هذا المصلوب. جعله يدعوه: «اذكرني يا رب متى جئت في ملكوتك». فكم من الألوف استفادوا وتشجعوا وخلّصوا بواسطة هذا المثال، وكم من خاطئ قضى حياته بعيداً عن الله، ثم قدّم أخيراً توبة حقيقية مقبولة عند الله، بسبب قبول المسيح توبة هذا اللص .

في الكتاب المقدس حادث واحد شهير يشجّع الذي لم يثب في حياته السابقة على أن يقمّ التوبة عند مماته. لكنه حادث وحيد، لئلا يطمع كل خاطئ بسببه ويؤجل توبته إلى ساعة مماته. وسرعان ما قال المسيح للص: «الحق أقول لك إنك اليوم تكون معي في الفردوس». وعد المسيح اللص بسعادة بعد موته حالاً، يكون هو رفيقه فيها، وفي هذا الوعد أظهر مرة أخرى سلطانه الإلهي. وتمّت في هذه الساعة نبوة أخرى للنبي الإنجيلي إشعياء، قال فيها عن المسيح: «مَنْ تَعَبَ نَفْسِهِ يَرَى وَيَشْبَعُ، وَعَبْدِي الْبَارُّ بِمَعْرِفَتِهِ يُبَرِّرُ كَثِيرِينَ، وَأَثَامُهُمْ هُوَ يَحْمِلُهَا» (إشعياء ٥٣: ١١).

مثل اللسان الجنس البشري بأسره. فكان عن يسار المخلص المصلوب ممثّل القسم الهالك من البشر، لأنهم يموتون في خطيتهم. وعن يمينه ممثّل القسم الذي يخلص بخلص أبدي، لأنه يتوب ويؤمن بالمخلص الوحيد. فبينما كان الكهنة يقدمون في تلك الساعة لله في هيكلة الحُرمة، التي هي باكورة حصاد الشعير، حسب شريعة موسى، قدم المسيح رئيس كهنتنا للأب في السماء باكورة حصاد الذين دعاهم بموته إلى الإيمان والخلص. نعلم من كلام المسيح عن الفرح الذي يكون في السماء بخاطئ واحد يتوب، أن فرحه بهذا التائب أنساه عذاباته. وأنه حسب مكافأة عن كل ما تكبّده في إتيانه من السماء بالنظر إلى قيمة النفس الواحدة. فكلّمته هذه الثانية على الصليب هي كالأولى حياً، لا لنفسه بل للآخرين، وليس للقريبين منه بل للبعيدين عنه في الروح والأفكار والصفات .

المسيح يهتم بأمه العذراء

«وَكَاثَتْ وَاقْفَاتٍ عِنْدَ صَلِيبِ يَسُوعَ، أُمُّهُ، وَأَخْتُ أُمِّهِ مَرْيَمُ زَوْجَةُ كُلُوبَا، وَمَرْيَمُ الْمَجْدَلِيَّةُ. فَلَمَّا رَأَى يَسُوعُ أُمَّهُ، وَالتِّلْمِيذَ الَّذِي كَانَ يُحِبُّهُ وَاقِفًا، قَالَ لِأُمِّهِ: «يَا امْرَأَةُ، هُوَذَا ابْنُكَ». ثُمَّ قَالَ لِلتِّلْمِيذِ: «هُوَذَا أُمُّكَ». وَمِنْ تِلْكَ السَّاعَةِ أَخَذَهَا التِّلْمِيذُ إِلَى خَاصَّتِهِ» (يوحنا ١٩: ٢٥-٢٧).

وجّه المسيح كلمته الأولى على الصليب إلى أبيه لأجل صالبيه. وجّه كلمته الثانية إلى تلميذه الجديد اللص التائب. ووجّه كلمته الثالثة، وهي الأخيرة التي تختصّ بغيره من البشر، إلى

أمه مريم التي يجوز في نفسها السيف الذي أنبأها به سمعان الشيخ منذ ثلاث وثلاثين سنة، لما أخذ طفلها على ذراعيه (لوقا ٣٥: ٢). كان منظر مريم العذراء، هذه الأم الحزينة التي بلغ عمرها لا أقل من خمسين سنة، وهي غارقة بالدموع السخينة، منظرًا مؤثراً جداً. وحقاً لا يمكن أن يعرف إلا العليم سبحانه مقدار حزنها المفرط في هذه الساعة الهائلة. فانصباب المسيح على مقاصده الروحية الفائقة، واحتماله كل آلامه الروحية والجسدية، لم يشغله عن الاهتمام الحبي بحاجات هذه الوالدة المقدسة، حتى الجسدية منها .

نظر المسيح إليها بالحنان البنوي، وأوماً برأسه إلى يوحنا الواقف بجانبها وقال: «هوذا ابنك». ثم قال ليوحنا: «هوذا أمك» لعلمه أن هذا الرسول الأمين المحب الغيور، يقوم بالخدمة البنوية نحوها في كل ما يجب، أفضل مما يفعل إخوته وأخواته، فاختره وخصّه بهذا الشرف العظيم. وفي كل هذا العمل نفى المسيح أن الذي يتخصص لخدمة الدين يجوز له أن يستعفي من الاهتمام بحاجات عائلته الجسدية. فمن تلك الساعة أخذها يوحنا إلى خاصته. ومن عدم ذكرها مع النساء اللواتي حضرن إنزال المسيح عن الصليب ودفنه، نستدل أن المسيح أمر يوحنا أن يأخذها حالاً من ذلك الموقف القاسي، ليحميها من مشاهدة حوادث تسليمه الروح وإنزاله عن الصليب، ثم وضعه في القبر .

إلهي، لماذا تركتني؟

«وَلَمَّا كَانَتِ السَّاعَةُ السَّادِسَةُ كَانَتْ ظُلُمَةٌ عَلَى الْأَرْضِ كُلِّهَا إِلَى السَّاعَةِ التَّاسِعَةِ. وَفِي السَّاعَةِ التَّاسِعَةِ صَرَخَ يَسُوعُ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ قَائِلًا: «إِلُوي إِلُوي لَمَّا شَبَقْتَنِي؟» الَّذِي تَقْسِيرُهُ: إِلْهِي إِلْهِي، لِمَاذَا تَرَكْتَنِي؟) فَقَالَ قَوْمٌ مِنَ الْحَاضِرِينَ لَمَّا سَمِعُوا: «هُوَذَا يُنَادِي إِبِلِيًّا». فَكَرَّضَ وَاحِدٌ وَمَلَأَ إِسْفِنْجَةً خَلًّا وَجَعَلَهَا عَلَى قَصَبَةٍ وَسَقَاهُ قَائِلًا: «اتْرُكُوا. لِنَرِ هَلْ يَأْتِي إِبِلِيًّا لِنُنْزِلَهُ!»

فَصَرَخَ يَسُوعُ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ وَأَسْلَمَ الرُّوحَ. وَانْشَقَّ حِجَابُ الْهَيْكَلِ إِلَى اثْنَيْنِ، مِنْ فَوْقِ إِلَى أَسْفَلٍ. وَلَمَّا رَأَى قَائِدُ الْمِنَّةِ الْوَاقِفَ مُقَابِلَهُ أَنَّهُ صَرَخَ هَكَذَا وَأَسْلَمَ الرُّوحَ، قَالَ: «حَقًّا كَانَ هَذَا الْإِنْسَانُ ابْنُ اللَّهِ!» وَكَانَتْ أَيْضًا نِسَاءٌ يَنْظُرْنَ مِنْ بَعِيدٍ، بَيْنَهُنَّ مَرْيَمُ الْمَجْدَلِيَّةُ، وَمَرْيَمُ أُمُّ يَعْقُوبَ الصَّغِيرِ وَيُوسِي، وَسَالُومَةُ، اللَّوَاتِي أَيْضًا تَبِعْنَهُ وَخَدَمْنَهُ حِينَ كَانَ فِي الْجَلِيلِ. وَأُخَرُ كَثِيرَاتُ اللَّوَاتِي صَعَدْنَ مَعَهُ إِلَى أُورُشَلِيمَ» (مرقس ١٥: ٣٣-٤١).

لما انتصف النهار، دخل المسيح في دور جديد فاق كل ما سبقه أهمية، فقد حقق نبوة إشعياء: «حَسْبُنَا هُوَ مُصَابًا مَضْرُوبًا مِنَ اللَّهِ وَمَذْلُومًا... وَهُوَ مَسْحُوقٌ لِأَجْلِ آثَامِنَا... وَالرَّبُّ وَضَعَ عَلَيْهِ إِثْمَ جَمِيعِنَا... ضُرِبَ مِنْ أَجْلِ ذَنْبِ شَعْبِي... أَمَّا الرَّبُّ فَسَرَّ بِأَنْ يَسْحَقَهُ بِالْحُزْنِ هُوَ حَمَلَ خَطِيئَةَ كَثِيرِينَ» (إشعياء ٥٣: ٦ و ٨ و ١٠ و ١٢).

فلما ابتدأ هذا الدور الجديد أظلمت الشمس في رائعة النهار، من الثانية عشرة ظهراً إلى الثالثة مساءً. فكان الطبيعة اشتركت في حزنه العميق ولبست الحداد .

عند دخول المسيح إلى العالم ظهر كوكب ليعلن مجيئه. وعند خروجه انحجبت الشمس لتعلن قرب تسليمه روحه إلى الموت الطبيعي. وبدلاً من النور الباهر الذي أضاء ليلاً على سهول بيت لحم عند ولادته، هبط على النهار ظلام عمّ الأرض كلها عند موته. والسر المكتوم الطبيعي في كيفية إظلام الشمس يقابله السرُّ الأعظم في كيفية حلول الغضب الإلهي على المسيح الإنسان الكامل، الذي كان أيضاً ابن الله الحبيب، المولود الجديد .

والأمر الذي يزيل كل ريب في هذا التفسير لذلك الظلام، هو كلمة المسيح الرابعة التي قالها في آخر الساعات الثلاث: «إلهي إلهي، لماذا تركتني؟» ليس لنا أن نتجاسر بالسؤال عما جرى بينه وبين الآب في تلك الساعات التي كان فيها مختلفاً عن البشر جميعاً، وفصلت بينه وبين الجماهير المزدحمة .

سمع صرخته هذه عدد كاف من الناس فقد قالها «بصوت عظيم» فعلموا أن الآب تركه في تلك الساعة، ليعلم العالم أن ذلك كان لأجل التكفير عن خطايا البشر، خصوصاً وأن صلاته اختلفت تماماً عن كل صلاة أخرى قدمها ذكرت له. لم يصل كعادته «أيها الآب» أو «يا أبتاه» بل: «إلهي إلهي» - أي أنه يشعر بفواصل جديد وقتي بينه وبين الآب، يمنع عنه حق مخاطبة أبيه. وذلك أفضل برهان لتغيير العلاقة في تلك الساعة بينه وبين الآب - فقد كان في موقف النائب عن الجنس البشري - وقد حقق في هذه الكلمات النبوة التي جاءت في مزمور ٢٢: ١ .

أنا عطشان

«بَعْدَ هَذَا رَأَى يَسُوعُ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ قَدْ كَمَلَ، فَلَكَّى يَتِمُّ الْكِتَابُ قَالَ: «أَنَا عَطْشَانٌ». وَكَانَ إِنَاءٌ مَوْضُوعاً مَمْلُوءاً خَلاً، فَمَلَأُوا إِسْفِنْجَةً مِنَ الْخَلِّ، وَوَضَعُوهَا عَلَى زُوفَا وَقَدَّمُوهَا إِلَيْهِ فَمِمْهِ» (يوحنا ١٩ : ٢)

30).

بسبب المشابهة بين لفظة «إلهي» واسم النبي إيليا في اللغة الأرامية، استنتج بعض الواقفين هناك أن المسيح يستنجد بالنبي إيليا. ويظهر أن هذه الصرخة فكّت أغلال الظلام. فبزوال الألم الروحي عند انقشاع نور الشمس، عاد الألم الجسدي بشدة فقال (وليس صرخ): «أنا عطشان». هوذا معطي ماء الحياة الذي قال للسامرية: «من يشرب من الماء الذي أعطيه أنا فلن يعطش أبداً». يقول: «أنا عطشان». لأن عطشه جسدي، والماء الذي يعطيه هو الروح .

عند هذا ركض أحد الحراس وملاً أسفنجة خلاً ووضعها على قسبة وسقاه، فاعترضه بعض قساة القلوب قائلين: «أتركه لنر: هل يأتي إيليا ليُنزله ويخلصه.» أما المسيح فرفض أن يمتص هذا الشراب المنعش، لأنه قصد أن يسلم روحه بكل ما يمكن من النشاط. فعند كلمته هذه الخامسة تمت نبوة أخرى تقول: «فِي عَطْشِي يَسْقُونَنِي خَلاً» (مزمور ٦٩: ٢١).

قد أكمل

يعد أن شرب المسيح الخل قال كلمته السادسة: «قد أكمل». أعلن أنه أكمل أهم حوادث التاريخ البشري في كل عصوره، وهو عمل الفداء الذي به تمت المصالحة بين الإله القدوس والبشر الخاطئة. «لأنه فيه سرٌّ أَنْ يَحِلَّ كُلُّ الْمَلْءِ، وَأَنْ يُصَالِحَ بِهِ الْكُلُّ لِنَفْسِهِ، عَامِلاً الصُّلْحَ بِدَمِ صَلِيبِهِ، بِوَاسِطَتِهِ، سَوَاءً كَانَ مَا عَلَى الْأَرْضِ أَمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ. وَأَنْتُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ قَبْلاً أَجْنَبِيَّينَ وَأَعْدَاءً فِي الْفِكْرِ، فِي الْأَعْمَالِ الشَّرِيرَةِ، قَدْ صَالَحَكُمُ الْآنَ فِي جِسْمِ بَشَرِيَّتِهِ بِالْمَوْتِ، لِيُحْضِرَكُمُ قَدِيسِينَ وَبَلًا لَوْمٍ وَلَا شَكْوَى أَمَامَهُ» (كولوسي ١: ١٩-٢٢). قد أكمل النظام الموسوي مع رموزه من كبيرها إلى صغيرها، وانتهى العهد القديم في العهد الجديد. «الْأَشْيَاءُ الْعَتِيقَةُ قَدْ مَضَتْ. هُوَذَا الْكُلُّ قَدْ صَارَ جَدِيداً» (٢ كورنثوس ٥: ١٧). قد أكمل سائر الإله المتأنس بين الناس. ومن الآن فصاعداً لم يعد يخالط البشر كما كان يفعل، بل يظهر ظهوراتٍ متقطعةً فقط في جسد مجده الجديد أمام تلاميذه الأولين، ثم بعد قليل يتوارى تماماً عن أبصار العالم إلى يوم مجيئه الثاني المجيد.

في يدك أستودع روحي

«وَنَادَى يَسُوعُ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ: «يَا أَبَتَاهُ، فِي يَدَيْكَ أَسْتَوْدِعُ رُوحِي». وَلَمَّا قَالَ هَذَا أَسْلَمَ الرُّوحَ» (لوقا ٢٣: ٤٦).

كانت كلمة المسيح الرابعة: «إلهي إلهي، لماذا تركتني؟»... وقد أعلنت الانفصال الوقتي الرهيب بينه وبين الأب. فبصراخ آخر عظيم مثله، يعلن الآن للجماهير زوال ذلك الانفصال تماماً، ورضاه التام بأن يموت على الصليب لأنه يصرخ مصلياً: «يا أبتاه، في يدك أستودع روحي». فأتت بهذه الكلمة السابعة على الصليب نبوة أخرى جاءت في مزمور ٣١: ٥. وأظهر رجوع علاقته مع الأب بكلمته «أبتاه». فبهذه الكلمة السابعة والأخيرة، وبهذه العبارة المؤثرة التي كررها عدد غفير من تابعيه بعده في ساعات الاحتضار، ودّع ابنُ مريم وابنُ الإنسان خدمته الأرضية اليومية الاعتيادية بين الناس لينزل إلى القبر هنيئاً.

ثم نكس المسيح رأسه وأسلم الروح. ففي موته آية عظيمة أشار إليها قبلاً في قوله: «أنا أضع نفسي عن الخراف. ليس أحد يأخذها مني، بل أضعها أنا من ذاتي. لي سلطان أن

أضعها، ولي سلطان أن آخذها أيضاً. هذه الوصية قبلتها من أبي) «يوحنا ١٥: ١٠، ١٨» أي أنه بفعل إرادته فصل نفسه عن جسده فقيل: «أسلم الروح» لأنه قد أتم عمله المطلوب. وهذا يتفق مع موته السريع في مدة ست ساعات بعد صلبه، لأنه عُلق على الصليب ساعة تقديم ذبيحة الصباح في الهيكل، وأسلم روحه في ساعة تقديم ذبيحة المساء. ولم يكن الصلب يُميت المصلوب في يومه .

الزلزلة وقيام الموتى

«وَإِذَا حِجَابُ الْهَيْكَلٍ قَدْ انْشَقَّ إِلَى اثْنَيْنِ، مِنْ فَوْقَ إِلَى أَسْفَلٍ. وَالْأَرْضُ تَزَلْزَلَتْ، وَالصُّخُورُ تَشَقَّقَتْ، وَالْقُبُورُ تَفْتَحُتْ، وَقَامَ كَثِيرٌ مِنْ أَجْسَادِ الْقَدِيسِينَ الرَّاقِدِينَ وَخَرَجُوا مِنَ الْقُبُورِ بَعْدَ قِيَامَتِهِ، وَدَخَلُوا الْمَدِينَةَ الْمُقَدَّسَةَ، وَظَهَرُوا لِكَثِيرِينَ. وَأَمَّا قَائِدُ الْمِنَّةِ وَالَّذِينَ مَعَهُ يَحْرُسُونَ يَسُوعَ فَلَمَّا رَأَوْا الزَّلْزَلَةَ وَمَا كَانَ، خَافُوا جِدًّا وَقَالُوا: «حَقًّا كَانَ هَذَا ابْنُ اللَّهِ». وَكَانَتْ هُنَاكَ نِسَاءٌ كَثِيرَاتٌ يَنْظُرْنَ مِنْ بَعِيدٍ، وَهُنَّ كُنَّ قَدْ تَبِعْنَ يَسُوعَ مِنَ الْجَلِيلِ يَخْدُمْنَهُ، وَبَيْنَهُنَّ مَرْيَمُ الْمَجْدَلِيَّةُ، وَمَرْيَمُ أُمُّ يَعْقُوبَ وَيُوسَى، وَأُمُّ ابْنَيْ زَبْدِي» (متى ٢٧: ٥١-٥٦).

عندما سلم المسيح نفسه للموت ارتجفت الطبيعة لموت رب الحياة. قيل إن «الارض تزلزلت والصخور تشققت والقبور تفتحت». وكان لفتح القبور نتيجة عجيبة، إذ قام كثير من أجساد القديسين الراقدين، وخرجوا من القبور بعد قيامته، ودخلوا المدينة المقدسة، وظهروا لكثيرين. فهذه، والمعجزات الأخرى التي حدثت عند خروجه من العالم، تشبه المعجزات التي حدثت عند دخوله إلى العالم في أنه لم تشترك فيها يده أو يذ بشرية على الإطلاق. وهذا ما يزيد كثيراً قوة شهادة هذه المعجزات لشخصه الفريد .

شق حجاب الهيكل :

كان من جملة نتائج هذه الزلزلة وما تبعها أن حجاب الهيكل انشق من وسطه إلى اثنين من فوق إلى أسفل. كان هذا الحجاب في وضعه الأصلي علامة بأن الرضى الإلهي محجوب عن البشر، حتى عن الكهنة منهم، بسبب خطاياهم. وأن السبيل إلى الله مغلق في وجه الجميع. إلا أن رئيس الكهنة استثنى لأنه يمثل الرئيس الأصلي، الابن الحبيب. وكان الحجاب أيضاً رمزاً لطبيعة المسيح البشرية التي كانت تحجب وتعلن طبيعته الإلهية في الوقت الواحد. فبتمزيق جسد المسيح على الصليب انفتح للبشر باب السماء، ولذلك لاق أن يتمزق أيضاً الستار في الهيكل الذي كان يشير إلى ذلك الجسد. وكان لشق الحجاب معنى كبيراً يشمل أيضاً زوال النظام الموسوي، وطقوس الهيكل، والكهنوت البشري، والذبايح الحيوانية، والرموز القديمة، بناء على إتمام الرموز إليه في شخص المسيح .

حقاً كان هذا ابن الله :

كان مع الحراس الاثني عشر ضابط برتبة قائد مئة، يدير حركة صُلب الثلاثة. ولا ريب أنه مع جنوده قد اطلع على الظلم في معاقبة المسيح، لذلك كان للمعجزات التي حدثت بسببه كالظلام والزلزلة تأثير عظيم يخيفه، كما يخيف كل من كان مشتركاً في هذه الجريمة. ألا يخشون عقاب الله؟ لذلك خافوا جداً. لكن مع خوفهم شعروا بأن يداً إلهية كانت مع المسيح تبرهن أنه ليس كالناس، فمجدوا الله وشهدوا لصالح المسيح. وفاق رئيسهم في شهادته لأنه فاقهم في إدراكه وقال: «حقاً كان هذا الإنسان ابن الله». فصار من الكثيرين الذين قال عنهم المسيح تكراراً في وعظه أنهم «سَيَأْتُونَ مِنَ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ وَيَتَكُونُونَ مَعَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ، وَأَمَّا بَنُو الْمَلَكُوتِ فَيُطْرَحُونَ إِلَى الظُّلْمَةِ الْخَارِجِيَّةِ» (متى ٨: ١١ و ١٢). كما أن أفراد الجمهور انصرفوا وهم يقرعون على صدورهم عجباً وتخشعاً .

المسيح في القبر

«ثُمَّ إِذْ كَانَ اسْتِعْدَادًا، فَلِكَيْ لَا تَبْقَى الْأَجْسَادُ عَلَى الصَّلِيبِ فِي السَّبْتِ، لِأَنَّ يَوْمَ ذَلِكَ السَّبْتِ كَانَ عَظِيمًا، سَأَلَ الْيَهُودُ بِيَلَاطُسَ أَنْ تُكْسَرَ سِيقَانُهُمْ وَيُرْفَعُوا. فَأَتَى الْعَسْكَرُ وَكَسَرُوا سَاقِي الْأَوَّلِ وَالْآخَرَ الْمَصْلُوبَيْنِ مَعَهُ. وَأَمَّا يَسُوعُ فَلَمَّا جَاءُوا إِلَيْهِ لَمْ يَكْسِرُوا سَاقِيهِ، لِأَنَّهُمْ رَأَوْهُ قَدْ مَاتَ. لَكِنَّ وَاحِدًا مِنَ الْعَسْكَرِ طَعَنَ جَنْبَهُ بِحَرْبَةٍ، وَلِلْوَقْتِ خَرَجَ دَمٌ وَمَاءٌ. وَالَّذِي عَايَنَ شَهِدَ، وَشَهِادَتُهُ حَقٌّ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ لِتُؤْمِنُوا أَنْتُمْ. لِأَنَّ هَذَا كَانَ لِيَتِمَّ الْكِتَابُ الْقَائِلُ: «عَظْمٌ لَا يُكْسَرُ مِنْهُ». وَأَيْضًا يَقُولُ كِتَابٌ آخَرُ: «سَيَنْظُرُونَ إِلَى الَّذِي طَعَنُوهُ» (يوحنا ١٩: ٣١-٣٧).

أسلم المسيح الروح قبل أن يبتدئ العيد العظيم بساعتين، فتيسر للرؤساء عذرٌ لتجديد تعذيب المسيح، فطلبوا من الوالي أن يكسر سيقان المصلوبين، فلبى الوالي طلبهم وأمر بذلك، لأنه لا يتصور أن يموت أحد في هذا النهار. وكان الرؤساء يريدون أن يعاملوا عدوهم العظيم بعد موته معاملة المجرمين السياسيين بعد صلبهم، فيطرحون جسده خارج المدينة لتقتربه الوحوش. لكن قانون خروف الفصح يمنع كلياً كسر عظم منه، وتقول إحدى النبوات عن المسيح إن عظماً منه لا ينكسر (مزمور 34:20) فكيف يتحقق هذا الرمز، وكيف تتم هذه النبوة، بعد أمر الوالي الذي ذكر؟ الجواب في ما جرى. فبعدما نفذ العسكر أمر الوالي في اللصين أتوا إلى المسيح فوجدوه قد مات. وهكذا أوقفهم يد الله عن كسر عظامه.

ولكن لو تركوا المسيح هكذا لنقصت براهين موته الحقيقي، وهذا أمر مهم. لأنه بعد حين قامت جماعة أنكرت حقيقة القيامة، مدّعية بأنه دُفن في سُبَات طبيعي واستفاق في قبره. فاستدركت العناية الإلهية شكوكاً كهذه، وأوجدت ما ينافيها تماماً، فإن واحداً من العسكر طعن جنب المسيح بحربة فتحت جرحاً عميقاً، جعل المسيح يقول بعد قيامته لتوما: «هات يدك وضعها في جنبي». ومن هذا الجرح «خرج دم وماء». لأجل تحقيق هذا الأمر المستغرب أضاف البشير قوله: «وَالَّذِي عَايَنَ شَهِدَ، وَشَهِادَتُهُ حَقٌّ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ لِتُؤْمِنُوا أَنْتُمْ» (يوحنا ١٩: ٣٥). ثم يستشهد بالنبوة القديمة «فَيَنْظُرُونَ إِلَيَّ، الَّذِي طَعَنُوهُ» (زكريا ١٢: ١٠).

مات فعلاً :

هذه خاتمة حوادث الصلب. أن المسيح الذي كان بمجرد لمسه يحول الأجسام المصابة بالأمراض الكريهة والمميتة، إلى أجسام صحيحة، حول بلمسه صليباً مؤلماً معيباً، شعار اللعنة والتوحش، إلى موضوع الإكرام والإجلال، فصار شعار التمدن واللفظ والحب والإشفاق والشرف والخلاص الأبدي. لما كتب بولس الرسول: «وَأَمَّا مِنْ جِهَتِي، فَحَاشَا لِي أَنْ أَفْتَخَرَ إِلَّا بِصَلِيبِ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، الَّذِي بِهِ قَدْ صُلِبَ الْعَالَمُ لِي وَأَنَا لِلْعَالَمِ» غلاطية

١٤:٦) - كاد أن يكون منفرداً في العالم بهذا الافتخار. أما اليوم فيزداد الافتخار كثيراً جيلاً بعد جيل، ويزداد عدد شركائه فيه .

طلب دفن المسيح

«وَلَمَّا كَانَ الْمَسَاءُ، إِذْ كَانَ الْإِسْتِعْدَادُ - أَيِّ مَا قَبْلَ السَّبْتِ - جَاءَ يُوسُفُ الَّذِي مِنَ الرَّامَةِ، مُشِيرٌ شَرِيفٌ، وَكَانَ هُوَ أَيْضاً مُنْتَظِراً مَلَكُوتَ اللَّهِ، فَتَجَاسَرَ وَدَخَلَ إِلَى بِيَلَاطُسَ وَطَلَبَ جَسَدَ يَسُوعَ. فَتَعَجَّبَ بِيَلَاطُسُ أَنَّهُ مَاتَ كَذَا سَرِيعاً. فَدَعَا قَائِدَ الْمِئَةِ وَسَأَلَهُ: «هَلْ لَهُ زَمَانٌ قَدْ مَاتَ؟» وَلَمَّا عَرَفَ مِنْ قَائِدِ الْمِئَةِ، وَهَبَ الْجَسَدَ لِيُوسُفَ. فَاشْتَرَى كِتَاناً، فَأَنْزَلَهُ وَكَفَّنَهُ بِالْكِتَانِ، وَوَضَعَهُ فِي قَبْرِ كَانَ مَنْحُوتاً فِي صَخْرَةٍ، وَدَخَرَ حَجَراً عَلَى بَابِ الْقَبْرِ» (مرقس 15:42-46).

كان للمسيح تلميذ في الخفاء اسمه يوسف، من الرامة، كان عضواً في مجلس اليهود الأعلى. وكان يملك بستاناً به قبر محفور في صخر - ولعله كان يريد أن يدفنه فيه في أورشليم المدينة المقدسة. وكان يوسف الرامي صاحب مكانة بسبب مقامه وغناه، وكان له مركز طيب عند بيلاطس. فلما عرف يوسف بموته وطلب أن يأخذ جسد المسيح. ومع أنه لم يتبع المسيح ظاهراً أيام انتصاره، إلا أنه تبعه يوم انكساره، فأثبت شرفه الحقيقي وصدق إيمانه. ووافق بيلاطس على طلب يوسف بعد أن تحقق من موت المسيح. فاستدعى قائد المئة الذي تولى أمر الصلب. ولما تأكد منه أن المسيح قد مات، أصدر الأمر للحرس العسكري بالسماح ليوسف أن يأخذ الجسد .

تكفين المسيح ثم دفنه

«ثُمَّ إِنَّ يُوسُفَ الَّذِي مِنَ الرَّامَةِ، وَهُوَ تَلْمِيزُ يَسُوعَ، وَلَكِنْ خُفِيَةً لِسَبَبِ الْخَوْفِ مِنَ الْيَهُودِ، سَأَلَ بِيَلَاطُسَ أَنْ يَأْخُذَ جَسَدَ يَسُوعَ، فَإِذِنْ بِيَلَاطُسَ. فَجَاءَ وَأَخَذَ جَسَدَ يَسُوعَ. وَجَاءَ أَيْضاً نِيقُودِيمُوسُ، الَّذِي أَتَى أَوَّلًا إِلَى يَسُوعَ لَيْلاً، وَهُوَ حَامِلٌ مَزِيحٍ مُرٍّ وَعُودٍ نَحْوِ مِئَةِ مَنًا. فَأَخَذَا جَسَدَ يَسُوعَ، وَلَفَّاهُ بِأَكْفَانٍ مَعَ الْأَطْيَابِ، كَمَا لِلْيَهُودِ عَادَةٌ أَنْ يُكْفَنُوا. وَكَانَ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي صُلِبَ فِيهِ بُسْتَانٌ، وَفِي الْبُسْتَانِ قَبْرٌ جَدِيدٌ لَمْ يُوضَعْ فِيهِ أَحَدٌ قَطُّ. فَهُنَاكَ وَضَعَا يَسُوعَ لِسَبَبِ اسْتِعْدَادِ الْيَهُودِ، لِأَنَّ الْقَبْرَ كَانَ قَرِيباً» (يوحنا ١٩:٣٨-٤٢).

اشترى يوسف الرامي كتاناً ثميناً لأجل التكفين، وجاء معه محبب آخر يماثله في أنه مشير غني شريف وتلميذ خفي للمسيح، وهو نيقوديموس الذي «أتاه ليلاً» في أورشليم قبل هذا الوقت بثلاث سنين، وكلمه المسيح عن الولادة الثانية من فوق (يوحنا ٣). أتى الآن حاملاً مزيج مرٍّ وعودٍ للتحنيط نحو مئة مناً أي ما يقارب خمسة عشر رطلاً من الأطياب الثمينة،

وهو ما يكفي لتحنيط جثة ملك. ولا بد أنه كان معها خدم يساعدونهما في العمل الشاق الذي يقصدانه. ولا شك أن يوحنا انضم إليهما في العمل .

مات المسيح منبواً حسب النبوة، لكنه دُفن بإكرام كملك، بفضل غيرة يوسف الرامي ونيقوديموس، فصحت النبوة الأخرى أنه «وَجَعَلَ مَعَ غَنِيِّ عِنْدَ مَوْتِهِ» (إشعياء ٥٣: ٩) فبالنظر إلى غنى يوسف لا بد أن يكون قبره «مغارة كبيرة» في جانبها المكان المُعدّ لوضع الجسد، فأخذوا الجسد عن الصليب وأثموا الرسوم اللائقة من غسل وتحنيط وتكفين داخل المغارة. ولبثت النساء الأمينات واقفات في جوار المكان ينظرن إلى بعض ما حدث. ثم دحرجوا حجراً كبيراً على باب القبر .

حراسة القبر المختوم

«وَفِي الْغَدِ الَّذِي بَعْدَ الْإِسْتِعْدَادِ اجْتَمَعَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَالْفَرِيسِيُّونَ إِلَى بِيلاطُسَ قَائِلِينَ: «يَا سَيِّدُ، قَدْ تَذَكَّرْنَا أَنَّ ذَلِكَ الْمُضِلَّ قَالَ وَهُوَ حَيٌّ: إِنِّي بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ أَقُومُ. فَمُرْ بِضَبْطِ الْقَبْرِ إِلَى الْيَوْمِ الثَّالِثِ، لئَلَّا يَأْتِيَ تَلَامِيذُهُ لَيْلاً وَيَسْرِقُوهُ، وَيَقُولُوا لِلشَّعْبِ إِنَّهُ قَامَ مِنَ الْأَمْوَاتِ، فَتَكُونَ الضَّلَالَةُ الْأَخِيرَةُ أَشَرَّ مِنَ الْأُولَى!» فَقَالَ لَهُمْ بِيلاطُسُ: «عِنْدَكُمْ حُرَّاسٌ. اذْهَبُوا وَاضْبُطُوهُ كَمَا تَعْلَمُونَ». فَمَضَوْا وَضَبَطُوا الْقَبْرَ بِالْحُرَّاسِ وَخَتَمُوا الْحَجَرَ» (متى ٢٧: ٦٢-٦٦).

لا بأس من تحويل النظر قليلاً من التلاميذ المحبين إلى شيوخ اليهود المبغضين، الذين ظنوا أنهم أفلحوا تماماً في المهمة التي شغلتهم كثيراً في هذه السنين الأخيرة، واستراحوا نهائياً من المسيح. لكن هل استراحوا حقاً كما يزعمون؟ وهل تسكت ضمائرهم عن تعذيبهم لسفكهم دمياً بريئاً، مخالفين أقوال الله لأسلافهم؟ كان ما شاهدوه وسمعوه من قرائن الصليب قد شوّش أفكارهم لئلا يكون كلام المسيح أنه يقوم في اليوم الثالث صحيحاً، فذهبوا إلى بيلاطس يقولون: «يا سيد قد تذكرنا أن ذلك المضل قال وهو حي: إني بعد ثلاثة أيام أقوم. فَمُرْ بِضَبْطِ الْقَبْرِ إِلَى الْيَوْمِ الثَّالِثِ، لئَلَّا يَأْتِيَ تَلَامِيذُهُ لَيْلاً وَيَسْرِقُوهُ وَيَقُولُوا لِلشَّعْبِ إِنَّهُ قَامَ مِنَ الْأَمْوَاتِ. فَتَكُونَ الضَّلَالَةُ الْأَخِيرَةُ أَشَرَّ مِنَ الْأُولَى». فأجابهم باستخفاف: «عندكم حراس. اذهبوا واضبطوه كما تعلمون». فمضوا وضبطوا القبر بالحراس وختموا الحجر. ويُرجّح أنهم أفهموا الحراس بأن عملهم الخصوصي الذي وضعوه هناك لأجله هو أن يقتلوا يسوع حالاً، فيما إذا قام كما قال .

في يوم الجمعة الذي فيه صُلب المسيح، يذكر الإنجيل بالاسم قليلين فقط من تابعي المسيح، فمن تلاميذه بطرس والإسخريوطي ويوحنا. ومن المؤمنين به سراً يوسف ونيقوديموس وربما سمعان القيرواني، ومن النساء أمه وأختها ومريم المجدلية وسالومة. إلا أنه يقول أيضاً: «كان جميع معارفه واقفين من بعيد ينظرون صليبه، ونساء كثيرات كنَّ قد تبعنه من

الجليل». وهؤلاء جميعاً يهدّهم الفشل واليأس. لقد خطف الذئب الراعي، فأبي رجاء يبقى للقطيع؟

يقف المفكر المُخلص تجاه ذلك القبر المختوم ليسأل نفسه: «هل يقوم هذا المدفون، أو هل يبقى في القبر ليرى فساداً نظير جميع الذين ماتوا قبله وبعده. فإن قام، عليه أن يقوم دون واسطة بشرية. قال عند قبر لعازر: «أَنَا هُوَ الْقِيَامَةُ وَالْحَيَاةُ» (يوحنا ١١: ٢٥) وأكد لليهود أن له سلطاناً أن يضع نفسه أو يأخذها أيضاً. وإن لبث في قبره يَصْنُقُ الذين صلبوه لما عَيَّروه بأنه لا يصلح مخلصاً للعالم ما دام عاجزاً عن تخليص نفسه بنزوله عن الصليب.

فكيف ينتهي أمر المسيح؟

كان غروب شمس السبت بداية اليوم الثالث بعد موت المسيح، فاعتُبر الليل كله من اليوم الثالث حسب الاصطلاح اليهودي، أما القيامة فكانت قبيل نهاية هذا الليل وبدون رؤية أحد من البشر.

خرج جسد المسيح من أكفانه دون رفعها، فبقيت ملفوفة في مكانها كما كانت وهي محيطة بجسده، حتى أنه ذكر صريحاً أن المنديل الذي كان على رأسه وُجد ملفوفاً (لم يقل مطوياً). وتحرر جسده من القيود الطبيعية، فصار يظهر بغتة دون أن يُرى له قدم، ودون أن تعيقه الحواجز الطبيعية.

النساء يجئن صباح الأحد بالحنوط

«وَبَعْدَمَا مَضَى السَّبْتُ، اشْتَرَتْ مَرْيَمُ الْمَجْدَلِيَّةُ وَمَرْيَمُ أُمُّ يَعْقُوبَ وَسَالُومَةَ، حَنُوطاً لِیَاتِيْنَ وَيَذَهُنَّهُ. وَبَاكِراً جِداً فِي أَوَّلِ الْأُسْبُوعِ أَتَيْنَ إِلَى الْقَبْرِ إِذْ طَلَعَتِ الشَّمْسُ. وَكُنَّ يَقُلْنَ فِيمَا بَيْنَهُنَّ: «مَنْ يَذْخَرُ لَنَا الْحَجَرَ عَنْ بَابِ الْقَبْرِ؟» فَتَطَلَّعْنَ وَرَأَيْنَ أَنَّ الْحَجَرَ قَدْ دُحِرَ! لِأَنَّهُ كَانَ عَظِيماً جِداً» (مرقس ١٦: ١-٤).

اتفقت النساء الأمينات أن يأتين بالحنوط الذي أعدّنه مساء الجمعة، ويجتمعن باكراً صباح الأحد عند القبر لتجديد التحنيط باتقان، وكان هذا لظنهن أن المسيح باقٍ في قبره. فاهتم بهن مجلس السماء بناءً على أمانتهن وغيرتهن في أصعب الأحوال. فلم يكد يبتدئ هذا الاجتماع عند شق فجر اليوم الأول، أي الأحد، إلا سبقتهن إلى القبر خدمة الملائكة.

كُنَّ قد شاهدن في ساعة الدفن الحجر الكبير الذي أغلق به القبر، فتحيرن في كيفية دحرجته ليتمكن من الوصول إلى الجسد، لأنه كان عظيماً جداً. لكنهن جهلن صعوبةً أعظم جداً، وهي ما عمله الرؤساء بعد مبارحتهن القبر. ولا ريب أنهن لو اقتربن إليه في وجود الحراس لاعتبروهن آتياتٍ لسرقة الجسد، وعاملوهن أقسى معاملة. ولو سُمح لهن

بالاقتراب، فماذا كنَّ يصنعن بختم الحكومة على الحجر؟ لكن بما أن صعوبة رفع الحجر التي يعرفنها لم تثنهنَّ عن الواجب الحبي، أزال الله من أمامهنَّ ليس تلك فقط، بل أيضاً ما هو أعظم منها كثيراً مما يجهلنه وهو حراسة الحراس، التي أخفيت عنهن، رحمةً بهن، لئلا تمنعهنَّ عن تأدية خدمتهن الشريفة، أوليس أكثر ما تخفيه عنا العناية الإلهية (إذا لم نُقْلْ كُلُّهُ) قد أخفي رافةً بنا؟

أرسل الله ملاكاً ليفعل ما لا تستطيعه النساء. نزل الملاك ودحرج الحجر عن الباب وجلس عليه، فحدثت عند نزوله زلزلة عظيمة، فارتعب الحراس وهربوا من دحرجة الحجر، ومن هيئة الملاك الذي كان منظره كالبرق ولباسه أبيض كالثلج .

نهضت النساء للمجيء إلى القبر والظلام باق، وسرنَّ إلى أن بلغنَّ المكان عند طلوع الشمس وعيونهن شاخصات إلى القبر من بعيد، ولم تكن أمُّ يسوع معهن لأنها كانت في بيت يوحنا الحبيب تستقبل تعزيات من يتجراً من المحبين على زيارتها بمناسبة وفاة ابنها .

أما مريم المجدلية فكانت المتقدمة في زمرة النساء المتعبدات، لأنها كانت تشعر بعظمة دينها لمخلصها - والذي غفر له المسيح كثيراً يحبُّ المسيح كثيراً - ولم تجد من الخدمة والإكرام ما يكفي ليعبر عن شكرها القلبي للذي فكَّ أسرَّها القديم من نير سبعة شياطين .

«وَفِي أَوَّلِ الْأُسْبُوعِ جَاءَتْ مَرْيَمُ الْمَجْدَلِيَّةُ إِلَى الْقَبْرِ بَاكِراً، وَالظَّلَامُ بَاقٍ. فَنَظَرَتْ الْحَجَرَ مَرْفُوعاً عَنِ الْقَبْرِ. فَكَضَنْتْ وَجَاءَتْ إِلَى سِمْعَانَ بُطْرُسَ وَإِلَى التِّلْمِيذِ الْآخَرِ الَّذِي كَانَ يَسُوعُ يُحِبُّهُ، وَقَالَتْ لَهُمَا: «أَخْذُوا السَّيِّدَ مِنَ الْقَبْرِ وَلَسْنَا نَعْلَمُ أَيْنَ وَضَعُوهُ.» فَخَرَجَ بُطْرُسُ وَالتِّلْمِيذُ الْآخَرُ وَاتَّيَا إِلَى الْقَبْرِ. وَكَانَ الْإِثْنَانِ يِرْكُضَانِ مَعاً. فَسَبَقَ التِّلْمِيذُ الْآخَرُ بُطْرُسَ وَجَاءَ أَوَّلًا إِلَى الْقَبْرِ، وَانْحَنَى فَنَظَرَ الْأَكْفَانَ مَوْضُوعَةً، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَدْخُلْ. ثُمَّ جَاءَ سِمْعَانُ بُطْرُسُ يَتَّبَعُهُ، وَدَخَلَ الْقَبْرَ وَنَظَرَ الْأَكْفَانَ مَوْضُوعَةً، وَالْمَنْدِيلَ الَّذِي كَانَ عَلَى رَأْسِهِ لَيْسَ مَوْضُوعاً مَعَ الْأَكْفَانِ، بَلْ مَلْفُوفاً فِي مَوْضِعٍ وَاحِدٍ. فَحِينَئِذٍ دَخَلَ أَيْضاً التِّلْمِيذُ الْآخَرُ الَّذِي جَاءَ أَوَّلًا إِلَى الْقَبْرِ، وَرَأَى فَاْمَنَّ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا بَعْدُ يَعْرِفُونَ الْكِتَابَ: أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَقُومَ مِنَ الْأَمْوَاتِ. فَمَضَى التِّلْمِيذَانِ أَيْضاً إِلَى مَوْضِعِهِمَا» (يوحنا ١: ٢٠-١٠).

لما وقع نظر مريم على القبر ورأت الحجر مدحرجاً عن الباب، ظننت أن شخصاً محبباً أو مبغضاً أخذ الجسد الكريم، فكيف تطيق أن يهين المبعضون هذا الجسد؟ فرجعت راکضة إلى المدينة لتخبر بطرس ويوحنا، ولما وجدتهما قالت لهما: «أخذوا السيد من القبر، ولسنا نعلم أين وضعوه؟». فركض التلميذان إلى القبر مدفوعين بمزيد الإهتمام والكدر. وسبق يوحنا بطرس، ولم يكتف بطرس بنظرة من بعيد، بل دخل القبر ليفحص بالتدقيق، لعله يجد سبباً يفسر فقدان الجسد. ثم دخل يوحنا مرة أخرى وراء بطرس، وفحصا المكان معاً، ورأيا هيئة الأكفان الغربية، وبرهانَ اليد الإلهية الظاهرة في بقاء منديل الرأس منفصلاً عن

الأكفان، كما هي العادة في التكفين. وبعد المشاهدة مضى بطرس متعجباً في نفسه مما كان، أما يوحنا فرأى وآمن، بعد أن رأى الدلالة الواضحة على أن غياب الجسد لم يكن بعمل بشري، بل بقيامة خارقة للعادة. فإن هيئة الأكفان المرتبة جيداً، وبقائها في القبر، علامة كافية على أن عدم وجود الجسد لا يُعزى إلى يد أثيمة أو معادية. وكانا يعلمان جيداً أن ليس بين المحبين مَنْ أخذ الجسد من القبر، فأتَمَّت الأكفانُ الغاية من ذكرها، إذ أقنعت بطرس ويوحنا أن المسيح قد قام حقاً وبقيناً .

كان القبر الفارغ برهاناً على القيامة لا يقبل الريب. فلو أن الأعداء أخذوا الجسد، لفنّوا القول بأنه قام، لأن جسده الميت بين أيديهم. والمحبون لا يجدون سبيلاً إلى أخذه، لأن ضعفهم ويأسهم، وختم الحكومة، والحراس، وسطوة خصومهم، موانع كافية تحول دون ذلك. ولو فرضنا أنهم تمكّنوا من سرقة الجسد حسب تهمة اليهود، لكي يدّعوا أنه قام، فكيف نفسر اختباءهم في عليّة اورشليم مساء ذلك الأحد، وهم خائفون وغير مصدّقين أنه قام؟

المسيح قام... بالحقيقة قام

«فَقَالَ الْمَلَكُ لِلْمَرَأَتَيْنِ: «لَا تَخَافَا أَنْتُمَا، فَإِنِّي أَعْلَمُ أَنَّكُمَا تَطْلُبَانِ يَسُوعَ الْمَصْلُوبَ. لَيْسَ هُوَ هَهُنَا، لِأَنَّهُ قَامَ كَمَا قَالَ. هَلُمَّا انظُرَا الْمَوْضِعَ الَّذِي كَانَ الرَّبُّ مُضْطَجِعاً فِيهِ. وَاذْهَبَا سَرِيعاً قُولَا لِتَلَامِيذِهِ إِنَّهُ قَدْ قَامَ مِنَ الْأَمْوَاتِ. هَا هُوَ يَسْبِقُكُمْ إِلَى الْجَلِيلِ. هُنَاكَ تَرَوْنَهُ. هَا أَنَا قَدْ قُلْتُ لَكُمَا» (متى ٢٨: ٥-٧).

بعد أن رأى بطرس ويوحنا القبر الفارغ رجعا إلى المدينة، أما النساء فمكثن عند القبر ثم دخلنه. وفيما هنَّ مُحْتَارَات في أمر فقدان الجسد، ظهر لهنَّ ملاك فاندھشن. فلما رأى الملاك دهشتهن طمأنهنَّ وأظهر أنه يعرف غايتهن، وأن المسيح حقق وعده وقام، ثم دعاهن لينظرنَّ الموضع الذي كان نائماً فيه. وبينما هن خائفات ومنكسات وجوهن إلى الأرض ظهر لهن ملاكان بثياب براقّة، وبخاهن لأنهن يطلبنَّ الحي بين الأموات، ودعاهن لينظرنَّ الموضع الذي كان الجسد مضطجعا فيه، ثم أمرهن بالإسراع إلى التلاميذ (مخصّصين منهم التلميذ الساقط الحزين بطرس). ليبشرنهم بقيامة سيدهم، ويخبرنهم بأنه يسبقهم إلى الجليل، وهناك يرونه حسب وعده لهم .

فخرجن سريعا من القبر، وهربنَّ من المكان بخوف وفرح - بخوف بسبب هذه الظهورات الغريبة التي لا سوابق لها، وبفرح لأن سيدهن حقاً قام. وساقهن هذا الخوف مع هذا الفرح حتى ذهبن راكضات لإبلاغ الخبر للتلاميذ سريعا .

عندما قام جسد المسيح الجديد الممجّد لم ترافقه الأكفان من قبره، فأكفان المسيح إحدى صفحات تاريخه، نام فيها حيناً، لكن الذين فتنشوا عنه فيها لم يجدوه، لأنه كان حاضراً بينهم حياً غير منظور. والذين يفتشون عن المسيح في التاريخ، كما عن سير المشاهير القدماء، لا يجدونه لأنه حاضر بينهم حياً غير منظور، والتاريخ لا يريه كما هو، بل تراه عينُ الإيمان فقط. ولا يعرف أحد المسيح إلا باختبار حضوره المبارك معه شخصياً. وتجديد الاختبار ضروري، لأن الماضي منه لا يفي بالمطلوب. نرى ذلك في تلاميذ المسيح، لأن اختبارهم في المسيح قبل موته لم يف بالمطلوب بعد قيامته، واختبارهم الماضي صوّره لهم في قبره، فاحتاجوا لاختبار جديد يريهم إياه في جسد مجده .

المسيح يظهر لمريم المجدلية

«أَمَّا مَرْيَمُ فَكَانَتْ وَاقِفَةً عِنْدَ الْقَبْرِ خَارِجاً تَبْكِي. وَفِيمَا هِيَ تَبْكِي انْحَنَتْ إِلَى الْقَبْرِ، فَظَرَتْ مَلَائِكَيْنِ بِثِيَابٍ بَيْضٍ جَالِسَيْنِ وَاحِداً عِنْدَ الرَّأْسِ وَالْآخَرَ عِنْدَ الرَّجْلَيْنِ، حَيْثُ كَانَ جَسَدُ يَسُوعَ مَوْضُوعاً. فَقَالَا لَهَا: «يَا امْرَأَةُ، لِمَاذَا تَبْكِينَ؟» قَالَتْ لَهُمَا: «إِنَّهُمْ أَخَذُوا سَيِّدِي وَلَسْتُ أَعْلَمُ أَيْنَ وَضَعُوهُ». وَلَمَّا قَالَتْ هَذَا انْفَتَحَتْ إِلَى الْوَرَاءِ، فَظَرَتْ يَسُوعَ وَاقِفاً، وَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّهُ يَسُوعُ.

قَالَ لَهَا يَسُوعُ: «يَا امْرَأَةً، لِمَاذَا تَبْكِينَ؟ مَنْ تَطْلُبِينَ؟» فَظَنَنْتَ تِلْكَ أَنَّهُ الْبُسْتَانِيُّ، فَقَالَتْ لَهُ: «يَا سَيِّدُ، إِنَّ كُنْتُ أَنْتَ قَدْ حَمَلْتَهُ فَقُلْ لِي أَيْنَ وَضَعْتَهُ، وَأَنَا أَخُذُهُ». قَالَ لَهَا يَسُوعُ: «يَا مَرْيَمُ!» فَالْتَفَتَتْ تِلْكَ وَقَالَتْ لَهُ: «رَبُّونِي» الَّذِي تَفْسِيرُهُ يَا مُعَلِّمُ. قَالَ لَهَا يَسُوعُ: «لَا تَلْمِسِينِي لِأَنِّي لَمْ أَصْعَدْ بَعْدُ إِلَى أَبِي. وَلَكِنْ اذْهَبِي إِلَى إِخْوَتِي وَقُولِي لَهُمْ: إِنِّي أَصْعَدُ إِلَى أَبِي وَأَبِيكُمْ وَإِلَهِي وَإِلَهُكُمْ.» فَجَاءَتْ مَرْيَمُ الْمَجْدَلِيَّةُ وَأَخْبَرَتْ التَّلَامِيذَ أَنَّهَا رَأَتْ الرَّبَّ، وَأَنَّهُ قَالَ لَهَا هَذَا» (يوحنا ١١: ٢٠-١٨).

كانت مريم المجدلية قد عادت إلى القبر المقدس، بعد أن أخبرت بطرس ويوحنا، فأخذها البكاء الشديد عند باب القبر. وانحنى لتتأمل لأول مرة داخله، فما كان أعظم عجبها لرؤية الملاكين جالسين وجهاً لوجه عند طرفي القبر. لم يُذكر أنها دهشت كغيرها أو جزعت عند رؤية الملاكين، لأن تأثير الحزن الشديد في قلبها لم يترك للخوف مجالاً.

وسأل الملاكان مريم عن سبب بكائها، فأعادت ما قالت لبطرس ويوحنا. نراها في شدة حزنها مثال الذين يبكون وينوحون في ظروف تستدعي السرور، لأنها بكت لفراغ القبر، بينما هذا أعظم داع للسرور والابتهاج، ولو أنها عرفت الحقيقة. فكم من مرة في حياتنا حزناً لأمرٍ حسبناها مصائب، وهي بالحقيقة بركات.

الظاهر أن رفيقات مريم كنَّ قد ابتعدن عنها، وأنها لم تعلم بظهور الملاكين لهن. طلبت الجسد الميت لتكرمه، فنالت رؤية ظهوره حياً قبل ظهوره لأحدٍ غيرها. لأنها لم تكذب تجيب الملاك حتى سمعت ما جعلها تلتفت إلى الورا، فنظرت رجلاً بهيئة بسيطة، حسبته حارس البستان، سألتها: «يا امرأة لماذا تبكين؟ من تطلبين؟».

في هذا السؤال المزدوج بعض التبكيت، لأن كلامه المكرر السابق عن قيامته لم يرسخ في ذهنها، فأجابت على سؤاله أنها مستعدة أن تستلم الجسد، وتجد له قبراً آخر مناسباً - وربما حوّلت نظرها عنه منتظرة جوابه - فقال لها: «يا مريم.» بذات الصوت الذي ألفته مدة اتباعها إياه. هو الراعي الصالح الذي يدعو خرافه الخاصة بأسمائها، وخاصته تعرفه. فلما دعاها باسمها عرفته، والتفتت وكل عواطفها متيقظة، وقصدت أن تقبل قدميه. ونادته: «ربوني.» أي «يا معلمي.»

ولكن المسيح أوقفها عن هذه الحركة، ليشعرها بالتغيير الكامل الذي نتج عن قيامته وأظهر لها السبب بقوله: «لأنني لم أصعد بعد إلى أبي.» أراد أن يفهمها ويفهم العالم بواسطتها أن الواجب في التمسك به هو التمسك الروحي لا الجسدي. فعلى شعبه المسيحي أن يتعلم ذلك، «اللَّهُ رُوحٌ. وَالَّذِينَ يَسْجُدُونَ لَهُ فَبِالرُّوحِ وَالْحَقِّ يَنْبَغِي أَنْ يَسْجُدُوا» (يوحنا 4: 24) وأن لا يطلبوا تمثيلاً خارجياً أو حضوراً محسوساً. وأمر المسيح مريم أن تذهب حالاً وتبشر

تلاميذه بأنها رأتها، وقد قام، وأنه يصعد قريباً إلى الله أبيه (في طبيعته الإلهية) وإلهه (في طبيعته البشرية).

شرف المسيح تلاميذه بلقب جديد دلّ على لطفه وتواضعه. دعاهم قبلاً تلاميذه وأصدقاءه وأحباءه. أما الآن فلأول مرة يدعوهم «إخوتي». فما أعظم الحب الذي جعله يحتضنهم كإخوة، بعد كل ما صدر منهم مما ينافي هذه الأخوية الروحية له. وما أعظم التواضع الذي فعل ذلك بعد ما حصل له من التمجيد الجديد بالنسبة إلى الماضي. إلا أنه لم يشملهم معه بصيغة الجمع، ليقول: «أصعد إلى أبينا وإلهنا». بل حافظ على التفرد بقوله: «أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم». لأن الله أبوه بالولادة الذاتية، كما قال في المزمور: «أنت ابني. أنا اليوم وَلَدْتُكَ» (مزمور ٢: ٧). لكنه أبوهم بالتبني الروحي. بنوة المسيح لله بنوة أصيلة، أما بنوة التلاميذ لله فهي بنوة مكتسبة، في المسيح.

المسيح يظهر للنسوة

«فَخَرَجْنَا سَرِيعاً مِنَ الْقَبْرِ بِخَوْفٍ وَفَرَحٍ عَظِيمٍ، رَاكِضَتَيْنِ لِتُخْبِرَا تَلَامِيذَهُ. وَفِيمَا هُمَا مُنْطَلِقَتَانِ لِتُخْبِرَا تَلَامِيذَهُ إِذَا يَسُوعُ لَقَاهُمَا وَقَالَ: «سَلَامٌ لَكُمَا». فَتَقَدَّمَتَا وَأَمْسَكَتَا بِقَدَمَيْهِ وَسَجَدَتَا لَهُ. فَقَالَ لَهُمَا يَسُوعُ: «لَا تَخَافَا. إِذْهَبَا قَوْلَا لِإِخْوَتِي أَنْ يَذْهَبُوا إِلَى الْجَلِيلِ، وَهَنَّاكَ يَرَوْنِي» (متى ٢٨: ١٠).

ثم ظهر المسيح ظهوره الثاني كالأول، وليس لتلاميذه ولا لرجالٍ من تابعيه، بل للنساء وهنّ ذاهبات راکضات ليتّمنن وصية الملائكة، ويبشرن التلاميذ بالقيامة، فتمنن ذلك بأن أخبرن التلاميذ الأحد عشر ومن معهم، فلم يصدقوهن، ولا سيما قولهن إنهن قد رأين المسيح، بل نسبوا إليهن الهذيان.

ولقد حوّلت العناية الإلهية عدم تصديق التلاميذ إلى أعظم بركة، لأن ذلك أصبح من أهم البراهين الدامغة على صدق القيامة. قال أحد المفسرين إن شكوك التلاميذ لم تزل إلا شيئاً فشيئاً عند توالي البراهين القاطعة. فشكهم الأول يقوي ثقتنا بشهادتهم بعد تيقنهم. شكوا وقتاً قصيراً لكي لا نشك أبداً.

الحراس يُبلغون بالقيامة

«وَفِيمَا هُمَا ذَاهِبَتَانِ إِذَا قَوْمٌ مِنَ الْحَرَّاسِ جَاءُوا إِلَى الْمَدِينَةِ وَأَخْبَرُوا رُؤَسَاءَ الْكَهَنَةِ بِكُلِّ مَا كَانَ. فَاجْتَمَعُوا مَعَ الشُّيُوخِ، وَتَشَاوَرُوا، وَأَعْطُوا الْعَسْكَرَ فِضَّةً كَثِيرَةً قَائِلِينَ: «قُولُوا إِنَّ تَلَامِيذَهُ أَتَوْا لَيْلاً وَسَرَقُوهُ وَنَحْنُ نِيَامٌ. وَإِذَا سُمِعَ ذَلِكَ عِنْدَ الْوَالِي فَنَحْنُ نَسْتَغْطِفُهُ، وَنَجْعَلُكُمْ مُطْمَئِنِّينَ». فَأَخَذُوا الْفِضَّةَ وَفَعَلُوا كَمَا عَلَّمُوهُمْ، فَشَاعَ هَذَا الْقَوْلُ عِنْدَ الْيَهُودِ إِلَى هَذَا الْيَوْمِ» (متى ٢٨: ١١-١٥).

أما الحراس فقد أسرعوا يخبرون بما جرى عند القبر. واحتار رؤساء اليهود ماذا يفعلون؟

لم يكن المسيح بعد قيامته يظهر لكل الناس، بل لخاصته فقط من التلاميذ. فعقد رؤساء اليهود مجعاً لبحثوا الأخبار التي حملها إليهم الحراس، ودفعوا لهم رشوة ليقولوا إن تلاميذ المسيح سرقوا جسده من القبر بينما الحراس نيام. لقد زادت خطية الرؤساء لأن قيامة المسيح كانت بقوة الروح القدس، ونسبوا إلى السرقة، فصار عملهم هذا تجديفاً على الروح القدس، مثلما فعلوه لما نسبوا قوة المسيح في المعجزات إلى الشياطين. وماذا يُقال عن هؤلاء الذين كرروا قولهم للمسيح إنهم يؤمنون به إن أعطاهم آية من السماء. فآية آية من السماء أعظم من آية قيامته وما رافقها من الآيات الفارقة؟ وأي معجزة أعظم: أن ينزل عن الصليب وهو حي كما طلبوا منه، أو أن يقوم من القبر في اليوم الثالث بعد موته؟

لو كان الإيمان متوقفاً على البراهين لآمنوا لا محالة، لأن البراهين كانت متواصلة ومتزايدة مدة الثلاث سنين، حتى انتهت بأعظمها وهي قيامته. ألم يقل المسيح في مثل الغني ولعازر إن الذين لا يؤمنون بواسطة الكتب المقدسة، لا يؤمنون ولو قام واحد من الأموات؟ (لوقا ١٦: ٣١) فليس الإيمان ثمر البراهين وحدها، لأن الإيمان الخلاصي أول وقبل كل شيء هبة إلهية، وعلى ذلك فإنه يتوقف على حالة القلب ومدى استعدادة لقبول الهبة. والمنطق وحده مهما كان دقيقاً وصادقاً لا يوصل إلى السماء. فلا يتوهم صاحب البراهين الدامغة أنه يربح النفوس بمجرد الجدال، مهما كانت معارفه سامية ولسانه طليقاً في البيان. أكبر برهان على القيامة :

أما أثبت البراهين على قيامة المسيح، فجاء في الحوادث التابعة لصعوده. فبعد صلبه بسبعة أسابيع فقط نرى تلاميذه يجاهرون أمام الجموع المتجمهرة في أورشليم ذاتها، بحقيقة قيامته. ويوبخون الرؤساء صراحة في مركز سطوتهم على قتلهم المسيح الذي أقامه الله من الأموات، ونرى الألوف يؤمنون حالاً بتأثير هذه المجاهرة، وتأثير المعجزات التي فعلها رسله ونسبوا إلى قوة المسيح الذي قام من قبره ممجداً. فلو كان تكذيب خبر القيامة ممكناً، لما استطاع التلاميذ أن يجاهروا. ولو لم يقم المسيح حقاً لما تجرأوا أن يعلنوا ما أعلنوه .

ثم أنه لا يُعقل أن الرؤساء المبغضين الذين بذلوا غاية الجهد حتى يصلبوا المسيح يسكتون عن تلاميذ سرقوا الجسد ويسكتون عن حراس أقاموهم ليمنعوا التلاميذ عن عمل كهذا، فقصرُوا في مهمتهم. لو تجاسر تلاميذه وسرقوا الجسد، فماذا يربحون من سرقة الجسد. لأن مَنْ يصدق قولهم بقيامة سيدهم لمجرد فروغ القبر من جسده؟ وبأي حق يجعلون قيامته أساس وعظمهم، وليس لديهم برهان إلا وجود القبر فارغاً؟

ثم أن المحبين الذين يسرقون الجسد في وجود الحراس (على فرض نومهم كما قال اليهود) لن يجرأوا أن يبقوا في القبر أكثر من الدقائق الضرورية لأخذ الجسد، فلا يمكن أن يهتموا بأن يرفعوا الأكفان عن الجسد، ثم يضعوها ملفوفة بترتيب. وأي عاقل يُسلّم بأنهم يسرقون الجسد ويتركون لأعدائه وأعدائهم الأكفان الثمينة؟ وكيف يرفعون الحجر الضخم الذي على باب القبر بدون أن يوقظوا الحراس؟ وكيف يسرقون الجسد ثم يرفض قادتهم من التلاميذ تصديق قيامته، وينسبون الهذيان إلى النساء القائلات بها؟ وكيف يسرق التلاميذ جسده ليلاً ثم في الصباح تتوجّه النساء اللواتي كنّ في مقدمة تابعيه، وبعضهن أمهات بعض التلاميذ أخذات الحنوط إلى القبر؟

ثم أن الصفات والمبادئ السامية القويمة التي اشتهر بها تلاميذه سريعاً بعد موته، واستشهادهم دون تردد انتصاراً لقيامته، أمورٌ لا تتفق مطلقاً مع اتّهامهم بحيلة كاذبة لهذه الدرجة .

لو كانت القيامة اختلاقاً :

ثم أنه لو كانت قصة القيامة اختلاقاً، لذكر الرواة ظهورَ المسيح لغير تلاميذه، ليزيد برهاناً ما يدّعون. ولما خطر على بالهم أن يحصروا ظهوره بالتلاميذ وحدهم. لأن المختلق الذكي لا يترك هذا الباب دون أن يطرقه. ونعلم من التاريخ أن هذا الانتقاد حصل باكراً من أعداء المسيحية. أما الذين يقولون باستحالة المعجزات فيضطرون طبعاً لإنكار القيامة التي هي أعظمها .

وهناك من يقول إن التلاميذ لم يخلقوا خبر القيامة، لأنهم رجال صالحون صادقون، لكنهم رأوا رؤى ظنوها حقيقة. لكننا يجب ألاّ نغفل أن تحقيق قيامة المسيح لم تبتدئ بمشاهدة شخصه، ليصحّ القول إنه رؤيا، بل ابتدأ بالبرهان الحسيّ في فراغ قبره. ومعلوم أن الرؤيا الوهمية تأتي الإنسان طبعاً لتصوراته. وقد كان التصوّر بقيامة المسيح، بعيداً عن كل استعدادات التلاميذ الفكرية السابقة. ونعود إلى القول بأن البشيرين لم يوردوا خبراً من الأخبار التحليلية، بل اقتصروا على ما هو تحت حكم حواس البصر والسمع واللمس، وبذلك ختموا على أهمية شهادة الحواس في الدين. نعلم أنه لما ظهر المسيح لهم ألزمهم أن يلمسوه ويطعموه لكي يعرفوا أنه بالحقيقة قام .

كان الرسل في وعظهم يعودون إلى حقيقة القيامة، دون أي معجزة أخرى، كشهادة بأن المسيح ابن الله. وعلى تصديق القيامة يتوقف تصديق المعجزات كافة.

المسيح يظهر بعد القيامة

ظهوره لتلميذي عمواس

«وَإِذَا اثْنَانِ مِنْهُمَا كَانَا مُنْطَلِقَيْنِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ إِلَى قَرْيَةٍ بَعِيدَةٍ عَنْ أُورُشَلِيمَ سِتِّينَ غَلْوَةً، اسْمُهَا «عِمَّوَسُ». وَكَانَا يَتَكَلَّمَانِ بَعْضُهُمَا مَعَ بَعْضٍ عَنْ جَمِيعِ هَذِهِ الْحَوَادِثِ. وَفِيمَا هُمَا يَتَكَلَّمَانِ وَيَتَحَاوِرَانِ، اقْتَرَبَ إِلَيْهِمَا يَسُوعُ نَفْسُهُ وَكَانَ يَمْشِي مَعَهُمَا. وَلَكِنْ أُمْسِكْتُ أَعْيُنَهُمَا عَنْ مَعْرِفَتِهِ. فَقَالَ لَهُمَا: «مَا هَذَا الْكَلَامُ الَّذِي تَتَطَارَحَانِ بِهِ وَأَنْتُمَا مَاشِيَانِ عَابِسَيْنِ؟» فَأَجَابَ أَحَدُهُمَا، الَّذِي اسْمُهُ لَكِلْيُوبَاسُ: «هَلْ أَنْتَ مُتَغَرِّبٌ وَحَدَّكَ فِي أُورُشَلِيمَ وَلَمْ تَعْلَمْ الْأُمُورَ الَّتِي حَدَّثَتْ فِيهَا فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ؟» فَقَالَ لَهُمَا: «وَمَا هِيَ؟» فَقَالَا: «الْمُخْتَصَّةُ بِيَسُوعَ النَّاصِرِيِّ، الَّذِي كَانَ إِنْسَانًا نَبِيًّا مُقْتَدِرًا فِي الْفِعْلِ وَالْقَوْلِ أَمَامَ اللَّهِ وَجَمِيعِ الشَّعْبِ. كَيْفَ أَسْلَمَهُ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَحُكَّامُنَا لِقَضَاءِ الْمَوْتِ وَصَلَّبُوهُ. وَنَحْنُ كُنَّا نَرْجُو أَنَّهُ هُوَ الْمُرْمَعُ أَنْ يَفْدِيَ إِسْرَائِيلَ. وَلَكِنْ، مَعَ هَذَا كُلِّهِ، الْيَوْمَ لَهُ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ مُنْذُ حَدَثَ ذَلِكَ. بَلْ بَعْضُ النِّسَاءِ مِنَّا حَيَّرْنَنا إِذْ كُنَّا بَاكِرًا عِنْدَ الْقَبْرِ، وَلَمَّا لَمْ يَجِدْنَ جَسَدَهُ أَتَيْنَ قَائِلَاتٍ: إِنَّهُنَّ رَأَيْنَ مَنْظَرَ مَلَائِكَةٍ قَالُوا إِنَّهُ حَيٌّ. وَمَضَى قَوْمٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَنَا إِلَى الْقَبْرِ، فَوَجَدُوا هَكَذَا كَمَا قَالَتْ أَيْضًا النِّسَاءُ، وَأَمَّا هُوَ فَلَمْ يَرَوْهُ». فَقَالَ لَهُمَا: «أَيُّهَا الْعَبِيَّانِ وَالْبَطِيئَانِ الْقُلُوبِ فِي الْإِيمَانِ بِجَمِيعِ مَا تَكَلَّمُ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ، أَمَا كَانَ يَنْبَغِي أَنْ الْمَسِيحُ يَتَأَلَّمُ بِهِذَا وَيَدْخُلَ إِلَى مَجْدِهِ؟» ثُمَّ ابْتَدَأَ مِنْ مُوسَى وَمِنْ جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ يُفَسِّرُ لَهُمَا الْأُمُورَ الْمُخْتَصَّةَ بِهِ فِي جَمِيعِ الْكُتُبِ. ثُمَّ اقْتَرَبُوا إِلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَا مُنْطَلِقَيْنِ إِلَيْهَا، وَهُوَ تَظَاهَرَ كَأَنَّهُ مُنْطَلِقٌ إِلَى مَكَانٍ أَبْعَدَ. فَأَلَزَمَاهُ قَائِلَيْنِ: «أَمْكُثْ مَعَنَا لِأَنَّهُ نَحْنُ الْمَسَاءُ وَقَدْ مَالَ النَّهَارُ». فَدَخَلَ لِيَمْكُثَ مَعَهُمَا. فَلَمَّا اتَّكَأ مَعَهُمَا، أَخَذَ خُبْزًا وَبَارَكَ وَكَسَّرَ وَنَاولَهُمَا، فَانْفَتَحَتْ أَعْيُنُهُمَا وَعَرَفَاهُ ثُمَّ اخْتَفَى عَنْهُمَا، فَقَالَ بَعْضُهُمَا لِبَعْضٍ: «أَلَمْ يَكُنْ قَلْبُنَا مُلْتَهَبًا فِينَا إِذْ كَانَ يُكَلِّمُنَا فِي الطَّرِيقِ وَيُوضِحُ لَنَا الْكُتُبَ؟» فَقَامَا فِي تِلْكَ السَّاعَةِ وَرَجَعَا إِلَى أُورُشَلِيمَ، وَوَجَدَا الْأَحَدَ عَشَرَ مُجْتَمِعِينَ، هُمُ وَالَّذِينَ مَعَهُمْ وَهُمْ يَقُولُونَ: «إِنَّ الرَّبَّ قَامَ بِالْحَقِيقَةِ وَظَهَرَ لِسِمْعَانَ» (لوقا ٢٤: ١٣-٣٤).

كان ظهور المسيح الثالث لتلميذين ليسا من رسله المختارين هما تلميذا عمواس. ويرجح أن عدم ظهوره لتلاميذه أولاً، وفي عدم ذكر ظهوره لوالدته مطلقاً، قصد خصوصي، هو تخفيف خطر المبالغة في إكرام الذين لهم المقام الأول في الكنيسة. ويوضح هذا الظهور الثالث التغيير الذي حصل لجسد المسيح بموته ثم قيامته، فنقرأ أنه ظهر «بهيئة أخرى» لاثنتين من الذين معه، وهما منطلقان في ذلك اليوم إلى قرية عمواس التي تبعد عن أورشليم، ستين غلوة (أي نحو عشرة كيلو مترات). يُستنتج أنه ظهر بغتة ومشى وراءهما مسافة قصيرة، ثم أدركهما وكلمهما فظنَّاه أحد المسافرين، إذ لا شيء في هيئته الظاهرة يذكرهما بسيدهما. وسألهما وهو يمشي معهما: «ما هذا الكلام الذي تتطارحان به وأنتما ماشيان عابسين؟» يُحتمل أن بعض عبوستهما نتج عن تعرُّض رجلٍ لهما، ظنَّاه غريباً،

بينما حديثهما في مصابهما الجسيم بسبب صلب المسيح كافٍ للعبوسة. سمعهما يرددان عبارات اليأس ثم الرجاء، وبراهين الشك ثم اليقين، وقد ظهر من كلامهما صدق إيمانها ومحبتهما للمسيح، وجرأتها في إظهار علاقتهما معه لهذا الغريب في هذه الأحوال الحرجة. فعلى سؤاله أجاب أحدهما - وهو كليوباس - مستغرباً كيف أن إنساناً قادمًا من المدينة يجهل هذا الموضوع الذي يشغل أفكار الجميع. فلما حثهما المسيح ليوضحا ما يشير إليه، أجابا أنه عن الأمور المختصة ببسوس الناصري، الذي كان إنساناً نبياً مقتدرًا في الفعل والقول، أمام الله وجميع الشعب. فمن لا يغتاظ ويأسف على عمل رؤساء الكهنة الذين أسلموه لحكم الموت وصلبوه؟

لما وجد كليوباس من هذا الغريب إصغاءً وُدِّيًّا، كشف له سرَّهما في قوله: «نحن كنّا نرجو أنه هو المزمع أن يفدي إسرائيل». كانا كغيرهما ينتظران من المسيح متى جاء خلاصاً سياسياً، لأن معظم التاريخ اليهودي كان حوادث الخلاص السياسي الذي ناله هذا الشعب بواسطة عظمائه، كموسى ويشوع وداود وحزقيا وأمثالهم. ثم اعترف كليوباس بأن مرور ثلاثة أيام على صلب المسيح، قد أيدَّ يأسهم. فهل في كلام كليوباس تلميحٌ إلى ما قاله المسيح تكراراً عن أنه سيقوم في اليوم الثالث؟ أو إلى كونهم انتظروا في أورشليم إلى ختام اليوم الثالث، ولما لم يروه زاد يأسهم وتوجهوا إلى قريتهم؟

اعترف كليوباس قائلاً: «بعض النساء منّا حيَّرننا إذ كنَّ باكراً عند القبر، ولما لم يجدنَّ جسده، أتَيْنَ قائلات: إنهن رأين منظر ملائكة قالوا إنه حي. ومضى قوم من الذين معنا إلى القبر، فوجدوا هكذا كما قالت أيضاً النساء، وأما هو فلم يروه». فهل استخفاً بأخبار النساء لأنهنَّ نساء؟ أم استبعدا أن الملائكة تظهر للنساء، ولا تظهر للرجال، أو لوالدته المكرمة المكتوبة؟

اضطر المسيح أن يلقي عليهما تعاليمه قبل أن يعلن عن نفسه لهما». أيها الغيبان والبطيئان القلوب في الإيمان». إنه يصف الشاكِّين بالغباوة لأنهم لا يصدقون ما ورد في التوراة. وقد دعاهما غيبين لأنهما لم يفهما النبوات التي أعلنت لزوم آلام المسيح قبل دخوله إلى مجده. فلو فهما الكتاب لعلمنا عندما رأياه يتألم أنه لا بد أن يتمجد أيضاً. افتكرا أن ما قاساه نفياً للقول بأنه المسيح المنتظر. والحق أن ما قاساه هو شرط لازم لكونه المسيح. فلم يوبخهما لعدم تصديقهما النساء والملائكة والقبر الفارغ، بل لعدم فهمهما الكتاب الإلهي أساس اليقين الثابت، ولأنهما نسيا أن الأنبياء صرحوا بأن طريق المجد تمرُّ على الرِّفض والآلام والقبر.

ثم ألقى المسيح تعليماً وافياً على هذين المجهولين في التاريخ، الخارجين عن صف الرسل. ابتداءً من موسى وجميع الأنبياء يفسر لهما الأمور المختصة به في جميع الكتب. فلو سألنا ما هي أعظم خسارة من أقواله التي لم تحفظ، نجيب أنها الشرح الذي فسَّر فيه النبوات

والإشارات والرموز المختصة به في كل أسفار التوراة، ولا سيما التي تشير إلى آلامه وموته وكفارته. فما أعظم اندهاش تلميذي عمواس في أثناء هذا الشرح الذي استمر مدة ساعتين، مضتا كأنهما دقيقتان، بسبب تلذذ كليوباس ورفيقه واستفادتهما - لأن التوراة صارت دفعة واحدة كأنها كتاب جديد. فتح هذا المتكلم ذهنيهما للفهم، وأشعل قلبيهما للشعور. وهذا الفعل المزدوج هو فعل روحه على الدوام، في كل من يصغي إليه بإخلاص، إذ يترجم لفهمه أقوال الكتاب ثم يطبعها على قلبه. وصف كليوباس ورفيقه شعورهما بقولهما «ألم يكن قلبنا ملتهباً فينا إذ كان يكلمنا في الطريق، ويوضح لنا الكتب؟».

أخيراً اقتربوا من قرية عمواس، فودعهما كأنه قاصد أن يتقدم إلى مكان أبعد، إن سمحا له، فأوقفاه بقولهما: «امكث معنا لأنه نحو المساء وقد مال النهار.» فقبل دعوتهما ودخل ليمكث معهما. مكث معهما جسدياً فترة قليلة ليحقق لهما أنه يمكث معهما روحياً على الدوام. لكن لما جلسوا على مائدة العشاء، اتخذ مقام صاحب البيت لا مقام الضيف، لأنه أخذ الخبز وبارك وكسر وناولهما، فانتبها وانفتحت أعينهما فرأيا مسيحهما المفقود. فكان ردُّ الفعل عظيماً فيهما، من اليأس إلى الابتهاج. لكن حالما عرفاه اختفى عنهما. فقاما فوراً وعادا إلى اورشليم ليشيرا محبي المسيح اليائسين. ولو كان كلُّ من يظهر له المسيح روحياً، يسرع ليلغ الآخرين الشهادة بفضلته ورحمته الخلاصية، لحدثت أعظم بركة له ولمن يسمع شهادته.

المسيح يظهر لبطرس

«وَأَنَّهُ ظَهَرَ لِيَصْفَا» (١ كورنثوس ١٥:٥).

بينما كان كليوباس ورفيقه راجعين إلى اورشليم في نور البدر، ظهر المسيح ظهوره الرابع لبطرس. «الرب قام بالحقيقة، وظهر لسمعان.» لكننا نجهل مكان ذلك الظهور وساعته وكيفيته، وما دار فيه من الكلام بين المخلص وزعيم تلاميذه. لكننا نرجح أن المسيح قصد بهذا الظهور أن يؤكد لبطرس استمرار حبه له وثقته فيه وقبوله توبته على أثر سقطته الهائلة، ليسلم من خطر اليأس بسبب هذا السقوط.

المسيح يظهر لعشرة من تلاميذه

«وَلَمَّا كَانَتْ عَشِيَّةُ ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَهُوَ أَوَّلُ الْأُسْبُوعِ، وَكَانَتْ الْأَبْوَابُ مُغْلَقَةً حَيْثُ كَانَ التَّلَامِيذُ مُجْتَمِعِينَ لِسَبَبِ الْخَوْفِ مِنَ الْيَهُودِ، جَاءَ يَسُوعُ وَوَقَفَ فِي الْوَسْطِ، وَقَالَ لَهُمْ: «سَلَامٌ لَكُمْ.» وَلَمَّا قَالَ هَذَا أَرَاهُمْ يَدَيْهِ وَجَنْبَهُ، فَقَرَحَ التَّلَامِيذُ إِذْ رَأَوْا الرَّبَّ. فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ أَيْضاً: «سَلَامٌ لَكُمْ. كَمَا أَرْسَلَنِي الْآبُ أَرْسَلُكُمْ أَنَا.» وَلَمَّا قَالَ هَذَا نَفَخَ وَقَالَ لَهُمْ: «اقْبَلُوا الرُّوحَ الْقُدُسَ. مَنْ غَفَرْتُمْ خَطَايَاهُ تُغْفَرْ لَهُ، وَمَنْ أَمْسَكْتُمْ خَطَايَاهُ أُمْسِكْتُمْ.» (يوحنا ٢٠: ١٩-٢٣).

وفي مساء هذا اليوم المجيد اجتمع التلاميذ سرّاً، خوفاً من أن يتعقّبهم الرؤساء ليهلكوهم كما أهلكوا سيدهم، ولا سيما أن خبر قيامة المسيح هيّج الرؤساء كثيراً، فغلّقوا الأبواب تحفظاً. وكان توما غائباً عن هذا الاجتماع لأسباب نجهلها .

في هذا الاجتماع حكى بطرس لرفاقه خبر ظهور المسيح له. وفي أثناء ذلك وصل كليوباس ورفيقه، فوجدا المجتمعين يتحادثون في أن المسيح قام بالحقيقة وأنه ظهر لبطرس. فأخبراهم بما حدث في الطريق، وكيف عرفاه عند كسر الخبز. ويظهر أن بعض الحاضرين كانوا لا يزالون يشكّون في حقيقة قيامته، ويفسّرون ظهور المسيح للمجدلية ثم للنساء ثم لبطرس أنه وهمي، فقيل: «إنهم لم يصدقوا ولا هذين .»

ففي هذا الاجتماع مساء يوم قيامته، ظهر المسيح فجأة، ودون فتح باب لدخوله. ووقف في الوسط وقال لهم: «سلام لكم». لم يقل: «سلام عليكم» كأنه سلام خارجي زمني بل «سلام لكم» لأنه سلام داخلي روحي يهبه هو لهم في وسط الجزع والاضطراب. هذا السلام هو الميراث الذي تركه لهم في خطابه الوداعي لما قال: «سَلاماً أَتْرُكُ لَكُمْ. سَلامِي أُعْطِيكُمْ. لَيْسَ كَمَا يُعْطِي الْعَالَمُ أُعْطِيكُمْ أَنَا» (يوحنا ١٤: ٢٧) كان السلام هو أول ما كلّمهم به في اجتماعه الأول بهم كجماعة.. فسكّن اضطراب قلوبهم بقوله: «السلام لكم»، كما سكّن سابقاً بكلمة منه اضطراب البحيرة. به وحده يحصل المؤمن على سلام مع الله، ومع ضميره الذي يدينه، ومع البشر في المعاشرة اليومية، وفقاً للوصية الرسولية: «حَسَبَ طَاقَتِكُمْ سَالِمُوا جَمِيعَ النَّاسِ» (رومية ١٢: ١٨).

لم يكن التلاميذ مستعدين لهذا السلام المقدم لهم بسبب ضعف إيمانهم، فجزعوا وخافوا وظنوا أنهم رأوا روحاً. فعذّرهم لأن هيئته غير معروفة عندهم. كان ظهوره كل مرة بعد قيامته، بهيئة غير القديمة، ضرورياً ليؤكد لهم التغيير العظيم الذي حصل لجسده في قيامته. فلا عجب أنه حيّر التلاميذ جداً، لأنه كان يظهر ويختفي فجأة، ويظهر كل مرة بهيئة جديدة .

وبما أن المسيح كان يكلمهم كثيراً بأمثال، فقد حسبوا كلامه عن موته وقيامته من الأمثال، فلم يكثرثوا له كثيراً، ولا اكثرثوا لشهادة النساء، لأنهم حسبوهن أكثر عُرضة للأوهام. فلأسباب كهذه كان شكّهم أقرب إلى المعقول، وكان توبيخُ المسيح لهم لطيفاً. قال: «ما بالكم مضطربين؟» ونفى أنه خيال كما توهموا بسبب كيفية دخوله، وتلطّف بدعوتهم ليلمسوه قائلاً: «أنظروا يديّ ورجليّ. إني أنا هو . جسّوني وانظروا، فإن الروح ليس له لحم وعظام كما ترون لي». وأراهم جنبه أيضاً .

هذه مرة أخرى أكرم فيها المسيح شهادة الحواس إثباتاً للحقيقة، وأيّدها في أهم القضايا، وهي قيامته. أضاف المسيح على ما سبق أنه طلب طعاماً. ولما ناولوه من العسل والسمك المشوي الجاهز لديهم، أخذ وأكل قدامهم. ثم فعل مع هؤلاء المجتمعين ما فعله مع التلميذين

في طريق عمواس، لأنه فتح ذهنهم ليفهموا الكتب، وذكرهم بالنبوات القديمة وبإنبياءاته هو المتكررة. فجاز له الآن بعد أن سكّن خوفهم أن يوبخهم على عدم إيمانه وقساوة قلوبهم، لأنهم لم يصدقوا قول الذين كانوا قد رأوه بعد ما قام، لا سيّما وأن شهادة هؤلاء كانت تطابق أقوال التوراة .

ثم أكد المسيح أهمية الكرازة باسمه بالتوبة ومغفرة الخطايا لجميع الأمم، مبتدئاً من أورشليم، وأنهم يكونون شهوداً في كرازتهم لِمَا عاينوه وسمعوه وتيقنوه، وأعاد لهم وعده بأن يرسل لهم الروح القدس الذي وعدهم به الأب أيضاً، وأوصاهم أن لا يبرحوا من أورشليم بعد صعوده قبل أن يُلبسهم هذا الروحُ قوة من الأعالي، وسلّمهم وظيفته في قوله: «كما أرسلني الأب أرسلكم أنا .»

ثم قال لهم: «اقبلوا الروح القدس. من غفرتم خطاياهم تُغفر له، ومن أمسكتكم خطاياهم أمسكت». هذا هو «الكلمة» الذي «كُلُّ شَيْءٍ بِهِ كَانَ، وَبِغَيْرِهِ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِمَّا كَانَ» (يوحنا ١: ٣). والذي به أيضاً عمل الله العالمين (عبرانيين ١: ٢). فكما نفخ في الإنسان الأول نسمة الحياة الطبيعية، نفخ الآن في هؤلاء اليائسين نسمة الحياة الروحية الجديدة .

المسيح يقْدَس يوم الأحد :

قَدَّسَ المسيح اليوم الأول في الأسبوع بقيامته يوم الأحد، وبظهوراته الخمسة التي ذكرناها، فلا عجب أن قَدَّسَ تابعوه يوم الأحد، لأن المسيح وضع فيه نظاماً جديداً وأساساً لكنيسة جديدة ولعالم جديد، بمعنى روحي. وكرسه ليكون على الدوام يوماً خصوصياً لتابعيه، بدلاً من السبت اليهودي الذي كان تذكراً إتمام الخلق الطبيعي وجعل هذا اليوم الأول تذكراً لإتمام الخليقة الجديدة في عمل الفداء. ومما يؤيّد هذا اليقين غيابُه عن تابعيه أسبوعاً كاملاً قبلما ظهر ظهوره السادس في يوم الأحد الذي بعده، ثم أثبت هذا الاستبدال بسكّبه الروح القدس لميلاد الكنيسة المسيحية يوم الأحد في عيد الخمسين. وقد اهتم البشيريون كلهم أن يوردوا خبر هذا الظهور الخامس أمام الرسل العشرة، خلافاً للظهورات الأخرى .

المسيح يظهر للأحد عشر

«أَمَّا تَوْمًا، أَحَدُ الْاِثْنَيْ عَشَرَ، الَّذِي يُقَالُ لَهُ التَّوَامُ، فَلَمْ يَكُنْ مَعَهُمْ حِينَ جَاءَ يَسُوعُ. فَقَالَ لَهُ التَّلَامِيذُ الْآخَرُونَ: «قَدْ رَأَيْنَا الرَّبَّ». فَقَالَ لَهُمْ: «إِنْ لَمْ أَبْصِرْ فِي يَدَيْهِ أَثَرَ الْمَسَامِيرِ، وَأَضَعُ إِصْبِعِي فِي أَثَرِ الْمَسَامِيرِ، وَأَضَعُ يَدِي فِي جَنْبِهِ، لَا أُوْمِنُ». وَبَعْدَ ثَمَانِيَةِ أَيَّامٍ كَانَ تَلَامِيذُهُ أَيْضاً دَاخِلًا وَتَوْمًا مَعَهُمْ. فَجَاءَ يَسُوعُ وَالْأَبْوَابُ مُغْلَقَةً، وَوَقَفَ فِي الْوَسْطِ وَقَالَ: «سَلَامٌ لَكُمْ». ثُمَّ قَالَ لِتَوْمًا: «هَاتِ إِصْبِعَكَ إِلَى هُنَا وَأَبْصِرْ يَدَيَّ، وَهَاتِ يَدَكَ وَضَعَهَا فِي جَنْبِي،

وَلَا تَكُنْ غَيْرَ مُؤْمِنٍ بَلْ مُؤْمِنًا. «أَجَابَ تَوْمًا: «رَبِّي وَإِلَهِي». قَالَ لَهُ يَسُوعُ: «لَأَنَّكَ رَأَيْتَنِي يَا تَوْمًا آمَنْتَ! طُوبَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَرَوْا» (يوحنا ٢٠: ٢٩-٢٤).

لما ظهر المسيح في الأحد الثاني للمرة السادسة، كان التلاميذ داخل عليه كما كانوا في المرة السابقة، وتوما معهم. فجاء المسيح والأبواب مغلقة، ووقف في الوسط وحيّاهم بذات ألفاظ تحيته الأولى .

والظاهر أن المسيح جاء بالأكثر في هذه المرة لأجل توما، لأنه دعاه ليفعل ما طلبه لكي لا يكون غير مؤمن بل مؤمناً. ذلك أن توما أصرَّ على عدم الإيمان بالقيامة حتى يرى ويلمس، ورفض البراهين الكثيرة القوية التي أقنعت رفقاءه، وأصرَّ على أن يبصر أثر المسامير في يدي سيده ويضع إصبعه فيها، وأن يضع يده في جنبه المجروح بطعنة حربة الجندي الروماني .

لا نعلم هل خجل توما من كلام المسيح، وتنحَّى عن وَضْعِ إصبعه ويده أم لا، إنما نعلم أنه حالاً طرح شكوكه وصرَّح بإيمانه التام قائلاً: «ربي وإلهي». فأعلن كامل الإيمان. لكن المسيح وبَّخه وأوضح له أفضلية الإيمان الذي لا يتطلَّب العيان، لأن الإيمان لا يكون إيماناً بعد أن يرى الإنسان بعينه، فطوبى للذين آمنوا ولم يروا. وهذه الطوبى مذكورة لجميع المؤمنين في كل الأزمان، فلا يحسدنَّ أحدٌ أولئك الذين بنوا إيمانهم على رؤيته .

نمدح توما لأنه طلب البراهين الكافية قبل أن يقبل قضية دينية جوهريّة، لأنه لا يجوز تعليق اليقين الديني على خيوط العنكبوت، ولا يكتفي الفهم بأنه تناول اليقين الديني من أسلافه، لئلا يكون قد تناول الضلال، لأن الضلال يتسلسل كما يتسلسل الحق. ولا يكتفي أن يتناول يقينه من علماء جيله، دون أن يقف على البراهين التي يستندون عليها. ويجوز لنا أن نقول إن الشك في الدين هو باب اليقين، لأن الشك يؤدي إلى الفحص، والفحص إلى اليقين، ولا يقين حقيقي إلا بعد الفحص .

إذاً لماذا وبَّخ المسيح توما؟

وبَّخه لأنه تجاوز الحد المعقول في إصراره على براهين أكثر من الكافية، لأنه أظهر عدم الميل إلى اليقين، كأنه يطلب عذراً يتذرَّع به لأجل الإنكار. أخطأ توما لأنه تشبث بالبراهين الحسية، كأنه يزدرى بالبراهين المعنوية والروحية. فإذا كنَّا لا نلومه على إصراره أن يرى كما رأى غيره، نلومه على عدم قبوله شهادتهم. ولو فعل القضاة في أحكامهم فعل توما لما أمكنهم أن يحكموا في أية قضية، لأنه لم يُسمَع في الزمان أن قاضياً أصرَّ على أن يرى بعينه ما رآه الشهود في دعوى تقدمت له. ولو اقتدى الناس بتوما في ما فعل، لبطلَ التبشير تماماً، واختنقت الكنيسة المسيحية في مهدها .

المسيح يظهر لسبعة تلاميذ

«بَعْدَ هَذَا أَظْهَرَ أَيضاً يَسُوعُ نَفْسَهُ لِلتَّلَامِيذِ عَلَى بَحْرِ طَبْرِيةَ. ظَهَرَ هَكَذَا: كَانَ سَمْعَانُ بُطْرُسُ، وَتُومَا الَّذِي يُقَالُ لَهُ التَّوَّامُ، وَنَثْنَائِيلُ الَّذِي مِنْ قَانَا الْجَلِيلِ، وَابْنَا زَبْدِي، وَاثْنَانِ آخَرَانِ مِنَ تَلَامِيذِهِ مَعَ بَعْضِهِمْ. قَالَ لَهُمْ سَمْعَانُ بُطْرُسُ: «أَنَا أَذْهَبُ لِأَتَصَيِّدَ». قَالُوا لَهُ: «نَذْهَبُ نَحْنُ أَيْضاً مَعَكَ». فَخَرَجُوا وَدَخَلُوا السَّفِينَةَ لِلوَفْتِ. وَفِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ لَمْ يُمْسِكُوا شَيْئاً. وَلَمَّا كَانَ الصُّبْحُ، وَقَفَ يَسُوعُ عَلَى الشَّاطِئِ. وَلَكِنَّ التَّلَامِيذَ لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ أَنَّهُ يَسُوعُ. فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «يَا غُلْمَانُ أَلَعَلَّ عِنْدَكُمْ إِدَامَا؟». أَجَابُوهُ: «لَا!» فَقَالَ لَهُمْ: «أَلْقُوا الشَّبَكَةَ إِلَى جَانِبِ السَّفِينَةِ الْآيَمَنِ فَتَجِدُوا». فَأَلْقَوْا، وَلَمْ يَعُودُوا يَقْدِرُونَ أَنْ يَجْذِبُوهَا مِنْ كَثَرَةِ السَّمَكِ. فَقَالَ ذَلِكَ التَّلَامِيذُ الَّذِي كَانَ يَسُوعُ يُحِبُّهُ لِبُطْرُسَ: «هُوَ الرَّبُّ». فَلَمَّا سَمِعَ سَمْعَانُ بُطْرُسُ أَنَّهُ الرَّبُّ، انْتَرَعَ بِثَوْبِهِ، لِأَنَّهُ كَانَ عُرْيَاناً، وَأَلْقَى نَفْسَهُ فِي الْبَحْرِ. وَأَمَّا التَّلَامِيذُ الْآخَرُونَ فَجَاءُوا بِالسَّفِينَةِ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا بَعِيدِينَ عَنِ الْأَرْضِ إِلَّا نَحْوَ مِائَتَيْ ذِرَاعٍ، وَهُمْ يَجْرُونَ شَبَكَةَ السَّمَكِ. فَلَمَّا خَرَجُوا إِلَى الْأَرْضِ نَظَرُوا جَمَراً مَوْضُوعاً وَسَمَكاً مَوْضُوعاً عَلَيْهِ وَخُبْزاً. قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «قَدِّمُوا مِنَ السَّمَكِ الَّذِي أَمْسَكْتُمْ الْآنَ». فَصَدَعَ سَمْعَانُ بُطْرُسُ وَجَذَبَ الشَّبَكَةَ إِلَى الْأَرْضِ، مُمْتَلِئَةً سَمَكاً كَبِيراً، مِئَةً وَثَلَاثاً وَخَمْسِينَ. وَمَعَ هَذِهِ الْكَثَرَةِ لَمْ تَنْحَرَقِ الشَّبَكَةُ. قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «هَلُمُّوا تَعْدُوا». وَلَمْ يَجْسُرْ أَحَدٌ مِنَ التَّلَامِيذِ أَنْ يَسْأَلَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ إِذْ كَانُوا يَعْلَمُونَ أَنَّهُ الرَّبُّ. ثُمَّ جَاءَ يَسُوعُ وَأَخَذَ الْخُبْزَ وَأَعْطَاهُمْ وَكَذَلِكَ السَّمَكُ. هَذِهِ مَرَّةٌ ثَالِثَةٌ ظَهَرَ يَسُوعُ لِتَلَامِيذِهِ بَعْدَمَا قَامَ مِنَ الْأَمْوَاتِ» (يوحنا ١: ٢١-١٤).

أمر المسيح تلاميذه أن يسبقوه إلى الجليل. وفي هذا حكمة، لأن معظم المؤمنين موجودون في الجليل. فيحق لهؤلاء أن يسمعوهم من مواطنيهم التلاميذ وغيرهم من رجال ونساء، خبر آلام المسيح وموته وقيامته. فذهبوا إلى الجليل، وهناك ظهر المسيح لنخبة منهم ظهوره السابع بعد قيامته. أما قول يوحنا إن هذه «مرة ثالثة ظهر يسوع لتلاميذه بعدما قام من الأموات». فيعني أنها المرة الثالثة التي ظهر فيها لجماعة من التلاميذ، بقطع النظر عن ظهوراته الأخرى الفردية.

اختار المسيح شاطئ بحر الجليل الذي قدسته قدماء الطاهرتان، مكاناً لهذا الظهور السابع، وهو أجمل موقع في الأرض المقدسة، واختار وقتها سبعة من أفضل تابعيه في سفينة واحدة. وهم سمعان بطرس، ويوحنا بن زبدي الملقب بالحبيب. ويعقوب أخو يوحنا. وتوما الذي شفي من مرض الشكوك. والخامس كان ذلك النبيل الذي قال عنه المسيح إنه لا غش فيه، وهو نثنائيل أو برثلماوس. أما السادس والسابع فلم يُذكر بالاسم، والأرجح أنهما أندراوس وفيلبس.

كان التلاميذ صيادي سمك، ولما دعاهم المسيح ليتبعوه تركوا شباكهم وانضموا لخدمته. ولكن يبدو أن صَلب المسيح وموته جعلهم في حالة من اليأس، دفعتهم للعودة إلى وظيفتهم القديمة، بعد أن نسوا كل ما تعلموه .

وحالما اقترح بطرس عليهم مصاحبته في الصيد انضموا إليه. في تلك الليلة لم يصيدوا شيئاً، فقد منعت العناية الإلهية عنهم السمك لتفتح عيونهم إلى ما هو أعظم. وهكذا تعمل العناية معنا دوماً .

ولما مضى الليل دون أن يصيدوا شيئاً، سحبوا الشباك إلى السفينة وتوجهوا إلى البر. ولما وصلوا إلى بُعد نحو مئتي ذراع عن البر جاءهم صوت من شخص غريب واقف على الشاطئ يناديهم: «يا غلمان، أَلعل عندكم إداماً؟» (الإدام هو ما يؤكل مع الخبز) فلما أجابوه: «لا». أمرهم أن يلقوا الشبكة إلى جانب السفينة الأيمن فيجدوا، ففعلوا، لكن دون أمل بالنجاح، فكوفئوا بأنهم لم يعودوا يقدر أن يجذبوا الشبكة من كثرة السمك .

وأدرك يوحنا الحبيب ببصيرته الروحية من هو هذا الغريب، فقال لرفيقه بطرس: «هو الرب». فأتزر بطرس بثوبه، وألقى بنفسه في البحر ليأتي إلى المسيح، وتبعه بقية التلاميذ الستة في السفينة ومعهم السمك، فنظروا عند ذلك جمراً وسمكاً موضوعاً عليه وخبزاً. وطلب منهم المسيح أن يقدموا من السمك الذي في الشبكة، ولما أحصوه وجدوا أنه مئة وثلاث وخمسون سمكة كبيرة، فانددهشوا .

كان المسيح يعلم مقدار تعبهم كل الليل، ثم جوعهم، فبحكمته اهتم أولاً بحاجتهم الزمنية، ودعاهم للطعام، وأخذ الخبز وأعطاهم وكذلك السمك. وبعدما أكلوا أعطى المسيح لبطرس التفاتاً خاصاً ليعلم هو ورفقاؤه أنه قد قِيلَ توبته بعد سقوطه العظيم، وأن مركزه الرسولي محفوظ عند سيده. وكان هذا الالتفات مقروناً بتأنيب معنوي لطيف للجميع، ولا سيما لبطرس، لأنهم تركوا صيد النفوس ليصيدوا السمك .

ثم عاد بهم بالفكر إلى العلية في أورشليم، وقت عشاء الفصح، حين قال الجميع إنهم لا يتركونه، فقال بطرس مفتخراً: «إني مستعد أن أمضي معك حتى إلى السجن وإلى الموت. وإن شكك فيك الجميع فأنا لا أشك. ولو اضطرت أن أموت معك لا أنكرك». فهل صدق في افتخاره الحبي؟ وهل فاق رفقائه في ساعة الامتحان الشديد؟

أتحبنى أكثر؟

«فَبَعْدَ مَا تَعَدَّوْا قَالَ يَسُوعُ لِسِمْعَانَ بُطْرُسَ: «يَا سِمْعَانُ بَنَ يُونَا، أَتُحِبُّنِي أَكْثَرَ مِنْ هَؤُلَاءِ؟» قَالَ لَهُ: «نَعَمْ يَا رَبُّ أَنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي أَحِبُّكَ». قَالَ لَهُ: «ارْغَ خِرَافِي». قَالَ لَهُ أَيْضاً ثَانِيَةً: «يَا سِمْعَانُ بَنَ يُونَا، أَتُحِبُّنِي؟» قَالَ لَهُ: «نَعَمْ يَا رَبُّ، أَنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي أَحِبُّكَ». قَالَ لَهُ: «ارْغَ

غَنَمِي. قَالَ لَهُ ثَالِثَةً: «يَا سَمْعَانُ بَنَ يُونَا، أَتُحِبُّنِي؟» فَحَزَنَ بُطْرُسُ لِأَنَّهُ قَالَ لَهُ ثَالِثَةً: أَتُحِبُّنِي؟ فَقَالَ لَهُ: «يَا رَبُّ، أَنْتَ تَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ. أَنْتَ تَعْرِفُ أَنِّي أَحِبُّكَ.» قَالَ لَهُ يَسُوعُ: «ارْغَ غَنَمِي» (يوحنا ١٥: ٢١-١٧).

كطبيب روحي جرح المسيح بطرس ليشفيه، فسأله: «أتحبنى أكثر من هؤلاء؟» أي أكثر مما يحبني رفقاؤك التلاميذ، الذين مع أنهم تركوني خوفاً، لكنهم لم ينكروني؟ فأجابه على النصف الأول من سؤاله: «نعم يا رب، أنت تعلم أنني أحبك.» لم يقل: «أحبك أكثر من هؤلاء.» يسأل المسيح عادةً عن الأساس قبل البناء، وعن الأصل قبل الفرع. لذلك لا نسمعه يسأل بطرس عن أعماله، ولا عن معارفه، ولا عن مقاصده، بل عن أصل كل هذه وأساسها: أي عن حالة القلب. سأله عن شعوره الداخلي. لو سأله عن أعماله لما نال بطرس غير الدينونة والخجل. ولصمّت عن الجواب، لأن ظواهره كانت سيئة.. الإنسان الذي ظواهره الحسنة تخالف بواطنه السيئة هو المرائي. أما بطرس فكانت ظواهره الضعيفة تخالف بواطنه الصالحة واستعداداته الطيبة.

ولما كانت حالة القلب تستلزم أعمالاً تناسبها وتبرهنها، لم يكتفِ المسيح بأن يعلن بطرس حبه له، بل طلب منه العمل أيضاً، فقال له: «ارع خرافي» معيداً له بهذا الكلام الوظيفة الرسولية التي سقطت عنه بسقوطه، ومُبدلاً صورة صياد النفوس بصورة راعي النفوس، لأن بطرس أخطأ، ليس فقط في تركه صيّد النفوس ليصيد السمك، بل أيضاً في تركه رعاية غيره لأجل رعاية ذاته. في هذه الوصية بالخراف، نرى درساً لجميع الرعاة الروحيين، أن يبتدئوا في خدمتهم بالصغار، صغار السن وصغار النفوس، كالفقراء والضعفاء واليائسين.

ثم كرر المسيح سؤاله لبطرس، وقال: «ارع غنمي.» فأخذ ذات الجواب الأول. لقد قال بطرس ثلاث مرات إنه لن ينكر المسيح، ثم كرر إنكاره ثلاث مرات. فالآن يكرر المسيح ثلاث مرات سؤال الإمتحان. جَرَحَتِ المرةُ الثالثة بطرس أكثر، فحزن وأجاب بانفعالٍ ممتزجٍ بالحب: «يا رب أنت تعلم كل شيء، أنت تعرف أنني أحبك.» لأن المحب لا يمكن إلا أن يطيع إلهاً يحبه، ولا يمكن أن يفعل إلا الخير لقريبه المحبوب، ولا زال المسيح يسألك: «أتحبنى؟» فماذا ستقول له؟.

المسيح يظهر لأكثر من ٥٠٠

«وَبَعْدَ ذَلِكَ ظَهَرَ دَفْعَةً وَاحِدَةً لَأَكْثَرَ مِنْ خَمْسِمِئَةِ أَخٍ، أَكْثَرُهُمْ بَاقٍ إِلَى الْآنَ. وَلَكِنْ بَعْضُهُمْ قَدْ رَقَدُوا» (١ كورنثوس ١٥: ٦).

يقول سفر الأعمال عن المسيح إنه «أَرَاهُمْ أَيْضاً نَفْسَهُ حَيًّا بِبَرَاهِينٍ كَثِيرَةٍ، بَعْدَ مَا تَأَلَّمَ، وَهُوَ يَظْهَرُ لَهُمْ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، وَيَتَكَلَّمُ عَنِ الْأُمُورِ الْمُخْتَصَّةِ بِمَلَكُوتِ اللَّهِ» (أعمال. 1:3) قضى المسيح في أول خدمته أربعين يوماً في مصارعة إبليس في البرية، والآن يقضي أربعين يوماً يظهر لتلاميذه معلناً انتصاره الأخير على إبليس. وليسهل لهم ولجميع المؤمنين أن يفهموا حضوره معهم روحياً على الدوام .

ومن أهم ظهورات المسيح الظهور الثامن، وهو أيضاً الثاني والأخير في وطنه الجليل، عندما ظهر دفعة واحدة لأكثر من خمسمئة أخ كان أكثرهم لا يزال حياً عندما كتب بولس عنهم في رسالته لأهل كورنثوس. ويقول البشير متى: «ولما رأوه سجدوا له، لكن بعضهم شكوا». وشك هؤلاء معقول بالنظر إلى التغيير الكلي في هيئة المسيح الخارجية البشرية، مما صعب التصديق بأنه هو .

واجتماع خمسمئة أخ في وقت واحد دليل على نجاح ليس بقليل. والتقاء هؤلاء في أحد جبال الجليل حسب تعيين سابق كان ضرورياً، ليتمكن عدد كهذا من مشاهدة المسيح دفعة واحدة. وفي خبر هذا الاجتماع أوضح دليل على حقيقة قيامة المسيح، لأنه يحتوي على كلام قاله لتلاميذه يستحيل اختراعه-لو أن المسيح لم يقم .

لنستمع إلى بعض أقوال المسيح القوية: «دُفِعَ إِلَيَّ كُلُّ سُلْطَانٍ فِي السَّمَاءِ وَعَلَى الْأَرْضِ» (متى ٢٨: ١٨). فأى منطق يُنسب إلى شخص صُلبَ باهانة فائقة، أمام جماهير من أنحاء العالم، يفوه بكلام كهذا؟ ثم لنسمع قوله: «فَادْهَبُوا وَتَلْمِذُوا جَمِيعَ الْأُمَمِ وَعَمِّدُوهُمْ بِاسْمِ الْآبِ وَالابْنِ وَالرُّوحِ الْقُدُسِ» (متى ٢٨: ١٩). معلوم ما هو تعليم اليهود ومشربهم منذ القديم، في أنهم يتشبثون بالانفراد عن غيرهم من الأمم، ويحصرّون الدين وفوائده في جماعتهم، ويحتقرون كل الشعوب الأخرى دينياً .

وهل يُعقل أن التلاميذ يستنبطون تعليماً مبنياً على معرفة طبيعة الإله الواحد في ثلاثة أقانيم، بينما هذا لم يُذكر في تعاليمهم اليهودية؟

لكن أعظم ما قاله المسيح، وأقواه برهنة للقيامة قوله: «هَا أَنَا مَعَكُمْ كُلَّ الْأَيَّامِ إِلَى انْقِضَاءِ الدَّهْرِ. مَنْ آمَنَ وَاعْتَمَدَ خَلَصَ، وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ يُدَنِّ» (متى ٢٨: ٢٠ ، مرقس ١٦: ١٦). فإذا كان لم يَقمْ، لا يمكن أن يكون معهم. وإن كان معهم حقاً فلا يبقى ريب في قيامته. فيما أن حضوره معهم لا يكون إلا روحياً، أراد أن يحققه لهم بواسطة علامات ظاهرة للحواس في السنين الأولى بعد اختفائه، أي بواسطة معجزات يعطيهم أن يفعلوها. ومتى دُونُوا خبرها في تاريخ صادق، يكفي ذلك شهادة للعالم فيما بعد، ولا يعود يلزم تكرارها جيلاً بعد جيل .

لذلك وعدهم أن هذه الآيات تتبع المؤمنين: يُخرجون الشياطين باسمه، ويتكلمون بالسنة جديدة، ويحملون حيات. وإن شربوا شيئاً مميتاً لا يضرهم. ويضعون أيديهم على المرضى فيبرأون (مرقس ١٦: ١٧ ، ١٨). لذلك كانت الآيات التي صنعها الرسل فيما بعد باسمه، إثباتاً كافياً لكل ما ورد في هذا الخطاب، لأن هذه الزمرة الضعيفة نشرت التعليم المسيحي في أكثر البلدان الراقية، وفي وقت قصير جداً. وانضمّ ملايين من الأمم إلى الكنيسة الجديدة. فأخبار هذا النجاح الصادقة تبرهن أن القيامة قد حدثت فعلاً، وتبرهن نسبة هذه الأقوال القوية إلى المسيح نفسه .

يرتبط كلام المسيح في هذا الخطاب الوداعي لتلاميذه في الجليل بعضه ببعض ارتباطاً فلسفياً متيناً. فلما كان قوله إنه صاحب السلطان في السماء وعلى الأرض يحتاج إلى برهان، أعطاهم الآيات التي يجريها بواسطة المؤمنين به. وفي الوقت ذاته تفتقر هذه الآيات إلى عاملٍ قادرٍ أن يجريها، وهذا يستدعي حضوره معهم كل الأيام. فهذه القضايا الثلاث تستلزم كل منها الأخرى، ويُثَبَّتُ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا الأخرى. ولا يقدر المسيح أن يمكّن رسله من فعل المعجزات بحضوره معهم، وأن يكون صاحب سلطان كهذا، ما لم يصعد إلى السماء بعد قيامته، ويجلس عن يمين العرش في الأمجاد السماوية .

أمر المسيح تلاميذه أن يبشروا العالم بإنجيله، وهذا أمرٌ عام ودائم لكل فرد من تابعيه. ويتوقف وعده لهم بأنه يكون معهم كل الأيام على إتمام هذه الوصية. لا يوجد عمل بشري أشرف وأسمى وأجزل من هذا العمل التبشيري. لكن النجاح الذي وعد المسيح تلاميذه به في تبشيرهم، يتوقّف على فعل الأَقْنُومِ الثالث في الإله الواحد، الروح القدس، الذي نعتمد عليه في الأعمال الروحية، ولا سيما بعد صعود الأَقْنُومِ المتأَنِّسِ المُقَامِ إلى السماء .

لذلك أوصى المسيح رسله أن لا يبرحوا من أورشليم بل ينتظروا موعد الآب، وقال: «وَأَمَّا أَنْتُمْ فَسَتَتَعَمَّدُونَ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ، لَيْسَ بَعْدَ هَذِهِ الْأَيَّامِ بَكَثِيرٍ». «لَيْسَ لَكُمْ أَنْ تَعْرِفُوا الْأَزْمَنَةَ وَالْأَوْقَاتَ الَّتِي جَعَلَهَا الْآبُ فِي سُلْطَانِهِ، لَكِنْكُمْ سَتَنَالُونَ قُوَّةَ مَتَى حَلَّ الرُّوحُ الْقُدُسُ عَلَيْكُمْ، وَتَكُونُونَ لِي شُهَدَاءَ فِي أُورُشَلِيمَ وَفِي كُلِّ الْيَهُودِيَّةِ وَالسَّامِرَةِ وَإِلَى أَفْصَى الْأَرْضِ» (أعمال ١: ٥، ٧، ٨).

المسيح يظهر ليعقوب

«وَبَعْدَ ذَلِكَ ظَهَرَ لِيَعْقُوبَ، ثُمَّ لِلرُّسُلِ أَجْمَعِينَ ١) «كورنثوس ١٥: ٧».

أما ظهور المسيح التاسع بعد قيامته فكان ليعقوب الرسول وحده. ونلاحظ أن ظهوراته كافة (بعد قيامته) حُصِرَتْ في تابعيه المؤمنين. وهذا الحصر في محله، لأنه يعلم أن ظهوره لخصومه لا يأتي بهم إلى الإيمان. قال مرة: «إِنْ كَانُوا لَا يَسْمَعُونَ مِنْ مُوسَى وَالْأَنْبِيَاءِ،

وَلَا إِنْ قَامَ وَاحِدٌ مِنَ الْأَمْوَاتِ يُصَدِّقُونَ» (لوقا ٣١: ١٦). فالبرهان الحسي لا يكفي لتوليد الإيمان بالأمور الروحية. مثال ذلك أن رؤساء اليهود علموا يقيناً بواسطة الحراس الذين استخدموهم بأن المسيح حقاً قام. لكنهم لم يؤمنوا .

المسيح يظهر لشاول الطرسوسي

«وَأَخِرَ الْكُلِّ كَأَنَّهُ لِلْسَّقِطِ ظَهَرَ لِي أَنَا. لِأَنِّي أَصْغَرُ الرُّسُلِ، أَنَا الَّذِي لَسْتُ أَهْلًا لِأَنْ أُدْعَى رَسُولًا، لِأَنِّي اضْطَهَدْتُ كَنِيسَةَ اللَّهِ» (١ كورنثوس ٨: ١٥، ٩).

لا يُستثنى من هذا الحصر في ظهورات المسيح ظهوره الأعظم والأهم الذي حدث بعد صعوده، لما ظهر لشاول الطرسوسي، لأنه قاد هذا المضطهد، حالاً وفجأة إلى الإيمان به. ولهذا الظهور الأخير فائدة، هي نفي أقوال المعترضين بأن الذين تصوّروا هذه الظهورات ورووا أخبارها هم محبّوه سابقاً، وتصوروها بسبب شدة حبّهم له وتمسّكهم به، وأن شهادتهم شهادة مغرضين له، فهي ليست ثابتة .

ملكوت المسيح الروحي

«أَرَاهُمْ أَيْضًا نَفْسَهُ حَيًّا بِبَرَاهِينٍ كَثِيرَةٍ، بَعْدَ مَا تَأَلَّمَ، وَهُوَ يَظْهَرُ لَهُمْ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، وَيَتَكَلَّمُ عَنِ الْأُمُورِ الْمُخْتَصَّةِ بِمَلَكُوتِ اللَّهِ. وَفِيمَا هُوَ مُجْتَمِعٌ مَعَهُمْ أَوْصَاهُمْ أَنْ لَا يَبْرَحُوا مِنْ أُورُشَلِيمَ، بَلْ يَنْتَظِرُوا «مَوْعِدَ الْأَبِ الَّذِي سَمِعْتُمُوهُ مِنِّي، لِأَنْ يُوحَنَّا عَمَدَ بِالْمَاءِ، وَأَمَّا أَنْتُمْ فَسَتَتَّعَمِدُونَ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ، لَيْسَ بَعْدَ هَذِهِ الْأَيَّامِ بِكَثِيرٍ». أَمَّا هُمْ الْمُجْتَمِعُونَ فَسَأَلُوهُ: «يَا رَبُّ، هَلْ فِي هَذَا الْوَقْتِ تَرُدُّ الْمُلْكَ إِلَى إِسْرَائِيلَ؟» فَقَالَ لَهُمْ: «لَيْسَ لَكُمْ أَنْ تَعْرِفُوا الْأَزْمَنَةَ وَالْأَوْقَاتَ الَّتِي جَعَلَهَا الْأَبُ فِي سُلْطَانِهِ، لَكِنَّكُمْ سَتَنَالُونَ قُوَّةً مَتَى حَلَّ الرُّوحُ الْقُدُسُ عَلَيْكُمْ، وَتَكُونُونَ لِي شُهَدَاءَ فِي أُورُشَلِيمَ وَفِي كُلِّ الْيَهُودِيَّةِ وَالسَّامِرَةِ وَإِلَى أَقْصَى الْأَرْضِ» (أعمال ١: ٣-٨).

أطفاً موتُ المسيح آمال التلاميذ السابقة في الملكوت الزمني، لكن قيامته أحييت وجددت هذه الآمال. فلنا في سؤالهم في هذا الوقت برهان آخر لحقيقة قيامته. إذ سألوهم: «يا رب، هل في هذا الوقت تَرُدُّ الْمُلْكَ لِإِسْرَائِيلَ؟» فكان جوابه لهم بيان خطئهم في السؤال، مع بيان الآمال التي يجوز لهم إحيائها، وهي الآمال بالقوة الروحية التي تكفل لهم النجاح في عملهم الجديد كشهود للمسيح المخلص. علّمهم أن يبتدئوا بالقرب في تبشيرهم، ولكن لا يقفوا عند هذا الحد، بل يمتدوا فيه إلى أقصى الأرض .

أشعة نور من صباح القيامة :

ليس عبثاً أن يسمّى المسيحيون صباح القيامة «صباح النور». لأن أعظم نورٍ رآه العالم، أشرق عندما قام من قبره، ذاك الذي قال: «أَنَا هُوَ نُورُ الْعَالَمِ» (يوحنا ١٢: ٨). والحق أن قبر المسيح المفتوح منبعٌ عظيم للنور الروحاني .

فالشعاع الأول من هذا النور يُثَبِّت مجيء المسيح من السماء، وكمال عمله الخلاصي، وتحقيق صلاحيته كابن لله وابن للإنسان لأن يكون المخلص الكافي والوحيد لبني البشر .

والشعاع الثاني إنارة القبر المظلم سابقاً، حتى يزول رعبه من قلوب المؤمنين. نزل المسيح إلى القبر أماناً، فلا نخاف نحن عند نزولنا وراءه. قال مرة: «لَيْسَ الْعَبْدُ أَفْضَلُ مِنْ سَيِّدِهِ» (متى ٢٤: ١٠). فلا نخاف مما ذاقه سيدنا قبلنا. لذلك نادى بولس: «أَيُّنَ غَلَبْتُكَ يَا هَاوِيَّةُ قَدْ «ابْتَلَعَ الْمَوْتُ إِلَى غَلَبَةٍ» (١ كورنثوس ١٥: ٥٤). فقد اشترك المسيح مع البشر «فِي اللَّحْمِ وَالْدَمِّ... لِكَيْ يُبَيِّدَ بِالْمَوْتِ ذَاكَ الَّذِي لَهُ سُلْطَانُ الْمَوْتِ، أَيُّ إِبْلِيسَ، وَيُعْتَقَ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَوْفاً مِنَ الْمَوْتِ كَانُوا جَمِيعاً كُلَّ حَيَاتِهِمْ تَحْتَ الْعُبُودِيَّةِ» (عبرانيين ٢: ١٤ ، ١٥).

والشعاع الثالث من نور القيامة هو تحقيق قيامة المؤمنين بالمجد، لأن قيامة المسيح مثالٌ وعربون لذلك. وبهذا المعنى يُسمّى المسيح «بِكُرٍّ مِنَ الْأَمْوَاتِ» (كولوسي ١: ١٨). لأنه أول من مات وقام لكي لا يعود إلى الموت .

والشعاع الرابع من نور القيامة هو أن قيامة المسيح مقدمة لصعوده في جسده الممجد ليجلس إلى الأبد كابن الإنسان وابن الله عن يمين العرش الإلهي في السماء، يمارس عمله الشفاعي، ويُنِيرُ بِمَجْدِهِ الْبَهِيِّ الدِّيارَ السَّمَاوِيَّةَ. فلا عجب إذا كتب الرسول بولس إلى الكنيسة في فيلبي أنه يحسب كل شيء خسارة ونفاية لكي يعرف قوة قيامة يسوع المسيح (فيلبي ٣: ٨).

والشعاع الخامس هو تعزية الحزاني الذين يموت أعزائهم ممن لهم الحق بالطوبى القائلة: «طُوبَى لِلْأَمْوَاتِ الَّذِينَ يَمُوتُونَ فِي الرَّبِّ مُنْذُ الْآنَ - نَعَمْ يَقُولُ الرُّوحُ، لِكَيْ يَسْتَرِيحُوا مِنْ أَنْعَابِهِمْ، وَأَعْمَالُهُمْ تَتَّبِعُهُمْ» (رؤيا ١٤: ١٣) لأن هؤلاء الحزاني لهم أيضاً الطوبى الأخرى «طُوبَى لِلْحَزَانَى، لِأَنَّهُمْ يَتَعَزَّوْنَ» (متى ٥: ٤).

كان المسيحيون في زمان الرسل والآباء يلبسون الأبيض عند موت ذويهم، إشارة إلى مجد قيامتهم العتيدة، ويحسبون يوم موت المؤمن يوم ميلاده، ومن جملة أعمال المسيح المجيدة وعده للمؤمنين أن يمسح كل دمة من عيونهم، فيقول كل مؤمن مع بولس: «لَأَنَّ لِي الْمَوْتَ هُوَ رَيْحٌ» (فيلبي ١: ٢١) لأن المؤمن سيقوم ببناء على قيامة المسيح .

المسيح يصعد للسماء

«وَلَمَّا قَالَ هَذَا ارْتَفَعَ وَهُمْ يَنْظُرُونَ، وَأَخَذَتْهُ سَحَابَةٌ عَنْ أَعْيُنِهِمْ. وَفِيمَا كَانُوا يَشْخَصُونَ إِلَى السَّمَاءِ وَهُوَ مُنْطَلِقٌ، إِذَا رَجُلَانِ قَدْ وَقَفَا بِهِمْ بِلِبَاسٍ أَبْيَضَ وَقَالَا: «أَيُّهَا الرِّجَالُ الْجَلِيلِيُّونَ، مَا بِالْكُمُ وَاقْفِينَ تَنْظُرُونَ إِلَى السَّمَاءِ؟ إِنَّ يَسُوعَ هَذَا الَّذِي ارْتَفَعَ عَنْكُمُ إِلَى السَّمَاءِ سَيَأْتِي هَكَذَا كَمَا رَأَيْتُمُوهُ مُنْطَلِقاً إِلَى السَّمَاءِ». حِينَئِذٍ رَجَعُوا إِلَى أُورُشَلِيمَ مِنَ الْجَبَلِ الَّذِي يُدْعَى جَبَلِ الزَيْتُونِ، الَّذِي هُوَ بِالْقُرْبِ مِنْ أُورُشَلِيمَ عَلَى سَفَرِ سَبْتٍ» (أعمال ١: ٩-١٢).

بعد أن أكمل العمل الذي كان يستدعي وجود المسيح جسدياً وظاهراً بين الناس، هيا المسيح تلاميذه للفراق الجسدي النهائي. فبعد عودتهم إلى اورشليم طاعةً لأمره، ظهر لهم وأخرجهم إلى بيت عنيا إلى مكان في جبل الزيتون، وهناك رفع يديه وباركهم، ثم انفراد عنهم وارتفع وصعد إلى السماء وهم ينظرون، وأخذته سحابة عن أعينهم. وبينما هو منطلق وقف أمامهم ملاكان بهيئة رجلين بلباس أبيض وقالوا لهم: «أيها الرجال الجليليون، ما بالكم واقفين تنظرون إلى السماء؟ إن يسوع هذا الذي ارتفع عنكم إلى السماء، سيأتي هكذا كما رأيتموه منطلقاً إلى السماء». حينئذ سجدوا له بعد أن زاد يقينهم بوحدته مع الله.

ثم رجع التلاميذ من الجليل إلى المدينة بفرح عظيم. وكانوا كل حين في الهيكل يسبحون الله. رجعا بفرح عظيم على رغم خسارتهم الجسيمة في فقدهم حضور المسيح جسدياً معهم. وفرحوا لأن عمل سيدهم الخطير قد كمل. وفرحوا لأنه سلمهم عملاً يتبع عمله ويؤيده، وأرسلهم كما أرسله الأب. وفرحوا لتأكيدهم لهم أنه يكون معهم كل الأيام، وفرحوا لأنه وعدهم بقوة كافية ليكونوا شهوده إلى أقصى الأرض.

وكان من أعظم الأسباب الموجبة للفرح حينئذ، بشارة الملاكين برجوع سيدهم ثانية إلى العالم. كان المسيح قد قال هذا كثيراً، لكن الأرجح أن تأثير هذا الكلام في التلاميذ كان ضعيفاً، فكان قول الملاكين ضرورياً ومناسباً في ساعة افتراقه عنهم. وموضوع مجيء المسيح ثانية بالمجد من أهم المواضيع لكنيسة المسيح الآن. هذا رجاء الكنيسة العظيمة، ولو أننا لا نعرف موعده. ولا يجوز الجزم بتفاصيل مجيئه متى جاء، لأن الكلام الحرفي لا يفصل عن الكلام المجازي في النبؤات المختصة بمجيئه. ومع ذلك فإن صلاة المؤمنين الأمانة المنتبهين إلى وصايا سيدهم هي التي وردت في آية خاتمة الإنجيل: «يَقُولُ الشَّاهِدُ بِهِذَا: «نَعَمْ! أَنَا آتِي سَرِيعاً». آمِينَ. تَعَالَ أَيُّهَا الرَّبُّ يَسُوعُ» (رؤيا ٢٠: ٢٢).

التلاميذ يكرزون

«ثُمَّ إِنَّ الرَّبَّ بَعْدَمَا كَلَّمَهُمْ ارْتَفَعَ إِلَى السَّمَاءِ، وَجَلَسَ عَنْ يَمِينِ اللَّهِ. وَأَمَّا هُمْ فَخَرَجُوا وَكَرَّزُوا فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَالرَّبُّ يَعْمَلُ مَعَهُمْ وَيُثَبِّتُ الْكَلَامَ بِالْآيَاتِ التَّابِعَةِ» (مرقس ١٦: ١٩ ، ٢٠).

بعد صعود المسيح خرج التلاميذ ليكرزوا في كل مكان، والرب يعمل معهم ويثبت الكلام بالآيات التابعة، لأن سيدهم بسط فوقهم من عرشه السماوي بساط حمايته، ولم يسمح لأعدائه أن يفعلوا بهم في تلك الأيام كما فعلوا به. ومع أننا لا نعلم ماذا حفظوا وماذا نبذوا من اصطلاحات العبادة اليهودية في ترددهم إلى الهيكل، إلا أنهم قدموا أهمّ التقدّمات والذبائح المرضية لله، أي تقدّمات الروح المنكسرة، وذبائح الحمد والشكر (مزمو ٥١: ١٧ ، عبرانيين ١٣: ١٥).

ولئلا نظن أن هذه الأخبار هي كل ما يهمّ في تاريخ المسيح. قيل في خاتمة البشارة الرابعة: «وَأَشْيَاءُ أُخَرُ كَثِيرَةٌ صَنَعَهَا يَسُوعُ، إِنْ كُنْتُمْ وَاحِدَةً وَاحِدَةً، فَلَسْتُ أَظُنُّ أَنَّ الْعَالَمَ نَفْسَهُ يَسَعُ الْكُتُبَ الْمَكْتُوبَةَ» (يوحنا ٢١: ٢٥). هذه نهاية أخبار هذا الشخص الفريد الإلهي، مدة وجوده ظاهراً على الأرض.

كان لقبه المعروف بين الناس «المعلم» في سنيه الثلاث ونصف وهو يمارس وظيفته، كان عمله الأكثر والأعظم ليس المعجزات بل التعليم.

علّم المسيح أن الإله الواحد الذي هو روح، هو أب البشر جميعاً، وأنه يحبهم بالرغم من شرورهم. وأن الأصل في الدين ليس ما يعمل الإنسان طاعة وإرضاء لله، بل ما يعمله الإله للإنسان وما يهبه له حباً. علّم أن الأعمال البشرية مهما حسّنت ولا تمنح من يقوم بها خلاص النفس، لأن الخلاص يُعطى فقط بالإيمان، بالذبيحة التي قدّمها المسيح لما قدم نفسه، وأن قيمة الدنيا وكل ما فيها زهيد جداً بالنسبة إلى الصلاح الحقيقي والرضى الإلهي، وأن الدين لا يقوم بالطقوس والفرائض الخارجية، لأن هذه مهما كانت حسنة وضرورية ليست سوى الثوب الخارجي اللائق للدين، لأن جوهر الدين داخلي وروحي، ومركزه الحقيقي في القلوب لا في الأبدان حتى ولا في العقول. وأن الرياء والنفاق في الدين، أي التظاهر بما ليس في القلب هو أكره جميع أنواع الشر لدى الله. وأن الخطاة أقرب إلى ملكوت السماوات من رؤساء الدين إن كانوا مرّاثين، وأن خدمة الإنسان لغيره أساس عظّمته الحقيقية، وأن الإكرام ليس للمتكبر بل للمتواضع، وأن الأصل في كتاب الوحي هو روح كلامه لا حرفه، وأن لا يجوز إضافة التقاليد البشرية إلى التعاليم الإلهية كقانون يربط الضمير.

المسيح حي هنا والآن :

إنجيل يسوع المسيح هو لكل العالم وإلى كل الأيام حتى انقضاء الدهر. ليس هو مجرد خبر عن أمور ماضية وشخص غائب، كغيره من أخبار العظماء، بل هو إعلان بمخلص حاضر وبأمور حالية تهتم كل إنسان. ففوق ضجيج أعظم أنواء الحياة، يسمع المؤمن صوت هذا العظيم قائلاً: «لا تخف. أنا هو الأول والآخر، الكائن والذي كان والذي يأتي، وها أنا حي إلى أبد الأبدين. ثق يا بني، أنا قد غلبت العالم. بحسب إيمانك ليكن لك». ويشعر بلمس يديه القادرتين، ويعلم أن لمسهما يمنحه الشفاء والحياة، لأنه بمعرفته يجد الحياة الأبدية. والذي يدرس سيرة يسوع المسيح يجد أن كثيراً من القياسات البشرية لا تصح فيه، فيشعر بأن هذا الخروج عن تلك القياسات نتيجة لازمة عن طبيعته الأخرى الإلهية الحقيقية.

ينال المؤمن من رفيقه «عمانويل» العزاء في زمان الوحشة، والفرج في زمان الضيق، والتشجيع في ساعة الخوف، والتحذير في ساعة التجربة، والتوبيخ في ساعة السقوط، والتنشيط في ساعة العمل، والهدى والتدريب في ساعة الحيرة والشك والقصور، والمغفرة في ساعة التوبة، والمديح في ساعة الانتصار.

بعد أن سمعنا تهليل الملائكة حول مهده، ورأينا شهادة نجم المجوس لعظمته، وفتح السماوات ليحل الروح القدس عليه عند نهر الأردن، ومجيء الصوت من السماء الذي أعلن مقامه عند الله، وخدمة موسى وإيليا له من السماء، وصوت الأب ثانية لابنه الحبيب على جبل التجلي، يقول: «هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت، له اسمعوا». والصوت الثالث الإلهي في دار الهيكل في أسبوع الآلام يقول «مجدت وسأمجد أيضاً». وخدمة الملائكة له في بستان جثسيماني، وإظلام الشمس وزلزلة الأرض وشق الصخور وفتح القبور في الجلجثة، والزلزلة الثانية التي أفزعت الحراس. والملاك الذي دحرج الحجر عن باب القبر، وظهورات الملائكة المتكررة حول القبر، وظهوراته العشرة لتلاميذه بعد قيامته، ثم سهولة صنعه معجزاته طول أيامه ووفرة عددها وبهجة أسلوبها، وكمالاته الأخلاقية والروحية، ثم صعوده الممجد إلى السماء في مركبته السحابية، وجلوسه عن يمين الله.. بعد مشاهدتنا هذه كلها نفهم فاتحة يوحنا البشير لما كتب: «فِي الْبَدْءِ كَانَ الْكَلِمَةُ، وَالْكَلِمَةُ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ، وَكَانَ الْكَلِمَةُ اللَّهُ.. وَالْكَلِمَةُ صَارَ جَسَداً وَحَلَّ بَيْنَنَا، وَرَأَيْنَا مَجْدَهُ، مَجْداً كَمَا لَوْحِدٍ مِنَ الْآبِ، مَمْلُوءاً نِعْمَةً وَحَقّاً» (يوحنا ١: ١، ١٤).

في تعاليم المسيح وتأثيرها الفائق الوصف، وفي حبه الصبور المتفاني، ولطفه الحنون المتسامح، كما في غضبه الحاد الصالح، وتوبيخه المرّ الصادق، وفي احتماله العجيب المتناهي لمحبيه ومبغضيه، ثم في انتصاره التام على كل المكائد العدوانية، وكل ذلك لخلاص البشر، نرى الأساس الكافي لخاتمة البشارة ذاتها لما كتب يوحنا: «وَأَمَّا هَذِهِ فَقَدْ كُتِبَتْ لِتُؤْمِنُوا أَنَّ يَسُوعَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ، وَلِكَيْ تَكُونَ لَكُمْ إِذَا آمَنْتُمْ حَيَاةً بِاسْمِهِ» (يوحنا ٢٠: ٣١).

مسابقة الكتاب

عزيزي القارئ،

إن أرسلت إلينا إجابة صحيحة على عشرين سؤالاً من الأسئلة الخمسة والعشرين التالية، نرسل لك كتاباً جائزة من كتبنا المختلفة. نرجو أن ترسل مع الإجابة اسمك وعنوانك وضحين لمرسل لك الجائزة .

- 1 ما معنى اسم جثسيماني؟ ما هو المعنى الذي تستفيده من هذا الاسم في ما جرى للمسيح؟
- 2 اكمل العبارة الآتية: «رأى التلاميذ على جبل التجلي شمس عظمة» المسيح في أفقها الأرضي. وها هو في جثسيماني يريهم .
- 3 ماذا فعل شيوخ اليهود ليتأكدوا أنهم يقبضون على المسيح وليس على شخص آخر غيره؟
- 4 ماذا تتعلم من قول المسيح ليهودا في البستان: «يا صاحب، لماذا جئت؟»؟
- 5 قطع بطرس أذن ملخس، ولكن المسيح شفاه. ماذا تتعلم من هذا؟
- 6 سأل رئيس الكهنة المسيح: أنت المسيح ابن الله؟ - ماذا كان جواب المسيح؟
- 7 اكتب كلمات الآيات التالية: مزمو ٣٢: ١ ، إشعياء ١: ١٨ ، ٤٣: ٢٥ .
- 8 كيف شرح المسيح لبيلاطس أن ملكوته روحي؟
- 9 ماذا تعرف عن باراباس؟
- 10 ماذا قالت زوجة بيلاطس لزوجها وقت محاكمة يسوع؟
- 11 اذكر أربع كلمات من الكلمات السبع التي نطق بها المسيح على الصليب.
- 12 لماذا طلب بالمسيح من بنات اورشليم أن يبكين على أنفسهن وعلى أولادهن؟

- 13 ماذا رأى اللص التائب في المسيح حتى قال له: «اذكرني يا رب متى جئت في ملكوتك»؟
- 14 لماذا قال المسيح: «إلهي إلهي لماذا تركتني»؟
- 15 ماذا قال قائد المئة الذي أشرف على عملية الصلب عن المسيح؟
- 16 كيف تأكد بيلاطس ورؤساء اليهود أن المسيح قد مات فعلاً وهو على الصليب؟
- 17 ما هي النبوة التي تحققت عند دفن المسيح في قبر يوسف الرامي؟
- 18 كيف تأكد بطرس ويوحنا أن المسيح قد قام فعلاً من الموت؟
- 19 من أول شخص رأى يسوع بعد قيامته من الأموات؟
- 20 اشرح لماذا يستحيل أن يسرق التلاميذ جسد يسوع.
- 21 كيف عرف تلميذا عمواس المسيح؟
- 22 لماذا قدس المسيح يوم الأحد بدل السبت؟ اذكر براهين ذلك.
- 23 كيف قشع المسيح شكوك توما؟
- 24 اذكر ثلاثة أشعة من أنوار القيامة.
- 25 ماذا قال الملاكين للتلاميذ بعد صعود المسيح؟
- أرسل الإجابة فقط بدون تعليقات أخرى لئلا تُهمل. ونحن بانتظار إجابتك.

الخدمة العربية للكراسة بالإنجيل هي هيئة إرسالية شغفها نشر كلمة الله في العالم العربي عبر الإنترنت وعبر وسائل إلكترونية أخرى. وتقوم بتوزيع الكتاب المقدس مجاناً للجالية العربية في أميركا الشمالية والقطر العربي وبلدان العالم. بالإضافة إلى مجموعة من الأقراص المضغوطة التي تحتوي على كتب روحية، عظات، تراتيل والكتاب المقدس. لمزيد من المعلومات الرجاء الإتصال بنا.

يحفظكم الله ويملاً حياتكم بالصحة والسعادة والسلام.

أسرة الخدمة العربية للكراسة بالإنجيل